مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلَّدُ الخَامِسُ والسّتّون

من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ الخَامِسُ والسِّتُّون

من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ القِيَامَةِ

سُورَةُ القِيَامَةِ

التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة، والقرطبيّ، والسّيوطيّ[1]، أنّ سورة القيامة مكّيّةٌ بإجماعٍ أهل التأويلِ[2]، ولا شكّ أنّ موضوعات السّورة وأساليبها التي قامت عليها تشهد بمَكّيَّتها.

وعددُ آياتها حسب العدِّ الكوفيِّ أربعون آيةً، وهو المُثبتُ في مصحف المدينة المنورة، وتسعٌ وثلاثونَ في عدِّ الباقينَ[3].

ترتيبُ النّزول وترتيب المُصحف:

سورةُ القيامةِ من أواسطِ ما نزلَ في مكّةَ

سورةُ القيامةِ هي السّورةُ الخامسةُ والسبعون في ترتيبِ المُصحفِ الشَّريفِ، وهو التّرتيبُ الثّابتُ في المصحفِ، والمُعوَّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ المُدَّثِّر والإنسان، وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فهي الواحدة والثّلاثون نزولًا بعد القارعة وقبل الهُمَزة[4].

وترتيبها في النزول الحاديةُ والثلاثون، وقد نزلت سورةُ القيامةِ بعد سورة القارعةِ، وقبل سورةِ الهُمَزَةِ[5].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 401، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 91، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 42.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 4/ 509، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 28/ 105، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 401، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 343.

(3) الدّانيّ، البيان في عد آي القرآن، ص: 259، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 490، والسّخاويّ، جمال القرّاء: 1/ 201.

(4) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 188، وعبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 237.

(5) ابن الضُّرَيْس، فضائل القرآن، ص: 33، والبيهقيّ، دلائل النبوة: 7/ 142، والزركشيّ، البرهان: 1/ 193، والسيوطيّ، الإتقان: 1/ 42، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 336، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 15/ 195.

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سورِ المُفَصَّل

هذه السّورة الكريمة من طوال المفصّل الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: (مَن سألَ عن القيامةِ، أو أرادَ أن يعرفَ حقيقةَ وقوعِها؛ فليقرأْ هذه السورةَ)[2].

اسم السّورةِ ومناسبة تسميتها:

اشتُهرت السورةُ بـ(القيامةِ)، ولا يُعرَف لها اسمٌ غيره

اتفقَ المفسرونَ على أنَّ هذه السورةَ المباركةَ لها اسمٌ واحدٌ تُعرَفُ به، وهو: سورةُ (القيامة)، وبهذا الاسم عُنْوِنَتْ هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة، فقد وردت تسمية السورة بسورة ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في صحيح البخاري[3]، وفي سُنن التّرمذيّ[4]، وفي المصاحف المَشرقيّة والمَغربيّة وفي جميع التفاسير[5]، ولم يُعرف أنّها ذُكرت باسمٍ غيره.

وترجع التَّسميةُ لوقوعِ القَسَمِ بيوم القيامةِ في أوَّلِها، ولم يُقسَمْ بهِ فيما نزلَ قبلَها من السّورِ[6]. وأشار بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّها تُسمَى سورةَ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ أو ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[7]، وهي تسميةٌ بالكلماتِ الأولى من السّورةِ.

---

(1) أخرجه أحمد في المُسند: (16982)، والطبرانيّ في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان: (2415) 352.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 478، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 401، والسّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 8/ 342.

(3) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة القيامة: 4/ 1876.

(4) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ القيامة: 5/ 430.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 336.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 336.

(7) الدّانيّ، البيان في عد آي القرآن، ص: 259، والسّخاويّ، جمال القرّاء: 1/ 201، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 490، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 41.

وقد سُميِّت السّورةُ بسورة القيامةِ لتَضَمُّنها غايةَ تعظيمِ ذلك اليومِ، الذي لا يتناهى ثوابُه وعقابُه، بحيثُ تتحسَّرُ فيه كلُّ نفسٍ على تقصيرِها، وإن عملتْ ما عملتْ. وأكدَّ ذلك أنَّها ذَكَرَتْ قيامَ الناسِ بعد الموتِ إلى ساحةِ الحسابِ، فاسمُ السّورةِ يشيرُ إلى العلاقةِ المُترابطةِ بين النَّفسِ البشريَّةِ ويوم القيامةِ، وأنَّ يوم القيامةِ يومٌ لا مَفرّ منه[1]. والحقّ أنّ اسمَها ارتبطَ بمحورِها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّ محورها يقومُ على تأكيدِ وقوعِ هذا اليومِ، وبيان أماراتِهِ وأحوالِ النّاسِ فيه.

المحور العام للسورة:

القـــيـــامـــةُ هـــي مـــحـــورُ السّـورةِ وسائرُ مـــوضـــوعـــاتِ الـسـورةِ تـدورُ حولَها

يتمثَّلُ المحورُ الأساس الذي تدورُ حولَهُ سورةُ القيامةِ في إثبات حقيقة البعثِ يومَ القيامةِ وأنَّهُ أمرٌ لا مَفَرَّ منه، والحديثِ عن القيامةِ، وما يقترنُ بها من أهوالٍ، وحالِ الإنسانِ في هذا اليوم العصيبِ، مُقارنةً بما كان عليه في الدنيا من غفلةٍ واستبعادٍ لهذا اليومِ، مع الدَّعوةِ إلى الاستعدادِ لها، وبيانِ القدرة الإلهية على الخلق أولَّ مرةٍ، فالقادرُ على الخَلْقِ أولَّ مرةٍ، قادرٌ على بعثِ الإنسانِ للحسابِ يوم القيامة[2].

ولذلك فإنّ هذه السّورة قد قام محورها على الأمور الآتية:

أوّلاً: تأكيد وتحقيق ما أنذرهم به نبيِّهم من حقيقة البعث والحساب بعد الموت، فبيّنت لهم بعض أمارات هذا اليوم الذي ينكرون وقوعه، واقتضاها ذلك أن تُبيِّن جزاء كلّ فريقٍ من المُثبِتين لوقوع يوم القيامة المُنكرين له.

ثانيًا: اقتضاها هذا المحور أن تُحدِّثَهم عن القيامة الصّغرى

(1) المهايميّ، تبصير الرّحمن: 3/ 479، ومجموعة من المؤلّفين، التّفسير الموضوعيّ لسور القرآن: 7/ 545، والغزاليّ، نحو تفسيرٍ موضوعيٍّ، ص: 489، وحسّان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة، ص: 622.

(2) حسّان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة، ص: 623، ومجموعة من المُؤلّفين، التّفسير الموضوعيّ لسور القرآن: 8/ 483.

التي يرونها كلّ يوم؛ ولكنّهم من جهالتهم وغفلتهم لا يربطونه بالقيامة الكبر، وبيَّنت لهم انتفاءَ العبثيّةِ في خلقِهم وبعثِهم فتُذكِّرهم بأصلِ خِلْقَتِهم.

رابعًا: دارتْ جميعُ مقاطعِ السّورةِ وموضوعاتِها حولَ القيامةِ، وما يتعلَّق بها من معانٍ رئيسةٍ وفرعيَّةٍ، ومُقدِّمات وتنبيهاتٍ من شأنها تحريكُ عقلِ المخاطَبِ نحو الحقيقةِ المُطلقَةِ التي لا تقبلُ الشَّكَّ من جهةِ الفطرةِ والعقلِ السَّليمِ غير المُتأثِّرِ بالشُّبهاتِ، ولا التابع للشَّهواتِ.

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

مَن أرادَ أنْ يعرفَ حقيقةَ القيامةِ فليقرأ سورةَ القيامةِ

اشتملتْ سورةُ القيامَةِ على عددٍ من الأغراضِ والمقاصِدِ، فاشتملتْ على إثباتِ البعثِ، والتذكيرِ بيوم القيامةِ وأشراطِه وأهوالِه، وتأثيرِ القيامةِ في أعيانِ العالمِ، وآدابِ سماعِ الوحيِ، والزَّجرِ عن إيثارِ منافعِ الحياةِ العاجلةِ على ما أعدَّ لأهلِ الخيرِ من نعيمِ الآخرةِ، والوعدِ باللِّقاءِ والرّؤيةِ، وإثباتِ الجزاءِ على الأعمالِ التي عملها النَّاسُ في الدنيا، واختلافِ أحوالِ أهلِ السعادةِ، وأهلِ الشَّقاءِ وتكريمِ أهلِ السعادةِ، والتَّذكيرِ بالموتِ وأنَّه أوَّلُ مراحلِ الآخرةِ، وتقريرِ القُدْرة على بعثِ الأمواتِ[1].

الخصائصُ الموضوعيّة للسورة:

تميّزتْ سورةُ القيامةِ بخصائصَ أفردتها عن غيرِها من السّورِ

تميزتْ سورةُ القيامةِ بعددٍ من الخصائصِ الموضوعيَّةِ التي لا تكادُ توجدُ في غيرها من سورِ القرآنِ الكريم، ومن أهمِّ هذه الخصائصِ:

أوّلاً: افتتاحُ السّورةِ بالقَسَمِ بيوم القيامة تأكيدًا لوقوعِه وتعظيمًا لشأنه؛ إذ افتتاحُ السّورةِ بالقَسَمِ مُؤذِنٌ بأنَّ ما سيُذْكَرُ بعدَه أمرٌ مُهمٌّ، لتستشرفَ لَه نفسُ السّامعِ كما هو الحالُ في سائرِ أقسامِ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 1/ 491، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 337.

القرآنِ، وفي الابتداءِ بالقَسَم بيوم القيامة براعةُ استهلالٍ؛ لأن غرضَ السّورةِ وصفُ يوم القيامةِ[1].

ثانيًا: القَسَمُ بالنَّفس اللَّوّامة، ووجهُ القَسَم بها التّنويه بشرفِها؛ فإنَّ المؤمن لا تراه إلّا يلومُ نفسه. وفيه كذلك معنى التّعظيم، من حيث إنّها النّفس أبدًا تستحقرُ فعلَها وجِدَّها واجتهادَها في طاعةِ اللّه، والتّقاعدَ عن الخيراتِ، وإنْ أحسنت، لحرصها على الزّيادة في الخيرِ، وأعمال البرِّ، تَيَقُّنًا بالجزاءِ، فكيف بها إنْ أخطأت وفرَّطت وبدرتْ منها بادرةُ غفلةٍ ونسيانٍ[2].

ثالثًا: الحديثُ عن تسويةِ البنانِ لبيانِ قدرته سبحانه على ما هو أعظم من جمع العِظام، وهو تسويةُ البَنان، فهو تعالى قادرٌ على أن يجمع بعضها إلى بعضٍ فيردّها كما كانت مع لطافتِها وصِغَرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبَّه سبحانه بالبنان، وهي الأصابعُ على بقيَّةِ الأعضاءِ، وأنَّ الاقتدارَ على بعثِها وإرجاعِها، كما كانت أَوْلى في القُدرةِ من إرجاعِ الأصابعِ الصغيرةِ اللَّطيفةِ المُشتملةِ على المفاصلِ والأظفارِ والعروقِ اللِّطافِ والعِظامِ الدِّقاقِ؛ فهذا وجهُ تخصيصها بالذِّكْر[3].

رابعًا: بيانُ آدابِ تلقّي القرآنِ وتلاوتِه؛ فقد كان النَّبيُّ ﷺ لشدَّةِ حرصِه على القرآنِ الكريم يُجهد نفسَه ويُردِّدُ ما يسمعُ خشيةَ أن يتفلَّت منه شيءٌ؛ فأرشدَه اللّه إلى ترك ذلك لتكَفُّلِه سبحانه بجمعِه وبيانِه، ووجهُ اختصاصِ السّورةِ بذلك ما حدث من النَّبيِّ ﷺ أثناء نزولِها؛ فاقتضى ذلكَ نزولَ التّوجيهِ الرّبانيِّ بحُسْنِ الاستماعِ والإنصاتِ[4].

خامسًا: النَّصُّ على رؤيةِ المؤمنينَ اللّه سبحانه صراحةً، وقد وردت نصوصٌ أخرَى في القرآنِ الكريم، لكنَّها محتملَةٌ، ولا توجدُ آيةٌ في القرآنِ تدلُّ على الرُّؤيةِ أصرحُ من قولِ اللّه تعالى في هذه السّورة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فالنَّظر وردَ مُتعدّيًا إلى مفعولِه بـ﴿إِلَىٰ﴾، فيكونُ معناه الرّؤيةُ بالاتفاقِ، وذُكِرَ هَهُنا لبيانِ الحالِ التي وصَلَ إليها المؤمنون من النَّعيم في مقابلةِ حالِ المُشركينَ المُكذِّبينَ يوم القيامةِ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 337.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 719.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 94.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 15/ 202.
(5) الميهيّ، تأمُّلات في سورة القيامة، ص: 6578.

سادسًا: الحديثُ عن التفافِ السّاقِ بالسّاقِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾، والمُرادُ إمّا التفافُ ساقي الميتِ عند الاحتضار، أو اتّصال الدّنيا بالآخرة، أو الشِّدَّة بالشِّدَّة والبلاء بالبلاء، وهو شدَّةُ كربِ الموتِ بشدةِ هولِ المَطْلَع، ووجهُ الاختصاصِ فيه ورودُه في سياقِ وصفِ أحوالِ المُحتضِرِ وأهوالِ الاحتضارِ، والكنايةُ به عن اشتدادِ الخَطْبِ وهَوْلِ الموقفِ[1].

الخصائصُ الأسلوبيّة للسورة[2]:

أوّلاً: تميَّزتِ السّورة الكريمة ببراعةِ الاستهلال، فبدأتْ بالقَسَم، ولم يُشابهها في مطلعها سوى سورة البلد، أمّا صيغةُ نفي القَسَمِ نفسها؛ فقد وردت في أثناء خمسِ سورٍ أخرى[3] غير هاتيْن السّورتيْن، والأرجحُ عند العلماء في معنى هذه الصّيغ أنّها تُثبتُ القَسَمَ وتُؤكِّده، وتأتي في مواضعَ تربطُ أمورًا غيبيّةً بأمورٍ حِسّيَّةٍ ومُشاهَدةٍ.

ثانيًا: برزتْ في السّورةِ الكريمةِ ظاهرة الطّباق، حيث وردت بين ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، وبين ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، وبين الإحياء والإماتة، وبين التّقديم والتّأخير، وبين ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ و﴿ٱلْآخِرَةَ﴾، وبين التّصديق والتّكذيب، وبين ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و﴿بَاسِرَةٌ﴾، وبين الذَّكَر والأُنثى.

ثالثًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الجناس بكلِّ أنواعه مثل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾، وكذلك برزت في فواصلها الألفاظُ المُتَّسقةُ التي تُعطي السّامع إيقاعًا موسيقيًّا مُميّزًا.

رابعًا: برز في السّورةِ الكريمةِ قاموسٌ لفظيٌّ يتعلَّق بالإنسانِ مثل: (النَّفس، العِظام، البَنان، البَصَر، اللِّسان، الوجوه، التّراقي، السّاق، المَنيّ، النُّطفة، العَلَقَة، الزّوجين، الذَّكر، الأنثى، الإحياء، الإماتة)، فضلًا عن تكرُّر لفظ الإنسان ستّ مرّاتٍ.

(1) حسّان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة، ص: 625، ومجموعة من المُؤلِّفين، التَّفسير الموضوعيّ لسور القرآن: 8/ 484.

(2) حسّان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة، ص: 625، ومجموعة من المُؤلِّفين، التَّفسير الموضوعيّ لسور القرآن: 8/ 484.

(3) لإبراهيم لبيب في كتابه: أساليب التأثير النفسي في سورة القيامة، تفاصيل مفيدة إضافة على ما سيُذكر، يحسن الرجوع إليه لمن أراد الاستزادة.

خامسًا: برز في أساليب السّورة أسلوبُ الاستفهامِ الإنكاريّ والتّقريريّ؛ حيث ورد نحو سبعِ مرّاتٍ[1]، وهذا الأسلوب مُتناسقٌ مع محورها في إقامة الحُجج والأدلّة على ثبوت وقوعِ يومِ القيامة.

سادسًا: برز في السّورةِ الكريمةِ أسلوبُ الكناية، ومنه ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 1 - 2] كناية عن المبالغة في توكيدِ القَسَم، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: 3]، كناية عن إنكارِ البعث، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: 4] كنايةٌ عن إثباتِ البعثِ، وقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] كنايةٌ عن إنبائِهِ بكلِّ أعماله، وقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] كنايةٌ عن دخولِها الجنّة، وقوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ [القيامة: 24] كنايةٌ عن دخولها النّار، وقوله: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: 29] كنايةٌ عن هول المشهد، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36] كنايةٌ عن إنكار البعث والحساب، وغيرها.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمة باحتوائها أبنيةً صرفيَّةً لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾، و﴿لِيَفۡجُرَ﴾، و﴿بَرِقَ﴾، و﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾، و﴿وَزَرَ﴾، و﴿بَصِيرَةٞ﴾، و﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾، و﴿نَاظِرَةٞ﴾، و﴿بَاسِرَةٞ﴾، و﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾.

ثامنًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمةُ باشتمالها على ألفاظٍ فريدةٍ في مادّتها وبنائها الصّرفيِّ؛ وهي: ﴿تُحَرِّكۡ﴾، و﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾، و﴿سُدًى﴾، و﴿يُمۡنَىٰ﴾.

تاسعًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، وهذا بعضها: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 2]، وقوله: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: 5]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ [القيامة: 7]، وقوله: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: 214]، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: 15]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: 16]، وقوله: ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: 26].

مناسبة السورة لما قبلها:

يتمثّلُ وجهُ المناسبةِ بين سورةِ القيامةِ وسورة المُدَّثِّرِ في أنّ سورة القيامةِ بمثابةِ

(1) الآيات: 3، 6، 10، 27، 36، 37، 40.

الشَّرحِ والتَّفصيلِ لأحوالِ القيامةِ الواردةِ في عددٍ من المواضعِ في سورة المُدَّثِّر.

سورةُ القيامةِ تُفَصِّلُ ما أُجْمِلَ من أحوالِ القيامةِ في سورةِ المُدَّثِّرِ السّابقةِ لها

أمّا ربطها بآخر سورةِ المُدَّثِّر، فإنَّهُ لمّا قال سبحانه في آخرها: ﴿كَلَّآ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ [المُدَّثِّر: 53] بعد ذِكْرِ الجنّة والنّار، وكان عدمُ خوفِهم إيّاها لإنكارِهم البعثَ، وكان هذا اليومُ محلَّ إنكارِ الكُفّار ومثارَ استخفافِهم؛ فذَكَرَ في هذه السّورة الدَّليلَ على البعث من أوجُهٍ، ووَصَفَ يومَ القيامةِ وأهوالَه وأحوالَه، وذَكَرَ ما قبلَ ذلك من خروجِ الرّوحِ من البدنِ، ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخَلْقِ، فذكرت السّورةُ الأحوالَ الثلاثة، على عكس الترتيبِ الواقعيّ لهذه الأحوالِ.

وربطها بعضهم بمواطنَ أُخَرَ من سورةِ المُدثِّر، إذ تقدَّم قولُه تعالى: مُخبِرًا عن أهل الكُفر ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر: 46]، ثم تقدَّم في صدر السّورةِ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: 8 - 10]، والمُراد به يوم القيامة، والوعيد به لِمَن ذُكِر بعد في قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾﴾ [المُدَّثِّر: 11] ومَن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم، ثم تكرَّر ذِكْرُهُ عند جواب مَن سُئِل بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المُدَّثِّر: 42]، فبسط القول هنا في بيان ذِكْرِ ذلك اليوم وأهواله، وأُشير إلى حال منْ كذَّب به في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وفي قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، ثم أتبع ذلك بذِكْرِ أحوال الخلائق في ذلك اليوم ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 352، والبقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 84، ومَصاعد النَّظر: 3/ 139، والسّيوطيّ، تناسق الدُّرر، ص: 149، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 150.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢
أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن
نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ
يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة: 1 - 6]

مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لما قبلها:

الانـتـقـالُ من الإجــمــالِ إلى التَّفصيلِ ومن الـوظـيـفـةِ إلى بيانِها

لَمّا ذَكَرَ ﷻ الآخرةَ أوَّلَ سورة المدَّثِّرِ وخوَّفَ منها بالتّعبيرِ بالنّاقورِ، وذلك في قولِه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩﴾ [المدَّثِّر: 8 - 9]، ثم أعادَ أمرها آخرَها في قولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ [المدَّثِّر: 54 - 56]، ناسب أن تبدأ السّورة التّالية بذِكْرِ يوم القيامةِ، فأشار اللّه تعالى في أوَّلِ هذه السورةِ إلى تعظيم القيامةِ والتّهويل في أمرها بذكرِها وإثباتِ أمرها بعدم الإقسام - في وجه النفي -، لأنَّ الأمرَ غنيٌّ عن ذلك، أو بتأكيدِه - في وجه التأكيد؛ لأنّ الإثبات من طريق النّفي آكَدُ، كأنه ردَّ على المنكر أوَّلًا ثم أثبتَ القَسَم ثانيًا، وهذا تنبيهٌ للإنسانِ على قدرةِ اللّه تعالى على البَعث.

وإنَّ وظيفة المُدَّثِّر ﷺ قائمةٌ على تذكيرِ النّاس بالإيمانِ بالبعث، وأنَّه قادمٌ لا محالة، فكانت سورة القيامة كالمُبيِّنة لهذه الوظيفة العظيمة، فوجْهُ التناسب في كون القيامة امتدادًا دلاليًّا لما حوته سورة المُدَّثِّر.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾: (لوم) أصلٌ يدلُّ على العَتْبِ والعَذْلِ، تقولُ: لُمْتُه لَوْمًا، والرَّجل مَلومٌ. والمَليمُ: الذي يستحقُّ اللَّومَ. واللّوماءُ: الملامةُ، ورجل لوَمَةٌ: يَلومُ النّاسَ[1]، والتَّلاوُمُ: أن يلومَ بعضُهم بعضًا، والمُرادُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لوم)، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).

بـ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ على بناءِ المبالغةِ: النّفسُ التي اكتسبتْ بعضَ الفَضيلةِ، فتلومُ صاحبَها إذا ارتكبَ مكروهًا، فهي دون النّفس المُطمئنة، وقيل: بل هي النّفس التي قد اطمأنّت في ذاتها، وترشَّحت لتأديب غيرها، فهي فوقَ النَّفسِ المُطمئنَّةِ[1].

2) ﴿نُّسَوِّيَ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئَيْن، يُقال: هذا لا يُساوي كذا؛ أيْ: لا يُعادِلُه. وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمر؛ أيْ: سواءٍ[2]. وسَوَّيتُ الشَّيءَ فاستَوى؛ أيْ: قَوَّمتهُ فاستَقامَ واعتدلَ[3]. والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجُلٌ سَوِيٌّ: استوت أخلاقُه وخِلقَتُه عن الإفراطِ والتّفريطِ[4]. والمُرادُ في قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ القدرةُ على ضَمِّ سُلاماته على صِغَرِها ولطافتها بعضها إلى بعضٍ كما كانت من غيرِ نقصانٍ ولا تفاوت[5]؛ أيْ: إعادة خلقِ البَنانِ مُقَوَّمةً مُتْقَنَةً، بأدقِّ ممّا كانت عليه[6]، وقيل: المُرادُ بالتسويةِ أنْ نجعلَ كفَّه كخُفِّ الجملِ لا أصابع لها، وقيل: أن نجعل أصابعَه كلَّها على قدرٍ واحدٍ حتى لا ينتفع بها، وهو معنى يُضعِّفه السّياق[7].

3) ﴿بَنَانَهُۥ﴾: (بنَّ) في المضاعفِ أصلٌ واحدٌ، هو اللُّزومُ والإقامةُ، والإبنانُ: اللزومُ، يُقال: أبَنَّتِ السَّحابةُ: إذا لَزِمَتْ، وأبَنَّ القومُ بمحلَّةٍ: أقاموا، واشتقاقُ البَنانِ من قولهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقامَ؛ فالبَنانُ به يعتمدُ كلُّ ما يكون للإقامةِ والحياةِ[8]؛ لأنّ بها صلاحَ الأحوالِ التي يُمكن للإنسانِ أن يَبِنَّ بها؛ أيْ: يُقيم[9]. والمعنى المحوريُّ امتدادُ الشَّيءِ اللَّطيفِ من أصلِه أو فيه، والبنانُ اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، يُرادُ بهِ أطرافُ الأصابعِ في اليديْن، وواحدُ البَنانِ: بنانةٌ[10].

(1) الرّاغب، المُفردات: (لوم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(4) الرّاغب، المُفردات: (سوا).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 722.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 341، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(7) الرّاغب، المُفردات: (سوا)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 94.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بنن).
(9) الرّاغب، المُفردات: (بنن).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بنن - بنبن).

4) ﴿لِيَفۡجُرَ﴾: (فجر) أصلٌ واحدٌ، وهو التَّفتُّحُ في الشَّيءِ، من ذلك: الفَجْرَ: انفجارُ الظُّلمةِ عن الصُّبحِ. ومنه: انفجرَ الماءُ انفجارًا: تَفَتَّحَ. ثم كثُرَ هذا حتى صارَ الانبعاثُ والتَّفَتُّحُ في المعاصي فُجورًا؛ ولذلك سُمّيَ الكذبُ فُجورًا، ثم كَثُرَ هذا حتَّى سُمّي كلُّ مائلٍ عن الحقِّ فاجرًا، وكلُّ مائلٍ عندهم فاجرٌ[1]. وفَجَرَ الرجلُ القناةَ فجْرًا: شَقَّها، وفَجَرَ العبدُ فُجورًا: فسَقَ وزَنَى، وفَجَرَ الحالفُ فُجورًا: كَذَبَ[2]. والمعنى المحوريُّ: انبثاقُ المائعِ المُحتبِسِ باندفاعٍ وغزارةٍ فاتحًا فُرْجَة في محبسِهِ، ومنه: فجَرَ الرَّجل فُجورًا: انبعث في المعاصي؛ أيْ: شقَّ الحدودَ واعتداها[3]، وقولُه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾؛ أيْ: يريدُ الحياةَ ليتعاطَى الفُجورَ فيها[4]. وقيل: معناه: ليذنبَ فيها. وقيل: معناه: يذنبُ ويقولُ: غدًا أتوبُ، ثمَّ لا يفعلُ؛ فيكون ذلكَ فُجورًا لبذلِه عهدًا لا يَفي بِهِ[5].

5) ﴿أَيَّانَ﴾: (أين) أصلٌ يدلُّ على قُربِ الشَّيءِ. قالوا: آنَ لكَ يئِينُ أينًا[6]. و(الآنَ) اسمٌ للوقتِ الذي أنتَ فيه[7]. والمعنى المحوريُّ: لزومُ الأرضِ أو بُطءُ مفارقتِها، كحالِ المُعْيى والمُتْعَبِ وحالِ الحيَّةِ ونحوِها في الزَّحفِ. ومنه: (أين) الظّرفيَّةُ، إذِ الظّرفُ مكانٌ هو الأرضُ أصالةً، يستقرُّ فيه الشّيءُ المظروفُ. ومن الظّرفيَّةِ المكانيَّة تنقلُ إلى الظّرفيَّةِ الزّمانيَّةِ: آن يئِينُ: حان. و(أيّان): يُسْأل بها عن زمانٍ، كقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ [الأعراف: 187]؛ أيْ: متى تُرسَى، أيْ: تحُلّ وتقعُ[8]، وهي تقاربُ معنى (متى)، قال تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ [الأعراف: 187]، و﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ [الذّاريات: 12]، وقيل: هي من قولِهم: أيُّ، وقيل: أصلُه: أيُّ أوانٍ، أيْ: أيُّ وقتٍ، فحذفتِ الألفُ، ثم جعلتِ الواوُ ياءً، فأُدغِم فصار (أيّانَ)[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (فجر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فجر).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فجر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (فجر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أين).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أين).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أين).
(9) الرّاغب، المُفردات: (أيان).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ حتميَّةِ القيامةِ والبعثِ وكشفُ دخائلِ نفوسِ المُكذِّبينَ والمُنكِرينَ

بدأتِ السّورةُ بنفي القَسَمِ بهذا اليوم المشهودِ؛ لأنَّ المُرادَ بها هو التّلويحُ بالقَسَمِ دون إمضائِه، إذا كان الأمرُ المُقسَمُ عليه أوضحَ من أن يدلَّ عليهِ، وأنْ يؤكَّدَ فى الدّلالةِ عليه بقَسَمٍ، ثمَّ عطفَتْ بنفي القَسَمِ بالنَّفسِ اللَّوّامةِ، فلوَّحَتْ بالقَسَمِ بالنَّفسِ التي ترجعُ على صاحبِها باللّائمةِ لما يقعُ منه من إثمٍ، وما يقترفُ من ذنبٍ، وقد قُرِنَتِ النَّفسُ اللَّوّامةُ بيوم القيامةِ؛ لأنَّ ثمرةَ هذا اللَّومِ إنّما تظهرُ آثارُه يوم القيامةِ، ولولا الإيمانُ بيومِ القيامةِ لما راجع المرءُ نفسَه فيما أحدثَ من آثامٍ. ثمَّ عرضَتِ السّورةُ لسببِ استنكارِ الجاحدين المُكذِّبينَ ليوم القيامةِ وتشكيكهم في حتميَّتِه، وهو استبعادُ قدرةِ اللّه على أن يُقيمَ من هذا الرَّميم بَشَرًا سويًّا. فبيَّنتْ أن جمعَ هذه العظامِ التي أكلَها التُّراب، وأبلاها البِلى أمرٌ هيِّنٌ أمام قدرة اللّه تعالى، وأنَّ قدرتَه - تباركتْ آلاؤه - تمتدُّ إلى ما هو أعوصُ منه وأعقدُ في ظنِّ المُنكرينَ، وهو تسويةُ عظامِ البنانِ التي هي أدقُّ هذه العِظامِ، وأصغرها. ثمّ أضربتِ الآياتُ عن الاسترسالِ في إقامةِ الحُجَجِ والبراهينَ على قدرةِ اللّه على البعثِ إلى بيانِ الدّافعِ النَّفسيِّ لذلك المُنكِرِ المُكذِّبِ، فهو يسألُ سؤالَ المُنكِرِ المُستهزئِ: متى يكونُ يومُ القيامة هذا الذي جاءَ به الوعيدُ؟ وهو سؤالُ اتِّهامٍ لهذا اليومِ، وتكذيبٍ لِمَن يتحدَّثُ عنه أو يُخَوِّفُ منهُ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ بَراعةِ الاستهلالِ:

نفيُ القَسَمِ تنبيهٌ وإيقاظٌ لمعاني مُفتَتَحِ السّورة

استهَلَّ القرآن المجيد السّورةَ بالقَسَم في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إيذانًا بأنَّ ما سَيُذكرُ بَعدَه أمرٌ مُهمٌّ لِتَستشرِفَ لَهُ نفسُ السّامعِ. وكونُ القَسَمِ بيومِ القيامةِ براعة استهلالٍ؛ لأنَّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1311 - 1316.

غرضَ السورةِ وصْفُ يومِ القيامةِ. وفيه أيضًا كونُ المُقسَم بهِ هو المُقسَمُ على أحوالِه تنبيهًا على زيادةِ مكانتِه عند المُقسِم(1).

براعةُ استعمالِ ﴿لَآ﴾ قبل فعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾:

نفيُ الحاجةِ للقَسَمِ أبلغُ في إثباتِ المعنى وأوكدُ في تقريرِ حقيقتِهِ

تعدَّدتْ أقوالُ المُفسِّرينَ في معنى ﴿لَآ﴾ في قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، فقيل: إنَّها نافيةٌ لكلامٍ مُتقدِّمٍ مُقدَّرٍ، وقيل: إنَّها مزيدةٌ، وقيل: إنَّها حرفُ استفتاحٍ بمنزلة (ألا)، وقيل: إنَّها استفهاميَّةٌ على سبيل الإنكار والتقدير: (ألا أقسم بيوم القيامة)، وقيل: إنَّها نافيةٌ مؤكِّدَةٌ للقَسَمِ؛ أيْ: إنَّه لا يُقسمُ بالشّيءِ إلّا إعظامًا له، فبإدخالِ حرفِ النَّفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظامٍ، يعني أنّه يَسْتَأْهِلُ فوق ذلك(2).

وهذا هو أصحُّ الأقوالِ وأقربُها إلى دِقَّة نَظْمِ القرآن، وطريقة العرب في البيان، والتّأكيدُ عن طريقِ النَّفي ليسَ بغريبٍ. فأنت تقولُ لصاحبِكَ: (لا أوصيكَ بفلانٍ)، تأكيدًا للوَصيَّةِ ومبالغةً في الاهتمامِ بها؛ فتبلغُ بالنَّفي، ما لا تبلغُه بالطَّلبِ المباشرِ الصَّريحِ، فهي لِنفي الحاجةِ إلى القَسَمِ، لا لنفي القَسَمِ نفسهِ، والسرُّ البيانيُّ لهذا الأسلوبِ يعتمدُ على قوّةِ اللَّفتِ على ما يبدو بين النّفي والقَسَمِ من مفارقةٍ مثيرةٍ لأقصى الانتباه(3).

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرَآنيَّةِ في ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾:

اللّامُ إمّا جوابٌ لقَسَمٍ مُقدَّرٍ، أو فعلٌ مستقبلٌ على حذفِ النّونِ، أو للابتداءِ

وردَ في كلمة ﴿لَآ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قراءتانِ متواترتانِ، فقَرَأَ قُنبل والبزي بخلف عنه (لَأُقسِمُ) بغيَر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 337.

(2) القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النهاية: 12/ 7857، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 401، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 719، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 561 - 563، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 29/ 355 - 356.

(3) بنت الشاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 285، والتفسير البيانيّ للقرآن: 1/ 165 - 166، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 174 - 175، ولمسات بيانيّة، ص: 203 - 204، نقلاً عن كاظم فتحي الراوي، أساليب القسم في اللغة العربية، ص: 150، 151، وعزاه إلى بنت الشاطئ.

ألف بعد اللّام، والباقونَ بألفٍ[1]، وسبق بيانُ قراءة الجمهور، وقراءة قُنبل فيها أوجه، **أحدُها**: أنها جوابٌ لقَسَم مُقدَّرٍ، تقديرُه: واللّه لأُقْسِمُ، والفعلُ للحالِ؛ فلذلك لم تَأْتِ نونُ التّوكيدِ، **والثّاني**: أنه فِعلٌ مُستقبلٌ، وإنّما لم يُؤْتَ بنونِ التّوكيدِ؛ لأنَّ أفعالَ اللّه حقٌّ وصدقٌ؛ فهي غنيةٌ عن التّأكيدِ بخلاف أفعالِ غيره.

والثّالث: أنّها لامُ الابتداءِ، وليسَتْ بلامِ القَسَم. نحو: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ﴾ [النّحل: 124] والمعروفُ أنَّ لامَ الابتداءِ لا تَدْخُل على المُضارع إلاَّ في خبر (إنَّ)؛ نحو: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ﴾ [النحل: 124] وهذه الآيةُ نظيرُ الآيةِ التي في سورة يونس ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ [يونس: 16] فإنهما قرآها بقصر الألف. ولم يُختَلَفْ في قولِه: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أنّه بألفٍ بعد (لا)؛ لأنه لم يُرْسَمْ إلاَّ كذا، بخلاف الأولِ فإنّه رُسِمَ بدون ألفٍ بعد (لا)، وكذلك في قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1] لم يُختلَفْ فيه أنَّه بألفٍ بعد (لا)[2].

بَلاغَةُ الكِنايةِ عنْ تأكيدِ القَسَمِ بنَفْيِه:

عظمةُ مكانةِ يومِ القيامةِ، فكأنَّهُ لا أعظمَ منهُ عند الله تعالى

وصيغةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ صيغةُ قَسَم، أُدْخِلَ حرفُ النَّفي على فعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾ لقصدِ المبالغةِ في تحقيقِ حُرمةِ المُقْسَم بهِ، بحيثُ يوهمُ للسّامعِ أنَّ المُتكلِّمَ يَهُمُّ أن يُقسِمَ بهِ ثم يترك القَسَمَ رغبة عن الحنْث بالمُقْسَم به فيقولُ: لا أُقْسِمُ بهِ؛ أيْ: ولا أُقسمُ بأعزَّ منهُ عندي، وذلكَ كنايةٌ عن تأكيدِ القَسَم.

بلاغة تأكيدِ المدحِ بما يُشبه الذّمِّ:

أساليبُ البيانِ بمقاصدِها، ودقائقُ النّظمِ بمراميه

يرى ابن عاشور أنَّ قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فيه مُحسِّنٌ بديعيٌّ من قبيلِ ما يُسمَّى تأكيد المدح بما يُشبه الذَّمّ[3]، وهو قائلٌ به دون سابقٍ له؛ فهي من انفراداته البيانيّة، وذلك على جعل

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 282، وتحبير التّيسير، ص: 598.

(2) السَّمين، الدُّر المصون: 10/ 563 - 565، والكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 418.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 338.

نفي المُقسَم به بأنَّه عظيمُ المكانة، عزيز الجناب، فلا يحتاج إلى قسم، ولمّا كان من أغراض القَسَم تعظيم المُقسَم به - وعليه فالقَسَم مدحٌ - كان نفيُ القَسَم أشبه بنفي التّعظيم عمّا هو عظيمٌ؛ فأشبه الذّمَّ، ولكن لمّا كان نفيُ القَسَم أبلغَ من إثباته لأنَّه تأكيد تعظيمٍ وزيادة مدحٍ، كان ذلك من تأكيدِ المدح بما يُشبه الذّمَّ، وهذه من فرائد ابن عاشور، ودقائق نظره في مقاصد الأساليب.

تعدُّدُ الأغراضِ البلاغيَّةِ في آياتِ نفيِ القَسَمِ من دلائلِ الإعجازِ القرآنيِّ

أغراضُ نفيِ القَسَمِ في القرآنِ الكريمِ:

وردَتْ صيغَةُ نفي القَسَم في القرآنِ الكريم في سبعةِ مواضعَ بثمانيةِ أقسامٍ مَنفيَّةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقّة: 38 - 39]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ [التّكوير: 15]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ [الانشقاق: 16]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [البلد: 1].

وقد جاء نفيُ القَسَم في هذه المواضعِ لأغراضٍ[1] تُعلم من سياق الآيات، فكلُّ آيةٍ لها معناها الذي سيقت له، ومضمونها المُراد التّنبيه عليه، ونفي القَسَم إنّما يتبع ذلك بحسب القول المُعتَمَد في تفسير الآية، وهي دلالاتٌ متفاوتةٌ متعددةٌ متنوعةٌ، وقد سبق بيان غرضِ نفي القَسَم في هذا الموضع.

تجدُّدُ نفي القَسَمِ واستمرارِه لتنبيه مَن تتجدَّدُ غفلتُهم ويستمرُّ عنادُهم

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن القَسَم بالفعلِ المضارعِ ﴿أُقۡسِمُ﴾ وعدلَ عن صيغةِ المُضيِّ فلم يَقُلْ: (أقْسَمْتُ بيومِ القيامةِ)، وذلك للدّلالةِ على تجدُّدِ القَسَم واستمرارِهِ توكيدًا لمكانةِ هذا اليوم المهيب الذي يجمعُ اللّه فيه الخلائقَ أجمعينَ للحسابِ، ويُجازيهم بأعمالهم، إنْ

(1) سمية عناية، صيغة نفي القسم في القرآن، ص: 237 - 239.

خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌ، فالقَسَم بيوم القيامة مُستمرٌّ مُتجدِّد؛ لتنبيه الغافلين الذين تتجدَّد غفلتُهم، ويستمر عنادُهم.

نوعُ الباءِ ودلالتها:

القَسَمُ بيومِ القيامةِ للتّعظيمِ ولإرشادِ المتَّقينَ وزَجْرِ العاصينَ المُكَذّبينَ

جاءتْ باءُ القَسَم في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ للإلصاق، وذلك لإلصاقِ التَّعظيم بهذا اليوم الجليلِ وإرساءِ مهابته في نفوس المُتلقّينَ، فإنَّه سبحانه لا يُقسِمُ إلّا بما له مكانةٌ عظيمةٌ عنده، إرشادًا للمُتّقينَ، وزجرًا للعاصينَ المُكذِّبين.

غرضُ القَسَمِ بيومِ القيامةِ:

القَسَمُ بالشَّيءِ على نفسِهِ للدّلالةِ على عظيمِ الخَطَرِ وكبيرِ الشَّأنِ

جرتِ العادةُ على القَسَم بالأشياءِ التي عَظُمَ خطرُها، وجلَّ قدرُها في القلوبِ؛ وجلالةُ خطرِها يكونُ بأحدِ وجهيْن: إمّا بما كثُرَتْ منافعُها؛ فيكونُ خطرُها مُشاهَدًا معروفًا، أو بعِظَم خطرِها بالدَّلائلِ والأخبارِ، وعِظَم يومِ القيامةِ بما جَلَّ خطرُه في القلوبِ؛ وثَبُتَ القولُ بكونِه بالدّلالاتِ والبراهين. وقد أقسمَ اللّه سبحانه بأشياء لتأكيد ما يُعْرَفُ بيانُه ويَجِبُ القولُ به، لولا القَسَمُ لو أُمعنَ النَّظر فيه؛ وأُعملت فيه الرويَّة؛ لذلك استقام القَسَم بها[1]. وقدْ أقسم سبحانه بيوم القيامةِ على ثبوتِ البعثِ وقيامِ الخَلقِ للحسابِ، فأقسَمَ بالشَّيءِ على نفسِه، لما فيه من الدّلالةِ على عظَمَتِه وخَطَرِه، وقد ورد هذا الأسلوب في قولِه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف: 1 - 3][2].

نَوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

يومُ القيامةِ ظرفٌ لما يجري فيه من العدلِ والفَصْلِ بين الخلائقِ

أضافَ النّظمُ الحكيمُ لفظَ (يوم) إلى ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، والإضافةُ هَهُنا إضافةٌ معنويَّةٌ أكسبتِ اليومَ نوعًا من التَّخصيص، إذِ الأصلُ: (لا أُقْسِمُ باليومِ الذي تقومُ فيه القيامةُ)، فعدلَ عن ذلك إلى ﴿بِيَوۡمِ

(1) أبو تمّام، ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التّبريزيّ: 2/ 287، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 338، و(الإغريضُ): الطَّلْعُ وقيل البَرَدُ، و(تومٌ): جمع تؤمةٌ وهي اللّؤلؤة العظيمةُ.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 335.

﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾، فالإضافةُ هُنا للدلالةِ على الظّرفيّةِ الزّمانيَّةِ، وذلك بوصفِهِ ظرفًا لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة[1].

مَعنَى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾:

القيامةُ بديهةُ العقولِ واعترافُ القلوبِ، ولا يُنكرها إلّا فاسدُ الطَّبعِ

جاءتْ لام التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ للعهدِ الذّهنيِّ، إذ لم يسبقْ لها ورودٌ في السّورةِ الكريمةِ، والتَّعريف بلام العهدِ الذّهنيِّ يشيرُ إلى أنَّ يومَ القيامةِ من الأمورِ البديهيَّةِ المُستقرَّةِ في الأذهانِ، فلا مجالَ لإنكارِهِ أو جحدِهِ.

توجيهُ تخصيصِ اسم ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ بالذِّكْرِ:

يومُ القيامةِ هو الاسمُ العلمُ على البعثِ وهو الأنسبُ بمحورِ السّورةِ

آثَرَ القرآن المجيد التعبيرَ بـ(يوم القيامَةِ) دون غيرِه من الأسماءِ كيومِ الحسابِ واليومِ الآخِرِ، وذلك باعتبارِ أنَّ ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ هي الاسمُ العَلَمُ على ذلك الحدثِ الكونيِّ، فقد وردَ في القرآنِ في سبعينَ موضعًا، فهو الأصل في الاستعمال، فالقيامةُ عبارةٌ عن قيام الساعةِ، وأصلُها ما يكونُ من الإنسانِ من القيام دَفْعَةً واحدةً، أُدْخِلَتْ فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعها دَفْعَةً. فأرادت الآيةُ الإخبارَ عمّا يكون للمُنكرينَ الجاحدينَ، بقطع النظر عن تخصيص بقيَّةِ الأوصاف بالذِّكرِ، إذ القضيةُ المحوريَّةُ في السّورةِ هي إثباتُ البعثِ وقيامُ الخَلْقِ للحسابِ والجزاءِ والعقابِ؛ ولذا فإنَّ التعبيرَ بالقيامةِ في هذا السّياقِ أقوى في الدّلالة، وأبلغُ في الترغيبِ وأرسخُ في التَّحذيرِ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

مقصودُ القيامةِ إظهارُ أحوالِ النفسِ اللَّوّامَةِ

عَطَفَ القرآن المجيد قولَه تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ على قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ بالواو، لاتفاقِهما في الإنشائيَّةِ غيرِ الطلبيَّةِ، وهي هَهُنا القَسَمُ، وقد اختلف العلماءُ والمُفسِّرون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 338.

في توجيه المُرادِ بالعطفِ على ثلاثةِ أقوالٍ، **الأوَّلُ**: أنَّهُ تعالى أقسمَ بالنَّفس اللَّوّامةِ كما أقسمَ بيومِ القيامةِ، فيكونانِ قَسَمَيْنِ، وفي العطفِ بالواوِ تأكيدٌ للجملة المعطوف عليها. **والثاني**: أنَّهُ أقسمَ بيوم القيامةِ، ولم يُقسم بالنفسِ اللَّوّامةِ، ويكون تقديرُ الكلامِ: أُقسِمُ بيوم القيامة ولا أُقسِمُ بالنفس اللَّوّامة[1]، تحقيرًا للنّفس اللّوّامة؛ لأنَّ النَّفس اللّوّامة إمّا أن تكون كافرةً بالقيامة مع عِظَم أمرها، وإمّا أن تكون فاسقةً مُقصِّرةً في العمل، وعلى التقديريْن فإنَّها تكون مُستحقرةً[2]. **والثّالثُ**: أنَّهُ نفَى القَسَمَ بهما معًا.

والقول الأوَّلُ أقربُ لمقصود النَّصّ؛ لأنَّ المقصودَ من إقامةِ القيامةِ إظهارُ أحوالِ النُّفوسِ اللّوّامة، في مصيرها إمّا بسعادتها أو شقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللَّوّامة هذه المناسبة الشّديدة، وكذلك فإنَّ القَسَمَ وقعَ بالنَّفسِ اللَّوّامةِ على معنى التّعظيم لها من حيث إنَّها أبدًا تستحقرُ فعلها وجِدَّها واجتهادها في طاعة اللّه[3]، ومناسبةُ القَسَمِ بها مع يوم القيامةِ أنّها النّفوس ذات الفوز في ذلك اليوم[4].

فائدةُ إعادةِ فعل القَسَم المَنْفيّ:

استقلالُ القَسَمِ بالنَّفسِ اللَّوّامةِ لا يدفع التّرابطَ بينها وبين القيامةِ

أعادَ القرآن المجيد فِعْلَ القَسَم في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ دون أن يقول: (لا أُقسمُ بيوم القيامة والنّفس اللّوّامة) للتّنبيهِ على أنَّ كُلًّا من المُقْسَم بهِ مقصودٌ مُستقلٌّ بالقَسَم، لما أنَّ له نوعَ فضلٍ يقتضي ذلك؛ لبيانِ شِدَّةِ لوم الإنسانِ لنفسهِ في الدّنيا والآخرةِ[5]؛ فإعادة ذِكْرِ فعل القَسَم المَنْفيّ لبيان استقلال كلِّ قَسَمٍ عن الآخر في ذاته، مع وجود الترابط بينهما.

(1) الماورديّ، النُّكتُ والعيون: 6/ 151.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 721.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 721.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 338.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 437.

دلالة تعريفِ لفظِ (النَّفْسِ):

جاءتِ اللّامُ في كلمةِ (النَّفسِ) لإفادَةِ تعريفِ الجنسِ؛ أي: الأنْفُسِ اللَّوّامةِ. وقيل: هي نفسٌ مُعيَّنةٌ، وهي نفس آدم ﵇ لم تزل لائمةً له على فعلِه الذي أخرجَه من الجنة[1].

دلالةُ لفظِ ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾:

يحتملُ لفظُ اللَّوّامة معاني متنوعةً، ووَصْفُ اللَّومِ ينطبقُ على جميعِها

اختُلف في تحديد المُرادِ باللَّوّامة؛ فقيل: هي خَيِّرَةٌ وشَرِّيرَةٌ، فالخيِّرةُ تكون سببًا للنّجاةِ فيه، والأخرى تكون سببًا للهلاكِ فيهِ، فإن لامت على الشَّرِّ أو على التّهاون بالخيرِ أُنْجيتْ، وإن لامتْ على ضدِّ ذلك أُهْلِكَت، وكيفما كانت لا بد أن تلوم، وهي بين الأمّارة والمُطمئنَّة، فما غلب عليها منهما كانت في حَيِّزه، فالمطمئنَّةُ التي انقادت لأوامرِ الله، والأمّارةُ المخالفةُ لها المتَّبعةُ للهوى، واللَّوّامةُ هي المجاهدةُ، فتارةً لها اليدُ وتارةً عليها؛ لأنَّها بين طوري الخيرِ والشَّرِ والكمالِ والنُّقصانِ، ولهذا جمع بينَ القيامةِ وبين اللَّوّامة؛ لأنَّ الثوابَ والعقابَ للآدمي دونَ الملائكةِ والحيواناتِ العُجْم، واللَّوّامةِ يشتدُّ لومُها في ذلك اليوم على عدمِ الخيرِ أو عدمِ الزّيادةِ منه[2]، وقيل: بل هي النَّفسُ التي قد اطمأنَّت فى ذاتها، وترشَّحت لتأديب غيرها، فهي النَّفس المُطمئنّة[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ:

كثرةُ اللّومِ شعورٌ بالخَسارةِ وإحساسٌ بالنَّدمِ

وصفَ القرآن المجيد (النَّفْس) بصيغةِ المبالغة ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ أنَّها النّفسُ التي تُكثِرُ لومَ صاحبِها على التّقصيرِ في التّقوى والطّاعةِ، ويتكرَّرُ منها هذا الفعلُ مرَّةً تلوَ الأخرى، وهذا اللومُ هو المُعبَّر عنه في الاصطلاحِ بالمُحاسبةِ، ولومُها يكونُ بتفكيرِها وحديثِها النفّسيِّ. قال الحَسَنُ: (ما يُرى المؤمن إلّا يلومُ نفسَه على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 343.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 86.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 470.

ما فات ويندمُ، يلومُ نفسه على الشَّرِّ، لِمَ فعلَهُ؟ وعلى الخيرِ، لِمَ لَمْ يَسْتَكْثِرْ منه؟)، فهذه نفوسٌ خَيِّرةٌ حقيقةٌ أن تَشرُفَ بالقَسَمِ بها، وما كان يومُ القيامةِ إلّا لِكرامَتِها[1].

فَنُّ صحّةِ التَّقسيمِ:

إقامةُ يومِ القيامةِ لجزاءِ النّفوسِ بما اكتسبتْ

في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فنُّ صِحَّة التّقسيم، أو ما يُسمَّى بالتَّناسب بين المعاني، فالآيةُ تُعدُّ من محاسن التّقسيمِ لتناسب الأمريْن المقسم بهما، فقد أقسمَ بيوم البعثِ أوَّلًا، ثمَّ أقسمَ بالنُّفوسِ المَجزيَّةِ فيه على حقيقةِ البعثِ والجزاءِ[2].

تعيينُ جوابِ القَسَمِ ورَبْطِه مع القَسَمَيْنِ:

توكيدُ قضيةِ البَعثِ هو المُرادُ بالقَسَمِ أو بنفي الحاجةِ إلى القَسَمِ

تعدَّدتْ أقوالُ المُعربينَ في تعيينِ جوابِ القَسَمِ لقولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، فقول الجمهور إنَّ جوابَ القَسَمَيْنِ محذوفٌ، وتقديره: لَتُبْعَثُنَّ، ويدلُّ عليه المُقسَمُ بِهِ وما بعدَه في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾. وقيل: إنَّ القَسَمَ وقع على قولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، فهو جوابُ القَسَمِ[3]، ويرى بعض المُعرِبين أنَّ هذا ليسَ بقَسَمٍ على الحقيقةِ، بل هو نفيٌ للقَسَمِ، فلا يحتاجُ إلى الجوابِ، فكأنَّه تعالى يقولُ: لا أقسمُ بكذا وكذا على شيءٍ، فإنَّ هذه الأشياءَ من العَظمَةِ والوضوحِ بحيث لا تحتاجُ إلى قَسَمٍ، ولكنّي أسألك: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟، ويرى الرّازيُّ أنَّهُ أقرب الوجوهِ[4]، وضعَّفهُ أبو حيّان، والسّمين[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 338.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 300.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 343، والسّمين، الدُّرّ المَصون: 10/ 565، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 29/ 356 - 357.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 721.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 344، والسّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 562.

علّةُ فصْلِ قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

بيانُ المعاني المُتقدِّم يقتضي الفَصلَ بين الجُمَلِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ عن قولِه سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، إمّا على أنّها استئنافٌ بيانيٌّ[1]، وإمّا أنّها جوابُ القَسَم على رأي القائلين به[2]، وإمّا أنّها بيانٌ لجواب القَسَم المُقدَّر فتكون من كمالِ الاتّصالِ.

بَلاغةُ الاستفهامِ وغَرضُه:

تقريرُ حقيقةِ البعثِ تقتضي توبيخَ الكافرِ وتجهيلَه

جاءَ الاستفهامُ بالهمزة في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ للتّقريرِ والتّوبيخِ[3]، والتّهديد الخفيِّ والوعيدِ غير المباشرِ، وفيه كذلك تجهيلٌ لِمَن حسبَ هذا الحسبان، وهو استفهامٌ مَجازيٌّ لصدوره عن اللّه سبحانه، والمُرادُ إنكارُ ذلك الحسبانِ؛ أيّ: حسبانُ الإنسانِ أنَّ اللّه لا يقدرُ على جمعِ عظام الموتى، يعنى: لا إحياءَ بعد الموتِ، فهو لإنكار الواقع من التّكذيبِ بالبَعْثِ[4].

نكتةُ إيثارِ التعبيرِ بمُفرَدَةِ الحُسْبانِ:

يُلحظُ في الحُسبانِ عدُّ المَظنونِ وهو المناسبُ لجمعِ العظامِ

آثرَ النَّظمُ التعبيرَ بمادَّةِ الحسبانِ دونَ الظَّنِّ، فلم يَقُلْ: (أيظنُّ الإنسانُ ألَّنْ نجمعَ عظامه)، وذلك لمناسبة سياق الآية، حيث تناولت الآيةُ جمعَ العظامِ وهذا أمرٌ يحتاج إلى حسابٍ وعَدٍّ، فحسبانُ الإنسانِ واقعٌ على جمع العظام، فهي تحتاج تصورًا حسابيًّا في كيفية جمعِ العِظامِ وإعادة بنائها، فالنفيُ مُتسلِّطٌ على جمع العظام، والظَّنُّ أعمُّ من الحسبان، فكلُّ حسبانٍ ظنٌّ دون العكسِ.

---

(1) صافي، الجدول: 15/ 168.

(2) السّمين، الدُّرّ المَصون: 10/ 565.

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 402، والصّاويّ، حاشيةٌ على الجلالَيْن: 7/ 256.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ (يَحْسَبُ):

الإنكارُ على المُنكرين مستمرٌّ في كلِّ وقتٍ وحينٍ

آثَرَ القرآن المجيد التّعبيرَ بالفعلِ المضارع (يَحۡسَبُ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، ولم يأتِ بصيغةِ المُضيِّ: (أحسبَ)، وذلك ليعمَّ الإنكارُ كلَّ الأوقاتِ الحاضرةِ والمستقبليّةِ؛ فهي المقصودة بالخطابِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ.

مَعنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

إطلاقُ الكُلِّ وتقييدُه بإرادةِ الخصوصِ مَجازٌ مُرسلٌ

تعددَتْ أقوالُ العلماءِ في تحديدِ نوعِ لامِ التعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، فذهبَ غالبُ العلماءِ إلى أنَّها للجنسِ[1]؛ أيْ: هذا النّوع الذي يقبلُ على الأُنْسِ بنفسِهِ والنظرِ في عَطِفِه والسُّرورِ بحسبِه[2]، وقال كثيرٌ منهم: المُرادُ: الإنسانُ الكافرُ المكذِّبُ، فقال جَمْعٌ من الأصوليّين: بل المُرادُ بالإنسانُ المُكذِّب بالبعثِ على الإطلاق[3]. وقالوا: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وإن كانَ تعريفه هنا تعريفَ الجنسِ الذي يصدقُ على جميعِ الأفرادِ، فهو من العامِّ المُرادِ به الخاصُّ؛ أي: الإنسانُ الكافرُ، وإطلاقُ العامِّ مع إرادةِ الخاصِّ طريقه عند البلاغيّين هو المَجازُ المُرسَلُ، والعلاقةُ المختارةُ فيه هي الإطلاقُ والتَّقييدِ؛ يعني: أطلقَ العامَّ من دلالتِه على العمومِ، وأعيدَ تقييده بالدّلالَةِ على الخصوصِ[4].

دلالةُ إسنادِ الفعلِ (يَحْسَبُ) إلى النوعِ:

غَلَبةُ إنكارِ البعثِ على جنسِ الإنسانِ لغَلَبَةِ الطَّمعِ في حظوظِ الدنيا

أسندَ القرآن المجيد الفعلُ (يَحۡسَبُ) إلى جنس الإنسان، وذلك لأنَّ أكثر النّاس كذلك لغَلَبَةِ الحظوظ على العقل إلّا مَن عصم اللّه[5]، والمُرادُ مَن يحسَبُ ذلك من جنسِ الإنسانِ، وهو كافٍ في إسنادِ الفعلِ إلى الجنسِ، وذلك بإسنادِ ما للبعضِ للكلِّ، وهذا جارٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 86.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 722.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 87.

في (النَّفسِ اللَّوّامةِ) إذا أُريدَ بها الجنسُ، فلا يلزمُ الإقسامُ على النَّفسِ الفاجرةِ[1].

نكتةُ حَذفِ اسم (أنْ):

تقديرُ المحذوفاتِ بدلالةِ السّياقِ ومقصودِ الكلامِ

حذفَ النَّظمُ الحكيمُ اسمَ (أنْ) في قولِه: ﴿أَلَّن﴾ وهو مُركَّبٌ من حرفِ (أنْ) المفتوحةِ الهمزةِ المُخَّفَفةِ النّونِ التي هي أختُ (إنْ) المكسورةِ، واسمُ (أنْ) ضميرُ شأن محذوف، والجملةُ الواقعةُ بعد (أن) خبرٌ عن ضميرِ الشَّأنِ[2]، ولم يأتِ التّعبير بـ (أيحسبُ أنَّنا لن نجمع) أو (أنَّ الأمرَ)، إشارةً إلى تمام القدرةِ العظيمةِ والسُّرعةِ البالغةِ في جمع العظام؛ فإنَّ الأمرَ كلَّه بالنسبةِ للّه تعالى لا يتجاوزُ كلمة (كُن)، وقد دلَّ على المحذوف إسنادُ فعل ﴿نَّجۡمَعَ﴾ إلى ضمير العَظَمَة.

نُكتةُ النَّفي بِ(لَنْ):

مـن دَيـدنِ المشركينَ قديمًا وحديثًا المبالغةُ في نفي البعثِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم النَّفي بـ(لَنْ) دون (لا) في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ وذلك لما في (لنْ) من توكيدِ النَّفي، إذْ كانَ فيمَن نزلَ الخطابُ بشأنِهم أوَّلَ الأمرِ مَن يبالغ في الإنكار[3]، فجيءَ بحرفِ (لن) الدّالِ على تأكيدِ النَّفي لحكايةِ اعتقادِ المشركينَ استحالةَ جمعِ العِظامِ بعد رِمامِها وتَشَتُّتِها[4]. ولعلمه سبحانه أنَّه سيكونُ فيمَن بعدهم مَن يبالغُ في نفيِ البعثِ كذلك.

لفظةُ ﴿نَّجۡمَعَ﴾ بينَ الحقيقةِ والمَجَازِ:

الأمـورُ الغيبيّةُ تُـحـمـلُ علـى حقائقِها ما لم يمنع من ذلك مـانعٌ عقليٌّ أو نقليٌّ

يحتمل لفظ ﴿نَّجۡمَعَ﴾ أن يكون محمولًا على الحقيقة إذا كان بمعنى جمعِ أجزاءِ الأجسامِ المُتفرِّقة، وإن كانَ البعثُ بخَلقِ أجسام أخرى على صورِ الأجسامِ الفانية سواءً أكان خَلْقًا مُستأنَفًا أو مُبتدأً

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 445، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 413.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 339.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 86.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 339.

من أعجابِ الأذنابِ على ما ورد في بعض الأخبار، فيكونُ فعلُ ﴿نَّجۡمَعَ﴾ مُستعارًا للخَلْقِ الذي هو على صورةِ الجسمِ الذي بَلِيَ، فهو تشبيه الخلق بالجمعِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيّة التّبعيّة، ومناسبةُ استعارته مشاكلةُ أقوالِ المُشركين التي أُريدَ إبطالُها[1]، والقول بالحقيقة حقيقٌ بالقبولِ؛ لأنَّ حملَ الألفاظ على حقيقتها أوْلى من المَجازِ ما لم يمنع مانعٌ، وحمل الأمور الغيبيّة على الظّاهرِ أوْلى من تأويلها.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ المُضارعِ لنونِ العَظَمَةِ:

استحضارُ صورةِ الجمعِ حيَّةً ماثلةً للعيانِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ المضارع لفعلِ ﴿نَّجۡمَعَ﴾؛ لاستحضارِ جمعِ العظامِ في صورةٍ حيَّةٍ ماثلةٍ للعيانِ؛ بقصد دحضِ حسبانِ الأثيم بعدم قدرةِ اللّه على جمعِ العِظامِ، ونظيرُهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ [البقرة: 259]، كما آثَرَ النَّظْمُ الكريم إسنادَ فعلِ ﴿نَّجۡمَعَ﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ؛ لتعظيم شأنِ البعث، وأنَّ الأمر هو بيد اللّه تعالى، فليس لأحدٍ أن يُنكر فعلًا للّه تعالى.

بَلاغةُ الكِنايةِ عن البَعثِ:

ذِكـرُ الأمـرِ المُستهجنِ في حسبان الآثمين أقوى من مُجرَّدِ الإثباتِ الصَّريحِ

قولُه تعالى: ﴿نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ كنايةٌ عن البعثِ وإعادةِ الخلق، فلمّا ذَكرتِ الآيةُ نفي جمع العظام في حسبان الكافر الأثيم؛ دلَّت على إثباتِ البعثِ فيما يجب اعتقاده، وهو جمع العِظام لإعادة الرّوح في الأبدان، فأقرَّت الآيةُ ضدَّ ما اعتقده المشركون، ودعَوْا إليه مُستهزئين، فكان ذِكْرُ الأمرِ المُستهزَأ به لإثبات البعثِ، أقوى في الرّدِّ من مجرّد إثبات البعثِ بالتَّصريح المباشرِ.

توجيهُ تخصيصِ العِظامِ بالذِّكرِ:

خصَّ النّظْمُ الكريمُ العِظامَ في قوله تعالى: ﴿نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بالذّكر دون اللَّحم وسائر أعضاء الجسد، والعظام هي كنايةٌ عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 340.

اكتفى بذِكْرِ العِظامِ كنايةً عن الجَسَدِ كلّه دفعًا لحكاية أقوالِ الكُفّارِ

الجسد كلِّه، وعلّة ذلك هو الردُّ على أقوالِ الكافرِ المُكذِّب، كما في قولِه اللّه تعالى على لسان الكُفّارِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، وقولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الإسراء: 49]، و﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾ [النازعات: 11]، فهم احتجّوا باستحالةِ قبولِ العظامِ للإعادةِ بعد البِلَى، على أنَّ استحالة إعادةِ اللَّحمِ والعَصَبِ والفؤادِ بالأولى. فإثباتُ إعادةِ العِظام اقتضى أنَّ إعادةَ بقيةِ الجسمِ مساوٍ لإعادةِ العظم، وفي ذلك كفايةٌ من الاستدلالِ مع الإيجازِ[1]، وإنمّا ذكر الكفّارُ المعاندونَ العظامَ؛ لأنَّها هي ما يبقى باديًا للعيانِ من جسدِ الإنسانِ فترةً أطولَ، فتمسَّكوا بما شاهدتهُ أعيُنُهم لغَلَبَةِ المادَّةِ على حِسِّهم وفِكرهم، وقيلَ ذَكَرَ العظامَ؛ لأنَّ العظامَ هي قالبُ الخَلقِ، لا يستوي الخَلقُ إلا باستوائِها[2]، وهذا بضَميمةِ السّابق لائقٌ.

مَعنَى ﴿بَلَىٰ﴾ ونُكتةُ التَّعبيرِ بها دونَ (نَعَم):

اختصاصُ (بَلَى) بإبطالِ النَّفي في الخبرِ أو الاستفهامِ

آثَرَ القرآن المجيد التّعبيرَ بحرفِ الجواب ﴿بَلَىٰ﴾ دونَ (نعم) في قولِه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾؛ لأنَّ (بَلَى) مختصَّةٌ بإبطالِ النَّفي، سواءٌ أكانَ خبرًا أم استفهامًا، فهي تنقضُ النَّفيَ على أيَّةِ حالٍ[3]، فجاءَتْ هَهُنا جوابًا للاستفهامِ المُنسحبِ على النّفي؛ أيّ: (بلى نَجۡمَعُها)[4].

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾:

المناسبةُ بين الصّيَغ من رعاية القرآنِ للألفاظ إذا تناغمتْ مع البيان

في إعرابِ كلمةِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ قولان مشهوران: النَّصبُ على الحالِ من فاعلِ الفعلِ المُقدَّرِ المدلولِ عليه بحرفِ الجواب؛ أيّ: (بَلى نَجۡمَعُها قادرينَ)، والنَّصبُ على خبرِ (كان) مُضمرة؛ أي: (بَلَى كُنّا قادرين في الابتداءِ)، وهذا ليس بواضحٍ. وقيل: مفعولٌ به ثانٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 340.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 280، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 93، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 344.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 275.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 344.

لفعلٍ محذوفٍ؛ أيْ: (بلى فليحسَبَنا قادرين)، وسُمّي هذا بالنَّصب على التَّكريرِ. وقيل: نُصبت على الخروج من ﴿نَّجۡمَعَ﴾، كأنَّك قلتَ في الكلام: (أيحسبُ أنْ لنْ نَقوى عليه، بلى قادرينَ على أقوى منه)، يريد: (بلى نَقْوَى قادرين) أو (بَلى نَقْوَى مُقتَدِرينَ على أكثر من هذا) وضعَّفوا هذا القولَ[1]. وعبَّرَ بصيغةِ الجمعِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ دون الإفراد فلم يَقُلْ: (بلى هو قادرٌ)، ليُناسب الجمع في فعل ﴿نَّجۡمَعَ﴾، فهو مردودٌ عليه؛ أيْ: نجمع حال كوننا قادرين، وهو الأنسبُ بمعنى العَظَمَةِ والفخامة.

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

بيانُ تمامِ القُدرةِ والاقتدارِ على البَعْثِ وإعادةِ الخَلْقِ

جاءَ استعمالُ حرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قولِه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ على أصلِ معناه وهو الاستعلاءِ، لبيانِ تمامِ القُدرةِ وطلاقتها؛ فهو سبحانه قادرٌ على تفصيلِ عظامِه وتفتيتها من بعد ارتتاقها حال كونها نطفةً واحدةً؛ لأنَّ كلَّ مَن قدر على التَّفصيلِ قَدَرَ على الجمعِ والتَّوصيلِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَةِ التَّسويةِ:

طلاقةُ القُدرةِ على خَلْقِ أصغرِ العِظامِ مستقيمةً معتدلةً بلا نقصانٍ أو تفاوتٍ

آثر القرآن المجيد التَّعبير بفعلِ ﴿نُّسَوِّيَ﴾ لما في مادَّة التَّسويةِ من الدّلالةِ على الاستقامةِ والاعتدالِ وكمالِ النُّضجِ[3]. إذِ المُرادُ بيانُ القدرةُ على ضمِّ سُلاماتِه على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعضٍ كما كانت من غير نقصانٍ ولا تفاوتٍ[4]؛ أيْ: إعادة خلق البنانِ مُقوَّمةً مُتقَنَةً، بأدقّ ممّا كانت عليه[5]، هذا ما يقتضيه معنى المُفردة

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 477 - 478، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 344، والسّمين، الدُّرّ المَصون: 10/ 567، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 358.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 88.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، ولسان العرب: (سوا)، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 722.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 341، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).

ويدلُّ عليه السّياق، ويحتمل معنًى آخر وهو أنَّ المُرادَ بالتَّسويةِ ظاهرُ المعنى في التّسويةِ بينَ شيئَيْن، بأنْ يجعلَ كفَّه كخُفِّ الجَمَلِ لا أصابع لها، وقيل: بل نجعلَ أصابعَه كلَّها على قدرٍ واحدٍ حتى لا ينتفعَ بها، كصفيحةٍ مستويةٍ لا شقوق فيها، فيعدمُ الارتفاقَ بالأعمالِ اللَّطيفةِ كالكتابةِ والخياطةِ وسائر الأعمالِ اللَّطيفةِ التي يُستعان عليها بالأصابعِ، والقولُ الأوّل أقربُ إلى الصَّواب بدلالةِ السّياقِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ دونَ الصَّريحِ:

إحداثُ تسويةِ البنانِ في المستقبلِ أمرٌ حتميٌّ

آثر البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ بأنْ والمضارع ﴿أَن نُّسَوِّىَ﴾، وعدلَ عن التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ، فلم يَقُلْ: (بلى قادرينَ على تسويةِ بنانه)، وذلك لأنَّ في المصدرِ المُؤَوَّلِ دلالةً على أمريْن، **الأوَّلُ:** الدلالةُ على الحدثِ في ذاته وهو التسويةُ، **والثَّاني:** الدّلالةُ على الزَّمنِ وهو المضارعَةُ، بخلافِ المصدرِ الصَّريحِ الذي يدلُّ على الحَدَثِ فحسب. وقد أفاد المصدرُ المُؤَوَّلُ هَهُنا بيانَ إحداث التَّسويةِ في المستقبل، وهو ما يقتضيه إحياءُ الموتى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالبَنانِ دون العِظامِ:

إذا تمَّ البَنانُ اكتملَ البُنيانُ

آثَرَ القرآن المجيد ذِكْرَ البَنانِ دون العظام في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾، وذلك لأنَّ المُرادَ بالبنانِ أصابعه أو سلامياته، وهي عظامُه الصِّغار التي في يَدَيْه ورجْليه، كلُّ منها طولُ إصبعٍ وأقلَّ، فخصَّها لأنّها أطرافه وبها يتُّم خلقه، فإذا سوّيت كان جمع العظامِ الكبار حاصلًا بطريقِ الأَوْلَى؛ لأنَّها أبينُ. فتسويةُ البنانِ كِنايةٌ عن تسويةِ جميعِ البُنْيانِ.

القادرَ على تفصيلِ الأناملِ قادرٌ على جمعِها

أو أن نسوّيها الآنَ فنجمعَها على ما كانتْ عليه حالَ كونِها نُطفةً من الاجتماعِ قبل فتْقِها وتفريقِها حتى تكونَ كَخُفِّ البعيرِ، فإنَّ القادرَ على تفصيلِ الأناملِ حتَّى تتهيأ للأعمالِ اللَّطيفةِ قادرٌ على

(1) الرّاغب، المُفردات: (سوا)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 94.

جمعِها، فتزولُ عنها تلكَ المنفعةُ. ومن قدرَ على تفصيلِ الماءِ بعد اختلاطه وجمعِه بعد انفصالِه قادرٌ على جمعِ التُّرابِ بعد افتراقِه، وكيفما كان فهو تنبيهٌ على التَّأمُّلِ في لطفِ تفصيلِ الأناملِ وبديعِ صنعِها الموجبِ للقطعِ بأنَّ صانعَها قادرٌ على كل ما يريدُ[1]. وآثَر التَّعبيرَ بها دون مرادفاتها؛ لأنَّ البنانَ به يعتمدُ كلُّ ما يكون للإقامةِ والحياةِ[2]؛ لأنّ بها صلاحَ الأحوالِ التي يُمكن للإنسانِ أن يَبِنَّ بها، أيْ: يُقيم[3].

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ودلالتها:

استئنافُ كشفِ خفايا نفوسِ الكُفّار المُكذِّبين بالبعثِ والقيامةِ

فصلَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ عليه، وهي قولُه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾؛ لأنَّ موقعَ الجملةِ بعدَ (بَل) بمنزلةِ الاستئنافِ الابتدائيِّ للمناسبةِ بين معنى الجملتيْنِ على تقديرِ (بل) للانتقالِ لا للإبطالِ؛ أيْ: للإضرابِ عن إنكارِ الحسبانِ إلى الإخبارِ عن حالِ الإنسانِ الحاسبِ بما هو أدخلُ في اللّومِ والتّوبيخِ من الأوّلِ. كأنَّه قيل: دعْ تعنيفَه، فإنَّه أشطُّ من ذلكَ، وأنَّى يرتدعُ وهو يريدُ ليدومَ على فجورِه[4].

بلاغةُ الاحتمالِ بين الاستفهامِ والخَبَرِ:

علَّةُ إنكارِ البعثِ قائمةٌ في أحشاءِ الشّهواتِ وثنايا الشُّبهاتِ

يحتمل قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ وجهين، الأَوَّلُ أنْ يكونَ استفهامًا استنكاريًّا، والتَّقدير: (بل أَيُريدُ؟)، سواءٌ استفهمَ عن شيءٍ أو لا؟ ثمَّ أضربَ عن الاستفهامِ عنهُ إلى الاستفهامِ عنْ أمرٍ آخرَ، كأنَّه قيل: مَنشأُ إنكارِ البعثِ هل هوَ حُسبانُ عجزِنا عن البعثِ وجمعِ الأجزاءِ؟ أو إرادةُ أن يدومَ على ما اعتادَه

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بنن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بنن).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 153.

من المعاصي وأنواعِ الفجورِ فيما يستقبله من الزَّمان؟ والوجهُ الثاني: أن يكونَ المعطوفُ إيجابًا، فاستفهمَ أوّلًا على سبيل الإنكار على حسبانه، ثمَّ أضربَ عن أصلِ الاستفهام إلى الإخبارِ عن حالِه بما هو أدخلُ في اللَّومِ عليه من الأول، كأنَّه قيل: دعِ الإنكارَ على حسبانِه أمرًا باطلاً في حَقِّنا؛ فإنَّ في هذا الإنسانِ ما هوَ أقبحُ من ذلك، وهو أنَّه يحبُّ اللّذاتِ العاجلة والحياةَ الفانيةَ وانهماكَه في قضاءِ شهواتِه النفسانيَّة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

تجدُّدُ عزمِ الكافرِ على الفجورِ علَّةُ بقائِهِ في إنكارِ البعثِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ لبيانِ شِدَّةِ رغبةِ الإنسانِ بالفجورِ وقوَّةِ عزمِهِ وتجدُّدِ هذا العزم وتلكِ الإرادة فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وكانَ تجدُّدُ عزمِ الإنسانِ الكافرِ على الفجورِ داعيًا إيّاه إلى المبالغةِ في إنكارِ البعثِ.

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُرِيدُ﴾:

بيانُ عمومِ إرادَةِ الفجورِ واتِّباعِ الشَّهواتِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ حذفَ القرآن المجيد مفعولَ ﴿يُرِيدُ﴾ ودلَّ عليه التَّعليلُ في قولِه: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، والتَّقدير: (بل يريد الإنسانُ شَهَواتِه ومعاصيَه ليمضيَ فيها أبدًا دائمًا)[2]، ففي هذا الحذفِ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ما يُريده بمقتضى طبعِه وشهواتِه خارجٌ عن طورِه، فهو معاقَبٌ عليه لأنَّه عبدٌ، والعبدُ يَجبُ عليه أنْ يكونَ مُراقِبًا للسَّيدِ، لا يريد إلّا ما يأمره به، فإذا أراد ما أمره به لم تنسب إليه إرادةٌ؛ بل الإرادةُ للسَّيِّدِ لا له[3].

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، ودلالةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

أظهر القرآن المجيد لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قولِه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 412 - 413.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 566.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 90.

تكرارُ اللَّفظِ إمّا للتَّعميم، أو للتَّقريعِ والتَّوبيخ

﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، وكان مُقتضى الظّاهر: (بل يُريدُ ليفجَرَ أمامَه) على إرادةِ ضميرِ الغائبِ، ولكنَّهُ عدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهار؛ لزيادةِ الإنكار والتَّوبيخ والتَّقريع والتّبكيت؛ لأنَّ المقامَ لتقريعِه والتَّعجيبِ من ضلالِه[1]، وللتَّصريح بالتَّعميم لمُقتَضى الطَّبعِ اللئيم الموجِب لهُ عدمَ الفكرِ في الآخرةِ مع شدَّةِ ظهورها؛ لأنَّه معنيٌّ بشهواته، فلا نجاة إلّا بعصمةِ اللهِ تعالى[2]، فيكون التعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنس[3]، وهوَ الأليقُ بالسّياقِ، إذِ هو المُرادُ باستنكارِ هذا الحسبانِ الآثمِ والرَّغبةِ في الفجورِ أنْ يكونَ تذكرةً للمُتَّقينَ المُصدِّقين، وإنذارًا وتهديدًا للمُكذِّبينَ المعاندين.

نوعُ اللّامِ ودلالةُ ذِكْرِها:

ذِكْرُ لامِ التَّعليلِ؛ لزيادَةِ توكيدِ قوةِ إرادةِ فجورِ الإنسانِ

اللّامُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ للتَّعليل، والأصل أن يُقال: (بل يريد الإنسان أن يفجر)؛ لأنَّ فعلَ الإرادة مُتعَدٍّ بنفسِه، لا باللّام كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 28]. غير أنَّه جاء باللّامِ للدلالةِ على قوَّةِ إرادةِ الفجورِ والشهوات عند الإنسانِ وشدةِ الرغبة فيها، وهذه مَدْعاةٌ إلى الندم البالغ، وكثرةِ لومِ الإنسانِ لنفسهِ؛ فارتبط ذلك أحسنَ ارتباطٍ بالنَّفسِ اللَّوّامة[4].

بلاغةُ اختيارِ مُفردة (يفجر) مادّةً وصيغةً:

كثرةُ المعاصي والتَّكذيب بالحقِّ انفجارٌ في فطرة الإنسان وخروجٌ عن مساره

آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بمادَّةِ الفجورِ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ لما فيها من الدّلالةِ على التَّكذيبِ والانبعاثِ والتَّفَتُّحِ في المعاصي والمَيْلِ عن الحقِّ[5]، وشدَّةِ الرَّغبةِ في اقترافِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 341.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 90.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403.
(4) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 207.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).

الموبقاتِ[1]، وهذه المعاني مأخوذةٌ من دلالة لفظ الفجور في أصل معناها الدّالِّ على الانفجار والانفتاح الشَّديد.

وعبَّرَ بصيغةِ المضارعةِ لبيانِ رغبته في تجدُّدِ الفجورِ ليقع منه الفجور في المستقبلِ من زمانِه بأن يقضيَ شهواتِه ويمضي راكبًا رأسَه في هواه، ونفسُهُ الكاذبةُ توردُ عليه الأماني وتوَسِّعُ له في الأملِ وتُطْمِعُه في العفوِ من دون عملٍ[2].

شهوةُ الإنسانِ مُمتدَّةٌ للمستَقبَلِ البعيدِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ ﴿أَمَامَهُۥ﴾ وبيانُ مَرجعِ الضَّميرِ:

جاءَ لفظُ ﴿أَمَامَهُۥ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ منصوبًا على الظّرفِ، وأصلُه مكانٌ، فاسْتُعير هنا للزّمان[3]. وفي معنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ: **أحدُها:** أنّه عبارةٌ عمّا يُستقبلُ مِنَ الزَّمانِ؛ أيّ: ليَفجُر بقيَّةَ عمرِه، **الثاني**: أنَّهُ عبارةٌ عن اتِّباعِ أغراضِه وشهواتِه، يُقالُ: مَشى فلانٌ قُدّامَه، إذا لم يرجعْ عن شيءٍ يُريدُه، والضَّميرُ على هذيْنِ القوليْنِ يعودُ على الإنسانِ، **الثّالث**: أنَّ الضميرَ يعودُ على يوم القيامةِ. والمعنى: أنَّه يريد شهواتِه ليَفْجُرَ في تكذيبه بالبعث بين يَدَيِّ يوم القيامة[4]. وعلى هذا يكونُ التَّعبيرُ بـ﴿أَمَامَهُۥ﴾ مجازٌ عن التَّكذيبِ بيوم القيامةِ[5].

نَكتةُ فصلِ قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ﴾:

السؤالُ عن موعدِ القيامةِ تعليلٌ لإرادةِ الفجورِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عنْ قولِ اللّه سبحانه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ولم يعطف الآيةَ عليها؛ لأنَّها جاءتْ استئنافًا بيانيًّا، فهي تعليلٌ لإرادةِ الدَّوامِ على الفجورِ؛ إذ هو في معنى: لِمَ يريدُ أن يدوامَ على الفجورِ؟ قيل:

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فجر).
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 90.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 566.
(4) ابن جُزَي، التّسهيل: 2/ 433.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 343.

لأنَّهَ أنكرَ البَعثَ واستهزأ بهِ، وفيه أنَّ مَن أنكرَ البعثَ لا محالةَ يرتكبُ أشدَّ الفجورِ، وهو طرفٌ من قوله سبحانه: ﴿۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 36 - 37]. ويجوز أن تكونَ مُستأنفةً للتّعجيبِ من حال سؤالهم عن وقت يوم القيامة، وهو سؤالُ استهزاءٍ لاعتقادهم استحالةَ وقوعه[1].

وتحتمل أن تكون الجملة في موضع نصبٍ على الحال؛ أيْ: يريد أن يستمر في فجوره في حال كونه سائلًا على سبيل الاستهزاء: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقيل: مُفسَّرة مُستأنفة، أو بدلًا من الجملة قبلها؛ لأنَّ التّفسير يكون بالاستئناف وبالبَدَل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

تكرارُ السُّؤالِ عن موعدِ القيامةِ يكشفُ عن اضطرابِ نفسِ الكافرِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡـَٔلُ﴾ لبيانِ تكرارِ سؤالِ الفاجرِ عن موعدِ القيامةِ، فهو لا يفتأُ يعيدُ السُّؤالَ مرَّةً تلو الأخرى مُستهزِئًا ساخرًا، ولعل مردَّ ذلك إلى ما يعتريه من تشكُّكٍ أحيانًا واستفاقةٍ أحيانًا، فيُكرِّر السُّؤالَ بحثًا عن الجوابِ تارةً، وليسخرَ من الوعيد به تارةً أخرى، ولكنْ بسبب ميلِ طبعه إلى الاسترسالِ في الشَّهواتِ والاستكثارِ من اللَّذاتِ لا يكادُ يُقِرُّ بالحشرِ والنَّشرِ وبَعثِ الأمواتِ؛ وذلك لِئَلّا تَتَنَغَّصَ عليه اللَّذاتِ الجُسمانيَّة، فيكون أبدًا مُنكرًا لذلك، قائلًا على سبيلِ الهُزْءِ والسُّخريةِ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ:

جاء قوله تعالى: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في محلِّ نصب مفعولٍ به للفعلِ ﴿يَسۡـَٔلُ﴾، وعبَّرَ بالجملة الاسميّة لبيانِ دوامِ العنادِ والاستهزاءِ[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 153، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 343.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 297.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 723.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 91.

بَلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغَرضُه بأداة ﴿أَيَّانَ﴾:

السُّؤال عن موعدِ البعثِ استبعادٌ لوقوعِهِ وتهكُّمٌ بالقائلين به

﴿أَيَّانَ﴾ ظرفُ زمانٍ بمعنَى (متى)، وهو مأخوذٌ من (أين) الظَّرفيَّة المكانيّة، ثم انتقلت إلى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ من: آنَ يئِنُ بمعنى حانَ. و(أيّان): يُسْأل بها عن زمانٍ[1]، وفيها معنى الاستفهام، فأشبهت حرف الاستفهام، فبنيت؛ إذ الحروف أصلها البناء[2]. وتُستعملُ عادةً للدّلالةِ على شدَّةِ الاستبعادِ[3]. فالمعنى أنَّهم يسألونَ تعيينَ وقتٍ معروفٍ مضبوطٍ بعدَ السِّنينَ ونحوِها، أو بما يَتَعَيَّنُ به عند السّائلينَ من حَدَثٍ يحلُّ معه هذا اليومُ، فهو طلبُ تعيينِ أمدٍ لحلولِ يومٍ يقومُ فيه النّاسُ[4].

نَوعُ الإضافةِ ودلالتها:

يومُ القيامةِ ظرفٌ لما يجري فيه من العدلِ والفصلِ بين الخلائقِ

أضافَ النّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿يَوۡمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، والإضافةُ معنويَّةٌ أكسبتِ اليومَ نوعًا من التَّخصيصِ، إذِ الأصلُ: (يسألُ: أيّانَ اليومُ الذي تقومُ فيه القيامةُ)، فعدلَ عن ذلك إلى تعبير: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فدلَّت الإضافةُ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّة، وذلك بوصفهِ ظَرْفًا لما يجري فيه من محاسبةِ العبادِ، وتعذيبِ المُنكرينَ المُعاندينَ وإثابةِ الطّائعينَ المؤمنينَ، وغرضُ الكافرِ استبعادَ ذلك اليومِ والتَّهكُّم بحقيقته.

سِرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيامةِ من الأمورِ التي تُقرُّها الفطرةُ ويخضعُ لها العقلُ

اللّامُ في كلمةِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إمّا أنْ تكونَ للعهدِ الذِّكري، لسبقِ ورودِها في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وإمّا أنْ تكونَ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ لأنَّ هذا الكلام حكايةٌ لقولِ الكافرِ المُكذِّبِ يومَ القيامةِ، فأجرى الكافرُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أين).

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 261 - 262.

(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيَّة، ص: 208.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 343.

المكذِّبُ الكلامَ على ما يسمعه من المُنذِرين له، استهزاءً باليوم وإنكارًا لهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ يومَ القيامةِ من الأمورِ البدهيَّة؛ فهو يجري على ألسنة المُنكِرينَ رغم أنوفِهم.

نُكتةُ إعادةِ ذِكْرِ: ﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

كرَّرَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حكايةً لقولِ الكافرِ، وعَدَلَ عن: (يسألُ: أيّانَ هذا اليوم أو يومئذٍ)، وذلك لبيانِ خطرِ هذا اليوم وعِظَم مكانته، وللرَّبطِ بينَ هذه الآيةِ وما سيأتي من ذِكْرِ أماراتِ القيامةِ بعد ذلك، فكان تكرارُه تمهيدًا لبيانِ أماراتِ القيامةِ وأشراطها. وفي ذِكْرِه كذلك رعايةٌ لفاصلةِ الهاءِ التي تكرَّرت خمسَ مرّاتٍ في ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، و﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾، و﴿عِظَامَهُۥ﴾، و﴿بَنَانَهُۥ﴾، و﴿أَمَامَهُۥ﴾، و﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فأكسبتِ النَّظمَ جرسًا بالغًا مؤثِّرًا يأخُذُ بالألبابِ، ويعينُ على تأمُّلِ أحداثِ هذا اليوم الرَّهيبِ.

في التّكرارِ تمهيدٌ لذِكْرِ أماراتِ القيامةِ وأشراطِها، ورعايةٌ للفاصلةِ المُؤَثِّرَةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُجورُ والطُّغيانُ والبَغيُ والعِصيانُ:

تدور مُفردَةُ الفُجورِ حولَ معاني التَّكذيبِ والانبعاثِ والتَّفَتُّحِ في المعاصي والمَيْلِ عن الحقِّ[1]، وشِدَّةِ الرَّغبةِ في اقترافِ الموبقاتِ[2]. وأمّا الطُّغيانُ فهو أشدُّ الألفاظِ المُعبِّرةِ عن الظُّلم؛ لاشتمالِه على مُجاوزةِ الحَدِّ والمبالغةِ في الكِبْرِ والمَعصيةِ والشَّرِّ والكُفْرِ، ويليه في الشّدَّةِ البَغْي؛ لاشتماله على التَّعَدِّي والفَسادِ والظُّلم، وأمّا العصيانُ فهو تركُ الانقياد، وهو خلافُ الطّاعةِ. وألفاظ البغي والطُّغيان والفجور متقاربةٌ دلاليًّا؛ فهي تشترك جميعها في معنًى عامٍّ هو مجاوزةُ الحدِّ[3]. وقد آثَرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بمُفردَةِ

الفُجورُ مُشتمِلٌ على معاني الباطلِ مُستجمِعٌ لِشِدَّتِه في مواجهةِ الحقِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فجر).
(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 148.

الفُجورِ؛ لاشتمالِها على معنى اقترافِ الموبقاتِ، ولأنَّها كذلك ألصقُ بمعنى التَّكذيب بيوم القيامةِ، ولاشتمالها على بقيَّة المعاني من الطُّغيان والعصيان والبغي والتَّكذيب واتّباع الشَّهوات والشُّبهات، فكان لفظُ الفجورِ شاملًا لمعاني الباطل، مع ما فيه من شِدّة الباطل وقبيح المعصية.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ
يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ
ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة: 7 - 15]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ استهزاءِ المُنكِرين للقيامةِ إلى ذِكْرِ أهوالِها وشديدِ أمرِها

لما ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ سؤال الكفّار المُكذِّبينَ عن موعدِ القيامةِ، وكانَ سؤالُهم سؤالَ استهزاءٍ واستبعادٍ؛ فناسب العدول عن تعيينِ وقتٍ ليوم القيامة إلى التّهديدِ بأهواله، لأنَّهم لم يكونوا جادّينَ في سؤالِهم؛ فكان من مُقتضى حالِهم أن يُنْذَروا بما يقعُ من الأهوالِ عند حلول هذا اليوم مع تضمين تحقيقِ وقوعه؛ فإنَّ كلامَ القرآنِ إرشادٌ وهدىً، ما يتركُ فرصةً للهدى والإرشادِ إلّا انتهزها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرِقَ﴾: (برق) أصلانِ تتفرَّعُ الفروعُ منهما: أحدهما لمعانُ الشّيءِ؛ والآخرُ اجتماعُ السَّوادِ والبياضِ في الشيءِ. وبَرِقَ البَصَرُ: من بابِ طَرِبَ: إذا تحيَّرَ فلمْ يطْرِفْ؛ فإذا قلتَ: بَرَقَ البَصَرُ بالفتح؛ فإنَّما تَعْني بَريقَهُ، إذا شَخَصَ، وبَرَّقَ عَيْنَهُ تَبْريقًا: إذا وسَّعَها وأحَدَّ النَّظَرَ[2]. والمعنى المحوريُّ: حدّةٌ تبرُزُ إلى الظّاهرِ بقوةٍ أو اندفاعٍ من عمقِ ما يَكْتَنِفُها[3]، والمُرادُ بقوله: ﴿بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾: فزِعَ وبُهِتَ وتَحَيَّرَ فلم يَطْرِفْ، وعلى قراءةِ الفتحِ (بَرَقَ): لَمَعَ من شدَّةِ الشُّخوصِ فترةً لا يطرِفُ، وكلاهما فيه لمعانُ العينِ، ويتأتّى عند الفزعِ العظيمِ للموتِ أو لقيامِ السّاعةِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 343 - 344.
(2) الرّازيّ، مختار الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (برق).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برق).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 95.

2) ﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾: (فر) أصلٌ يدلُّ على خِفَّةٍ وطَيْشٍ(1). والفرارُ: الرَّوَغانُ والهربُ، يُقالُ: فرَّ يَفِرُّ فِرارًا: هَرَبَ. ورَجُلٌ فرورٌ وفرورةٌ وفَرّارٌ: غَيْرُ كَرّارٍ(2). والمعنى المحوريُّ مُباعدَةٌ بخفَّةٍ مع استرسالٍ تكرارٍ أو دوامٍ(3)، وقوله: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ موضعَ الفِرارِ، ووقتَه، والفرارَ نفسَه(4).

3) ﴿وَزَرَ﴾: (وزر) أصلٌ يدلُّ على الملجأ(5)، والمعنى المحوريُّ حفظُ الشيءِ بضَمِّه وحَمْله واحتوائِه في الأثناءِ، وليس في القرآنِ الكريمِ من التَّركيبِ إلّا الوَزَرُ بمعنى الملجأ، والوِزْرُ بمعنى الحِمْلِ المادّي، والذَنْب، والوزير(6). والمرادُ بالوَزَرِ في الآية الكريمة: الملجأ الذي يلتجئُ إليه من حصنٍ وجبلٍ ونحوهما(7).

4) ﴿ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾: (قرّ) أصلٌ يدلُّ على تَمَكُّنٍ، يُقال: قَرَّ واسْتَقَرَّ، ومنهُ القُرارةُ: ما يَلْتَزِقُ بأسفلِ القِدْرِ، كأنَّهُ شيءٌ استقرَّ في القِدْرِ. والإقرارُ: ضدُّ الجُحودِ، وذلكَ أنَّهُ إذا أقرَّ بحقٍّ فقد أقَرَّهُ قرارَهُ(8). والقرارُ المُستَقَرُّ من الأرضِ، وقَرَّ الشيءُ قَرًّا: استقرَّ بالمكانِ، والاسمُ: القرارُ، ومنهُ قيل لليوم الأوَّلِ من أيامِ التَّشريقِ يومُ القَرِّ؛ لأَنَّ النّاسَ يَقِرّونَ في مِنًى للنَّحْرِ، والاستقرارُ: التَّمَكُّنُ، وقرارُ الأرضِ: المُستَقَرُّ الثّابتُ(9)، والمعنَى المِحوريُّ ثباتُ ما شأنُه التَّسَيُّبِ وامتِساكُه في قاعٍ عميقٍ مُستديرٍ(10). والمُرادُ بالمُسْتَقَرِّ في الآيةِ: المُنْتَهى والمَرجِعُ(11).

5) ﴿بَصِيرَةٌ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على العِلْمِ بالشيءِ؛ يُقالُ: هو بَصيرٌ به، وعلى البصر، يُقالُ: رأيتُه لَمْحًا باصرًا، أيْ: ناظرًا بتحديقٍ شديدٍ. ويُقال: بَصُرتُ بالشيءِ: إذا صِرتَ به بَصيرًا عالمًا، وأبْصَرْتُه: إذا رَأيْتَهُ(12). والبَصَرُ: العَيْنُ، والبَصَرُ: نَفاذٌ في القلب،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فر).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرر - فرفر).

(4) الرّاغب، المُفردات: (فرر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وزر).

(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وزر).

(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وزر).

(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قر).

(9) الرّازيّ، مختار الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (قرر).

(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرر - قرقر).

(11) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 370.

(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).

والبَصارةُ مصدر البصير، وقد بَصُرَ، وأبصَرْتُ الشيءَ وتَبَصَّرْتُ به، وتَبَصَّرْتُه: شِبْهُ رَمَقْتُه، واستَبْصرَ في أمرِه ودينه إذا كانَ ذا بصيرةٍ، والبصيرةُ اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب من الدّين وحَقيق الأمرِ[1]، ومعنى ﴿بَصِيرَةٌ﴾ في الآية: تُبْصِرُه فتشهدُ له، وعليه من جوارحِه بصيرةٌ تبصرُه فتشهد له وعليه يوم القيامة[2].

6) ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: (عذر) بناءٌ صحيحٌ لهُ فروعٌ كثيرةٌ. فالعُذْرُ معروفٌ، وهو رَوْمُ الإنسانِ إصلاحَ ما أُنكِرَ عليهِ بكلامٍ. يُقالُ: عَذَرْتُهُ فأنا أعْذِرُهُ عَذْرًا[3]. والمعنى المحوريُّ اعتراضٌ ما يحولُ دونَ المُعتادِ من نفاذٍ[4]. فالعُذْر: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذر بها؛ والجَمْعُ: أعذارٌ. يُقالُ: اعْتَذَر فُلانٌ اعْتِذارًا وعِذْرةً ومَعْذُرةً ومَعْذِرةً[5]. والعُذْرُ: تحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، وكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[6]. فالأظهرُ أنَّ المُرادَ بـ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ هَهُنا: الإدلاءُ بالحُجَّةِ والاعتذار من الذَّنْب[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تـغـيُّرُ أحـوالِ الـكَـوْنِ وتـبـدُّلُ معالِه، وانعدامُ سُبُلِ النَّجاة، فـلا مـلـجأ من الله إلّا إليهِ

جاءتْ هذه الآياتُ الكريماتُ ردًّا على استهزاءِ المُنكِر ليوم القيامة، وقد جاء الرَّدُّ عليه بذِكْرِ أهوال القيامةِ، وأوَّلُ هذه الأهوالِ جُمودُ البصرِ فلا يَطْرِفُ، لما يراه من أحداثِ هذا اليوم المَهيب. وأمّا الأمارةُ الثّانيةُ فهي ما يحدثُ فيه من تَبَدُّلِ أحوالِه، وتَغَيُّرِ لحقائقِ الأشياءِ في هذا الكون، فيُخسفُ القمرُ ويذهبُ نورُه، وتُجمَعُ الشَّمسُ والقمرُ، وهما لم يجتمعا منذُ خلقَهُما اللّٰه سبحانه، فيجمعُ

(1) الخليل، كتاب العين: (بصر).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وزر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عذر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عذر).
(6) الرّاغب، المُفردات: (عذر).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 101.

اللّه بينهما يومَ القيامةِ، فيُخسفُ القمرُ، وتُكَوَّرُ الشَّمسُ، يومئذٍ يقولُ الإنسانُ: أين المفرُّ؟ وأينَ الملجأُ الذي يلجأُ إليه، فِرارًا من لقاءِ هذا اليوم العظيم؟ فيتيقَّنُ أنَّهُ لا ملجَأ ولا حِمَى يحتمي فيه الإنسانُ، فكُلُّ الخلقِ مَسوقٌ إلى اللّه تعالى، حيثُ المُستقرُّ هناكَ في المحشرِ في موقفِ الحسابِ والجزاء، فلا ملجأ من اللّه إلّا إليه تعالى. ثمَّ انتقلَ النَّظمُ إلى المقصود بالبيانِ وهو الإخبار بجميع أعماله، ثمَّ أضربَ البيانُ الشّريفُ؛ ليبيِّنَ عدم حاجة الإنسانِ إلى مَن يُبَيِّن له ما عملَ؛ فكلُّ إنسانٍ يقومُ عليه شاهدٌ من نفسِه ومن جوارحِه، وذلك حين ينكشفُ له يومَ القيامة كلُّ شيءٍ، فيرى الأمورَ على حقائقِها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

تفريعُ أهوالِ القيامةِ على ذِكْرِها إثباتٌ لحقيقتِها

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ لِتَفْريعِ الجَوابِ عن السُّؤالِ، فالمعنى: إنَّ جوابَ سؤالِ هذا المُستهزِئِ المُنكِرِ هو ما يلي من أماراتِ القيامةِ، فإنَّ هذهِ الأحوالَ المذكورةَ في الآيةِ ممّا يقعُ عندَ حُلولِ السّاعَةِ وقيامِ القيامَةِ فكان ذلك شيئًا من تَعيينِ وقتِهِ بتعيينِ أشراطِهِ[2]، وتحتمل أن تكون الفاء للاستئناف[3]؛ أي: استئناف الحديث عن أهوال القيامة بعد إثبات القيامة والرَّدِّ على المُنكِرين.

بلاغةُ أسلوبِ الحَكيم:

سؤالُ المُستهزِئِ تهكُّمٌ لا يستحقُّ جوابًا بل تقريعًا

عَدَلَ النّظمُ الكريمُ عن مُقتضى الظّاهرِ في إجابةِ سؤالِ المُستهزِئِ المُنكِرِ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ فأجابَ بما يدلُّ على خرابِ العالمِ وتجرُّدِ الإنسانِ عن مَسكنِه وما ألفَه من أحوالِه فيكونُ أهولُ[4]؛ لفتًا لما هو المقصودُ من القيامةِ؛ وذلك لأنَّهم لم يكونوا جادّين في سؤالِهم،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 1316 - 1319، والسَّعديّ، تيسير الكريم المَنّان، ص: 899.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 343.

(3) درويش، إعرابُ القرآن وبيانه: 10/ 297.

(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 91.

فكان من مُقتضَى حالِهم أن يُنْذَروا بما يقعُ من الأهوالِ عند حلولِ هذا اليوم مع تضمينِ تحقيقِ وقوعِه، وهذا تهديدٌ في ابتدائِه جاءَ في صورةِ التَّعيينِ لوقتِ يوم القيامةِ إيهامًا بالجوابِ عن سؤالِهم، كأنَّه حملٌ لكلامِهم على خلافِ الاستهزاءِ على طريقةِ الأسلوبِ الحكيم. وفيه تعريضٌ بالتّوبيخِ على أن فرَّطوا في التَّوقّي من ذلك اليومِ، واشتغَلوا بالسُّؤالِ عن وقتِه[1].

نكتةُ استعمالِ أداةِ (إذا):

توكيدُ وقوعِ يومِ القيامةِ ترهيبٌ للمُنكِرينَ المُكَذِّبينَ

جاء التّعبيرُ بأداة (إذا) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ دون غيرها من أدوات الشَّرطِ؛ وذلك لأنَّ (إذا) تُستعَمَلُ عادةً لما هو مُتحقِّقُ الوقوعِ في المستقبل، ولمّا كان يومُ القيامةِ حتمًا لازمًا، فإنَّ التعبيرَ بهذه الأداة هو الأنسب ترهيبًا لهؤلاءِ المُنكِرينَ المُستهزئينَ بأنَّهم مجموعونَ لهذا اليومِ العظيمِ على وجه اللُّزوم والحَتْمِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفرَدة ﴿بَرِقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكشفُ عن أحداثِ المستقبلِ باعتبارِ وقوعِها لا يصدرُ إلّا عن علّامِ الغيوبِ

آثَرَ القرآن المجيد في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ استعمالَ فعلِ ﴿بَرِقَ﴾، دون مقارباته، وذلك لتدلَّ على معنى القراءتَيْنِ وهُما: التَّحيُّر واللَّمعان - كما سيأتي -، ففيه دلالةٌ على تَحَيُّرِ البصرِ، فلا يطْرِفُ؛ بسببِ دلالةِ الكلمةِ على الحِدَّةِ التي تبرُزُ إلى الظّاهرِ بقوةٍ أو اندفاعٍ من عمقِ ما يَكْتَنِفُها[2]، ففي استعمالِ هذا اللَّفظِ إشارةٌ إلى ما ينتابُ الإنسانَ من فزَعٍ وبُهتٍ وتَحَيُّرٍ عند الفزعِ العظيم للموتِ أو لقيامِ السّاعةِ[3]، والأصل في ﴿بَرِقَ﴾ أن يكثر الإنسانُ من النَّظرِ إلى لمعانِ البرق، فيؤثِّرُ ذلكَ في ناظره، ثم يستعملُ ذلكَ في كلِّ حَيْرَةٍ، وإن لم يكن هناكَ نظرٌ إلى البرقِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 344.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برق).
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 95.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 485.

وجاء التّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ ﴿بَرِقَ﴾ للدّلالةِ على ثبوتِ حدوثِ هذه الحيرةِ والفزعِ وتوكيدِ تَحَقُّقِها في المستقبلِ، فهو إخبارٌ عمّا سيقعُ باعتباره قد وقعَ، وهذا من بديعِ حتميَّةِ الأخبارِ المُستقبليّةِ التي لا تصدرُ إلّا عن عالمٍ بالغيبِ.

تَوجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ في الفعل ﴿بَرِقَ﴾:

لمعانُ العينِ من شدَّةِ الهولِ فلا تطرفُ بسببِ توقُّفِ حركةِ جفونِها

في ﴿بَرِقَ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ قراءتانِ متواترَتانِ، فقرأ المَدَنيّانِ: نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿بَرَقَ﴾ بفتحِ الرّاء، وقرأ الباقونَ بكسرِها[1].

قيل: هي لغةٌ في ﴿بَرِقَ﴾ بالكَسْر، وقيلَ هو من البَريق بمعنَى لَمَعَ من شدَّةِ شُخوصِه[2]. فإذا قلتَ: بَرَقَ البَصَرُ بالفتح؛ فإنَّما تَعْني بَريقَهُ، إذا شَخَصَ، وبَرَّقَ عَيْنَهُ تَبْريقًا: إذا وسَّعَها وأحَدَّ النَّظَرَ[3]. ومآلُ معنى القراءتَيْن واحدٌ، وهو الكنايةُ عن الفزعِ والرُّعبِ كقوله سبحانه: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: 97]، ولا مانع من إرادةِ المَعنيَيْن[4].

البَرقُ مُسندٌ إلى البَصَرِ على سبيلِ الحقيقةِ والمجازِ على ضوءِ القراءتَيْن

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أسندَ القرآن المجيد البرقَ إلى البصرِ على سبيلِ المجازِ العقليِّ تنزيلًا له منزلةَ مكانِ البرقِ؛ لأنَّه إذا بُهِتَ شَخُصَ بصرُه، وأمّا على قراءةِ ﴿بَرَقَ﴾ فإنَّ الفعلَ يكونُ مُستعملًا على حقيقةِ وضعِه[5]. فجمعتِ القراءاتان بين الحقيقةِ والمجازِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ ودلالته:

أشراطُ القيامةِ تصيبُ أبصارَ الخَلْقِ أجمعينَ

جاءتِ لامُ التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ لإفادةِ الجنس، والمُرادُ بها

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 393.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 154.
(3) الرّازيُّ، مختار الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (برق).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 344، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 8/ 373.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 344.

الاستغراقُ؛ أيِّ: أبصارُ الناسِ كلِّهم من الشدَّةِ الحاصلةِ في ذلك الوقتِ، على أنَّهم متفاوتونَ في الرُّعبِ الحاصلِ لهم على تفاوتِهم فيما يُعرضونَ عليه من طرائقِ منازلهم[1].

مناسبةُ عطفِ الخَسْفِ على البَرْقِ:

تعطيلُ عملِ البصرِ مناسبٌ لخسفِ ضوءِ الشَّمسِ والقمرِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَ اللّه تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ على قولِه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾، فذَكرَ برقَ البصرِ مع جمعِ الشمسِ والقمرِ له سببُه ومناسبتُه، فإنَّ البصرَ يعملُ مع وجودِ الشَّمسِ والقمرِ؛ أيِّ: مع النّورِ؛ فإذا لم يكن ثَمَّةَ نورٌ فلا يعمل شيئًا كما قال تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [البقرة: 17]، وفي هذا اليوم قد تعطَّلَ البصرُ كما تعطَّلتِ الشَّمسُ والقمرُ، فالبصرُ قدْ بَرِق أو بَرَقَ، والقمرُ قدْ خُسِفَ، والشَّمسُ والقمرُ قد جُمِعا. ولذا قال: ﴿بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ ولم يَقُلْ (عَمِيَ) أو نحو ذلك، فإنَّ المُرادَ تعطيلُه مع وجودِه، كما فعَلَ بالشَّمسِ والقمرِ، فإنّه إنَّما عَطَّلهما، فهو تناسبٌ لطيفٌ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالخَسْفِ:

الخسوفُ خسوفان دنيويٌّ جزئيٌّ موقّتٌ، وأُخرويٌّ كُليٌّ دائمٌ

الخسوفُ في مصطلح أهلِ الهيئةِ ذهابُ نورِ القمرِ ذهابًا مؤقَّتًا لتقابلِ النَّيِّرَيْنِ وحيلولةِ الأرضِ بينهما، والمُرادُ بالخسفِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذهابُ ضوءِ القمرِ بالكُلّيَّةِ؛ فهو ذهابُ نورِه لتجلٍّ خاصٍّ في ذلك اليومِ أو لاجتماعِه مع الشَّمسِ وهو المَحاق، فهو خسوفٌ لا يعرفه النّاس في الدنيا، وما يحدث هو تقريبٌ جزئيٌّ مؤقّتٌ لكُلّيٍّ دائمٍ، فلا يستقيمُ وما تعارفَ عليه أهلُ الهيئةِ ولا يكاد يخطر لهم ببالٍ كالجمعِ المذكورِ، إذْ هو من علاماتِ السّاعةِ، وأمارةٌ من أماراتِ اختلالِ الكونِ بهيئتِه المعروفةِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 344.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 209.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 155.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾:

جاءتِ اللّامُ في لفظِ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ للعهدِ الذهنيِّ؛ أيّ: ذلكَ القمرُ الذي عهدتموه في حياتكم الدُّنيا والذي به قوامُ حسابكم ومصالحكم.

توجيهُ تخصيصِ خسوفِ القمرِ بالذِّكْرِ:

في ذِكْرِ اختلالِ مظاهرِ الكونِ حثٌّ على الانشغالِ بما يُنجي في الآخرةِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ خسوفَ القمرِ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾؛ لبيانِ اختلالِ مظاهرِ الكونِ المعهودةِ للخَلقِ عامَّةً، وللمُكذِّبينَ خاصَّةً، وفي بيانِ خسوفهِ على غير المعتادِ من علومِهم تهديدٌ لهم وحثٌّ على الانشغالِ بما يُنجيهم في الآخرةِ دون السُّؤالِ عن موعدِ قيامِ السّاعةِ، فإنَّ موعدَ قيامِها ممّا استأثرَ اللّه بعلمِه.

نُكتةُ عطفِ جَمعِ الشَّمسِ والقمرِ على ما تَقدَّمَ:

الترقّي في ذِكْرِ مظاهرِ القيامةِ وأماراتِ اختلالِ الكونِ

عطفَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ على قولِه: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾، لبيانِ تمامِ الاختلالِ الحاصلِ يومَ القيامةِ، فلا يبقى شيءٌ على وجهه الذي يعرفه الإنسانُ في الدُّنيا، فبدأ ببرقِ البصرِ، ثم ترقَّى من ذِكْرِ برَقِ البصرِ إلى خسوفِ القمرِ وذهابِ ضوئه بالكلّيّةِ، ثمَّ إلى ذِكْرِ اختلالِ أحوالِ الشَّمسِ كذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَةِ الجمعِ:

جمعُ الشَّمسِ والقمرِ اقترانٌ فريدٌ ينشأ عنه تعطُّلُ الحياةِ الدّنيا

دلَّ التّعبيرُ بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ على معنى اقترانهما، فإمّا أن يكونَ الاقتران بينهما في طلوعهما من المغربِ أسودَيْنِ مُكَوَّرَيْنِ مُظلمَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ كأنَّهما ثورانِ عقيران[1]، وإمّا أنْ يُجمعَ بينهما يومَ القيامة ثم يُقذَفانِ في البحر أو في النارِ فيكونان نارَ اللّه الكبرَى[2]، وإمّا أنْ يجمعَ بينهما في ذهابِ الضياء، فالجمع على هذا مجازٌ عن التَّساوي في صفة ذهابِ الضَّوءِ، فلا

(1) ابن عادل، اللُّباب: 19/ 552.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 482.

يكون هناك تعاقبُ ليلٍ ونهارٍ، لِتَكامُلِ إظْلامِ الأَرْضِ على أهْلِها[1].

ولا تنافي بين هذه المعاني، ولعلَّ المُرادَ بالجمعَ هَهُنا التصاقُ القمر بالشَّمس فتلتهمه الشَّمس؛ لأن القمر مُنفصلٌ من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشَّمس كالكواكب ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبيّة التي وضع الله عليها النظامَ الشَّمسيَّ[2]، ثم تتوالى تلك المعاني المذكورةِ، فينعدم الضَّوءُ، ثم تقتربُ الشَّمسُ من رؤوسِ العبادِ في ساحةِ العرضِ، ثم يُقذفُ بهما في النّارِ.

ففي الجمعِ إشارةٌ إلى تعطيل الحياةِ الرّتيبةِ التي كان يرجوها مُسَوِّفو التّوبة، والمُغترّون بالأملِ والذين يُقدِّمون الفجورَ ممَّن تقدَّم ذِكْرُهم بقوله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ففاجأهم ما يستدعي كثرةَ اللَّوْمِ[3].

دلالةُ بناءِ الفِعلِ (جُمِعَ) للمفعولِ:

بيانُ المقاصدِ أوْلى من تعيين الفاعلِ المعلومِ

بُنِيَ فعلُ (جُمِعَ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ المَهولَ هو مُطلقُ جمعِهما في حدِّ ذاتِه، المخرجُ لهما عن العادةِ، فليس المُرادُ ذِكْرَ الفاعلِ تعالى، وإنَّما المُرادُ الدلالةُ على الشِّدَةِ والهولِ، وكذلك فإنَّ في بناءِ الفعلِ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ دلالةً على سُهولةِ الجمعِ ويسرهِ عليه تعالى[4].

دلالةُ تذكيرِ الفعلِ دونَ تأنيثِهِ:

الإشارةُ إلى إحكامِ الجمعِ وشِدَّتِه من جهةٍ وسهولتِهِ ويُسرِه من جهةٍ أخرى

آثَرَ القرآن المجيد تذكيرَ الفعلِ (جُمِعَ) دونَ تأنيثه، فعدلَ عن (وَجُمِعَتِ الشَّمسُ والقمرُ)، وذلك لأنَّ تأنيث الشَّمس غيرُ حقيقيٍّ، فيجوز تذكير الفعل وتأنيثه، وكان اختيار ترك الإلحاق لرعاية حال

---

(1) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 6/ 153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.

(3) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 209.

(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 92.

القمر المعطوف(1)، فهو تغليبٌ للقمر المُذكَّر على الشّمس المُؤنّث(2)، وقيل: إنَّ التذكيرَ حَمْلٌ على المعنى، والتّقدير: جُمِعَ النّوران أو الضياءان. وقيل: لما كان التقديرُ: وجُمع بين الشمس والقمر، ذُكّر الفعل لتذكير (بَيْنَ)(3). وأشارَ بعضُهم إلى أنَّ المُرادَ بيانُ إحكام الجمع وسهولته، فجمع بين الشَّمس والقمرِ جمعًا هو في غايةِ الإحكامِ والشِّدَّةِ، على أيسرِ الوجوهِ وأسهلِها(4).

نكتةُ الترتيبِ في ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾

تبدُّلُ حالِ الأكبرِ الأقوى دليلٌ على يُسرِ تبدُّلِ حالِ الأصغرِ الأضعفِ

قدَّم القرآن المجيد الشَّمسَ على القمرِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾؛ فبدأ بالكوكبِ الأعظم الذي هو أعظمُ نورًا وأكبر جرمًا وأعمُّ نفعًا في حياةِ الإنسانِ ليكون تبدُّلُ حالِ الأكبر والأقوى دليلًا على يُسرِ تبدُّلِ حالِ الأصغرِ والأضعفِ. وكذلك قدَّم الشّمس لأنَّها أظهرُ وأوضحُ للرائين بحُكْم العادةِ المطرِدَة، ولأنَّها الأصل في ضوءِ القمرِ، فيتسبَّبُ عن ذهابِ ضوئِها ذهابُ ضوءِ القمرِ، ومع ذهابِ النّور وتفرُّقِ البصرِ ينكشفُ الغطاءُ عن الخفيات، كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22](5).

فنُّ مراعاةِ النَّظيرِ بين ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾:

تنبيهُ المُنكِرينَ إلى زوالِ نظامِ المُتلازماتِ وتبدُّلِ أحوالِ العلاماتِ

استعمل النَّظمُ مُراعاة النَّظير في ذِكْر ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، وذلك لتنبيهِ المُنكِرينَ على اقتدار اللّه سبحانه على كل ظواهرِ الكونِ، فأضفَى هذا الاستعمالُ على المعنَى حُسنًا وجمالًا، وزادَهُ رَونقًا وبيانًا. فأسهَمَ في تنشيطِ الفاعِليَّةَ الإدْراكيَّةَ في أذهانِ السّامِعينَ والمُتَلَقّينَ. وأدَّى استدعاءُ المظاهر الكَوْنيَّة المُتلازمةِ إلى ترسيخ

---

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 485، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 346، والسّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 569.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 569.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 209 - 210، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 363 - 364.

(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 92.

(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 93.

قدرتهِ تعالى في عقولِ المُتلقّين وقلوبهم، وعمل على إيقاظ حواسِّهم لتدبُّر الكونِ الفسيحِ، وفيهِ حثٌّ للعاقِلِ على إمْعانِ الفِكْر للاعْتِبارِ والاتِّعاظِ بأنَّ كلَّ هذه المظاهرِ مصيرها إلى الزوالِ يومَ القيامةِ، ولو جاء النَّظم بذِكْرِ الشَّمس وحدَها لما كانَ للآيةِ هذا التّأثيرُ البليغُ في النُّفوسِ والعقول[1].

بلاغةُ إيهامِ الطِّباقِ بين ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾

سورةُ القيامةِ مـبـنـيَّـةٌ على ظاهرةِ الازدواجِ

ذهبَ بعضهم إلى أنَّ العلاقةَ بين ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ هَهُنا من باب إيهام الطِّباق، وسرُّ ذلك أنَّ السّورةَ بُنيت على ذِكْر الازدواجِ في التَّعبيرِ، ومنها مراعاةُ جانبِ القيامة وجانبِ النفس اللّوّامة، فالسّورة مبنيةٌ عليهما أصلًا. فضلًا عن مراعاةِ جانب العَجَلةِ، ومراعاةِ الازدواجِ في التَّعبير[2]. والشَّمسُ والقمرُ مُزدوجانِ في معارفِ عمومِ النّاس، فالشَّمسُ نجمٌ سماويٌّ لأنَّه أعلى من الأرض، والأرض تدور حوله وداخلةٌ في النِّظام الشّمسيّ، والقمرُ كويكبٌ أرضيٌّ؛ لأنَّه دون الأرض وتابعٌ لها كبقيَّةِ أقمار الكواكب، وكذلك فإنَّ الشَّمس نجمٌ مُشتعلٌ وهّاجٌ، والقمرُ كويكبٌ معتمٌ باردٌ يضيء بنورٍ بانعكاس ضوءِ الشَّمس، فذِكْرُ الشَّمسِ والقمر كذِكْرِ التَّقدُّم والتأخُّرِ، والوجوهِ النّاضرةِ والوجوهِ الباسرةِ، وغيرها من وجوه الازدواج في السّورةِ، وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن السِّمات الأسلوبيَّة للسّورة.

نكتةُ تكرارِ لفظِ (القمرُ):

بـيـانُ أهــوالِ القيامةِ وتعظيمُ شأنها

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، أُعيدَ لَفظُ (القمرُ) في الفاصلتيْن المتواصلتيْن؛ وذلك لبيان أهوال القيامة وتعظيمها. فالعرب تَستعمل هذا الأسلوبَ من التكرارِ فيما

---

(1) البابرتيّ، شرح التّلخيص، ص: 620.

(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 237 - 240.

تقصد به التّهويلَ والتَّعظيم، وقد اجْتَمَعَ هنا قصْدُ التَّعظيم، فتَأكَّدَ الحاملُ على التّكرير، وإذا تَكرَّرَ أحدُ النَّيِّرَيْنِ المُرادُ اجتماعهما؛ أغنى عن تَكرُّرِ الآخَرِ، وطَلَبَت الفواصلُ منها ما يُناسِبُ المقامَ؛ فجاء على أتمِّ وجهٍ في البلاغة[1].

علّةُ فصلِ قولِه: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

عِـنـدَ نـزولِ الأهوالِ فالفزعُ هو سيّدُ الأحوالِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ عن السّابق؛ لوقوعِ الجملةِ في محلِّ جوابِ شرطٍ غيرِ جازم لأداةِ الشَّرطِ (إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾[2]، وهو إنَّما قُدِّمَ على عامِلِه للاهتمام بالظَّرفِ؛ لأنَّه المقصودُ من سياقِ مجاوبةِ قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[3]. ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الفصلُ هَهُنا للاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّهُ قال: ماذا يحدثُ إذا بَرِقَ البصرُ وخسفَ القمرُ وجُمِعَ الشّمسُ والقمرُ؟! فكان الجوابُ: يقولُ الإنسانُ أين المفرُّ؟.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

تـجـدُّدُ سـؤالِ المُنكِرِ عن المَفَرِّ دليلُ شِدَّةِ الفَزَعِ وقوّةِ الحيرةِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ المُضارعَةِ، وعدلَ عن صيغةِ المُضيِّ فلم يَقُلْ: (قال الإنسانُ)، وذلك لتصوير حاله وهو يصدر عنه السُّؤال تلو السُّؤال: أين المفر؟ فهو ليس قولًا عابرًا؛ بل ترداد يُترجم وقعَ المفاجأة وهول المَشهد وعظيم الموقف، فهو قولٌ مُتجدِّدٌ، بسبب شِدَّةِ وقع المفاجأةِ عليه، فقد تبيَّنَ له في تلك اللحظةِ أنَّ يقينَه المزعومَ بعدم القدرةِ على جمعِ عظامِه قد ذهب أدراجَ الرياحِ، فقد تحققت أماراتُ القيامةِ ووقعت أشراطها، ولم يبق سوى الحسابِ على ما قدَّمتْ يداه، فلا مفرَّ له من الحسابِ.

---

(1) الغرناطيّ، وملاّك التّأويل: 2/ 495.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 364.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الراجح في تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أنّه لجنس الإنسانِ عامَّةً[1]، وهوَ الأليقُ بالسياقِ، إذِ هو المُرادُ بالوعيد بأماراتِ القيامةِ أنْ تكونَ تذكرةً للمُتَّقينَ، وإنذارًا للمُكذِّبينَ المُعانِدينَ.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

تكـرارُ اللّـفـظِ إمّـا للتَّعميم، أو للـتَّـقريـعِ والتَّوبيخ

كرَّرَ القرآن المجيد لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قولِه: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾، وكان مُقتضَى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (يقولُ يؤمئِذٍ أين المفرُّ) على إرادةِ ضميرِ الغائبِ، ولكنَّهُ عدلَ عن هذا الإضمارِ، فأظهر في موضع الإضمار للتّصريح؛ لأنَّ المقامَ لتقريعِه والتَّعجيبِ من ضلالِه[2].

فائدةُ ذِكرِ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

تـعـظـيـمُ يـومِ القيامةِ إذْ هو مـدارُ الـسّـورة الكريمةِ بأسرِها

آثر النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ الظَّرْف في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾، فلم يَقُلْ: (يقولُ الإنسانُ أين المفرُّ؟)، مع تقدُّم ذِكر قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ وهو دالٌّ على اليوم، وذلك لعظمةِ هذا اليوم الذي تدورُ حولَهُ السورةُ كلُّها، والذي كانوا ينكرون وقوعه ويستهزئون فيسألون عن وقته، وللتصريح بأن حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقتٍ واحدٍ[3].

لطيفةٌ في استعمالِ لفظ (يوم):

الإشـــارةُ إلى ذهــابِ زمــانٍ يُـحـسـب بـالـشّـمـس والقمرِ وحلولِ زمانٍ جديدٍ

ثمَّةَ نكتَةٌ لطيفةٌ في استعمالِ لفظِ: (يوم) في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ وهو (يوم القيامة)، وهي أنَّ لفظَ (اليوم) يُستعمل في مدلوليْه لمجموعِ اللّيلِ والنَّهارِ، فناسبَ ذلكَ ذِكر الشَّمسِ والقمرِ، إذ هُما دَليلا اليوم وآيَتاه في الدُّنيا، أمّا يومُ القيامة فهوَ يومٌ لا يتعاقبُ فيه الشَّمسُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 341.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.

والقمرُ، بل يُجمعانِ فيهِ فلا يكونُ بعدُ ليلٌ ونهارٌ، بل هوَ يومٌ مُتَّصلٌ طويلٌ[1]، فنبَّه بذلك على ذهاب زمانٍ يُحسب بالشمس والقمر، ومجيء زمانٍ بحسابٍ جديدٍ.

بَلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ تنوينِ العِوَضِ:

التَّنوينُ في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عوضٌ عن جُملٍ مُتعدِّدَةٍ[2]، والتّقدير: (يقولُ الإنسانُ يومَ إذ برق البصرُ وخسفَ القمرُ وجمعَ الشمسُ والقمرُ: أين المفرُّ؟)، وذلك للإيجاز وتجنُّبِ التكرارِ.

بَلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

الاستفهامُ إمّا للدلالةِ على الحيرةِ والدَّهشَةِ، أو للدلالةِ على تمنّي المستحيلِ

جاءَ الاستفهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ للدلالةِ على معناه الحقيقيِّ لتَحَيُّرِ الإنسانِ ودَهشتِه وطلبِ فرارِه من هولِ ما شاهدَ في هذا اليوم. ومن الممكنِ أن يكونَ الاستفهامُ هنا قد خرجَ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنًى مجازيٍّ: وهو التَّمَنّي والسِّرُّ البَلاغيُّ وراءَ التَّمنّي بالاستفهام هو إبرازُ المستحيلِ أو البعيدِ الحُصولِ في صورةِ المُمْكِنِ؛ وهذا يُنبِئُ بكمال العناية به وشدَّة الرَّغبة في وقوعه[3]؛ أيْ: ليت لي مكانًا أفرُّ إليه ممّا أراه[4]، إذا كانَ المُرادُ بـ﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾ اسم مكانٍ، أو: لَيْتَ لي فِرارًا في مَكانِ نَجاةٍ[5]، إذا كانَ المُرادُ بـ﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾ المصدرُ، وهو الفرارُ من هذه الأهوالِ العظيمةِ.

معنَى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾:

انعدامُ إمكانيةِ الفرارِ دليلٌ على الشُّعورِ باليأسِ

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡمَفَرُّ﴾ للجنسِ، والمُرادُ البحث عن جنس المكان الذي يمكِّنُ الإنسانَ من الفرار إليه، أو لونٍ من ألوانِ الفرارِ ينجيه من

---

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّة، ص: 237 - 240.
(2) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالَيْن: 7/ 257.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 164، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 416، والشّهاب، عناية القاضي: 8/ 281، وحَقّي، روح البيان: 10/ 246، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 156، وميرفت، من أسرار البلاغة في سورة القيامة، ص: 700.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 15/ 200.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.

هذه الأهوالِ. ويحتملُ وجهَيْن: أحدُهما: أينَ المَفَرُّ من الله استحياءً منهُ. والثّاني: أينَ المَفَرُّ من جهنَّمَ حذرًا منها. ويحتمل هذا القولُ من الإنسانِ وجهَيْن: أحدُهما: أن يكونَ من الكافرِ خاصَّةً في عَرصَةِ القيامةِ دونَ المؤمنِ، لِثِقَةِ المؤمنِ ببُشرى ربِّه. والثّاني: أن يكونَ من قولِ المؤمنِ والكافرِ عندَ قيامِ السّاعة لهولِ ما شاهدوا منها[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾:

رغبـةُ الإنسانِ يومَ القيامةِ في الهربِ والمُباعدَةِ لما يلقاه من شدَّةِ الهولِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ استعملَ القرآن المجيد مادَّةَ (فرر) لما فيها من معنى الانكشافِ والرَّوَغانِ والهربِ، والرَّغبةِ في المُباعدَةِ[2]، فهي تشيرُ إلى شِدَّةِ حرصِ الإنسانِ على الهربِ لما ينتابُه من الفزع والهلع والرُّعبِ، فلا يتمالكُ نفسهُ من هذه الحيرة والدَّهشةِ وتمنّي الفرارِ إلى ملجأ يعصمه ممّا يراه من الأهوالِ.

دلالةُ الصّيغةِ على تعدُّدِ المعاني:

جاءتْ مُفردةُ ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ على صيغةِ (مَفْعَل) فاحتملتْ ثلاثةَ معانٍ، الأوَّلُ أنْ يكونَ المُرادُ موضعَ الفِرارِ، والثّاني: وقتَه، والثّالث: الفرارَ نفسَه[3].

توجيهُ الوقفِ والابتداءِ في فصلِ قولِه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾:

الآيـةُ إمّا جوابٌ من الله تعالى، وإمّا جوابٌ من الإنسانِ لنفسهِ

فصلَ القرآنِ المجيد قولَ اللّه سبحانه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ عن قولِه: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا عن السُّؤالِ السّابقِ، فيجوز أن يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنفًا من اللّه سبحانه جوابًا لمقالةِ الإنسان؛ أيْ: لا وزرَ لكَ، فينبغي الوقفُ على ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾، ويجوزُ أن يكونَ من تمامِ مقالةِ الإنسانِ، أي يقولُ:

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 153، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرر - فرفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرر).

أينَ المفرُّ؟ ويجيبُ نفسَه بإبطالِ طمعِه في الهربِ، فيقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾؛ أيّ: لا وزَرَ لي، وذلك بأنْ نظرَ في جهاتِه فلم يجد إلّا النّارَ وقد أحاطت به من جميعِ جهاتِه، فيحسُنُ أنْ يوصَلَ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بقولِه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[1]، والرّدع الزّاجر من الله تعالى واضحٌ بيِّنٌ، وردع الإنسان لنفسِه مُتّسِقٌ مع معنى اللّوم المُفتتح به السّورة، فيكون لائمًا رادعًا، ولا مانع من اجتماع الأمريْن: الرَّدع من الله تعالى، ومن الإنسان لنفسه.

معنَى ﴿كَلَّا﴾ وبيانُ مرجعها:

ردعُ الإنسانِ نفسه عن طلبِ المَفَرِّ، أو ردعُ الله لهُ

﴿كَلَّا﴾ حرفُ ردٍّ وزَجرٍ ورَدعٍ عن طلبِ المفَرِّ، وقيل: هو حرف نفيٍ بمعنى انعدام المَفَرِّ أو الفرارِ أو وقتِه، وفيه معنى الزَّجرِ والرَّدعِ[2]، وغرضُ استعمالِ هذا الحرف بيان مدى شِدَّةِ الفزعِ من أهوالِ القيامةِ، فذلك اليومُ يومُ انقطاعِ الأسبابِ، فإنَّه لا سبيل إلى ملجأٍ أو مُعتصَمٍ[3].

مَعنَى ﴿لَا﴾ ونُكتةُ استعمالِها:

النَّفي بـ(لا) النّافيةِ للجنسِ استغراقٌ وإعلامُ المخاطَبِ ما لم يكنْ يعلمُ

آثَرَ القرآن المجيد نفيَ الوَزَرِ بـ﴿لَا﴾ التي لنفي الجنسِ، لما فيها من قوَّةِ النَّفي واستغراقِه، إذْ يذكر النُّحاة أن (لا) هذه نصٌّ في نفي الجنس؛ فهي لنفي الجنس برجحانٍ، كما أنَّ النفي بها يتضمَّنُ معنى (مِنْ) الاستغراقية؛ وذلك لأنَّ قولَك (لا وزَرَ) نَصٌّ في نفي الجنسِ بمنزلةِ (لا مِنْ وزَرٍ)، ثمّ إنَّ (لا) جوابٌ لسؤالٍ حاصلٍ أو مُقدَّرٍ، هو (هل من مفرٍّ)، فالجوابُ بـ(لا) يكون إعلامًا للمُخاطَبِ بما لم يكنْ يعلمُ، أو ما نزلَ هذه المنزلةِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 365.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 346، والسّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 569.
(4) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 366.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿وَزَرَ﴾:

كلُّ أشكالِ الحمايةِ والتَّحصُّنِ والمنعةِ مُنتفيةٌ عن النّاسِ يومَ القيامةِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿وَزَرَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وذلك لما فيها من معنى حفظ الشيءِ بضَمِّه وحَمْلِه واحتوائِه في الأثناءِ[1]، فشملَ التعبيرُ بها كلَّ أشكالِ الحمايةِ والتَّحَصُّنِ والمنعةِ[2]، وأصل هذا أنهم كانوا إذا ضُيِّقَ عليهم في الحروبِ والهزائم الشِّدادِ لجؤوا إلى الجبالِ والمعاقلِ[3]، فقد كانت العربُ يُغيرُ بعضُها على بعضٍ، فكانَ الرَّجلانِ يكونانِ في ماشيَتِهما، ولا يشعرانِ حتى يأتيهما الخيلُ، فيقول الرجلُ لصاحبه: الوَزَرَ، الوَزَرَ؛ أي: الجَبَلَ، الجَبَلَ، فأُعْلِموا أنَّه لا ملجأ من عذابِ اللّه في القيامةِ إلى جبلٍ ولا إلى غيرِه[4]. مع ما فيها من رعاية فواصلِ الآياتِ.

دلالةُ تنكير ﴿وَزَرَ﴾:

جيءَ باسم ﴿لَا﴾ النافية للجنس ﴿وَزَرَ﴾ نكرةً، كما هو شرطها النحويُّ؛ لإفادةِ العمومِ والاستغراقِ وتأكيدِ نفي الملجأ أو المتعصَمِ.

علّة حذفِ خبرِ ﴿لَا﴾:

حذفَ القرآن المجيد خبرَ ﴿لَا﴾ النافيةِ للجنسِ من قولِ اللّه تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ لدلالةِ السياقِ عليه، وتقديره إمّا: لا وزرَ لَه، أو: لا وزرَ هناكَ[5]. وهو الشائعَ في الاستعمال.

علّة فصلِ قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾:

بيانُ مستقرِّ الإنسانِ بعدَ أنْ عُدِمَ الملجأُ والمعتصَمُ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ عن الجملةِ السابقةِ عليه، وهي قولُ اللّه سبحانه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، لما بينهما من شبه كمالِ الاتصالِ، إذ الجملتانِ خبريَّتانِ لفظًا ومعنًى،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وزر).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وزر).
(3) القيسيّ، الهداية إلى بلوغِ النهاية: 12/ 7869.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 490.
(5) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 365.

وجاءتِ الجملةُ الثانيةُ استئنافًا بيانيًّا، فهي كالتعليل للجملةِ قبلَها، أو هي تحقيقٌ وكشفٌ لحقيقة الحال[1]، إذ إنَّ مقتضى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ سواءٌ أكانَ من كلامِ الله أو حكايةً لكلامِ الإنسانِ بعد سؤاله عن المَفَرِّ، أن يخطرَ في بالِ المُتلقّي سؤالٌ فحواه: إذا عُدِمَ الوَزَرُ، فما هو مصيرُ الإنسانِ ومُستقرّه؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

غَرضُ تَقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

اختصاص المرجع والمآلِ إلى الله وحدَه تعالى

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملةِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، وكان مُقتضى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (المُسْتَقَرُّ إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ)، فعدلَ عن ذلك إلى تقديم شبهِ الجملةِ لإفادَةِ الاختصاصِ والحصرِ؛ إذ المعنى: إليه ﷻ وحدَه استقرارُ العبادِ؛ أيّ: لا ملجأ ولا مَنجَى لهم غيره ﷻ، أو إلى حُكْمِه تعالى استقرارُ أمرِهم، لا يحكمُ فيه غيرُهُ سبحانه، أو إلى مشيئته تعالى مَوْضِعُ قرارَهم من جنةٍ أو نارٍ؛ فمَن شاءَ أدخلَه الجنَّةَ، ومَنْ شاءَ أدخلَه النّارَ[2].

تعيينُ مرجعِ ضميرِ الخطابِ:

خطابُ رسولِ الله ﷺ وعظٌ لأُمَّتِه

يحتملُ أن يرجع ضمير الخطابِ في قولِ الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ إلى النبيِّ ﷺ، ويحتمل أن يكونَ عائدًا على الإنسانِ، فعلى الاحتمالِ الأولِ يكونُ قد انتقل من خطابِ الإنسانِ إلى خطاب سيِّدِ المخاطبين ﷺ، ولا يحسنُ أن يكون هذا القولُ من جملةِ ما يُخاطَبُ به القائلُ في ذلكَ اليوم، ولا ممّا يقولُه لنفسه فيه لمكانِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[3]، وعلى الاحتمالِ الثاني يكونُ في الالتفاتِ تنبيهٌ لكلِّ إنسانٍ على حدَةٍ، ففيه تذكيرٌ بمصيرِه الذي لا محيدَ له عنه[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 155.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 155.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 155.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 93.

بَلاغةُ الالتِفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ:

الْتَفتَ البيانُ القرآنيُّ من ضميرِ الغيبةِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾، وفي هذا الالتفاتِ مزيدُ تشريفٍ للنَّبي ﷺ. فضلًا عمّا في هذا الالتفاتِ من التَّمهيدِ لما سيجيءُ من حديثٍ حولَ نهيه عن التَّعجُّلِ في قراءة القرآنِ.

الخطابُ إمّا مزيدُ تشريفٍ للنَّبيّ ﷺ، أو لفتٌ لانتباهِ الإنسانِ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ:

آثرَ القرآن المجيد التعبيرَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ دونَ لفظِ الألوهيَّةِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾، لما في لفظِ الربوبيَّةِ من جانبِ التربيةِ والإحسانِ، فعلى احتمالِ عودِ الضمير للنبي ﷺ يكونُ التعبيرُ بالربوبيَّةِ إشارةً إلى أنَّهُ تعالى سيزيدُ في إحسانه إليه ﷺ يومئذٍ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته[1]. وعلى الاحتمالِ الثاني وهو عود الضميرِ إلى الإنسانِ يكونُ التعبيرُ بالربوبيَّةِ إشارةً إلى عظيمِ سيادتهِ تعالى بأنْ يكونَ المصيرُ له وحدهُ، فاختيار كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ ههنا اختيارٌ مقصودٌ فالرَّبُّ هو المالكُ والسَّيِّدُ والمُدبِّرُ والمُربّي والقَيِّمُ والمُنعِمُ، فهو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُه ومُستحقُّهُ[2]. وفيه تبكيتٌ للعاصينَ المُكذِّبينَ وتذكيرٌ للمُتَّقينَ المُصدِّقينَ.

زيادةُ الإحسانِ للنَّبيِّ ﷺ بالانتقامِ، أو التّذكيرُ بكونِ المصيرِ إليه وحده تعالى

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ:

قُدِّم ذِكْرُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾؛ للاهتمام بهذا اليوم الذي هو مدارُ السّورةِ كلِّها، ولتخصيصِ كونِ المُستقرِّ فيه للّه، وهو تقديمٌ يقتضيه الكلامُ، فالمُستقرُّ في ذلك اليومِ خاصَّةً إلى اللّه سبحانه، أمّا في الدنيا فاللّه ﷻ قد فتح أبواب السُّنن ليبحث الإنسان عن مُستقرٍّ له بإذنه

وجدانُ المُستقرِّ في الدُّنيا من سُننِ الله فيها بخلافِ الآخرةِ فالمُستقرُّ لله وحدَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.

(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 210.

وإرادته، فقد يجد مُستقرًّا يأوي إليه ويستقرُّ فيه، أمّا في ذلكَ اليومِ على وجهِ الخُصوصِ فلا مُسۡتَقَرَّ إلّا إلى اللّه تعالى[1].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾:

كلُّ مُستقَرٍّ فثابتٌ إلى الله وحده

جاءَتۡ لامُ التعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ للدلالةِ على الجنسِ، وهي تفيدُ الاستغراقَ، فليس ثمَّةَ من مُستقَرٍّ لهم إلّا إلى اللّه سبحانه، وهي عوضٌ عن مُضافٍ، بتقدير: إلى ربِّكَ استقرارُ أمرهم، أو: إلى مشيئته موضع قرارهم يُدخل مَن يشاء الجنة، ومَن يشاء النار.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمُفردة ﴿ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

مُنتهى الخَلْقِ ومرجعهم إلى الله وحدَهُ لحسابِهم وجزائِهم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ باستعمالِ مادَّةِ القرارِ لما فيها من الدلالَةِ على التَمَكُّنِ والثباتِ والامتساك[2]، والمُرادُ هَهُنا بالمُسۡتَقَرّ: المُنتَهى والمَرجِعُ، باستِقرارِ أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلِ النّارِ في النّارِ[3]. وقد عبَّرَ النَّظمُ ببناءِ الاستفعالِ بزيادَةِ السينِ والتاءِ على مادَّةِ القرارِ للمبالغةِ[4] في التَّوكيدِ على أنَّهُ لا قرارَ بعد هذا الاستقرارِ الذي أرادَهُ اللّه تعالى.

والمُستقَرُّ اسمُ مكانٍ، فالمُرادُ: إلى رَبِّكَ مستقرُّهم بعدَ الحشرِ، وهو دارُ الخلودِ، فيُدۡخِلُ مَن يشاءُ الجنَّةَ من السُّعداءِ، ويُدۡخِلُ مَن يشاءُ النّارَ من الأشقياءِ، بتقدير العموم في: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، للأبرارِ والأشرارِ، فحينئذٍ يكونُ إسنادُ القولِ إلى الجنسِ[5]، ولفظ ﴿ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ يفيد زمانَ الاستقرارِ أيضًا؛ أيۡ: إنَّ وقتَ الفصلِ بين الخلائقِ، وسوقِهم إلى مُستقرِّهم عائدٌ إلى مشيئته تعالى؛ فهم يمكثونَ في ذلكَ اليومِ ما يشاءُ اللّه أن يمكثوا، ثم هو يحكمُ بوقتِ

---

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 210.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرر - قرقر).

(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 154، وابن الجوزيّ، زاد المَسير: 4/ 370.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.

(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 416.

ذَهابهم إلى مواطنِ استقرارِهم. فكلمة ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أفادتْ ثلاثةَ معانٍ مجتمعة، علاوةً على ما تقتضيه الفاصلةُ في نهايةِ الآيات، ولا تُغني كلمةٌ أخرى عنها، فلو أُبدلت بها (الاستقرارُ) ما أدّتْ تلكَ المعاني، فهي أنسب كلمةٍ في هذا الموضع[1].

بلاغةُ الإدماجِ:

توكيدُ ملكِ الله تعالى وحدَهُ لمُستقرِّ الخلقِ أجمعينَ

جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ على سبيل الاعتراضِ والإدماج للتذكيرِ بملكِ هذا اليوم للّه تعالى دونَ غيره، فالجملةُ معترضةٌ بينَ قولِ اللّه سبحانه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ وقولِه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ زيادةً في بيانِ المعنى المُرادِ وتوضيحِه وتوكيدِه[2].

علّة فصلِ قولِه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

بعد إثباتِ المصيرِ إلى اللهِ يقعُ الإنباءُ بالحسابِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ عن قولِ اللّه سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، لما بينهما من شبه كمالِ الاتّصالِ، فقد وقعتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا أثارَهُ قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أو: بدلَ اشتمالٍ من مضمونِ تلكَ الجُملةِ؛ أيْ: إلى اللّه مصيرُهم، وفي مصيرِهم يُنَبَّأونَ بما قدَّموا وما أخَّروا[3]. وقيل: فصَلَ هذه الجملةَ عمّا قبلَها لاستقلالِ كُلٍّ منهما[4].

نكتة بناءِ فعلِ ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾ للمفعولِ:

كشفُ الأسرارُ وهتكُ الخفايا مقصودٌ للتّوطئةِ للحسابِ

آثر النَّظمُ التعبيرَ بصيغة المَبنَيِّ للمفعول في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ دونَ التصريحِ بالفاعلِ، فلم يَقُلْ: (يُنَبِّئُ اللّه الإنسانَ)، وذلك لأنَّ المُرادَ في هذا السّياقِ بيانُ

---

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 211.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 155.

كشفِ الأسرارِ في حدِّ ذاتِه، إذ هو المُنَكِّئُ لهم ولما ستروه من أفعالهم، لا كونُه منْ كاشِفٍ مُعَيَّنٍ، وفيه كذلك دلالَةٌ على يُسرِ ذلك عليه تعالى بأنَّ مَنْ نَدَبَه إلى ذلكَ فعَلَهُ كائنًا منْ كانَ[1].

علمُ اللهِ بما قدَّمَ الإنسانُ وأخَّرَ يقينٌ حاسمٌ

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾:

آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بالفعلِ (نبَّأ) دون (أخبرَ)، وذلك لأنَّ النَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به عِلمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عن الكذبِ؛ كالتَّواتُرِ، وخبرِ اللّه سبحانه، وخبرِ النبيِّ ﷺ[2]. ولمّا كانَ علمُ اللّه تعالى بما قدَّمَ الإنسانُ وما أخَّرَ لا يحتملُ الشَّكَّ أو الكذبَ، وكان ذلك العِلمُ ذا فائدةٍ عظيمةٍ في التَّمييزِ بين الطّائعينَ والعاصينَ؛ لذا فقد كان التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾ أنسب للسّياقِ، كما أنَّ الإنباءَ بالفعلِ أقوى من الإخبارِ بالقولِ، وإنْ كانَ مجازًا[3].

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾ استحضار الصّورة، فإنَّ استحضار صورة إخبار النّاس يوم القيامة بما قدّموا وأخّروا، فيه مزيدُ وعظٍ وتحذير.

غرضُ الإنباءِ الجزاءُ والحسابُ

بلاغةِ الكنايةِ في ذِكرِ فعلِ ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾:

عبَّرَ القرآن المجيد بالفعلِ ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾ كنايةً عن مجازاةِ الإنسان على ما فعلَه إن خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ، فكان الإنباءُ من لوازم الجزاءِ قال تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التّغابن: 7]، ويحصلُ في ذلكَ الإنباءِ تقريعٌ وفضحٌ لحالِه[4]، وليس

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 94.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نبأ).
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 451.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.

المُراد بالإنباء مُجرّد الإخبار المعرفي؛ بل ما يترتّب عليه من الجزاء والحساب.

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الإنباءُ سيكونُ لعمومِ جنسِ الإنسانِ دون استثناءٍ

الراجح في اللّام في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أنَّ المُرادَ هَهُنا - كما هو في المواضعِ السّابقةِ - هو جنسُ الإنسانِ عامَّةً[1]، وهوَ الأليقُ بالسّياقِ، إذِ هو المُرادُ بالوعيد بأماراتِ القيامةِ أنْ تكونَ تذكرةً للمُتّقينَ المُصدِّقين، وإنذارًا وتهديدًا للمُكذِّبينَ المُعاندينَ. إذِ المعنى: يُخبَرُ كلُّ امرئٍ بَرًّا كانَ أو فاجرًا عند وزن الأعمال بما عملَ منْ عملٍ خيرًا كانَ، أو شَرًّا؛ فيُثابُ بالأوّلِ، ويُعاقبُ بالثّاني[2].

وتمسَّكَ بعضُ المُفسِّرينَ بتخصيصِ دلالةِ التَّعريفِ بأنَّهُ ينبغي أن يكونَ المُرادُ بلفظِ: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافرَ دون المؤمن، جريًا على سياق الآياتِ السّابقة لأنَّه المقصودُ بالكلام، وإن كان كلُّ إنسانٍ يُنَبَّأُ يَوۡمَئِذٍ بما قدَّمَ وأخَّرَ من أهلِ الخيرِ ومن أهلِ الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾ [آل عمران: 30]، واختلافُ مقاماتِ الكلامِ يمنعُ من حملِ ما يقعُ فيها من الألفاظ على مَحْمَلٍ واحدٍ، فإنَّ في القرآنِ فنونًا من التَّذكيرِ لا تلزمُ طريقةً واحدةً، وهذا ممّا يغفلُ عن مُراعاتِه بعضُ المفسِّرينَ في حملِهم معاني الآياتِ المُتَقاربَةِ المغزَى على مَحامِلَ متماثلةٍ[3].

نكتةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

إظهارُ المقصودِ بالخطابِ تنبيهٌ نفسيٌّ وتحذيرٌ إضافيٌّ

كرَّرَ القرآن المجيد لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وكان مُقتضى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (يُنَبَّأُ يَوۡمَئِذٍ بما قَدَّمَ وأخَّرَ) على إرادةِ ضميرِ الغائبِ، ولكنَّهُ عدَلَ عن هذا الإضمارِ، فأظهر في موضع الإضمار زيادةً في التنبيه، فإنَّ ذِكر

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 485، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 98.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 66.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 346.

المقصودِ بالكلام إظهارٌ لقَصْديَّة الخطاب مع ما فيه من لطيفة التّذكير بصفةِ النِّسيانِ التي في لفظ الإنسان[1].

فائدةُ ذِكْرِ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾:

تعظيمُ يومِ القيامةِ إذْ هوَ مدارُ السّورةِ الكريمةِ بأسرِها

آثر القرآن المجيد ذِكْرَ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، فلم يَقُلْ: (يُنَبَّأُ الإنْسانُ بما قَدَّمَ وأخَّرَ)؛ وذلك توكيدًا لعَظَمَةِ هذا اليومِ الذي تدورُ حولَهُ السّورةُ كلُّها، الذي هو الزِّلزال الأكبرُ[2]، والذي كانوا يُنكرونَ وقوعَه ويستهزئون فيسألون عن وقته، وللتَّصريح بأنَّ حصول هذه الأحوال الثّلاثة في وقتٍ واحدٍ[3].

دلالةُ استعمالِ تنوينِ العِوَضِ:

التّنوينُ في لفظ ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ عِوضٌ عن جُمَلٍ متعدِّدَةٍ[4]، والتقدير: (ينبأُ الإنسانُ يومَ إذ سيقَ إلى مستقرِ أمره)، ففي تنوينِ العِوَضِ إيجازٌ وتجنُّب التَكرارِ، وهو ما يُلائِمُ بلاغةَ بيانِ القرآن.

نوع الباءِ ودلالتها:

ارتهانُ كلِّ امرئٍ بعملِه

حرفُ الباءِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ للسَّبَبيَّةِ؛ أيْ: إنَّ الإنباءَ في ذلك اليوم ناشئٌ عن سببٍ مُهم، وهو ما قدَّموه أو أخَّروه، ويحتملُ أنْ يكونَ معنى الباءِ هَهُنا للإلصاق، فكأنَّ النبأ لصيقٌ بصاحبه لا ينفكُّ عنه، وفيه إشارةٌ إلى شدَّةِ التلازم بين المرءِ وعمله، فهو مُرتَهَنٌ به.

دلالةُ استعمالِ (ما):

الإنباءُ في الآخرة يشملُ كلَّ أعمالِ الإنسانِ التي قدَّمها وأخَّرَها

تحتمل (ما) في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أن تكون اسمًا موصولًا، والجملةُ بعدها صلةُ الموصولِ لا محلَّ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 32.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 94.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 345.
(4) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالَيْن: 7/ 257.

لها من الإعرابِ، أو تكون نكرةً موصوفةً، أيْ: بشيءٍ قدَّمه وأخَّرَه، وما بعده في محلِّ جَرٍّ صفةٍ لـ(ما)[1]. وقد آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بها دون الاسم الموصولِ (الذي) لما في (ما) من العموم والإطلاقِ الذي يُناسبُ المَقامَ، إذِ المقصودُ الإنباءُ بكلِّ الأعمالِ التي قدَّمها الإنسانُ أو أخَّرَها، فلا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، ولاحتمال أن تكون نكرةً مقصودةً فتدلّ على العموم كذلك، ولو أتى بالاسم الموصول الصّريح، لكان المقصود أعمالًا معلومةً بعينها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

النّيّةُ والقَصْدُ شرطٌ للمجازاةِ على العملِ

جاء التعبير في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بمادَّةِ التّقديم لما فيها من الدلالةِ على النفاذ بقوَّةٍ إلى الأمام، وكذلك عبَّرَ بمادَّةِ التّأخيرِ لما فيها من الدّلالةِ على الإرجاءِ[2]، والتّضعيفُ في الفعلَيْن دليلٌ على المبالغةِ في القَصْدِ[3]، فهو تعالى لا يُجازي إلّا على ما قصدَهُ الإنسانُ قصدًا وبيّتَ له النيَّةَ.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتُها:

شمولُ الإنباءِ والحسابِ لكلِّ قولٍ وعملٍ صادرٍ عن الإنسانِ

قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ كنايةٌ عن الاستقصاءِ[4] وعموم الأعمال للإنسان في الدنيا، فكَنَّى بالجملة عن كلِّ قولٍ وعمل وتصرف للإنسان؛ لأنّه يُنبأ بكلِّ ويُسْأل عنه، كما في قولِه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: 37]؛ أيْ: نذيرًا لِمَن شاءَ منكم أن يتقدَّم إلى الخيرِ والطّاعة، أو يتأخَّرِ إلى الشَّرِّ والمعصيةِ. ونظيرُه ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ﴾ [الحجر: 24]؛ أيْ: في الخير، ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24][5]، فهي قِسمَةٌ تستوفي كلَّ عملٍ، أيْ:

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 367.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم) و(أخر).
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 95.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 95.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم) و(أخر).

يَعْلَمُ بكلِّ ما فعَلَ، ويجِدُه مُحَصَّلًا[1]، وجميع ما قيل في تفسير ما قدَّم وأخَّر فهو من بابِ التَّمثيل[2].

عِلَّة حذفِ مُتعلّقَي التَّقديمِ والتَّأخير:

في الحذفِ إرادةٌ للعمومِ، وللتَّخويفِ والتَّرهيبِ

آثر النَّظمُ الكريم حذفَ مُتعلقيَ فعليَ ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، فلم يذكر المُقدَّمَ أو المُؤخَّرَ، فلم يَقُلْ: (بما قَدَّمَه وأخَّرَه من الأقوالِ والأفعالِ)، وذلك لإرادَة العموم، فهو تعالى عليمٌ بكلِّ أفعالِ الإنسانِ وأعمالِه وخطراتِ قلبه، وما عملَ من عملٍ ابتغاءَ وجه اللّه، وما قصد به النِّفاقَ وغير ذلك من دقائق ما قدَّمَ وأخَّرَ. ولإرادة الترهيبِ والتخويفِ، وهو ما يتناسب مع اختيار (ما) والكناية في فعلي التقديم والتأخير.

علّةُ تقديمِ فعلِ ﴿قَدَّمَ﴾ على (أخَّرَ):

بدأ القرآن المجيد بالفعلِ ﴿قَدَّمَ﴾ قبل الفعلِ (أخَّرَ) نظرًا لما تقتضيه القِسمةُ العقلية من البدءِ بالمُقدَّمِ والانتهاءِ بالمُؤَخّرِ، فالترتيبُ على صفته الزّمانيّةِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾:

إبرازُ غايةِ الحسابِ يومَ القيامةِ وما فيه من الشُّمولِ لأعمالِ الإنسانِ

أسهم ما بينَ الفعلينَ من الطِّباقِ في بيانِ شمولِ الإنباءِ في يومِ العرضِ لكلِّ ما فعله الإنسانُ في حياته، فجاءَ الطِّباقُ مُبرزًا لشمولِ علم اللّه سبحانه، وفيه كذلك إشارةٌ إلى ما في الآيةِ من التّخويفِ والتّهديدِ للمُكذّبينَ العاصينَ، والتّذكيرِ والتّنبيه للطّائعينَ المصدقينَ، وهو ما يتناغم مع دلالة التركيب ودقائق القرآن المجيد.

معنَى ﴿بَلِ﴾ وفائدةُ إعادَتِها:

جاءتْ ﴿بَلِ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 403.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 484، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 282، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 493، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 347.

نفس الإنسانِ شاهدةٌ على أفعالِه، فلا يكادُ يحتاجُ إلى تذكيرٍ أو إنباءٍ

إضرابًا بمعنى التَّركِ والانتقال، لا على معنَى إبطالِ القولِ الأوَّل بإنباءِ الإنسانِ يومئذ بأعمالِه[1]، على معنى: بل لا يحتاجُ إلى أنْ يُنَبِّئَه غيرُه؛ وذلك لأنَّ نفسَه شاهدةٌ بكونِه فاعلًا لتلك الأفعالِ، مُقْدِمًا عليها[2]. وقد أخبر اللّه سبحانه في الآية الأولى أنَّ الإنسانَ يُخبَرُ يومَ القيامةِ بأعمالِه، ثمَّ ذكرَ في هذِه الآيةِ أنَّه شاهدٌ على نفسِه بما عَمِلَ، ويكونُ هذا من صفةِ الكُفّارِ، فإنَّهم يُنكرون ما عَمِلوا، فيختمُ اللّه على أفواهِهم، وتنطقُ جوارحُهم[3]. وقد أعادَ القرآن المجيد ذِكْرَ أداةِ الإضرابِ ﴿بَلِ﴾ للتذكيرِ بالاقتران بين يوم القيامةِ والنَّفسِ اللَّوّامةِ في مُفتتح السورة[4].

معنَى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

كلُّ إنسانٍ عليمٌ بحقيقةِ نفسِه

تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنس، إذِ المُرادُ بالوعيد بأمارات القيامةِ أنْ تكونَ تذكرةً للمُتّقينَ المُصدّقين، وإنذارًا وتهديدًا للمُكذِّبينَ المُعاندينَ. إذِ المعنى: كُلُّ واحِدٍ من هذا النَّوْعِ[5] شهيدٌ على نفسِه، عالمٌ بما فعَلَه، فهو حجةٌ بيّنَةٌ على أعمالِه[6]، ويحتمل أن يكون المُراد بلفظِ: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافرَ دون المؤمنِ[7]، والقول بالعموم أرجحُ، إذ لم تذكرُ الآياتُ أنَّ المقصودينَ هَهُنا قد أنكروا ما فعلوه في الدنيا، وإنَّما غرضُ السورة أن تبيِّنَ معالمَ القيامةِ وما فيها أحداث وأهوالٍ للعظةِ والاعتبارِ، ومن بينِ هذه الأحداثِ شهادةُ الإنسانِ، كُلِّ إنسانٍ على نفسه بما عملَ، ولملائمة السياقِ لمعنى النسيانِ هَهُنا، إذ من شأنِ الإنسانِ أنْ ينسى جُرمهَ أو يتناساهُ.

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 404.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 726.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 494.
(4) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 207.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 95.
(6) وهبة الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 257.
(7) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 494.

نكتةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

أظهر النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قولِه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾، دون الاكتفاء بالإضمار، فلم يَقُلْ: (بَلِ هو عَلَى نَفْسِهِ بَصيرَةٌ)، وذلك لبيانِ المسؤوليَّةِ الفرديَّةِ، وأنَّ كلَّ إنسانٍ سيُحاسِبُ نفسَهُ في الآخرةِ بشهادةِ جوارِحه عليه، فالأَوْلى لهُ أن يحاسبَ نفسَهُ في الدُّنيا قبل هذا اليومِ العصيبِ، ومن شأن الإظهار التّصريح بتبكيت المُقصِّر من النّاس، وتوبيخ مَن لم يُتبع نفسه هداها.

المُرادُ عمومُ جنس الإنسانِ، والتكرارُ والإظهارُ لبيانِ المسئوليةِ الفرديَّةِ لكل إنسانٍ

نُكتةُ التّعبير بحرفِ الاستعلاءِ:

جاءَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ على أصلِ معناه المُفيدِ للاستعلاءِ، فأشارَ إلى أنَّ بصيرَةَ الإنسانِ وشهادةَ جوارِحه عليه تكونُ مُستعليَةً على مزاعمه وادِّعاءاتِه بأنَّه لم يفعلْ هذه الأفعالَ والأعمالَ التي يُنَبَّأُ بها في الآخرةِ، وهي كذلك مُستعليةٌ على التماسهِ المعاذيرَ بغير حقٍّ، فهي شهادةٌ صادقةٌ وحُجَّةٌ بيِّنَةٌ تستعلي على الكذبِ.

بصيرةُ الإنسانِ على نفسِهِ شهادةٌ صادقةٌ وحُجَّةٌ بيِّنَةٌ

بَلاغةُ التَّضمين:

ضُمِّن ﴿بَصِيرَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ معنى المراقبة لتعديته بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ وهو معنى قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14][1].

غَرضُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ:

قدَّمَ النَّظمُ شبهَ الجملةِ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ على ﴿بَصِيرَةٞ﴾ للتخصيص؛ أيْ: تخصيص بَصَرِ الإنسانِ بنفسِه؛ لأنَّه أولى بذلك من غيره، إذ هو بضرورةِ عقلِه يعلمُ أنَّ ما يُقَرِّبُه إلى اللّه ويشغلُه بطاعتِه وخدمتِه هو سبيل السعادةِ الأخرويةِ، وأنَّ ما يبعدُه عن طاعةِ اللّه ويشغلُه

الإنسانُ أعرفُ الناسِ بنفسِه، حتَّى لو ادَّعَى غير ذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 347.

بالدنيا ولذّاتِها هو الشقاوة الحقيقيةُ، فهبْ أنَّه بلسانِه يُرَوِّجُ ويُزَوِّرُ ويَرى الحقَّ في صورةِ الباطلِ والباطلَ في صورةِ الحَقِّ، لكنَّه بعقلِه السليمِ يعلمُ أنَّ الذي هو عليه في ظاهرِه جيدٌ أو رديءٌ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النفس مجبولةٌ على إبصارِ الحقِّ والباطلِّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ عبَّرَ القرآن المجيد بمادَّةِ البصرِ لما فيها من الدّلالةِ على وُضوحِ الشّيءِ، ومنها البصيرةُ، على صيغةِ (فعيلةِ) الدالَّةِ على المبالغةِ بمعنى البُرهانِ ونَفاذِ القلب[2]، والبصيرةُ كذلك اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب من الدّين وحَقيقِ الأمرِ[3]، فتارةً تكونُ البصيرةُ بأن يكونُ خالقُ الإنسان قد أوجدَه على ما هو عليه من العِلْمِ وسلامةِ الأسبابِ المُزيلةِ للعِلَلِ، وتارةً بإنطاقِ جوارحِه[4].

دلالةُ لفظِ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بينَ الحَقيقةِ والمجازِ:

البصيرةُ مَجازٌ عن الحُجَّةِ، أو هي للمُبالغةِ في الإبصارِ

تحتمل كلمةُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أن تكون مجازًا عن الحُجَّةِ البَيِّنَةِ الواضحةِ، أو بمعنى بَيِّنَةٍ، وهي صفةٌ لحُجَّةٍ مُقدَّرة هي الخبر، وجَعَلَ الحُجَّةَ بَصيرةً؛ لأنَّ صاحبَها بصيرٌ بها، فالإسناد مجازيٌّ، أو هي بمعنى: دالَّةٌ مجازًا، وتحتمل أن تكون استعارةً مكنيَّةً وتخييليَّةً[5]. فالوصفُ بالبصارة على المجازِ، كما وُصِفَتِ الآياتُ بالإبصار في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ [النمل: 13]، وتحتمل أن تكون مجازًا مُرسلًا عَلاقَتُه السَّبَبِيَّةُ؛ لأنَّ البصيرةَ هى المُتَسَبِّبَةُ عن إخبارِ الإنسانِ بما قدَّمَ وأخَّر. والمعنى: إنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بأعمالِه، وإنْ لم يُنَبَّأْ ففيه ما يُجزِئُ عن الإنباءِ؛ لأنَّه شاهدٌ عليها بما عملتْ؛ لأن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 726.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(3) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بصر).
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 95.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 281، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 156.

جَوارِحَه تنطقُ بذلك(1)، وتحتمل أن تكون محمولةً على الحقيقة إذا كانت الهاء للمبالغة؛ فنسبةُ الإبصارِ إليها حقيقةٌ.

نكتة تأنيث ﴿بَصِيرَةٌ﴾ ودلالتها:

النفس بصيرةٌ بما صدر عنها عالمةٌ بما قدّمت وأخّرت

جاء لفظُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مؤنّثًا، ففي حال كونه عائدًا على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فالهاء للمبالغةِ، فهو كقولِك: (فلانٌ عِبْرَةٌ وحُجَّةٌ). وقيل: المرادُ بالإنسان الجوارِحُ، فكأنَّه قال: (بل جوارِحُه بصيرة؛ أيْ: شاهدةٌ)، وهذا على جعل ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أو أنْ تكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صفةً لمحذوفٍ؛ أيْ: عينٌ بصيرةٌ، أو جوارحُ بَصيرةٌ، أو ملائكةٌ بصيرةٌ، والتاءُ على هذا للتّأنيثِ، وعلى هذا تكون ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مبتدأً، والخبر ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، والجملةُ خبرٌ عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أو أنْ يكونَ الخبرُ الجارَّ والمجرورَ، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ فاعلٌ به، وهو أرجحُ مِمّا قبلَه؛ لأنَّ الأصلَ في الإخبارِ الإفرادُ(2). وقد جاءتْ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ نكرةً لإفادةِ العمومِ؛ فإنَّهُ أبصرُ بنفسه في كلِّ ما يأتي وما يدعُ، وما يُقَدِّمُ وما يُؤَخِّرُ، فالنَّفسُ هي البصيرة، وإذا صحَّ المعنى بدون تقدير محذوفاتٍ فهو المقدَّم في التّوجيه.

موقعُ الجملةِ في المثَل:

جرتْ جملةُ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ مجرى المَثَلِ لإيجازِها ووفرةِ معانيها(3)، وأصبحت مَثَلًا سائرًا بين النّاس، تُقال على سبيل الاستشهاد على المعاني المتداولة.

نوع الواوِ ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ حاليَّةٌ، والجملة في موضع الحال من المبتدأ وهو الإنسان، وهي حالةٌ أجدرُ بثبوتِ معنَى عاملِها عندَ حُصولِها(4).

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 661، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 162.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 572، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/ 556، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل: 29/ 368.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 348.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 348.

نوع (لو) ودلالتُها:

اســتـبـعــادُ الاعتذارِ لوضوحِ الحُجَجِ والأدلَّةِ، ومنها الإنباءُ والبصيرةُ

(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ وصْليَّةٌ كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران: 91]؛ أيْ: هو بصيرةٌ على نفسِه حتَّى في حالِ إلقائِه مَعاذيرَه[1].

وتكون (لَوْ) أداةً من أدوات الشَّرط، وقد جاءتْ امتناعيَّةً نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المائدة: 48]. وتُسمَّى حرفَ امتناعٍ لامتناعٍ، ومعناه امتناعُ وقوعِ الجزاءِ لامتناعِ الشَّرطِ، نحو: (لو زرتني لأكرمتك) فامتنع الإكرام لامتناع الزيارة. وقد أفادَ الشَّرطُ بـ(لَوْ) استبعادَ وقوعِ الاعتذارِ أصلًا. وقد جاءَ النَّصُّ على امتناعِ الاعتذارِ في آيةٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات: 35 - 36]. وعلى فرض اعتذارِه فإنَّ الاعتذارَ لا نفعَ له بعد ظهورِ الحقِّ ظهورًا باهرًا[2]، وقد حذفَ القرآن المجيد جوابَ الشَّرطِ، إمّا لأنَّ معنى الشَّرطيَّةِ مُنسلخٌ عنها كما قيل، أو لظهورِه ووضوحِه لأنَّ ما قبله دلَّ عليه، وتقديره: ولو ألقى معاذيره فلنْ تقبل منه[3].

بَلاغةُ الحقيقةِ والمَجازِ في لفظ (الإلقاءِ):

الإلـقـاءُ إمّـا الإدلاءُ بالحُجَّةِ مجازًا، أو إخفاءُ الأعمالِ حقيقةً

يحتمل لفظ ﴿أَلۡقَىٰ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، معنييْنِ: **الأوَّلُ**: الإدلاءُ بالحُجَّةِ والاعتذارِ من الذَّنبِ، كما في قولِه: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢﴾ [غافر: 52]، وهو معنى الإلقاء في قولِه: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ [النَّحل: 87]، وقولِه: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ [النَّحل: ٢٨]. **والثاني**:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 348.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 453.
(3) الشَّهاب، عناية القاضي: 8/ 282، والخطيب ومصلوح والعلوش، التَّفصيل: 29/ 369.

ستر الذنوب، أخذًا من إرخاء السُّتور؛ أيْ: ولو أرخى السُّتور وأغلقَ الأبواب. وأهل اليمن يُسمّون السِّترَ مِعْذارًا، وجمعُه: معاذيرُ، ومعناه على هذا القولِ: وإنْ أسبلَ السّترَ ليُخْفي ما يعملُ، فإنَّ نفسَه شاهدةٌ عليه(1)، والمعنى على هذا ظاهرٌ، وعلى إرادةِ الإعذارِ؛ فقيلَ: شبَّه المجيءِ بالعذرِ بإلقاءِ الدَّلوِ في البئرِ للاستقاءِ به، فيكونُ فيه تَشبيهُ ما يرادُ بذلكَ بالماءِ المَرْويِّ للعطش، ويُشير إلى هذا قول بعضِ السَّلَفِ في ذلك: (ولوْ أدَلَى بحُجَّةٍ وعُذْرٍ). وقيل: المعنَى: ولو رمى بأعذارِه وطرحَها واستسلمَ. وقيل: ولو أحالَ بعضُهم على بعضٍ كما يقول بعضُهم لبعضٍ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31](2).

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَلْقَىٰ﴾:

بيانُ شدَّةِ رغبةِ الإنسانِ في إلقاءِ المعاذيرِ

جاءَ الفعلُ ﴿أَلْقَىٰ﴾ في صيغةِ المُضيِّ للدّلالةِ على شِدَّةِ رغبةِ الإنسانِ في إلقاءِ المعاذيرِ، فإنَّ من خصائصِ التّعبيرِ بالماضي الدّلالةَ على التَّحقُّقِ، وهو هنا تحققٌ لا يتمُّ؛ لأنَّ اللّه ﷻ قد قضى بأنْ يُحالَ بينهم وما يشتهونَ، وفيه إيماءٌ إلى رغبةٍ دفينةٍ في إبرازِ الأعذارِ بعجلةٍ، كأنَّ الواحدَ منهم يريدُ أنْ يُلقي عن أكتافه عبئًا ثقيلًا، وذلك لأنَّهُ لمّا كان الإنسان يعتذرُ في ذلكَ اليوم عن كلِّ سوءِ عَمِلَهُ، ويجادلُ أعظمَ مجادلةٍ، وكان المجادلُ في الغالبِ يظنُّ أنَّه لم يُذنِبْ، أو لا يعلمُ له ذنبًا، عبَّرَ بالإلقاءِ لإفادةِ غايةِ السرعةِ من غير تلعثم دلالةً على غاية التمُّلُق(3).

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردَة ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ مادّةً وصيغَةً:

إلقاءُ الأعذارِ وإخفاءُ الذنوبِ يلتقيان في الرَّغبةِ في الخلاصِ من الحسابِ

جاء التَّعبير بمُفردة ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، وفي اشتقاقها رأيان: الأوَّلُ أنَّها مأخوذةٌ من (العُذْرِ)،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 485، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 283، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 495، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 99، والميهيّ، تأمُّلات في سورة القيامة، ص: 6620.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 282، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 156.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 96.

وهو رَوْمُ الإنسانِ إصلاحَ ما أُنكرَ عليهِ بكلام. وهو كذلك الحُجَّة التي يُعتذر بها؛ والجمعُ: أعذارٌ[1]. والمعاذيرُ هَهُنا تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبَه[2]، جمعُ: معذرة، يُقال: مَعْذِرَةٌ ومَعاذِرُ ومعاذيرُ. وقيل: ليستِ المعاذيرُ جمع معذرةٍ؛ وإنّما هو اسم جمعٍ لها، ونحوه: المناكيرُ في المنكرِ، والمعنَى أنَّ الإنسانَ وإنْ اعتذرَ عن نفسِه وجادلَ عنها وأتَى بكلِّ عذرٍ وحُجَّةٍ، فإنَّه لا ينفعُه ذلكَ؛ لأنَّه شاهدٌ على نفسِه. والرأيُ الثاني: أنَّ المعاذيرَ السُّتورُ، واحدُها: مِعذارٌ، وهي لغةٌ يمانيَّةٌ. وإن صحَّ هذا القولُ، فذاكَ مجازٌ من حيث إنَّ السترَ يمنعُ رؤيةَ المُحْتَجِبِ، كما تمنعُ المَعذرِةُ عقوبةَ الذَّنبِ، أو يكون الإلقاءُ مُستعملًا في المعنى الحقيقي؛ أي: الإرخاءِ، وتكونُ الاستعارةُ في (المعاذيرِ) بتشبيهِ جحدِ الذُّنوبِ كذبًا بإلقاءِ السّترِ على الأمرِ المُرادِ وحجبِه. والمعنى على هذا القولِ: إنَّه وإنْ أسبلَ السِّترَ ليُخفي ما يعملُ، فإنَّ نفسَه شاهدةٌ عليه، وفيه تلويحٌ إلى معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ [فُصِّلت: 22]. وقيل: البصيرةُ عليه الكاتبانِ يكتبانِ ما يكونُ من خيرٍ أو شرٍّ؛ فالمعنى: بل الإنسانُ عليه كاتبانِ يكتبانِ أعمالَه ولو تستَّرَ بالسُّتورِ[3].

والمعنيان مقبولان لا يتنافران؛ بل يلتقيان، فإنّ إلقاء الأعذار للخلاص من الحساب، وإخفاء العيوب للغرض ذاته، يلتقيان في الرغبة في الخلاص من الجزاء والحساب.

غرضُ جمعِ لفظِ المعاذيرِ:

شمولُ المعاذيرِ لكلِّ ما يُعتذرُ بهِ

جاءَ لفظُ ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ جمعًا أو اسمَ جمعٍ، ليدُلَّ عَلى العُموم. فمن هذه المعاذيرِ قولُهم ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عذر).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 101.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 282، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 348.

[المؤمنون: 99 - 100]، ومنها قَوْلُهم: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾ [المائدة: 19]، وقَوْلُهم ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38]، ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة(1).

نكتةُ إضافَةِ المَعاذيرِ إلى ضِميرِ الإنسانِ:

أضاف القرآن المجيد لفظَ ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ إلى ضميرِ الإنسانِ؛ ليفيدَ تخصيصَ هذه المعاذيرِ الكثيرةِ بكلِّ إنسانٍ على حدَةٍ، فهي توزيعٌ على آحاد البشر.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَصَرُ والنَّظَرُ والرُّؤيَةُ:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوحِ، والرُّؤيةُ تتميَّزُ باليقينِ، والنَّظرُ يتميَّزُ بالتأمُّلِ

أصلُ البصر: وضوحُ الشّيءِ، يُقال: بَصُرْتُ بالشّيء: إذا صِرْتَ به بصيرًا عالمًا، وأبْصَرْتُه: إذا رأيتُه، وقد استُعمل البصرُ في القرآن الكريم كثيرًا، ودارت معانيه حولَ الإدراكِ بحاسَّةِ البصرِ، وهي العين، والإدراكِ بالبصيرةِ وهي القلب أو العقل(2).

وأمّا أصلُ الرؤيةِ فهو العلمُ بالشيءِ، إمّا بالعينِ أو بالقلبِ. ولكنَّ للرؤية مزيَّةً على الإبصارِ؛ فالرؤية عِلمٌ ثابتٌ لا شك فيه؛ ولذلك يُعَبَّرُ بها عن العلمِ اليقيني، كما في قوله: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 5 - 7]. وأصل النَّظرِ تأمُّلُ الشيءِ ومعاينته(3). وهو أدنى مراتب الإدراك بالعين؛ لأن الناظر قد يُبصِرُ ولا يرَى، يُقال: نظرتُ إلى كذا، إذا مَدَدْتَ طَرْفَكَ إليه، سواء رأيتَه أو لم ترَه.

وبينَ هذه الألفاظِ نوعٌ من التّقاربِ الدّلاليِّ، وبينها كذلك فروقٌ دقيقةٌ، فلكلٍّ منها درجةٌ في الإدراك، أعلاها الرّؤيةُ التي تتميَّزُ باليقينِ، ثم الإبصارُ الذي يتميَّزُ بالوضوحِ، وأدناها النَّظرُ الذي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 348.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بصر)، و(رأى) و(نظر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (بصر)، و(رأى) و(نظر).

قد يكون توجُّهُ العينِ إلى الشيءِ دون رؤيتِه، وقد يكونُ تدبرًا مع رؤية الشّيء[1].

الخَسْفُ والكَسْفُ:

الخُسوفُ للقمرِ، عندما تقع الأرضُ بين الشمسِ والقمرِ، والكسوفُ للشمس، عندما يمرُّ القمرُ بين الشَّمسِ والأرضِ[2]، وقال بعضهم: الكسوفُ فيهما إذا زالَ بعضُ ضوئِهما، والخسوفُ: إذا ذهبَ كلُّه. ويُقال: خَسَفَهُ اللّه، وخَسَفَ هو، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وقال: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: 82]، وفي الحديث: «إنّ الشّمس والقمر آيتان من آيات اللّه لا يُخْسَفانِ لموت أحدٍ ولا لحياته». وعينٌ خاسِفَةٌ: إذا غابتْ حَدَقَتُها، منقولٌ: من خَسَفَ القمرُ، وبئرٌ مَخْسوفَة: إذا غابَ ماؤُها ونُزِفَ، منقولٌ من: خَسَفَ اللّه القمرَ[3].

الغالبُ نسبةُ الكُسوفِ إلى الشَّمسِ، والخسوفُ إلى القمرِ

والغالب نسبة الكسوف إلى الشمس والخسوف إلى القمر[4]، يُقال: كُسفت الشمس، وخُسف القمر، هذا أجودُ الكلام، وقد يُطلقُ الكسوفُ عليهما معًا، وقد يُجْعَلُ أحدُهما مكانَ الآخر[5]، والخسفُ في الآية يختلف عن معناه العرفيِّ، فهو خسفٌ كليٌّ دائمٌ، بمعنى ذهابِ ضوءِ القمر لذهابه وذهاب أسبابه.

---

(1) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، معجم الفيزياء المعاصرة: (خسوف القمر lunar eclipse) و(كسوف الشّمس Solar eclipse).

(2) داود، الفروق الدلاليّة، ص: 133 - 136.

(3) الرّاغب، المُفردات: (خسف).

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(5) الرّكبيّ، النّظْم المُستعذَب: 2/ 42.

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾

[القيامة: 16 - 19]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من مظاهرِ الجمعِ الأخـرويِّ إلى بيانِ أعظمِ جمعٍ عَرَفَتْه البشريةُ

لمّا تناولت الآيات السّابقة الجمع الأخروي، المُتمثّل في جمع العِظام للإحياء، وجمع البشر للحَشْر، وجمع الأعمال للحِساب، وجمع الأعذارِ للخلاص من الجزاء، ناسب بعد ذلك كلّه ذكر أعظم جمعٍ عرفته البشريّة هو جمع القرآن الكريم، وبيان عجلة النبي ﷺ في تحريك لسانه ليعجل به، بغرض حفظه وجمعه، فبيّنتِ الآيات أنّ الجمع والحفظ هو للّه تعالى لا لأحدٍ من البشر، فكما أنَّه سيجمع هذا القرآن ليكون آيةً بيِّنةً، فكذلك سيجمع الخلائق يوم القيامة، فهو انتقال من مشهد الجمع الأخروي إلى ما ينفع يوم الجمع الأكبر، وهو جمع القرآن العظيم، وحفظه والعمل به بالاستعانة بمنزله سبحانه، فالذي أنزل القرآن وجمعه هو القادر على جمع البشر وحسابها.

وقد ذكرَ العلماءُ في مناسبةِ نزولِ هذه الآياتِ عددًا من الوجوه، يغلب عليها العموم، وعدم بيان حقيقة المناسبة الرابطة بين الآيات وما قبلها[1].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحَرِّكۡ﴾: (حرك) أصلٌ واحدٌ، فالحركةُ ضدُّ السُّكونِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 726، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 350، والبقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 97 - 100، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 349، وانظر بقية أقوالِ المُفسِّرين في مناسبة الآيات في هذا الموضع في: صالح، مصابيح الدُّرر، ص: 104 - 122.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرك).

وحَرُك يحْرُك حَرَكةً وحَرْكاً وحَرَّكه فتَحَرَّك، وكذلكَ يَتَحَرَّك، وتقولُ: قد أعيا فما بهِ حَراك؛ أيْ: حَرَكةٌ؛ وفلانٌ ميمونُ العَريكةِ والحَريكة. والمِحْراكُ: الخشبةُ التي تُحَرَّك بها النّارُ[1]. والمعنى المحوريُّ نُقْلَةٌ يسيرةٌ لطيفةٌ ومُقيدة مُتردِّدة[2]. قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الحركةُ لا تكون إلّا للجسم، وهو انتقال الجسمِ من مكانٍ إلى مكانٍ، وربّما قيل: تَحَرَّكَ كذا: إذا استحالَ، وإذا زادَ في أجزائه وإذا نقصَ من أجزائه[3]. وفي معنى التحريك في الآيةِ وجهان: أحدهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا نزلَ عليه القرآنُ حرَّك به لسانَه يستذكِرُه. مخافةَ أن ينساه. الثاني: أنَّه كانَ يُعَجِّلُ بذِكْرِه إذا نزَلَ عليه من حُبِّه لهُ وحلاوتِه في لسانِه، فنُهِيَ عن ذلكَ حتى يجتمعَ؛ لأنَّ بعضَه مرتبطٌ ببعضٍ[4].

2) ﴿بَيَانَهُۥ﴾: (بين) أصلٌ واحدٌ، وهو بُعدُ الشَّيءِ وانكشافُه. فالبَيْنُ: الفراقُ؛ يُقالُ: بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَيْنونةً. والبيونُ البِئرُ البعيدةُ القَعرِ. والبينُ: قطعةٌ من الأرضِ قدْرُ مدِّ البصرِ، وبانَ الشَّيءُ وأبانَ إذا اتَّضحَ وانكشفَ[5]. والبيانُ: ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدّلالةِ وغيرِها. وهو كذلك إظهارُ المقصودِ بأبلغ لفظٍ، وهو من الفهم وذكاءِ القلْب مَعَ اللَّسَن. ورَجُلٌ بَيِّنٌ: فصيحٌ، والجَمْعُ أَبْيناء[6]، والبيانُ كذلكَ هو: النُّطقُ الفَصيحُ المُعربِ؛ أي: المُظهِر عَمَّا في الضَّميرِ[7]. والمُرادُ بالبيانِ في الآية: أيْ: علينا أن نحفظه عليك حتى تبين للناس بتلاوتك وقراءتك عليهم[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نزلت هذه الآيات تُرشِدُ النبيَّ ﷺ ألّا يُحرِّكَ بالقرآنِ لسانَه، وقد طمأنَ اللّٰه نبيَّهُ ﷺ أنَّهُ قد تكفَّلَ بجمعِ القرآنِ في صدره حتى لا يذهب منه شيءٌ، وأنَّهُ تعالى قد ضَمِنَ له إثباتَ قراءتِه في لسانِه على الوجهِ القويمِ. ثم أمرَهُ على سبيل التوجيه بأنْ ينتظرَ حتَّى

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حرك).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرك).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حرك).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 156.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(7) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 47.
(8) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 502.

الإرشادُ الربانيُّ للنّبيّ ﷺ في تلقيّ الوحي الإلهيّ

يُتِمَّ الملكُ الكريمُ قراءتَه عليه، فيستمعَ له وينصتَ، وأنْ يقرأه كما أقرأه الملكُ الكريمُ، وأنْ يقفَ ﷺ عند حدودِ الألفاظِ التي يُلقيها إليه، وألّا ينازِعَه بما يسبقُ إليه خاطره من كلماتٍ يريد أن يُمسكَ بها هذه المعاني التي قذفَها اللّه سبحانه في قلبه. ثم زادَ تعالى في طمأنةِ قلبِه، بأنَّهُ تعالى ضامنٌ لهُ بعد حفظِ الوحي الجليلِ وإحكام تلاوتِه أنْ يُفَسِّرَ له ما فيه، وأنْ يُبَيِّنَه له، فهو تعالى الذي يتولّى جمعَ هذا القرآن كله في صدره ﷺ كما سيتولَّى تعالى حفظَه على الزَّمن، قرآنًا تعمرُ به قلوبُ المؤمنين، وتُرتِّلُه ألسنةُ الحافظين له والقائمينَ والمُتهجِّدينَ به، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجْر: 9]، فاشتملت الآياتُ الأربع على أحوالٍ ثلاثٍ: هي جمعُه في صدرِه وحفظُه، وذلك في الآيةِ الأولى والثانيةِ، وتلاوتُه وتيسيرُ أدائِه كما أنزل، وذلك في الآيةِ الثالثةِ، وتفسيرُه وبيانُه وإيضاحُ معناه، وذلك في الآيةِ الرابعة[1].

ولعلَّ السببَ في ورودِ هذه الآياتِ في هذا الموضعِ دونَ أن تقعَ فيما سبقَ نزولُه من السّورِ قبل هذه السورةِ، أنَّ سورَ القرآنِ حين كانتْ قليلةً كان النبيُّ ﷺ لا يخشَى تَفَلُّتَ بعضِ الآيات عنهُ، فلمّا كثُرتْ السّوَرُ فبلغتْ زهاءَ ثلاثينَ حسب ما وردَ في ترتيبِ نزولِ السورِ، صارَ النبيُّ ﷺ يخشَى أنْ ينسَى بعضَ آياتِها، فلعلَّه ﷺ أخَذَ يُحَرِّكُ لسانَه بألفاظِ القرآنِ عند نزولِه احتياطًا لحفظِه، وذلك من حرصِه على تبليغِ ما أُنزلَ إليه بنصِّه. فلمّا تكفَّل اللّه بحفظِه؛ أمَرَه ألّا يُكَلِّفَ نفسَه تحريكَ لسانِه[2].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 264، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1330 - 1336.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 349، وانظر الآثار الواردة عن أئمة الحديث والتفسير في: موسوعة التّفسير بالمأثور: 22/ 468.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآياتِ عمّا سبَقَها:

كمالُ الانقطاعِ انتقالٌ في بيانِ الآدابِ الربانيَّةِ في تلقّي الوحيِ الإلهيِّ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ عن الجملة السّابقةِ عليه، وهي قولُه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، وذلك لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ، إذ بين الجملتَيْنِ تباينٌ تامٌّ وانقطاعٌ كاملٌ، ويرجعُ ذلكَ إلى اختلافِهما إنشاءً وخبرًا لفظًا ومعنًى، ولا يعني ذلكَ تَفَكُّكَ الكلامِ وتنافرَ جُمله وعدمَ ارتباطِ أجزائِه وتباعدَ معانيه بحيث لا يضمّه سياقٌ، ولا يجمعه قرآنٌ، وإنمّا المُرادُ به فقدانُ المناسبةِ الخاصةِ التي تسوِّغُ العطفَ، وتُجَوِّزُ الوصلَ. فهاتانِ الجملتانِ مختلفتانِ خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى[1].

غرضُ النَّهيِ ودلالتُهُ:

إرشـادُ النّـبيِّ ﷺ إلى كيفيّةِ التّلقّي وحُسنِ التّأتّي

جاءَ النَّهيُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ نهيَ رحمةٍ وشفقةٍ لما كانَ يُلاقيه ﷺ في ذلكَ من الشِّدَّةِ[2]. وكذلك يمكنُ أنْ يكونَ هذا النهيُّ في الآيةِ مُرادًا به النُّصحَ والتَّوجيهَ والإرشادَ والتعليمَ لما ينبغي أن يكونَ عليه النَّبيُّ ﷺ مع الوحي، وهو ألّا يُحرِّكَ لسانَه بكلماتِ القرآنِ، قبل أن ينتهي جبريلُ عليه السلام من الوحي، وهو ما يشير إليه موضعٌ آخرُ، وهو قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][3].

تعيينُ مرجعِ الخِطابِ ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾:

الخطابُ للنبيِّ ﷺ تعليمًا ونصحًا وإرشادًا وشفقةً

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ للنبيِّ ﷺ، وهو مقتضى الظّاهرِ والمَنصوصِ الصَّحيحِ في سَبَبِ النُّزولِ. وقالَ القَفّالُ: هو خِطابٌ لِلإنسانِ المَذكورِ في قَوْلِه: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾

(1) فيّود، علم المعاني، ص: 455.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 350.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1322.

وهو وجْهٌ حَسَنٌ، ليسَ في العقلِ ما يدفعُهُ وإن كانت الآثارُ غير واردةٍ بهِ[1]، وردَّ بعضهم هذا الرأيَ فقالَ: إنْ كانَ العقلُ لا يدفعُهُ؛ فإنَّ الأسلوبَ العربيَّ ومعاني الألفاظِ تنبو عنهُ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿تُحَرِّكْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كـثرةُ تـحريـكِ اللِّسـانِ أمـارةُ الـحـرصِ والـضّـامـن هو الله تعالى

الأصلُ في معنى الحركة أنَّها ضدُّ السُّكونِ[3]، وفي معنى التَّحريك في قولِه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وجهان؛ أحدهما: أن النبيَّ ﷺ كان إذا نزلَ عليه القرآنُ حرَّك به لسانَه يستذكِرُه. مخافةَ أن ينساه. الثاني: أنَّه كانَ يُعَجِّلُ بذِكْرِه إذا نزَلَ عليه من حُبِّه لهُ وحلاوتِه في لسانِه، فنُهِيَ عن ذلك حتى يجتمعَ؛ لأنَّ بعضَه مُرتبطٌ ببعضٍ[4]، وقد آثَرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بصيغة المُضارعةِ استحضارًا لحالِ النّبيِّ ﷺ قبل نزول هذه الآياتِ ناهيةً له تحريك لسانه، لما في الفعلِ المضارعِ المُضعَّفِ من الدلالةِ على كثرة التّحريك واستمرارِه.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباء للمصاحبة أو التعدية

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ للمصاحبة؛ أي: لا تحرّك لسانك مصاحبًا للقرآن حال تلقّيه، استعجالًا في ترديده قبل تمام إنزاله، إذ كان النبي ﷺ يبادر بتحريك لسانه مع جبريل خشية أن يفوته شيء منه، فنهيَ عن ذلك[5].

وقيل: الباء للتعدية، إذ عُدّيَ فعل ﴿تُحَرِّكْ﴾ بالباء، والمعنى: لا تجعل القرآن سببًا لتحريك لسانك على جهة التعجّل والتكرار قبل استقرار الوحي.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 727، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 348.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 350.
(3) الرّاغب، المُفردات: (حرك).
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 156.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 371.

نُكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ ﴿بِهِۦ﴾:

تقديمُ المقصودِ في الخطابِ للعنايةِ والاهتمامِ

قدَّم القرآن المجيد شبه الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ﴾ على المفعولِ ﴿لِسَانَكَ﴾ للاهتمامِ بالمُتقدِّمِ وهو القرآنُ الكريمُ، إذ هو مدارُ النهيِ في الآيةِ، إذ كان الخوفُ من تفلّتِه وضياعِ بعضه هو الذي حدا بالنّبيِّ ﷺ إلى تعجُّلِ حفظِه واستظهارِه.

نكتةُ عَودِ الضّميرِ على غيرِ مذكورٍ سابقٍ:

حضورُ القرآنِ في ذِهنِ المسلمينَ دالٌّ على مبلغِ شهرتِه وتبجيلِه

عادَ الضميرُ في شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ على القرآنِ الكريمِ، وجاز هذا الإضمارُ وإن لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لدلالةِ الحالِ عليهِ(1)، كما أضمر في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]، فهو الذي يُحرّك له اللّسان، وقد دلَّ السّياق عليه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه حاضرٌ في أذهانِ المسلمينَ لشدَّةِ إقبالِهم عليه؛ إذْ يشيرُ ورودُ الضَّميرِ دونَ سبقِ مَعادٍ إلى شهرة القرآن بينهم(2).

توجيهُ تخصيصِ اللّسانِ بالذِّكْرِ:

دفعُ توهُّمِ النَّهي عن خصوصِ القراءةِ الجهريّةِ دون الخافتةِ

آثرَ القرآن المجيد النَّهي عن تحريكِ اللسانِ دون النهي عن تحريك الفمِ مع تحرُّك الفم كلّه أثناء القراءة، وذلك لأنَّ اللسانَ هو أخصُّ أدواتِ البيانِ، فهو وإن كان يشترك وجميع أعضاءِ الفم من الأسنان والشفتيْن والحنجرة؛ فإن حركته أظهرُ وأبينُ من سائرِ أعضاء النُّطقِ، لذا خصَّهُ النَّظمُ الحكيمُ بالذِّكرِ دونَ غيره، وقد يتحرّك اللسان في القراءة الخافتة دون الفم، فيشمل النهي القراءة الجهرية والخافتة، ولو نهى عن تحريك الفم لظُنَّ أن القراءة الخافتة مرضيّة، ولمّا كان السياق يُظهر حرص النبي ﷺ، كان الأنسب النهي عن تحريك اللسان؛ لأنَّ به ينتهي عن تحريك كامل الفم.

---

(1) شيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 418.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 456.

بيـان سبب تحريكِ النبيّ ﷺ لسانَهُ عند نزولِ الوحي

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

جاءتِ اللّامُ في قولِه: ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ تعليلًا لتحريكِ اللسانِ، فالعجلةُ عِلَّةٌ لفعلِه هذا، ففيها بيانٌ للسببِ الذي من أجله كان النبي ﷺ يُسارعُ إلى ترديد الكلمات التي يسمعها من جبريل عليه السلام، فقد كان لشدَّةِ شوقه إلى كلمات ربه وحرصِه عليها لا يكاد يسمع الكلمة تقع في قلبه من جبريل حتى يُسرعَ بالنطق بها، ليتذوَّق حلاوتَها على لسانه، كما ذاقَ حلاوتَها في قلبِه[1].

العجلة اثنتان؛ محمودة ومذمومة، وما اتّفق وقوعُه منها للأنبياء محمود

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿لِتَعۡجَلَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ ﴿لِتَعۡجَلَ﴾؛ لأنَّ العَجَلَةَ طلبُ الشّيءِ وتحرّيه إمّا قبلَ أوانِه، وهو من مُقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومةً في عامّة القرآن[2]، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37] وهو العجَلة بالشرّ، ومنه الاستعجال بالعذاب وبالسيئة قبل الحسنة، وليس ما مَعَنا منها، وإمّا في أوانه، فهذا محمود، بهذين القيدين: أن يكون في طاعة أو مباح، وأن يكون في أوانه، كالذي قال الله تعالى في منسك الحج: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، فهو مُثاب مأجور.

ومنه هذا القسم المحمود سائر ما نُسب إلى الأنبياء من ذلك، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [طه: 114]، فهذا محمود، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ فيه بيان ابتداء أوّل وقت التعبد بتلاوته لأنّه كمواقيت الصلاة، فلا يُساء فهمُه فإنّه لم يَخرُج عن هذا، وما تمّ غيره، وكذلك قوله تعالى في الآية التي معنا: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٦﴾ بيانُه أنه عجّل به في وقته لتطويع لسانه وتذليله به، لفرط اعتنائه واهتمامه

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1322.

(2) الرّاغب، المُفردات: (عجل).

فخُفِّفَ عنه وطمأنه؛ كأنّ اللّه تعالى قال له: (سنكفيك ما أهمك حفظُه وبيانُه، فلا عليك)، فدلّ على أن اللّه تعالى يسارع له في محابّه، فلِذا خُفِّف عنه وكفاه مؤنَتَهُ استذكارًا واستظهارًا، فيسّره بلسانه، ومعنى ذلك أن اللّه حَمِدَ له ما نهاه عنه، وأفاض عليه من كفايته عن تعاطي الأسباب إلى مِنَحِ الوهاب الذي جمع له ضبْطَ الصّدر وضبط الكتاب.

وعجِل موسى الكليم بالرسالة في وقته كما في الآية الكريمة مادة الخطاب اللّه له: ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 83 - 84].

التنويه بشأن استمرارية حفظ القرآن الكريم ودوامه وحلاوة ترديده

والذي دعا إلى هذه العجلة أمرٌ محمودٌ، وهو طلب رضا اللّه تعالى. والعجلةُ المذكورةُ هنا تتناسبُ مع جوِّ العجلةِ في السورةِ، فقد تعاونَ كلٌّ من التعبيرِ والتعليلِ لبيان هذا الغرضِ[1].

وعبَّرَ بصيغةِ المضارعةِ لاستحضارِ الصورةِ، وللدلالةِ على تجدُّدِ النهي عن التحريك أو استمرارِه.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

كانت عجلتُهُ ﷺ لخوفِ تفلُّتِ القرآنِ ولحُبِّه له

الباءُ في قولِه: ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ للتَّعديةِ؛ أيْ: (لتُعْجِلَه إليك فيجتمع لديك)، مخافةَ أنْ يَتَفَلَّتَ منه ﷺ، وقيل: من حُبِّه إيّاه، وهو الأَلْيَقُ بمنصب النُّبوّة، ولكنَّ النّهيَ بـ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ﴾ يلائمُ المعنى الظّاهرَ، وهو الحرص على عدم التَّفَلّتِ[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

تعليلُ النّهي أداةُ الإقناعِ القرآنيّ وبرهان الطّمأنينةِ

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ عن قولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ لما بينهما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، إذْ وقعت الجملة الثانية استئنافًا بيانيًّا للجُملة الأولى[3].

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 213.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 454.
(3) القونويّ وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 19/ 454.

فقد أثارَتِ الآيةُ الأولى سؤالًا فحواه: إذا لم يعجلِ النبيُّ ﷺ بترديدِ القرآن قبل فراغِ جبريل عليه السلام، فما العاصمُ من تفلُّتِ القرآنِ؟ فكان الجوابُ بأنَّ الداعي لذلك الحرصِ الذي في خاطرِ النبي ﷺ إنما هو حذرُ الفواتِ والنِّسيانِ، فإذا ضَمِنَ اللّه جمع القرآن وحفظِه فلا موجِبَ لذلك(1).

غَرضُ توكيدِ الجملةِ:

توكيدُ حفظِ الله للقرآن الكريم طمأنينةُ نفسٍ وانشراحُ صدرٍ

جاء التوكيدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ بمؤكِّدات نحوية ومعنوية؛ منها: **الأوَّلُ:** التوكيدُ بالجملةِ الاسميَّةِ لما فيها من الدلالةِ على الثباتِ والدوام والاستقرارِ، **والثاني**: التوكيدُ بحرف ﴿إِنَّ﴾، ذلك أنَّها تفيدُ توكيدَ النِّسبةِ بين المبتدأ والخبرِ، ونفيِ الشّكِّ عنها، ونفي الإنكار لها، بحسب العِلم بالنسبة، فإن كان المخاطب عالمًا بالنسبة، فهي لمجرّد توكيد النسبة(2). ولمّا كان نبي اللّه ﷺ عالمًا تمام العلم بقدرَة اللّه على حفظِ قرآنه وضمانه له، فقد زادَت ﴿إِنَّ﴾ توكيدَ حفظِ اللّه للقرآنِ وأورثه هو والمسلمينَ من بعده يقينًا في ثبوته.

والثالث: تقديم شبه الظرف المتعلم ﴿عَلَيۡنَا﴾ وما تعلّق به على العامل فيه، مفيدا القصر والحصر والاختصاص؛ أي أنّ ذلك على اللّه وحده لا غيره، **والرابع**: أنه جعل المجيء بضمير العظمة حالّاً محلّ ضمير الإفراد فقوّى المعنى وأكسبه هيبة ورهبة ونفوذًا، وذلك أن قال: ﴿عَلَيۡنَا﴾ دون (على)، **والخامس**: ذكره ما تعلّقت القدرة به ونفذت المشيئة فيه بالعطف، فإنّ الوعد بشيء كثير مِنَ المَلِكِ الديان أَهْيَب.

والسادس: قصده إلى إظهار ضمير القرآن مضافًا في الذكر

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم المنّان، ص: 899.
(2) الأزهري، التّصريح: 1/ 294.

مفعولا به للمصدر، فقال: ﴿جَمۡعَهُۥ﴾، و﴿قُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾، يعني قراءته، ليكون ذلك كتحقيق الالتزام بالوعد والعهد[1].

بلاغةُ التّعليلِ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾:

تعليلُ النَّهي عن تحريكِ اللِّسانِ بتعهُّدِ حفظِهِ

أفاد إدخال ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ التَّعليلَ، وبيَّنَتْ سببَ النَّهي عن تحريكِ اللسانِ؛ أيْ: لا تُحَرِّك به لسانَك؛ لأنَّ جمعَه في صدرِك نحنُ نَتَكَفَّلُ بهِ، ولو لم تَدْخُلْ ﴿إِنَّ﴾ لم يرتبط الكلامُ، ولانتَفَى معنى التّعليلِ، إذ لو قال: (لا تُحَرِّك به لسانَك لتعجلَ بهِ، علينا جمْعُه وقرآنُه) لم تجد له هذا الحُسْنَ الذي تجدُ، ولانْفَصَلَ الكلامُ بعضُه عن بعضٍ[2].

نُكتةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

حفظُ القرآنِ أمرٌ ثقيلٌ لا سبيلَ له إلّا بتوفيقِ الله ومعونتِهِ

استعمَلَ النَّظْمُ الكريمُ حرفَ الاستعلاء في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، وذلك لبيان تعهُّد اللّٰه تعالى بأعظم صور التّعهُّد وأفخمها، ولمّا كان جمع القرآن ثقيلًا؛ ناسب بيان أنَّه بتوفيق اللّٰه تعالى ومعونته يُحفظ، فأكَّدَ ضمانَ حفظِ اللّٰه لكتابه مزيدًا من التوكيدِ، لطمأنَةِ قلب النّبي ﷺ، فلا شيءَ يُعجِزُه تعالى عن حفظِ كتابه، وليس استعجالُ رسولِ اللّٰه ﷺ بحافظٍ له دونَ معونة اللّٰه له، فأراحه تعالى من هذه الشِّدَّةِ التي كان يلقاها.

نُكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تثبيتُ النُّصوصِ في النَّفسِ وحفظُها إنَّما هو من فِعْلِ الله وحدَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الاسمِ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، وذلكَ للاختصاصِ والقَصْرِ، والمعنى: إنَّنا نحنُ المتكفّلونَ بجمعِهِ في صدرِكَ وتلاوتِه للنّاس صحيحًا كاملًا. وهذا موطنٌ من مواطنِ القَصرِ؛ لأنَّهُ لا يمكنُ لأحدٍ غيرِ اللّٰه سبحانه

(1) ولوائل القبيسي مقال بعنوان: سَرى البيان في آية النهي عن تحريك اللسان بالقرآن، جريدة المدينة المنورة، الأربعاء 9/ 6/ 1403ه، ففيها توسّع لطيف.

(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 214.

أن يفعلَ ذلكَ، فإنَّ تثبيتَ النُّصوصِ في النَّفسِ وحفظَها بمجرَّدِ سماعِها وعدمِ نسيانِها وإلقائها كما هي على مرِّ الزَّمنِ، إنَّما هو من فِعْلِ اللّه وحدَه، فهو الذي يُثَبِّتُ في النفوسِ أو يمحو منها ما يشاءُ. إذن فإنَّ ذلكَ عليه وحدَه، وهذا التقديمُ اقتضاه المعنَى كما استحْسَنَتْه الفاصلةُ[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بضميرِ العَظَمةِ:

مِن عَظَمةِ القرآنِ أنْ يتكفَّلَ العظيمُ تعالى بجمعِهِ وقرآنِه

آثَرَ النَّظمُ الكريم التعبير بضمير العظمةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾؛ أيْ: بما لَنا من العَظَمَةِ، لا على أحدٍ سوانا[2]. ففيه تعظيمٌ لقدرِ القرآنِ ولقدرِ رسولِ اللّه ﷺ، وفيه كذلك من التَّكَفُّلِ والتَّعَهُّدِ ما يريحُ قلبه ﷺ[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بمُفرَدَةِ الجمعِ:

ارتبطتْ مُفردةُ الجمعِ بمعاني السّورةِ الجزئيّةِ والكُلّيّة

عبَّرَ القرآن المجيد بمادَّةِ الجمعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، وذلك لأنَّ الجَمْعَ ضمُّ الشيءِ بتقريب بعضِه من بعضٍ، يُقال: جَمَعْتُه فاجْتَمَعَ[4]، والمُرادُ هَهُنا تقريبُ سور القرآنِ وآياتِه وحروفِه في صدرِ النبي ﷺ وتأليفها بحيث لا يذهب عليه شيءٌ من معانيه، وحفظُه في حياته وتيسير تلاوتِه واستذكاره على لسانه[5]، وأنسب لفظٍ لذلك هو لفظ الجمع مع اتِّساق اللفظ لما ورد في السورة من جَمْعِ العظام، وجَمْعِ الشمس والقمر، وما إلى ذلك من معانٍ دالّةٍ على الجمعِ.

نُكتةُ إرداف عطف ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ على ﴿جَمۡعَهُۥ﴾:

عطفَ القرآن المجيد لفظَ ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ على لفظِ ﴿جَمۡعَهُۥ﴾ في

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 213.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 100.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 350.
(4) الرّاغب، المُفردات: (جمع).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 157.

قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، وذلك لأنَّ الجمعَ مُقدَّمٌ على القراءةِ، إذ لا بدَّ للقراءةِ من الجمعِ في الصدرِ أوَّلًا قبل إثباتِ القراءةِ على اللسانِ[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾:

القـراءةُ دليـلُ الـحـفـظِ في الصدورِ

ذهب العلماءُ إلى أنَّ المُرادَ بـ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أحدُ وجهَيْن: الأوَّلُ أن المُرادَ من القرآنِ القراءةُ، وعلى هذا التقديرِ ففيه احتمالانِ؛ أحدهما: أن يكون المُرادُ أنَّك ستَعي من جبريل ما سيقرؤه عليك من أول مرة، فتعيده عليه كما سمعته. والثّاني: أن يكون المُرادُ: إنّا سنقرِئُك بحيثُ لا تنساه، وهو المُرادُ من قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6]. والوجه الثّاني: أن يكون المُرادُ من القرآنِ الجمعَ والتأليفَ، من قولِهم: ما قرأتِ الناقةُ سلًى قطُّ؛ أيْ: ما جمعت، فعلى هذا الوجه يكون المُرادُ من قوله: ﴿جَمۡعَهُۥ﴾ جمعَ القرآنِ الكريمِ في نفسِه ووجودِه الخارجيِّ، ومن قوله: ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ جمعَه في ذِهنِ النبيِّ ﷺ وحفظه، وحينئذٍ يندفع التكرار[2]، فيكون المعنى: جمعه ابتداءً بمعنى حفظه، وجمعه انتهاءً بمعنى ثباته، وأتى بلفظ الجمع ليقوم الدّليل على الحفظ، فإنَّ الحافظ الجامع للحفظ دائمُ القراءة لما يَحفظُ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

بـعـدَ الجـمـعِ والتّـيـسيرِ يأتي الاسـتـمـاعُ والاتباعُ

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ عاطفةً؛ أيْ: بعد أن ضمن اللّه سبحانه لرسولِ اللّه ﷺ جمعَ القرآنَ في صدره، وطَمْأَنَهُ بتيسيرِه على لسانه[3]، أرشدَهُ إلى الاستماعِ لقراءةِ جبريل عليه السلام واتباعِ ما سمعه منه بإعادته عليه كما سمعه، بحيث تتلاشى

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 454.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 728.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1324.

الوسائط لدقة الأداء وانضباطه، بحيث يصير كالمنزَّل موافقة لمراد اللّه، وتحصيلا لرضاه على.

دلالةُ استعمالِ (إذا):

التعبيرُ بأداةِ (إذا) دونَ غيرها في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾، لما فيها من تحقُّق الوقوع، ففي استعمالِها مزيد طمأنةٍ لقلب رسول اللّه ﷺ بحفظِ الوحي وضمانِ عدم تفلّته.

مزيد طمأنة بتوالي نزول الوحي عليه وتتابع بالقرآن الكريم

نُكتةُ إسنادِ فعلِ القراءةِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

أسند القرآن المجيد الفعلَ إلى نونِ العَظَمَةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾؛ أيْ: إذا أتْمَمْنا قراءَتَهُ عَلَيْكَ بلِسانِ جِبْرِيلَ عليه السلام المُبَلِّغِ عَنّا، فأُسْنِدَتِ القِراءَةُ إلى ضَميرِ الجَلالَةِ على طَرِيقَةِ المَجازِ العَقْلِيِّ، وفي ذلك مع اختيارِ نونِ العَظَمَةِ مبالغةٌ في إيجابِ التَّأتّي[1]. وكذلك ففي إسنادِ القراءة إلى اللّه سبحانه تشريفٌ وتكريمٌ للنبي ﷺ الذي يسمع آياتِ اللّه مَتلوَّةً عليه من ربّه تعالى، وإن كان جبريل عليه السلام هو الذي ينقلها إلى النّبيّ ﷺ[2]. ونظيره في حقِّه ﷺ قولُ اللّه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80][3]، ومثال ذلك أن يقول الحاكمُ: (وزّعنا الأموال على الفقراء)، وهو قد أمر بتوزيعها ولم يُباشر الفعل.

تعظيمُ شأنِ المقروءِ وتشريفُ المقروءِ عليه

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ هي فاءُ الجزاءِ، وجملةُ (اتَّبِعْ قُرْآنَهُ) جوابُ الشرطِ غير الجازمِ بـ(إذا).

بَلاغةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الاتّباعِ:

آثر النّظم الكريم التعبيرَ بمُفردة الاتّباعِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا

الاتباعُ هو في الإنصاتِ ثم القراءة والتزام مقتضى القراءة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 157.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1323.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 728.

قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾، وذلك لدلالتها على تحرّي القراءة وضرورةِ الاقتفاء بالقراءة، والاستماع والإنصات، بحيث يدع القراءة ويستمع لجبريل، حتى إذا فرغ جبريل قرأه[1]؛ أيّ: كرّر تلاوته حتى يصير لك به مَلَكَةً عظيمةً، واعملْ به حتى يصيرَ لك خُلُقًا فيكونُ القرآنُ قائدَك إلى كلِّ خيرٍ[2].

نَوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

الإضافةُ إمّا للقرآن، أو لمُبَلِّغِه جبريلَ عليه السلام

أضافَ القرآن المجيد لفظَ القراءةِ إلى الهاءِ في قوله: ﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾ من قبيل إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه[3]؛ أيّ: اتبَّعْ قراءةَ ما يُقرأُ عليك. وقيل: بل الإضافة من قبيل الإضافة للفاعلِ، فالمُرادُ: اتبَّعْ قراءةَ رسولِ الوحي جبريل عليه السلام، وقِفْ عند حدودِ الألفاظِ التي يُلقيها إليك، ولا تنازِعْه بما يسبقُ إليهِ خاطرُك من كلماتٍ تريدُ أن تمسكَ بها من هذِه المعاني التي قذَفها اللّه سبحانه في قلبك[4]، وفي هذا الرأي ما يفسّر الحال التي كانت تعتري النبي ﷺ أثناء الوحي، حتى إن جبينه ليتفصّد عرقًا في اليوم الشديد البرد[5].

بَلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

في الإظهارِ من التّفصيلِ والبيانِ ما ليس في الإضمارِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أظهر القرآن المجيد لفظَ ﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾، وكان مُقتضى الظّاهرِ أن يكون: (فإذا قرأناه فاتَّبِعْه)، وقد عدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ لاشتمالِ لفظِ ﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾ على ضمير الهاءِ الذي يعودُ على القرآنِ أو على القارئِ وهو جبريلُ عليه السلام ففصَّلَ القولَ على نحو لم يكنْ مُتاحًا بالعَودِ بالإضمارِ. فضلًا عمّا فيه من التّشريفِ والتَّعظيمِ لقَدْرِ القرآن.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 728، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 157.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 101.
(3) شيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 418.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1324.
(5) أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (826) وغيره.

بَلاغةُ الجِناسِ الاشتقاقيّ:

جاءَ في الآياتِ السابقةِ جناسُ الاشتقاقِ في قولِه: ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ و﴿قَرَأۡنَٰهُ﴾ و﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾، فتكررتْ مادَّةُ القراءةِ ثلاث مرّاتٍ، فأكَّدتْ طبيعةَ التلاوةِ للكتابِ العزيزِ، وأنَّهُ لا دخلَ للنبي ﷺ في القرآنِ بحالٍ من الأحوالِ. كما أكسب هذا الجناسُ الاشتقاقيّ جرسًا بديعًا ووَسَمَ الآياتِ بجمالِ الإيقاعِ وحلاوته.

أكسبَ الجناسُ الاشتقاقيُّ النَّظمَ جرسًا ووَسَمَ الآياتِ بجمالِ الإيقاعِ وحلاوتِهِ

نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

جاءتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ لبيانِ التراخي في الرتبة؛ أيَ: التفاوتِ بين رُتبةِ الجملةِ المعطوفِ عليها وهي قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، وبين رتبةِ الجملةِ المعطوفةِ وهي: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾[1]. وقيل: بل هي للتراخي الزّماني[2]. والصَّحيح أنَّه تراخٍ في الرُّتبةِ لا في الزَّمن، ولأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ قد عطفت مجموعَ الجملةِ ولم تعطف لفظَ ﴿بَيَانَهُۥ﴾ خاصةً[3].

تـراخـي رتـبـةِ البيانِ عن رتبةِ الإقراءِ

نُكتةُ تَتابُعِ المؤَكِّداتِ:

أكَّدَ النَّظمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ بمجموعة مؤكدات، بُحثت في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾، ومنها: التأكيد بالجملةِ الاسميَّةِ لما فيها من الدلالةِ على الثباتِ والدوامِ والاستقرارِ، ومنها التوكيدُ بدخولِ حرف ﴿إِنَّ﴾.

نُكتةُ التّعبيرِ بحرفِ (على):

في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ عدَّى القرآن المجيد الجمعَ بالحرفِ (عَلَى) الذي جاء مفيدًا للاستعلاءِ والثَّقَلِ، إذ العرب تستعمله فيما ثَقُلَ من الأمورِ[4]، وذلك لما في بيانِ القرآن بيانًا

بـيـانُ الـقـرآنِ عظيمٌ لا يكونُ إلّا بتوفيـــقِ العظيمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 350.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 266، والزُّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 262.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 350.
(4) ابن جِنّي، الخصائص: 2/ 273.

صحيحًا من الثقلِ والدِّقَّةِ، فلا سبيل إلى بيانهِ بيانًا لا شائبةَ فيه إلا بتوفيق اللّه تعالى ومعونته، فأكَّدَ النَّظمُ ضمانَ بيانِ اللّه تعالى لكتابه مزيدًا من التوكيد.

نُكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ ﴿عَلَيۡنَا﴾:

بيانُ القرآنِ على وجـهِ اليـقينِ لا يكونُ إلّا بتوفيقِ الله

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ على الاسم، وذلكَ للاختصاصِ والقَصْرِ، والمعنى: إنَّنا نحنُ المُتكفِّلونَ ببيانهِ وتلاوته للنّاس بيانًا صحيحًا كاملًا، وهذا موطنٌ من مواطنِ القَصرِ؛ لأنَّهُ لا يمكنُ لأحدٍ غيرِ اللّه سبحانه أن يفعلَ ذلكَ، فإنَّ بيانَ النُّصوصِ بيانًا صحيحًا لا شائبةَ فيه إنَّما هو من فِعْلِ اللّه وحدَه، وهذا التقديمُ اقتضاه المعنَى كما اقتضَتْهُ الفاصلةُ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ البَيانِ:

البيانُ هو لفظٌ جامـعٌ للكشفِ عن المُرادِ

عبَّر القرآن المجيد بالبيانِ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في البيانِ هو بُعدُ الشَّيءِ وانكشافُه، فاشتمل على معنى الوضوح والظُّهورِ؛ لأنَّ المفصولَ المُتَمَيِّزَ عن غيرِه يلفتُ النَّظرَ. والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدّلالَةِ وغيرِها. وهو كذلك إظْهارُ المَقْصودِ بأبلغ لفظٍ[2]، فالبيان لفظٌ جامعٌ لما يكشف عن المُراد، ويرفع الغطاءَ عن المقصود.

۞ الفروق المعجمية:

الجمع والضمّ واللّمّ:

الجـمـع مطلق تـــامّ، والـضـمّ جزئي مقيد

الضّمّ يُطلق على ما يتداخل بعضه في بعض، ولا حدَّ لذلك؛ ويكون لما يُتبيّن، ولما لا يُتبيَّن، وهو للثّاني أكثر، حتى إنه يقال في حديث رؤية اللّه تعالى وتقدس: «لا تضامون في رؤيته»[3] شرحًا وتفسيرًا، أي: لا

---

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 213.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

(3) متفق عليه: أخرجه البخاري، الحديث رقم: (7436)، ومسلم، الحديث رقم: (633)، وغيرهما.

يَنْضمّ بعضكم إلى بعض، فيقول الواحد للآخر: أرِنيه، كما تفعلون عند النظر إلى الهلال[1]، أي: فيحْجِبُ بعضكم بعضًا عن رؤيته، ولا شكّ أنّ الجمع الموعود به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ هو بحيث يُتبيَّن، فضلًا عن أنّ الجمع مطلق تامّ، والضمّ جزئي مقيد، فيقال: (ضمَّه إلى صدره) وسائِرُهُ مبايِنٌ له.

وأمّا (اللّمّ)؛ فيطلق على الجمع غير أنّه متعدّد الإطلاق على متباينات، فيقال: لَمّ اللّه تعالى شَعَثَه، أي: قارَب بين شَتيتِ أموره، وجَمَع مُتَفَرِّقه، فهذا ليس بمراد هنا، ولا يناسب المقام، وتدور معظم معانيه؛ إمّا على المقاربة أو على الشدّة، أو على ما لا يُبالى به، ولا يؤبَهُ له، أو على ما يَحْقِرُه الناس من ذنوبهم ومقارفاتِهم، وبالجملة ففيه ضروب من التصغير والتهوين غير لائقة، فإنه لا يُلَمّ شيء فيه ما يتميز بمزية، وإلّا ما يكون مصروفًا عنه نظر الاعتناء، وهو عرضة للإغفال أو الإهمال أو الإزراء.

وأمّا الجمع؛ فيُطْلَقُ على ما يُحتَفل به، كجمع الثّمار وجمع المال، وهو حَظيٌّ عند صاحبه، وبذلك يستبين فرادة اصطفاء مفردة الجمع على مفردتي الضم واللّمّ في هذا الموضع.

القرآن والتلاوة:

لفظ التّلاوة يراد به الإتّباع، وهذا إما أن يكون بقَفْوِ الآيةِ الآيةَ والسورةِ السورةَ بل والكلمة الكلمة، ففيه تنبيه على الترتيب بين كلمات الآية وبين آيات السورة وبين السور في المصحف بطريق النص عليها، من دلالة اللقب على ما لقّب به، وهذا مشمول في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ١٦﴾؛ إذ هو بعض ما دَلّ الأوّل عليه، وأحاط به في ضمنه، وإمّا أن يكون معناه أن المتلقّي يتبع مُلَقّيه وملقّنه، فيقرأ مثله، فهو إذنِ الداخل في الأمر بالاتّباع.

(1) الزبيدي، تاج العروس: (ضمم).

﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: 20 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انتقالٌ من بيانِ حُكمِ العَجَلةِ في الخير إلى بيانِ حُكمِ العَجَلةِ في الشّرِّ

لمّا بيّنتِ الآيات السّابقة إرشادَ النّبيّ ﷺ في متابعة جبريل عليه السلام، وتكفّل حفظ الله للقرآن، رَجَعَ إلى حالِ الإنسانِ السابقِ ذِكْرُه عمومًا، والمُنكِر للبعث خصوصًا، فبيَّنَ أن همَّه إنَّما هو جمع حطام الدّنيا الفاني، لا تحصيلُ ثوابِ الآخرة، إذ هو مُنكرٌ لذلكَ كلِّه[1]، فجاء النفيُ لما يظن من جهلِهم بقبيح أفعالِهم الذي اقتضاه اعتذارُهم، مُشعرًا بأن الآدمي مطبوعٌ على الاستعجال، بعد النهي عن العجلة في أعزِّ الأشياءِ وأعلاها؛ لأنَّه أصلُ الدينِ ليكون ذلك مؤكدًا للنهي عن العجلةِ بالقرآنِ، ومؤكدًا لذمهم بحبِّ العاجلةِ[2]، فإذا كانت العجلةُ في القرآن غير مقبولة، فكيف بحُبِّ العاجلة، ثم كيف بتقديمها على الآجلة، فهو انتقالٌ من بيان حُكم العجلة في الخير إلى بيان حُكم العجلة في الشّرِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾: (عجل) أصلٌ يدلُّ على الإسراع، والعجلَةُ في الأمْرِ، يُقالُ: هوَ عَجِلٌ وعَجُلٌ، لُغَتانِ. واسْتَعْجَلْتُ فُلانًا: حَثَثْتُهُ. وعَجِلْتُهُ: سَبَقْتُهُ. والعُجالَةُ: ما تُعُجِّلَ مِنْ شَيْءٍ، والعاجل: ضدُّ الآجل. ويُقال للدُّنيا: العاجلةُ، وللآخرةِ: الآجلةُ[3]. والمعنى المحوريُّ: سَبْقُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 350.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 102 - 105.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجل).

بتحصيلِ الشيءِ قبل وقتِه[1]. والعَجَلَةُ: طلبُ الشيءِ وتحرّيه قبلَ أوانه، وهو من مقتضى الشّهوةِ، فلذلك صارتْ مذمومةً في عامّة القرآن حتى قيل: العَجَلَةُ من الشّيطان[2]. وفي المُرادِ بالعاجلةِ والآخرةِ هَهُنا وجهان: أحدُهما: تُحِبّونَ ثوابَ الدُّنيا وتَذَرون ثوابَ الآخرةِ. والثّاني: تُحِبّون عملَ الدُّنيا وتَذَرون عملَ الآخرةِ[3].

2) ﴿وَتَذَرُونَ﴾: (وذر) أصلان: أحدهُما الوَذَرَةُ، وهي الفِدْرَةُ من اللَّحْم. والتَّوْذيرُ: أنْ يُشْرَطَ الجُرْحُ فيُقالُ: وذَّرْتُهُ. والآخر قولُهُم: ذَرْ ذا[4]، يُقالُ: ذَرْ ذا، ودَعْ ذا[5]. والمعنَى المحوريُّ تَبَضُّعُ اللَّحْمِ أو الشيءِ قطَعًا محدودَةً، ومن ذلك التَّبَضُّعُ والتَّقَطُّعُ، فعبّروا بالتَّركيبِ عن معنَى التَّركِ إذ هو مفارقةٌ للشيءِ وانفصالٌ أو تخلٍّ عنهُ؛ كقولِ اللّه سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: 234]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الأعراف: 73]؛ أيْ: خَلّوا عنها لا تَمَسّوها بسوءٍ، وكلُّ ما في القُرْآنِ من التَّركيبِ فهو بمعنى التَّرْكِ[6]. والمُرادُ: بـ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ههنا: تتركون العملَ لها إيثارًا للدُّنْيا عليها[7].

3) ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: (نضر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حُسنٍ وجَمالٍ وخُلوصٍ. ومنه النَّضْرَةُ: حُسنُ اللونِ، ونَضَّرَ اللّه وجهَه: حَسَّنَه ونَوَّرَه. وأخضرُ ناضرٌ. ويُقالُ هذا في كُلِّ مُشرقٍ حسنٍ. والنَّضيرُ: الذَّهبُ، لحسنِه وخُلوصِه[8]. والمعنَى المحوريُّ رِقَّةٌ وتلألؤٌ أو حالٌ معجبَةٌ طيِّبَةٌ تظهرُ على الشَّيءِ أو تغشى حالَه[9]. والنَّضْرَة: نَعيمُ الوجه، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾؛ أيْ: نَضَرَتْ بنعيمِ الجنَّة[10]. والمُرادُ بها في الآيةِ وصف الوجوهِ بأنَّها: حَسَنَةٌ، مُسْتَبْشِرَةٌ، ناعِمَةٌ، مَسْرورَةٌ[11].

4) ﴿نَاظِرَةٌ﴾: (نظر) أصلٌ صحيحٌ ترجعُ فروعُه إلى معنًى واحدٍ، وهو تأمُّلُ الشيءِ ومعاينتُه، ثم يُستعارُ ويتَّسعِ فيه. فيُقال: نظرتُ إلى الشيءِ أنظرُ إليه، إذا عاينتُه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عجل).
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 156.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وذر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).
(7) ابن الجوزيِّ، زاد المسير: 4/ 371.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نضر).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نضر).
(10) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (نضر).
(11) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 156.

ويقولون: نظرَتُه؛ أي: انْتَظَرْتُه، كأنه ينظرُ إلى الوقت الذي يأتي فيه[1]. وتقول: نَظَرْتُ إلى كذا وكذا من نَظَر العين ونَظَر القلب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: 77][2]. والمعنى المحوريُّ مواجهةٌ بالعين بترقبٍ وتهيؤٍ للالتقاطِ[3]. والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ. يُقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ؛ أيْ: لم تَتَأمَّلْ ولم تَتَرَوَّ. واستعمال النَّظَرِ في البَصَرِ أكثرُ عند العامَّةِ، وفي البصيرةِ أكثرُ عند الخاصَّةِ[4]. والمُراد بقوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ إلى رَبِّها في القيامَةِ.

5) ﴿بَاسِرَةٌ﴾: (بسر) أصلانِ: أحدُهما الطراءةُ، وأن يكونَ الشيءُ قبل إناه. والأصلُ الآخرُ وقوفُ الشيءِ وقلَّةُ حركتِه. ومنه قولُهم لكلِّ شيءٍ غضٍّ: بُسْرٌ؛ ونباتٌ بسرٌ: إذا كان طَريًّا. وماءٌ بُسْرٌ: قريبُ عهدٍ بالسَّحابِ[5]. والبَسْرُ: القهرُ، وبَسَرَ يبْسُرُ بَسْرًا وبُسورًا: عَبَسَ. ووجهٌ بُسْرٌ: باسرٌ، وُصفَ بالمصدرِ. وبَسَرَ الرجلُ وجهَه بُسورًا؛ أيْ: كَلَحَ، فقولُه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾؛ أيْ: مُتَكَرِّهَةٌ مُقَطِّبَةٌ قد أيقنتْ أنَّ العذابَ نازلٌ بها[6].

6) ﴿فَاقِرَةٌ﴾: (فقر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انفراجٍ في شيءٍ، من عضوٍ أو غيرِ ذلك. من ذلك: الفَقارُ للظهرِ، الواحدةُ فقارَةٌ، سميت للحُزوزِ والفُصولِ التي بينَها. والفقيرُ: المكسورُ فِقارِ الظَّهرِ[7]. ومنه اشتق اسم الفقيرِ، وكأنَّه مكسورٌ فِقارَ الظَّهرِ، من ذِلَّتِه ومَسكنَتِه. والفاقِرةُ: الدّاهيَةُ الكاسِرَةُ فِقار الظَّهْرِ. يُقالُ: عَمِلَ بِهِ الفاقِرةَ؛ أي: الدّاهية. ويُقالُ: فقَرَتْه الفاقِرةُ؛ أيْ: كَسَرَتْ فقارَ ظَهْرِه. ويُقالُ: أصابته فاقِرةٌ وهيَ الَّتي فقَرَتْ فقارَه؛ أيْ: خَرَزَ ظَهْرَهُ. وقولُه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ توقِنُ أن يُفْعَلَ بها داهيَةً مِنَ العَذابِ[8]، والمَعْنى: أنَّهم أيْقَنوا بأنْ سَيُلاقوا دَواهيَ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُها[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(2) الخليل، كتاب العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نظر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(4) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نظر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بسر).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (بسر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (فقر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بسر).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 356.

المَعنى الإجماليُّ:

اختلافُ حالِ الناسِ وموقفهم من حبِّ الدنيا جعلهم فريقيْن فائزينَ وخاسرينَ

جاءتْ هذه الآياتُ بيانًا لما جُبِلَ عليه كثيرٌ من الناس، من إيثارِهم منافعَ الدنيا الزائلةِ، على منافع الآخرةِ الباقيةِ، فكانتْ الآياتُ زَجرًا ونهيًا لهم عن سلوكِ هذا المسلكِ الذي يدلُّ على قِصَرِ النَّظرِ، وضعفِ التَّفكيرِ. فخاطبَتْهم بأنَّهُ ليس من الرُّشد في شيءٍ أن يتركوا العملَ الصالحَ الذي ينفعهُم يوم القيامة، وألّا يعكفوا على زينةِ الحياةِ الدُّنيا العاجلةِ، بل الرُّشدُ كلُّ الرشدِ في عكسِ ذلك، وهو أن يأخذوا من دنياهُم وعاجلتِهم ما ينفعهُم في آخرتِهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77]. وشبيه بهاتيْن الآيتيْن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ [الإنسان: 27]. ثم يُبيِّن تعالى حالَ السُّعداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ، إذ تصير بعضُ الوجوهِ حسنةً مُشرقةً، ألا وهي وجوهُ المؤمنينَ الصادقينَ، وهذه الوجوه تنظر إلى ربها في هذا اليوم نظرةَ سرورٍ وحبورٍ، بحيث تراه تعالى على ما يليقُ بذاتِه، وكما يريدُ أن تكونَ رؤيته ﷻ بلا كيفيَّةٍ، ولا جهةٍ، ولا ثبوتِ مسافةٍ. وهناك وجوهٌ أخرى تصير في هذا اليوم كالحةً شديدةَ العبوسِ، وهي وجوهُ الكافرينَ والفاسقينَ عن أمر ربِّهم، وهذه الوجوه تعتقدُ أو تتوقَّعُ، أن يُفعلَ بها فعلٌ يهلكُها، ويقصمُ ظهورها لشدَّتِه وقسوته(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآياتِ عَمّا سبقَها:

استئنافُ الكلامِ في أحوالِ القيامةِ بعد نهي النَّبيّ ﷺ عن العجلةِ بالقرآنِ

فَصَلَ القرآنُ المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ عليه، وهي قولُه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ وما بعدها، وذلك لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ بلا إيهامٍ، إذ

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 15/ 203 - 204.

بين الجملتيْن تباينٌ تامٌّ وانقطاعٌ كاملٌ، ويرجعُ ذلكَ إلى اختلافِهما إنشاءً وخبرًا، لفظًا ومعنًى، ولا يعني ذلكَ تَفَكُّكَ الكلام وتنافرَ جُملِه وعدمَ ارتباطِ أجزائه وتباعدَ معانيه بحيث لا يضمُّه سياقٌ، ولا يجمعه قرآن، وإنمّا المُرادُ به فقدانُ المناسبةِ الخاصةِ التي تسوِّغُ العطفَ، وتُجَوِّزُ الوصلَ[1]. فقد رجع القرآن المجيد إلى مهيع الكلام الذي بنيت عليه السورة، كما يرجع المُتكلِّم إلى وصْلِ كلامه بعد أن قطعه عارضٌ أو سائلٌ[2].

مَعنَى ﴿كَلَّا﴾ ودلالتها:

توكيدُ إبطالِ مزاعمِ مُنكِري البعثِ

كلمةُ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وإبطالٌ، وتحتمل أنْ يكونَ إبطالًا لما سبقَ من قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، فأعيد ﴿كَلَّا﴾ تأكيدًا لنظيرِه ووَصْلًا للكلامِ بإعادةِ آخرِ كلمةٍ منه. والمعنى: أن مزاعمَهم باطلةٌ[3].

وقيل: إنَّ ﴿كَلَّا﴾ إرشادٌ لرسولِ اللّه ﷺ وأخذٌ به عن عادةِ العجلة، وردعٌ له عنها، وترغيبٌ له ﷺ في الأناةِ، وبالَغَ تعالى في ذلك لمزيدِ حُبِّه إيّاه بإتباعه قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾[4]، وهو لا يستقيم مع سياق السورة، وإن أوهمته الآيات السّابقة.

معنَى ﴿بَلۡ﴾ ونُكتةُ تكرارِها:

حــبُّ الـدنـيـا بـإيـثـارِها على الآخرةِ أصلُ كلِّ خطيئةٍ

حرف ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ يُفصِّلُ ما أجملَهُ الردعُ بـ﴿كَلَّا﴾ من إبطالِ ما قبلَها وتكذيبه؛ أيْ: لا معاذيرَ لهمُ في نفسِ الأمرِ، ولكنَّهم أحبّوا العاجلةَ؛ أيْ: شهواتِ الدُّنيا وتركوا الآخرةَ. والكلامُ مُشعرٌ بالتوبيخ، ومناطُ التوبيخِ هو حُبُّ العاجلةِ مع نبذِ الآخرةِ، ويجوز أن يكون إبطالًا لما

(1) فيّود، علم المعاني، ص: 455.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 351.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 351.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 67، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 157.

تضمّنه قوله: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ. والمعنى: أنَّ معاذيرَهم باطلةٌ، ولكنَّهم يُحبّونَ العاجلةَ ويذرونَ الآخرةَ؛ أيْ: آثروا شهواتِهم العاجلةَ ولم يحسبوا للآخرة حسابًا[1].

دلالةُ التّعبير بالفعلِ المضارعِ:

آثر القرآن المجيد التعبيرَ بفعلِ ﴿تُحِبُّونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ دونَ غيرهما، وذلك لأنَّ فيهما ما يرشدُ إلى تحقيقِ معنى الكسبِ، وهو الميلُ والمحبةُ للفعلِ أو تركهِ[2].

دلالةُ إسنادِ الفِعلِ إلى ضميرِ الجمعِ:

تعميمُ الخطابِ لبيانِ أصلِ العجلةِ في بني آدمَ

أسنَدَ القرآن المجيد الفعليْنِ ﴿تُحِبُّونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ، وذلك لتعميمِ الخطابِ للكلِّ، كأنه قيلَ: بل أنتم يا بني آدمَ، لَمّا خُلقْتُم من عَجَلٍ وجُبلتُم عليه تعجلونَ في كلِّ شيءٍ؛ ولذا تُحِبّونَ العاجلةَ وتَذرونَ الآخرةَ، لأنَّ عادةَ بني آدم الاستعجالُ ومحبَّةُ العاجلةِ، وفيه أيضًا أنَّ الإنسانَ، وإنْ كان مجبولًا على ذلك، إلّا أنَّ مثله ﷺ ممَّن هو في أعلى منصبِ النُّبوَّةِ لا ينبغي أن يستفزَّهُ مُقتضَى الطباعِ البَشَريَّةِ، وأنَّه إذا نُهي ﷺ عن العجلةِ في طلبِ العلمِ والهُدَى؛ فهؤلاءِ ديدنُهم حبُّ العاجلةِ وطلبُ الرَّدَى؛ كأنَّهم نزلوا منزلةَ مَن لا يَنْجَعُ فيهم النَّهيُ[3].

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

الالتفاتُ من الغيبةِ إلى الخطابِ تنبيهٌ للسامعينَ وزجرٌ للمُنكِرينَ

وردَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قراءاتانِ متواترتانِ، فقرأ الكوفيّون ونافعٌ وأبو جعفر: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾، بتاءٍ فوقيَّةٍ، وقرأ الباقونَ بياءٍ تحتيَّةٍ: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿وَيَذَرُونَ﴾[4]. فقراءةُ التاءِ على تقدير: قُلْ لهم يا مُحمّد ﷺ: بل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 351.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 351.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 157.

(4) ابن الجزري، تحبير التّيسير، ص: 598.

تُحِبّون وتَذَرون[1]. ففيها التفاتٌ من الغيبةِ إلى الخطابِ في موعظةِ المشركين مواجهةً بالتقريعِ؛ لأنَّه أبلغ فيه على نسق ضمائرِ الغيبةِ السابقة، وأمّا ضميرُ الياء فعائدٌ على ما تَقَدَّمَ من ذِكْرِ الإنْسانِ في قَوْلِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ والمُرادُ مِنهُ الكَثْرَةُ، كَقَوْلِه: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 19][2].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

المعاني الحاضرةُ في الأذهانِ ركائزُ الخطابِ القرآنيِّ

جاءتِ اللّامُ في لفظي: ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ للعهدِ الذهنّي، إذ لم يسبقْ لها ورودٌ فيما سبقَ من السورةِ الكريمةِ، وفي ذكرِ هذيْنِ اللفظيْنِ باللّامِ إشارةٌ بالغةٌ إلى اطِّلاعِ اللّه سبحانه على ما في نفوسِ بني الإنسانِ، فإنَّ حبَّ الدنيا والرغبةَ في النهلِ من معينها، وتركَ الآخرة وإهمالها لا يكادُ يفارقُ أذهانهم، فعبَّرَ النَّظمُ عمّا يجري في نفوسِهم وإنْ لم يَسبِقْ له ذِكْرٌ في السورةِ.

بلاغةُ المقابلةِ ودلالتُها:

شدَّةُ المفارقةِ بين العاجلةِ والآخرةِ كالمفارقةِ بين طريقِ الجنّةِ والنّارِ

استعملَ القرآن المجيد فنَّ المقابلةِ في قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ إبرازًا لبُعدِ الشُّقَّةِ بينَ الأمريْن، بما يلفتُ انتباههم إلى هذه المفارقةِ البعيدةِ، فيرى بنو الإنسانِ عمومًا، والمشركونَ خصوصًا مدى استغراقهم في الضَّلالِ، وأنَّهم إنَّما يُنْهَونَ عن الاستزادةِ من المُنكَرِ والضَّلالِ، على حين ينهى غيرهم عن الاستزادة من الخير والإحسان، حتى لا يشقَّ على نفسه، ولا يكلفها فوق ما تطيق[3].

نُكتةُ تقديمِ حُبِّ العاجلةِ:

حبُّ العاجلةِ سببُ تركِ الآخرةِ؛ فهو من تقديمِ العِلَّةِ على النتيجةِ

بدأتِ الآية الكريمة بذِكْرِ حُبِّ العاجلةِ على تركِ الآخرةِ؛ لأنَّ العادةَ قاضيةٌ بتقديمِ ما جُبلتِ النفوسُ على حُبِّه من حطامِ الدنيا،

---

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 418.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 729.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1337.

فكان في تقديم حُبِّ العاجلةِ تعريضٌ بهم وتوبيخٌ لهم على شدَّةِ حرصهم على سفاسفِ الأمورِ، بدليلِ أنَّهم يُقبلونَ غايةَ الإقبالِ عليها فيأخذونها، وحبُّها أوجبَ لهم ارتكابَ ما يعلمونَ قبحَه؛ فإنَّ الآخرةَ والأولى ضرَّتانِ؛ مَن أحبَّ إحداهما فعَلَ ولا بدَّ ما يباعدُه عن الأخرَى[1]، إلّا مَن عصمه اللّه فوازنَ بينَ العاجلةِ والآخرةِ، كما أنَّ التقديم لبيان علّة ترك الآخرة، فلا يستقيم أن يبدأ بذِكْرِ النتيجة قبل ذِكْرِ سببها، فبدأ بالسَّببِ وثَنَّى بالنتيجة.

فائدةُ العطفِ بين المتُقابلَيْن:

ذمُّ حُبِّ العاجلةِ مُقترنٌ بتركِ الآخرةِ

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ تأصُّلَ الرَّغبةِ في تركِ الآخرةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ رغم أنَّ قوله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ دالٌّ على الرغبة في ترك الآخرةِ، بدليلِ حبِّ الدنيا، وفائدةُ ذلك الإشارة إلى أنَّ حبَّ العاجلةِ ليس مذمومًا على إطلاقهِ إلّا إذا كان مصحوبًا بتركِ الآخرةِ. وأمّا إن كانَ حبُّ العاجلةِ مصحوبًا بالعملِ للآخرةِ والالتزامِ بالأوامرِ والنَّواهي الشرعيَّةِ فلا بأس به عندئذٍ، فالمحذورُ في اجتماعِ الأمريْنَ معًا: حُبِّ الدنيا وكراهيةِ الآخرة[2].

دلالةُ إيثارِ (تَذَرونَ) على غيره من الأفعال:

في الفعلِ (وذِرَ) مِن معاني النُّفورِ والذَّمِ ما يؤكِّدُ التَّوبيخَ

آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بالفعل (تَذَرونَ) دونَ غيره من الأفعالِ، مثل: (تَتْرُكونَ)، وذلك لأنَّ في (تَذَرونَ) حذفًا، وأصلُه (تَوْذَرون) من (وذِر) ليدلَّ ذلك على طابعِ العجلةِ الذي يريدُ أن ينتهي من الشيءِ في أقربِ وقتٍ. فاختيارُ هذا الفعلِ المحذوفِ الواوِ مناسبٌ لجوِّ العجلةِ. وكذلك فقد آثره على الفعلِ: (تَدَعونَ) الذي فيه حذفٌ كما في (تَذَرونَ)، وذلك لما في الفعلِ (وَذِرَ) في عمومِ

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 351.

معانيه ممّا يفيدُ الذَّمَّ، ومنه قولهم: امرأةٌ وذِرَةٌ؛ أيْ: رائحتُها رائحةُ الوَذَرِ، وهو اللحم، بخلافِ الفعلِ (وَدَعَ)؛ فإنَّ من معانيهِ الرّاحةَ والدَّعةَ وخفضَ العيشِ. في حين أنَّ الموقفَ موقفُ ذمٍّ، فإنَّهم يُحبّونَ العاجلةَ ويذرونَ الآخرةَ، فاختارَ الفعلَ الذي يُقالُ في عموم معانيه للذَّمِّ، ولم يخترِ الفعلَ الذي يُقال في كثيرٍ من معانيه أو أكثرِ معانيه للمدحِ، وهو اختيارٌ فنيٌّ رفيعٌ(1).

عِلّةُ فصلِ قولِه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾:

ما بعد بيانِ حُبِّ العاجلةِ وتركِ الآخرةِ إلّا بيانُ ثمرتِهِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ مفصولٌ عمّا سبقه، وهو قولُه: ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، والجملة تحتمل الاستئنافَ الابتدائيَّ فتكون من باب كمال الانقطاع للشروع في بيان ما سيحدث يوم القيامة، وتحتمل الاستئنافَ البيانيَّ، فتكون من شِبْهِ كمال الاتصال، كأنَّ سائلًا قد سأل: وماذا يترتب على هذا الحُبِّ والتَّركِ، فجاء الجوابُ ببيان حال الناس في القيامة.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿وُجُوهٞ﴾ و﴿نَّاضِرَةٌ﴾:

التنكيرُ للدلالةِ على كثرةِ المُتنعِّمينَ، أو للتَّنويعِ والتَّقسيمِ

جاء لفظا ﴿وُجُوهٞ﴾ و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ نكرتَيْنِ للتّكثيرِ؛ أيْ: نتيجةُ الحبِّ والتَّرك في يوم القيامةِ أنْ تكونَ هناك وجوهٌ كثيرةٌ ناضرةٌ، هي وجوهُ المؤمنينَ المُخلصينَ، فهي بهيَّةٌ مُتهلِّلةٌ من عظيم المَسَرَّةِ، يُشاهَدُ عليها نضرةُ النَّعيم. و﴿وُجُوهٞ﴾ مبتدأٌ، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبرُه، وصحَّ وقوعُ النَّكرةِ مبتدأً؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ تفصيلٍ(2)، وقيل: للتخصيص بالظَّرفية. وقيل: تَنكيرُ ﴿وُجُوهٞ﴾ للتَّنويعِ والتَّقسيمِ كقوله تَعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشّورى: 7](3).

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 218.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 190، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 160.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 352.

التّشويقُ لمعرفةِ حالِ الوجوهِ يومَ القيامةِ

فائدةُ توسيط ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بين المبتدأ والخبر:

توسَّطَ التعبيرُ الظَّرفيُّ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بين المبتدأ ﴿وُجُوهٌ﴾ والخبرِ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ فتقدَّمَ عليه، وذلك توكيدًا لعظمةِ هذا اليوم الذي تدورُ حولَهُ السورةُ كلُّها[1]، فالمُراد بـ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يومُ القيامةِ الذي تكرَّرَ ذكرُه بمثل هذا ابتداءً من قوله: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾، وهو يفيدُ الاختصاصَ كذلك، وهو ما يقتضيه المعنى والفاصلةُ، فإنَّ نَضرةَ أصحابِ النَّعيم تختصُّ بذلك اليوم، أمّا في الدنيا فربما لم تعرفْ وجوهُهم النَّضرةَ[2]، كما أنَّه أفادَ التّشويق لمعرفة الخبر عن تلك الوجوه، لاسيما أنّها أتت نكرةً.

دوامُ حُسنِ وجوهِ أهلِ الجنَّةِ الخالدِ يُقابلُ حُسنَ أهلِ الدنيا الزّائلِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بمُفردة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وذلك لما فيها من الدلالةِ على الحُسن والجَمال والخُلوص والنقاءِ والرقَّةِ والتّلألؤ[3] في الوجوه، فلمّا كان محبُّ الدنيا راغبًا في البهاء والجمال، كان ذِكْر الوجوه النّاضرة مُشعِرًا بجمال وبهاء أهلها، لتقع المقابلة بين الجمال العاجل، والجمال الخالد، وآثرَ التعبيرَ باسم الفاعل ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ لما فيه من الدلالةِ على الثباتِ والدوام والاستقرارِ، فهي وجوهٌ نَضَرَتْ بنعيم الجنَّة وبالنَّظرِ إلى ربِّها[4]، فأصابها من النعيمِ ما لا شقاءَ بعدَهُ أبدًا.

كمالُ سرورِ أهلِ الجنَّةِ وعظيم استبشارِهم ظاهرٌ في حُسنِ وجوهِهم

بَلاغةُ الكنايةِ ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ذَكَرَ القرآن المجيد الوجوهَ ووصفها بالنَّضْرَةِ، وذلك كناية عن كمال السُّرور وظهورِ الحبور في وجوههم وفرط مسرة أصحابها، كما قال تعالى في أهل السعادة:

---

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 94.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 219.
(3) الرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نضر).
(4) الواحديّ، التّسيير البسيط: 22/ 508.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: 24]؛ لأنَّ ما يحصلُ في النَّفسِ من الانفعالات يظهرُ أثرُه على الوجوهِ[1].

بَلاغةُ الحقيقةِ والمجازِ في لفظِ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾:

القولُ بالحقيقةِ هو المُقدَّم لاسيّما في أخبارِ الغيوبِ

جاء التعبير بالوجوهِ في قولِ اللّه جل الجلاله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾، وهو يحتمل المجاز والحقيقة، فإذا أُريد بالوجوه جملة البدنِ[2]، فهو مجازٌ مُرسلٌ علاقته الجزئيّة، فذكر الوجوهَ وأراد بها أربابَها، فإنَّ الوجهَ ممّا يُعَبَّرُ به عن الكُلِّ، وإن أراد بالوجهِ الوجهَ دون سائر البدن؛ فالمعنى حقيقيٌّ، وحينها فلا وجهَ للعدولِ عنه مع انعدامِ ما يصرفُ عن إرادَتِهِ[3]، والأَوْلى في توجيه ذلك حمل الكلام على الحقيقة؛ لأنَّ النضارة من صفات الوجوه لا من صفات الأبدان، وحمل الوصف الغيبيّ على حقيقته أَوْلى من تأويلِه، وما قيل في الكناية مُقدَّمٌ على القول بالمجاز المُرسَلِ.

نُكتةُ فصلِ قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾:

نضارةُ الوجوهِ ثمرةُ النَّظرِ إلى وجهِ الكريمِ

فَصَلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ عن قولِه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾، وذلك لقوَّةِ الاتصالِ بينَ الآيتَيْن، إذ جاء الفصلُ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فقد أثارتْ الآيةُ الأولى سؤالًا، وهو: لماذا تكونُ هذه الوجوهُ ناضرَةً يومَ القيامةِ؟ فكانَ الجوابُ؛ لأنَّها تتمتَّعُ برؤيةِ وجهِ اللّه الكريم تعالى. فلم يكنْ ثَمَّ داعٍ للوصلِ بأحد حروف العطفِ، وذلك لشِبْه كمالِ الاتصالِ بين السؤالِ المُضمَرِ وجوابه، وهو ما يقطع بإرادة النّظر، فإنَّ نضارة الوجوه ثمرة نظرِها إلى خالقها.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

عدَّى النَّظمُ الحكيمُ النَّظَر في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ بحرف

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 457، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 353.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 662، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 350.

(3) شيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 421.

الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾، وذلك لما فيه من الدلالةِ على إيصالِ فعلِ النَّظرِ إلى ما بعدها، ولبيان تحقُّق النّظر إلى وجهِ الكريم.

غَرضُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ:

الاستغراقُ في النَّظرِ إلى وجه اللهِ الكريمِ يحجبُ كلَّ ما سواه

قدَّمَ القرآن المجيد شِبْه الجملةِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ على الخبرِ ﴿نَاظِرَةٌ﴾ لإفادةِ الاهتمامِ والعناية بالمذكور لا الاختصاص؛ أيْ إنَّ وجوه أهلِ الجنَّةِ إذْ تراه تعالى تكونُ مستغرقةً في مطالعةِ جمالِه بحيث تغفلُ عما سواه، فتشاهدُه على ما يليقُ بذاتِه تعالى، فحتى لو رأت هذه الوجوهُ غيرَه تعالى فإنَّ نظرَها إلى غيره تعالى لا يعد نظرًا في جنب النظر إليه تعالى[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيَّةِ:

الربُّ تعالى هو المُنعِمُ بالجنَّةِ والمُتفضِّلُ على عبادِهِ بلذَّةِ النَّظرِ

آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بوصفِ الربوبيَّةِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ دونَ وصفِ الألوهيَّة، وذلك لأنَّ وصفَ الربوبيّةِ يدلُّ على معاني الخَلق والتربية والرعاية وهي التي اقتضت العبادة الحقّة الموصِلة إلى دار النعيم، فكان ذِكْر الربوبيّة بهذا الاعتبار هو الأنسبُ، فوجوه أهلِ السَّعادةِ تنظرُ إلى وليِّ نعمتها في الدنيا والآخرة ومُربّيها وسيّدِها الذي غذّاها بالنِّعمِ وهداها إلى طريق السعادةِ، وأوصلها إليه ولم تكن قد رأته من قبلُ، كما أنَّه لم يرد في هذه السورة من أسماء اللّه تعالى غير لفظ (الرب)[2]، وهي في ذلك تشبه سورة الرحمن التي اقتصرت كذلك على التعبير بالربوبيةِ دونَ الالوهيةِ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيةِ إلى الضَّميرِ:

أضاف النَّظْمُ الكريمُ عنوان الربوبية إلى الضَّمير في قوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 161، وانظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 662، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 169 - 170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 355.

(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 219.

تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾ لتشريفها وتكريمها بإضافتها إلى ربِّها، والإضافة بمعنى اللام؛ فأفاد الاختصاص.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿نَاظِرَةٌ﴾:

الآيـةُ نَـصٌّ في رؤيـةِ المؤمنينَ لله ﷻ تصريحًا وتأويلًا

عبَّرَ القرآن المجيد عن متعةِ أهل الجنَّةِ وزيادَةِ نعيمهم بقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فأخبر عن الوجوهِ خبرًا ثانيًا بقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وظاهرُ لفظِ ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أنَّه من نظر بمعنى: عاينَ ببصرِه، إعلانًا بتشريفِ تلكَ الوجوهِ بأنَّها تنظرُ إلى جانب الله سبحانه نظرًا خاصًّا، لا يشاركُها فيه مَن يكونُ دونَ رُتَبِهِم، فهذا معنى الآية بإجماله ثابتٌ بظاهرِ القرآن وقد أيّدتها الأخبار الصحيحة الكثيرة عن النبي ﷺ[1]، ومنها ما رواه البخاري عَنْ أبِى سَعيدٍ الخُدْرِىِّ قالَ: «قُلْنا: يا رَسولَ اللّه: هَلْ نَرَى رَبَّنا يَوْمَ القيامَةِ؟ قالَ: هَلْ تُضارونَ في رُؤْيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ إذا كانَتْ صَحْوًا؟ قُلْنا: لاَ، قالَ: فإنَّكُمْ لاَ تُضارونَ فِى رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إلاَّ كَما تُضارونَ فِى رُؤْيَتِهِما»[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿نَاظِرَةٌ﴾:

جاءَتْ كلمةُ ﴿نَاظِرَةٌ﴾ نكرةً لتعظيمِ النّظر، فإنَّ النّظر إلى وجه اللّه الكريمِ تعالى على ما يليقُ بجلاله وعظمته عظيمٌ، فإنَّ وجوهَ أهلِ الجنَّةِ تتهلَّلُ بالنورِ من جراءِ هذا النَّظرِ الشريفِ.

بَلاغةُ الجِناسِ المُحَرَّفِ:

نـضْـرَةُ الـوجـوهِ ثـمـرةُ نـظـرِ العيونِ

استعملَ القرآنُ المجيد لفظَي ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاظِرَةٌ﴾ للإخبارِ عن وجوهِ أهلِ النَّعيمِ المُصدِّقينَ بيومِ القيامةِ، وبين الكلمتيْنِ تقاربٌ صوتيٌّ هو الجناسُ المُحرَّفُ أو الجناسُ المضارعُ لاختلافِ الكلمتيْنِ في حرفٍ واحدٍ وهو الضّاد في الأولى والظّاء في الثانية، وقد

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 353.

(2) رواه البخاريُّ في صحيحه، كتاب التّوحيد، باب قولِ الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ حديث رقم: (7529).

أكسب هذا الجناسُ إيقاعَ الكلامِ حلاوةً وعذوبةً، وأسهم في بيانِ المعنى، إذ إنَّ النَّضْرَةَ في وجوه المؤمنينَ أثرٌ من آثارِ النَّظرِ إلى وجه اللّه الكريمِ.

دلالةُ العطفِ بين الأحوالِ المتقابلةِ:

تغايرُ أحوالِ الخلقِ في الآخرة حسبَ موقفِهم من العاجلةِ والآجلةِ

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ عاطفةً، فعطفتِ الآيةَ على قولِ اللّه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾، وهو عطفُ حالٍ على حالٍ، ومقامٍ على مقامٍ، فهناك وجوهٌ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ، تقابلُها في الجانب الآخرِ وجوهٌ باسرةٌ كالحةٌ مُغبرَّةٌ، فالوجوهُ النّاضرةُ الطامعةُ في رحمة ربها هي وجوهُ المؤمنين، والوجوهُ الكالحةُ المُتوقِّعةُ الهلاك هي وجوهُ المشركينَ والضالين[1]. وقد وصلَ القرآن المجيد بين الجملتَيْنِ لاتفاقهما في الخبريَّةِ لفظًا ومعنًى، ولاختلاف الأحوال وتقابلها، مع الاشتراك في بيان مآل كلٍّ منها.

نُكتةُ تنكيرِ (وُجوهٌ) و﴿بَاسِرَةٞ﴾:

التّنكيرُ للدلالةِ على كثرةِ المُنكرينَ المُكذِّبينَ أو للتّنويعِ والتَّقسيمِ

جاء لفْظا (وُجوهٌ) و﴿بَاسِرَةٞ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ نكرتَيْنِ للتَّكثيرِ؛ أيْ: نتيجةُ ترك الإيمانِ بالبعثِ والتكذيبِ في يوم القيامةِ أنْ تكونَ هناك وجوهٌ كثيرةٌ باسرةٌ، هي وجوهُ المُكذِّبينَ المُنكرينَ، فهي مُعبسة مُكدَّرَةٌ خاشعةٌ ذليلةٌ. و(وُجوهٌ) مبتدأٌ، و﴿بَاسِرَةٞ﴾ خبرُه، وصحَّ وقوعُ النَّكرةِ مبتدأً؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ تفصيلٍ[2]. وقيل: تَنكيرُ (وُجوهٌ) لِلتَّنْويعِ والتَّقْسيم كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشّورى: 7][3].

فائدةُ توسيطِ ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ بين المبتدأِ والخبرِ:

توسَّطَ الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ بينَ المبتدأ (وُجوهٌ) والخبرِ ﴿بَاسِرَةٞ﴾،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1339.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 190، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 160.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 352.

وذلك للتَّشويق لمعرفة خبر هذه الوجوه بعد معرفةِ خبرِ وجوه المؤمنين يوم القيامة.

بلاغةُ التّعبير بمفردةِ ﴿بَاسِرَةٌ﴾:

عبَّرَ القرآن المجيد عن حالِ وجوهِ الكافرينَ المكذبينَ بمادَّةِ البسورِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾، وذلك لما فيها من معاني القهرِ والعبوسِ والكلاحةِ والتَّكَرُّهِ والتّقطيبِ[1]، فصوّرت هذه المعاني المجتمعة في المُفردة شِدَّةَ ما يكونُ فيه هؤلاءِ المُكذِّبونَ من العذابِ الأليم، جزاءً وفاقًا لتكذيبِهم بيومِ القيامةِ، فوجوههم شديدةُ العبوسِ والكلوحِ لما هي فيه من الغَمِّ، كأنها قد غرقتْ فيه فرَسَبَتْ بعد أنْ سبرتْ أحوالَها، فلم يظهرْ لها وجهُ خلاصٍ. وتلك الوجوه عن ربها محجوبةٌ، وإلى أنواع العذاب ناظرةٌ[2]. ومن دقائق إيثارِ هذه المفردة، أن الأصل في البُسورِ تعجُّلُ الشيءِ قبلَ أوانه، كبُسر التّمر، وهو المناسب لتعجّلهم العاجلة وترك الآخرة، فكان بسر وجوههم في الآخرة كبسر أفعالهم في الدنيا.

مَن بسرت أفعالُه في الدّنيا استعجالًا للمُتَع بسرَ وجهُهُ في الآخرةِ

بَلاغةُ الكنايةِ ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ ذكرَ القرآن المجيد الوجوهَ ووصفها بالبُسورِ، وذلك كنايةٌ عن شدَّةِ العذابِ والشَّقاءِ الظّاهرِ على وجوههم يوم القيامة[3].

شِدَّةُ شقاءِ المكذبينَ بيومِ القيامةِ ظاهرٌ على وجوههم

نُكتةُ فصلِ قولِه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾:

فصل القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ عن قولِه: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾، ولم يعطفْ بين الجملتيْنِ بأحد حروفِ العطفِ، وذلك لوقوعه استئنافًا بيانيًّا[4]، فقد أثارتِ جملةُ

بيانُ سببِ بُسورِ وجوهِ المُكذِّبينَ يظهرُ في وجوهِهم

(1) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (بسر).

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 107.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 281.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 356.

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ سؤالًا فحواه: لماذا كانَ هذا البسورُ والتَّكرُّه باديًا على وجوه المُكذِّبينَ بيومِ القيامةِ؟ فجاءَ الجوابُ بأنَّه من جراءِ توقُّعِها وظنِّها أنَّها ستُلاقي من الدواهي والمصائبِ والشَّدائدِ ما لا قبل لها به. فكان بين الجملتيْن من اتّصالِ المعنى وإحكامه ما يُغني عن الوصلِ بينهما بأحد حروفِ العطفِ، كما تحتمل أن تكون بيانًا لبسر الوجوه، فإنَّ الظنَّ تظهر آثاره في الوجوه.

براعةُ استعمالِ مُفردةِ الظَّنِّ:

تَوَقُّعُ أهلُ النّارِ سوءَ عاقبتِهم قبل حلولِها متناسبٌ مع كثرةِ تسويفِهم

آثَرَ القرآن المجيد استعمال مُفردة الظَّنِ في قولِه تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، وفي ذلك اليوم لا ظنونَ بل يقينٌ حتميٌّ؛ وذلك لأنَّ تلك الوجوه تظنُّ أنَّ الذي سيقع عليها هو أشدُّ ممّا هم فيه؛ وذلك لأنَّ المُرادَ بالفاقرةِ ما لا يُكْتَنَهُ من العذابِ، فكلُّ ما يُفعلُ به من أشدِّه، استدلَّ منه على آخرَ، وتَوَقَّعَ أشدَّ منه، وإذا كان ظانًّا؛ كانَ أشدَّ عليه ممّا إذا كانَ عالمًا موطِّنًا نفسَه على الأمرِ. على أنَّ العلمَ بالكائنِ واقعٌ لا بما يتجدَّدُ آنًا فآنًا، فهذا وجهُ الإتيانِ بفعلِ الظَّنِّ، فيبقى وجِلًا أشدَّ الوجلِ خائفًا أعظمَ الخوفِ من هذا الأمرِ الذي لا يعلمُ ما هو ولا مداه ولا كيفَ يتَّقيه[1]، وهو كذلك يحتمل حمله على التَّهَكُّمِ؛ كأنَّه قيلَ: إذا شاهدوا تلكَ الأحوالِ حصلَ فيهم ظَنٌّ أنَّ القيامةَ حقٌّ[2]، فذلك جمعٌ بينَ العذابِ البدنيِّ والعذابِ المعنويِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَظُنُّ﴾:

جاء التّعبير بالمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تَظُنُّ﴾ ليفيدَ تجدُّدَ هذا الظَّنِّ والرُّعبِ فيهم، فهم لا يكاد يستقرُّ لهم بالٌ من شدَّةِ عذابِهم وتوقُّعِ ألوانِ العذابِ في كلِّ آنٍ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 162.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 733.

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُفۡعَلَ﴾ للمفعول:

إظهارُ الفعل أقوى من التَّصريح بالفاعل من حيث الأثرُ التّرهيبيُّ

بنى القرآن المجيد فعلَ ﴿يُفۡعَلَ﴾ للمفعولِ، وعدلَ عن التعبيرِ بالبناءِ للمعلوم؛ لأنَّ المحذورَ هو وقوعُ الشرِّ، لا كونه من مُعَيَّنٍ[1]، فإنَّ العذابَ واقعٌ بهم لا محالة، ولم يَقُلْ: (أنْ نَفْعَلَ بها) بإسنادِ الفعلِ إلى ذاتِه العَليَّةِ؛ لأنَّه لم يُرِدْ أن ينسبَ إيقاعَ هذه الكارثةِ والشَّرِّ المستطيرِ إلى نفسِه، كما في كثيرٍ من التَّعبيراتِ التي لا ينسب اللّه فيها السوءَ إلى ذاتِه العليَّةِ، نحو قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجنّ: 10]. وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء: 83]، فلم ينسب الشرَّ إلى ذاته[2].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُفۡعَلَ﴾ دون مقارباته:

عذابُ المُكذِّبين مقصودٌ مُرادٌ فلا عبثيّةَ ولا ظُلمَ

جاء التّعبير بقوله: ﴿أَن يُفۡعَلَ﴾ بالبناء للمفعول دون أن يقول مثلًا: (أن تصيبَها فاقرةٌ) أو (أن تَحِلَّ بها) ونحو ذلك، لنكتةٍ لطيفةٍ، ذلك أنَّ قولَه: ﴿أَن يُفۡعَلَ بِهَا﴾ معناه أن هناك فاعلاً مُريدًا يفعلُ بفَقارِ الظَّهرِ ما يُريدُ من تحطيم وقَصْمٍ. أمّا القول: (أنْ تُصيبَها) أو (تَحِلَّ بَها) فكأنَّ ذلكَ متروكٌ للمُصادفاتِ والظُّروفِ، فقد تكونُ الفاقرةُ عظيمةً أو هيِّنَةً، والفواقرُ بعضُها أدهى من بعضٍ، فقوله: ﴿أَن يُفۡعَلَ بِهَا﴾ فيه تصريحٌ بوجود فاعلٍ مُريدٍ، وهو الأنسبُ في هذا السّياقِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المُنسَبِكِ دونَ الصَّريحِ:

في الجمع بين العذابِ وزمنِه دلالةٌ على شدَّةِ فزعِ المُكذّبينَ

عبَّر القرآن المجيد بالمصدرِ المُنسبِك في قولِه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ دون المصدرِ الصريحِ، فلم يَقُلْ: (تَظُنُّ فعلَ الفاقرةِ بها)،

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 107.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 220 - 221.
(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 220 - 221.

وذلك لما في المصدر المُنسبِك من الدلالةِ على الزَّمنِ إلى جوارِ الحدثِ نفسه[1]، وهو ما يُكسِبُ الدلالةَ من الدِّقَّةِ والتحديدِ ما يشيرُ إلى شِدَّةِ ما يعتملُ في نفوسِهم من الهولِ والفزعِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ دونَ العَمَلِ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرِ بالفعلِ دونَ العملِ في قولِه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، وذلك لما في التعبير بالفعلِ من العمومِ والشمولِ، بحيث يُصبح الفعل ملازمًا لأصحاب الوجوه.

نوعُ الباءِ في ﴿بِهَا﴾ ودلالتها:

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِهَا﴾ على أصل معناها وهو الإلصاقِ، إشارةً إلى شِدَّةِ خوفِ هؤلاءِ المُكذِّبينَ من إلصاقِ العذابِ بوجوههم، وتقديمُ شبه الجملةِ لبيانِ توقعهم لاختصاصِ العذاب بهم.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالة ذلك في فهمِ المُرادِ:

يرجعُ الضَّمير إمّا للفظ المُتقدِّم أو ما يفيده اللفظ المُتقدِّم بدلالة السّياق

عادَ الضميرُ (الهاءُ) في ﴿بِهَا﴾ على أبدان الوجوهِ، المُستفادة من ذِكْرِ الوجوه، فإنَّه يلزم عن وجود الوجوه وجودُ أبدانِها، بطريق دلالة اللزوم، فإنَّه إذا أصيبَ الوجهُ الذي هو أشرفُ ما في الجملةِ كان ما عداه أوْلَى[2]؛ لأنَّ الفاقرةَ لا تصيبُ الوجهَ، وإنَّما تصيبُ الظَّهرَ، ولذا كان تفسيرها بالذاتِ هَهُنا مُستساغًا، وليس بالضرورة أن يرجع الضَّمير إلى اللفظ المُتقدِّم، بل قد يرجع إلى ما يدلُّ عليه اللفظ المُتقدِّم بدلالة السّياق.

بلاغة التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿فَاقِرَةٞ﴾:

الفاقرةُ الدّاهيةُ تصيبُ الفقارَ أو كناية عن العذاب الذي يُصيبُ عمومَ الأبدانَ

عبَّرَ القرآن المجيد عن عذابِ المُنكرينَ المُكذِّبينَ بأنها ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، والفاقرةُ: الدّاهيَةُ الكاسِرَةُ فِقارِ الظَّهْرِ. يُقالُ: عَمِلَ بِهِ الفاقِرةَ؛ أيِ: الداهية. ويُقالُ: فقَرَتْه الفاقِرةُ؛ أيْ: كَسَرَتْ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 147.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 107.

فقارَ ظَهْرِه. ويُقالُ: أصابته فاقِرةٌ وهي التي فقَرَتْ فقارَه؛ أيْ: خَرَزَ ظَهْرَهُ، فهم موقنونَ بشِّدةِ العذاب[1]، وأنَّهم سَيُلاقون دَواهيَ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُها[2]. فإطلاق الفاقرة لبيانِ أشدِّ العذاب الذي يكسر الظهر، ويحتمل أنّه كنايةٌ عن شدّة العذاب وسطوة العقاب.

نكتةُ التعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

جاء التّعبيرُ باسم الفاعلِ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ لما فيه من الدلالةِ على الثباتِ والدوامِ والاستقرارِ، مع الإيماء إلى الحدث، فلا سبيل لهم إلى النجاة منها ولو بعدَ حينٍ.

نُكتةُ إفرادِ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ ودلالةُ تَنكيرِها:

جاءتْ لفظةُ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ مُفردَةً للدلالةِ على الجِنْسِ، أيْ: جنسُ الفواقرِ الدواهي، وفي تنكيرها إشارةٌ إلى شدَّةِ هذه الفواقرِ وعظمتها[3]، فيما يظنُّه أولئك المُكذِّبون.

بَلاغةُ المقابلةِ بينَ حالَيِ الوُجوهِ:

بيانُ شدَّةِ المفارقةِ بين الطائعينَ المُصدِّقينَ والعاصينَ المُكَذِّبينَ

جاءتِ المقابلةُ بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين[4] في قولِ اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ تبيِّنُ حالَ السُّعداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ، إذ تصيرُ بعضُ الوجوهِ حسنةً مشرقةً، تنظر إلى ربها نظرةَ سرورٍ وحبورٍ، ووجوهٌ أخرى كالحةٌ شديدةُ العبوسِ، وقد أفادتْ المقابلةِ إنذارَ اللّه تعالى لجميع الناس قبل أن يفجأهم الموت، وتطوى صحائف الأعمال، فيبادروا إلى الإيمان باللّه والعمل الصالح، وبعد الموت الذي يستوي فيه الكل، يأتي البعث حتمًا في وقت لا بد منه، من أجل أمرَيْن هما: إقامة

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بسر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 356.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 356.
(4) الزّحيليّ، التفسير المنير: 29/ 262.

العدل المُطلَق بين الخلائق، بالجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى المُطيع والعاصي[1].

بلاغةُ فنِّ الاحتباكِ:

الاعتناءُ بذِكرِ ما يناسبُ كلَّ فريقٍ من الذِّكرِ والحذفِ

يتجلَّى فنُّ الاِحْتِباكِ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، إذ ذِكْرُ النَّظَرِ في الأوَّلى دَليلٌ عَلى ضِدِّهِ في الثَّانيَةِ، وذِكْرُ الفاقِرَةِ في الثّانيةِ دَليلٌ على ضِدِّها في الأولى[2]، فالمذكور في الأولى هو النظر إلى وجه الكريم والمحذوف في الثانية الحرمان من النظر، والمذكور في الثانية هو الظّنّ بأن يُفعل بها فاقرة، والمحذوف في الأولى هو الظنُّ أن يُفعل بها الخير العظيم، والتقدير: (وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة، تظن أن يُفعل بها خيرًا، ووجوه يومئذ باسرة، إلى ربها غير ناظرة، تظن أن يُفعل بها فاقرة)، ونكتة الاحتباك إظهار الأولى بالذِّكر لكل فريق، فذِكْرُ النظر إلى الله تعالى هو أكرم المكرمات للمؤمنين، فكان ذِكْرُهُ أوْلى من ذِكر ظنِّ المؤمنين تصريحًا، للعلم به لزومًا، وذِكْرُ ظنِّ الكافرين باعتباره نتيجةً حتميَّةً لما يلحقهم في ذلك اليوم العجيب.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُبوس والبُسور:

العبوسُ كاشفٌ عن غضبِ الداخلِ، والبَسْرُ هو ما يتمثَّلُ في الظّاهرِ

البَسْرُ: القهرُ، وبَسَرَ يبْسُرُ بَسْرًا وبُسورًا: عَبَسَ. ووجهٌ بُسْرٌ: باسرٌ، وُصِفَ بالمصدر. وبَسَرَ الرجلُ وجهَه بُسورًا؛ أيْ: كَلَحَ[3]. وأمّا عَبَسَ الرَّجُلُ يَعْبِسُ عُبوسًا، وهوَ عابِسُ الوَجْهِ: غَضْبانُ[4]. فاللفظان في اللغة مترادفانِ فهما بمعنى التقطيبِ والتجهُّم وكلاحة الوجه،

(1) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 3/ 2784.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 107.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (بسر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبس).

ولكن ورود اللَّفظيْن معطوفيْن في القرآن الكريم يدلُّ على أن هناك فارقًا بينهما؛ لأنَّ العطف يوجب المغايرة، وذلك في قول الله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ [المدثر: 22]، فالعبوسُ تقطيبُ الوجهِ والبَسْر أشدُّ من ذلك، ومعناه: كَلَحَ وجهه وتغير لونه خوفًا وكمدًا[1]. وفي الآياتِ بيانٌ لتدرُّجِ مشاعرِ السُّخط والكراهيةِ، حيث يبدأ ذلك بالنظرِ، ثم عبوسِ الوجهِ؛ أيْ: ظهورُ ملامحِ الكراهيةِ عليه، وهو التَّقطيبُ والتَّجهمُ، ثم يزداد ظهورُ ملامحِ الكراهةِ والسُّخط فيتغيرُ لونُ الوجهِ وتنقبضُ أساريرُه وتبدو كلاحتُه فهما يشتركانِ في ملمحٍ عامٍّ هو الكراهةُ وظهورُ ملامحها على الوجهِ، إلّا أنَّ البَسْرَ أقوى وأشدُّ[2]، وذلك أنَّ العابس يكشف عمّا يدور في باطنه، والباسر يظهر على وجهه شديد التقطيب بما يُشبه التّمر البسر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 309.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 126 - 127.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠﴾

[القيامة: 26 - 30]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ حُبِّ العاجلةِ إلى ذِكْرِ نهايتِها المحتومةِ

لَمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقةُ استمرارَ محبَّة الخَلْقِ عمومًا، والمُنكرينَ خصوصًا للعاجلة وملازمتهم لها حتى بعد أنْ عرفوا مصيرَ المُكذِّبينَ المُعاندينَ، ناسب الإخبارُ أنَّ هذا الحبَّ للعاجلةِ والنكران للآجلةِ ينقطع عند هولِ طلوعِ الرّوحِ، فلا يدومُ هذا الحبُّ، وذلك ردعًا لهم عن إيثار الدنيا على الآخرةِ، وتذكيرًا لهم بما يؤولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده، وينتقل منها إلى الآجلة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: (ترف) أصلٌ ليس فيه شيءٌ غيرُ التَّرْقوَة، وهي مُقدَّمُ الحَلقِ في أعلى الصَّدرِ حيث ما يَتَرَقَّى فيه النَّفَسُ، فهي عُلْيا عظام الصدر، وارتفاعُها لطيفٌ غيرُ حادٍّ. وهي على بناءِ (فَعْلوَةٌ)، وليست (تَفْعُلَة)، وهما تَّرقوَتانِ تَكونُ لِلنّاسِ وغَيْرِهِمْ[2].

2) ﴿رَاقٖ﴾: (رق) والحرفُ المُعتَلُّ أصلٌ يدلُّ على الصُّعود، كقولك: رَقيتُ في السُّلَّم أرقَى رقيًا[3]. يُقال: رَقيَ فلانٌ في الجَبَل يَرقى رُقيًّا: إذا صَعِد. ويُقال: ارتَقى يَرتَقي. والمَرْقاة: واحِدَة مراقي الدرجَة. ويُقال: هذا جبلٌ لا مَرقَى فيه ولا مُرْتقَى[4]. والمعنَى المِحوَريُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 351.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رقى) و(ترق) و(رقو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رقى).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (رقى).

ارتفاعٌ بلُطفٍ أو رفقٍ؛ أيْ: قلّةُ نتوءٍ[1]. وأمّا ﴿رَاقٍ﴾ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: قال أهلُه: مَنْ راقٍ يرقيهِ بالرُّقَى، والثاني: من طبيبٍ شافٍ، والثالث: قالتِ الملائكةُ: مَنْ راقٍ يرقَى بروحِه من ملائكةِ الرَّحمةِ أو ملائكةِ العذابِ[2].

3) ﴿وَٱلْتَفَّتِ﴾: (لفف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَلَوّي شيءٍ على شيءٍ، يُقالُ: لَفَفْتُ الشّيءَ بالشّيءِ لَفًّا، ولَفَفْتُ عَمامَتي على رأسي. ويُقالُ: جاءَ القومُ ومَن لفَّ لفَّهم؛ أيْ: مَنْ تأشَّبَ إليهم، كأنَّه التفَّ بهم. والألفافُ: الشَّجَرُ يَلْتَفُّ بعضُه ببعضٍ، واللَّفيفُ: ما اجتمعَ من النّاسِ من قبائلَ شَتَّى[3]. والمعنَى المحوريُّ تَلوِّي شيءٍ على آخرَ من ظاهرِه عالقًا غيرَ لاصقٍ، ويلزمُه التَّجمُّعُ والتَّضخُّمُ[4]. وفي معنى الالتفافِ في الآيةِ خَمْسَةُ أقْوالٍ: أحَدُها: أمْرُ الدُّنْيا بأمْرِ الآخِرَةِ، والثّاني: اجتمعَ فيه الحَياةُ والمَوْتُ. والثّالثُ: التَفَّتْ ساقاهُ في الكَفَنِ، والرّابِعُ: التَفَّتْ ساقاهُ عند الموتِ، والخامِسُ: الشِّدَّةُ بالشِّدَّة: آخِرُ شِدَّةِ الدُّنْيا بأوَّلِ شِدَّةِ الآخِرَةِ[5].

4) ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾: (سوق) أصلٌ واحدٌ، وهو حَدوُ الشَّيءِ، يُقالُ: ساقَه يسوقُه سوقًا. والسّيقةُ: ما استيقَ من الدَّوابِّ. والسّوقُ مُشتقةٌ من هذا، لِما يُساقُ إليها من كُلِّ شيءٍ، والجمعُ: أسواقٌ. والسّاقُ للإنسانِ وغيرِه، والجمع: سوقٌ، إنَّما سُمّيتْ بذلك لأنَّ الماشي ينساقُ عليها[6]. والمعنى المِحْوَريُّ: الدَّفعُ إلى الأمامِ أو إلى أعلَى بقوَّةٍ: فسَوْقُ الإبلِ ونحوِها حثٌّ وحملٌ على الإسراعِ. والسوقُ حيِّزٌ يُساقُ إليه ما يُعرضُ للبيعِ. والسّاقُ تَدفعُ القدمَ إلى الأمامِ، وجِسمَ الشجرةِ إلى أعلى رَفعًا ونموًّا[7]. و﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ هَهُنا: المرجعُ والمُنتهى والمصيرُ، وهو مصدرٌ ميميٌّ من: ساقَ يسوقُ، كالمقالِ من: قالَ يقولُ[8]، وقيل: مَوْضِعُ السّوقِ وزَمانُه، كُلُّ ذَلِكَ داخِلٌ في حُكْمِه[9].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رقو - رقى).
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لفف).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لفف - لفلف).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 372.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوق).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوق).
(8) الرّاغب، المُفردات، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 2/ 435.
(9) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 110.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرُ تفاصيلِ مراحلِ الموتِ للزَّجرِ والرَّدعِ والوعظِ

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ مشهدًا من مشاهدِ الحياةِ الدُّنيا التي يلتقي فيها المؤمنون والمُكذِّبون، حيث يرون حالًا من أحوال النّزع والاحتضارِ، وقد بلغتِ الروحُ فيها أقصى الصَّدرِ وتردَّدتِ الأنفاسُ الأخيرةُ، بما يدلُّ على أنَّ الروح تتحرَّكُ أثناءَ النزعِ والاحتضارِ، فتنتقلُ من النَّحرِ إلى الحُلْقومِ. وفي تلكَ اللحظةِ يلتمسُ أهلُ المُحتَضَرِ الأُساةَ والرُّقاةَ لدفع يدِ الموتِ المُمتدّة إليه، وهو ينازع سكراته، ثم انتقل النَّظمُ لبيانِ مرحلةٍ ثالثةٍ من مراحلِ الاحتضارِ، وهي مرحلةُ اليأسِ من الرُّقاةِ والأُساةِ، فقد تيقَّنَ المُحتضَرُ وأهلُه أنَّه لا يلبثُ إلّا قليلًا حتى يلفظَ أنفاسَه الأخيرةَ، ثم شرعت الآياتُ في بيانِ مرحلةٍ رابعةٍ، إذْ تساقُ الروحُ سوْقًا عنيفًا إلى ربها، فتلتَفُّ الساقُ بالسّاقِ من شدَّةِ الكربِ وثقلِ البلاءِ؛ فلا يقوى المرءُ على التَّحكم فى أوصالِه، أو أن يضبطَ حركاتِ رجليْه، فهو يمشي مُتخالجًا مُتماوجًا، كما يمشي المصروعُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآياتِ عن سابِقَتِها:

توكيدُ البعثِ والحسابِ بما هو مُشاهَدٌ من أحوالِ الاحتضارِ

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ عن قولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾؛ وذلك لأنَّ ما بينها من كمالِ الاتّصالِ وقوَّةِ التّلاحم يُغني عن الوصلِ، فقد جاءتِ الجملةُ الثانيةُ لتؤكِّدَ حقيقةَ البعثِ في الآيةِ الأولى، ولكن بما هو مُشاهدٌ من أحوالِ الاحتضارِ، إذِ انتقلَ البيانُ القرآنيُّ من الحديثِ عن أقسامِ النّاسِ في الآخرةِ ومَن يحظون بنضارةِ الوجوهِ، في مقابل مَن يكونُ على مُحيّاهم العبوسُ والتقطيبُ، إلى الحديثِ عن مشهدِ الاحتضارِ،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1339 - 1341.

وهو مشهدٌ سابقٌ في الترتيبِ الزمَنّي لتوالي الأحداثِ، فقد عكستِ السورةُ الكريمةُ ترتيبَ المراحلِ الكبرى في حياةِ الإنسانِ، فبدأتْ بالقيامةِ، ثم مشهد الاحتضارِ ومراحله، ثم تحدثتْ عن النشأة الأولى والخَلْق من النُّطْفَةِ، ثم عن بيانِ قدرةِ اللّه تعالى.

بلاغةُ التّعبيرِ بأداة ﴿كَلَّآ﴾ ودلالتُها:

توكيدُ الرَّدعِ والزَّجرِ عن التَّفكيرِ في استحالةِ البعثِ

أداة ﴿كَلَّآ﴾ تحتمل أن تكون ردعًا عن إيثارِ الدنيا على الآخرةِ، كأنّه قيلَ: لمّا عرفتُم صفةَ سَعادةِ السُّعداءِ وشَقاوةِ الأشقياءِ في الآخرةِ، وعلمتُم أنَّه لا نسبةَ لها إلى الدُّنيا، فارتَدِعوا عن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ، وتنبَّهوا على ما بين أيديكم من الموتِ الذي عنده تنقطعُ العاجلةُ عنكم، وتنتقلونَ إلى الآجلةِ التي تبقونَ فيها مُخلَّدينَ، وتحتمل أن تكون بمعنى: حقًّا حَقًّا إنَّ المساقَ إلى اللّه إذا بلغتِ التَّراقيَ؛ أيْ: إذا ارتقتِ النَّفسُ إلى التَّراقيَ، والمقصودُ أنَّه لما بيَّن تعظيمَ أحوالِ الآخرةِ؛ بيَّن أنَّ الدُّنيا لا بدَّ فيها من الانتهاءِ والنَّفادِ والوصولِ إلى تجرُّعِ مرارةِ الموتِ. وقيل: المعنى: لا يُؤمِنُ الكافرُ بما ذُكِرَ من أمرِ القيامةِ، ولكنَّه لا يُمكِنُهُ أن يدفعَ أنَّه لا بدَّ من الموتِ، ومن تجرُّعِ آلامِها، وتحمُّلِ آفاتِها[1].

نُكتةُ الاشتراطِ بأداة ﴿إِذَا﴾:

وقوعُ الموتِ قطعيٌّ في مشاهدتِهِ؛ كالبعثِ قطعيٌّ في أدلّتِهِ

آثرَ القرآن المجيد التَّعبيرَ بأداة الشرطِ ﴿إِذَا﴾ في قولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، وذلك لأنَّ (إذا) تختصُّ بدخولِها على المُتَيَقَّنِ والمظنونِ والكثيرِ الوُقوعِ، بخلافِ (إنْ) فإنَّها تُستَعملُ في المشكوكِ والموهومِ النّادرِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾ [المائدة: 6]، ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: 6]؛ فأتى بـ﴿إِذَا﴾ [المائدة: 6] في الوضوءِ لتَكَرُّرِهِ وكثرةِ أسبابِهِ، وبـ(إنْ) في الجنابةِ لندرَةِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 733، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 111.

وُقوعِها[1]، ولمّا كانَ وقوعُ الموتِ أمرًا مُتيقَّنًا لا شكَّ فيه، كان التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ هو الأنسبَ للمعنى المُرادِ، وفيه كذلك نوعٌ من التَّوكيدِ لما في استعمالِ ﴿كَلَّآ﴾ من الرَّدعِ والزَّجرِ عن إنكارِ البعثِ، فكما أنَّ الموتَ لا شكَّ فيه، فإنَّ البعثَ كذلك لا شكَّ فيه.

تعيينُ مرجعِ الضميرِ إلى غيرِ مذكورٍ سابقًا:

معرفةُ الفاعلِ المُضمَرِ دليلُه السّياقُ بجميعِ دلالاتِهِ وقرائنِهِ

يعود الضميرُ في فعلِ ﴿بَلَغَتِ﴾ في قولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ على غير مذكورٍ سابقًا، فالفاعلُ ضميرٌ يعود على الرّوح[2]، وعدمُ ذِكْر الفاعل فيما سبق لا يُلحقُ لبسًا في فهم المُرادِ، فإنَّ سياق المقطع دالٌّ عليه، فلا يبلغ التراقي مع جميع المذكورات في المقطع إلّا الروح من البحث عن راقٍ، وظنِّ الفراق الذي هو كنايةٌ عن الموت، فإنَّ تعيينَ الفاعل ممّا يدلُّ عليه سياق المقطع، وقد تكرّر أسلوب الإضمار لغير مذكورٍ سابقًا، مع تعيينه في الذِّهن بدلالة السّياق، كما سبق في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾.

مَعنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾:

اللّامُ في لفظِ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ عِوَضٌ عن مُضافٍ إليهِ محذوف؛ أيْ: بلغتْ الرّوحُ تراقيَ المُحتَضَر، والمقصودُ بذلك تراقي كلِّ مُحتَضَر.

عِلّةُ جمعِ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ولطيفةُ ذلك:

خروجُ الروحِ من التّرقوتيْن شديدٌ غليظٌ فكأنَّ التّراقي في كلِّ عضوٍ تُغادرُهُ الرّوح

التَّراقي: جمع: تَرْقوَة، ولكلِّ إنسانٍ تَرْقوَتان، والتراقي: موضِعُ الحَشْرَجَةِ. فعلى هذا تكونُ من باب: غليظِ الحواجب وعريضِ المناكب[3]، فالجمع هنا مُستعمَلٌ في التثنيةِ لقصد تخفيفِ اللفظِ، وقد أُمِنَ اللَّبسُ، لأنَّ في تثنيةِ تَرْقوةٍ شيئًا من الثِّقلِ لا يناسبُ أفصحَ كلامٍ[4]، ومن لطيف الجمع أنَّ الروح تخرج من الأعضاء عضوًا عضوًا،

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 177.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 578، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 162.

(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 578.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 357.

حتى تنتهي إلى الترقوتيْن، فكأنَّ لكلِّ عضوٍ ترقوتيْن تخرج الروح منهما، وهكذا حتى تبلغ الحلقوم، فالجمع لتصوير مشهد الاحتضار وصعوبة خروج الروح من زمن العاجلة، والانتقال إلى الآخرة.

نكتةُ ذِكْرِ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ هنا، وذِكْرِ ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ في الواقعةِ:

ناسَبَ ذِكْرَ التّكذيبِ في الواقعةِ ذكرُ الحلقومِ، وناسبَ هنا التّراقيَّ لعمومِ المقامِ

ذَكَرَ النَّظْمُ الكريمُ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ هنا، وذكر ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ [الواقعة: 83] في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣﴾ [الواقعة: 83]. وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّ الرّوحَ تتحركُ أثناء النزعِ والاحتضارِ؛ فتنتقل من التراقي؛ أيْ: النَّحرِ وما هو أسفلُ منه إلى الحلقوم، فإذا بلغت الحلقومَ لفظَ الإنسانُ أنفاسَه الأخيرةَ، إذ كان ذلك آخرَ حدودِ الرّوح مع الجسدِ[1].

وعليهِ فذِكْرُ الحُلقوم في الواقعةِ لاختصاصِه بالنُّطقِ، ولمّا سبقَ في آيةِ سورةِ الواقعةِ الحديثُ عن التكذيبِ والتمادي فيه؛ ناسبَ ذلك ذِكْرُ أداةِ النُّطقِ بشمولها وهو الحلقوم، وأمّا في آيةِ سورةِ القيامةِ فقد ذَكَرَ أوَّلَ شعورٍ بدُنوِّ الأجلِ وهو حشرجةُ الصوتِ في التراقيَ قبل بلوغها الحلقومَ؛ لأنَّ المُرادَ بيانُ مفارقةِ العاجلةِ دونَ تفصيلٍ في مسألةِ التكذيبِ وأداتها وهو الحلقومُ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ عَطَفَتِ الجملةَ على قولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، وذلك للتوسُّطِ بينَ الكماليْنِ، لبيانِ حرصِ الإنسانِ على الحياةِ عند الشُّعورِ بفقدِها.

نُكتةُ بناءِ فِعلِ (قيلَ) للمفعولِ:

كثرةُ القائلينَ والمُسعفينَ لا تُغني من قضاءِ الله شيئًا

بنى القرآن المجيد الفعلَ (قيلَ) لما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المُرادَ في هذه اللحظاتِ الصعبةِ محاولةُ إسعافِه، مهما كانَ القائلُ، فالقائلونَ كثيرونَ في هذه اللحظاتِ، فكلُّ مَن يَعِزُّ عَلَيْهِ[2] يحاولُ أنْ يلتمسَ له

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1340.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 108.

سبيلَ نجاةٍ، فكانَ البناءُ لما لم يُسَمَّ فاعلُه دليلًا على كثرةِ القائلينَ المُلتمّسينَ للأطباءِ والرُّقاةِ. وقيلَ: هو من كَلامِ مَلائِكَةِ المَوْتِ: أيُّكم يَرْقى بروحِهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، أوْ مَلائكةُ العَذابِ من الرُّقيِّ؛ أي: العُروجِ[1]، وهو الصعود، وهو مناسبٌ كذلك ليتنوّع احتمال الفاعل، وكذلك فإنَّ حذفَ الفاعل وإبهامَه في (قيلَ) مناسبٌ لإضماره وعدمِ ذِكْرِه في ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، فكِلاهما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

يحتملُ الاستفهامُ أن يكونَ لطلبِ النَّجاةِ على الحقيقةِ أو لاستبعادِها

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾ إمّا أن يُحمل على المجاز، فهو استفهامُ استبعادٍ وإنكارٍ؛ أيْ: قد بَلَغَ مبلغًا لا أحدَ يَرقيه، كما يُقالُ عند اليأسِ: مَنْ ذا الذي يقدرُ أن يرقيَ هذا المُشرفَ على الموت؟ وإمّا أن يُحمَل على الحقيقة في إفادة الطلب؛ أيْ: قال مَنْ حَضَرَ صاحبَها: مَنْ يَرْقيه ويُنْجيه ممّا هو فيه؟ إذا كان من كلام البشر، وقيل هو من كلام ملائكة الموت؛ أيْ: أيُّكُم يَرْقَى بروحِه؟ أملائكةُ الرَّحمةِ أم ملائكةُ العذابِ من الرُّقيِّ وهو العروج؛ أيْ: إنَّ مَلَكَ الموت يُخاطب أعوانه يقول: مَن يصعد بهذه النَّفس؟ ويحتمل أنَّ أعوانه يقولون له: مَن يرقى بهذه النَّفس؛ أملائكةُ الرحمةِ أم ملائكةُ العذاب؟[3].

وتُعُقِّبَ بأنَّ اعتبارَ ملائكةِ الرَّحمةِ لا يناسبُ قولَه تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، ودُفِعَ بأنَّ الضميرَ للإنسانِ، والمُرادُ به الجنسُ، والاقتصارُ بعد ذلكَ على أحوالِ بعض الفريقيْنِ لا يُنافي العمومَ فيما قبلُ؛ لأنه من قبيل الاكتفاءِ ببيانِ حالِ أحدِ الفريقيْنِ، وله نظائرُ كثيرةٌ؛ فإنَّ حالَ السُّعداءِ لا يحتاجُ إلى التوضيحِ بخلافِ الأشقياءِ، ولذا شَرَحَ أحوالَهم في آياتٍ مُتعدِّدةٍ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 662، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 68.

(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 221.

(3) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالَيْن: 7/ 260.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 461، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 163.

دلالةُ التّعبيرِ بمُفرَدَةِ ﴿رَاقٍ﴾:

استعملَ القرآنُ المجيد اسمَ الفاعلِ ﴿رَاقٍ﴾ في قولِه: ﴿وَقِيلَ مَنۜ رَاقٍ﴾، ويحتمل أن يكون من الرُّقية، وهو كلامٌ مُعَدٌّ للاستشفاء، يُرْقَى به المريضُ ليُشْفَى، ويحتمل أن يكون من الرُّقيِّ وهو الصعودُ؛ أيْ: إنَّ الملائكةَ لِكراهتِها في روْحِه تقول: مَنْ يَصْعَد بهذه الروح؟ يُقال: رَقَى بالفتحِ من الرُّقْيَةِ، وبالكسرِ من الرُّقيِّ[1]، واجتمعت الكلمتان في معنى الصعود، فالرُّقية بالنِّسبة للمريضِ صعودٌ من المرض إلى الشِّفاء، وبالنِّسبة للملائكةِ صعودٌ بالرّوحِ.

المُـفـرَدَةُ تـدلُّ عـلى الـصُّـعـودِ مـن المـرضِ إلى الشِّفاءِ أو على الصُّعودِ بالرّوحِ

دلالةُ السَّكتِ على أداةِ الاستفهامِ:

سكت حفصٌ على ﴿مَنۜ﴾ وابتدأ ﴿رَاقٍ﴾، وأدغم الجمهورُ[2]، وقصدَ حفصٌ أن لا يُتوهَّم أنَّها كلمةٌ واحدةٌ، فسكتَ سكتةً لطيفةً ليُشْعِرَ أنَّهما كلمتانِ[3]، وقُصد بالسكت في هذا الموضعِ دفعُ اللَّبسِ، فلا يُتَوَهَّمَ أن ﴿مَنۜ رَاقٍ﴾ هي (مَرّاقٍ) فعّالٌ من (مَرَقَ)[4]، وللسكت لطيفةٌ؛ وهي أنَّ الاستفهام بـ ﴿مَنۜ﴾ مع السَّكتة عليه يُطلق العنانَ للفكر؛ ليتهيَّأ المُتلقّي لمعرفة مضمونِ السُّؤال، لاسيما في هذا السّياق الوعظيِّ.

في سياقِ الوعظِ يحسُنُ السَّكتُ على ما يزيدُ من وعظِ المُتلقّين

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ عاطفةً، فعطفتِ الجملة على قولِه: ﴿وَقِيلَ مَنۜ رَاقٍ﴾، لبيانِ وصول المُحتضَرِ وأهلِه إلى قرارةِ الظَّنِّ بأنَّ فراقَ الدنيا حتمٌ لازمٌ، فبعدَ بلوغِ الروحِ التراقيَ واستنفادِ سبلِ العلاجِ والرُّقية، كانت النتيجةُ الحتميَّةُ هي خروجُ الروحِ من الجسدِ بأمرِ اللّه سبحانه.

خـروجُ الـرّوحِ نتيجةٌ حتميَّةٌ لـبـلـوغِ الـروحِ التراقيَ

---

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 580.

(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 661، و675.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 162.

(4) انظر تعليق الأستاذ محمد علي النجار على انتقاد ابن جني لهذه السَّكْتةِ في كتابه الخصائص: 1/ 95.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ:

الضَّميرُ المُسْتَتِرُ في (ظَنَّ) يحتملُ أن يعود إلى الإنْسانِ في قَوْلِهِ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أيْ: الإنسان الفاجر، ويحتملُ أن يعودَ على الإنسانِ عمومًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ الظَّنِّ:

طمعُ الإنسانِ في ملذّاتِ الدنيا لا ينقطعُ حتى في لحظاتِ الاحتضارِ

دلَّ التّعبيرُ بلفظِ الظَّنِّ في قولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ إمّا على التَّهَكُّم، وإمّا لفرطِ حبِّه للحياةِ الدُّنيا، فلا ينقطعُ رجاؤُه فيها بالمرَّةِ من الأَموالِ والأولادِ والأزواجِ، وقيل: المُرادُ بالظَّنِ هَهُنا: اليقينَ؛ أيْ: تَيَقَّنَ المريضُ أنَّه فراقُ الأَحِبَّةِ والأهلِ والمالِ والحياةِ، وهذا يقينٌ فيما لم يقع بعدُ، ولذلكَ استُعمِلت فيه لفظةُ الظَّنِ. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (وأيْقَنَ أنَّهُ الفراقُ)، وقال في تفسيرِه: ذَهَبَ الظَّنُّ[2].

فائدةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾:

كلُّ فراقٍ دونَ الموتِ فليس على التَّحقيقِ بفراقٍ

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ قولَه: ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ بعددٍ من المُؤكِّداتِ، فمنها التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميةِ، ودخولِ (أنَّ) عليها، فضلًا عن القصرِ بتعريفِ الطرفيْنِ، فهو الفراق الحقيقيُّ الذي لا يوصف شيءٌ بالفراق عند ذِكْرِه، وللدَّلالةِ على أنَّ هذا الأمرَ الذي هو فيه من سكراتِ الموتِ والذي هو مُقبلٌ عليه من أمر الآخرةِ أمرٌ له شأنٌ عظيمٌ لما فيه من مُفارقةِ محبوبِ العاجلةِ ذلك الفراقَ الأعظمَ الذي لا فراقَ مثلَه، ففي الخبرِ أنَّ العبدَ ليعالِجُ كُرَبَ الموتِ وسكراتِه[3].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡفِرَاقُ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡفِرَاقُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليهِ؛ أيْ: ظنَّ أنَّه فراقُ الدنيا والأهل والمال والشهوات والاعتيادات، حتى بان الفرقُ بين زمانَيْن وحياتَيْن.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 359.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 40.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 109.

نوع الواوِ ودلالتُها:

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ عاطفةً، فعطفتِ الجملةُ على قولِه: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾، لاشتراكهما في الخبريَّة، فكلتاهما جملةٌ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وجملةُ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ نتيجةٌ لما سبقَ من بلوغِ الروحِ التراقي وانعدام الرُّقاةِ والأُساةِ، وتيقُّنِ حلولِ الأجل؛ فجاءتْ هذه الآيةُ لبيانِ حالةٍ ظاهرةٍ تُرَى في جسدِ المُحتَضَرِ عندَ الاحتضارِ، إمّا للدلالةِ على شِدَّةِ النزعاتِ الأخيرةِ لخروجِ الروحِ، أو بالتفافِ ساقَيْهِ في الكفنِ، بعد أنْ أيقنَ بالقيامةِ التي كان يُنكِرُها.

شـدَّةُ الهلعِ والفزعِ من سكراتِ الموتِ يؤثِّرُ في جسمِ المُحتَضَرِ

دلالةُ فعلِ (التَفَّتِ):

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بمادَّةِ الالتفافِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾، والمُرادُ بها تداخلُ الشّيءِ وتَلوّيهِ على آخرَ من ظاهرِه عالقًا غيرَ لاصقٍ، ويلزمُه التَّجمُّعُ والتَّضَخُّمُ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

جاء التّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ (التفت) للدلالةِ على التَّحقُّقِ والثُّبوتِ، فإنَّ شدَّةَ سكراتِ الموتِ لا ينجو منها أحدٌ كائنًا مَن كانَ، وهي على المُنكِرينَ أشدُّ وأقسى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلسَّاقُ﴾:

جاءتْ لفظةُ الساقِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ مُعَرَّفَةً، فهي إمّا بمعناها الحقيقيّ، واللّامُ فيها عهديَّةٌ؛ أي: السّاقُ المعهودَةُ في كلِّ إنسانٍ؛ أي: العضو المخصوص، أو أن تكونَ اللّامُ عوضًا عن مُضافٍ إليه محذوفٍ؛ أي: التفَّتْ ساقُه بساقِه الأُخرى[2]. وهذا نهايةُ وصفِ الحالةِ التي تهيَّأ بها لمصيره إلى القبرِ الذي هو أوَّلُ مراحلِ الآخرة[3].

التعريفُ إمّا للعهدِ الذِّهنيِّ، وإمّا عِوضٌ عن مُضافٍ إليه محذوفٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لفف - لفلف).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 735، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 163.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 359.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ:

تمثيلُ مفارقةِ الدنيا بالحربِ بجامعِ الشدّةِ والصُّعوبةِ

يحتمل أن يكون قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ تمثيلًا؛ فإنَّ العربَ يستعملونَ السّاقَ مَثَلًا في الشِّدَّةِ وجدِّ الأمرِ تمثيلًا بساقِ السّاعي أو النّاهِضِ لعملٍ عظيمٍ، فقيل للأمر الشديد: ساقٌ، وتقولُ العربُ: قامتِ الحربُ على ساقٍ؛ أي: اشتدَّتْ، فالمُرادُ هَهُنا: التفَّتْ شدَّةُ مفارقةِ الدُّنيا ولذّاتِها وشدَّةُ الذهابِ، أو: التفَّتْ شدَّةُ تركِ الأهلِ، وتركِ الولدِ، وتركِ المالِ، وتركِ الجاهِ، وشدة شماتةِ الأعداءِ، وغمِّ الأولياءِ، وبالجملةِ فالشدائدُ هناك كثيرةٌ[1]. فالآيةُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ لشدَّةِ كربِ الدُّنيا في آخرِ يوم منها وشدَّةِ كربِ الآخرةِ في أوَّلِ يوم منها؛ لأنَّهما يومانِ قد التفّا ببعضهما واختلطا بالكربِ، وقيل التفافُهما لشدَّةِ المرضِ لأنَّه يقبضُ ويبسطُ ويركِّبُ هذه على هذه، عند عَلَزِ الموتِ، وهو الرَّعدةُ تأخذُ المريضَ[2].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

التصاقُ السّاقِ بالسّاقِ بيانٌ لشدَّةِ الهولِ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ على أصلِ معناها وهو الإلصاق، للدلالةِ على شدَّةِ التداخلِ والالتواءِ في قولِه: (التَفَّت)، فقد تداخلت السّاقُ بالسّاقِ حتّى تداخلتا، لا تكاد إحداهما تتزحزحُ عن الأخرى، فكأنَّهما ملتفَّتان[3].

نكتةُ تكرارِ لفظِ ﴿ٱلسَّاقُ﴾:

سعةُ الاحتمالِ في النَّظمِ فسحةٌ للمُفسِّرِ وانطلاقةٌ للمُتلقّي

تكرَّرَ ذِكْرُ السّاقِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾، ولم يكتفِ بالأولى، فلم يَقُلْ: (والتفتِ السّاقُ بالأخرى)؛ لبيانِ شدَّةِ الهولِ، وما يعتري المُحتَضَرِ من سكراتِ الموتِ، ومن الهلعِ من لقاءِ اللّه سبحانه بعد أنْ أنكرَ القيامةَ أو فرَّطَ في العباداتِ وتمادَى في

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 735، وشيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 425، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 163، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 359.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 663، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 307.

(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 15/ 206.

المعاصي، وليصحَّ التّمثيلُ بشدّة الأمر وقوته، وليحتمل النّظم الدلالة المجازية والحقيقية.

نُكتةُ استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

استعمل النَّظمُ الحكيمُ حرف ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ لبيان انتهاءِ الغايةِ، وهو المساقُ إلى اللّه ﷻ، فإنَّ المُنتهى والمصير إليه دون سواه.

غَرضُ تَقديمِ شِبهِ الجملةِ:

اختصاصُ المَرجعِ والمآلِ إلى الله وحدَه تعالى

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملةِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾؛ لإفادَةِ الاختصاصِ والحصرِ ورعايةِ الفاصلةِ[1]، إذ المعنى: أن هؤلاءِ في ذلكَ اليومِ مُفَوَّضٌ أمرُهم إلى حُكمِه، يُساقونَ إلى حيثُ أمَرَ اللّه أنْ يُساقوا، فالسّائِقُ هو اللّه تعالى يَسوقُ كلَّ أحدٍ إلى حيثُ شاءَ، ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّ المَسوقَ إليه هو الرَّبُّ تعالى[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ وتعيينِ مرجعِ الضَّميرِ:

زيادةُ الإحسانِ للنَّبيِّ ﷺ، أو التّذكيرُ بكونِ المُنتَهَى إليه وحده تعالى

آثَرَ القرآن المجيد التعبيرَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ دونَ لفظِ الألوهيَّةِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، لما في لفظِ الربوبيَّةِ من جانبِ التربيةِ والإحسانِ، فعلى احتمالِ عودِ الضَّميرِ للنبي ﷺ يكونُ التعبيرُ بالربوبيَّةِ إشارةً إلى أنَّهُ تعالى هو المُحسِنُ إليكَ بإرْسالِكَ وتَصْديقِكَ في جميعِ ما بَلَّغْتَهُ عنه ونَصَرَك على كُلِّ مَن ناواكَ، لا إلى غيرِه[3]. وعلى الاحتمالِ الثاني وهو عودُ الضميرِ إلى الإنسانِ يكونُ التعبيرُ بالربوبيَّةِ إشارةً إلى عظيمِ سيادتِه تعالى بأنْ يكونَ المصيرُ له وحدهُ، فاختيارُ كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ ههنا اختيارٌ مقصودٌ فالربُّ

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 462.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 425.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 110.

هو المالكُ والسَّيِّدُ والمُدبِّرُ والمُربّي والقَيِّمُ والمُنعمُ؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ مالكُه ومستحقُّه[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ:

قُدِّم الظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ على المبتدأ، فلم يَقُلْ: (المَساقُ إِلَى رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ)؛ للاهتمامِ بهذا اليومِ الذي هو مدارُ السورةِ كلِّها، وللتعريض بالمشركين الذين أنكروا البعث لأجل الحساب.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾:

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليهِ، والتقدير: (سوقُ الإنسانِ)[2]، ويحتملُ أنْ تكونَ للعهدِ الذِّهنيِّ، فيكونُ المُرادُ المَساقُ المعروفُ لِمَن آمنَ باليومِ الآخرِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شمولُ الصيغةِ الـواحـدةِ لمعنى المصدرِ ولموضعِه وزمنِه من إعجازِ البيانِ القرآنيِّ

عبَّرَ القرآنُ المجيد عن منتهى الخلقِ إلى اللّٰه بعد الموتِ بمُفردَةِ ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾، وهي مصدرٌ ميميٌّ لـ(ساقَ)، وهو تسييرُ ماشٍ أمامَ مُسَيِّرِه إلى حيثُ يريدُ مُسَيِّرُه، وضدُّه القودُ[3]، ويحتملُ كذلك أنْ يكونَ المُرادُ موضعَ السَّوقِ وزمانُه، كُلُّ ذلكَ داخلٌ في حُكمِه، فقد انقطعت عنه أحكامُ أهلِ الدُّنيا، فإمّا أنْ تسوقَه الملائكةُ إلى سعادةٍ بينةٍ، وإمّا إلى شقاوةٍ بيِّنَةٍ[4].

بَلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾:

كـلُّ سَـوْقٍ دونَ سَـوْقِ الـخَـلـقِ يـومَ الـقـيـامـةِ ليس بسَوْقٍ على التّحقيقِ

الأصلُ في معنى ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ هو الدَّفعُ إلى الأمامِ أو إلى أعلَى بقوَّةٍ، فسَوْقُ الإبلِ ونحوِها حثٌّ وحملٌ على الإسراعِ. والسوقُ حيِّزٌ يساقُ إليه ما يُعرضُ للبيعِ[5]، وهو هنا مجازٌ مُستعمَلٌ في معنى

---

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 210.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 9/ 345، وحقّي، روح البيان: 10/ 259.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 359.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 110.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوق).

الإحضارِ والإيصالِ إلى حيثُ يلقى جزاءَ رَبِّه الإنسانُ[1]، وفي المجاز تشبيه سوق الناس يوم القيامة بسوق الأنعام في الدنيا، وفيه إشارةٌ إلى نزع معنى السّوق عن أيِّ سوقٍ وإثباته للسوق العظيم يوم العرض العظيم، فهو السوق الذي دونه ليس بسوق.

بلاغة الكناية:

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ كنايةٌ عن عرضِ الإنسان بعد الموتِ على الله تعالى[2]، وجاءت الكناية بهذا الخبر لبيان حقيقة المشهد، وهول الموقف.

بَلاغةُ الجِناسِ النّاقِصِ:

لفتُ الانتباهِ إلى خطورةِ المساقِ إلى الله، والحثُّ على العملِ

في قوله: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ التجنيسُ النّاقِصُ المُسمَّى أيضا جناسَ التَّبديلِ، وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيْه حرفٌ لا يوجدُ في الأخرى وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها، وهو ثلاثةُ أقسامٍ: قسمٌ تقعُ الزيادةُ منه في أوَّلِ الكلمةِ، كزيادةِ (الميم) في المساقِ، وقسمٌ تقعُ الزيادةُ وسطَ الكلمةِ كقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 7 - 8]، وقسمٌ تقع الزيادةُ منه في آخر الكلمةِ كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النَّحل: 69][3]. ومن فوائدِ الجِناسِ الناقصِ في الآيةِ لفتُ الانتباهِ إلى خطورةِ المَساقِ إلى الله، والحثُّ على العملِ لهذا اليومِ، وأنَّ منتهى التفاف السّاق بالسّاق تحقيقُ المساق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 359.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 110.

(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 307.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ٣٥﴾

[القيامة: 31 - 35]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ الموتِ فما بعده إلى حالِ ما قبلَ الموتِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الإنسانِ عند الاحتضارِ، وبيّنت مآله بعد الموتِ، ناسبَ الانتقال إلى بيانِ ما قدّمه في الحياةِ الدّنيا وما أهمله من الأعمالِ والتّروكِ، فذكرتِ الآياتُ حالَ الإنسانِ في الدُّنيا من تركِ الإيمانِ والصّلاةِ، وإيثار التكذيبِ والتّولّي، والتّرفيهِ مع الأهلِ، لبيان أنّها هي التي أوردتها المواردَ، كما قال في مطلعِ السّورة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ فالعلّةُ الحقيقيّةُ للكُفْرِ والتَّكذيبِ، هو اتّباعُ الشَّهواتِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُربٍ. من ذلك الوَلْيُ: القربُ. يُقالُ: تباعدَ بعد ولْيٍ؛ أيْ: قربٍ. وجلسَ ممّا يليني؛ أيْ: يُقارِبُني[1]. يُقالُ: ولَّيْتُ سمعي كذا، ووَلَّيْتُ عيني كذا، ووَلَّيْتُ وجهي كذا: أقبلتُ به عليه، قال اللّه تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 144]، وإذا عدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراضِ وتركِ قربه. كقوله تعالى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]، و﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ [الغاشية: 23]، والتَّوَلّي قد يكون بالجسم، وقد

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).

يكونُ بترك الإصغاءِ والائتمارِ، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][1]. والمُرادُ بـ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ هَهُنا: أعرضَ عن الطاعة[2].

2) ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: (مط) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مدِّ الشيءِ، ومطَّهُ: مدَّهُ، وهو المَشي بتَبَخْتُرٍ، لأنَّه إذا فعلَ مطَّ أطرافه. ومطَّ حاجبيْه: تكبَّرَ[3]. والمَطُّ: سِعَةُ الخَطْوِ، وقَدْ مَطَّ يَمُطُّ، ومَطَّ خَطَّه وخَطْوه: مَدَّهُ ووَسَّعَهُ. ومَطَّ الطائرُ جَناحَيْه: مَدّهما. وتَكَلَّمَ فمَطَّ حاجِبَيْهِ؛ أيْ مَدَّهُما، والتّمطّي: التَّمدُّد[4]. والمعنى المحوري: تمدّدُ الشيءِ أو قبولُه التّمددَّ مرونةً مع تماسك أثنائه[5]، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾، قالوا: أصله يتمطَّطُ، فجعلت الطّاءُ الثّالثة ياءً للتّخفيف، وهي هيئةُ مِشيَةِ التبَخْترِ ومدِّ اليديْن في المَشْي[6]، وهي مِشْيَةُ المُعْجَبِ بنَفْسِه[7].

3) ﴿أَوۡلَىٰ﴾: اسمُ تفضيلٍ مِن (ولي)، وفاعلُهُ ضميرٌ محذوفٌ عائِدٌ على مُقدَّرٍ معلوم في العُرفِ، فيُقَدِّرُهُ كلُّ سامِعٍ بما يدُلُّ على المكروهِ، معناهُ: قارَبَكَ ما تكرَهُ؛ أيْ: قارَبَهُ ما يُهْلِكُه، فهي كَلِمَةُ تَوَعُّدٍ تَجري مَجرى المَثَلِ في لُزومِ هذا اللَّفظِ لكن تلحقُه علاماتُ الخطابِ والغَيبةِ والتَّكلُّمِ، والمُرادُ بهِ ما يُرادُ بقولهم: وَيْلٌ لك، من دُعاءٍ على المجرورِ باللّام بعدها؛ أيْ: دُعاءٍ بأنْ يَكونَ المَكْروهُ أدْنى شَيْءٍ مِنهُ[8]. وقيلَ: هو (أفْعَلُ) من (الوَيْلِ) بعد القَلْبِ كأدنى من (دونَ)، أو (فَعْلى) من: آلَ، يَؤولُ؛ بمَعْنى: عُقْباكَ النّارُ[9].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيَّنتِ الآياتُ الكريمة مبلغَ خسرانِ المُكذّب بيوم القيامةِ، وسبب كراهيتِه للقاءِ اللّه والسوقِ إليه تعالى بعدَ أنْ شاهدَ مقعدَه من النارِ ساعةَ الاحتضارِ، فأوضحتْ أنَّ ذلك راجعٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (ولي).
(2) مَكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7893.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مط).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مطط).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مطط - مطمط).
(6) الرّاغب، المُفردات: (مطط).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69.

إلى أنّ هذا الشَقيَّ لم يُصدِّق بالرسالةِ النبويَّةِ ولا بالقرآنِ، ولا صَلَّى لربِّه الصلاةَ المطلوبةَ منه فرضًا؛ بل كذَّب بالرسولِ ﷺ وبما جاءَ به، وتَوَلَّى عن الطاعةِ والإيمانِ، وزادَ على ذلك أنَّه ذهبَ إلى أهلِه جذلانَ أشرًا بَطِرًا، يتبختر ويختالُ في مشيته افتخارًا بذلكَ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾ [المطفّفين: 31]، فقد جمعَ بينَ تركِ العقيدةِ وبين إهمالِ فروعِ الدّينِ، وبين الإساءةِ في سلوكه أمام الخَلْقِ بالتَّمَطّي والتَّبَخْتُرِ والاختيالِ في مشيتِه. ثم هدَّدَ اللّه تعالى هذا الكافرَ وتَوعَّده بالويل، وكرَّرَ هذا الوعيدَ، بيانًا لشناعةِ مسلكِه. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ من اللّه تعالى للكافرِ بأصولِ الإيمانِ وفروعِ الشريعةِ، المتبخترِ في مشيه[1]. وقد وردَ في الخبرِ أنَّ أبا جهل تَهدّد النبيَّ ﷺ بالقتل، وأنّ النبيّ ﷺ أخذ تَلابيبَ أبي جهلٍ بالبطحاء، فدَفع في صدره، فقال: (أَوْلى لَكَ فأَوْلى، ثُمَّ أَوْلى لَكَ فأَوْلى). يعني: أبا جهل حين تَهدّد النبي ﷺ بالقتل، فقال أبو جهلٍ: إليك عنّي، فإنك لا تستطيع أنتَ ولا ربّك أن تفعلا بي شيئًا، لقد علمتْ قريش أني أعزُّ أهل البطحاءِ وأكرمُها، فبأيِّ ذلك تُخوِّفني؟! ثم انسلّ ذاهبًا إلى منزلِه، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾[2]. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، كما قال له الرسول ﷺ.

تــرك أصـــولِ الإيـمـانِ وفـروعِ الشَّريعةِ أودى بـالمُـكـذِّبِ إلى كراهيةِ الآخرةِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾:

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تفريعيَّةً على ما تقدَّمَ، ويحتمل التَّفريع أن يكون على قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: الإنسان، فلِجَهْلِه البَعْثَ لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهُ[3]، فهو يسألُ

التّفريعُ إمّا على مطلعِ السّورة وإمّا على المقطعِ الأخيرِ

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 274 - 275.

(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 513.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 664، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 360.

عن يومِ القيامةِ، وقد استعدَّ له بما يوجبُ دمارَه وهلاكَه[1]. ويحتملُ أن يكون التفريع على قوله السابق: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾، فجاء التفريع خبرًا منفيًّا في الآخرةِ عن حال الإنسان في الدنيا؛ أيّ: فقد فارقَ الحياةَ وسيق إلى لقاء اللّه خاليًا من العُدَّةِ لذلك اللقاءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿صَدَّقَ﴾:

التّصديقُ أصلُ القبولِ ومبدأُ الإيمانِ

عبَّرَ القرآن المجيد في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ بالفعلِ ﴿صَدَّقَ﴾، وهو مُشتقٌّ من التَّصديقِ؛ أيّ: تصديق الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وهو المناسبُ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، والمعنى: فلا آمنَ بما جاءَ به الرسول ﷺ، وعليه فالتَّصديق أصل قبول الإيمان، فمَنْ لم يُصدِّق ابتداءً فلن يؤمن انتهاءً.

غرضُ حذفِ مُتَعَلَّقِ فعلِ ﴿صَدَّقَ﴾:

الإيـمـاءُ إلى كـلِّ مـا يـجبُ التَّصديقُ به

حُذِف مُتعلقُ فعلِ ﴿صَدَّقَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾؛ أيّ: لم يُصدِّق ما يجب عليه الإذعانُ به[2]، وذلك لإفادَةِ العمومِ والشُّمولِ في نفي التَّصديقِ[3]، ذلك أنَّ أقربَ ما يكونُ مُتعلَّقًا لهذا الفعلِ هو تركُ التّصديقِ بوقوعِ يومِ القيامةِ، ولكنَّهُ لا يقتصرُ عليه، إذ التصديقُ باليومِ الآخرِ فرعٌ عن التصديقِ بكلِّ ما جاءَ به النبي ﷺ، وعن التصديقِ بكل ما جاءَ في القرآنِ الذي نُهيَ النبيُّ ﷺ عن تحريك لسانِه عجلةً بحفظهِ وتثبيته.

نوعُ العطفِ ودلالتُهُ:

عـطـفُ الـفـرعِ الأصـيـلِ على الأصلِ العظيمِ مــن عــطـفِ الـخـاصِّ على العامِّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ عطفَ القرآنُ المجيد تركَ الصلاةِ على تركِ التصديق، وهو عمدةُ الاعتقادِ، فكانَ في عطفِ تركِ الصلاةِ إشارةٌ إلى تركَ عمدة الفروعِ الشرعية وهي

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 175.

(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 462.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 111.

أداء الصلاة المفروضةِ، فجمع بينَ ترك العقيدة، وبيّنَ إهمال فروعِ الدين[1]، ولمّا كانت الصلاة جزءًا ممّا يجب أن يُصدّق بها، كان العطف من عطف الخاصِّ على العامِّ.

نُكتةُ إعادةِ ذِكْر (لا) النّافيةِ:

الكافرُ مُستحِقٌّ للذّمِ بتركِ الصّلاةِ كما يستحقّه بتركِ الإيمانِ

أعادَ القرآن المجيد ذكرَ حرفِ النَّفي (لا) في قولِ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ لتوكيدِ تركِ الكفارِ للتصديقِ والصلاةِ، وفيه مزيدٌ من التقريعِ والتوبيخِ، كما دلَّ تكرارُ حرفِ النفي على أنَّ الكافرَ يستحقُّ الذَّمَّ بتركِ الصلاةِ كما يستحقه بترك الإيمانِ[2]. وتكرار النفي مع ذِكْرِ فعلٍ آخرَ بعده أسلوبٌ عربيٌّ راسخٌ، فإنَّ العربَ لا تقولُ مثل هذا كلمةً وحدَها حتى تُتبِعها بأخرى، إمّا مُصرَّحًا أو مُقدَّرًا، فلا يقولون: لا عبد اللّه خارج؛ حتى يقولوا: ولا فلان، ولا يقولون: مررتُ برجلٍ لا يحسن؛ حتى يقولوا: ولا يجمل[3].

بلاغةُ عطفِ جملةِ الضِّدِّ على مقابِلِها:

جمعُ الكافرِ بين التكذيبِ والإعراضِ إلى جانبِ تركِ التصديقِ والصلاةِ

أفادَ مفهومُ المخالفةِ في قولِه اللّه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أنَّ الكافرَ قدْ كذَّبَ ولم يمتثلْ لمُقتضى التبليغِ، ورغم ذلك فقد عطفَ النَّظمُ قولَه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عليه، وذلك لإفادَةِ مَعْنَيَيْنِ؛ أحدُهُما توكيدُ قَوْلِه: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بقَوْلِه: ﴿كَذَّبَ﴾، وثانيهُما زيادَةُ بَيانِ مَعْنى: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾؛ بأنَّهُ تَوَلّى عمدًا لأنَّ عَدَمَ التَّصديق له أحوالٌ[4]، فالجملةُ الأولى نفيٌّ لفعلِ الخير، والثّانيةُ إثباتٌ لفعلِ الشَّرِّ[5].

معنى (لَكِنْ) ودلالتُها:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

---

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 274.

(2) شيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 425.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 733.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 165، والبقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 111.

حرفَ (لكنْ)، وهو حَرْفُ اسْتِدْراكٍ؛ أيْ: نَقض لبعضِ ما تضمَّنَتْه الجملةُ التي قبلهُ، إمّا لِمُجَرَّدِ تَوكيدِ المعنى بذِكْرِ نَقيضِهِ مثل قَولِه تَعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: 5]، وإمّا لبيانِ إجمالٍ في النَّفيِ الذي قبلهُ نَحْوَ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 40]، وحرفُ (لكنْ) المُخَفَّفُ لا يَعْمَلُ إعرابًا فهو حرفُ ابتداءٍ، ولذلكَ أكثرُ وُقوعهِ بعدَ واوِ العطفِ[1].

الاستدراكُ لتوكيدِ ترك التَّصديقِ والصَّلاةِ، ولبيانِ تعمُّدِ الكافرِ

غرضُ حذفِ مُتَعَلَّقِ فعلِ ﴿كَذَّبَ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ حذفَ النَّظمُ الكريمُ متَعَلَّقَ فعل التكذيبِ، والمعنى أنَّهُ كذَّبَ بما أتاهُ من اللّه[2]، وذلك لإفادَةِ العمومِ والشمولِ في تكذيبه، ذلك أنَّ أقربَ ما يكونُ متعلَّقًا لهذا الفعلِ هو التكذيبُ بوقوعِ يوم القيامةِ، ولكنَّهُ لا يقتصرُ عليه، إذا التكذيبُ باليومِ الآخرِ فرعٌ عن التكذيب بكلِّ ما جاءَ به النبي ﷺ، وعن التكذيبِ بكل ما جاءَ في القرآن. فالحذفُ هَهنا لأنَّهُ أبلغُ في إفادةِ العمومِ والشمولِ.

تكذيبُ الكافرِ لا يقتصرُ على يومِ القيامةِ؛ بل يعمُّ الوحيَ كلّه

نُكتةُ عطفِ التَّوَلّي على التَّكذيبِ:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ التَّوَلّي على التّكذيبِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لبيانِ شِدَّةِ الإعراضِ، إذ هو لم يكتفِ بالتكذيبِ، وإنَّما تَوَلَّى عن الإيمانِ بما جاءَ من عندِ اللّه، وأعرضَ عن الطاعةِ، وعن اتّباعِ الرسولِ ﷺ، وفي ذلك ما يؤكِّدُ استحقاقَ هذا الكافرِ للعقابِ الأليم. وكذلك فإنَّ التكذيبَ فعلٌ قَلْبيٌّ، والتولّي فعلٌ بدنيٌّ، فجمع بينَ القلبيِّ والبدنيِّ في كفرِه، فقد كان في الدّارِ الدنيا مُكذِّبًا للحقِ بقلبِه، مُتوليًّا عن العملِ بقالبِه، فلا خيرَ فيه باطنًا ولا ظاهرًا[3].

الجمعُ بين الكُفرِ القلبيِّ والبدنيِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 111.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 282.

بَلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

جاءَ الطباقُ بين ﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾، وبين ﴿صَلَّىٰ﴾ و﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ مبرزًا لشدَّةِ جُرمِ المُكذِّب بيوم القيامةِ[1]، لافتًا أنظارَ المتلقينَ لما يعتمل في نفسه من العتوِّ والجحودِ بالآياتِ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿ثُمَّ﴾:

قد أبعدَ المُكذِّبُ في العصيانِ باختيالِهِ وتبخترِهِ

أفاد حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ استبعاد الإيمان؛ لأنَّ الحاملَ على التَّكذيبِ الترفُ، وسبب ذلكَ الانقيادُ أوَّلًا مع الطبعِ في إفسادِ القُّوتيْنِ: العَمَليَّةِ والعِلميَّةِ حتى نشأ عنهما هذا الخلقُ السَّيئُ، وهو عدمُ المبالاةِ، ولم يزل به ذلك حتى صار ملكةً يفتخرُ به[2]. وكذلك فقد أفادَ التعبيرُ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ استبعادَ المكذب للبعثِ وإصراره على التكذيب به وعدم الخوف من اللّه[3].

غرضُ التعبيرِ بفعلِ الذّهابِ:

جاء التعبير بفعلِ ﴿ذَهَبَ﴾ للدلالةِ على ثباتِ هذا التبخترِ والاختيالِ وتحقُّقه في نفس المُكَذِّب العنيدةِ، وعلى عدم اكتراثه بما صنع، فقد كفر بلسانٍ باردٍ، وقلبٍ جامدٍ.

نُكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

اختيالُ المُكذِّبِ أمامَ أهلِهِ لأنَّهم في الغالبِ على شاكلتِهِ في التَّكذيبِ

قدَّم النَّظمُ شِبهَ الجملةِ ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ لبيانِ شدَّةِ اهتمامِ المُكذِّبِ بالاختيالِ والافتخارِ أمام أهله في المقامِ الأوَّلِ، إذ أهلُ الإنسانِ في الغالبِ الأعمِّ على شاكلته في التصديقِ والتكذيبِ، وهم ألصقُ النّاسِ به، وهو يقصدُ إلى الاختيالِ أمامهم قبل غيرهم. وقد يكونُ المُرادُ بأهله هَهُنا من هم على شاكلته في التكذيبِ والعصيانِ، فيكونُ من بابِ قوله تعالى:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 470.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 112.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 9/ 347.

﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾ [الصافات: 22]، فالمرادُ بـ(أَزۡوَٰجَهُمۡ) أتباعهم، ومن أشبههم من الظلمة[1].

بلاغةُ مناسبةِ مُفردةِ ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ للسّياق:

كان الافتخارُ والاختيالُ سببًا في قصمِ ظهرِ المُكذِّبِ جزاءً وفاقًا

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾، وهي مِشْيَةُ المُعْجَب بنَفْسِه. والمَعْنَى: أَنَّهُ أَهْمَلَ الاسْتِعْدادَ لِلْآخِرَةِ ولَمْ يَعْبَأْ بدَعْوَةِ الرَّسولِ ﷺ وذَهَبَ إلى أَهْلِهِ مُزْدَهيًا بنَفْسِهِ غَيْرَ مُفَكِّرٍ في مَصيرِه[2]، واستعمال هذه المُفردة الغريبة لتناسب ذِكْرَ الفاقرة في قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، والفاقرةُ هي الداهيةُ التي تقصمُ فقارَ الظَّهر. فهذا الذي يتبختَرُ في مشيته ويلوي ظهرَه، سيُقْصَمُ فقارُ ظهرِه، فلا يستطيعُ حراكًا، وهو جزاءٌ من جنس العمل، أفلم يكن يلوي ظهره ويتبختر، فسيُحَطَّمُ هذا الظهرُ الذي طالما لَواه وتبخترَ به وهذا أنسبُ عقابٍ له، وهي متناسبةٌ مع قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾؛ فهو كان يذهبُ إلى أهلِه وينقلبُ إليهم متى شاءَ، أمّا الآن فإنَّه يُساق سوقًا إلى ربِّه وسيِّده على الرّغم من أنْفِه، فليس له اختيار وإنما هو مَذهوبٌ به إلى جهةٍ واحدةٍ. أمّا في الدنيا فهو ينقلب إلى أهله وإلى عمله وإلى أصدقائه وإلى مَن شاء، فتقابل التّعبيرانِ والمشهدانِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ للدّلالةِ على تكرُّرِ الفعلِ منه مرارًا، بما يشيرُ إلى شِدَّةِ رغبتِه في الاختيالِ والافتخارِ إظهارًا لتكذيبه وعصيانِه، مع تصوير حاله.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 19/ 520.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.
(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 225 - 226.

وعيدُ المُكذِّب المُختالِ بالهلاكِ واستحقاقِ النّارِ

عِلّةُ فصلِ قولِه: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾:

فصل النَّظمُ البليغُ قولَ اللّه تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ عن قولِه: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾، وذلك لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ بلا إيهام، فقد جاءتْ جملةُ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ خبريَّةً لفظًا ومعنًى، في حين جاءت جملةُ ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ خبريَّةً لفظًا إنشائيَّةً معنًى[1]، وذلك لوقوعها دعاءً وتهديدًا للمُكذِّبِ المُختالِ بالهلاك واستحقاقه للخلودِ في النّارِ.

التَّعبيرُ بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾ مُناسبٌ لموضوع العَجَلَةِ في السّورة؛ فهو تهديدٌ بقُربِ العذابِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾: تَهَدُّدٌ ووعيدٌ[2]، معناهُ: قارَبَكَ ما تكرَهُ؛ أيْ: قارَبَهُ ما يُهْلِكُه، فهي كَلِمَةُ تَوَعُّدٍ تَجري مَجرى المَثَلِ في لُزوم هذا اللَّفظِ؛ لكن تَلْحَقُهُ عَلاماتُ الخِطابِ والغَيبَةِ والتَّكَلُّم، والمُرادُ بِه ما يُرادُ بقَوْلِهِمْ: ويْلٌ لَكَ من دُعاءٍ على المَجْرورِ باللّامِ بَعْدَها؛ أيْ: دُعاءٍ بأنْ يَكونَ المَكْروهُ أدْنى شَيْءٍ منهُ[3]. وقيلَ: هو (أفْعَلُ) من (الوَيْلِ) بَعد القَلْبِ كَأدْنى من (دونَ)، أوْ (فَعْلى) من: آلَ، يَؤولُ؛ بمعنى: عُقْباكَ النّارُ[4].

واختيارُ هذا الدُّعاء أنسبُ شيءٍ ههنا، فهو دعاءٌ عليهم وتهديدٌ لهم بالويلِ القريبِ والشرِّ الوشيكِ العاجل، فهو مناسبٌ لإيثارهم العاجلةَ وتقديمهم الفجورَ والشَّهواتِ وتأخيرهم الطاعاتِ، فكما عجّلوا في فجورهم وشهواتهم ومعاصيهم؛ عجل لهم الويل والثُّبور، وهو مناسبٌ لجوِّ العَجَلةِ في السورة[5].

(1) فيود، علم المعاني، ص: 455.
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ولي).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 362.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69.
(5) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 228.

معنَى اللّامِ في ﴿لَكَ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿لَكَ﴾ إمّا للاختصاص؛ أي: الويلُ والعذابُ والهلاكُ مُختصٌّ بكَ أيها العاتي المُتبختِرُ المُكذِّبُ، وخصَّ كثيرٌ من المُفسِّرين المُخاطَبَ هنا بأبي جهلٍ - كما ذكرنا سلفًا - مع نصِّهم على أنَّ هذا لا يمنعُ من عموم اللَّفظِ في كلِّ من كذَّبَ وتولى وأعرضَ عن الإيمان والشرائع. وإمّا أن تكون اللّامُ للتَّبيين[1].

اللّامُ إمّا للاختصاصِ، أو للتَّبيينِ

بَلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخِطابِ:

انتقلَ القرآن المجيد من الغيبةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ إلى الخطاب في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، لأنَّ الخطابَ في الدعاءِ والتهديدِ والوعيدِ أبلغُ وآكدُ، فإنَّ استحضارَ المُكذِّبَ وتوجيه الخطابِ إليه أشدُّ في التَّوبيخِ والتَّقريع. وفيه كذلك نوعٌ من المُشاكَلَةِ بين نَظْمِ الآيةِ، وسبب نزولها الواردِ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ لأبي جهلٍ.

توبيخُ المُكذِّبِ كفاحًا أبلغُ في إيلامِ نفسهِ

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

جاءتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ عاطفةً لزيادةِ التوكيدِ[2] بالتهديدِ والوعيدِ للمنكرِ المكذبِ بالإيمانِ والرسولِ وبيوم القيامةِ. والمعنى بعد ذلك: فبُعدًا لك في أمر دنياك، وبُعدًا لك في أمر أُخراك، وقيلَ: المعنى: الويلُ لك مرّةً بعد ذلك[3].

زيـادةُ التَّوكيدِ بالوعيدِ

نُكتةُ إعادةِ لفظِ: ﴿أَوْلَىٰ﴾:

كرَّرَ القرآن المجيد كلمةَ ﴿أَوْلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ لزيادةِ الوعيدِ والتّهديدِ، وحذفَ شبه الجملةِ لدلالةِ شبه الجملةِ السّابقةِ عليها[4].

---

(1) شيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 426.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 113.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 736.
(4) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 113.

أفادَ العطفُ قوَّةَ التهديدِ والوعيدِ والمبالغةِ في وقعهِ وتعدُّدِ مراحلهِ

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فرق بين الآيتيْن بـ﴿ثُمَّ﴾، وذلك لجملة أسبابٍ؛ منها أن (ثُمَّ) قد تفيد عمومَ البُعدِ والتَّباينِ، وليس المقصود بها التراخيَ في الزمنِ فقط، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: 11 - 17]. فقد دخلت ﴿ثُمَّ﴾ [البلد: 17] لبيان تفاوتِ رتبةِ الفَكِّ والإطعامِ من رتبة الإيمان[1]. فما بعد (ثُمَّ) أبعدُ في الرتبةِ مما قبلها، وكذلك ههنا فإنَّ التهديدَ الثّاني أقوَى من الأول. ومنها: أنه جاء بـ (ثُمَّ) لتوكيدِ الكلامِ، إذ إنَّ جملةَ التوكيدِ قد يُفصلُ بينها وبين المؤكَّدةِ بحرف العطفِ، تقولُ: (واللّه، ثُمَّ واللّه). فجيء بحرف (ثُمَّ) لعطف الجملةِ، دلالةً على أن هذا التأكيدَ ارتقاءٌ في الوعيد، وتهديدٌ بأشد مما أفاده التهديدُ، وتأكيدُه كقوله تعالى ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر: 3 - 4][2].

وربما جاء بـ (ثُمَّ) للتراخي الزمني أيضًا، إذ هناكَ عذابٌ في القبرِ وعذابٌ في الآخرةِ، وبينهما مدَّةٌ مديدةٌ، كما قال تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]، فهمُ يعرضونَ على النّارِ غُدوًّا وعَشيًّا في القبرِ، ويومَ تقومُ الساعةُ لهم عذابٌ أشدُّ. وعلى هذا يكونُ التهديدُ الأوَّلُ في القبرِ والثّاني في الآخرةِ، وجاء بينهما بـ (ثُمَّ) الدّالةِ على المُهلةِ والتَّراخي. والدّالةِ على بُعْدِ ما بين التهديديْن والعذابيْن في الشدة[3].

---

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 266.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 364.

(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 231 - 233.

لطيفةُ تكرارِ (أَوْلَى) أربعَ مرّاتٍ:

تكرارُ الويلِ أربع مـرّاتٍ لمناسبةِ الأمـورِ الأربعةِ المذكورة

أعادَ القرآن المجيد جملةَ ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ للتأكيدِ وللمبالغةِ في التهديدِ والوعيدِ[1]، فهو تهديدٌ بعد تهديدٍ، ووعيدٌ بعد وعيدٍ؛ أيّ: فهوَ وعيدٌ أربعةٍ لأربعةٍ، ففي قولِه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أربعةُ أمورٍ، ناسبت تكرارَ الوعيدِ أربعَ مرّاتٍ، فتركُ التَّصديقِ خصلةٌ، والتَّكذيبُ خصلةٌ، وتركُ الصَّلاةِ خصلةٌ، والتَّولّي عن الله تعالى خصلةٌ، فجاءَ الوعيدُ أربعةً مقابلةً لتركِ الخصالِ الأربعةِ، وقيل: والمعنى: الويلُ لك حيًّا، والويلُ لك ميِّتًا، والويلُ لك يومَ البعثِ، والويلُ لك يومَ تدخلُ النّارَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّوَلّي والإدبارُ والإعراضُ:

الإعـراضُ أسوأُ مـن الـتَّـولّي، والإدبـارُ أكثرُ ما يُـستـعـمـلُ في الهَرَبِ والفِرارِ

التَوَلَّى عن الشيءِ بمعنى الانصرافِ عنه[3]، والتَّوَلّي قد يكون بالجسم، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][4]، والتولي: الإعراضُ مُطلقًا ولا يلّزمه الإدبار، والإعراض: الِانْصِراف عَن الشَّيْء بالقَلْبِ قالَ بَعضهم: المُعرِضُ والمُتَولّي يَشْتَرِكانِ في ترك السلوك، إلّا أن المُعرِضَ أسْوَأ حالًا؛ لِأَن المُتَولي متى نَدم سهل عَلَيْهِ الرُّجوع، والمُعرِضُ يحْتاج إلى طلب جَديد، وغايَة الذَّم الجمع بَينهما[5]. وأمّا الإدبارُ فهو أنْ يوَلّي الشّيءَ دُبُرَه؛ أيّ: جَعَل دُبره وظَهْرَه إلى ما ينبغي أن يواجهه؛ ومنه قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، فالمُرادُ: يفرُّ فيكونُ ظهرُه للعدو. وارتَدّ على دُبُره: رَجَعَ مُتّجهًا إلى عَكْسِ ما كان عليه، وأكثرُ ما يُستعملُ في الهرب والفرارِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 164.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 115.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ولي).
(5) الكفويّ، الكلّيات، ص: 28.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ
يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ
ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾

[القيامة: 36 - 40]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ المُكذِّبِ إلى بيانِ أوهامِهِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السابقةُ حالَ المُعرِضِ المُكذِّب وما صدر عنه من أفعالٍ رديّةٍ، وأتبعت هذا البيان بذِكْر الوعيد والتَّهديد له بسبب أفعاله، وكان ذلك في نهاية السّورة؛ ناسب أن تُختمَ السورة الكريمة بتقريرِ تمامِ القدرةِ، والإنكارِ على مَن يشكُّ في كمالِها وتمامِها، فإنَّهُ تعالى قديرٌ على أن يُحييَ الموتى كيف أراد دفعةً واحدةً، أو في أوقاتٍ متعاقبةٍ، فيُقيم القيامة، ذلك أنَّ كمالَ عزَّتِه وجلالِه وعظمتِه أنَّه تعالى على كلِّ شيءٍ قدير[1]، فهو انتقالٌ من بيان حال المُكذِّب، إلى بيان ما يظنُّه من اعتقاداتٍ وأوهام تقوده إلى حتفِهِ وهلاكه.

ذِكْــرُ نـهـايـةِ العالمِ في بدايةِ السّورةِ وبدايته في نهايتِها

ومن المناسبة اللطيفة بين مبدأ السورة وختامها، أنَّ المبدأ كان في ذِكْر القيامة التي هي نهاية العالم، وفي نهاية السورة كان ذِكْر خلق الإنسان وهو بداية الاستخلاف في العالم، فذَكَرَ في بداية السورة نهايةَ العالم، وفي نهايتها بدايته، وهذا من لطيف التّناسُب بين المَطْلع والختام.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُدًى﴾: (سدو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إهمالٍ وذهابٍ على وجهٍ. من ذلك السدوُ، وهو ركوبُ الرَّأسِ في السَّيرِ[2]. وأَسْدَيْتُ إبلي

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 114 - 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سدو).

إسْداء إذا أهْمَلْتها[1]، ومنه السَدْوُ: مَدُّ الإبلِ في سيرها بأيديها وتذرُّعها في المشي واتساع خطوها. ناقةٌ سَدوٌّ: تَمُدُّ يديْها في سَدْوها وتطرحهما، وركوب الإبل والخيل رأسَها في سيرها فتطّردُ في سيرها إلى حيث تريد هي، لا تنقاد لأحد، والمُرادُ بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾؛ أيْ: مُهملًا غير مأمورٍ ولا منهيٍّ، سادِرًا مُسترسِلًا في ارتكابِ ما يشاءُ باستغلاظٍ، لا يُقيّدُه أو يضبطُه أمرٌ أو نَهْيٌ أو حسابٌ[2].

2) ﴿مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾: الميمُ والنّونُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على تقديرِ شيءٍ ونفاذِ القضاءِ به. ومنه قولُهم: مَنَى له الماني؛ أيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ. وماءُ الإنسانِ مَنيٌّ؛ أيْ: يُقَدَّرُ منه خِلقَتُهُ. والمَنِيَّةُ الموتُ؛ لأنّها مُقدَّرةٌ على كُلٍّ[3]. والمَنيُّ فعيلٌ بمَعْنَى مَفعولٍ، واسْتَمْنَى الرَّجُلُ اسْتَدْعَى مَنيَّهُ بأمْرٍ غَيْرِ الجِماعِ حَتَّى دَفَقَ[4]. وفي قولِه: ﴿مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ ثَلاثَةُ أوْجُهٍ: أحَدُها: أنَّ مَعْنَى يُمْنَى: يُراقُ، الثّاني: بمَعْنَى يَنْشَأُ ويَخْلُقُ، الثّالِثُ: أنَّهُ بمَعْنَى: يَشْتَرِكُ؛ أي: اشْتِراكُ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المَرْأةِ[5].

3) ﴿فَسَوَّىٰ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئَيْنِ، يُقال: هذا لا يُساوي كذا؛ أيْ: لا يُعادِلُه. وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمر؛ أيْ: سواءٍ[6]. وسَوَّيتُ الشيءَ فاستَوى؛ أيْ: قَوَّمْتُهُ فاستَقامَ واعتدلَ[7]. والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجلٌ سويٌّ: استوت أخلاقُه وخِلقتُه عن الإفراطِ والتّفريطِ[8]. والتَّسْوِيَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سَواءً؛ أيْ: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، والمُرادُ هَهُنا بقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أيْ: فجَعَلَهُ جَسَدًا من عَظْمٍ ولَحْمٍ[9].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سدا).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سدو - سدى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مني).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (مني).
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 160.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(8) الرّاغب، المُفردات: (سوا).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ابتداءُ الخَلقِ وتدرُّجُ مراحلِه أقوى براهينِ البعثِ ودلائلِه

تُبيِّن الآياتُ الكريمة براهينَ الخَلقِ لمُنكري البعث والحساب والجزاء، الذين يظنّون ظنًّا خاطئًا أنَّهم متروكون هَمَلًا بلا حسابٍ أو جزاءٍ، وذلك لأنَّ العاقلَ لا يَرضى لنفسه أن ينزلَ إلى مرتبةِ الحيوانِ، وأن يُنْظَرَ إليه نظرةَ مَنْ يُعفى من تَبعةِ أعمالِه، فتلك حالٌ لا يصيرُ إليها الإنسانُ إلّا إذا كانَ ناقصَ الأهليةِ أو فاقدها. ولذا فقد جاءَ البرهانُ ببيانِ طلاقةِ القدرةِ على البعثِ بالتذكيرِ بأصلِ خلقهِ من نطفةٍ، ثم أعطاه اللّه تعالى الصفة الوظيفية التي يقوم بها، فجعل منه الذَّكرَ والأنثى، وبهما معا يكملُ نوعُ الإنسان، وتكون له القدرة على أداء وظيفته في الحياة. ثم جاءتْ خاتمةُ السورةِ لتنصَّ على القضية التي نصبت لها تلك الأدلة، وكانت السورة كلها معارض لتلك القدرةِ، بسؤالٍ بليغٍ: أليسَ ذلكَ الإلهُ الذي خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ، بقادرٍ على أن يُحيي الموتَى؟ ليقع الإيجاب المُلزِم لكلِّ ذي عقلٍ، إذا هوَ استجابَ للحقِّ، وأذعنَ لمنطقِ العقلِ، ولم يغلبْه الهوَى، أو يستبدَّ به العنادُ. وبهذه الآيةُ تختتمُ السورةُ، التي كان عنوانُها (القيامة)، فإنَّه لا قيامةَ إذا لم يتقرَّرْ إمكانُ بعثِ الموتَى من القبورِ، فإذا تقرَّر ذلك، لم يكن الإخبارُ بأن هناكَ بعثًا وقيامةً حسابًا وجزاءً بالأمرِ الذي يُمارَى فيه، أو يقعُ موقعَ الشَّكِ أو الإنكارِ؛ بل تتلقَّاه العقولُ والقلوبُ بالتسليم والإذعانِ لربِّ القيامةِ سبحانه(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآياتِ عمّا سبقَها:

ردُّ ظنِّ المُكذِّبِ بأن يُترك سدًى من عواقبِ إنكارِ البعثِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ عن قولِه سبحانه: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1343 - 1348.

لأنَّ الآيةَ وقعتْ استئنافًا ابتدائيًّا، عادَ به الكلامُ إلى الاستدلالِ على إمكانِ البعث وهو ما ابتُدِئَ بِه، فارتبطَ بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ في صدرِ السورةِ، فكأنَّه قيلَ: أيحسبُ أنْ لنْ نجمعَ عظامَه؟ ويحسبُ أنْ نتركَه في حالةِ العدمِ مُهمَلًا. وزيدَ هنا أنْ مُقتضى الحكمةِ الإلهيَّةِ إيقاعُهُ بقولِه: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾[1].

بَلاغةُ الاستفهامِ ونَوعُه وغَرضُه:

مُقتضى إنكارِ اعتقادِ المُكذِّب إثباتُ الغايةِ التي لأجلِها خُلقَ الإنسانُ

جاءَ الاستفهام بالهمزة في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ للإنكارِ والتوبيخِ والتوقيفِ[2]، وهو استفهامٌ مجازيٌّ لصدوره عن اللّه سبحانه، والمُرادُ إنكارُ ذلك الحسبانِ؛ أيْ: حسبانُ الإنسانِ الكافرِ أنَّه غيرُ مُكلَّفٍ، وأنَّ ما يفعله لا جزاءَ ولا عقابَ عليه، فهو لإنكار الواقع من التكذيبِ بالتكليفِ والبعثِ، وفيه كذلك من التهديد الخفيِّ والوعيدِ غير المباشرِ ما يردعُ الإنسانَ المُكذِّبَ عن هذا الحسبانِ الأثيم، وفيه كذلك تجهيلٌ لِمَن حسبَ هذا الحسبانِ، إذ لم يقدرْ حكمةَ اللّه وقدرته حقَّ قدرهما، ومُقتضاه أنَّ الإنسان خُلِقَ ليعبُدَ ويعمل بالأمر الإلهيّ والإرشاد الرّبانيِّ.

نكتةُ إيثارِ التعبيرِ بمادَّةِ الحُسْبان:

في التعبيرِ بالحُسْبانِ مواجهةٌ لاعتقادٍ باطلٍ ترسَّخَ في نفوسِ المُنكرينَ

آثرَ النَّظمُ التعبيرَ بمادَّةِ الحُسْبانِ دونَ الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ الحُسْبانَ ظَنٌّ، ولكنَّه يزيدُ على مجرَّدِ الظَّنِ الاعتدادَ بالمعنى الذي وقَعَ عليه الحُسْبانُ؛ أيْ: تعليقُ رجاءٍ وأملٍ عليه لجلبِ نفعٍ، أو دفعِ ضُرٍّ[3]، أو بعبارةٍ أجمعَ: أنَّ الحُسبانَ يُدخلُ الشيءَ الذي وقع عليه الظَّنُّ في حِسابِ الظّانِ الحاسِبِ، ويَجري على مُقْتَضاه سلوكُه في الحياةِ إيجابًا وسَلبًا. أمّا الظَّنُّ فقد يكونُ مجرَّدَ خاطرةٍ لا صلةَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 364.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 407، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 165.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321 - 322.

لها بحساباتِ الإنسانِ العَمَليَّةِ، وعلى هذا يكونُ النَّظمُ هنا مواجهًا لسلوكٍ عَمَليٍّ نشأ عن اعتقادٍ باطلٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

إنكارُ الحُسْبانِ الآثمِ بعدمِ التّكليفِ والبعثِ على الدّوامِ ليعُمَّ جميعَ الأوقاتِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ آثَرَ القرآن المجيد التعبيرَ بالفعلِ (يَحْسَبُ) في صيغةِ المُضارعةِ، وعدَلَ عن التَّعبيرِ بصيغةِ المُضيِّ فلم يقلْ: (أحسبَ الإنسانُ أن يُترك سُدًى)، وذلك ليعمَّ الإنكار كلَّ الأوقات، متى وكيف وقع ذلك الحُسْبان، وللدلالةِ على أنَّهُ حُسْبانٌ مستمرٌ لا ينقطعُ في نفوس المُكذِّبينَ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ (يَحْسَبُ) إلى الإنسانِ:

غلبةُ إنكارِ البعثِ على جنسِ الإنسانِ لغَلَبَةِ الطَّمعِ في حظوظِ الدنيا

أسندَ القرآن المجيد فعل (يَحْسَبُ) إلى الجنس كله؛ لأن أكثر الناس كذلك لغلبة الحظوظ على العقل إلّا مَنْ عصم اللّه[2]، والمُرادُ من يحسَبُ ذلك من جنسِ الإنسانِ، وهو كافٍ في إسنادِ الفعلِ إلى الجنسِ، وذلك بإسنادِ ما للبعضِ للكلِّ، وهذا جارٍ في (النَّفسِ اللَّوّامةِ) في صدرِ السورةِ إذا أُريدَ بها الجنسُ، فلا يلزمُ الإقسامُ على النفسِ الفاجرةِ[3].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الراجحُ أنَّ التعريفَ للجنسِ ليشملَ كلَّ إنسانٍ لشمولِ القيامةِ للخلقِ أجمعينَ

لامُ التعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنسِ[4]؛ أيْ: هذا النوع الذي يقبلُ على الأُنْسِ بنفسهِ والنظرِ في عَطِفِه والسرورِ بحسبه[5]، وقال كثيرٌ منهم: المُرادُ الإنسانُ الكافرُ المُكذِّبُ، فقال جمع من الأصوليّين: بل المُرادُ بالإنسانِ: المُكذِّب بالبعثِ على الإطلاقِ[6].

(1) الرّاغب، المُفردات: (حسب) و(ظن).
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 87.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 465، وشيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 413.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 86.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 722.

وقالوا: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وإن كانَ تعريفه هنا تعريفَ الجنسِ الذي يصدقُ على جميعِ الأفرادِ، فهو من العامِّ المُرادِ به الخاصُّ؛ أيْ: الإنسانُ الكافرُ، وإطلاقُ العامِّ مع إرادةِ الخاصِّ من المجاز المرسل، والعلاقةُ المختارةُ فيه هي الإطلاقُ والتقييدِ، يعني: أطلقَ العامَّ من دلالتهِ على العمومِ، وأُعيدَ تقييدُهُ بالدَّلالَةِ على الخصوصِ(1).

نُكتةُ تكرار ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في بدايةِ السّورةِ ونهايتِها:

التكريرُ لبيانِ عِظَمِ قدرِ المجازاةِ على الأعمالِ

كرَّر القرآن المجيد عبارةَ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قولِ اللّه تباركتْ آلاؤه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ بعد وُرودها في قولِه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لتكريرِ إنكارِ البعثِ والحشرِ، مع تضمُّنِ الكلامِ الدلالةَ على وقوعِه، حيث إنَّ الحكمةَ تقتضي الأمرَ بالمحاسنِ والنَّهيَ عن القبائحِ والرذائلِ، والتكليفُ لا يتحقَّقُ إلا بمجازاةٍ، وهي قد لا تكونُ في الدنيا؛ فتكون في الآخرةِ(2). وفي الإعادة كذلك تهيئةٌ لما سيعقبه من دليلِ إمكانِ البعثِ من جانبِ المادَّة بقولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ﴾ إلى آخر السورة. فقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ تكريرٌ وتعدادٌ للإنكارِ على الكافرينَ تكذيبَهم بالبعثِ، لوقوعه بعد وصفِ يومِ القيامةِ وما فيهِ من الحسابِ على ما قدَّم الإنسانُ وأخَّر. ومعنى هذا مثل قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115](3).

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّل:

رغبةُ المُكذِّبِ في استمرارِ فسادِه الدُّنيويِّ دون حسابٍ أخرويٍّ

التَّعبير بالمصدرِ المُؤوَّلِ دون الصَّريح في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ لما فيه من الدلالةِ على الزَّمنِ، فضلًا عن الدلالةِ على الحدثِ، ففيه بيانٌ لرغبةِ الإنسان في

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 268، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 165.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.

الاستمرارِ في الفسادِ حالَ كونِه في الدنيا، دونَ محاسبةٍ أو عقابٍ في الدنيا والآخرةِ.

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُتۡرَكَ﴾ لِلمفعولِ:

المُكذِّبُ بيومِ القيامةِ يريدُ أن يعيثَ في الأرضِ فسادًا دونَ رقيبٍ أو حسيبٍ

في قولِ اللّه تباركتْ آلاؤه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ جاءَ الفعلُ ﴿يُتۡرَكَ﴾ مبنيًّا لِما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ الحاملَ على الجراءةِ مُطْلَقُ التَّركِ هَمَلًا، لا كونُ التَّركِ من مُعَيَّنٍ[1]؛ أيْ: يكون تركُهُ بالكليَّةِ، فكأنَّ المُكذِّب بيومِ الآخرةِ يحسبُ أنَّهُ خالٍ من كلِّ قيدٍ أو شرطٍ، فهو يريدُ أنْ يعيثَ في الأرضِ فسادًا دونَ حسيبٍ أو رقيبٍ. وكذلك ففي البناءِ للمفعولِ إيجازٌ يلائمُ بلاغةَ النَّظمِ الشَّريفِ؛ فعدلَ عن مُقتَضى الظّاهرِ وهو (أيحسبُ الإنسانُ أنْ يتركَهُ اللّه سُدًى)؛ لأجلِ العلمِ بالفاعلِ من قولِه السابقِ: ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ فكأنّه قال: أيحسب الإنسانُ أن نتركَهُ دونَ بعثٍ وأن نهملَ أعمالَه سُدًى[2].

بَلاغةُ المجازِ في فعلِ التَّرْكِ:

الحكمةُ الإلهيَّةُ تقتضي عدمَ التركِ، بل الحسابُ بالنّقيرِ والقطميرِ

الأصلُ في معنى التَّركِ: مفارقةُ شيءٍ شيئًا اختيارًا من التّاركِ، ويُطلَقُ مجازًا على إهمالِ أحدٍ شيئًا وعدمِ عنايته بأحوالِه وبتعهُّدِه، وفعل الترك في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ مستعملٌ في المعنى المجازي[3]. إذ لا يليق بحكمته تعالى أنْ يعطيَ القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد، وجوازُ الإهمالِ والتركِ يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائحِ الأفعالِ، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بدَّ من التَّكليف، والتكليفُ لا يَحسنُ ولا يَليقُ بالكريمِ الرَّحيمِ إلّا إذا كانَ هناك دارُ الثَّوابِ والقيامةِ[4].

---

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 114.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 737، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 465، وشيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 426، والشّهاب، عناية القاضي: 9/ 348.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿سُدًى﴾:

رغبةُ المُكذِّبِ في أن يكونَ هائمًا على وجهِهِ يُشبه صنيعَ البهائم

آثر النَّظم الكريم استعمال مُفرَدة ﴿سُدًى﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾؛ لما فيها من الدلالةِ على الإهمال والذهابِ على أيِّ وجهٍ كانَ[1]. إذ من معاني السَّدْوُ ركوبُ الإبلِ والخَيلِ رأسَها في سيرِها؛ فتطَّردُ في سيرِها إلى حيثُ تُريد هيَ، فلا تنقادُ لأحدٍ[2]، وهذه المُفرَدة تُصوِّر واقعَ الإنسان المُكذِّب، بأنّه يريد أن يكون مُنفلتًا عن أيِّ قيدٍ أو ضابطٍ، كحال البهائم التي تسير على وجهها لا تُدرك أنّها تسير في حتفها.

بَلاغةُ فنِّ الإدماجِ:

مُقتَضي الحكمةِ أن يُبعث الإنسانُ للجزاءِ

جاءَ ذِكرُ ﴿سُدًى﴾ هُنا على طريقةِ الإدماجِ فيما سيقَ له الكلامُ، إيماءً إلى أنَّ مُقتضَى حكمةِ خلقِ الإنسان أن لا يتركَه خالقُه بعدَ الموتِ فلا يُحييه ليجازيَه على ما عملَهُ في حياته الأولى[3].

بَلاغةُ الكنايةِ والتعريضِ:

التكليفُ في الحياةِ الدُّنيا مقصودُهُ الجزاءُ في الآخرة

معنى قوله تعالى: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾؛ أيْ: لا يحسب أن يُترك غيرَ مَرعيٍّ بالتَّكليفِ كما تُترك الإبلُ، لا يُؤمرُ ولا يُنهى. وقد تبيَّن من هذا أنَّ قولَه: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ كنايةٌ عن الجزاءِ؛ لأنَّ التَّكليفَ في الحياةِ الدُّنيا مقصودٌ منه الجزاءُ في الآخرةِ[4]، وفي الكناية تعريضٌ بالمُكذِّبين، بأنَّ جزاءهم سيكون عادلًا قاهرًا، لإصرارهم على التَّكذيب بيوم البعث، ومُضيِّهم في مُلهيات الحياة الدُّنيا.

نُكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾:

الاستدلالُ بالإبداءِ على الإعادةِ إعادةٌ في الاستدلالِ على الإعادةِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾؛ لأنَّهُ اسْتِئْنافٌ واردٌ لإبْطالِ الحُسْبانِ المَذْكورِ، فإنَّ مَدارَهُ لَمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سدو).
(2) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سدى).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 366.

كانَ اسْتِبْعادُهم لِلْإعادَةِ دفعَ ذلك بالاستدلالِ ببَدْءِ الخَلق[1]، فأعادَ البرهان على المعادِ بأمرٍ يجمعُ القدرةَ والحكمةَ، وذلك أنَّه لا يجوزُ في عَقلِ عاقلٍ أن صانعًا يصنعُ شيئًا ويتركُه ضياعًا وهو حكيمٌ أو حاكمٌ، فكيفَ بأحكم الحُكماءِ والحاكمينَ، فجاءتِ الآيةُ لتُنكِرَ على المُكذِّبِ ظنَّه أنَّه يهملُه سبحانه مع علمه بصنائعهِ المُحكمة فيه، مُقرِّرًا أحوالَ بدايتِه التي لا يسوغُ معها إنكارُ إعادتِه؛ لأنَّها أدلُّ على أنَّه لا مانعَ منها أصلًا[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُهُ:

إنشاءُ الإنسانِ من نُطفةٍ برهانٌ على إعادةِ الإنسانِ من تُربةٍ

جاءَ الاستفهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ﴾ لتقرير أنَّ أحْوالَ ابْنِ آدَمَ في يَدِ اللّه التي إذا تُؤمِّلَتْ لم يُنكِر معها جَوازَ البعثِ عاقلٌ[3]. فهذا الاستفهامُ علَّةٌ وبيانٌ للإنكارِ المَسوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ﴾ الذي جُعِلَ تكريرًا وتأييدًا لمضمونِ قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[4].

لطائفُ حذفِ النّونِ في فعلِ ﴿يَكُ﴾:

التّذكيرُ بحقارةِ المنشأِ لنفي الاختيالِ والتَّجبُّرِ والاعتدادِ بالنَّفسِ

حذفَ القرآنِ المجيد نونَ ﴿يَكُ﴾ في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ للتَّخفيف[5]، ولا يمنع ذلك من وجود لطائف أخرى، منها الإعلام بأنَّ الأمرَ في هذِه النتيجةِ العُظْمى ضاقَ عن أقلِّ شيءٍ يمكنُ الاستغناءُ عنه كراهيةَ التَّمادي من الموعوظِ على ما وُعظَ لأجلِه فيحصلُ له الهلاكُ، وإشارةٌ إلى مهانةِ أصلِه وحقارتِه[6].

ومنها مراعاةُ جانبِ العَجَلةِ التي طُبعتْ به السورةُ، وتكرَّرتْ مظاهرُه في أكثَرَ من موطنٍ، فحذِفَت نونُ (يَكُنْ) للفراغِ من الفعلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 166.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 407.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 366 - 367.
(5) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 465.
(6) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.

بسرعةٍ، وهو الملائمُ لجوِ العَجَلةِ في السورةِ. ومنها: أنَّ الإنسانَ لا يكونُ إنسانًا من المَنيِّ وحدَه حتَّى يُراقَ في الرَّحم، ويلتقي بالبويضةِ، فبالمَنيِّ والبويضةِ يكتملُ الخَلْقُ، وبهما يتمُّ الإنسانُ، أمّا المَنيُّ وحدَه، فلا يكونُ منه إنسانٌ، وكذلكَ البويضةُ وحدَها؛ فنقَصَ من فعلِ الكونِ إشارةً إلى أنَّ التطويرَ المذكورَ في هذه الآياتِ لا يكونُ إلّا بهما معًا، أمّا المَنيُّ فهو جزءٌ من السببِ. ولم يُتِمَّ الفعلَ إشارةً إلى ذلك، وهذا من مواطن الحذف البديعة[1].

نُكتةُ مجيء اسمِ ﴿يَكُ﴾ ضميرًا مُستترًا:

خلقُ الإنسانِ أهونُ من خلقِ السَّماواتِ والأرضِ

آثَرَ القرآن المجيد عدمَ ذِكْرِ اسم ﴿يَكُ﴾ في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ فلم يَقُلْ: (ألم يكُ الإنسانُ نطفةً)، وذلك لأنَّ السّياقَ جاء في تحقيرِ الإنسانِ المُكذِّب؛ فنسبَ عدمَ إظهارِ لفظه، وكذلك للإشارةِ إلى أنَّ خَلْقَ الإنسانِ أمرٌ هيِّنٌ لا يكادُ يستحقُّ الذِّكرَ، كما في قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردَةِ ﴿نُطۡفَةٗ﴾:

تذكيرُ مُنكِرِ البعثِ بأنَّهُ كانَ شيئًا يسيرًا جدًا

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن أصلِ خلقِ الإنسانِ بلفظِ: ﴿نُطۡفَةٗ﴾، والمُرادُ بها قطرةُ ماءٍ تُمْنَى، والنطفةُ: الماءُ القليلُ، يُقال: نَطَفَ الماءُ: إذا قَطَرَ؛ أيْ: ألم يكُ ماءً قليلًا في صلبِ الرَّجلِ وترائبِ المرأةِ[2]. ففي التَّعبيرِ بالنُّطْفَةِ إشارةٌ إلى أنَّهُ كانَ شيئًا يسيرًا جدًا[3].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالَتُها:

﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ بيانيَّةٌ؛ أيْ: لبيانِ جنسِ الإنسانِ وأصلِ خلقه، وتحتمل أن تكون لابتداءِ الغايةِ[4].

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 235.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 738، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 117.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 326.

دلالةُ التعبيرِ بالفعلِ ﴿يُمۡنَىٰ﴾:

خلقُ الإنسانِ مُقدَّرٌ بالعزّةِ الإلهيةِ

عبرَّ النَّظمُ بالفعلِ ﴿يُمۡنَىٰ﴾ لما فيه من الدّلالةِ على تقديرِ شيءٍ ونفاذِ القضاءِ به[1]. والمَنيّ يخرج دفقًا، لا يتوقَّفُ إذًا بدأ[2]. وفي قولِه: فيهِ ﴿مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ: أَحَدُها أَنَّ مَعْنى يُمْنى: يُراقُ، والثّاني بمَعْنى: يَنْشَأُ ويَخْلُقُ، والثّالِثُ أنَّهُ بمَعْنى: يَشْتَرِكُ؛ أي: اشْتِراك ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المَرْأةِ[3]. ورجَّح بعضُهم أنَّ المعنى: تقدّر بالعزّة الإلهية ما لم يكن منه، وقيل: الأَظْهَرُ قَولُ بعضِ المُفسِّرينَ أنَّهُ مُضارِعُ (أمْنى) الرَّجُلُ فيكونُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨﴾ [الواقعة: 58][4].

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُمۡنَىٰ﴾ للمفعولِ:

إزالةُ وهْمِ الإنسانِ بأنَّ إنزالَ المَنيِّ بإرادتِه

بُني فعلُ ﴿يُمۡنَىٰ﴾ للمفعول؛ لبيان أنَّ اللّٰه سبحانه سَبَّبَ لِلإنسانِ المُعالجةَ في إخراجِها بما ركَّبَ فيهِ من الشَّهوةِ، وجَعَلَ لهُ من الرّوحِ التي يُسِرُّها لقضاءِ وطَرِهِ منها حَتّى إنَّ وقتَ صَبِّها في الرَّحِم انصَبَّتْ منهُ بغيرِ اختيارِهِ حتّى كأنَّهُ لا فعلَ لهُ فيها أصْلًا[5]. بل الأمرُ كلُّه للّٰه تعالى، إذا قدَّرَ الخلقَ على نسمةٍ فلا دخلَ للإنسانِ في إنشائها حتَّى في أهونِ خصائص الإنشاءِ.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

التذكيرُ للمَنيِّ، والتّأنيثُ للنُّطْفَةِ

اختلف القراءُ في قوله تعالى: ﴿مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ فقرأ يعقوبُ وحفصٌ وهشام بخلاف عنه، بالياء على التّذكير. وقرأ الباقونَ بالتّاء على التّأنيث ﴿مَّنِيّٖ تُمۡنَىٰ﴾[6]. فمَنْ قرأ بالياءِ فلعودِ الضَّميرِ على المَنّي؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مني).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منو - منى).
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 160.
(4) الرّاغب، مُفردات القرآن: (منى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 367.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 117.
(6) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 394.

أيْ: يُقَدَّرُ خَلْقُ الإنْسانِ مِنهُ، ومَن قرأ بالتاءِ فلتأنيث النطفة، على تَقْديرِ: أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً تُمْنى من المَنيِّ(1).

نوعُ حرفِ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالَتُه:

اجتماعُ التّراخي الزّمانيّ والرُّتبيِّ حاصلٌ

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أنَّ هناك تراخيًا زمنيًّا حتى يصيرُ المَنيُّ بقدرةِ اللّه عَلَقَةً(2)، كما دلَّ على التّراخي الرُّتبيّ فإنَّ كونَه علقةً أعجبُ من كونِهِ نطفةً؛ لأنَّه صارَ عَلَقةً بعد أنْ كان ماءً، فاختلطَ بما يفرزُه رحمُ الأُنثى من البويضاتِ، فكان من مجموعهما علقةً(3).

نُكتةُ دخولِ فِعلِ الكَونِ مع طورِ العَلَقَةِ:

تحقُّقُ خَلْقِ الإنسانِ بقدرةِ اللهِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعلِ الكونِ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ للدلالةِ على التَّحقُّقِ والثَّباتِ وتوكيدِ أنَّ هذا التّحوُّلَ بقدرةِ اللّه وحدَه، وأنَّهُ تعالى هو القادرُ على الإعادةِ كَرَّةً أخرى. و﴿كَانَ﴾ بمعنى: صار، وإيثار ﴿كَانَ﴾ على صار لسرعة تحويل المَنيِّ فى آخر مُدَّته إلى عَلَقَةٍ في يُسْرٍ دون إبطاءٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى طواعية الكائنات أمام قدرةِ اللّه تعالى(4).

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردَةِ ﴿عَلَقَةً﴾:

الإنسانُ مُتعلقٌ بالعاجلةِ منذ أن كان في الرَّحِمِ علقةً

استعملَ القرآنُ المجيد لفظَ عَلَقَةٍ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، إشارةً إلى تعلُّقِ الدَّمِ الجامدِ الذي منه منشأ الإنسانِ بجدار الرَّحَم، إذِ العَلَقُ: التّشبّث بالشّيء، يُقال: عَلِقَ الصّيدُ في الحبالة، والعَلَقُ: الدّم الجامد؛ ومنه: العَلَقَةُ التي يكون منها الولد. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: 2](5)، والمُرادُ تصييرُ

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 491، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 738.
(2) فرغلي، من أسرار البلاغة في سورة القيامة، ص: 714.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 367.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.
(5) الرّاغب، مُفردات القرآن: (علق).

النُّطْفَةِ دَمًا أحْمَرَ عَبيطًا شَديدَ الحُمْرَةِ والغِلْظَةِ[1]، يكونُ منه منشأُ الإنسانِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهُ منذ النشأةِ الأولى بحاجةٍ إلى ما يتعلَّقُ به، وأنّه مُتعلِّقٌ بأسباب الحياة، وهو ما يُناسب المذكور في السّورة من تعلُّقه بالعاجلة وإيثارها على الآخرة، وأنّه لم يُعمل عقلَه في ترك التَّعلُّق بالحياة الدنيا؛ بل بقي قائمًا على شهوته مُتعلِّقًا بشُبهته.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

وما أمرُ الخَلْقِ إلّا كلمحِ البصرِ

دلَّتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ على الترتيبِ والتَّعقيبِ والسرعةِ، ففيها بيان أنَّ قدرة اللّه تعالى نافذة في العباد، سريعة الوقوع، فإذا تعلَّقتْ إرادتُه سبحانه بأمرٍ فلا رادَّ لقضائه، وكذلك أمر البعثِ والقيامةِ، فمهما تطاولتِ الآمادُ فلا محيصَ من النشأةِ الأخرى، للحسابِ والعقابِ، فإنَّ ذلك من تمامِ حكمتِه تعالى.

نُكتةُ إضمارِ الفاعلِ وحذفِ المفعولِ:

أُضمر ذِكْرُ فاعل (خلق) و(سوى)، وحُذف المفعولُ للعِلْم بهما، وهو مناسبٌ لحذفِ فاعلِ التَّرك، وكل ذلك مناسبٌ لجوِّ العَجَلَة في السّورة[2].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الخلقُ والتَّسويةُ في وقتٍ واحدٍ شديدِ التّقاربِ

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ للدّلالةِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ والسُّرعةِ، ففيها بيانٌ لطلاقةِ القدرةِ الإلهيّةِ على تسويةِ أعضاءِ الإنسانِ على خيرِ وجهٍ يستفيدُ منه. ففيه إيذانٌ بسرعةِ خلقِ اللّه وتكوينه للأجنَّةِ في الأرحام استجابةً لأمره التّكوينيِّ واطّرادًا لسُنَّته في الإيجادِ. وعطفُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ على (خَلَقَ) بالفاء دليلٌ على أنَّ التّسويةَ تكون مصاحبةً للخَلْقِ والتَّكوينِ؛ أيْ: خلقَه سويًّا مُعدّلاً في فورٍ واحدٍ[3].

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 117.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 235.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (سَوَّى):

امتنانُ الله على الإنسانِ بكمالِ أعضائِهِ

عطفَ القرآن المجيد الفعل (سَوَّى) على الفعلِ (خَلَقَ)؛ لأنَّ الخلقَ هو مطلقُ الإنشاءِ، وأمّا التسويةُ فتدلُّ على الاستقامةِ والاعتدالِ[1]، يُصانُ فيه الخلقُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ[2]. وهي تدلُّ كذلك على إكمالِ النقصِ وكمالِ النُّضجِ[3]. فسَوّاهُ تَسْوِيَةً، وعَدَّلَهُ تَعْديلًا، بجَعْلِ الرّوحِ فيه[4]، فالتَّسْوِيَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سَواءً؛ أيْ: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا؛ والمُرادُ هَهُنا بقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أيْ: فجَعَلَهُ جَسَدًا من عَظْمٍ ولَحْمٍ[5]، وسَوّى تلكَ الأعْضاءَ لأعمالِها وعدلها[6]. ففيها تذكيرٌ للمُكذِّبِ العاصي بما أنعم اللّه عليه من كمالِ الأعضاء وتمامها، فلا ينبغي له بعدَ ذلك أنْ يتبجَّحَ ويُنكرَ البعثَ.

نوعُ الفاءِ في ﴿فَجَعَلَ﴾ ودلالتُها:

تحديدُ جنسِ الإنسانِ يكونُ في مراحلِهِ الأولى

العطفُ بالفاءِ في ﴿فَجَعَلَ﴾ سَمَةٌ من سماتِ الإعجاز العلميِّ في القرآن العظيم؛ لأنَّ الطِّبَّ الحديث اكتشفَ أنَّ كونَ المقذوفَ في الرَّحم ذكرًا أو أنثَى يبدأُ من اللحظةِ الأولَى للقاءِ الزوجيْن. وقد أشار النَّظْم إلى هذه الحقيقةِ العلميَّةِ بعطفِ جعلِ التنويع - ذكورًا وإناثًا - بالفاء التي تفيد الفوريَّة والتَّرتيب[7].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ دونَ الخَلقِ:

الجعلُ إعطاءُ الصِّفةِ الوظيفيَّةِ لكلٍّ من الذَّكرِ والأُنثى

عطفَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الجَعلِ على فعلَيِ الخلقِ والتسويةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، وذلك لأنَّ الخَلقَ هو إيجادُ المخلوقِ على الصورةِ التي أرادَها اللّه سبحانه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (سوا).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 117.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 371.
(7) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.

له، أمّا الجعلُ، فهو إعطاءُ المخلوقِ الصِّفةِ الوظيفيّة التي يقوم بها، فالخلقُ إبداعٌ، والجعلُ تسخيرٌ وتسييرٌ لهذا المخلوقِ المبدَع. وهذا يعني أن خلقَ المرأةِ والرَّجلِ يجري على نسقٍ واحدٍ، ويقعُ على صورةٍ واحدةٍ، حتَّى إذا اكتملَ خلقُ الإنسانِ، انقسمَ إلى مخلوقيْنِ؛ أحدُهما: ذَكَرٌ، والآخرُ: أُنثى[1].

نوع (مِنْ):

(مِنْ) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بيانيَّةٌ؛ أيْ: لبيانِ أصل الزوجيْنِ، وتحتمل أن تكون لابتداءِ الغايةِ[2].

نُكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ:

قدَّمَ القرآن المجيد شِبْهَ الجملةِ ﴿مِنْهُ﴾ في قولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للاهتمام بتوجيه الأنظار في إلى أصل الزَّوجيْنِ، فمِن هذا المَنِيِّ تكونَ نشأة الجنسيْنِ.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه العلميّةُ:

سبقُ القرآنِ لتحديدِ المسؤولِ عن جنسِ المولودِ

والهاء في ﴿مِنْهُ﴾ تعود على المَنيّ، فمِن ماءِ الرجلِ يكونُ الذَّكرُ والأنثَى، وليس للأنثَى فيه دخلٌ، ولم يكن هذا الأمرُ معلومًا حتى العصر الحديث، فقد ثبتَ أنَّ الذَّكرَ هو المسؤولُ عن الجنسِ وليس الأنثَى. وقد ذكرَه القرآنُ الكريمُ قبل اكتشافِ قوانينِ الوراثةِ وعلم الأجنّةِ، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ فأعادَ الضَّميرَ على المَنيّ، ولو أعادَه على العَلَقةِ لقالَ: (مِنها). ولم يُعِدْهُ على النُّطفةِ مع أنّها هي القطرةِ من المَنيِّ، لئلّا يحتملُ إعادته على العلقةِ[3]، وأشارَ غير واحدٍ من المُفسِّرينَ إلى احتمالِ عودِ الضَّمير على

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1347.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.
(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 236.

الإنسانِ، والمعنى: فجعل من هذا الإنسانِ بعدما سوّاه بشرًا أولادًا، ذكورًا وإناثًا[1].

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾:

عمومُ جنسِ البشرِ من مَنيِّ الرَّجلِ

جاءتْ ألفاظُ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ معرَّفَةً باللّام، واللّامُ فيها جميعًا لجنسِ الإنسانِ؛ فالمُرادُ بـ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ القرينان اللَّذان لا يمكنُ الانتفاعُ بأحدهما إلّا بالآخرِ، ثم بيَّنَهُما بقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وهما متباينان في الطّباع مختلفان في أوصاف الأعضاء والآلات والمتاع، فإنَّ تمييزَ ما يصلحُ للذَّكرِ وما يصلحُ منه للأُنثى أشدُّ وأخفَى من تمييزِ ترابِ الميِّتِ من ترابِ الأرضِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الزَّوجيَّةِ:

كلُّ واحدٍ من الزَّوجيْنَ يُكملُ نقصَ الآخرِ وحاجتَه

عبَّرَ القرآن المجيد بلفظِ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ عن الذَّكَرِ والأُنثى، وسَمَّى كلًّا منهما زوجًا، إمّا بمعنى: نوعٍ أو صنفٍ، وإمّا بمعنى احتياجِ كلٍّ منهما للآخرِ ليُكمِّلَ أحدُهما نقصَ الآخرِ وحاجتَه[3]، فالذي قدر على هذا الخلق لا يُعجزه إعادةُ خلقِ كلٍّ واحدٍ منهما[4].

نُكتةُ تقديمِ الذَّكَرِ على الأُنْثَى:

الذَّكرُ أسبقُ في الوجودِ من الأُنثى

جاءَ تقديمُ الذَّكرِ على الأُنثى في قولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في الذكرِ والأنثى هو ماءُ الرجلِ، فقُدِّمَ الأصلُ على الفرعِ، ولأنَّهُ أسبقُ في الخلقِ، والأنثى مخلوقةٌ منه، كما في قولِه: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 189].

بَلاغةُ طباقِ الإيجابِ:

القادرُ على تنويعِ الخلقِ أوَّلًا، قادرٌ على إعادتِهِ ثانيًا

جاءَ طباقُ الإيجاب بين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، لما بينهما من شبه

---

(1) مَكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7898.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 118.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.

التَّضادِ، عليه قامت دلالة المقامِ أصلاً، وليس هي حليةُ لفظٍ ولا حليةُ معنًى، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القادرَ على تنويعِ الخَلْقِ في حالِ النَّشأةِ الأولى قادرٌ على إعادةِ الخَلقِ كما هو، بل هو أهونُ عليه، كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الرّوم: 27].

موقعُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

الإحياءُ والبعثُ بعدَ الموتِ أقربُ من الإحياءِ من العَدَمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واقع موقعَ النتيجةِ من الدليلِ؛ لأن خلقَ جسمِ الإنسانِ من عدمٍ، وهو أمرٌ ثابتٌ بضرورةِ المشاهدةِ، أحقُّ بالاستبعادِ من إعادةِ الحياةِ إلى الجسمِ بعد الموتِ، سواءٌ بقيَ الجسمُ غيرَ ناقصٍ أو نَقُصَ بعضُه أو معظمُه فهو إلى بثِّ الحياةِ فيهِ وإعادةِ ما فني من أجزائِه أقربُ من إيجادِ الجسمِ من عدمٍ[1].

بَلاغةُ التَّذييلِ في الاستفهامِ:

تقريرُ قدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتى وبعثِهم للحسابِ والعقابِ

جاءَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استفهامًا تقريريًّا؛ لأنَّ هذه السورةَ قد اُفتُتِحتْ بإنكارِ أن يحسبَ المشركونَ استحالةَ البعثِ، ثمَّ تسلسل الكلامُ في ذلكَ بإثباتِ قدرةِ اللّهِ على البعثِ والتهديدِ، ومرورًا بالوعيدِ لِمَن يستبعدُ ذلكَ اليومَ ويستهزئُ به، فضلًا عن بيانِ ما يترتَّب على الإيمانِ والكُفرِ من النَّعيمِ والجحيمِ، والاستدلالُ بقدرة اللّهِ على إنشاءِ الإنسانِ من نُطفةٍ حقيرةٍ على قدرتهِ ﷻ على البعثِ والإحياءِ مرَّةً أخرى؛ لأنَّ القادر على البدءِ قادرٌ على الإعادة. فجاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تذييلًا لكلِّ ما سبقَ؛ لأنَّها مُؤكّدةٌ لمضمونِ ما تقدَّم من الاستدلالِ على البعثِ والقدرةِ على ذلك من اللّهِ العَليِّ القديرِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.

(2) فرغلي، من أسرار البلاغة في سورة القيامة، ص: 714.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستفهامِ:

ثـقـةُ المُـتـكـلِّـمِ بـأنَّ المخاطَبَ لا يستطيعُ الإنكارَ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إنكارٌ للمَنْفيِّ إنكارُ تقريرٍ بالإثباتِ؛ وهذا غالب استعمال الاستفهام التّقريريّ أن يقع على نفي ما يُراد إثباتُه ليكون ذلك كالتّوسعة على المُقرَّر إنْ أراد إنكارًا كنايةً عن ثقة المُتكلِّم بأنَّ المُخاطَب لا يستطيعُ الإنكار[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البَعيدِ:

الإشــــارةُ إلى عَـظَـمَـةِ الـلـه سبحانه وجلالِه عــن تـشـكـيـكِ المُكَذِّبينَ

عبَّرَ القرآن المجيد باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عن الخالقِ تعالى، وأتى باسم الإشارةِ للبعيدِ للدلالةِ على عُلوِّه وسُموِّه وعَظَمَته تعالى، والمُرادُ: أليسَ ذلكَ العظيمُ الشَّأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع[2]، فخَلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ من ماءٍ مَهينٍ[3] بقادرٍ على إحياءِ الموتى وبعثهم للحسابِ والعقابِ كما تقتضيه عظمتُه وحكمتُه؟.

فائدةُ الباءِ في جوابِ (لَيْسَ):

توكيدُ قدرةِ الله على إحياءِ الموتى دفـعًـا لـشُـبَـهِ المُكَذِّبينَ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ حرفَ توكيدٍ، إذْ إنَّ الباء تدخلُ على أخبار (ليس) و(ما) و(لا) و(كان) المنفيةِ، لتأكيد النفيِ، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ [البقرة: 8]. فالباءُ تُستعملُ لتأكيدِ النَّفيِ، كما تُستعملُ اللّامُ في تأكيد الأثباتِ[4]. فالمُرادُ بها هَهُنا توكيدُ قدرةِ اللّه سبحانه على إحياءِ الموتى، وليست قدرتُه تعالى في موضعِ شكٍّ فتحتاجُ إلى توكيدٍ، ولكنَّ عقولَ المُكذِّبينَ المُشكِّكينَ هي التي تحتاجُ إلى توكيدٍ لما رانَ عليها من الضَّلالِ والزَّيغِ، فهذه هي القضية التي نصبت لها تلك الأدلة[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 466.
(4) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 260.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1347.

نُكتةُ تنكيرِ (قادِرٍ):

التّنكيرُ للتّعظيمِ والتّفخيمِ

جاء لفظ (قادر) نكرةً في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ للتعظيمِ والتّفخيم؛ إذ المعنى: أليس هذا الخالِقُ عظيمُ القُدرةِ المُسَوّي هو الإلَهُ الأَعظَمُ الذي قدرَ عَلى هذه الإنشاءاتِ وصنعَ هذهِ الصَّنائعَ المُتقَنَةَ التي لا يقدِرُ غيرهُ على شَيۡءٍ مِنها[1]. فدلَّ ذلك على طلاقةِ القُدرةِ والعَظَمةِ.

المقارنةُ بين التقريرِ في نهايةِ السّورةِ والإثباتِ في صدرِها:

إحياءُ الموتى أصعبُ وأعسرُ من تسويةِ البَنانِ في القياسِ العقليِّ

جاءَ إثباتُ القدرةِ هَهُنا بأسلوبِ الاستفهامِ التَّقريريِّ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ على سبيل التَّقريرِ، بينما جاءَ في أوائل السّورة على سبيل الإثبات في قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، وذلك لأنَّ إحياءَ الموتى أصعبُ وأعسرُ من تسويةِ البنانِ في القياس العقليِّ، وإن كانت الأفعال بالنِّسبة إلى اللّه كلها سواء، فجاء في آية إحياء الموتى بأسلوب التقرير الاستفهاميِّ الدّالِّ على الأهميّة، وأكَّد القدرة بالباء فقال: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ في حين جاء بالإثبات في تسوية البنان، فقال: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، ثم إنه حذف الفعلَ وصاحبَ الحالِ، وجاء بالحالِ وحدها، فقال: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ ولم يَقُلۡ: (نجمعها قادرين على أنۡ نسوي بنانه) فأخلاها من التّوكيد، في حين ذكر الجملة تامة هَهُنا، مؤكدة بالباء والتّنكيرِ عند الحديثِ عن إحياء الموتى، فدلَّ ذلك على الفرق بين المقامَيۡن[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

عدَّى القرآن المجيد لفظ (قادر) بحرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الذي يُفيدُ الاستعلاءَ[3]؛ فجاءَ استعمالُه على أصلِ معناه؛ لبيانِ تمامِ القدرةِ؛ فهو سبحانه قادرٌ على إحياءِ الموتى وبعثهم.

---

(1) البقاعيُّ، نَظۡمُ الدُّرر: 21/ 118.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 236.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدَرِ المُؤَوّلِ:

استعملَ القرآن المجيد المصدرَ المؤولَ ﴿أَن﴾ والفعلَ المضارعَ في قولِه: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لما فيه من الدلالةِ على الزمنِ فضلًا عن الدلالةِ على الحدثِ، لما في ذلكَ من الدلالةِ على تجدُّدِ الإحياءِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، إذ لا تخلو لمحةٌ من لمحاتِ الدَّهرِ من قدرتهِ سبحانه على الإحياءِ في الدنيا والآخرةِ. وتأكيد الكلام بحرف ﴿أَن﴾ لردِّ إنكارِهم أنْ يمكن إحياءُ اللهِ الموتى؛ لأنَّهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عمومَ قدرته تعالى على الإحياءِ. ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف (قادرٍ)[1].

لا تخلو لمحةٌ من لمحاتِ الدَّهرِ من قُدرتهِ سبحانه على الإحياءِ في الدنيا والآخرة

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

جاءتِ اللّامُ في لفظةِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في قوله: ﴿يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لإفادةَ العمومِ، بعد جريانِ أسلوبُ الكلامِ على خصوصِ الإنسانِ الكافرِ أو خصوصِ كافرٍ مُعيَّنٍ[2].

بَلاغةُ الطِّباقِ بينِ الإحياءِ والإماتَةِ:

جاءَ الطِّباقُ بين الإحياءِ والإماتَةِ في قولِه تعالى: ﴿يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لما بينهما من التَّضادِّ، ففيه لفتٌ لأنظارِ المُكذِّبينَ خاصَّةً إلى ما بينهما من شدَّةِ المفارقةِ، ومع ذلك فإنَّه سبحانه قادرٌ على الإحياءِ كما هو قادرٌ على الإماتةِ في الوقتِ نفسه، فلا يعجزهُ شيءٌ في السماواتِ ولا في الأرضِ؛ فدلَّ ذلك على قدرته على البعثِ يومَ القيامةِ.

شدَّةُ المُفارقةِ بين الإحياءِ والإماتةِ لفتٌ لأنظارِ المُكذِّبينَ خاصَّةً

بَلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ في آخرِ السّورَةِ الكريمةِ:

رجع آخرُ السورةِ على أوّلها أتمَّ رجوعٍ، والتأم به أتمَّ التئامٍ، فتمت معانيها أعظم تمام بجمعِ العظامِ وإيجادِ القيامِ ليومِ التَّغابُنِ والزِّحامِ[3]، فجاء في هذا الختامُ بمحسِّنِ ردِّ العجزِ على الصَّدرِ،

مناسبةُ ردِّ القدرةِ على الإحياءِ في نهايةِ السّورةِ على إنكارِه في مطلعِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 26/ 65.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 369.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 118.

فإنَّ السورةَ اُفتُتِحتْ بإنكارِ أن يحسبَ المشركونَ استحالةَ البعثِ، وتسلسلَ الكلامُ في ذلك بأفانينَ من الإثباتِ والتَّهديدِ والتَّشريطِ والاستدلالِ، إلى أن أفضَى إلى استنتاجِ أنَّ اللّٰه قادرٌ على أن يُحييَ الموتَى، وهو المطلوبُ.

سُورَةُ الإِنسَانِ

سُورَةُ الإِنْسَانِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعدد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة[1]، والقرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3]، قولَ بعض المفسّرين بأنّها مكّيّة كلّها، ونَقلوا عن مجاهد وقتادة أنّها مدنيّة، وعن الحسن وعكرمة: أنّها مدنيّة سوى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾، ولم يجزموا برأيٍ معيّنٍ في المسألة، وفي المقابل رجّح ابن عاشور مكّيّتها بقوله: "والأصحّ أنّها مكّيّة، فإنّ أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السّور المكّيّة، ولا أحسب الباعث على عدّها في المدنيّ إلّا ما روي من أن آية ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ نزلت في إطعام عليّ بن أبي طالب بالمدينة مسكينًا ليلة، ويتيمًا أخرى، وأسيرًا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكّة حملًا للفظ أسير على معنى أسير الحرب"[4].

ويقول دروزة: "إنّ الطّابع المكّيّ قويّ البروز عليها. ومعظم المفسّرين يروون مكّيّتها. ولقد ذُكر في عدد من تراتيب النّزول المرويّة أنّها نزلت بعد سورة الرّحمن، ولعلّ في ذلك قرينة على مكّيّتها أيضًا، وفي بعض آياتها قرائن بل دلائل قويّة على مكّيّتها كذلك"[5].

وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "هي إحْدَى وثَلاثونَ آيَة في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختِلاف"[6].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

هذه السّورة هي السّادسة والسّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ القيامة والمرسلات،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 408.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 118.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 29/ 370.
(5) دروزة، التفسير الحديث: 6/ 105.
(6) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 260.

جاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتيّ القيامة والمرسلات

وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فقد اختلفوا فيه، فقيل إنّها السّورة التّسعون نزولًا، نزلت بين سورتيّ الرّحمن والزّلزلة[1]، وقيل عند من يرى مدنيّتها إنّ ترتيبها الثّانية عشرة بين السّور المدنيّة والمائة والثّالثة في المصحف كلّه، نزلت بعد الرّحمن، وقبل الطلاق[2]، وقيل: هي الثّلاثون أو الواحدة والثّلاثون عند من يرى أنّها مكّيّة قبل سورة القيامة[3].

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمة من طوال المفصّل الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[4].

وورد في الصّحيحَيْن عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه قال: "كان النَّبيُّ ﷺ يَقْرَأُ في الجُمُعَةِ، في صَلاة الفَجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾. السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾"[5].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ الإنسان اشتهرت بهذا الاسم وباسم ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾

وردت تسميتها بسورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ في صحيح البخاري[6] وفي صحيح مسلم[7] وتسمّى في المصاحف المشرقيّة والمغربيّة، وفي جميع التفاسير سورة (الإنسان)، وذكر ابن عاشور بعض الأسماء الأخرى لها وإن لم يثبت فيها رواية صحيحة وهي: (الأمشاج)، و(الدهر) و(الأبرار)؛ لورود هذه الألفاظ فيها[8].

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 6/ 105.
(2) عبد القادر بن ملّا حويش، بيان المعاني: 6/ 67.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 370.
(4) أخرجه أحمد في المُسند: (16982)، والطبرانيّ في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان: (2415) 352.
(5) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (891)، مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (879)، و(880).
(6) البخاري، صحيح البخاري: 1/ 303.
(7) مسلم، صحيح مسلم: 3/ 16.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 369.

والحقّ أنّ اسمها ارتبط بمحورها ارتباطًا مباشرًا، وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمائها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: ترهيب الإنسان من الكفران، بما دلّ عليه آخر القيامة من العرض على الملك الديّان لتعذيب العاصي في النّيران، وتنعيم المطيع في الجنان، بعد جمع الخلائق كلّها الإنس والملائك والجانّ، وغير ذلك من الحيوان، ويكون لهم مواقف طوال، وزلازل وأهوال لِكُلٍّ منها أعظم شأن، وأدلّ ما فيها على ذلك: الإنسان، بتأمّل آيته، وتدبّر مبدأه وغايته، وكذا تسميتها بـ ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾، و﴿ٱلدَّهۡرِ﴾، و(الأمشاج)، من غير ميل ولا اعوجاج "[1].

المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على بيان حقيقة الإنسان والغاية من خلقه ومصيره في الآخرة

إذا كانت سورة القيامة قد قام محورها على تأكيد حقيقة البعث والحساب بعد الموت، فإنّ هذه السّورة إنّما جاءت مكمّلة لها، ومقرّرة لما فيها؛ لأنّها تناولت الإنسان مبيّنة أصل وجوده ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، ومادّة خلقه ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: 2]، والغاية من خلقه ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ [الإنسان: 2]، وإعطاءه المشيئة في الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]، ثمّ التّفصيل في جزاء كلّ فريقٍ يوم القيامة لا سيّما فريق الأبرار.

ثمّ اقتضاها هذا المحور أن تُختتم بوصايا دعويّة وروحيّة للنّبيّ ﷺ في التّعامل مع قومه ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: 23 - 26].

وتوعدت السّورة الظّالمين المتكبّين لدعوته بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

---

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 144 - 145.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: 29 - 31].

موضوعات السّورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورة يـدور حـول بيان حقيقة الإنسان وابتلائه وجزائه

هذه السّورة عنيت بالحديث عن أحوال الآخرة، ولا سيّما تنعّم الأبرار في دار الخلد والنّعيم، وقد افتتحت بالكلام عن مبدأ خلق الإنسان، وتزويده بطاقات السّمع والبصر، وهدايته السّبيل، ثمّ انقسامه إلى فئتين: شاكر وكفور، والإخبار عن جزاء الشّاكرين والجاحدين ووصف الجنّة والنّار. وقد أشارت إلى الموضوعات الآتية:

أوّلاً: أشادت السورة بأعمال الشّاكرين من الوفاء بالنّذر، وإطعام الطعام لوجه الله، والخوف من عذاب الله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ﴾. [الآيات: 7 - 11]، وأردفت ذلك بوصف ما لهم عند ربّهم من الجنان والثّواب والفضل والإكرام: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الآيات: 12 - 22].

ثانيًا: أبانت السورة عن مصدر تنزيل القرآن، وأمر النّبيّ ﷺ بالصّبر الجميل، وذكر الله، وقيام الليل: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾. [الآيات: 23 - 26].

ثالثًا: نوّهت السورة بشيء تضمّنته السّورة السّابقة وهو حبّ الدّنيا العاجلة وترك الآخرة، وتهديدهم بتبديل أمثالهم إن داموا على الكفر والعناد وإمعان الأذى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾. [الآيات: 27 - 28].

رابعًا: ختمت السّورة الكريمة بإعلان أنّ القرآن تذكرة وعظة لجميع البشر وندبهم إلى الإيمان والعمل بما جاء فيه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾. [الآيات: 29 - 31](1).

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 280.

تميّزت سورة الإنسان بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، حيث لم يشاركها في مطلعها سوى سورة الغاشية التي ابتدأت بقوله ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1] وشاركت الغاشيةُ هذه السّورةَ في عرض مشاهد المعذّبين والمنعّمين في ذلك اليوم العظيم، وشاركتها في وصايا النّبيّ ﷺ في آخرها، ففي الغاشية ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: 21 - 26] وهنا قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: 29 - 31].

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها كرّرت بعض الكلمات مرّتين، مثل لفظة الإطعام[1]، وكلمةالسّقيا[2]، وكذلك فعل الشّرب[3]، ولفظ الخوف[4]، ولفظة القوارير[5]، والفضّة[6]، وفعل الطّواف[7]، والكأس[8]، والمزاج[9]، ولفظة الإنسان[10].

ثالثًا: تعانق مطلع السّورة الكريمة مع خاتمتها، فقد استهلّت بالحديث عن أصل الإنسان وأنّه خُلق من العدم، وتحدّثت في الآية الأخيرة منها عن مصيره بعد الموت.

---

(1) الآيتان: 8، 9.
(2) الآيتان: 17، 21.
(3) الآيتان: 5، 6.
(4) الآيتان: 7، 10.
(5) الآيتان: 15، 16.
(6) الآيتان: 15، 16.
(7) الآيتان: 15، 19.
(8) الآيتان: 5، 17.
(9) الآيتان: 5، 17.
(10) الآيتان: 1، 2.

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

أوّلًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الطّباق، حيث وردت بين الشّكر والكفر، وبين الأبرار والكفّار، والشّمس والزّمهرير، والإطعام والسّقيا، والبكرة والأصيل، والعاجلة واليوم الثّقيل.

انفردت سورة الإنسان بأساليب ميزتها عن غيرها من السور

ثانيًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الجناس الاشتقاقيّ مثل: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ ﴿نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ ﴿بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

ثالثًا: برز في السّورة كثرة ذكر البناء الصّرفيّ (فعليل) مثل: ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ ﴿زَمۡهَرِيرٗا﴾ وقد جاء في موضع الوعد والعقاب، و﴿زَنجَبِيلًا﴾ ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ وقد جاء في موضع الإنعام والإكرام، وبرز كذلك البناء الصّرفيّ (تفعيل) مثل: ﴿تَفۡجِيرٗا﴾ ﴿تَذۡلِيلٗا﴾ ﴿تَقۡدِيرٗا﴾ ﴿تَنزِيلٗا﴾،﴿تَبۡدِيلًا﴾.

رابعًا: برز في السّورة الكريمة بعض الألفاظ التي قالوا إنّها معرّبة وهي: ﴿كَافُورًا﴾، ﴿زَنجَبِيلًا﴾، ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾.

خامسًا: برز في السّورة الكريمة قاموسٌ لفظيٌّ يتعلّق بإكرام الأبرار في الجنّة، وهو متعلّقٌ بالطّعام والشّراب والزّينة والتّنعيم مثل: الطّعام والشّراب والسّقيا والظّلال والاتّكاء والتّحلية، والكأس والأكواب والأرائك، والأساور والفضّة واللّؤلؤ والقوارير، والثّياب والسّندس والإستبرق والحرير، والنّضرة والسّرور، والزّنجبيل والسّلسبيل والقطوف وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنية صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾ ﴿مِزَاجُهَا﴾ ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ ﴿عَبُوسٗا﴾ ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ ﴿وَذُلِّلَتۡ﴾ ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ ﴿أَسۡرَهُمۡۖ﴾ وغيرها.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ وهي: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ ﴿كَافُورًا﴾ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿زَنجَبِيلًا﴾.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الإنسان متّصلة تمامًا بسورة القيامة مضمونًا وأسلوبًا

ذكرت سورة القيامة حقيقة الإنسان وبعض أحواله، فجاءت هذه السّورة الكريمة لتؤكّد حقيقة خلق الإنسان من عدم محض، ثمّ من نطفة مختلطة ببويضة، ثمّ بيان قدرته على الاختيارً بين الخير والشّرّ، ثمّ مآل كلّ فريقٍ من الفريقين: المؤمنين بالبعث، والمنكرين له، مفصّلة بحال الأبرار الذين أحسنوا الاختيار[1].

تتعلق السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

أوّلاً: ذكر الله تعالى في آخر السورة السابقة مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم جعل منه الصنفين: الرجل والمرأة، ثم ذكر في مطلع هذه السورة خلق آدم أبي البشر، وجعله سميعًا بصيرًا، ثم هدايته السبيل، وما ترتب عليه من انقسام البشر إلى نوعين: شاكر وكفور.

ثانيًا: أجمل في السورة المتقدمة وصف حال الجنة والنار، ثم فصل أوصافهما في هذه السورة، وأطنب في وصف الجنة.

ثالثًا: ذكر سبحانه في السورة السابقة الأهوال التي يلقاها الفجار في يوم القيامة، وذكر في هذه السورة ما يلقاه الأبرار من النعيم[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 353.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 279.

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 1 - 3]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في القيامة توبيخ لوهم الإهمال، وفي الإنسان تقرير لمبدأ الكمال

لمّا خُتمت سورة القيامة بسؤال إنكاريٍّ يوبّخ الإنسان على ظنَّه أنه سَيُترك هملًا لا يُؤمر ولا يُنهى؛ جاء مطلع سورة الإنسان ردًّا عمليًّا عن هذا الظَّنِّ الفاسد؛ فابتدأت بتذكير الإنسان بأصله الحقير، ومبدئه الضئيل، وتقرير خلقه على عِلم، وتسويته على قصد، وتكريمه بالسَّمع والبصر، ثمَّ ابتلائه ليُجازى، فجاءت آياتها تثبيتًا لحقيقة أنَّ الإنسان لم يُخلق عبثًا، بل لحكمة وابتلاء، وهداية وجزاء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِينٞ﴾: أصل (حين) يدلُّ على الزَّمان[2]. الحين: الوقتُ مِن الزَّمان[3]، ووقتُ بلوغ الشَّيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصَّص بالمضاف إليه[4] ويُجمع على الأحيان[5] ىوالحَين عُبِّر به عن الموت والهلاك، يقال حان الرَّجل يحين حَيْنا؛ أي: هلك. وأحانه اللّه[6]. وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾؛ قيل: معناه ساعة، وقيل: أربعون سنة[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 741، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 124، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 159.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).

(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (حين).

(4) الرّاغب، المفردات: (حين).

(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حين).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (حين).

(7) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (حين).

2) ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾: أصل (دهر) يدلُّ على الغلبة والقهر[1]. الدَّهْر: الزَّمان، ويجمع على دهور[2]. والدَّهْر في الأصل: اسم لمدَّة العالَم مِن مبدأ وجوده إلى انقضائه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾. ويعبَّر بالدَّهر عن كلِّ مدَّة كثيرة، وهو خلاف الزَّمان؛ فإنَّ الزَّمان يقع على المدَّة القليلة والكثيرة[3]. ودَهْرُ الإنسان: مدَّة حياته[4]. ويقال: الدَّهر: الأبد المحدود[5].

3) ﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أصل (مشج) يدلُّ على الخلط[6]. مشجتُ بينهما مَشجًا: خلطْتُ، والشَّيء مشيج، والجمع أمشاج، والأمشاج؛ أي: أخلاط مِن ماء الرَّجل، وماء المرأة، والدَّم، والعَلَقة، وذلك عبارة عمّا جعله اللّه تعالى بالنُّطفة مِن القوى المختلفة[7] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾؛ أي: أخلاط؛ لأنَّه خُلِقَ من ماء الرَّجل والمرأة جميعًا[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قـدرة اللـه على خـلـق وهـدايـة الإنـســـان تستوجب الشُّكْرَ الدّائم والامتنان

افتُتِحَت الآية الأولى من هذه السّورة الكريمة بأسلوب الاستفهام المفيد للتَّقرير الموجَّه لعموم بني آدم؛ للإخبار بحقيقة أصل الإنسان وهو آدم عليه السلام الذي مضى عليه وقت طويل من الزَّمن قبل أن تُنفَخَ فيه الرّوحُ لم يكن شيئًا يُذكر أو يُعرف له أثر، وجاءت الآيةُ الثّانيةُ لبيان مظهر من مظاهر قدرة اللّه الَّتي تتجلَّى في خلق ولدِ آدَمَ من ماءٍ قليلٍ مختلطٍ بعضُه ببعضٍ، وهو ماءُ الرَّجِل والمرأة، وفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دهر).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح: (دهر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (دهر).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (دهر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (دهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مشج).
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (مشج).
(8) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (مشج).

جعله أيضًا ذا سمع وبصر ليكون مؤهلًا للتَّكاليف الشَّرعية فيما بعد؛ فيسمعَ الآيات البيِّنات ويبصرَ الدَّلائل الواضحات للتَّعرُّف على خالق الأرض والسَّماوات، ثم بيَّن له سبحانه طريق الهداية والغواية؛ ليكون هذا الإنسان إمّا مؤمنًا سعيدًا، وإمّا كافرًا شقيًّا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة استهلال السّورة بأسلوب الاستفهام، وبيان نوعه وغرضه:

استفهام تقريريٌّ؛ لإيقاظ الأفهام، وقمع ما يعتريها مِن أوهام

﴿هَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ للتقرير بمعنى (قد)[2]، والمعنى: قد أتى على الإنسان. سدَّت ﴿هَلۡ﴾ مسدَّ الهمزة ودلَّت على معناها ومعنى الهمزة معًا، ثمَّ صارت حقيقةً في ذلك، فهي للتَّقرير والتَّقريب؛ أي: تقريب الماضي مِن الحال؛ أي: أقَدْ أتى على الإنسان قبل زمانٍ قريبٍ حينٌ مِن الدَّهر لم يكن كذا؟ فإنَّه يكون الجواب: نعم. أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور[3] وجملة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ تمهيدٌ وتوطئة للجملة التي بعدها وهي ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾[4].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿أَتَىٰ﴾ مادة وصيغة:

التَّعبير بالإتيان للتَّذكير بما كان؛ والتَّنبيه إلى عظيم الامتنان

يفيد التَّعبير بالماضي الدَّلالةَ على التَّحقق، وذلك مِن حيث الدَّلالة على شيء قد مضى وانقضى، وفي ذلك نوع توكيد، وهو يزيد مِن معنى التَّقرير الذي في ﴿هَلۡ﴾.

أمّا عن سرِّ التَّعبير بالإتيان دون المجيء فإنَّ الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أتيٌّ وأتاويٌّ[5] والمجيء كالإتيان، لكنَّ

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 289 - 292، ومجمع الملك فهد، التَّفسير الميسَّر، ص: 1/ 578.
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 5/ 189، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 739، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 118.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (أتى).

المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]؛ أي: قصدوا الكلام وتعمَّدوه، فاستُعمل فيه المجيء كما استُعمِل فيه القصد[1] فممّا سبق يتبيَّن أن المجيء فيه معنى القصد، والحصول، والظُّهور، وفيه كذلك معنى الانحدار إلى حيِّز أو تجوُّف سفليٍّ مهيَّأ جامع؛ كالماء في الهبطة والحُفرة[2].

وقد أوثر التَّعبير بـ﴿أَتَىٰ﴾ دون (جاء) في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ لما في التَّعبير بالإتيان مِن الدَّلالة على المجيء بسهولة، وهو مناسب للحين الذي أتى على الإنسان في الزَّمن البعيد لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورًا.

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتها:

الأصل في معنى ﴿عَلَى﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي مِن العُلوِّ[3]. وهي في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ للاستعلاء المجازيّ؛ فكأنَّ الزَّمن مرَّ مستعليًا على الإنسان، وسجَّل عليه، ممّا يُظهر الإنسان وكأنَّه كان في قبضة الزَّمن مطويًّا منسيًّا.

لولا امتنان الرَّحمن لدام استعلاء الزَّمان، ولبقي الإنسان طيَّ النِّسيان

معنى اللّام ودلالتها في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾:

يجوز أن تكون اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ للجنس المفيد للاستغراق[4] أي: إذا تأمَّل كلُّ إنسان في نفسه علِم أنَّه قد مرَّ حينٌ

كان كلُّ إنسان عدَمًا، فوضع الله له في الدُّنيا قَدَمًا

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (جاء).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جاء).
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358، والمحلِّيّ والسُّيوطيُّ، تفسير الجلالين، ص: 781، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

مِن الدَّهر عظيمٌ لمْ يكن هو فيه شيئًا مذكورًا؛ أي: لم يكن موجودًا[1] ويجوز أن تكون اللّام للعهد، فيكون التَّعريف في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ مرادًا به معيَّنًا معهودًا، وهو آدمُ عليه السلام[2].

الغرض مِن تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل:

التقديم للاهتمام، وتحديد المنوط بالكلام

قُدّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ على الفاعل ﴿حِينٌ﴾؛ لإفادة الاهتمام بشأن المُقدَّم، والتَّشويق للمتأخّر، وليُنبني ما بعده ممّا سيرد في السّورة عليه، فالخطاب في السّورة قد خُصَّ به الإنسان على وجه التَّحديد، ومِن ثَمَّ سُمِّيت السّورة بـ(الإنسان).

الغرض مِن تنكير الفاعل ﴿حِينٌ﴾:

الحين مدَّة مطلقة مِن الزَّمان، مرَّت وليس في الكون إنسان

جاءت ﴿حِينٌ﴾ نكرةً؛ لقصد عدم التَّعيين؛ فالحين في اللُّغة يُطلَق على مدَّة مِن الزَّمان طالت أم قصرت[3]، والآية لم تحدِّد زمنًا معيَّنًا أو محدَّدًا؛ فالمقصود هو جزء مطلَق مِن أجزاء الزَّمان؛ ولذلك اختلف في تأويله المفسِّرون[4]. فالحين: هو طائفة مِن الزَّمان مبهمة الحدِّ في علمنا وإن كانت محدودة في نفسها[5]. وقد يكون التَّنكير؛ لإفادة التَّكثير[6]؛ أي: "قد مرَّ دهر طويل لا إنسان فيه"[7].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾:

قد مرَّ جزء مِن الزَّمان على الإنسان مرورا، لم يكن فيه شيئًا مذكورا

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[8]. وكونه للتَّبعيض في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ لا يُخرِجه عن معنى

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، والزُّحيليُّ، المنير: 29/ 279.
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 6 - 7، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، والصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 258.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 162.
(5) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 429.
(6) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(7) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 589.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.

الابتداء، حيث جعل الدَّهر - وهو الزَّمان الممتدُّ - مبتدَأ هذا الحين الذي صار بهذا المعنى جزءًا منه، فيفهم مِنه معنى التَّبعيض. وحاصل المعنى أنَّه قد: مرَّ على الإنسان "طائفةٌ محدودةٌ كائنةٌ مِن الزَّمان الممتدِّ لم يكن فيها شيئًا مذكورًا"[1].

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾:

التَّعريف للإعلام، واستغراق اللَّيالي والأيام

اللّام في قوله: ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾ هي لام استغراق الجنس؛ فهي تشير إلى الزَّمان الممتدِّ غير المحدود، الذي يشمل العصور كلَّها، ويقع على مدَّة العالَم جميعِها؛ فالتَّعريف للإعلام، واستغراق اللَّيالي والأيام[2].

موقع جملة ﴿لَمۡ يَكُن﴾ ممّا قبلها ودلالته:

أوجد الله الإنسان بعد عدم، وهداه وعلَّمه بالقلم

في موقع قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ ممّا قبله وجهان:

أحدهما: أن تكون الجملة نعتًا لـ﴿حِينٞ﴾ بتقديرِ ضمير رابطٍ بمحذوفٍ لدلالة لفظ ﴿حِينٞ﴾ على أنَّ العائد مجرور بحرف الظَّرفيَّة حُذِف مع جارِّه كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]؛ إذ التَّقدير: لا تجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئًا، فالتَّقدير هنا: لم يكن فيه الإنسانُ شيئًا مذكورًا؛ أي: كان معدومًا في زمنٍ سبَق، وسر تقييد ﴿حِينٞ﴾ بجملة النعت، أن الزمن نفسه لم يكن مخلوقا ولاموجودا، وهذا يعمق معنى تفاهة الإنسان الذي ينكر البعث والحساب.

والآخَر: أن تكون الجملة حالًا مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، وحُذِف العائدُ كحذفه في تقدير النَّعت. كأنَّه قيل: غير مذكور[3] وسر تقييد الإنسان بالجملة الحالية توبيخ الإنسان المنكر للبعث بتذكيره بتلك المرحلة التي لم يكن فيها شيئا.

(1) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 478.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 279.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358، والسّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 591، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

دلالة النَّفي بـ﴿لَمۡ﴾:

نفيٌ لما مضى، وتأكيد لما قدَّر الباري وقضى

أوثر النَّفي بـ﴿لَمۡ﴾ في ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾؛ للدَّلالة على انعدام تامٍّ في الزَّمن الماضي، فهو قبل الخلق لم يكن موجودًا، ولم يكن له قدرٌ أو شأن يُذكر، ثمَّ انقطع هذا العَدَم، وجعل اللّه سبحانه له وجودًا وذِكرًا؛ لعلَّة العبادة.

دلالة التَّعبير بالكون المنفيّ ﴿يَكُن﴾:

نفي الكينونة لتصوير العدم قبل نعمة الإيجاد؛ إظهارًا لفضل الله على العباد

جاء التَّعبير بالكون المنفيّ ﴿يَكُن﴾؛ لتحقيق النَّفي التّام في الزَّمن الماضي[1]؛ ليدلَّ على أنَّ الإنسان في ذلك الحين مِن الدَّهر ما وُجِد أصلًا، بل كان عدَمًا محضًا لا ذكر له، لا في الوجود الحسيّ، ولا في الذِّكر الاجتماعيّ أو التّاريخيّ، وهذا النَّفي التّام للوجود والذِّكر يمهّد لما بعده مِن الآيات التي تبرز تكريم اللّه للإنسان وخلقِه وتسويتِه وهدايته. وكأنَّ المعنى: تأمّل كيف كنت عدَمًا لا يُذكر، ثمَّ أصبحت مخلوقًا كريمًا مهديًّا. وهذا مِن أبلغ أساليب الامتنان والتَّذكير بالفضل الإلهيّ، ولو انصبَّ النَّفي على الفعل دون الكون فجاء (لم يُذكر) لربَّما توُهِّم منه أنَّ له وجودًا غير أنَّه لم يُذكر، أمّا نفي الكون فيعني العدم، وهذا أبلغ؛ فمِن ثمَّ أوثر بالذِّكر.

الغرض مِن تنكير خبر يكن ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

في النَّكرة تذكير بالنِّسيان، وتحقير لما مضى وكان

جاءت كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرةً في سياق النَّفي؛ وهي تفيد شيئَين:

أحدُهما: الإطلاق والعموم. والمعنى: قد أتى على جنس الإنسان زمنٌ كان فيه منسيًّا غير موجود أصلًا، فلم يكن آدم وبنوه شيئًا مطلقًا، معروفًا ولا مخلوقًا ولا مذكورًا لأحد مِن الخليقة المتقدِّمين عليه، وهم الملائكةُ والجنُّ. وهذا إخبار بكون الإنسان في بدء الخلق معدومًا غير مخلوق[2]. والآخَر: التَّحقير والتَّهوين. والمعنى: أنَّ

---

(1) فاضل السّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 1/ 226.

(2) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 279.

الإنسان لم يكن في بدايته شيئًا يُعتدُّ به أو يُلتفت إليه، فلم يكن له شأنٌ يُذكر، ولا وجود يُعتنى به، والمعنيان متعاضدان لا متناقضان، فيمكن الجمع بينهما بأن يقال: لم يكن الإنسان - قبل أن يُخلَق - شيئًا يُعتدُّ به، بل لم يكن شيئًا أصلًا.

سرُّ التَّقييد بالوصف ﴿مَّذۡكُورًا﴾:

مِـــن شُـبـــات الــعَــــدَم إلى مقامات الذِّكر والكرَم

قوله تعالى: ﴿مَّذۡكُورًا﴾ اسم مفعول مِن الفعل (ذُكِر)[1] وهذا تعميق لكونه كان عدما، "والمعدوم لا يُذكر؛ لأنَّه لا تعيُّن له، فلا يُذكَر إلّا بعنوانه العامّ"[2]. فالمعنى: قد مضت أزمنةٌ وما كان الإنسان شيئًا، ولا مخلوقًا، ولا مذكورًا لأحدٍ مِن الخليقة! أو: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، فيكون النَّفي متوجّهًا إلى القيد[3].

دلالة التَّعبير بالاستئناف ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾:

مِن نُطفَة مَذِرَة، خُلِق الإنسان ذو النُّطق والفكرة، فجلَّ اللـه ذو القُدرة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مترتِّب على التَّقرير الذي دلَّ عليه ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ لما فيه مِن التَّشويق، والتَّقريرُ يقتضي الإقرار بذلك لا محالة؛ لأنَّه معلوم بالضَّرورة؛ فالسّامع يتشوَّف لما يرد بعد هذا التَّقرير، فقيل له: إنَّ اللّه خلقه بعد أن كان معدومًا فأوجد نطفةً كانت معدومة ثمَّ استخرج منها إنسانًا، فثبت تعلُّق الخلق بالإنسان بعد عدمه[4].

الغرض مِن توكيد الأسلوب الخبري بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة:

توكيد الخلق لردّ إنكار المعرضين، ودفـــع أوهـــام المشكّكين

جاء الأسلوب الخبري في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ) وبالجملة الاسميَّة؛ وهذا لتنزيل المشركين منزلةَ مَن يُنكر أنَّ اللّه خلقَ الإنسانَ لعدم جريهم على موجب العِلم حيثُ عبدوا أصنامًا لم

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (ذكر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371.
(3) صدّيق خان، فتح البيان: 14/ 456، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 478.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

يخلقوهم[1] ويُمهِّد التَّوكيد كذلك لقضيَّة أنَّ الإنسان لم يُخلق عبثًا، بل خُلق للعبادة والابتلاء والاختبار.

الغرض مِن التَّعبير باسم إنَّ ضميرًا دالًّا على التَّعظيم، وتقديمه:

كُرِّر الإسناد لردِّ الإنكار، وحمل المعرض على الإقرار

جاء التَّعبير بضمير التَّعظيم ﴿إِنَّا﴾؛ لأنَّ السِّياقُ سياقُ بيان مظهر مِن مظاهر عظمة الخالق سبحانه إذ خلق الإنسان - ذلك السَّميع البصير المبين - مِن نطفة مَذِرَة. ولمّا كان هذا الفعل عظيمًا كان مَن قدَر عليه عظيمًا جليلًا، فلا جرم عبَّر بضمير العَظَمَة.

وأمّا تقديم هذا الضَّمير على الخبر الذي هو جملة فعليَّة فلإفادة القصر، ذلك أنَّ الفعل فيه (وهو ﴿خَلَقْنَا﴾) قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه (الضَّمير المتَّصل بالنّاسخ في ﴿إِنَّا﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به (الذي هو (نا) في ﴿خَلَقْنَا﴾) العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[2].

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناد الفعل إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

خُلِق الإنسان مِن ماء، وأوجِد للعبادة والابتلاء

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ ماضيًا؛ لإفادة التَّحقُّق والوقوع؛ أي: أنَّ الخلق قد وقع قطعًا دون شكٍّ مِن نطفة أمشاج، ودليلُه أنَّ هذه النُّطف صاروا بشرًا مخاطَبين بهذه الآيات، ولا يُخاطَب معدومٌ، وجيء بالضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ لإبراز عظمة اللّٰه في الخلْق، وجلال فعله، وسموِّ حكمته، ولتمهيد النَّفس لتقبُّل ما سيأتي مِن ابتلاء وتكليف وجزاء.

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ والغرض مِنَ الإظهار:

التَّذكير بأصل التَّركيب

اللّام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لاستغراق الجنس[3]؛ أي: كلُّ نوع إنسان[4]؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، وابن جزيٍّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 436، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

وذلك للإشارة إلى أنَّ أصل البشريَّة مِن ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾. وأمّا الإظهار فلزيادة التَّقرير[1]، والتَّأسيس لفكرة الابتلاء والتَّكليف لجميع البشر.

بلاغة الإدماج في الآية:

عِلْمُ الإنسان بنشأته ومبتداه يُخضِعُه لخالِقه ومولاه

لمّا حَمل قولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الإنسانَ على أن يُقِرَّ بأنَّه وُجِد بعد عدم، وأنَّ ذلك لم يكن عبثًا، بل لغايةٍ هي التَّكليف والعبادة - لمّا كان ذلك كذلك، حسُنَ أن تدمج الآيات في هذا التَّقرير بيانًا بكيفيَّة خلق الإنسان من نطفة التَّناسل لما في تلك الكيفيَّة من دقائق العِلم الإلهيِّ والقُدرة والحِكمة[2]، فيعلم الإنسان أصلَه، ويدرك عظمَة خالقه، فيُذعن ويخضع.

معنى ﴿مِن﴾، والتَّنكير، ودلالتهما:

النُّطفة مبتدأ الإنشاء، وآية في الزجر والارعواء

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾؛ للابتداء إذ المعنى أنَّ مبتدأ خلق الإنسان هو تلك النُّطفة المحقَّرَة؛ بيانًا لعظمة الخالق سبحانه وبديع صنعته، وأمّا التَّنكير فللنَّوعيَّة والتَّحقير، فالنُّطفة المذكورة هي نطفة المنيّ، وهي قليلة محقَّرة، ومع ذلك خلق الله منها بشرًا فجعله نسبًا وصهرا، وكان ربُّك قديرًا!.

سرُّ وصف النُّطفة بالأمشاج، ودلالة وصف المفرد بالجمع:

نطفة أمشاج صارت إنسانًا، أعظِم به على الحقِّ برهانا

وصِفت النُّطفة بالأمشاج للدَّلالة على الاختلاط الدَّقيق والمتقَن لمكوِّنات أصل الإنسان. و﴿أَمۡشَاجٍ﴾ صفة لـ﴿نُّطۡفَةٍ﴾، ووصفت بالجمع وهي مفردة؛ لأنَّ المراد بها مجموع ماء الرَّجل والمرأة، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما: رقَّة وغلظًا، وصُفرةً وبياضًا، وطبيعةً، وقوَّةً وضعفًا، حتَّى اختصَّ بعضها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 70، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 193.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

ببعض الأعضاء على ما أراده اللّٰه تعالى بحكمته؛ فخلقه بقدرته. والحاصل أنَّه نُزِّل الموصوف منزلةَ الجمع، ووِصف بصفة أجزائه[1].

موقع جملة ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ودلالته، ودلالة التَّعبير بالمضارع:

قوله تعالى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ يجوزُ فيه وجهان:

لفظٌ وجيز يجلّي عبءَ التَّمييز

أحدُهما: أنَّها حالٌ مِن فاعل ﴿خَلَقۡنَا﴾؛ أي: خَلَقْنا حالَ كونِنا مُبْتَلين له، وفيه دلالة على الجلال والقدرة. والآخَر: أنَّها حالٌ مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وفيه دلالة على قيد الإنسان بالابتلاء، وهذا هو شأنه، وصَحَّ ذلك؛ لأنَّ في الجملة ضميرَيْن كلٌّ منهما يعودُ على ذي الحال. ثمَّ هذه الحالُ يجوزُ أن تكون مقارِنةً إنْ كان المراد بـ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾: نُصَرِّفُه في بطنِ أُمِّه نُطفةً ثمَّ علَقةً، وأنْ تكونَ مقدَّرةً إنْ كان المراد بـ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾: نَخْتَبِره بالتَّكليفِ؛ لأنَّه وقتَ خَلْقِه غيرُ مكلَّفٍ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: ناقلين له مِن حالٍ إلى حالٍ، فسُمِّي ذلك ابتلاءً على طريق الاستعارة[2].

وقد وقعت هذه الحالُ بينَ جملة ﴿خَلَقۡنَا﴾ وبين ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ الابتلاء؛ أي: التَّكليف الذي يظهر به امتثالُه أو عصيانُه، إنَّما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير، فكان مقتضى الظّاهر أن يقع ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ بعد جملة ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولكنَّه قُدِّم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السَّعادة والشَّقاوة، وجيء بجملة ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيانًا لجملة ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ تفنُّنًا في نظم الكلام[3] وجيء بالفعل ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ مضارعًا؛ ليدلَّ على أنَّ الابتلاء ممتدٌّ ومستمرٌّ مع الإنسان ما دامَت فيه روحُه، فليس الابتلاء مقصورًا على لحظة خلقه.

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 5/ 189، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 666، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 168.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 594، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 374 - 375، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 480.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 374 - 375.

معنى الفاء ودلالاتها في ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾:

"الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ للتَّفريع؛ حيث فرَّع على خلْقِه مِن نُطْفة أنَّه جعله سميعًا بصيرًا، وذلك إشارة إلى ما خلَقه اللّه له مِن الحواسّ التي كانت أصلَ تفكيره وتدبيره"[1].

دلالة التَّعبير بالماضي، وإسناد الفعل للضَّمير الدّالّ على التَّعظيم:

قضى اللّه في سابق حُكمه ما يكون، ولكنَّ الكافر بالإعراض مفتون

التَّعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ يفيد التَّحقُّق، ويدلُّ على أنَّ اللّه تعالى قضى في سابق حكمه أن يخلق الإنسانَ مزيَّنًا بنعمتَي السَّمع والبصر؛ لتعيناه على التَّأمل والنَّظر، ومِن ثمَّ يتأهَّل للتَّكليف المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، وأمّا الإسناد للضَّمير الدّالِ على التَّعظيم؛ فهو لبيان اللّه عظمَة اللّه في خلقه؛ حيث خلق الإنسان في أحسن صورة وأروع مثال: سميعًا بصيرًا، عاقلًا مبينًا.

توجيه مرجع الضمير الهاء في ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ ودلالته:

مرجع الضَّمير إلى الإنسان؛ لبيان مواطن الامتنان

الهاء مِن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ تعود إلى الإنسان المذكور قبلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: فجعلنا الإنسانَ ذا سمعٍ يسمعُ به، وذا بصَرٍ يُبصِرُ به؛ إنعامًا مِن اللّه على عباده بذلك، ورأفةً منه بهم، وحجَّة له عليهم[2].

دلالة التَّعبير بالمفعول به الثّاني منكَّرًا ﴿سَمِيعًا﴾:

تنكير للتَّعظيم، وإبراز ما فيها مِن صوَر النَّعيم

أوثر تنكير قوله تعالى: ﴿سَمِيعًا﴾ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم؛ أي: جعلناه سميعًا عظيم السَّمع[3]، بصيرًا عظيمَ البصر؛ أي: السَّمع العاقل، والبصر المتأمِّل، والفِكر المتدبِّر، ففي هذا تعظيمٌ لهاتين النِّعمتَيْن اللَّتيْن امتنَّ اللّه بهما على بني آدم؛ إذ المقصود بهما الاعتبار والتَّفكُّر اللَّذان انبنى عليهما التَّكليف، كما أنَّ هذا التَّنكير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 480.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 130.

أُريد به التَّعميم، وعدم حصر السَّمع في مسموعات بعينها، فكأنَّه قيل: سميع يسمع كلَّ المسموعات إلّا ما استثني.

سرُّ إتْباع المفعول الثّاني ﴿سَمِيعًا﴾ بالوصف ﴿بَصِيرًا﴾:

أُتبع وصفُ السَّمع بالبصر؛ للدِّلالة على الاقتران التّامّ بين الحاسَّتين، وأنَّهما ضروريَّتان للاختبار؛ فهما أداتا الإدراك، وبهما يتميَّز الإنسان عن غيره.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة في الوصف في قوله تعالى: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾:

المبالغة لإبراز تمام الامتنان، ولبيان عظم الامتحان

جاء وصف الإنسان بالسَّميع البصير بصيغة المبالغة، ولم يُقَل: فجعلناه سامعًا مبصرًا؛ لأنَّ سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلًا وتمييزًا في المسموعات والمبصَرات مِن سَمعِ الحيوان وبصره؛ فبالسَّمع يتلقَّى الشَّرائع ودعوة الرُّسل، وبالبصر ينظر في أدلَّة وجود اللّه وبديع صنعه[1]، وفيه إشارة إلى أنَّ سمع الإنسان وبصرَه ليس كسمع الحيوان وبصرِه، وإنَّما هو سمعٌ يحوِّل المسموعات إلى حقائقَ ومعانٍ، تَنفُذ إلى أعماق المسموع، وإلى ما وراء دلالات الصَّوت الذي يقع على الأذن مِن كلِّ ما يطرقها مِن مسموعات، سواءً كان كلمات، أو غير كلمات، وكذلك الشَّأن في البصر، فهو ليس بصرًا ينقل الأشياء إلى العين، كما تنقلها المصوَّرة، وإنَّما هو بصرٌ يدخل إلى دائرة العقل الذي يكشف عن الحقائق المضمَرة في كيان الشَّيء المبصَر[2]. وهذا تخلُّص إلى ما ميَّز اللّه به الإنسان مِن جَعْلِه تُجاه التَّكليف واتِّباع الشَّرائع، وتلك خصيصة الإنسان التي بها ارتكزت مدنيَّته، وانتظمت جامعاته؛ ولذلك أعقبت هذه الجملة بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 15/ 1353.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

سرُّ اختيار السَّمع والبصر دون سائر الحواسّ:

السَّمع والبصر طريقا الإدراك والنَّظر

جيء بحاستي السَّمع والبصر دون سائر الحواسِّ في قوله: ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّهما أعظم الحواسِّ وأشرفها، وأنفعها للإنسان؛ "إذ عن طريق السَّمع يتلقَّى دعوة الحقِّ وما اشتملت عليه مِن هدايات، وعن طريق البصر ينظر في الأدلَّة المتنوِّعة الكثيرة التي تدلُّ على وحدانيَّة الله تعالى وعلى صدق أنبيائه فيما جاؤوا به من عند ربِّهم"[1].

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ﴾:

استئناف لبيان التَّفضُّل بنعمة الهداية، بعد الامتنان بخلق وسائل الدِّراية

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لبيان حال الإنسان بعد أن أُعطي أدوات الإدراك (السَّمع والبصر) وتخلُّصٌ إلى الوعيد على الكُفر والوعد على الشُّكر[2]، وكأنَّ السّامع يسأل: فماذا بعد أنْ جعله سميعًا بصيرًا[3] فجاء الجواب استئنافًا: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: بيَّنّا له طريقَ الخير وطريقَ الشرِّ؛ ممّا يُلقي مسؤوليَّة الاختيار على الإنسان بعد أن مُكِّن مِن أدوات التَّمييز، فهو مسؤول عن موقفه مِن الهداية، وفيه كذلك إظهارٌ لعناية الله بالإنسان؛ فبعد أنْ منحه وسيلتَيِ الإدراك: (السَّمع والبصر) امتنَّ سبحانه عليه بنعمة الهداية.

الغرض مِن التَّوكيد، وتقديم المسند إليه على خبره الجملة الفعليَّة في ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ﴾:

توكيد الهداية، وتقديم الرِّعاية، إبـرازًا لعظيم العناية

جاء التَّوكيد بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لمواجهة إنكار المشركين الذين يزعمون أنَّ ما يدعوهم إليه القرآن باطل[4]، والذين ينكرون أصلًا أنَّ الله تعالى قد هداهم سُبُلَهم!،

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 215.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.
(3) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

كما أنَّه مُشعِرٌ بعظيم شأنِ هذه الهداية التي يتفضَّل المولى ﷻ بها على الإنسان.

وقدِّم المسند إليه على خبره الفعليّ للقصر، فالفعل ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ مسند إلى الضَّمير المتَّصل بالنّاسخ ﴿إِنَّا﴾، ثمَّ إنَّ هذا الفعل نفسه مسند إلى ضميره المتَّصل به، وهو (نا) الفاعلين في ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ وهذا الضَّمير يعود أيضًا على المسند إليه، فلمّا تكرَّر هذا الإسناد كان بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[1] وهذه الصِّياغة تجري في السِّياقات التي يُطلَب فيها التَّوكيد لمواجهة الشَّكِّ والإنكار لدى المخاطَب ودحض ما يدَّعيه مِن شبهات[2].

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناده إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

هدايةٌ عظيمةٌ تحقَّقت ووقَعَت، ومِن لدن حكيمٍ خبيرٍ نَزَلَتْ

جيء بالماضي في قوله تعالى: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾؛ لإفادة تحقُّق الوقوع؛ فالهداية مِن اللّٰه تعالى لخلقه قد تحقَّقت وتمَّت، فهي ليست أمرًا مؤجَّلًا أو محتملًا، بل إنَّ هذا يشير إلى أنَّ هذه الهداية لم تنفكَّ عن الإنسان منذ خُلِق، ومِن ثمَّ لم يكن غريبًا أنَّ أوَّل إنسان خلقه اللّٰه تعالى بيده - وهو آدم عليه السلام - كان نبيًّا معلَّمًا مكلَّمًا، ولم يجعل اللّٰه سبحانه جيلًا مِن النّاس أو قرية مِن القرى إلّا بعث في أُمِّها رسولًا بشيرًا ونذيرًا، ومن ثمَّ أقيمت الحُجَّة على كلِّ إنسان.

وأُسنِد الفعلُ إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ للتَّنبيه إلى مكانة هذه الهداية المتفضَّل بها على الإنسان وعظَمتها، وبيان مدى حاجته إليها؛ فبدون هداية اللّٰه تعالى لا تحصل الهداية أبدًا، والمعنى: "إنّا بفضلنا وإحساننا قد أرشدنا الإنسان إلى ما يوصله إلى طريق الحقِّ والصَّواب، وأرشدناه إلى ما يسعده، عن طريق إرسال

(1) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) محمَّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 220.

الرُّسل وتزويده بالعقل المستعدِّ للتَّفكُّر والتَّدبُّر في آياتنا الدّالَّة على وحدانيَّتنا وقُدرتنا"[1].

سبيل الله كالشَّمس في الضَّياء؛ لا يخفى على الألبّاء

معنى اللّام ودلالتها في المفعول به ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

اللّام في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ يجوز أن تكون للعهد، فيكون المراد بالسَّبيلِ سبيلَ الهُدى؛ لأنَّها هي الطَّريقة المعروفة المستحقَّة لهذا الاسم على الإطلاق، فأمّا سبيل الضَّلالة فإنّما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ [الأحزاب: 67]، وإنَّما أضلّوهم سبيلَ الهُدى، ومَن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أرشدناه، وإذا أُرشِد لسبيل الحقّ، فقد نبَّه على تجنُّب ما سواها، فكان اللَّفظ دليلًا على الطَّريقين مِن هذا الوجه[2] ويجوز أن تكون للجنس، فيكون المعنى: هَدَى المؤمنَ لإيمانه والكافرَ لكفره[3].

سرُّ التَّعبير بالحالَيْن وبيان صاحبهما ﴿شَاكِرًا﴾ - ﴿كَفُورًا﴾:

حالان بعد الامتنان، إمّا شُكرٌ وإمّا عصيان

جاء التَّعبير بالحالَيْن ﴿شَاكِرًا﴾ - ﴿كَفُورًا﴾؛ إظهارًا لنتيجة الهداية، وتنوُّع الاستجابة؛ فإمّا أن يشكر نعمة الهداية ويتَّبعها، أو أن يكفر بها ويُعرض عنها[4]، وقد جاء في الحديث أنَّ الرَّسول ﷺ قال: "كلُّ النّاس يغدو فبائعٌ نفسَه فمويقُها أو مُعتِقُها"[5].

صاحب الحال هو الضَّمير في قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: إنّا هديناه السَّبيل، حال كونه إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا؛ فالحالان عائدان على الإنسان، وهما يصِفان حالَه بعد الهداية[6]. ويجوز أن يكونا حالَيْن مِن السَّبيل؛ أي: عرَّفناه السَّبيل إمّا سبيلًا شاكرًا، وإمّا سبيلًا

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 215.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 739، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 409، والنَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 134.

(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 269، وابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 436، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 742.

(5) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطَّهارة، باب فضل الوضوء، عن أبي مالك الأشعريّ برقم: (223).

(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 444، وابن الأحنف اليمنيُّ، البستان في إعراب القرآن: 4/ 196.

كفورًا؛ كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10]، وعليه يكون وصف السَّبيل بالشُّكر والكُفر مجازًا على وصف السَّبيل بوصف سالكه[1].

دلالة التَّعبير بحرف التَّفصيل أو التَّقسيم: ﴿إِمَّا﴾ و﴿وَإِمَّا﴾:

بين شكر وجحود يتبيَّن السَّعيد مِن الشَّقيّ المردود

(إمّا) للتَّفصيل باعتبار تعدُّد الأحوال مع اتِّحاد الذّات؛ أي: هديناه ودَلَلْناه على ما يوصل إلى البُغية في حالتيْه جميعًا مِن الشُّكر والكُفر، أو للتَّقسيم للمهديّ باختلاف الذَّوات والصِّفات؛ أي: هديناه السَّبيل مقسومًا إليها: بعضُهم شاكرٌ بالاهتداء للحقّ وطريقه بالأخذ فيه، وبعضهم كفورٌ بالإعراض عنه، وحاصله: دَلَلْناه على الهداية والإسلام، فمنهم مُهتَدٍ مُسْلِمٌ، ومنهم ضالٌّ كافر[2].

دلالة تقديم ﴿شَاكِرًا﴾ على ﴿كَفُورًا﴾:

الشُّكر على النِّعم أصلٌ تجنح إليه النُّفوس السَّليمة، والفطرة القويمة

قدّم الشُّكر على الكفران في قوله تعالى ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ لأنَّ الشُّكر هو الأصل الذي ينبغي أن يترتَّب على تلكم الهداية الآتية مِن اللّه سبحانه ولأنَّ أسلوب الآية قائم على التَّرغيب بالتَّذكير بالنِّعم المتفضَّل بها على الإنسان، ثمَّ بالتَّرهيب، فبُدِئ بالوجه الحسن.

الغرض مِن التَّعبير بأسلوب التَّرديد: ﴿إِمَّا﴾:: ﴿وَإِمَّا﴾:

أسلوب التَّرديد لبيان الابتلاء، وإظهار الحسم الشَّديد

جاء التَّعبير بأسلوب التَّرديد ﴿إِمَّا﴾... ﴿وَإِمَّا﴾؛ لإبراز أنَّ الإنسان لا يخرج عن هذيْن الحاليْن، فلا موقف ثالث له، وهذا يعطي طابعًا حاسمًا، فإمّا أن يكون مع الهداية أو ضدَّها، وهي مقارَنة عرفيَّة؛ أي: عقب التَّبليغ والتَّأمُّل، فإنْ أخذ بالهُدى كان شاكرًا وإنْ أعرض كان كفورًا كمَن لم يأخذ بإرشاد مَن يهديه الطَّريق فيأخذ في طريق يلقَى به السِّباع أو اللُّصوص، وبذلك تمَّ التَّمثيل الذي في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[3].

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 666، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 742، والسّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 594.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

سرُّ المخالفة في الصِّيغة بين اسم الفاعل: ﴿شَاكِرًا﴾، وصيغة المبالَغة: ﴿كَفُورًا﴾:

يكثر وقوع الكفران مِن بني الإنسان

أوثِر التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ للدِّلالة على قلّته، وجاءت ﴿كَفُورًا﴾ صيغة مبالغة؛ لأنَّ مَن يتَّصفون به كُثُر، ويكثر وقوع الكفر مِن الإنسان[1] وقيل: عُبّر باسم الفاعل في قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ إشارة إلى أنَّه لا يقدر أحدٌ أنْ يشكر جميع النِّعم، فلا يُسمَّى شَكورًا إلّا بتفضُّل مِن ربّه عليه، ولمّا كان الإنسان لِما له مِن النُّقصان لا ينفكُّ غالبًا عن كُفر ما؛ أتى بصيغة المبالَغة ﴿كَفُورًا﴾؛ تنبيهًا له على ذلك، وإشعارًا بأنَّ الإنسان لا يخلو عن كُفران غالبًا، وإنّما المؤاخَذ به التَّوغل فيه[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحين والوقت:

في الحين إطلاقٌ وفي الوقت تحديدٌ

المعنى المحوريُّ لجذر الوقت: تحديدُ زمنٍ معيَّن لإيقاع الشَّيء[3]. والوقت: نهاية الزَّمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلّا مقدَّرًا نحو قولهم: وقَّتُّ كذا: جعلتُ له وقتًا[4].

أمّا الحين فهو في أصل اللُّغة لمطلَق الزَّمان، قليلًا كان أو كثيرًا[5]، وهو وقتٌ مِن الدَّهر مبهَمٌ يصلُح لجميع الأزمان كلِّها، طالت أو قصُرت[6]؛ والإنسانُ لم يكن شيئًا مذكورًا في ذلك الحين؛ فناسبَ ذلك استعمالُ لفظ (الحين) دون (الوقت) لأصل الحين ومعناه المذكورَيْن، وناسب ذلك مجيءُ (الحين) نكرةً.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 360، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71.
(2) الغزنويُّ، باهر البرهان: 3/ 1599، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 133 - 134، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقت).
(4) الرّاغب، المفردات: (وقت).
(5) ابن فارس، المقاييس، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (حين).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حين).

الدَّهر والزَّمن:

الزَّمَن يقع على المدَّة القليلة والكثيرة[1]، أمّا الدَّهر فهو في الأصل: اسمٌ لمدَّة العالَم مِن مبدأ وجوده إلى انقضائه[2] فأوثِر (الدَّهرُ) في هذه الآية دون (الزَّمَن)؛ لأنَّ الدَّهرَ متضمِّنٌ هذا (الحين) مهما كانت مُدَّته.

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (زمن).
(2) الرّاغب، المفردات: (دهر).

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾ [الإنسان: 4]

وعـيـد وإنـــذار، بعد بيانٍ وإظهار

❁ مُناسَبَةُ الآية لِما قبلَها:

لمّا قسَّم المولى سبحانه بني آدم إلى قسمَيْن؛ ذكر جزاء كلِّ قسم؛ وابتُدئ بالإنذار[1]؛ لأنَّه يثير تطلُّعَ السّامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين المتردِّدِ حالُه بينهما[2]، ولأنَّ الانقياد بالوعيد أتمُّ؛ لأنَّه أدلُّ على القدرة لا سيَّما في حقِّ أهل الجاهليَّة الذين بعدت عنهم معرفة التَّكاليف الشَّرعيَّة[3]، كما أنَّه أنسب بالمقام وحقيق بالاهتمام، ولأنَّ تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن، على أنَّ وصفهم تفصيلًا ربَّما يخلُّ تقديمُه بتجاوُب أطراف النَّظم الكريم[4].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أصلُ (عتد) يدلُّ على حضور وقُرب[5]. العتاد: العدَّة والشَّيء تعدُّه لأمر وتهيِّئه له؛ كادِّخار الشَّيء قبل الحاجة إليه، وكالإعداد، والعتيد: المُعِدُّ والمُعَدُّ، وهو الشَّيء الحاضر المهيَّأ[6]. وأعتده إعتادا؛ أي: أعدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النِّساء: 18]؛ أي: أفْعَلْنا مِن العتاد، وقيل: هو أعددنا مع إبدال إحدى الدّالين تاءً[7]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا﴾؛ أي: هيَّأنا في جهنَّم[8].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 667، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 743، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 377.
(3) البقاعيُّ، نظم الدرر: 21/ 134 - 135.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عتد).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عتد).
(7) الخليل، العين، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (عتد).
(8) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 377.

2) ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾: أصل (سلل) يدلُّ على مدِّ الشَّيء في رفق وخفاء[1]. سلَّ الشَّيءَ مِن الشَّيءِ واستلَّه منه: نزعه، كسلِّ السَّيف مِن غمدِه. وسلالة الشَّيء: ما استُلَّ منه. وتسلسل الماءُ: اضطرب وجرى، وسلسلتُه: صببتُه فيه. وشيء مسلسل: متَّصل بعضُه ببعض، ومنه سلسلة الحديد، قال تعالى: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾. وماء سلسل: متردِّدٌ في مقرِّه حتَّى صفا[2].

3) ﴿وَأَغۡلَٰلًا﴾: أصل (غلل) يدلُّ على تخلُّل شيء وتدرُّعه وتوسُّطه[3]. ومنه الغَلَلُ الماء الجاري بين الأشجار، والجمع: الأغلال. والغالُّ: أرضٌ مطمئنَّة ذات شجر[4]، والغُلُّ مختصٌّ بما يُقَيَّدُ به، فتجعل الأعضاء وسطه، وجمعه: أغلال، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّد به، فهو مغلول، وغللتُ يده إلى عنقه[5]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا﴾؛ أي: في أيديهم تُغَلُّ بها إلى أعناقهم[6].

4) ﴿وَسَعِيرًا﴾: السّعْر: التهاب النّار وهيجانها، وقد سَعَرْتُها وسَعَّرْتُها وأسعرتها: أوقدتها وهيَّجتها وألهبتها. والمِسْعَر والمِسعار: الخشب الذي تُسْعَر به النّار. ومنه قيل للرَّجُل: إنَّه لمِسْعَر حرب. واستَعَرَت الحرب واللُّصوص: كأنَّهم اشتعلوا[7]. والسَّعير: النّار الموقدة[8]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾؛ أي: وقودًا لا توصف شِدَّتُه[9].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرنا المولى ﷻ في هذه الآية عمّا أعدَّه في جهنَّمَ للكافرين به مِن سلاسِلَ يُقادون بها إلى الجحيم، ومِن قُيود تُشَدُّ بها أيديهم إلى أعناقهم إذلالًا لهم، ومِن نار مشتَعِلة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلل).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (سلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (غلل).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (غلل).
(5) الرّاغب، المفردات: (غلل).
(6) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 4/ 377.
(7) الرّاغب، المفردات: (سعر).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (سعر).
(9) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 377.

مصيرُ الكافرين نارُ الجحيم جزاءً على كفرهم بالله العظيم

كذلك تحرق أجسادَهم؛ جزاءً لهم على كُفرهم وعصيانهم وعدم إيمانهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾:

مِن شأن الاستئناف البيانيّ أن يُعَلَّق على سابقه وأن يمهِّد للاحقه

"قول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لبيان جزاء الكافرين، بعد أنْ تطلَّعت إليه النَّفس بعد سماعها لقوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾"[2] فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤالٍ ساقتْ إليه الآيةُ السّابقةُ التي أثارت تطلُّع السّامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين: (الشّاكر والكَفور)، وتقدير السُّؤال: ما نصيب الشّاكرين وما نصيب الكافرين؟ فابتُدِئ بجزاء الكافر؛ لأنَّ ذكرَه أقرب[3].

الغرض من التَّوكيد بـ(إنَّ) في ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾:

يحسن التَّوكيد عند إرادة قطع الشَّكِّ والتَّرديد

"أُكِّد الخبر عن الوعيد بحرف التَّأكيد لإدخال الرَّوْع عليهم لأنَّ المتوعِّد إذا أكَّد كلامَه بمؤكّد فقد آذن بأنَّه لا هوادةَ له في وعيده"[4] وهومناسب لخطاب المشركين المتشكّكين في وعيد الله تعالى فحسُن أن يأتي الوعيد مؤكّدًا لمواجهة هذا الشَّكِ في نفوسهم وقطع التَّردُّد عند كلِ متردّد.

الغرض مِن تقديم المسند إليه (اسم إنَّ) على خبره الجملة الفعليَّة ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾:

يقوّى الحكم عند إرادة التَّوكيد، وذلك في مقامات التَّقرير والتَّهديد

أوثر تقديم المسند إليه (الضَّمير المتَّصل بالحرف النّاسخ: ﴿إِنَّآ﴾) على خبره الفعليّ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ لإفادة القصر لتمكين المعنى، وهو توكيد مصير الكافرين بما أُعِدَّ لهم سلفًا وهو السَّلاسل والأغلال والسَّعير، والسِّرُّ في إفادة تمكين

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 538، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 217.

(2) طنطاويُّ، الوسيط: 15/ 217.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 377، وثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 149.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 377.

المعنى هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المبتدأ (وهو هنا الضَّمير المتَّصل بالحرف النّاسخ)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل بالفعل، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن(1).

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ والغرض مِن إسناده إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

أفاد التَّعبير بالماضي التَّحقق، ذلك أنَّه إخبار بفعلٍ مَضَى عن أمرٍ قد وقع وانقضَى، وقد "احتُجَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقةٌ؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي"(2). وفي هذا ما فيه مِن تخويف للمشركين وتهديد للكافرين.

المنسوب إلى العظيم جليلٌ وعظيم

وأمّا عن إسناده لنون العَظَمَة فلتعظيم الفعل، وبيان أنَّ الشَّيءَ المُعَدَّ عظيمُ القدْر، جليل المنزلة، فلا يُستهان به ألبتَّة، فقول ﷻ: "﴿إِنَّآ﴾؛ أي: على ما لنا مِن العَظَمَة ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾؛ أي: هَيَّأنا وأحضرنا بشدَّة وغِلْظة"(3).

معنى لام الجر ولام التعريف ودلالتهما في ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

لكلِّ مَن كفر عذابٌ مستَحَقّ، لا يزول ولا يَرِقّ

أمّا لام الجر، في قوله تعالى ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فقد أفاد معنى "الاختصاص والاستحقاق"(4). وأمّا التَّعريف فهو للجنس؛ أي: جنس مَن كفر باللّه ورسالاته ورُسُله، فالآية لم تخُصَّ فريقًا منهم دون فريق، فقوله تعالى: ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: "مِن أفراد الإنسان الذي هديناهُ السَّبيل"(5).

دلالة التَّعبير باسم الفاعل المجموع: ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

استمرأ الكافرون الجحود والضَّلال، فاستحقّوا السَّلاسل والأغلال

أفاد التَّعبير باسم الفاعلين معنى الثُّبوت والتَّمكُّن مِن صفة

(1) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 743.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 135.
(4) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 210.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71.

الكفر، فقوله تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ "أي: العريقين في الكُفر خاصَّة"[1]. وفي هذا دلالة على أنَّهم استحقّوا هذه العقوبة؛ لأنَّهم كلَّما ذُكِّروا بآيات ربِّهم ولَّوْا على أدبارهم نفورًا، مستمرِّين على كفرهم، مستمرئين جحودهم ونكرانهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33].

في التَّعبير بجمع التَّكسير دلالة على التَّكثير

الغرض مِن التَّعبير بالخبر جمعًا على صيغة منتهى الجموع ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع (سِلْسِلَةٍ)، وهذا المفرد يصحُّ جمعُه جمعَ سلامة على (سلسلات)، وجمعَ تكسير على (سلاسل)، والأوَّل نادرٌ وهذا الأخير هو الأشهر والأكثر، والتَّعبير بجمع التَّكسير يدلُّ على الكثرة"[2] فالحاصل أنَّ هذه الصِّيغة (فعائل) مِن صيَغ جموع الكثرة، والمراد هنا الإخبار بكثرة هذه السَّلاسل التي تقيَّد بها أرجل الكافرين، وهذا مِن أشدِّ التَّخويف وأعظمه لو كانوا يعقلون!.

أوقد الله للكافرين السَّعير، فهي مأواهم وبئس المصير

الغرض مِن التَّعبير بـ﴿وَسَعِيرًا﴾:

"السَّعير: النّار المسعَّرة؛ أي: التي سعَّرها الموقِدون بزيادة الوَقود ليشتدَّ التهابُها، فهو في الأصل وصفٌ بمعنى اسم المفعول جُعِل عَلَمًا على جهنَّم"[3] وفي كونه فعيلا بمعنى (مفعول) دلالة على أنَّ النّار قد أُعِدَّت وهُيِّئت وجُهِّزت، وأوقِد عليها آلاف السِّنين حتَّى اسودَّت فصارت كاللَّيل المظلم بل أشدَّ! وفي هذا زجر شديد ووعيد أكيد لكلِّ معتبِر!.

أمّا كونه مفردًا عُطِف على الجمع ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا﴾ فللإشارة إلى أنَّ لكلِّ معذَّب سلسلة وغُلًّا، بحسب جرمه وذنبه، فهي أغلال كثيرة وسلاسل. وهؤلاء جميعًا قد أُلقوا في النّار المستعرة التي

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 135.

(2) الزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 235، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/ 224، والرَّضيُّ، شرح شافية ابن الحاجب: 2/ 183.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 378.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 24]. فهي نارٌ واحدة غير أنَّ لها دركات!.

سرُّ مجيء التَّرتيب بين صنوف التَّعذيب على ما جاء عليه: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾:

يُعَذَّب الكافرون بسلاسلَ بها يُقادون، وأغلالٍ بها يُقيَّدون، وسعيرٍ بها يُحرقون

روعي في وصف عذاب الكافرين بديعُ التَّرقّي مِن الأسهل في التَّعذيب إلى الأشقّ ترهيبًا وتبكيتًا[1]، فأمّا السَّلاسلُ فتُشَدُّ بها أرجلُهُم، وأمّا الأغلالُ فتُشَدُّ بها أيديهِم إلى رقابهم، وأمّا السَّعيرُ فهو النّار التي تُسَعَّر عليهم فتوقَدُ فيكونون حطبًا لها، وهذا مِن أغلظِ أنواع التَّرهيب والتَّخويف"[2].

دلالة التَّعبير بالسَّلاسل والأغلال في وصف عذاب الكافرين:

قُيِّدوا بالسَّلاسل والأغلال للإهانة والتَّحقير، وقد أُطبِقت عليهم أبواب السَّعير

ذِكرُ السَّلاسلِ والأغلالِ - وهُما مِن القيود التي يُثبَّت بها المعذَّب - ليس خوفًا مِن الفرار، أنَّى يكون ذلك وهم في نارٍ موقَدَةٍ، أبوابُها عليهم مؤصدَة في عمد ممدَّدة؟! بل إنَّ القصد مِن ذلك هو الإهانة والتَّعذيب!"وإنَّما يُجَرّون إلى جهنَّم بالسَّلاسل لعدم انقيادهم للحقِّ ويُحَقَّرون بأنْ يُقَيَّدوا بالأغلال لعدم تواضعهم لله، ويُحرقون بالنّار لعدم احتراقهم بنار الخوف مِن الله تعالى"[3].

بلاغة التعبير باللَّفِّ والنَّشر:

الإنذارُ أهمُّ وأنفعُ، وتصديرُ الكلامِ وختمُه بذكرِ المؤمنينَ أحسنُ

في قوله تعالى: "﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ لفٌّ ونشرٌ مُشوَّش، فإنَّه تعالى قال: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثمَّ أعاد بالذِّكر على الثّاني دون الأوَّل"[4]، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾؛ وذلك "ليُتَخلَّص إلى الكلام على الفريق الأوَّل بطريق

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 135.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 743.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 262.
(4) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 286.

الإطناب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾"[1] فهو لفٌّ ونشرٌ مُشَوَّش أو معكوس، وهو أرجح لما فيه من اتِّصال أحد القِسمين؛ ولذلك قُدِّم وعيد الكفرة مع تأخُّرهم في الجمع[2]، "ولأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفعُ، وتصديرُ الكلام وختمُه بذكرِ المؤمنينَ أحسنُ على أنَّ في وصفِهم تفصيلًا ربَّما يُخلُّ تقديمُه بتجاوب أطراف النَّظم الكريم"[3].

سرُّ البدء بالوعيد قبل الوعد في الآية:

الإنـــذار أنسب بالمقام، وحقيقٌ بالاهتمام

"قُدِّم وعيد الكافرين هنا على الوعد للمؤمنين مع تأخُّر ذِكرِهم في التَّقسيم بقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ لأنَّ الإنذار أنسبُ بالمقام، وحقيقٌ بالاهتمام، وليكون أوَّلُ الكلام وهو ﴿شَاكِرٗا﴾، وآخرُه من أوصاف المؤمنين"[4]، وأيضًا لأنَّ الكافرَ ذِكرُه أقرب؛ فابتُدئ ببيان جزائه، "ولأنَّ الغرض بيانُ جزائه على سبيل الإجمال، ثمَّ تفصيل القول بعد ذلك في بيان جزاء المؤمنين"[5]، وإنَّ "تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن"[6].

الغرض من التَّنكير:

بلغت صنوف العـــذاب في العِظَم الغاية، وفـــي الكـثرة النِّهاية

أوثر تنكير ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ لإفادة التَّكثير والتَّهويل؛ إذ الآية مسوقةٌ لتهديد الكافرين ووعيدهم، فناسب أن يُهدَّدوا بعِظَم السَّلاسل - التي تبلغ الواحدة منها سبعين ذراعًا - وكذا الأغلال، مع بيان كثرتها، فلا تنفد من قلَّتها أو من كثرة أعداد الكافرين، بل لكلِّ امرئ منهم جزء مقسوم، ونصيب معلوم. أمّا السَّعير فيكفي أنَّ الله تعالى أوقده، فناهيك به شدَّة وعِظمًا! نسأل الله السَّلامة والعافية!.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 195.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، حاشية علي تفسير البيضاويِّ: 8/ 287.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71.
(4) الشِّهاب الخفاجيُّ، حاشية علي تفسير البيضاويِّ: 8/ 287.
(5) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 217.
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأغلال والأصفاد:

في الأغلال تقييدٌ بجمعٍ وإحاطة، وفي الأصفاد تقييدٌ بشَدٍّ ممتدٍّ وضمّه

الغُلُّ مختَصٌّ بما يقيَّد به فيجعل الأعضاء وسطه[1]، والمعنى المحوريُّ لجذر الغُلّ: تخلُّلٌ بحِدَّةٍ أو قوَّةٍ مع إحاطة أو تقييد، والغُلُّ: جامعةٌ توضَعُ في العُنُق أو اليد، وهذه الجامعة تحيطُ والعضوُ يتخللها[2].

أمّا الصَّفدُ فأحَدُ أصلَي جِذره: شَدٌّ بشيءٍ، والمعنى المحوريُّ لجذره: شدُّ أشياء ممتدَّة وضمُّ بعضِها إلى بعضٍ بقوَّة؛ لذا أوثِر لفظ (الأصفاد) دون (الأغلال) في قول الله - ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ [إبراهيم: 49]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: 38]؛ وذلك لوجود لفظ (مُقَرَّنِينَ) في الآيتين.

أمّا في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ [غافر: 71]، فلم يُذكَر فيهما لفظ (مُقَرَّنِينَ) وقد ذُكِر في الآيتين لفظ (السَّلاسل) وهذه السَّلاسل يقادون بها[3]، وفي هذا معنى الشَّدّ، وذُكِرت (الأغلال) التي يقيَّدون بها[4]، وهي جوامع تجمع أيديهم إلى أعناقهم فيها فيُهانون بها[5]؛ ففيهما معنى السَّوْق والشَّدِّ والتَّقييد.

(1) الراغب، المفردات: (غلل).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلل).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 135، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 71.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 71.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 135.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: 5 - 6]

عـــذابُ الـكـافـر شـديـد، ونعيم المـؤمـن ممتدٌّ ورغيد

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهما:

لَمّا أوجز في جزاء الكافرين، أُتبِع بجزاء الشّاكرين، وأُطنب فيه؛ تأكيدًا للتَّرغيب، فإنَّ النُّفوس بعد كسر الوعيد لها تهتزُّ لأدنى وعدٍ وأقلِّه فكيف بأتمِّه وأجلِّه[1]؟!.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِزَاجُهَا﴾: أصل (مزج) يدلُّ على خلط الشَّيء بغيره[2]. مَزَج الشرابَ: خَلَطه بغيره[3]. ومِزاج الشَّراب: ما يُمزَج به الشَّراب. قال تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[4]. ومِزاج البدن: ما رُكِّب عليه مِن الطَّبائع التي هي المِرَّتان، والدَّم والبلغم التي اعتدالها سبب صحَّته وسقمه[5].

2) ﴿كَافُورًا﴾: الكُفر في اللُّغة: سَتر الشَّيء، ووصف اللَّيل بالكافر لستره الأشياء بظلامه[6]. وأصل (كفر) يدلُّ على السَّتر والتَّغطية[7]. وكُفْر النِّعمة وكُفرانُها: سَترُها وجَحدُها بترك أداء شكرها، وهو ضدُّ الشُّكر، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وكَفَر نِعْمَةَ اللّه يكفُرُها كُفورًا وكُفْرانًا، والكافور: اسم أكمام الثَّمرة التي تكفرُها[8]. ونوع مِن الطِّيب[9]. ومعنى: ﴿مِن كَأْسٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 743، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 377.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مزج).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (مزج).
(4) الرّاغب، المفردات: (مزج).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (مزج).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (كفر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (كفر).
(9) الجوهريُّ، الصِّحاح: (كفر).

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ هي عين تُسمَّى الكافور، وقد يكون: كان مزاجها كافورًا الذي هو الطِّيب[1].

3) ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: أصل (فجر) يدلُّ على التَّفتُّح في الشَّيء[2]. فجَرْت الماءَ أفجُرُه فجْرًا، فانفجر؛ أي: بجسته فانبَجَس، وفجَّرتُه فتفَجَّر. والفَجْر: شقُّ الشَّيء شقًّا واسعًا. ومنه قيل للصُّبح: فجْرٌ؛ لأنَّه يشُقُّ اللَّيل شقًّا واسعًا، وهو ضوء الصُّبح. والفُجور: شَقُّ ستر الدِّيانة[3]. والفَجَر: الكَرَم، والتَّفجُّر في الخير[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِن ثواب الله لعباده الأبرار ما أعدَّه لهم مِن هذا الشَّراب اللَّذيذ المختار

بعد أن بيَّن الحقُّ ﷻ في الآية السّابقة ما أعدَّه للكافرين، انتقل السّياقُ القرآنيُّ لذكر ما أعدَّه الله لعباده المؤمنين الطّائعين في الجنَّة مِن هذا الشَّراب اللَّذيذ مِن الخمر المخلوطة بأحسن أنواع الطِّيب، وهو ماء الكافور الذي تنتعش له النُّفوس، وتحبُّه القلوب والأرواح؛ لطيب رائحته، وجمال شكله، والذي جعله الله سبحانه عينًا في الجنَّة يشرب منها عبادُه المقرَّبون، يتصرَّفون فيها ويُجْرونَها حيث شاؤوا وأين شاؤوا مِن قصورهم ودورِهم ومجالسهم ومحالِّهم؛ جزاءً لهم على صبرهم، واجتهادهم في طاعة ربِّهم[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

مِن العادة السُّؤال عن حال الشّاكرين بعد بيان حال الكافرين

هذه الآية "استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الاستئناف الذي قبله مِن قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ الآية؛ فإنَّ مَن عَرَفَ ما أُعِدَّ للكفور مِن الجزاء يتطلَّع إلى معرفة ما أُعِدَّ للشّاكر مِن الثّواب"[6]

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (كفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (فجر).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (فجر).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 294، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 217 - 219.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 379.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ هو "شروعٌ في بيانِ حُسنِ حالِ الشّاكرينَ إثرَ بيانِ سوءِ حالِ الكافرين"[1].

الغرض من التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

أُكِّد الخبر عن جزاء الشّاكرين لقطع إنكار المشركين

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ أوثر فيه "تأكيد الخبر عن جزاء الشّاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيرًا منهم في عالم الخلود، ولإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنِّسبة إلى المؤمنين"[2].

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾:

الأبرار لربِّهم شاكرون، وهم بالنَّذر موفون

يصحُّ أن تكون لام ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ للجنس، فيدخل فيه كلُّ بَرٍّ، ويصحُّ أن تكون للعهد الذِّكريّ، فيكون مرادًا به الشّاكرون الذين ذُكِروا في الآية قبلها مِن قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا﴾، والموفون بالنَّذر والمطعمون الطَّعام الذين ذُكِروا في الآية بعدها. وهما توجيهان متآزران، فالأبرار يشمل كلَّ مَن اتَّصف بالبِرّ ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا الشّاكرون الموفون بالنَّذر المطعمون الطَّعام على حبِّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ دون غيره:

يُثني الودود على الأبرار، تعريضًا بذمِّ الفُجّار

في المراد بالأبرار في الآية أقوال: أحدُها: أنَّهم الصّادقون، والثّاني: أنَّهم المطيعون[3]، والثّالث: أنَّهم الشّاكرون[4]؛ لتقدُّم ذِكرهم في قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. وقيل: الأبرارُ: واحدُهم بَرٌّ، و"البَرُّ: الذي لا يُضمِر الشَّرَّ، ولا يؤذي الذَّرَّ"[5] وأوثر إيرادهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71، والبروسويُّ، روح البيان 10/ 262، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 170.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 379.
(3) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 164.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 379.
(5) القُشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 661.

بعنوانِ البرِّ للإشعارِ بما استحقّوا بهِ ما نالوه مِن الكرامةِ السَّنيَّةِ"[1]، و"زيادةً في الثَّناء عليهم"[2].

الغرض مِن تقديم المسند إليه ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ على خبره الجملة الفعليَّة ﴿يَشۡرَبُونَ﴾:

يواجَه الكُفّار بما يدحض إفكَهم، ويقطع شكَّهم

أوثر تقديم المسند إليه: ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ على المسند الفعليّ: ﴿يَشۡرَبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ لإفادة تقوية الحكم وتأكيده، وهو هنا إثبات نعيم الأبرار في الجنَّة وقصورها، وترويِهم وتلذُّذهم بشرابها، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، ومرَّة إلى ضميره المتَّصِل به ﴿يَشۡرَبُونَ﴾ العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَشۡرَبُونَ﴾:

متاع الجنَّة دائم غير ممنون، والأبرار فيه منعَّمون

يفيد التَّعبيرُ بالمضارَعَة معنى التَّجدُّد والاستمرار، وفي إيثار التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُونَ﴾ دلالة على تجدُّد النَّعيم وديمومته، وأنَّه باقٍ لا ينقطع، كما أفاد كذلك تصوير حال هؤلاء الأبرار المنعَّمين في جنان الخلود، وكأنَّنا نرى الكؤوس في أيديهم مترَعَة بأجود الخمور وأطيبها وألذِّها.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن كَأۡسٖ﴾:

أفاد (مِن) معنى ابتداء الغاية، وليس لما دلَّ عليه مِن النَّعيم نهاية

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مِن كَأۡسٖ﴾؛ ذلك أنَّه لمّا كانت

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71، والبروسويُّ، روح البيان 10/ 262، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 170.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 379.

(3) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.

الكأسُ مبدأ شُربِهم أُتيَ معها بـ﴿مِن﴾ الدّالَّة على ابتداء الغاية[1] وهذا على تأويل الكأس بالإناء المملوء خمرًا، أمّا على تأويل الكأس بنفس الخمر فـ﴿مِن﴾ على هذا التَّأويل تبعيضيَّةٌ أو بيانيَّةٌ[2]؛ أي: يشربون بعض هذا الخمر. وفيه معنى الابتداء أيضًا، فإنَّ هذا البعض هو مبدأُ شربهم.

بلاغة التَّعبير بالمجاز المرسَل في قوله تعالى: ﴿كَأۡسٖ﴾، ونكتة تنكيره وإفراده:

خمر الجنَّة فريدة فذَّة، بالغة الطِّيب واللَّذَّة

"الكأس في اللُّغة: الإناء إذا كان فيه الشَّرابُ. فإذا لم يكن فيه الشَّراب لم يُسَمَّ كأسًا"[3]. وقد "تُطلَق على نفس الخمر أيضًا على طريق ذِكر المحلِّ وإرادة الحالِّ، وهو مجاز مرسل، وهو المراد هنا عند الأكثر، حتَّى روي عن الضَّحّاك أنَّه قال: كلُّ كأس في القرآن فإنَّما عُني به الخمر"[4] وأمّا إفراد ﴿كَأۡسٖ﴾ فللنَّوعيَّة، والمراد به الجنس، وأمّا تنكيرُه فلتعظيمه في نوعه[5].

نكتة وصف الكأس بجملة اسميَّة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، ودلالة التَّعبير بـ﴿كَانَ﴾:

مزاج الكأس لا يفارقها، والملتذُّ بها لا يُتارِكها

أفاد التَّعبير بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ عدَّة نكات بلاغيَّة، منها:

أنَّ "ذِكر فِعلِ الكون يدلُّ على أنَّ له شأنًا في المزج عظيمًا يكون فيه كأنَّه مِن نفس الجِبِلَّة، لا كما يُعهَد"[6]. وأنَّه أفاد "أنَّ ذلك مزاجها لا يفارقها؛ إذ كان معتادُ النّاس في الدُّنيا نُدرةَ ذلك المزاج لغلاء ثمنه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 360 - 361، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 486.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71، والبروسويُّ، روح البيان 10/ 262، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 170.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 258.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 170، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 451 والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 262.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 380.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 136، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 451.

وقلَّة وجدانه"[1]. وأنَّه جاء "على منوال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾ [النِّساء: 17]. والمجيء بالفعل للتَّحقيق والدَّوام.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ تامَّةٌ مِن قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]"[2]؛ أي: أنَّه كانَ كافورًا بتكوين اللّٰه تعالى له، وخلقه إيّاه[3]. أو "المعنى: كان مزاجُها في عِلم اللّٰه، وحُكمِه كافورًا"[4].

الغرض من الإضافة في ﴿مِزَاجُهَا﴾، مع بيان ما يعود عليه الضَّمير:

مُـزِج بالكافور خمرُ الجنَّة، فعظُمت به اللَّذَّةُ المطمئنَّة

"ضمير ﴿مِزَاجُهَا﴾ عائد إلى ﴿كَأْسٍ﴾.. فإذا أريد بالكأس إناءُ الخمر فالإضافة لأدنى ملابسة؛ أي: مزاج ما فيها، وإذا أريدت الخمرُ فالإضافة مِن إضافة المصدر إلى مفعوله"[5]، "والمراد بـ﴿مِزَاجُهَا﴾: خليطها. مِن المزج بمعنى: الخلط. يقال: مزجت الشَّيء بالشَّيء، إذا خلطته به"[6].

الغرض من تنكير: ﴿كَافُورًا﴾:

كافور الجنَّة غاية في الطِّيب، وسُمِّي بما يُعرَف للتَّقريب

أوثر تنكير ﴿كَافُورًا﴾ لتعظيمه في نوعه؛ فقد "عُلِم ما في الكافور مِن التَّبريد والرّائحة الطَّيِّبة، مع ما يُضاف إلى ذلك مِن اللَّذّاذة في الجنَّة"[7] "وهذا الكافور في غاية اللَّذَّة، قد سَلِمَ مِن كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّصٍ موجودٍ في كافور الدُّنيا؛ فإنَّ الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر اللّٰه أنَّها في الجنَّة - وهي في الدُّنيا - تُعدَم في الآخرة"[8].

تنوُّع موقع ﴿عَيْنًا﴾ مِن الإعراب، وأثره في ثراء المعنى:

ثـراء الـدَّلالات بـتـعـدُّد الـتَّـوجيهات، واخـتـلاف التَّأويلات

لا خلاف بين القُرّاء في قراءة ﴿عَيْنًا﴾ بالنَّصب، وإنَّ نصْبها يحتملُ أوجهًا:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 170.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 262.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 744، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 451.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 380.
(6) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 218.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 287.
(8) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901.

أحدُها: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ بدلًا مِن ﴿كَأْسٍ﴾ على المحلِّ، على قول مَن قال: الكافور هنا هو الذي مِن الطِّيب، وإنَّما مُزِج بها الكافور لِطيب ريحِه وبَرْدِه، وفي الكلام حذفُ مضاف. والتَّقدير: يشربون خمرًا خمرَ عينٍ.

والثّاني: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ بدلًا مِن ﴿كَافُورًا﴾ على قول مَن قال: الكافور عينٌ في الجنَّة اسمُها (كافور). والمعنى: كان مِزاجُ هذه الخمرِ مِن كافور؛ أي: مِن هذه العَيْن، فحُذِف الجارُّ، ونُصِب الاسمُ.

والثّالث: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ حالًا مِن قوله: ﴿كَافُورًا﴾ على قول مَن جعله اسمًا عَلَمًا لِعَيْنٍ في الجنَّة، كأنَّه قيل: كان مِزاجُها جاريةً أو نابعةً.

والرّابع: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ تمييزًا على هذا القول، وهو الجيِّد لما فيه مِن إيضاح (كافور) وتفسيرِه له؛ لأنَّ في (كافور) إبهامًا كما في عشرين ونحوه. فكأنَّه قيل: وما ﴿كَافُورًا﴾؟ فأجيب: ﴿عَيْنَا﴾.

والخامس: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ مفعولًا به، بإضمار فعل يدلُّ عليه ﴿يَشْرَبُونَ﴾، أو بإضمار (أعني).

والسّادس: أن يكون ﴿عَيْنَا﴾ منصوبًا على المدح؛ أي: أمدح أو أخُصُّ، فهذه ستَّة أوجه في نصبها[1]."وكلُّ ما سبق يقتضيه الإعجازُ لهذا القرآن العظيم. والمقصود: أنَّ الأبرار يشربون في الجنَّةِ مِن عينٍ نضّاخة بشراب ممزوج بالكافور، وقد جمع بين التَّبريد والرّائحةِ الطَّيِّبة واللَّذاذة الرّائعة"[2].

الغرض من تنكير ﴿عَيْنَا﴾:

أوثِر تنكير ﴿عَيْنَا﴾ لتعظيمها في نوعها، فإنَّ عينًا صفتها أنَّها تحقِّق الرِّيَّ مع اللَّذَّة، وتُشَقُّ حيث شاء مُفجِّرها ومتى شاء لَهِيَ حقًّا عينٌ عظيمة الشَّأن، جليلة القدر.

(1) المنتَجَب الهمدانيُّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 291.
(2) مأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 284.

نكتة وصف ﴿عَيْنًا﴾ بالجملة الفعليَّة ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ونكتة مجيء فعلها مضارعًا:

نعيم الجنَّة دائمٌ يتجدَّد، لا يتكرَّر ولا يتبدَّد

الجملة الفعليَّة موضوعة لإفادة التَّجدُّد والحدوث في زمن معيَّن مع الاختصار[1]؛ ولذا أوثر وصف العين بالجملة الفعليَّة لإفادة تجدُّد فعل الشُّرب مِن أهل الجنَّة، كما تدلُّ عليه صيغة المضارَعَة، وهذا هو المناسب في سياق وصف النَّعيم، فلا هم سئموها، ولا هي نضبت، بل يتجدَّد لهم في كلِّ كأسٍ منها طعمٌ لذيذ لم يعهدوه، جديد لم يذوقوه، فنِعمَ المنعِم ونِعمَ المنعَم!.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِهَا﴾:

يشربون الخمر ممزوجًا بالكافور، وكؤوسها عليهم تدور

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق[2]. وهو هنا بهذا المعنى، وعُدِّي به الفعلُ ﴿يَشْرَبُ﴾؛ "لأنَّ الكافور يُمزَج به شرابُهم؛ أي: عينًا يشرب عبادُ اللّٰه ماءَهم وخمرَهم بها؛ أي: مصحوبًا بمائها وخمرِها"[3]؛ "أي: يشربون بها الخمرَ لكونها ممزوجةً بها كما تقولُ: شربتُ الماءَ بالعسل، فيكون كنايةً عن قوَّتها في لذَّتها، وعلى هذا فيه إشارة إلى أنَّ المقرَّبين الأقوياء يشربون شرابَ الكافور صِرْفًا غير ممزوج"[4]؛ ولهذا "وُصِل فعلُ الشُّرب بحرف الابتداء أوَّلًا، وبحرف الإلصاق آخرًا"[5] وثَمَّ وجه آخر، وهو أنَّه "ضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى (يُروَى) فعُدِّي بالباء"[6]، و"لو قيل: (يشرب منها) لم يدلَّ على الرِّيِّ، فضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى (يُروَى)؛ فعُدِّي بالباء، فقيل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فأفاد ذلك أنَّه شُربٌ يحصل معه

---

(1) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 218، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 381.

(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 263.

(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 668.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 360، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 170 - 171.

الرِّيُّ"[1] "وقيل: ضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ مَعْنى (يلْتَذُّ)"[2]، فصار "كأنَّه قال: يشربون منها فيلتذّون بها"[3]، أو هي إشارةٌ إلى أنَّ العين التي يشرب منها عبادُ اللّه، هي خمرٌ وكأسٌ معًا - إذ يشربون بهذه العين التي هي خمر - يشربون الخمرَ ذاتَها، وهذا يعني أنَّ هذا الشَّراب الذي ينبع مِن تلك العين - لصفائه، ورِقَّته، وشعشعة أضوائه - قد امتزج بالكأس، فصارا معًا كيانًا واحدًا، لا يدري النّاظرُ إليهما، أينظر إلى كأس أم إلى خمر! فكلاهما أصفى مِن الهواء، وأرقُّ مِن الشُّعاع.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِهَا﴾ على الفاعل:

حـريَّـةُ الـعـينُ المـوصـوفـةُ بـالـتَّـقـديـم؛ تنويهًا بالمبالغة في التَّكريم

أوثِر تقديم شبه الجملة على الفاعل في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادة الاهتمام بالمقدَّم، فهذه العينُ المذكورة قد وُصِفت بأوصافٍ تجعلها حريَّةً بأنْ تقدَّم اهتمامًا بها، وللفت الأنظار إليها تنويهًا بشأنها.

الغرض مِن تعريف المسند إليه بالإضافة إلى الاسم الجليل ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾:

الإضـافـة إلى الاسم العظيم تشريفٌ وتكريم

في إضافتهم إلى اللّه ﷻ تشريفٌ وتكريم لهؤلاء الصَّفوة الكرام مِن النّاس، وإضافةُ التَّكريم إلى اسمه الأعظم مختصَّةٌ بالمؤمن في الغالب؛ كالإضافة إلى كناية التَّكلُّم، كقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: 56]؛ فهُم عبادُه، وهُم أهلُ وُدِّه؛ لرعايتهم حقَّ الرُّبوبيَّة، فمَن لم يُراعِه فكأنَّه ليس بعبدٍ له[4].

الغرض من وضع المظهَر ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ موضع المضمَر:

وصف العبوديَّة الـحـقَّـة لـلـه فخار، لا يناله إلّا الأبرار

قوله تعالى: "﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ مرادٌ بهم: الأبرارُ. وهو إظهارٌ في مقام الإضمار؛ للتَّنويه بهم بإضافة عبوديَّتهم إلى اللّه تعالى إضافةَ

(1) ابن أبي العزِّ، تفسير القرآن: 121/ 60.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71.
(3) الطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 190، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 270.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 263، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1357.

تشريف"[1]؛ "فعُبِّر عنهم بذلك لتشريفهم وتكريمهم حيث أضافهم سبحانه إلى ذاته"[2]، ووصفهم بالعبوديَّة تكريمًا لهم وتشريفًا، وفيه معنى الاختصاص[3].

سر الوصف لـ ﴿عَيۡنٗا﴾ بجملتين: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ و﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾:

كثرَتِ النُّعوتُ والأوصاف؛ تفنُّنًا في النَّعيم والإلطاف

وُصِفت ﴿عَيۡنٗا﴾ في هذه الآيات بوصفين: أحدهما قوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، والآخر قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾، وهذان الوصفان يقرِّبان وصف هذه العين التي خلقها اللّه تعالى ليتنعّم بها أهل الجنَّة، فهي **أوّلاً:** يشرب منها عباد اللّه حتَّى الرِّيّ واللَّذَّة، يتكرَّر منهم الشُّرب والتَّروِّي والتَّلذُّذ، فلا ينقطع ذاك أبدًا.

ولمّا كان من الوارد أن يُظَنَّ أنَّ هذه العين إنَّما يُذهَب إليها ليُرتَوَى منها، وقد يُتَصَوَّر في الذَّهاب حصولُ مشقَّة تُنافي مقصد التَّنعُّم - جاء الوصف الثّاني مزيلًا لهذا الوهم، فقال اللّه سبحانه: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾؛ "أي: يُثيرونها من منابعها في روض الجنَّة إثارةً مبهجة، تفنُّنًا في النَّعيم"[4]، فهُم "يسيِّرونها ويُجْرونها إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويتبعهم ماؤها إلى كلِّ مكان يتَّجهون إليه، فالتَّعبير بقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ إشارةٌ إلى كثرتها وسعتها وسهولة حصولهم عليها. يقال: فجَّر فلانٌ الماء، إذا أخرجه من الأرض بغزارة"[5].

دلالة التَّعبير بـ: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ مادة وصيغة:

عيون الجنَّة دائمة التَّفجُّر، لا يبلغها الحدسُ ولا التَّصوُّر

التَّعبير بالمضارع يفيد التَّجدُّد والاستمرار، وهذا ما يظهر في قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾؛ "أي: أنَّها عين تتفجَّر دائمًا كلَّما أرادوا أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 381.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 218.
(3) ابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 437، والدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه: 10/ 343.
(4) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 375.
(5) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 219.

يشربوا مِن خمر هذه العيْن. فما هي إلّا همسةُ خاطرٍ حتَّى تنبع العيْن، ويتفجَّر منها الخمر، على هيئة كؤوس تتناولها الأيْدي مِن قريب"[1]. "وهي عينٌ دائمة الفيضان والجريان، يُفجِّرها عباد اللّه تفجيرًا، أنَّى شاؤوا، وكيف أرادوا، فإن شاؤوا صرفوها إلى البساتين الزّاهرات، أو إلى الرِّياض النّاضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أيِّ جهةٍ يرونها مِن الجهات المونقات"[2] وعبر بالتضعيف لأن "التَّفجير: الإجراء. يقال: فجَرت الماءَ أفجُرُه - بالضَّمّ - فجْرًا فانفجر؛ أي: سُقتُه وأجريتُه فجَرَى"[3]، فالتَّشديد فيه يفيد الكثرة. "والمعنى: يُجْرونها حيث شاؤوا مِن منازلهم كما يفيده بناء التَّفعيل"[4].

الغرض من إسناد الفعل لضمير الجماعة ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾:

جـمـيـع أهـل الجنَّة منعَّمون، وهم في الغرفات مُكرَمون

قوله تعالى ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾؛ أي: يُجْرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلًا، وهذا متفهَّم مِن إسناد التَّفجير إلى عباد اللّه وهم الأبرار؛ أي: يُجْرون مِن منازلهم حيث شاؤوا مِن جنَّتهم[5] فكلُّ واحدٍ منهم منعَّم، وكلُّ واحدٍ يُجري العين حيث شاء.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾:

يُـجـري الأبـــرارُ الأنـــهـــارَ أنَّى شـاؤوا، حيثما ذهبوا أو جاؤوا

"التَّفجير: فتح الأرض عن الماء؛ أي: استنباط الماء الغزير. وأُطلِق هنا على الاستقاء منها بلا حدٍّ ولا نضوب، فكان كلُّ واحد يفجِّر لنفسه ينبوعًا. وهذا مِن الاستعارة. وأكّد فعل ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ترشيحًا للاستعارة"[6]، "فالتَّفجير مجازٌ عن الإجراء؛ لأنَّه لازمٌ له إجراءٌ سهلٌ مستفادٌ مِن التَّأكيد بقوله: ﴿تَفْجِيرًا﴾"[7].

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1358.
(2) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901.
(3) محيي زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 434.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 263.
(5) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 478.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 382.
(7) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 478.

سر التَّقييد بالمفعول المطلَق ﴿تَفۡجِيرٗا﴾:

قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾: "أي: يُجرونها حيثما شاؤوا مِن منازلهم إجراءً سهلًا لا يمتنعُ عليهم، بَلۡ يَجۡري جريًا بقوَّة واندفاع"[1]؛ "لأنَّ الأنهار منقادةٌ لأهل الجنَّة كالأشجار وغيرها، فـ﴿تَفۡجِيرٗا﴾ مصدر مؤكِّد للفعل المتضمِّن معنى السُّهولة"[2]، فتنكير ﴿تَفۡجِيرٗا﴾ للتَّنويع[3]، وهو كذلك مفيد للتَّكثير[4].

لا يصعب على أهل الجنَّة شقُّ نهر، ولا إجراء عيْن

نكتة إيثار الإطناب في ذكر ثواب الأبرار، والإيجاز في ذكر جزاء الكافرين:

أوثر الإطناب في ذكر ثواب الأبرار؛ "لأنَّ الله فصَّل أعمالهم في عدَّة آيات: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾، ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾، فذكر أعمالًا مُتعدِّدة، فكان مقابل ذلك أنۡ يُذكر جزاؤهم مُفصَّلًا كما ذُكرتۡ أعمالُهم مُفصَّلة. أمّا الكفّار فذُكِرتۡ أعمالُهم مُجملَة، وكان مُقابل ذلك أنۡ يُذكَر جزاؤهم مُجمَلًا"[5] وكان وجه المناسبة في ذلك أنَّه "لمّا أوجز في جزاء الكافر أتبعه جزاءَ الشّاكر وأطنب فيه تأكيدًا للتَّرغيب؛ فإنَّ النُّفوس بعد كسر الوعيد لها تهتزُّ لأدنى وعدٍ وأقلّه، فكيف بأتمِّه وأجلِّه؟!"[6].

النُّفوس بعد كسر الوعيد تهتزُّ لأدنى وعدٍ وأقلِّه، فكيف بأتمِّه وأجلِّه

۞ الفُروقُ المُعۡجَميَّةُ:

الكأس والقدح:

الفرق بينهما أنَّ الكأس لا تكون إلا مملوءة، والقدح قد تكون مملوءة أو غير مملوءة[7].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 270، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 262.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 263، والهرريُّ، الحدائق: 30/ 486.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 287، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.
(4) العزُّ بن عبد السَّلام، تفسير القرآن: 3/ 400.
(5) العُثَيمين، تفسير جزء قد سمع وتبارك: 14/ 357.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 135 - 136.
(7) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 314.

والكأس: الزُّجاجة ما دام فيها خمرٌ، فإذا لم يكن فيها خمرٌ فهي قدح[1]؛ فأوثِر في هذه الآية لفظُ (الكأس) دون (القدح)؛ لأنَّ في لفظ (الكأس) امتناعَ كون الإناء فارغًا؛ أي: لا يُحتمَل معه أن تكون الزُّجاجةُ فارغةً.

المزج والخلط:

الخلطُ أعمُّ مِن المزج

الفرق بينهما أنَّ الخلطَ أعمُّ من المزج؛ فإنَّ الخلط - كما سبق- جمعٌ بيْن شيئَيْن فأكثر، سواء كانا مائعَيْن أم جامدَيْن، أم كان أحدُهما جامدًا والآخرُ مائعًا، أمّا المزج فإنَّه يختصُّ بالمائعات[2]؛ فتقول: خلطت بين القمح والشَّعير، ولا تقول مزجتُ بينهما. وبعد الخلط قد يمكن التَّمييز كما في خلط الحيوان، وربَّما لا يمكن كخلط المائعات فيكون مزجًا[3].

فأوثر في هذه الآية (المِزاج)؛ لأنَّ الخمرَ يُمزَج بها الكافور، والكافور: هو اسم عينِ ماءٍ في الجنَّة؛ أي: يمازجه ماء هذه العين التي تُسمَّى كافورًا؛ فهما مائعان؛ لذا أوثِر معهما ما اختصَّ بالمائعات.

التَّفجير والانبجاس:

التَّفجير شَقُّ الشَّيء شَقًّا واسعًا، والانبجاس أكثر ما يقال في ما يخرج مِن شيءٍ ضيِّق. الباء والجيم والسّين: تَفتُّح الشَّيء بالماء خاصَّة[4].

والفاء والجيم والرّاء أصلٌ واحدٌ، وهو التَّفتُّح في الشَّيء[5]. والتَّفجير: شَقُّ الشَّيء شَقًّا واسعًا. والانبجاس أكثر ما يقال في ما

(1) ابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (كأس)، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 6/ 667، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 380.
(2) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (خلط).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير: 1/ 177.
(4) ابن فارس، المقاييس: (بجس).
(5) ابن فارس، المقاييس: (فجر).

يخرج مِن شيءٍ ضيِّق، والانفجار يُستَعمَل فيه وفي ما يخرج مِن شيء واسع[1]؛ فالانفجار أعمُّ[2] فأوثِر في هذه الآية لفظ (التَّفجير) دون (البَجْس)؛ لأنَّ التَّفجيرَ يدلُّ على شَقٍّ واسعٍ وعلى غزارةِ الخَمر الخارجةِ مِن العين.

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي: (بجس).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بجس).

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتين لِما قبلَهُما:

أُتبع الواجبُ بالمندوب؛ لبيان أنَّه مرغوب لديهم ومحبوب

لمّا ذكر ربُّ العزَّة سبحانه جزاءهم على برِّهم المبين لشكرهم؛ بيَّن سبحانه كيف إحسانهم في عملهم[1]، ولمّا كان مَن خاف شيئًا سعى في الأمن منه بكُلِّ ما عساه ينفع فيه، وكان قد ذكر تذَرُّعَهم بالواجب؛ أتبعه المندوب؛ دلالةً على أنَّهم لا رُكونَ لهم إلى الدُّنيا، ولا وُثوقَ بها، فقد جمَعوا إلى كرم الطَّبعِ بالوفاءِ ورِقَّةِ القَلبِ، شرفَ النَّفسِ بالانسلاخِ مِن الفاني[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُوفُونَ﴾: أصل (وفى) يدلُّ على إكمال وتمام[3]. الوفاءُ ضدُّ الغدر، وهو الخلق الشَّريف العالي الرَّفيع، مِن قولهم: وفَى الشَّعر، فهو وافٍ: إذا زاد. وفَى بعَهدِه يَفي وفاءً، وأوْفَى إذا تمَّم العهد، ولم ينقض حفظَه. وأوفاه حقَّه، ووفّاه بمعنى؛ أي: أعطاه وافيًا[4]، والوافي: الذي بلغ التَّمام، وكلُّ شيء بلغ تمام الكمال، فقد وفَى وتمَّ[5]. وتوفية الشَّيء: بذْلُه وافيًا. واستيفاؤه: تناوُلُه وافيًا[6].

2) ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾: أصل (نذر) يدلُّ على تخويف أو تخوُّف[7].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 377، وصديق خان، فتح البيان: 14/ 462.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 137، وسليمان الجمل، الفواتح الإلهيَّة: 8/ 187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفى).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (وفى).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى).
(6) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (وفى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).

الإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلّا في التَّخويف، والاسم: النَّذر. والنَّذير: المُنذِر، والنَّذير: الإنذار. والنَّذر: واحد النُّذور، وهو أنّ توجب على نفسِك ما ليس بواجبٍ لحدوثِ أمرٍ. قال تعالى حاكيًا ما قالتْه مريمُ ابنةُ عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26][1]. مِن قولِك: نذرتُ على نفسي؛ أي: أوجبتُ[2]. تقول العرب: نذر على نفسه نذرًا، ونذرت مالي فأنا أنذُرُه نَذرًا[3]. وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾؛ النَّذر: ما يلتزمه الإنسان مِن صدقةٍ، أو فعلٍ، عبادة[4].

3) ﴿مُسْتَطِيرًا﴾: أصل (طير) يدلُّ على خفَّة الشَّيء في الهواء[5]. الطّائر: كلُّ ذي جناح يسبح في الهواء، وجمعُه: طير، وجمعُ الطَّير: طُيورٌ، وأطيار، وتطيَّر فلانٌ، واطيّر أصلُه التَّفاؤل بالطَّير، ومعناه: تشاءمنا، وأصلُه تطيَّرنا، ثمَّ يُستعمل في كلِّ ما يُتَفاءل به ويُتَشاءم. والاسم منه الطِّيَرة، ومُستَطيرٌ: فاشٍ، ومنه: فجْرٌ مُسْتَطير؛ أي: فاشٍ ومُنتشِر. قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[6].

4) ﴿وَأَسِيرًا﴾: أصل (أسر) يدلُّ على الحبس، وهو الإمساك. الأسر: الشَّدُّ بالقِدِّ. مِن قولهم: أسَرَ القتب يأسِره أسرًا: شدَّه بالإسار، وهو القِدُّ، وسُمّي الأسير بذلك، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذ ومقيَّد وإن لم يكن مشدودًا[7]. وهو أسيرٌ ومأسورٌ، وقيل في جمعه: أسارَى وأُسارَى وأسرَى. وقال تعالى: ﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[8].

المَعنى الإجماليُّ:

بعد أن ذكر اللّه تعالى ثواب هؤلاء المتَّقين الأبرار بيَّن في هذا السّياق القُرآنيِّ صفاتِهم الجليلةَ التي استحقّوا بها ذلك الأجر الجزيل والثَّواب العظيم، وهي: أنَّهم يوفون بما أوجَبوه على أنفُسِهم مِن النُّذور والمعاهدات، وفعل الواجبات، وترك المحرَّمات، ويخافون

(1) الخليل، العين، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (نذر).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (نذر).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (نذر).
(4) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نذر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طير).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طير).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (أسر).

صفاتُ المتَّقين الأبرار استحقَّت الثَّوابَ المضاعفَ مِن العزيز الغفّار

كذلك هولَ يومٍ عظيمٍ كان شرُّه فاشيًا ممتدًّا بالغًا أقصى حدودِ الشِّدَّةِ والفزَعِ والانتشار، كما أنَّهم يُطعِمون الطَّعام على قِلَّته مع حبِّهم وشهوتهم له، وحاجتهم إليه، يطعمونه الفقير الذي لا مال له، والصَّغير الذي لا أبَ له، والسَّجين الذي لا نصير ولا حيلة له، ومِن ثَمَّ كان الثَّوابُ لهم مِن اللّه عظيمًا، والأجرُ مضاعفًا جزيلًا[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الغرض من التَّعبير بالاعتراض:

زيادة الأوصاف في حقِّهم إنصاف

"قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا﴾ اعتراض بين جملة يشربون من ﴿كَأۡسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وبين جملة ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾"[2]، وهذا الاعتراض جاء "مبالغة في وصفهم بالتَّوفُّر على أداء الواجبات؛ لأنَّ مَن وفى بما أوجبه هو على نفسه كان لما أوجبه اللّه تعالى عليه أوفى"[3]. "ولبيان أنَّهم جمعوا بين كرم الطَّبع ولطافة المزاج الحامل على تجويز الممكن المقتضي للإيمان بالغيب"[4].

دلالة الاستئناف في ﴿يُوفُونَ﴾:

بيان الطُّرق الموصلة لما يرجوه العبد ويؤمِّله

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ﴾ استئناف بيانيٌّ هو جواب عن سؤال مِن شأن الكلام السّابق أن يثيره في نفسه السّامع المغتبط بأن ينال مثل ما نالوا مِن النَّعيم والكرامة في الآخرة؛ فيهتمُّ بأن يفعل مثل ما فعلوا، فذكر بعض أعمالهم الصّالحة التي هي مِن آثار الإيمان مع التَّعريض لهم بالاستزادة منها في الدنيا"[5]، أو "كأنَّه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرُّتبة العالية، فقيل: يوفون بما أوجبوه على

---

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 293 - 295.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 382.

(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 668، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 361، وراجع: الخازن، لباب التَّأويل: 4/ 378.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 137.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 171، ومحيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 8/ 435، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 486.

أنفسهم، فكيف بما أوجبه اللّه عليهم من الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ وغيرها! فهو مبالغة في وصفهم بالتَّوفُّر على أداء الواجبات، والإيفاء بالشَّيء هو الإتيان به تامًّا وافيًا"[1]، وهو كذلك "مشتملٌ على نوعِ تفصيل لما يُنبئَ عنه اسم الأبرار إجمالًا"[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُوفُونَ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

المضارع للاستحضار والدِّلالة على الاستمرار

"جيء بصيغة المضارع: ﴿يُوفُونَ﴾، و﴿وَيَخَافُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا﴾؛ مع أنَّ السُّؤال عن حال مَن وقع منهم الوفاء، كأنَّ فعلًا في الماضي قد وقع منهم، واستحقّوا الجزاءَ الحسن عليه؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ هذا الفعل ليس مقصورًا على جماعةٍ بأعيانهم، في زمن معيَّن، بل هو فعل ممتدُّ الزَّمن على مدى الحياة الإنسانيَّة في هذه الدُّنيا، فهو فعل متجدِّد الأزمان، والأعيان، وكأنَّ الجواب هو هكذا: هذا الجزاء لَمَن ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾"[3]. "وذلك مُشعر بأنَّهم يُكثرون نذر الطّاعات وفِعْل القربات، ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنَّذر موجِبًا الثَّناء عليهم"[4] وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ دالّةٌ على تجدُّد خوفهم شرَّ ذلك اليوم على نحو قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾"[5]، "ويخافون عقابَ اللّه بتركهم الوفاء بما نذروا للّه من برٍّ في يوم كان شرُّه مستطيرًا، ممتدًّا طويلًا فاشيًا"[6].

الغرض من إسناد الفعل إلى ضمير واو الجماعة في ﴿يُوفُونَ﴾، و﴿وَيَخَافُونَ﴾:

صفات ثابتة مشترَكة

أُسنِد الفعل إلى ضمير واو الجماعة في: ﴿يُوفُونَ﴾، و﴿وَيَخَافُونَ﴾

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 264، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 486.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 375.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1362.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 382 - 383، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383، ومحمّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 213.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 96.

في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ هذه الصِّفة استثنائيَّة، بل صفة ثابتة وشائعة عن جماعة المؤمنين، كما أنَّه منبِّه إلى روح الوحدة، والصِّفات المشتركة التي تكون لديهم؛ ممّا يرغِّب في التَّكاثر في الخير، ويعظِّم أثره في النُّفوس، ويساعد على انتشاره، ويبعث على التَّعاون في تحقيقه.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾:

التزامهم بما ألزموا أنفسهم تامٌّ وشديد، وحفاظهم على ما أُمروا به ثابت وأكيد

الأصل في معنى (الباء) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الإلصاق[1]. وهي في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾ للإلصاق المجازيِّ، أي أنَّهم يلتزمون بالنَّذر التزامًا تامًّا، "وهذا كناية عن وفائهم بجميع أنحاء العبادة؛ لأنَّ مَن وفى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه اللّه من غير واسطةٍ أوفى"[2].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾:

لام الاستغراق لبيان عظم العطاء

"التَّعريف في ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾ تعريف الجنس؛ فهو يعمُّ كلَّ نذر"[3]. فإنَّ "النَّذر: هو كلُّ ماأوجبه الإنسان على نفسه من فعل".[4] و"النَّذر كناية عن أداء الواجبات كلِّها، لعلم ما عداه بالطَّريق الأولى وإشارة النَّصِّ، فإنَّ مَن أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاءُ ما أوجبه اللّه تعالى عليه أهمَّ له وأحرى، وجعل ذلك كنايةً هو الذي يقتضيه ما روي عن قتادة وعن عِكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظّاهر؛ قالا: أيَ إذا نذروا طاعةً فعلوها"[5].

دلالة العطف في ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

حُسن السّيرة دليله حُسن السَّريرة

"عُطف على ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾؛ لأنَّهم لمّا وُصفوا بالعمل بما ينذرونه أُتبع ذلك

(1) الزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 137.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 219.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 95 - 96.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.

بذِكرِ حُسن نيَّتهم وتحقُّق إخلاصهم في أعمالهم؛ لأنَّ الأعمال بالنِّيّات، فجمع لهم بهذا صحَّة الاعتقاد وحُسن الأعمال"[1]، وفيه إشارة بذلك إلى أنَّ بواطنهم حسنة كظواهرهم[2].

سرُّ إيقاع الفعل ﴿وَيَخَافُونَ﴾ على الزَّمن ﴿يَوۡمٗا﴾، وغرض تنكيره:

يبادر الأبرار بالأعمال يوم الشرور والأهوال

وخوفهم اليوم مجازٌ عقليٌّ جرى في تعلُّق اليوم بالخوف؛ لأنَّهم إنَّما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السَّيئة بالعقاب؛ فعلَّق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة، وانتصب ﴿يَوۡمٗا﴾ على المفعول به لـ﴿وَيَخَافُونَ﴾، ولا يصحُّ نصبه على الظَّرفيَّة؛ لأنَّ المراد بالخوف خوفُهم في الدُّنيا من ذنوبٍ تجرُّ إليهم العقاب في ذلك اليوم، وليس المراد أنَّهم يخافون في ذلك اليوم؛ فإنَّهم في ذلك اليوم آمِنون[3] وقد جاء ﴿يَوۡمٗا﴾ نكرةً؛ لتهويله وتفخيم أمره[4]؛ فالمعنى: ويخافون "شرَّ يومٍ، أو أهوال يوم"[5].

الغرض من وصف اليوم بجملةٍ اسميَّة ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾، ودلالة التَّعبير بـ﴿كَانَ﴾:

يوم القيامة هو يوم الشُّرور والأهوال

الجملة الاسميَّة ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾ تفيد ثبوتَ الشَّرِّ لليوم[6]؛ أي: أنَّ يوم القيامة ثابت على انتشار شرِّه وامتداده، وقد جاء بلفظ ماضٍ ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ لكنَّه يعني المستقبل؛ فهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15] فذكر فعل ﴿كَانَ﴾ للدِّلالة على تمكُّن الخبر من المخبر عنه، وإلّا فإنَّ شرَّ ذلك اليوم ليس واقعًا في الماضي، وإنَّما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يجعل ذلك من التَّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقُّق وقوعه[7] ويحتمل أن يعني

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 137، والخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 452.

(2) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 259.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 219.

(5) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 452.

(6) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56.

(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383.

هذا التَّعبير بالماضي أنَّه كان شرُّه مستطيرًا في علم اللّه وحكمته، كأنَّه تعالى يقول: إيصال هذا الضَّرر إنَّما كان لأنَّ الحكمة تقتضيه؛ وذلك لأنَّ نظام العالَم لا يحصل إلّا بالوعد والوعيد، وهما يوجِبان الوفاء به، لاستحالة الكذب في كلامي. فكأنَّه تعالى يقول: كان ذلك في الحكمة لازمًا؛ فلهذا السَّبب فعلتُه[1].

الغرض من إضافة اسم كان للضَّمير العائد إلى اليوم ﴿شَرُّهُۥ﴾:

يخاف الأبرار يومًا عظيم الشُّرور

إضافة الشَّرِّ للضَّمير العائد إلى اليوم في ﴿شَرُّهُۥ﴾ تفيد تخصُّص الشَّرِّ بهذا اليوم، فكأنَّ هذا الشرَّ شرٌّ خاصٌّ به وحده فله أهوال غير معهودة في غيره. وتفيد هذه الإضافة التهويل والتخويف من هذا الشَّرِّ العظيم، وهذا الوصف لليوم بأنَّ له شرًّا مستطيرًا هو وصفٌ يُشعِر بعلَّة خوفهم إيّاه. فالمعنى: أنَّهم يخافون شرَّ ذلك اليوم، فيتجنَّبون ما يُفضي بهم إلى شرِّه من الأعمال المتوعَّد عليها بالعقاب[2].

الغرض من تنكير الخبر، ودلالة صيغته على اسم الفاعل ﴿مُسْتَطِيرًا﴾:

شرُّه منتشر في أقطار الأرض غاية الانتشار، بالغ أقصى المبالغ

تنكير الخبر ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ للتعظيم؛ فانتشار شرِّ هذا اليوم يبلغ أقصى المبالغ؛ "فالسَّموات تنشقُّ وتنفطر وتصير كالمهل، وتتناثر الكواكب، وتتكوَّر الشمس والقمر، وتفرغ الملائكة، وتبدَّل الأرض غير الأرض، وتنسف الجبال، وتسجَر البحار. وهذا الهول عامٌّ يصل إلى كلِّ المكلَّفين على ما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحجّ: 2]، وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل: 17]"[3]

و(المستطير)صيغ على وزن اسم الفاعل من الفعل (استطار)، والسّين والتّاء فيه للمبالغة، وأصله (طار) مثل استكبر. ولكن (استطار) أبلغ من (طار)؛ لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 746.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 745 - 746.

وللطّلب أيضًا دلالة على ذلك؛ لأنَّ ما يُطلب من شأنه أن يُبالغ فيه. ومنه قولهم: الفجر المستطير، وهو الفجر الصّادق الذي ينتشر ضَوؤه في الأفق. ويُقال: استطار الحريق إذا انتشر وتَلاحق[1].

الغرض من التَّعبير بالاستعارة ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾:

يوم القيامة ينتشر الشَّرُّ كالطَّير فوق الرُّؤوس، فتهابه جميع النُّفوس

الطيران هنا مجازيٌّ مستعار لانتشار الشَّيء وامتداده تشبيهًا له بانتشار الطَّير في الجوِّ، ومنه قولهم: الفجر المستطير، وهو الفجر الصّادق الذي ينتشر ضَوؤه في الأفق، ويُقال: استطار الحريق إذا انتشر وتَلاحق[2]. وفي وصفهم بالخوف مِن ذلك اليوم إشعار بحُسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي[3].

دلالة العطف في ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾:

يُبتغى بالإطعام مرضاة الله

قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿يُوفُونَ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ﴾[4]. و"مجامع الطّاعات محصورة في أمرين التَّعظيم لأمر اللّه تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ الشَّفقة على خلق اللّه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾"[5]. "ومن صفات هؤلاء الأبرار أنَّهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.. فالطَّعام الذي عليه قِوام الحياة وملاكها، لا يؤثرون أنفسهم به، بل يجعلون لَمن يُعوزهم هذا الطَّعام نصيبًا منه، ولو كانوا هم أنفسهم في أشدِّ الحاجة إليه"[6].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾، وغرض إسناده لضمير الجماعة:

إطعامُ الطَّعام مِن الأسباب الموجبة للجنَّة ونعيمها

لّما كان الأبرار مداومين على طاعة ربِّهم سبحانه مُكثرين من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 745، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 745، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 383.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 316.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 746.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 15/ 1362.

الأعمال الصّالحة التي أمر بها اللّه سبحانه جاء قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾ بصيغة المضارع للدِّلالة على التَّجدُّد والتَّكرار[1]، كما أنَّ التعبير بهذه الصيغة يفيد استحضار هيئة الإطعام، حتى كأنَّ السّامع يُشاهد[2]. وهذا التَّكرار المشاهَد في ذهن السّامع يرسِّخ لديه صورة مداومة الأبرار على طاعة اللّه ﷻ بإطعامهم الطعام، ولا تكون إلّا من نفوس تعظِّم أمره؛ فاستحقُّوا بذلك ثوابه وأمنوا من عقابه.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلطَّعَامَ﴾، وسرُّ التَّعبير به مع كونه مفهومًا:

من أفضل أعمال البرِّ إطعام الطَّعام

اللّام في ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ للاستغراق، أيْ: أنَّهم يبذلون من أفضل ما يملكون من كلِّ صنوف الطَّعام، لا من الفضل المتبقّي، أو من أنواعٍ دون أنواع، وقد خصَّ الطَّعام بالذِّكر لكونه "أشرف أنواع الإحسان؛ فلا جرم أن عبَّر به عن جميع وجوه المنافع"[3] والتَّصريح بلفظ ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ مع أنَّه معلومٌ من فعل ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾ توطئة ليُبنى عليه الحال وهو على حبِّه؛ فإنَّه لو قيل: (ويطعمون مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا) لفات ما في قوله ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ من معنى إيثار المحاويج على النَّفس، على أنَّ ذكر ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ بعد ﴿وَيُطۡعِمُونَ﴾ يفيد تأكيدًا مع استحضار هيئة الإطعام، حتى كأنَّ السّامع يُشاهد الهيئة[4]. فذكر الطَّعام؛ لتعيين مرجع الضَّمير على الأوَّل، ولأنَّ الطَّعام كالعلم فيما فيه قِوام البدن واستقامة البنية وبقاء النَّفس؛ ففي التَّصريح به تأكيدٌ لفخامة فِعْلهم على الأخيرين، ويجوز أنْ يعتبر على الأوَّل أيضًا، والظّاهر أنَّ المراد بإطعام الطَّعام حقيقته. وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى المُحتاجين والمواساة معهم بأيِّ وجهٍ كان، وإن لم

(1) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 384.
(3) المراغيُّ، التَّفسير: 29/ 165، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 289.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 384.

يكُن ذلك بالطَّعام بعينه فكأنَّهم ينفعون بوجوه المنافع ﴿مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1].

سرُّ التَّقييد بالحال في ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

الأبرار يبذلون كلَّ غالٍ من أجل مرضاة الله

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حال، إمّا من الطَّعام، أيۡ: كائنين على حبِّهم إيّاه؛ فهو في غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلَّته وشهوتهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: 92]. ليُفهَم أنَّهم للفضل أشدُّ بذلًا، وإمّا من الفاعل. وعلى التقديرَين فهو مصدر مضاف للمفعول، وقال الفضيل بن عياض: على حبِّ إطعام الطَّعام[2]. وإنَّ عبارة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قيدٌ لازم لإدْخال المُطعم للطَّعام في مرتبة الأبرار، وهي فوق مرتبة المتَّقين الذين يكفيهم أن يطعموا الطَّعام الواجب عليهم أن يُطْعِموه، ولو كان هذا الطَّعام غير محبوب لهم، ونظير هذا القَيّدِ القيدُ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]؛ فهو قيد لازم حتى يكون مَن يؤتي المالَ مرتقيًا ببذله إلى مرتبة الأبرار، إذ قدَّم عملًا، هو من أعمال البرِّ، فأعمالُ البرِّ توسُّعٌ في الخير زائِدٌ على أعمال التَّقوى[3].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتها في ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

الأبرار يُطعمون الطَّعام على حبِّهم إيّاه، وشهوتهم له

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[4]. وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ معنى العلو أيضًا، فكأنَّ إطعام الأبرار الطَّعام طاعةً لله تعالى في منزلة أعلى من حبِّهم إيّاه رغم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.
(2) الخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 452.
(3) عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيَّة: 2/ 88 - 89.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.

ارتفاع شأن هذا الحبِّ للطعام في نفوسهم؛ فهو في "غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلَّته وشهوتهم له وحاجتهم إليه"[1].

والمعنى: هم يطعمون طعامًا هم محتاجون إليه.

ولا يخفى معنى المصاحبة هنا، وهو ناشئ عن "تمجُّز في الاستعلاء، وصورته أنَّ مجرور الحرف (على) في مثله أفضل من معمول متعلَّقها؛ فنزل منزلة المُعتلي عليه"[2].

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

آثروا إنفاق الطَّعام رغم قلَّته مع اشتهائه ومحبَّته

مثار المدح ليس في كونهم منفقين ولكن في كونهم ينفقون وهم محتاجون، يخشون الفقر ويأملون الغنى، وإلّا فهناك مَن ينفق الخبيث، وليس هو بآخذه إلّا أنْ يغمض فيه، وهناك مَن ينفق وهو كاره. فلمّا كان الأبرار ينفقون ويطعمون الطَّعام على حبِّه فقدْ اجتازوا العقبة التي ذكر اللّه في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ١١﴾ [البلد: 11]. فكان الاهتمام بالمتقدِّم ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إشارةً إلى أن هذا الطَّعام ليس شيئًا رخيصًا مبتذلًا، كشأنه في أحوال الرَّخاء، ووفرة حاجات النُّفوس منه، وإنَّما هو الطَّعام في أحوال القحط، والجدب، وفي أزمان المجاعات التي تكون فيها لقمة الطَّعام أعزَّ ما يملك النّاس، وأثمن ما يحرصون عليه من مال ومتاع، حتى إنَّ المرء ليسترخص كلَّ عزيز يملكه، في سبيل شيء منه[3].

توجيه عود الضَّمير في قوله ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

الأبرار يقدِّمون حبَّ الله على حبِّ الطعام

"ذكَر اللّه مِن صفاتِ أهلِ الجنةِ إطعامَ الطعام وهم يُحِبّونَه، فيُنفِقونَ مِن نفيسِ مالِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 138.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 384.

(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 294، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 171.

﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: 9][1]، لكن العلماء اختلفوا في مرجع الضَّمير على رأيين:

أوَّلهما: أن يكون الضمير راجعًا للطَّعام[2] لذِكره قبله. والمعنى: أنهم يطعمون الطَّعام.

وهم يحبّونه، لاحتياجهم إليه وتعلُّق أغراضهم به[3]. وهذا عملًا بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وقوله: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾.

وثانيهما: أن يكون الضَّمير راجعًا إلى اسم الجلال من باب الإضمار[4]، ولا ذكر لقوَّة ظهوره. والمعنى عليه: ويطعمون الطَّعام على حبِّ الله لا حبِّ غيره، أي لا يريدون عليه جزاءً ولا شكورًا، ويؤيِّد هذا المعنى قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي أنَّهم يطعمونهم مخلصين العمل لله"[5]، فالمعنى: إمّا على حبِّ الله تعالى رجاء في ثوابه، أو على حبِّ الطَّعام رغم حاجتهم إلى الطَّعام وحبِّهم إليه وشهوتهم والأرجح على حبِّ الطَّعام، ولا مانع من المعنيين[6].

الغرض من تنكير المفعول به ﴿مِسۡكِينٗا﴾:

المسكين عاجزٌ عن اكتساب الطَّعام

قوله تعالى: ﴿مِسۡكِينٗا﴾؛ يعني: "فقيرًا عاجزًا عن الاكتساب، أسكنه الفقرُ في بيته"[7] والتَّنكير فيه لإرادة بيان نوع من أنواع الإطعام أو صنف من أصناف المطعمين، والمعنى: يطعمون أيَّ مسكين كان.

---

(1) الطَّريفيُّ، التفسير والبيان لأحكام القرآن: 4/ 2201.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 668، وانظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 96.
(3) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 166.
(4) الخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 452.
(5) عبد العظيم المطعنيُّ، خصائص التَّعبير القرآني وسماته البلاغية: 1/ 379.
(6) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 214.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 196.

تعدُّد صنوف المقصودين بالإطعام بيان لمثابرة الأبرار

دلالة العطف في ﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾:

"قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾؛ يعني: صغيرًا لا أب له"[1]، ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: مأسورًا لا حيلة له. وعطفهما على قوله تعالى: ﴿مِسْكِينًا﴾ لإفادة تعدُّد صنوف المقصودين بالإطعام، وقد انتقل فيه من الأعمِّ (المسكين) إلى الأخصِّ (اليتيم)؛ واليتيم صغير لا أب له - ذكرًا كان أو أنثى - ثمَّ إلى قوله ﴿وَأَسِيرًا﴾ ويدخل فيه المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي المسلمين[2]. وهذا التَّدرُّج يزيد في شرف عمل الإطعام.

الأسير عاجزٌ عن كسب الطَّعام فلا حيلة له

الغرض من تنكير المفعول به ﴿وَأَسِيرًا﴾:

مِن صفاتِ أهلِ الجنَّةِ إطعامُ الطعام وهم يُحِبّونَه، فيُنفِقونَ مِن نفيسِ مالِهم... وبعضُ السَّلفِ جعَلَ الآيةَ فيمن يُتألَّفُ من الكفّارِ. لكن في "الأسير ثلاثة أقاويل؛ أحدها: أنَّه المسجون المسلم. والثّاني: أنَّه العبد. والثّالث: أسير المشركين[3]. قال سعيد بن جبير: ثمَّ نسخ أسير المشركين بالسَّيف. وقال غيره بل هو ثابتُ الحُكم في الأسير بإطعامه، إلّا أن يرى الإمام قتله. ويحتمل وجهًا **رابعًا:** أن يريد بالأسير النّاقص العقل؛ لأنَّه في أَسْر خبله وجنونه، وإنَّ أَسْر المشركين انتقامٌ يقف على رأي الإمام، وهذا برٌّ وإحسان"[4]. "وقيل: المرأة، لقول النَّبيِّ ﷺ: «اتَّقوا اللّه في النِّساء فإنَّهنَّ عندكم عَوانٍ» أيْ: أسراء"[5] والتَّنكير فيه لإرادة نوع من الأنواع أو صنف من الأصناف، والمعنى: يطعمون أيَّ أسير كان. ففي هذه الآيةِ: "فضلُ إطعامِ الأسيرِ والإحسانِ إليه والرِّفْقِ به"[6].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 196.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 139.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 98.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 166 - 167.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 294.
(6) الطَّريفيُّ، التفسير والبيان لأحكام القرآن: 4/ 2201.

نكتة تخصيص الأنواع الثَّلاثة ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾:

خُصِّص شديدو العناء؛ فهمْ أولى بالبذل والعطاء

"خُصِّصَت الأنواع الثَّلاثة بالذِّكر؛ لأنَّهم من العجزة المعدومين الكسب"[1]؛ لأنَّ المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه عمّا يكفيه، واليتيم مات مَن يكتسب له وبقي عاجزًا عن الكسب لصغره، والأسير لا يتمكَّن لنفسه نصرًا ولا حيلة[2].

نكتة ترتيب المطعمين على هذا النَّحو ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾:

صاحِب الاحتياج الكثير أولى بالتَّقديم

جاء الترتيب في الآية الكريمة على ترتيب الحاجة عند هذه الصنوف؛ أي "أن اللّه جلَّ ثناؤه بدأ بذوي الحاجة الذين قد أذلَّتهم الحاجة: ﴿مِسۡكِينٗا﴾، ثم قال: ﴿وَيَتِيمٗا﴾ وهو الطِّفل الذي قد مات أبوه، ولا شيء له، ﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو الحربيُّ من أهل دار الحرب يُؤخذ قهرًا بالغلبة، أو من أهل القبلة يُؤخذ فيُحبس بحقٍّ، فأثنى اللّه على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرُّبًا بذلك إليه وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم"[3] فالمسكين عاجز عن اكتساب قوته بنفسه، واليتيم مات اللذان يكتسبان له، فبقي عاجزًا عن الكسب لصغره، والأسير لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا نصرًا ولا حيلةً"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوفاء والأداء:

في الوفاء إتمامٌ وفي الأداء إيصال، والوفاء يتضمَّن الأداءَ بوجهٍ من الإتمام

الوفاء: إيصال الشَّيء إلى الشَّيء أو وصوله مِن تلقاء نفسِه[5]. والوفاء أيضا: إتمام العهد وإكمال الشَّرط. ويقال: أوفيتُه الشَّيءَ، إذا قضيتُه إيّاه وافيًا. وأوفَيته حقَّه، ووفَّيته أجرَه كلَّه وحسابه ونحو

(1) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 259.
(2) الخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 452.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 97.
(4) سليمان الجمل، الفواتح الإلهيَّة: 8/ 188، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 318.
(5) ابن فارس، المقاييس: (أدي).

ذلك[1]، والأداء: ما يجب دفعُه وإعطاؤه لمستحقّه كأداء الأمانة[2]. ويقال: أدَّى فلانٌ ما عليه أداءً وتأديةً، وفلانٌ آدَى للأمانة مِن فلان[3]؛ لذا أوثِر لفظ (الأداء) في قول اللّه ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء: 58]، والنَّذْر: ما يعتزمه المرءُ ويعقد عليه نيَّته[4]، فيتبيَّن مِن ذلك أنَّ في النَّذر عهدًا يأخذه المرءُ على نفسه، فناسب ذلك لفظ (الوفاء)؛ لأنَّ فيه إتمامَ العهد وحفظه وعدم نقضه، وقد وردَ في تفسير قول اللّه ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: أنَّهم يوفون بما فرض اللّه عليهم مِن الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجّ والعمرة وغيره مِن الواجبات[5]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الوفاء يشمل الأداء بوجهٍ مِن الإتمام، أي: أداء ما وجَبَ عَلى المُؤَدّي وافيًا دون نقصٍ ولا تقصيرٍ فيه[6]؛ ولذا أوثِر (الوفاء) دون (الأداء) في هذه الآية. وورد أنَّهم يوفون بما عقدوه على أنفسهم مِن حقِّ اللّه، وأنَّهم يتمِّمون العهود[7].

المستطير والمنتشر:

الاستطارةُ تدلُّ على سرعة الانتشار والامتداد في جميع الجهات

المعنى المحوريُّ لجذر المنتشر: تفرُّقٌ ببسط وامتداد[8]. يقال: نشرت الثَّوبَ: بسطته، ونشرت الكتاب: خلاف طويته، ونَشَرتِ الأرضُ، إذا أصابها الرَّبيعُ فأنبتت بأمر اللّه تعالى وقدرته[9] والمعنى المحوريُّ لجذر المستطير: انتشارُ الشَّيء مِن مقرِّه مرتفعًا في الهواء بخفَّة بالغة؛ ويُقال مِن هذا: تطاير الشَّيء: تفرَّق[10]، واستطار البرق، إذا انتشر في أفق السَّماء[11].

(1) ابن فارس، المقاييس: (وفي).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (أدي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (أدي).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 382.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 127.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 382.
(7) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 116، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 127.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشر).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (نشر).
(10) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، المقاييس: (طير).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طير).

ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ لفظ (الاستطارة) يدلُّ على سرعة الانتشار والامتداد في جميع الجهات؛ ولذا أوثِر لفظ (الاستطارة) دون (الانتشار) في قول الله ﷻ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾؛ أي: ممتدًّا فاشيًا[1]، فلفظ (الاستطارة) أدلُّ مِن (الانتشار) على سرعة[2] فُشوِّ شرِّ ذلك اليوم حتى يملأ السَّماوات والأرض. وقال مقاتل: كان شرُّه فاشيًا في السَّماوات فانشقَّت، وتناثرت الكواكب، وفَزِعَت الملائكة، وفي الأرض نُسِفَتِ الجبالُ وغارت المياه[3] وفي الاستطارة طيرانٌ مجازيٌّ مستعارٌ لانتشار الشَّيء وامتداده تشبيهًا له بانتشار الطَّير في الجوِّ[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 542، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 294.
(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 166.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 128، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 419.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 383.

﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾ [الإنسان: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لما قبلَهُما:

تنوَّعت سُبُل البذل والعطاء؛ فـفـازوا بالرِّضا وجزيل الثَّناء

لمّا ذكر المولى سبحانه أنَّ الأبرار يُحسِنون إلى هؤلاء المحتاجين بيَّن أنَّ لهم فيه غرضيْن: أحدُهما: تحصيل رضا الله تعالى والآخَر: الاحتراز مِن خوفِ يوم القيامة[1]؛ لطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا لما ينبغي أن يكون عليه مَن أخلَص لله، ولم يُرِدْ بعبادته أحدًا سواه[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبُوسٗا﴾: أصل (عبس) يدلُّ على تكرُّهٍ في الشَّيء[3]. عبَس الرَّجُل يعبِس عُبوسًا، فهو عابسٌ: كَلَحَ، والعُبوسُ: قُطوبُ الوجهِ مِن ضيق الصَّدر، واستعير العَبوسُ للزّمان، كما استعير له الشدّة والصعوبة، ومنه قيل: يومٌ عَبوس؛ أي: شديد. قال تعالى: ﴿يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾[4].

2) ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾: يومٌ قَمْطَريرٌ وقُماطِر: شديدٌ، قال تعالى: ﴿عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾؛ أي: منقبِضًا لا انبساط فيه[5]. واقْمَطَرَّ يومُنا: اشتدَّ وتقبَّض، واقْمَطَرَّ للشَّرِّ: تهيّأ. ويُقالُ: اقْمَطَرَّت عَلَيْهِ الحِجارَةُ، أي تَراكَمَتْ وأظَلَّتْ؛ والقَمْطرير: المُقَبِّضُ ما بَيْنَ العَيْنين، ومعناه: (شديدًا غليظًا يُعَبِّسُ الوَجْهَ فيَجْمَعُ ما بَيْنَ العَيْنَيْن)[6].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 748.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 191.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبس).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (عبس).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (قمطر).
(6) الجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قمطر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رضا الله أمانٌ ونجاة، لِمَن أخلصَ في عمله واتّقاه

يبين النظم الكريم في هاتيْن الآيتيْن مقصد هؤلاء المؤمنين الصّادقين مِن الإنفاق في سبيل اللّه، وإطعام الطَّعام؛ فيذكر على لسان حالهم أنَّهم إنَّما يفعلون ذلك ابتغاءَ رضا اللّه تعالى ونيلِ الأجر والثَّواب منه سبحانه ولا يقصِدون مِن وراء ذلك عِوضًا أو مدحًا أو ثنًاء مِن النّاس؛ لأنَّهم يَرجون مِن اللّه بذلك أن يُؤَمِّنهم مِن عقوبته في يوم القيامة ذي الأهوال العظيمة، والضّيقِ والشِّدَّةِ الَّتي لا نجاةَ منها إلّا بالخوف منه سبحانه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ﴾ ممّا قبله ودلالته:

أخلص الأبرار في عملهم، ففازوا بجنَّة ربِّهم

"جملة: ﴿نُطۡعِمُكُمۡ﴾ في محلِّ نصبِ مقولِ القول لقولٍ مقدَّر هو حالٌ مِن فاعل (يُطْعِمونَ)؛ أي: يطعمون الطَّعام قائلين: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ﴾"[2]؛ أي: أنَّهم "يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ﴾ في اللّه - جلَّ ثناؤه - فزعًا مِن عذابه وطمعًا في ثوابه؛ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً﴾؛ أي: مكافأةً، ﴿وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي: ولا أنْ تُثنوا علينا بذلك. قال ابن عبّاس: كذلك كانت نيّاتُهم في الدُّنيا حين أطعَموا. وعن سالم عن مجاهدٍ قال: أما إنَّهم ما تكلَّموا به، ولكنْ عَلِمه اللّه - جلَّ ثناؤه - منهم فأثنى به عليهم، ليرغب في ذلك راغب"[3].

"فمَن حَمَله على القول باللِّسان قال: إنَّما قالوا ذلك لِمَن أطعَموه ليُفْرِغوا قلبَه عن توهُّمِه أنَّهم يريدون منه ذلك"[4]؛ وذلك "لأنَّ

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 546 - 549، والمجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة، المنتخَب، ص: 872.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 185.

(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 130.

(4) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 141.

إحسانَهم مفعولٌ لوجه اللّه، فلا معنى لمكافأة الخلق، وأن يكون قولُهم لهم لطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما ينبغي أنْ يكون عليه مَن أخلصَ للّه. ويجوز أن يكون ذلك بيانًا وكشفًا عن اعتقادهم وصحَّة نيَّتهم وإنْ لم يقولوا شيئًا"[1]. وعلى كلٍّ فإنَّ جملة ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ﴾ "تعليل لبيان سبب الإطعام"[2].

بلاغة التَّعبير بأسلوب القصر بطريق ﴿إِنَّمَا﴾:

بالغَ الأبرار في توكيد الإخلاص، وعدم ابتغاء شُكور مِن النّاس

القصر ضربٌ مِن ضروب توكيد الكلام ليقع مِن المتلقّي موقعًا ينأى به عن الشَّكِّ والارتياب. والقصر بـ(إنَّما) يكون - غالبًا - لما هو ظاهرٌ ممّا لا ينكره المخاطَب، أو ما نُزِّل هذه المنزلة[3]؛ ولذا أوثر هنا؛ فإنَّ المسكين واليتيم والأسير إذا رأوا مِن ظاهر حال الأبرار ما يدلُّ على صلاح باطنهم، وقد استظلّوا بدَوْح عطاياهم - إذا رأوا ذلك فإنَّه لا يصدر منهم - غالبًا - إنكار أنَّ الأبرار إنَّما يفعلون هذا ابتغاء وجه اللّه؛ لأنَّ ظاهر حالهم قد أنبأ عن ذلك، فحسُن هنا استخدام (إنَّما) في القصر دون غيرها.

وثَمَّ توجيه آخر، وهو أن يقال: إنَّ "القصر المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾ قصرُ قلْبٍ مبنيٌّ على تنزيل المطعَمين منزلةَ مَن يظنُّ أنَّ مَن أطعمهم يمنُّ عليهم ويريد منهم الجزاء والشُّكر بناء على المتعارف عندهم في الجاهليَّة"[4].

سرُّ التَّعبير بأسلوب التَّكميل ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ﴾:

أثنى اللّه على الأبرار المطعِمين؛ ليكونوا أسوةً للعالمين

لمّا وصف اللّه تعالى الأبرار بالجود في قوله - سبحانه: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾، ثمَّ أتبعه بوصفهم بالإخلاص فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 668.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 317.
(3) السّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 2/ 250 - 251.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 385.

﴿مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾. ووصفُهم بالإخلاص بعد الجود هو مِن باب التَّكميل[1]؛ "فقد وصفهم أوَّلًا بالجود والبَذل، وكمَّله بأنَّ ذلك عن إخلاص لا رياءَ فيه"[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع المسند إلى ضمير الجمع ﴿نُطۡعِمُكُمۡ﴾:

يتعاون الأبرار على طاعة الله، ولا يبتغون الثَّواب مِن أحدٍ سواه

يؤتَى بالمضارع للدَّلالة على الحال والاستقبال مع إفادة التَّجدُّد والاستمرار، وقد أُتي به هنا للدَّلالة على تكرُّر فعل الإطعام مِن الأبرار للمساكين واليتامَى والأُسارى، وأنَّ هذا الفعل هو مِن عاداتهم التي يحرصون على المداومة عليها ابتغاء رضوان اللّٰه تعالى، وهم يشتركون فيه مِن باب التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، وهذا يُلمَح مِن إسناد المضارع لضمير الجمع: ﴿نُطۡعِمُكُمۡ﴾.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾:

اختصّوا خالقَهم بالقُربات، فنالوا في الجنّات أعلى الدَّرجات

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[3]، وهو هنا بهذا المعنى، فإنَّ قوله: ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: له سبحانه خاصَّة[4]، فهي قُربة اختصّوا بها خالقهم مخلصين له العبادة والعمل.

بلاغة التَّعبير بالمجاز في ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾:

أطاعوا الله ذا الجلال، فاستحقّوا الإكرام والإجلال

قوله تعالى: ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: "رجاءَ ثواب اللّٰه ورضاه"[5]. "وإطلاق الوجهِ على الذّاتِ مجازٌ مشهور"[6]؛ "أي: لِذاتِ الملِك الذي استجمع الجلالَ والإكرامَ لكونه أمَرَنا بذلك.

(1) "وهو أن يأتي المتكلِّم أو الشّاعر بمعنًى مِن معاني المدح أو غيره مِن فنون الشِّعر وأغراضه، ثمَّ يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، فيكمّله بمعنًى آخر"، يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير في صناعة الشِّعر والنَّثر، ص: 357.
(2) القنّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 464.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.
(4) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 214.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 289.
(6) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 375.

وعُبِّر بالوجه؛ لأنَّ الوجه يُستَحَى منه ويُرجَى ويُخشَى عند رؤيته"[1].

كمال الاتِّصال وبلاغته بين الجملتين ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ﴾:

يتأكَّد المعنى إذا نُفيَ ضدُّه، وتُعلَم بهذا حقيقتُه وحدُّه

"جملة: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ مبيّنة لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾"[2]، ومقرِّرة لها، ومؤكِّدة لمعناها[3]؛ "لأنَّ مَن أطعم لوجه اللّه لا يريد المكافأة ولا يطلب الشُّكر له ممَّن أطعمه"[4] فبيْن الجملتين كمالُ اتِّصال؛ ولذا لم يُجمَع بينهما بالواو، وفائدة كمال الاتِّصال هنا أنَّ "القوم لمّا قالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ بقيَ فيه احتمالٌ أنَّه أطعمه لوجه اللّه ولسائر الأغراض على سبيل التَّشريك؛ فلا جرمَ نفَى هذا الاحتمالَ بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾"[5].

دلالة التعبير بالمضارع المنفي ب(لا):

من سمات الأبرار دوام الإخلاص، وترك مراءاة أحد من النّاس

في قوله: ﴿لَا نُرِيدُ﴾ دخل حرفُ النَّفي ﴿لَا﴾ على الفعل المضارع ﴿نُرِيدُ﴾، وهو - في هذا السِّياق - أفاد استمرار النَّفي، فكأنَّهم قالوا: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ﴾ في الحال والاستقبال، دائمًا وأبدًا ﴿جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، فإنَّما فعلنا ما فعلناه ابتغاء وجه ربّنا ﷻ.. يقول كلُّ واحد منهم ذلك، فقلوبهم جميعًا مخبِتة.

معنى (مِنْ) ودلالتها، والمراد بضمير الخطاب:

غاية الأبرار المطعمين رضا الله ربِّ العالمين

الأصل في معنى (مِنْ) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[6]، وهي بهذا المعنى هنا في قوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ﴾، فقد جعلوا المطعَمين ابتداءَ نفي إرادتهم الجزاءَ والشُّكور؛ أي: لا نريد

---

(1) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 453.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 385.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 266، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 172.
(4) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 419، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 464.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 748.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.

أيَّ جزاء أو شكور يكون ابتداؤه منكم أيُّها المطعَمون، بل مِن اللّه الكريم سبحانه.

الغرض مِن تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾:

لا يريد الأبرار أجرًا مِن النّاس إطلاقًا، بل مِن الله طمعًا وإشفاقا

أوثر تقديمُ شبه الجملة ﴿مِنكُمۡ﴾ على المفعول به ﴿جَزَآءَ﴾ في قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءَ وَلَا شُكُورًا﴾ لإفادة التَّخصيص؛ أي: لا نريد منكم خصوصًا جزاءً ولا شكورًا، بل نريده مِن ربّنا - سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، كما أنَّ هذا التَّقديم قد أفاد معنى لطيفًا يحسُن أن يراعَى في مثل هذه السِّياقات، فإنَّ الفقير إذا أُعطيَ شيئًا كبيرًا مِن المال أو الطَّعام فإنَّه قد تذهبُ نفسُه إلى أنَّ هذا الذي أنفق عليه إنَّما أعطاه ما أعطاه لأنَّه يريد منه شيئًا في مقابل هذا العطاء، فإذا قال له الغنيُّ المنفِق: (لا أريد منك) - بتقديم الضَّمير العائد على المخاطَب - فإنَّ نفسَ المخاطَب تطمئنُّ بمجرَّد سماع هذا القدر بغضِّ النَّظر عن سماعه لما نُفيَت إرادتُه. وعلى هذا قد وردت الآية، فقد أراد الأبرار طمأنة نفوس المساكين واليتامَى والأُسارَى إلى أنَّهم لا يريدون منهم شيئًا ألبتَّة بهذا الإطعام.

الغرض مِن التَّنكير في ﴿جَزَآءَ﴾:

قوله: ﴿جَزَآءَ﴾ نكرة وردت في سياق النَّفي: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءَ﴾، فهي مفيدةٌ للعموم؛ أي: لا نريد منكم أيَّ جزاء، ولو كان يسيرًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿جَزَآءَ﴾ دون أجرًا:

في الجزاء معنى المكافأة، وفي الأجر معنى الإثابة

أوثِر التَّعبير بالجزاء دون الأجر في قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءَ وَلَا شُكُورًا﴾ لتحقيق معنى يؤدِّيه الجزاء دون الأجر؛ إذ "الفرق بين الجزاء والأجر أنَّ الأجر ما يعود مِن ثوابِ العمل دنيويًّا كان أو أُخرويًّا، ويُقال فيما كان عن عَقد وما يجري مجرى العقد، ولا يُقال إلّا في النّافع. وأمّا الجزاء فيُقال فيما كان عن عَقدٍ وغير عَقد،

ويُقال في النّافع والضّارِّ. والمجازاةُ: المكافأةُ، وهي مقابَلَةُ نِعمةٍ بنِعمةٍ هي كُفؤها"(1).

دلالة العطف في ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ وسرُّ التَّرتيب:

لا يريد الأبرار مِن النّاس جزاءً ماليًّا، ولا ثناءً قوليًّا

قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾؛ "أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أنْ تشكرونا عند النّاس"(2)، فلا نريد "جزاءً بالفعال، ولا شكورًا بالمقال"(3).

فعطفُ الشُّكور القوليِّ على الجزاء الماليّ جاء لحصر أقسام المكافأة على العطاء، فهي لا تخرج عن أحد هذين، فلمّا نفى الأوَّل وهو الجزاء، كان مِن الجائز أن يكون الثّاني وهو الشُّكور مرادًا، فجاء العطف ليقطع هذا الوهم فقال: ﴿وَلَا شُكُورًا﴾.

وقُدّم نفي إرادة الجزاء على نفي إرادة الشُّكور مِن باب التَّدلّي مِن الأعلى للأدنى؛ فإنَّ المتبادَر - ممَّن يريد المكافأة على الإحسان - أن يطلب الجزاء الماليَّ أو الفعليَّ كونه أوقع في النُّفوس مِن الثَّناء القوليّ؛ فلذا قُدِّم، وأُتبِع بنفي قسيمه استيعابًا لهما، وإمحاضًا للعمل لنيل رضا اللّه تعالى وحده.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿شُكُورًا﴾:

يخشى الأبرار على أعمالهم مِن شوائب الرِّياء، وكثرة الثَّناء

قوله: ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ يجوز أن يكون جمع (الشُّكْر)؛ مثل: (الفَلْس، والفُلوس). ويجوز أن تكون مصدرًا واحدًا في معنى جميع مثل: (قَعَد قُعودًا)، و(خَرَج خُروجًا)(4) وقد "اختير هذا المصدر المزيد كالدُّخول والخروج والقعود؛ إيماءً إلى أنَّ المنفيَّ ما يتكلَّف له، وأمّا مثل المحبَّة والدُّعاء فلا، ولو أرادوا شيئًا مِن ذلك لما كان للّه"(5).

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 266.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 289.
(3) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 167.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 560.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 140.

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾:

سببُ الإطعام الخوفُ مِن العذاب، وغايتُه الطَّمع في الأجر والثَّواب

أوثر فصلُ قوله تعالى في حكاية قول الأبرار: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾؛ لأنَّه بدلٌ مِن قوله: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ واقعٌ في معرض التَّعليل[1]. "وهذه الجملة جوِّز أن تكون علَّةً لإحسانهم وفِعلهم المذكور كأنَّه قيل: نفعل بكم ما نفعلُ؛ لأنّا نخاف يومًا صِفتُه كيت وكيت، فنحن نرجو بذلك أن يَقيَنا ربُّنا - ﷻ - شرَّه، وأن تكون علَّةً لعدم إرادة الجزاء والشُّكور؛ أي: إنّا لا نريد منكم المكافأةَ؛ لخوف عقاب اللّه تعالى على طلب المكافأة بالصَّدقة"[2]؛ فلذلك "نتصدَّق لوجهه حتَّى نأمن مِن ذلك الخوف"[3] ويُجمَع بينهما فيقال: إنَّما نطعمكم طمعًا وخوفًا مِن اللّه المطلوبِ مرضاتُه وثوابُه؛ للخوف مِن غضبه وعذابه"[4].

سرُّ تعليل الإطعام بعلَّتيْن، وتعليل الإيفاء بالنَّذر بعلَّة واحدة:

الإطعام مظنَّة طلب السُّمعة والرِّياء؛ فلذلك عُلِّل بالإخلاص والخوف والرَّجاء

أورد النظم القرآني تبرير أهل الجنة بإطعام الطعام وتعليلهم بِعلَّتَيْن: **الأولى**: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾، **والثانية**: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾، وذكر تعليلهم الوفاء بالنذر بعلة واحدة: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ فإنْ قيل: فما السَّبب فيه؟ قلنا: الإيفاء بالنَّذر دخل في حقيقة طلبِ رضاء اللّه تعالى وذلك لأنَّ النَّذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل اللّه، فلمّا كان كذلك لا جرم ضمَّ إليه خوفَ القيامة فقط، أمّا الإطعام فإنَّه لا يدخل في حقيقة طلب رضا اللّه، فلا جرم ضمَّ إليه طلبَ رضا اللّه، وطلبَ الحذر مِن خوف القيامة[5].

---

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 385.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 173.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 197.
(4) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 156.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 749.

أكَّد الأبرار نفي إرادة الجزاء والشُّكور، إلّا مِن المنعِم الغفور

الغرض مِن مجيء الخبر جملة فعليَّة ﴿نَخَافُ﴾، ونكتة مجيء فعلها مضارعًا:

أوثر التَّعبير بالمسند الفعليّ تقويةً للحُكم وتوكيدًا له، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه (وهو هنا الضَّمير المتَّصل بالحرف النّاسخ ﴿إِنَّا﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به، العائد أيضًا على المسند إليه (وهو هنا الضَّمير المستتر في ﴿نَخَافُ﴾)، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[1] فقد أراد الأبرار توكيد نفي إرادتهم للجزاء والشُّكور مِن النّاس، وأنَّهم لم يفعلوا ما فعلوا إلّا ابتغاء وجه اللّه تعالى ومجيء الفعل ﴿نَخَافُ﴾ مضارعًا أفاد معنى تجدُّد الخوف في القلب، فهو كالمِرجل المتَّقد لا تخبو نارُه، ولا تسكن حركتُه، فيحرِّك الجوارح دائمًا إلى فعل ما ينجّيها مِن عذاب يوم القيامة. فإنَّ "خوفَهم مِن اليوم كنايةٌ عن عملِ ما يؤمِّنُهم فزَعَه وهَولَه مِن الصّالحات"[2].

من لوازم الولاية جعلُ خوفِ الله المبتدأ والغاية

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن رَّبِّنَا﴾:

يجوز أن تكون من ابتدائية في قوله: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ كأنَّه جعل الرَّبَّ ابتداءَ الخوفِ وأصلَه."ويجوز أن تكون (مِن) تجريديَّة كقولك: (لي مِن فلانٍ صديقٌ حميم). ويكون ﴿يَوْمًا﴾ منصوبًا على الظَّرفيَّة... ويجوز أن تجعل (مِن) لتعدية فعل ﴿نَخَافُ﴾ كما عُدّي في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: 182]، وينتصب ﴿يَوْمًا﴾ على المفعول به لفعل ﴿نَخَافُ﴾ فصار لفعل ﴿نَخَافُ﴾ معمولان. و﴿عَبُوسًا﴾ صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، والمعنى: نخاف عذاب يوم هذه صفته، ففيه تأكيد الخوف بتكرير متعلَّقه ومرجع التَّكرير إلى كونه خوفَ اللّه؛ لأنَّ اليوم يومُ عدلِ اللّه وحُكمِه"[3].

(1) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 376.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 386.

سرّ الإضافة في ﴿رَّبِّنَا﴾ ودلالة التَّعبير بالرُّبوبيَّة:

ما مِن شرف أعظم مِن العبوديَّة لله، والنِّسبة إلى طاعته ورضاه

الإضافة في قوله: ﴿رَّبِّنَا﴾ إضافة محضة، والغرض منها تشريف المضاف، فما مِن شرف أعظم مِن شرف العبوديَّة للرَّبِّ الجليل، وأوثر التَّعبير بالرُّبوبيَّة هاهنا لأنَّ مِن لوازم الرُّبوبيَّة: الخلْقَ، والرّزق، والملك، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[1]. وهي لوازم مرادة هنا، مناسبة لسياقها، فكأنَّهم نسبوا كلَّ ما هم فيه مِن توفيق للأعمال الصّالحة إلى مَن بالفضل ربّاهم وأحسن إليهم. ووجهُ ذلك أنَّه "لمّا كان الخوف مِن المحسِن بالنَّظر إلى إحسانه موجبًا للخوف منه بالنَّظر إلى عزِّه وجبروته وسلطانه مِن باب الأَوْلى قالوا: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾؛ أي الخالق لنا، المحسِن إلينا"[2].

الغرض مِن تقديم ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ على الظَّرف ﴿يَوْمًا﴾:

مَن خاف الله الأحد، هان في عينه كلُّ أحد

أوثر تقديم شبه الجملة ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ على الظَّرف ﴿يَوْمًا﴾ لإفادة التَّخصيص؛ أي: إنَّنا نخاف مِن ربِّنا خصوصًا، لا مِن أحد غيره.

بلاغة الإيجاز بالحذف في ﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾:

قوله: ﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ فيه إيجاز بحذف المضاف، والتَّقدير: نخاف عذابَ يومٍ صفتُه كذا. أو لأنَّ خوفه كنايةٌ عن خوف ما فيه[3].

الغرض مِن تنكير ﴿يَوْمًا﴾:

أوثر تنكير كلمة ﴿يَوْمًا﴾ لإفادة "التَّعظيم؛ أي: نخافه في يوم شديد"[4]، ذي أهوالٍ، فهو يومٌ هو في غاية العظمة[5].

الغرض من التَّعبير بالاستعارة في ﴿عَبُوسًا﴾ وسرُّ وقوعه صفة لـ﴿يَوْمًا﴾:

السُّلطان إذا عبَسَ خيف، فيكون اليوم العَبوس هو اليوم المَخوف

في وصفِ اليومِ بالعبوس في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ مجازٌ على طريقيْن:

(1) أحمد الزّامليُّ، الآيات القرآنيَّة الواردة في الرَّدِّ على البدع المتقابلة - دراسة عقديَّة: 1/ 194.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 141.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 288، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 172.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 386.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 141.

أحدهما: أنْ يوصَفَ بصفةِ أهلِه مِن الأشقياء، كقولهم: نهارُك صائمٌ، فقد رويَ أنَّ الكافرَ يعبَس يومئذٍ حتَّى يسيل مِن بين عينيه عَرَقٌ مِثلُ القَطِران.

والآخر: أنْ يشبَّه في شدَّته وضراوته وضرره بالأسد العَبوس أو بالشُّجاع الباسل[1]، وهو على الأوَّل مِن الإسناد المجازيِّ، مِن قبيل إسناد الشَّيء إلى زمانه؛ كقولهم: (نهارُه صائمٌ)، وهو على الثّاني مِن الاستعارة المكنيَّة[2]، حيث "شُبِّه اليوم الذي تحدُث فيه حوادثُ تسوؤهم برَجُلٍ يخالطُهم يكون شرسَ الأخلاقِ عَبوسًا في معاملته"[3] أو "شبّه اليومُ بالأسد العَبوس الكريه المنظر في شدَّة عُبوسه، لِمَن يراه تشبيهًا مضمَرًا في النَّفس، وجعل ثبات لازم المشبَّه به له – وهو العُبوسة – دليلًا على ذلك التَّشبيه المضمَر على سبيل الاستعارة بالكناية والتَّخييليَّة"[4] وقد "وُصِفَ اليوم بأنَّه هو العَبوس القَمطَرير؛ لأنَّه يطَّلع على النّاس أغبرَ متجهِّمًا، يرمي بالنُّذُر والمهلِكات.. وإنَّه على صفحة الأيّام واللَّيالي تنطبعُ أحوالُ النّاس، فالحزينُ يرى الحُزنَ مخيِّمًا على وجه أيّامِه ولياليه، والمتوجِّع الشّاكي، لا يسمعُ مِن أصداءِ الزَّمَن إلّا توجُّعًا وأنينًا، على حين يجدُ الخليُّ المغتبِطُ الأيّامَ واللَّياليَ تغازِلُه بالبسماتِ والضَّحِكات.. وهكذا تتلوَّن ساعاتُ الزَّمَن بألوانِ النُّفوسِ، وتصطَبِغ بما فيها مِن مَساءات أو مَسرّات"[5].

الجمع بين العبوس والقمطرير مبالغة في الوصف، وبراعة في الرَّصف

سرُّ الوصف بـ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾:

"القَمْطَريرُ: هوفي معنى العُبوس والازْبِداد. تقولُ: اقْمَطَرَّ الرَّجُلُ:

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 669، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 749.
(2) الطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 192، والصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 275.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 386.
(4) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 436.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1364 - 1365.

إذا جَمَعَ ما بين عَيْنَيْهِ غضبًا"[1]. "فالقمطرير: الشَّديد العُبوس"[2]، و"هو أشدُّ ما يكون مِن الأيّام"[3]، "وأطوله في البلاء"[4] وقوله: ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ "وصفٌ للعُبوس بأنَّه عُبوس بالغُ الغرابة في شدَّته، مُتَناهٍ في صفته. ولفظُ (القمطرير) يحكي بجرسه ما يشبه هدير الرَّعد، وقصف العواصف. فبناؤه اللَّفظيُّ يجسِّم أصدقَ صورةٍ لمعناه"[5] وهو تأكيد في المعنى؛ "لأنَّه لو اكتفى بقوله: ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ لكفى، لكن جمع بينهما للمبالغة"[6].

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في الآية:

مَن خاف نجا وجلّ، ومَن أمِن هلك وضلّ

قوله تعالى في حكاية كلام الأبرار: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ "هو مَقولٌ لقولٍ يقولونه في نفوسهم، أو ينطقُ به بعضُهم مع بعضٍ، وهو حالٌ مِن ضمير (يَخافونَ)؛ أي: يخافون ذلك اليومَ في نفوسهم قائلين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾، فحُكي [هذا القولُ] وقولُهم: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾، وقولُهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ ...﴾، على طريقة اللَّفِّ والنَّشر المعكوس. والدّاعي إلى عكس النَّشر مراعاةُ حُسنِ تنسيق النَّظم؛ ليكون الانتقالُ مِن ذِكرِ الإطعام إلى ما يقولونه للمُطعَمين، والانتقالُ مِن ذِكرِ خوفِ يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إيّاهم مِن شرِّ ذلك اليوم وما يُلَقَّونه فيه مِن النَّضرة والسُّرور والنَّعيم"[7].

(1) الثَّعالبيُّ، الجواهر الحِسان: 5/ 531.
(2) السَّخاويُّ، تفسير القرآن العظيم: 2/ 550.
(3) الكرمانيُّ، غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل: 2/ 1287.
(4) الخازن، لباب التَّأويل: 4/ 379.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1365.
(6) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 481.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 386.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العُبوس والكُلوح:

الكُـلـوحُ بُـدوُّ الأسـنـان عند العُبوس

الكُلوح: تكشُّرٌ في عُبوسٍ[1]، وهو بُدوُّ الأسنان عند العُبوس[2]، والكالح: مَن تقلَّصت شَفَتاه عن أسنانه، وذلك نحو ما يُرَى مِن رؤوس الغنم إذا شويَت، برزَت الأسنان وتشمَّرتِ الشِّفاه[3]؛ ولذا أوثِر لفظُه دون العبوس في قول اللّه ﷻ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون: 104].

والمعنى المحوريُّ لجذر العبوس: جهامة في الوجه تملأ النَّفْس وحشةً[4] كوجه العابس: وهو الأسد الذي تهرب منه الأسود[5]. ومنه: عبَس فلان عُبوسًا؛ أي: جمع جلد ما بين عينيه وجلد جبهته وتجهَّم[6]. (وتقبُّض أديمِ الوجهِ وتجهُّمُه يوحي بالجفاء ويوحِش مَن يُستَقبَل بهذا)[7]، وعَبَسَ اليومُ، أي: اشتدَّ[8]، ويومٌ عابِسٌ وعَبوس؛ أي: شديد[9]؛ ولذا أوثِر لفظُ (العُبوس) دون (الكُلوح) في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾؛ لشِدَّةِ وقْعِ هذا اليوم عليهم[10]، هذا اليوم الذي يُشبِه الأسدَ العَبوس في الشِّدة والضَّراوة[11].

---

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كلح).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (كلح).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ: (كلح)، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 152.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبس).
(5) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبس).
(6) مجموعة مِن المؤلِّفين، المعجم الوسيط: (عبس).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبس).
(8) مجموعة مِن المؤلِّفين، المعجم الوسيط: (عبس).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (عبس).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبس).
(11) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 669، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

جـزاء الإحسان إنعامٌ وامتنان

لمّا حكَى المولَى سبحانه عن الأبرارِ أنَّهم أتَوْا بالطّاعاتِ طلبًا لرضا ربِّهم الكريم، وخوفًا مِن عذاب يوم عظيم؛ بيَّنَ أنَّه أعطاهم ما طلبوا؛ فتقبَّل منهم تلك الأعمال، ومنحهم السَّلامة مِن الأهوال، وأورثهم نضرةً في الوجه، وسرورًا يصحبهم إلى يوم الدِّين، وجنَّة عرضها السَّماوات والأرض أُعدَّت للمتَّقين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾: أصل (وقى) يدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره. اتَّقى يتَّقي أصله اوْتَقَى على افتَعَل(2). الوقاية: فرط الصِّيانة وحفظ الشَّيء ممّا يؤذيه ويضرُّه، يقال: وقيت الشَّيء أقيه وقاية ووقاءً، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾. والتَّقوى: جعل النَّفس في وقاية ممّا يُخاف. وصار التَّقوى في تعارف الشَّرع: حفظ النَّفس عمّا يؤثِّم(3). والتَّقيُّ المُتَّقي(4).

2) ﴿نَضۡرَةٗ﴾: أصل (نضر) يدلُّ على حُسن وجمال وخلوص(5). النَّضرة: الحُسن والرَّونق كالنَّضارة. قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾(6). ونَضَر وجهُه ينضُر، فهو ناضِر. وقد نضر وجهُه،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 141، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 136، والشَّوكانيُّ، نيل الأوطار: 5/ 419 - 420.
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (وقى).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (وقى).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (وقى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نضر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نضر).

ينضُر نضرةً؛ أي: حَسُن. ونضَّر اللّه وجهَه. والنَّضار: الخالص مِن كلِّ شيء[1]، والنَّضارة حالٌ مُعجبَة طيِّبة تَظْهَرُ على الشَّيء أو تَغْشى حالَه[2].

3) ﴿وَسُرُورًا﴾: أصل (سرر) يدلُّ على إخفاء الشَّيء، وما كان مِن خالصه ومستقرِّه[3]. السُّرور: خلاف الحزن، وهو ما ينكتم مِن الفرح قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[4]. تقول: سرَّني فلان مَسَرَّة[5]. وسرور الآخرة يضادُّ سرور الدُّنيا[6].

4) ﴿وَحَرِيرًا﴾: الحرُّ ضدُّ البرد، والحرارة ضدُّ البرودة[7] والحرير من الثِّياب: ما رقَّ. سُمّي بذلك لخلوصه[8]. والحريرة: واحدةُ الحرير مِن الثِّياب[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد أمَّـنَ الله عـبـاده المؤمنين فـجـعـلـهـم في زمرة أهل الجنَّة المنعَّمين

بعد أن حكى الحقُّ ﷻ عن عباده المؤمنين أنَّهم أتوا بالطّاعة لغرضيْن هما: طلب رضا اللّه، والخوف مِن يوم القيامة بيَّن في هذا السّياق القُرآنيِّ أنَّه قد استجاب دعوتهم وحقَّق مناهم فدفع عنهم شرَّ ذلك اليوم الذي يخافون، وأعطاهم حسنًا وبهاءً في الوجوه، وفرحًا وسعادة في القلوب، وجزاهم بسبب صبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرَّمات، وإيثار الأموال لفعل الخيرات، وترك المنكرات بستانًا عظيمًا منه يأكلون، وحريرًا ناعمًا منه يلبسون[10].

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (نضر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نضر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرر).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (سرر).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (سرر).
(6) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(7) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (حرر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (حرر).
(9) الجوهريُّ، الصِّحاح: (حرر).
(10) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 270، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 491 - 492.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾:

تفريع الامتنان على ما تقدَّم مِن إحسان

"الفاء في قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ للتَّفريع على ما تقدَّم، ولبيان ما ترتَّب على إخلاصهم وسخائهم مِن ثواب؛ أي: فترتَّب على وفائهم بالنُّذور، وعلى خوفهم مِن عذاب اللّه تعالى وعلى سخائهم وإخلاصهم - ترتَّب على كلِّ ذلك أنْ دفع اللّه تعالى عنهم شرَّ ذلك اليوم، وهو يوم القيامة"[1].

"وفي هذا التَّفريع تلوينٌ للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشُّكور، وهذا برزخٌ للتَّخلُّص إلى عود الكلام على حُسنِ جزائهم أنَّ اللّه وقاهم شرَّ ذلك اليوم، وهو الشَّرُّ المستطير المذكور آنفًا، وقاهم إيّاه جزاءً على خوفهم إيّاه، وأنَّه لقّاهم نضرةً وسرورًا؛ جزاءً على ما فعلوا مِن خير"[2]، أو "الفاء عاطفةٌ لبيان السَّبب؛ أي: فبسبب خوفِهم وقاهم اللّه؛ أي: دَفَعَ عنهم شرَّ ذلك اليوم ووطأته"[3]؛ ذلك أنَّه "لمّا كان فعلُهم هذا خالصًا للّه، سبَّبَ عنه جزاءَهم"[4]، فقال: "﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾؛ أي: دفع عنهم شرَّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه، فالفاء سببيَّة"[5].

دلالة التَّعبير بالماضي والسِّياق للمضارع ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾:

اللّه تعالى لا يخلف الميعاد، ولا يحول شيء دون ما أراد

تخبر الآيات الكريمات عمّا سيجري للأبرار في الجنَّة، وهذه كلُّها أمور مستقبليَّة، فكان مقتضى الظّاهر أن يُعبَّر عنها بالمضارع المسبوق بما يدلُّ على الاستقبال، غير أنَّ التَّعبير القرآنيَّ آثر التَّعبير عن "المستقبل بلفظ الماضي إشعارًا بالقطع بوقوعه"[6]،

(1) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 221.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 387 - 388.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 317.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 141.
(5) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 465.
(6) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 156.

و"لتأكيد تحقُّق الوعد"[1]؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يخلف الميعاد، ولا يحول شيء دون ما أراد.

توجيه عود ضمير الغيبة ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، و﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾:

وقى الله الأبرارَ المخوفات، وأثابهم بالمكرُمات

المراد بقول اللّه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ هم الأبرار الذين تقدَّم ذِكرُهم؛ "أي: أنَّ هؤلاء الأبرار الذين خافوا هذا اليومَ، وأعدّوا العُدَّة له، قد وقاهم اللّه شرَّه، ودفع عنهم مكارِهَه، وألقى عليهم نضرةَ النَّعيم، وبهجة الرُّضوان، ففاضت نفوسُهم مسرَّةً وحبورًا"[2] وظاهرُ هذه الآياتِ العمومُ في كلِّ مَن خاف مِن يوم القيامة، وأطعمَ لوجه اللّه وخافَ مِن عذابه، والسَّبب وإنْ كان خاصًّا... فالاعتبارُ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، ويدخل سببُ التَّنزيل تحت عمومها دخولًا أوَّليًّا"[3].

الغرض من التعبير بالاسم الجليل فاعلا ﴿ٱللَّهُ﴾:

الله يثيب مَن أطاعه ووحَّدَه، ويكرم مَن خافه ومجَّدَه

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بالاسم الظّاهر الأحسن الأجلّ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مقام الفاعليَّة، ولم يعبِّر بالضَّمير (فوقيناهم)؛ وذلك لأنَّ التَّعبير بالاسم الجليل يورث المهابة في النُّفوس، فهو المنعم الأعظم، والمكرِم الأعزُّ، كما أنَّ هذا التَّعبير يدلُّ هنا على كمال العطاء، فإنَّ ما فعله هؤلاء الأبرار مِن الوفاء بالنَّذر وإطعام الطَّعام وغير ذلك إنَّما فعلوه عبادةً للّه تعالى وإخلاصًا له سبحانه فكان مِن المعبود بحقٍّ أن كافأ عابديه بما لم يخطر لهم على قلب! وهذه غاية الإحسان!كما أنَّ في ذلك تعريضًا بالكافرين الذين عبدوا الأصنام فلم تغن عنهم مِن اللّه شيئًا، فلا هي دفعت عنهم عذابًا، ولا هي ضمنت لهم ثوابًا، وهذه غاية الخذلان!.

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 414، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 291.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1365.
(3) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 420، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 465.

سرّ الإضافة في ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾، ونكتة التعبير باسم الإشارة بلام البعد:

يـوم الـقـيـامـة فظيعٌ مَـهـول، وشدائدُه تذهب بالعقول

الإضافة في قوله تعالى: ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ إضافة معنويَّة، وقد أفادت تهويل الشَّرِّ المضاف لذلك اليوم وتعظيمه؛ فإنَّ الإشارة ليوم القيامة بلام البُعد تفيد أنَّه قد ذهب شأوًا بعيدًا في الهول والعظَمَة، فإذا أُضيف إليه شيء فإنَّ هذه الإضافة تكسب المضاف شيئًا من صفات المضاف إليه. وهذا اليوم هو "العَبوس القمطرير"[1]، "الذي يخافون"[2].

دلالة العطف في ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾:

كافأ الله الأبرار، فـدَفَـعَ عنهم المَضـارّ، وجَلَـبَ لهم المَسَارّ

جملة: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على جملة ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾[3]، وهذا العطف قد وقع موقعًا بديعًا من حيث ترتيب النِّعم التي امتنَّ اللّه تعالى بها على عباده الأبرار؛ ذلك أنَّهم لمّا قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ أثابهم اللّه تعالى بأنْ جعل وقايتهم من شرِّ ذلك اليوم مقدَّمةً في الامتنان على المكافأة بالعطاء بالنَّضرة والسُّرور، وإسكان الجنَّة وإلباس الحرير؛ لأنَّ درء المفسدة مقدَّم عل جلب المصلحة، والتَّأمين من المخوف أولى من إسباغ العطاء بمئات الألوف، "فدَفَعَ اللّه عنهم شرَّ ذلك اليوم العَبوس، وآمَنَهم ممّا خافوا منه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه، وأعطاهم بدل العُبوس في الكُفّار نضرةً في الوُجوه وسُرورًا في القُلوب لطلبهم رضا اللّه"[4].

بلاغة التَّمثيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾:

تـسـعـى نـضـرة الـنَّـعـيـم إلى وجــوهــهــم، ويفيض السُّرور من قلوبهم

قوله تعالى: "﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ معناه: جعلهم يَلْقون نضرةً وسرورًا؛ أي: جعل لهم نضرةً وهي حُسن البَشَرة، وذلك يحصل من فرح النَّفس ورفاهية العيْش. قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ [القيامة:

(1) محمَّد عبد اللَّطيف الخطيب، أوضح التَّفاسير: 1/ 724.
(2) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 28/ 217.
(3) محمود صافي، الجدول: 15/ 187.
(4) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 290.

22] فمثَّل إلقاء النَّضرة على وجوههم بزَجِّ أحدٍ إلى لقاءِ أحدٍ على طريقة التَّمثيل"[1].

بلاغة الجناس:

وقع بين قول اللّه سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ جناسٌ ناقص؛ وذلك لاختلاف الهيئات والحركات. وهو بجرسه الظّاهر هذا فيه إشارة إلى ما بين النِّعمتين - نعمة التَّنجية، ونعمة التَّرضية - مِن تجانسٍ، فليس بينهما فواصل ولا انتظارُ حينٍ، بل كان هذا اليوم المخوف المفزع هو نفسه يوم الكرامة والجائزة الكبرى، وهذا التَّجانس بين المنع وقايةً والعطاء كرامةً قد أشار إليه ما بين الكلمتين: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، و﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ مِن جناس بليغ بديع!.

تجانس المنع للوقاية والسَّلامة، مع العطاء للمكافأة والكرامة

لطيفة الجمع بين الثَّوابَيْن: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، و﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾:

لمّا حكى اللّه تعالى عن الأبرار "أنَّهم أتوا بالطّاعات لغرضَيْن: طَلَبِ رضا اللّه، والخوفِ مِن القيامة - بيَّن في هذه الآية أنَّه أعطاهم هذيْن الغرضيْن. أمّا الحفظ مِن هول القيامة، فهو المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾، وسَمَّى شدائدَها شَرًّا توسُّعًا على ما علمْتَ، وهذه الآية أحدُ ما يدلُّ على أنَّ شدائد الآخرة لا تصلُ إلّا إلى أهل العذاب! وأمّا طلبُ رضاءِ اللّه تعالى فأعطاهم بسببه ﴿نَضۡرَةً﴾ في الوجه، ﴿وَسُرُورًا﴾ في القلب"[2].

أخلص الأبرار في مبتغاهم وأجادوا، فأثابهم الله بما أرادوا

الغرض من تنكير ﴿نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾:

جاء التنكير في: ﴿نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾؛ للتَّعظيم والتَّفخيم، فما سَعِدَ الأبرارُ سعادةً كهذه السَّعادة مِن قبلُ، فهي سعادة لا يبلغها كنهٌ، ولا يحيط بها وصف، وكذلك "التَّنكير في (سُرورًا) للتَّعظيم والتَّفخيم"[3]؛ أي: "(سُرورًا) لا انقطاع له"[4]، "ولا يصِفُه واصفٌ"[5].

متاع الجنَّة فخيم، ونعيمها عظيم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 388.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 749.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 749.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 378.
(5) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 36.

نكتة العطف:

جمع الله للأبرار بين نعيم الظّاهر ونعيم الباطن

عُطِف ﴿وَسُرُورًا﴾ على ﴿نَضْرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ للجمع "بين نعيم الظّاهر والباطن"[1]، فالمعنى: "لقّاهم نضرةً في وجوههم، وسُرورًا في قلوبهم"[2]، "وذلك أنَّ القلب إذا سُرَّ استنار الوجهُ"[3] ولمّا كان تكاملُ النَّعيم يحصل باكتمال أركانه الأربعة: "نعيم ظاهر وباطن، ومسكن يُقيمون فيه، ومَلبَس"[4]، فقد أشار إلى نعيم الظّاهر بقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾؛ أي: حُسنًا ونعمةً تظهرُ على وجوهِهم، وعيْشًا هنيئًا، وقد أشار إلى نعيم الباطن بقوله: ﴿وَسُرُورًا﴾؛ أي: دائمًا في قلوبهم في مقابلة خوفهم في الدُّنيا، وفي مقابلة عُبوس الكفّار في الآخرة وخزيهم. وهذا يدلُّ على أنَّ وصفَ اليوم بالعُبوس للدَّلالة على المبالغة في عُبوس أهله، ثمَّ أشار إلى المسكن بقوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً﴾؛ أي: أثابهم بسبب ما أوجدوه مِن الصَّبر على العبادة مِن لزوم الطّاعة، واجتناب المعصية، ومنعِ أنفسِهم الطَّيّباتِ، وبذلِ المحبوباتِ وأعطاهم بستانًا جامعًا يأكلون منه ما يشتهون جزاءً على ما كانوا يُطعِمون[5]. وأمّا الملبس فهو الحرير الذي عُطِف ذِكرُه على هذه الجنَّة.

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَجَزَىٰهُم﴾:

ما أعظمَ نعيمَ الأبرار! وما أشدَّ خسرانَ الكُفّار

"الواو عاطفة"[6]، "وجملة ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾، وجملة: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾؛ لتماثُل الجُمَل الثَّلاث في الفعليَّة والمُضيّ، وهما محسّنان من محسّنات الوصل"[7].

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 101.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 289.
(4) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 453.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(6) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل لكتاب الله المرتَّل: 12/ 278.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 388.

لطيفة التَّعبير بالجزاء دون غيره في ﴿وَجَزَىٰهُم﴾:

لم يطلبوا الجزاء مِن غير الله المنّان، فكافأهم سبحانه بنعيم الجنان

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم﴾؛ "أي: أعطى كلَّ واحدٍ منهم بطريق الأجر والعوض"[1] وللتَّعبير بالجزاء هنا دون غيره كالثَّواب والأجر ونحوهما لطيفةٌ بليغة، وهي أنَّ الآيات السّابقة قد نقلت لنا قول الأبرار للمطعَمين: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾، فنصّوا على عدم إرادة (الجزاء) فلمّا كان هذا ما قالوه؛ كان مِن قبيل الإكرام أن يُعبَّر عن إكرام الله تعالى لهم باللَّفظ نفسه، فقال: ﴿وَجَزَىٰهُم﴾؛ أي: "حيث لم يطلبوا الجزاء من غيره"[2].

معنى (الباء)، و(ما) ودلالتهما في ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

العمل سبب في نيل الأجر، وخصوصًا الإيمان والصَّبر

جمهور المفسِّرين على أنَّها هنا للسَّببيَّة، وأنَّ قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونَوَّلهم وبوَّأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾؛ أي: منزلًا رحبًا، وعيشًا رَغَدًا ولباسًا حَسَنًا[3]. ومعنى الإلصاق لا يناقض معنى السَّببيَّة، بل هو مكمِّل له، فكأنَّه جعل الجزاء (وهو الجنَّة والحرير) ملاصقًا للعمل (وهو الصَّبر)؛ وذلك لبيان أثر العمل في نيل الثَّواب.

وأمّا (ما) فإنَّها مصدريَّة، والتَّقدير: بصبرِهم على الإيثار[4]، "وهذا على أنَّ الآية نزلت في جميع الأبرار ومَن فعل فعلًا حسنًا[5] وفي الآية إشارة إلى أنَّ جزاءَهم هذا الجزاءَ الطَّيِّب إنَّما كان بصبرهم في الدُّنيا على أعباء التَّكاليف، وأداء الواجبات؛ فالطّاعات والأعمال الصّالحة كلُّها لا تؤدَّى إلّا بمجاهدة النَّفس، ومغالبة الهوى. وفي الحديث: «حُفَّتِ الجنَّة بالمكاره، وحُفَّتِ النّار

(1) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 491.
(2) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 156.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 290.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 670، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 420.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 136.

بالشَّهوات»[1] والمقصودُ: أورثهم سبحانه بصبرِهم على إقامة الدِّين الحقِّ خيرَ منزلٍ، وأرغدَ عيشٍ، وأحسنَ لباسٍ[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿صَبَرُواْ﴾:

حقَّق الأبرار عبوديَّة الصَّبر والإنفاق، فكوفئوا بما عوِّضهم عن المشاقّ

يفيد التَّعبير بالماضي الدَّلالة على التَّحقّق، وذلك مِن حيث التَّعبير عمّا تمَّ وانقضى، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء الأبرار قد حقَّقوا مقام الصَّبر، وثبتوا عليه حتَّى صار لهم كالسَّجيَّة، فلا هي تفارقهم ولا هم يقلعون عنها.

نكتة الإدماج في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

للصَّبر محوريَّةٌ في الدِّين، ومركزيَّة في اليقين

ذكر سبحانه مِن أعمال الأبرار ما ينتبه سامعُه على جمعهم لأعمالِ البرِّ كلِّها، فذكر سبحانه وفاءَهم بالنَّذر، وخوفَهم مِن ربِّهم، وإطعامَهم الطَّعام على محبَّتهم له، وإخلاصَهم لربِّهم في طاعتهم...

ثمَّ أخبر عنهم بأنَّهم يخافون اليومَ العسيرَ القمطريرَ، وهو يومُ القيامة، ففي ضمن هذا الخوفِ إيمانُهم باليوم الآخِرِ، وكفُّهم عن المعاصي التي تضرُّهم في ذلك اليوم، وقيامُهم بالطّاعات التي ينفعهم فعلُها ويضرُّهم تركُها في ذلك اليوم[3]، وأدمج في ذلك قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الجامع لأحوال التَّقوى والعمل الصّالح كلِّه؛ لأنَّ جميعه لا يخلو عن تحمُّل النَّفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كُلفة، ومِن ذلك إطعامُ الطَّعام على حبِّه[4]. وفي ذلك دلالة على مركزيَّة الصَّبر ومحوريَّته.

الغرض من حذف متعلَّق الصَّبر:

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ أي: أثابهم بصبرهم على

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1365 - 1366، والحديث أخرجه الشَّيخان: البخاريُّ في صحيحه برقم: (6487)، ومسلم في صحيحه برقم: (2822)، واللَّفظ له.

(2) مأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 287.

(3) ابن تيميَّة، دقائق التَّفسير: 3/ 22.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 388.

مشقَّة الطّاعة، وعن اقتراف المعصية. وقيل: على الفقر. وقيل: على الصَّوم. وقيل: على الجوع"[1] والأَوْلى حملُ الآية على الصَّبر على كلِّ شيء يكون الصَّبرُ عليه طاعةً للّه سبحانه"[2]، فيكون قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عامًّا في الصَّبر عن الشَّهوات، وعلى الطّاعات والشَّدائد، وفي هذا يدخلُ كلُّ ما خصَّصَه المفسِّرون مِن صومٍ وفقرٍ وجوعٍ ونحوه[3].

صبروا على الطّاعات ففعلوها، وعن المعاصي فتركوها، وعلى الأقدار المؤلمة فلم يتسخَّطوها

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على المفعول به ﴿جَنَّةً﴾:

أوثر تقديم شبه الجملة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على المفعول به ﴿جَنَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً﴾ لأجل الاهتمام بالمتقدِّم (وهو الصَّبر)؛ إذ جعلته الآيات سببًا للفوز بالجنّات، ونيل أعلى الدَّرجات. وهذا التَّقديم يحسن جدًّا في باب الوعظ والإرشاد، فيثبِّت قلوب الصّابرين، ويهدي غيرهم إلى المنهاج المستبين.

يحسُن في باب الوعظ والإرشاد تقديمُ ما يهدي إلى سُبُل الرَّشاد

نكتة تنكير ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ودلالة إفرادهما:

أوثر تنكير ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ للدَّلالة على التَّعظيم[4]، فقوله تعالى: ﴿جَنَّةً﴾؛ أي: بستانًا عظيمًا يأكلون منه ما شاؤوا"[5]، ﴿وَحَرِيرًا﴾؛ أي: هو في غاية العَظَمة[6] وأمّا الإفراد فللدَّلالة على الجنس[7]، فلكلِّ واحد منهم جنَّةٌ عظيمة، وحريرٌ ليِّنٌ بديع!.

نعيم الجنَّة عظيم لا تدركه الأوهام، ولا تحيطه الأفهام

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ عُدِّي الجزاء إلى الجنَّة والحرير، وفي الكلام حذفُ مضافٍ، والتَّقدير: جزاهم إسكانَ جنَّةٍ، ولبسَ حريرٍ، فحُذِف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه

للأبرار في جنَّتهم ما يشاؤون، وهم فيها مكرَمون منعَّمون

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 295، وأبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 146.
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 420.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 411، والثَّعالبيُّ، الجواهر الحِسان: 5/ 531.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 221.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 173.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(7) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 216.

مقامه[1] وهذا مِن بليغ الكلام إذ لم يقصر الجزاء على سكنى الجنَّة ولبس الحرير، بل لهم ما شاؤوا، ففي الجنَّة ما تشتهي الأنفُس وتلذُّ الأعين.

نكتة عطف (حَريرًا) على ﴿جَنَّةً﴾:

آثروا العطاء، وصبروا على الجوع والعراء، فعظَّم الله لهم الجزاء

عُطِف الحرير على الجنَّة ليجمع لهم النَّعيمَيْن: النَّعيم المُظهَر، والنَّعيم المُضمَر، فالجنَّة فيها ما لذَّ وطاب مِن المأكل والمشرب، وهذا بمثابة كساء الباطن، "فلمّا ذكر ما يكسو الباطن، ذكر ما يكسو الظّاهر فقال: ﴿وَحَرِيرًا﴾"[2] وتناسب ذكرُ الحرير مع الجنَّة؛ لأنَّهم أوثِروا على الجوع والعراء[3].

سرُّ إيثار ذِكر هذين الثَّوابين ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ دون غيرهما:

أُبدِلوا بحرارة الصَّبر وألم الجوع، أجرًا غير ممنونٍ ونعيمًا غير مقطوع

لمّا ذكر الله تعالى ثواب الأبرار الذين أنفقوا وأطعموا وصبروا أتى الذِّكر أنَّه جازاهم بسُكنى الجنَّة ولبس الحرير، ولهذا الاختيارِ دلالةٌ بديعة؛ ذلك أنَّه - ﷻ - جعل الجنَّة "في مقابلة الإطعام والصَّبرِ على الجوع، والحريرَ في مقابلة الصَّبر على العُري؛ لأنَّ إيثار الأموال يؤدِّي إلى الجوع والعُري"[4]؛ "أي: وجَعَلَ الله سبحانه جزاءهم عنده أنْ أدخلهم الجنَّةَ، وكساهم فيها خيرَ ما يُكسَى به أهلُ النَّعيم في الدُّنيا، وهو الحرير، ولكنَّه حريرُ الجنَّة الذي لا يَعلم صِفتَه إلّا الله تعالى"[5] "وهذا يدلُّ على أنَّ المراد مِن قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ ليس هو الإطعام فقط، بل جميع أنواع المواساة مِن الطَّعام والكِسوة"[6]، وإنَّما خُصِّص الإطعام بالذِّكر؛ "لأنَّه معظم اللَّذات الحِسِّيَّة"[7].

(1) المنتجب الهمدانيُّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 293.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 362.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 268.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1366.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 749 - 750.
(7) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 483.

وبذلك "كان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنَّة، وكساهم أحسن الملابس، وهو الحرير الذي لا يلبسه إلّا أهلُ فرطِ اليَسار، فجمع لهم حُسنَ الظَّرف الخارج وحُسنَ الظَّرف المباشر وهو اللِّباس"[1] ولمّا كان في الصَّبر مِن حَبسِ النَّفْسِ والخشونةِ التي تَلْحَقُ الظّاهرَ والباطنَ مِن التَّعب والنَّصَب والحرارةِ ما فيه - كان الجزاءُ عليه بالجنَّة التي فيها السَّعَة والحرير الذي فيه اللِّينُ والنُّعومةُ والاتّكاءُ الذي يتضمَّن الرّاحة والظِّلال المنافية للحَرِّ"[2].

توجيه المراد بالجنَّة في هذا السِّياق:

أُثيبوا ببستان عظيم فيه مأكل هنيّ، ومَلبَس ليّن بهيّ

وقف المفسِّرون مع ذكر الحرير بعد الجنَّة، والأصل أنَّها - أي: الجنَّة - فيها مِن صنوف المأكول والملبوس ما فيها، فما معنى ذِكر الحرير مع الجنَّة؟ والجواب: أنَّ المعنى: "وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدّي إليه مِن الجوع والعُري بستانًا فيه مأكلٌ هنيٌّ، وحريرًا فيه ملبَسٌ بهيٌّ"[3] "فالمراد بالجنَّة هنا: بستانُ المأكولات، لا ما يقابل النّارَ، وهي دار الكرامة، حتَّى يُقال: أيُّ حاجة إلى ذِكر الحرير بعد ذِكر الجنَّة مع أنَّها مشتملة عليه في جملة ما أُعِدَّ فيها للمؤمنين"[4].

بلاغة الإيجاز بذكر صنوف النَّعيم:

بـاب الإعـجاز حُسنُ الإيجاز

في الآية إيجازٌ آخذٌ بأطراف الإعجاز؛ فقد أشار تعالى بقوله: ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتَّع به أولئك الأبرار في دار الكرامة مِن أصناف الفواكه والثِّمار، والمطاعم والمشارب الهنيَّة؛ فإنَّ الجنَّة لا تُسمَّى جنَّة إلّا وفيها كلُّ أسباب الرّاحة كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف: 71] وأشار بقوله: ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتَّعون به مِن أنواع الزِّينة واللِّباس التي مِن أنفَسِها وأغلاها عند

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 388.
(2) ابن تيميَّة، دقائق التَّفسير: 3/ 24.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 670.
(4) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 465.

العرب: الحريرُ، فقد جمع لهم أنواعَ الطَّعام والشَّراب واللِّباس، وهو قُصارَى ما تتطلَّع له نفوسُ النّاس.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

السُّرور والبهجة:

السُّرور مختصٌّ بالباطن والبهجة مختصَّةٌ بالظّاهر

البَهجة: الحُسْن[1]، وهي حُسنُ لون الشَّيء ونضارتُه[2]. والبهجة: ظهور أثر السُّرور برؤية الحُسنِ والجمال.[3]. وقال اللّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النَّمل: 60]؛ أي: ذات حُسنٍ ورَونقٍ يبتهج به النّاظر ويُسَرّ[4].

والسُّرور: هو لذَّة في القلب عند حصول نفع أو توقُّعه أو اندفاع ضرر[5]؛ وهذا التَّعريف يبيِّن سرَّ إيثار لفظ (السُّرور) دون (البهجة) في قول اللّه جلَّ علا: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾؛ فقد تحقَّقَ لهم دَفعُ الضَّرر في قول اللّه ﷻ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ﴾، وحصولُ النَّفع في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾، ويضاف إلى ذلك أنَّ البهجة مختصَّة بالنَّعيم الظّاهر وقد أشير إليه في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ﴾؛ أي: حُسنًا ونعمةً تَظهر على وجوههم[6]، ومِن بيان إحاطة النَّعيم بهم مِن كلِّ جانب وانغماسِهم فيه الإشارةُ إلى النَّعيم الباطن في قول اللّه ﷻ: ﴿وَسُرُورٗا﴾؛ أي: سرورًا دائمًا في قلوبهم لا انقطاع له[7]؛ فأعطاهم اللّه ﷻ بدل عُبوس الفُجّار وحزنهم نضرةً في الوجوه وسرورًا في القلوب[8].

---

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بهج).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بهج).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (بهج).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 293، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 216.
(5) أبو البقاء الكفويُّ، الكُلِّيّات، ص: 508.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(7) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 36، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(8) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 670، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 72.

الحرير والإستبرق:

الحريرُ أعمُّ مِن الإستبرق

الفرق بينهما أنَّ الحريرَ أعمُّ مِن الإستبرق؛ لأنَّ الإستبرق: هو الحرير الغليظ المنسوج بخيوط الذَّهب[1]، وسُمّي بذلك لشدَّة بريقه[2]؛ فأوثِر لفظ (الحرير) دون (الإستبرق) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾؛ لأنَّ لفظَ (الحرير) يعمُّ كلَّ أنواعِ الحرير ويشمل كلَّ أشكالِه، ونُكِّر اللَّفظُ تعظيمًا[3] وتفضيلًا له عن حرير الدُّنيا، فهو أعلى ممّا في الدُّنيا بكثير[4].

(1) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 3/ 305، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 18/ 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 313.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 18/ 48.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 29.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

سَـعَـوْا في مـنـازل الـقُـرب إلى الـزّيـادة؛ فمنحهم الكريمُ الحسنى وزيادة

لَمّا ذَكَر المولى سبحانه طعامَ المحسنين ولِباسَهم؛ وصَفَ مَساكِنَهم[1]؛ ترغيبًا في الاقتداء بهم، ودعوة للسَّعي في تحصيل مثل أجورهم، ولمّا ذكر سبحانه أيضًا أنَّه كفاهم المَخوفَ، وحَباهم الجنَّةَ؛ أتبع ذلك بذكر حالهم فيها؛ زيادة في التَّرغيب، ورفعة لشأن القريب المستجيب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَمۡهَرِيرٗا﴾: أصل (زمهرير) يدلُّ على البرد، والزَّمهرير: شدَّة البرد[3]. وازمهَّرت عيناه: احمرَّتا مِن الغضب، وازمهرَّ ازمهرارًا، والمُزَمْهِر: الشَّديد الغضب، والذي احمرَّت عيناه. الازمهرار في العين عند الغضب والشِّدَّة[4]، والزَّمهرير: البرد الشَّديد المزعج[5].

2) ﴿وَدَانِيَةً﴾: أصل (دنو) يدلُّ على المقاربة[6]. دنوت منه أدنو دنوًّا، وأدنيت غيري[7]. والدُّنوُّ: القرب بالذّات، أو بالحكم، ويستعمل في المكان والزَّمان والمنزلة. ويُعبَّر بالأدنى تارة عن الأصغر، فيقابل بالأكثر. وتارة عن الأقرب، فيقابل بالأقصى[8]. وسمّيت الدُّنيا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 750.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زمهرير).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (زمهر).
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 296، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 143.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دنو).
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (دنو).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (دنو).

لدنوِّها ولأنَّها دَنَت وتأخَّرت الآخرة، والجمع دُنًى مثل الكُبرى والكُبَر. وكذلك السَّماء الدُّنيا هي القربى إلينا[1]. ومعنى: ﴿وَدَانِيَةً﴾؛ أي: قريبة منهم[2].

3) ﴿قُطُوفُهَا﴾: أصل (قطف) يدلُّ على أخذ ثمرة مِن شجرة[3]. يقال: قطفت الثَّمرة قطفًا. والقِطف: المقطوف منه، وجمعه قطوف. قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ [الحاقَّة: 23] والقِطف بالكسر: العنقود أيضًا. وأقطَفَ الكَرْمُ: دنا قطافه. والقِطاف والقَطاف: وقت القطف. والقُطافة ما يسقط مِن العنب إذا قُطِف[4]. وقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ أي: ثمارها، جمع: قِطف[5].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الجنَّة أهلها منعَّمون؛ لأنَّهم مِن ثمارها يأكلون، وتحت أشجارها يستظلّون

يخبرنا المولى ﷻ في هذا النَّصِّ القُرآنيِّ المبارك عن حال أهل الجنَّة، وما هم فيه مِن النَّعيم المقيم والفضل العميم؛ فيذكر سبحانه أنَّهم مضطجعون في الجنَّة على الأسِرَّة المزيَّنة بقبَّة مِن الثِّياب والسُّتور الفاخرة، ومِن رحمته سبحانه بهم أنَّهم لا يجدون فيها حرًّا مزعجًا، ولا بردًا مؤلمًا، كما أنَّ ظلال أشجار الجنَّة قريبةٌ منهم، وقد سهَّل اللّٰه تعالى عليهم بفضله أخْذَ ثمارِها تسهيلًا؛ بحيث يستطيع أنْ يأكل منها القائم والقاعد والمضطجع[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التَّعبير بالحال اسم فاعل جمعًا ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾:

والاتِّكاء على الأرائك: هو "التَّمكُّن مِن الجلوس في حال الرَّفاهية

---

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (دنو).
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 296، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 579.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطف).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (قطف).
(5) البغوي، معالم التَّنزيل: 8/ 296، والنسفي، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 579.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 297 - 298.

والطُّمأنينة والرّاحة، والأرائك هي السُّرر التي عليها اللِّباس المزيَّن"[1]

ونصب ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ على الحال، فالمعنى: وجزاهم جنَّةً في حالِ اتِّكائهم فيها"[2]. وقد "خُصَّ الجزاء بهذه الحالة؛ لأنَّها أتمُّ حالات المتنعِّم"[3] وأرفهُها، "فكأنَّ غيرَها لا يدخل في الجزاء"[4]. فهذه "حال مِن أحوال الأبرار، وقد أخذوا منازلَهم مِن الجنَّة، ولَبِسوا فيها فاخرَ الحُلَل، فإذا نظر إليهم ناظرٌ هناك، رآهم متَّكئين على الأرائك، قد أخْلَوْا أنفسَهم مِن هموم الدُّنيا، وتوقُّعات المساءات منها، مِن مرَض، أو فقرٍ، أو شيخوخة، أو موْت"[5] أي: أنَّ الأبرار جالسون في الجنَّة جِلسةَ النّاعم البال، المنشرح الصَّدر. وظلالُ أشجار الجنَّة قريبةٌ منهم، ومحيطةٌ بهم؛ زيادةً في إكرامهم"[6] والتَّعبير بالاسم يفيد الدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام؛ إذ أنَّه وصفٌ مجرَّد مِن الزَّمن، وهذا الثُّبوت هو الأنسب لحالة الاتِّكاء الذي جاء هذا المشتقُّ معبِّرًا عنها؛ إذ الرّاحة يناسبها الثُّبوت والسُّكون؛ فلذلك قال سبحانه "دالًّا على راحتهم الدّائمة: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾؛ أي: لأنَّ كلَّ ما أرادوه حضر إليهم مِن غير حاجة إلى حركة أصلًا"[7].

طوبى للأبرار لما هم فيه مِن النَّعيم المقيم، وما أسبغ الله عليهم مِن الفضل العَميم

معنى (في) ودلالتها في ﴿فِيهَا﴾ والغرض مِن تقديمه على ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾:

الأصل في معنى (في) أنَّه حرف موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[8]. وهو هنا بهذا المعنى، وما أبدعه مِن معنى! إذ جعل الجنَّة ونعيمَها ولذائذَها ظرفًا

أحاط النَّعيم بالأبرار مِن كلِّ الجهات، ونالوا فيها كلَّ المكرمات

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 259.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 288، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 174.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 269.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1366.
(6) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 221.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

محيطًا بمَن فيها، فهم منعَّمون مِن فوق رؤوسهم ومِن تحت أرجلهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومِن بين أيديهم ومِن خلفهم. ولمّا لم يكن مكانٌ يأتي فيه النَّعيم لأهله مِن كلِّ الجهات إلّا الجنَّة؛ كان تقديمُ شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على شبه الجملة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ مفيدًا للتَّخصيص مع بيان الاهتمام بالمتقدِّم؛ إذ التَّنعُّم بالاتّكاء على الأرائك لا يماري فيه عاقل، لكنَّ كونَ هذا التَنعُّم في ظرف النَّعيم المقيم - الجنَّة - هو تنعُّمٌ لم يُعهَد قطُّ ولا يخطر على قلب بشر؛ لذا كان حريًّا أن يقدَّم!.

توجيه عود الضَّمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ ودلالته:

الجنَّة منزل الأبرار المتَّقين، مكافأة مِن ربِّ العالمين

ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الجنَّة، والمعنى: أنَّ الأبرار يتمتَّعون بأنواع الطَّعام والشَّراب واللِّباس حالة كونهم "متَّكئين في الجنَّة على السُّرر"[1]، فوصَفَ سبحانه حالَهم في مساكنهم بعدما ذكر طعامَهم ولباسَهم[2].

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتها في ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾:

استقرّوا فوق الأسرَّة الفاخرة، بعد بذل الجهد في الأيّام الغابرة

الأصل في معنى ﴿عَلَى﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[3]. وهو بهذا المعنى هاهنا؛ إذ المراد أنَّهم: مستقرّون متمكِّنون على الأرائك[4]، وهذا يدلُّ على تمام الملك[5].

بلاغة الكناية في التَّعبير بالأرائك:

للأبرار أزواج كاللُّؤلؤ المكنون، وجزاؤهم في الجنَّة غير ممنون

التَّعبير بالأرائك في قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ يدلُّ دلالة قريبة على الرّاحة والنِّعمة والخدمة والرَّفاه، ويدلُّ دلالة لطيفة على

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 101.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 750.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 270.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.

"الزَّوجات؛ لأنَّ العادة جاريةٌ بأنَّ الأرائك لا تخلو عنهنَّ، بل هي لهنَّ لاستمتاع الأزواج بهنَّ فيها"[1] وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّ "هذه السُّرر هي متَّكأ لأهل الجنَّة، وأنَّها بمنزلة الوسائد في الدُّنيا، وأنَّ أهل الدُّنيا إذا اتَّخذوا السُّرر، وجمَّلوها بما جمَّلوها به، ليكون منامُهم عليها، فإنَّ أهل الجنَّة يتَّخذون هذه السُّرر للاتِّكاء والاسترخاء عليها؛ لأنَّ أهل الجنَّة لا ينامون"[2].

نكتة التَّعبير بالحال الثّانية جملةً فعليةً: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾:

ضوء الجنَّة ساطع مبهر، لا يُحتاج فيها إلى شُموس ولا أقمُر

أوثر التَّعبير بالجملة الفعليَّة للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، فقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ﴾؛ أي: مهما تجدَّدت أحوالُهم، وأنَّى كانوا مِن مُلكهم - لا يرون في الجنَّة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾. والفعليَّة هنا مناسِبةٌ بقدر مناسَبَة الاسميَّة في موضعها عند قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، فإنَّ الاتِّكاء يناسبه الثُّبوت والدَّوام، وأمّا انتفاء رؤية الشَّمس والزَّمهرير فيناسبه الفعليَّة، وذلك بالنَّظر إلى معنى مرور الزَّمن وتعاقب الأحوال، فمهما مرَّت عليهم الأوقات فإنَّ مزاج الجنَّة معتدل لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وهذا ما يستفاد مِن دلالة المضارع المنفيّ.

بلاغة التعبير بالكناية بذِكر نفي رؤية الشَّمس والزَّمهرير:

من بلاغة القرآن الإشـارة إلى عظيم المعاني بوجيز المباني

في قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ذِكر الشَّمس مِن قبيل ذِكر اسم الملزوم وإرادة اللّازم؛ لأنَّ المقصود توصيفُ الجنَّة باعتدال الهواء وخلوِّها عن الهواء الحارِّ المؤذي بحرّه، وعن الهواء البارد المؤذي ببرده، فذُكِر الشَّمسُ والزَّمهريرُ وأُريد ما يَلزمُهما مِن خروج الهواء بسببهما عن الاعتدال"[3] لأنَّها إذا لم

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 142.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1366.
(3) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 438.

يكن بها شمسٌ لم يكن فيها هواء حارٌّ، فقُصد بنفي الشَّمسِ نفيُها، ونفيُ لازمِها معًا؛ لقوله: ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾"[1]؛ "أي: لا حرًّا ولا بَرْدًا. مِن باب ذِكر الملزوم وإرادة اللّازم"[2] فهي مِن الكناية التَّلويحيَّة؛ إذ "المراد بالشَّمس: حرُّ أشعَّتها، فنَفَى رؤيةَ الشَّمس في قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ فيكونُ نفيُ رؤيةِ الشَّمس كنايةً عن نفيِ وُجودِ الشَّمسِ الذي يلزمه انتفاءُ حرِّ شُعاعها "[3] وقد عبّر بعدم رؤيتهما عن انعدامهما وانعدام الاحتياج إليهما لاعتدال هواء الجنَّة[4]؛ "أي: لا شمس فيها فتُرَى فيُؤذي حرُّها، ولا زمهرير يُرَى فيؤذي بشدَّته؛ أي: هي معتدلة الهواء"[5].

الغرض مِن تقديم ﴿فِيهَا﴾ على ﴿شَمْسًا﴾، ومعنى (في) ودلالتها:

خُصِّت الجنَّة بانتفاء الشَّمس والزَّمهرير، رحمةً وإكرامًا مِن المُنعِم القدير

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[6] وهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ هو المراد هنا، فالجنَّة محيطٌ نعيمُها بأهلها إحاطةَ الظَّرف بما فيه. وقد قُدِّم شبه الجملة على المفعول به ﴿شَمْسًا﴾ لإفادة التَّخصيص، فليس ثمَّ مكان لا تُرى فيه الشَّمس ولا حرُّها ولا البردُ ولا القمر إلّا الجنَّة، وفي التَّقديم دلالة على الاهتمام بالمتقدِّم، مع التَّشويق لمعرفة المتأخِّر ليقع مِن النَّفس موقعَه الذي أُريد له.

دلالة العطف في ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾:

هواء الجنَّة معتدِلٌ فلا حرُّ شمسٍ يحمي، ولا شدَّةُ بردٍ تؤذي

هذا "عطفٌ على المعنى؛ أي: لا ينالون زمهريرًا، فإنَّ الزَّمهرير

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 288.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 376.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 389.
(4) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 439.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 362.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

لا يُرى، وهو البرْد الذي يأتي على الأطراف لشدَّته"[1] فهو ممّا لا يُدرَك بالبصر كالشَّمس؛ أي: أنَّ عطف الزَّمهرير على الشَّمس هو "مِن باب (علفتُها تِبنًا وماءً باردًا)؛ وذلك لأنَّ الزَّمهرير لا يُرَى؛ أي: ولا ينالون زمهريرًا. وإن أُريد بالشَّمس شعاعُها وحرُّها فمعنى ﴿لَا يَرَوْنَ﴾: لا ينالون. ولا يخفى أنَّ هذا الظِّلَّ ليس بالمعنى المصطَلح في الدُّنيا وهو الضَّوء النّورانيُّ؛ فإنَّه لا شمس هناك، فمعنى دُنوِّ الظِّلال: أنَّ أشجار الجنَّة خُلِقت بحيث لو كان هناك شمسٌ لكانت تلك الأشجار قريبةَ الظِّلال على أهل الجنَّة. وقد أُكّد هذا المعنى بقوله ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ أي لا تمتنع على قُطّافها كيف شاؤوا"[2].

بلاغة التَّعبير بالطِّباق الخفي بين ﴿شَمْسًا﴾، و﴿زَمْهَرِيرًا﴾:

جوُّ الجنَّة معجِبٌ مبهِج، فليس فيها بَرْدٌ مؤلِمٌ ولا حَرٌّ مزعِج

نفى اللّه تعالى عن أهل الجنَّة ما يلزم منه وجود الحرِّ وهو الشَّمس، فقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾. ولمّا كان ذلك قد يُفهَم منه وجود البرْد الشَّديد الذي تسبَّب عنه انعدام الشَّمس قال سبحانه نفيًا لذلك: ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؛ "أي: إنَّهم في ضياء مستديم، لا ليلَ فيه ولا نهار؛ لأنَّ ضوء النَّهار بالشَّمس، وضوء اللَّيل بالقمر"[3] وبهذا يؤدّي التَّضادُّ دورًا محوريًّا في إبراز المعاني وتوضيحها وتأكيدها.

الغرض من تنكير: ﴿شَمْسًا﴾، و﴿زَمْهَرِيرًا﴾:

سياقات النَّفي تعمِّم النَّكرات، وتبطل الاستثناءات

جاء قوله تعالى: ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ نكرتيْن في سياق النَّفي؛ أي: أنَّهما تفيدان العموم، والمعنى أنَّ أهل الجنَّة لا يرون في جنَّتهم أيَّ شمس مِن بداية ما يُطلق عليه شمسٌ، ولا يروْن فيها أيَّ زمهرير، مِن بداية ما يُطلَق عليه زمهرير. وهذا فضل مِن اللّه كبير.

(1) الكرمانيُّ، غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل: 2/ 1288.

(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 414.

(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 138.

بلاغة الاحتباك في الآية:

الإيجاز بوّابة الإعجاز

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا﴾؛ أي: ولا قمرًا، ﴿وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾؛ أي: ولا يُحِسّون فيها بالبرد الشَّديد المزعج ولا بالحرِّ المُحمي. فالآية مِن الاحتباك: حيث دلَّ بنفي الشَّمس أوَّلًا على نفيِ القمر؛ لأنَّ ظهورَه بها، ودلَّ بنفي الزَّمهرير الذي هو سببُ البَرْد ثانيًا على نفيِ الحرّ الذي سببُه الشَّمسُ، فأفاد هذا أنَّ الجنَّة غنيَّةٌ عن النَّيّرَيْن؛ لأنَّها نَيّرةٌ بذاتِها، وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمانٍ؛ لأنَّه لا تكليفَ فيها بوجهٍ، وأنَّها ظليلةٌ ومعتدلةٌ دائمًا؛ لأنَّ سببَ الحرِّ الآن قُربُ الشَّمس مِن مُسامَتَةِ الرُّؤوس، وسببُ البرْدِ بُعدُها عن ذلك[1].

دلالة العطف في ﴿وَدَانِيَةً﴾:

جمع الله لأهل الجنَّة صنوفَ النَّعيم؛ مبالغة في التَّشريف والتَّكريم

عَطفتِ الواوُ الحالَ الثّالثة ﴿وَدَانِيَةً﴾ على السّابقتَيْن: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، و﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾، وقد "دخلتِ الواوُ للدَّلالة على أنَّ الأمريْن مجتمعانِ لهم، كأنَّه قيل: وجزاهم جنَّةً جامِعينَ فيها بين البُعدِ عنِ الحرِّ والقرِّ ودُنوّ الظِّلال عليهم... ويجوز أنْ يكون ﴿وَدَانِيَةً﴾ معطوفةً على ﴿جَنَّةٗ﴾؛ أي: وجنَّةً أخرى دانيةً عليهم ظِلالُها، على أنَّهم وُعِدوا جنَّتَيْن، كقوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: 46]؛ لأنَّهم وُصِفوا بالخوْف: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾"[2] فقيمةُ هذا العطف أنَّه دلَّ على تمكُّن هذا الوصف مِن الموصوف، وعلى اجتماعه مع ما قبله[3].

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

عَلَتِ الظِّلال على المستظلّين، ودَنَتِ القطوفُ مِن الآكلين

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي مِن العُلُوّ[4]

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 143، والشِّربينيُّ، السّراج المنير: 4/ 454.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 671.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 143.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.

وهذا المعنى هو المراد هنا، "وإنَّما قيل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يقل: منهم؛ لأنَّ الظّلال عاليةٌ عليهم"(1).

بلاغة التَّعبير بالمجاز المرسَل في ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾:

المراد بدُنوّ الظّلال في قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ "قربُها منهم. وإذْ لم يُعهَد وصفُ الظّلِ بالقُرب يظهرُ أنَّ دُنوَّ الظّلال كنايةٌ عن تدلّي الأدواح التي مِن شأنها أنْ تُظلِّل الجنّات في معتاد الدُّنيا، ولكنَّ الجنَّة لا شمسَ فيها فيستظلُّ مِن حرِّها، فتعيَّن أنَّ تركيب ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ مَثَلٌ يُطلَق على تدلّي أفنانِ الجنَّة؛ لأنَّ الظّلَّ المظلِّلَ للشَّخص لا يتفاوت بدُنوٍّ ولا بُعد، وقد يكونُ ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ مجازًا مرسَلًا عنِ الأفنان بعلاقة اللُّزوم"(2) ومعنى القُرب: كمالُ التَّمتُّع بها وإلّا فظلُّها ممدود لا يتقلَّص أصلًا ولا يتفاوت بالقرب والبُعد"(3).

تدلَّتِ الأدواحُ خضوعًا وإكراما، خدمة للأبرار وإعظاما

الغرض مِن تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

أوثر تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ لإفادة التَّخصيص، فكلُّ واحدٍ مِن أهل الجنَّة له بستانُه وأشجارُه الخاصَّة به، وهذه الأشجار قد دَنَت منه حيثما كان، إذا وقف أو قعد، وإذا اضطجع أو جلس، وأينما ذهب أو جاء.. كما اتَّبعته عيونُها وأنهارُها. وهذا كلُّه لا يكون إلّا في الجنَّة، كما أنَّ في التَّقديم اهتمامًا بالمتقدِّم، وهو هنا مُشعِرٌ بالتَّشريف والتَّكريم إذ قُدِّم ضميرُ أهلِ الجنَّة، وفيه كذلك تشويقٌ للمتأخِّر ليتمكَّن مِن النُّفوس تمام التَّمكُّن.

خضعوا للواحد القهّار، فأخضع لهم الأشجار والأنهار

توجيه عود الضَّمير في ﴿ظِلَٰلُهَا﴾:

يصحُّ أن يعود الضَّمير في قوله تعالى: ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ إلى الجنَّة(4)، وأن يعود إلى ما فيها مِن أشجار؛ "أي: ظِلُّ الأشجار في الجنَّة قريبٌ

ظلال الجنَّة وارفة، وأغصان أشجارها متكاتفة

(1) الطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 196.
(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 390.
(3) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 485.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 221.

مِن الأبرار، فهي مظلَّة عليهم؛ زيادةً في نعيمهم وإنْ كان لا شمسَ ولا قمرَ ثَمَّ"[1].

الغرض مِن إضافة المبتدأ أو الفاعل للضَّمير ﴿ظِلَٰلُهَا﴾:

مِن صور التَّعظيم الإضافة إلى الجليل العظيم

الإضافة في ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ معنويَّة، أفادت تعريف المضاف، ودلَّت على التَّعظيم، فإنَّ ظلالًا هذه صفتها هي ظلالٌ عظيمة كريمة لم يُعهَد لها نظير، ومتى ما أُضيفت إلى الضَّمير العائد إلى الجنَّة الموصوفة بما تقدَّم زادت عظمتها وشرفها ومنزلتها.

لطيفة التَّعبير بالظِّلال بعد نفي وجود الشَّمس:

نور الجنَّة مِن نور الله، وقد بولغ فيها مِن سُبُل الرّاحة والرَّفاه

دلَّ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا﴾ على نفي وجود الشَّمس في الجنَّة وما يلزم منه، ودلَّ قولُه سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ على وجود الظِّلال في الجنَّة، ومِن المعلوم أنَّ "الظِّلَّ إنَّما يوجد حيث توجد الشَّمسُ، فإنْ كان لا شمسَ في الجنَّة فكيف يحصل الظِّلُّ هناك؟ والجواب: أنَّ المراد أنَّ أشجار الجنَّة تكون بحيث لو كان هناك شمسٌ لكانت تلك الأشجارُ مظلّلَةً منها"[2] وحاصل المعنى: "أنَّ ظلالَ الأشجارِ في الجنَّة قُرِّبت مِن الأبرار مِن جوانبهم حتَّى صارت الأشجارُ بمنزلةِ المظلَّة عليهم وإنْ كان لا شمسَ فيها مؤذيةٌ لتُظلَّهم منها، ففيه بيانٌ لزيادة نعيمهم، وكمال راحتهم؛ فإنَّ الظِّلَّ في الدُّنيا للرّاحة"[3]. "وفي الجنَّة مِن الضِّياء ما لا يحتاجون معه إلى شمسٍ ولا قمرٍ. ونورُ الجنَّة مِن نور العرش"[4].

دلالة العطف في ﴿وَذُلِّلَتۡ﴾، ودلالة التَّعبير بالماضي بما لم يُسَمَّ فاعلُه:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾. للدَّلالة على أنَّ أدواح الجنَّة قريبةٌ مِن

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 138.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 750.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 270.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 493.

غرس الله تعالى بيده جنَّة الفردوس، فحريٌّ أن تتوق إليها كلُّ نفس

مجالس الأبرار المنعَّمين فيها، وذلك ممّا يزيدها بهجة وحسنًا. والمعنى: سُخِّرت لهم قطوفُ تلك الأدواح وسُهِّلت لهم بحيث لا التواءَ فيها ولا صلابةَ تُتْعِبُ قاطِفَها ولا يتمطَّوْن إليها، بل يجتنونَها بأسهلِ تناوُلٍ[1]، "فحيثُ أرادوها وجدوها حاضرةً بين أيديهم، يأخذون منها ما يشاؤون"[2]، "كلَّما أرادوا أنْ يقطعوا شيئًا منها ذُلِّلَ لهم، ودنا منهم قعودًا كانوا أو مضطجعينَ أو قيامًا"[3] أمّا بناؤه لما لم يُسمَّ فاعلُه فلِلْعِلم بالفاعل، وهو اللّه العظيم الذي أكرم عبادَه الأبرار أيَّما إكرام، ونعَّمهم كلَّ التَّنعيم سبحانه وبحمده!.

سرُّ إيثار المغايرة في التَّعبير بين الاسميَّة: ﴿وَدَانِيَةً﴾، والفعليَّة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾:

تتابعت على الأبرار روائعُ النِّعيم المقيم؛ تكرمةً لهم مِن الله العليّ العظيم

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ وهي جملة فعليَّة، على قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً﴾ وهي جملة اسمية؛ "إشارةً إلى أنَّ التَّذليل متجدّدٌ بخلاف التَّظليل فدائمٌ"[4]؛ لأنَّه لا شمس فيها[5] فلمّا كانت ظلالُها دائمةً ناسَبَه التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّة، وأمّا تذليل القطوف فمتجدِّد بتجدُّد الرَّغبة في الأكل، وهذا ينبغي له الفِعلُ لا الاسم[6]، فوُضِع كلٌّ في موضعه.

الغرض مِن التَّعبير بالاستعارة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾:

ذُلِّل لهم اجتناءُ ثمر شجرها، فقد دنت منهم أطراف أغصانها

قولُه تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ أي: "سُهِّلَ لهم اجتناءُ ثمرها كيف شاؤوا؛ متَّكئينَ وقاعدينَ وقائمينَ. وهذا مِن عجيب الاختصار؛ لأنَّ فيه نزولَ العُنقود إلى الفمِ والإنسانُ قاعدٌ، وارتفاعَه إليه وهو قائمٌ، وزوالَ امتناعه عليه في كلِّ حالٍ مِن أحواله ببُعدٍ أو

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 390.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1367.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 260.
(4) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 276.
(5) الجمل، حاشية على تفسير الجلالين: 8/ 191.
(6) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 485.

مانعٍ مِن شوكٍ أو غيره"[1] فتذليلُ القطوفِ أنْ تُجعَل سهلةَ التَّناول لا تمتنع على قُطّافها كيف شاؤوا"[2]، "فاستُعير التَّذليل للتَّيسير، كما يُقال: فرسٌ ذَلول؛ أي: مِطْواعٌ لراكبه، وبقرةٌ ذَلول؛ أي: مُمَرَّنة على العمل"[3].

الغرض مِن التَّعبير بالمفعول المطلَق ﴿تَذۡلِيلٗا﴾:

عُبِّر بالمفعول المطلَق توكيدًا لفعله ﴿وَذُلِّلَتۡ﴾[4]، أي: أنَّ قوله تعالى: ﴿تَذۡلِيلٗا﴾ هو "تأكيدٌ لِما وُصِفَ به مِن الذُّلِّ، كقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّساء: 164]"[5]، ومعنى الآية أنَّ الجنَّة قد "سُخِّرت ثمارُها لمتناوليها تسخيرًا كثيرًا"[6]، "وسُهِّل تناولُها تسهيلًا عظيمًا لا يردُّ اليدَ عنها بُعدٌ ولا شَوْكٌ"[7].

متى راموها تَدلَّتِ القُطوفُ خاضعة، كأنَّها سامعة وطائعة

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأرائك والسُّرر:

السَّرير الذي يجلس عليه مِن السُّرور، لأنَّه مجلس أولي النِّعمة، وجمعه: أَسِرَّةٌ، وسُرُر[8].

ومِمّا يدور حوله جذر الأرائك: الإقامة[9]؛ فسُمّيَت بذلك لِلُزوم القاعد أو المتَّكِئ إيّاها لراحته[10].

مع الأرائك الخصوصيَّة، ومع السُّرر التَّقابُل

والأرائك: جمع أريكَة. والأريكة: سَريرٌ عليه وسادةٌ معها سِتر

(1) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 147.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 271.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 390.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 390، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 216.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 139.
(6) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 422.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 454 - 455.
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (سرر).
(9) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أرك).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أرك).

وهو حَجَلته، ولا يُسَمَّى السَّرير أريكةً إلّا إذا كان معه حَجَلة[1]. والحَجَلة: قُبَّة مِن ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها؛ ولذلك يقال للنِّساء: ربّات الحِجال، فإذا وُضِعَ فيها سريرٌ للاتّكاء أو الاضطجاع فهي أريكة، ويجلس فيها الرَّجلُ وينام مع المرأة، وذلك مِن شعار أهل التَّرَف[2]؛ وبهذا يظهر سرُّ إيثار (الأرائك) دون (السُّرُر) في هذه الآية ويدلُّ على ذلك قولُ اللّه ﷻ: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: 56].

والمتدبِّر لقول اللّه ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 47]، ونظائره يجد أنَّ لفظ ﴿سُرُرٍ﴾ [الحجر: 47] ذُكِرَ معه حال كونهم ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 47]، والتَّقابل: كَونُ الواحد قُبالة غيره[3]، ومعنى قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطّور: 20] متقابلةً مع اصطفافها[4]، والمعنى: أنَّهم يأكلون متَّكئين مجتمعين للتَّأنُّس[5]؛ وقد قال ابن القيِّم: "وفي ذكر اصطفافها تنبيهٌ على كمال النَّعمة عليهم بقُرب بعضهم مِن بعض ومقابلة بعضهم بعضًا كما قال اللّه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: 16]"[6]؛ فلِأنَّ السّياقَ في هذه الآيات سياقُ تَقابُلِ الأصحاب أوثِر فيها لفظُ (السُّرُر) دون (الأرائك)، فإنَّ الحِجالَ التي بالأرائك حاجبةٌ للرُّؤية متى أراد أصحابُها حجبَها عمَّن حولهم؛ وهذا منافٍ للتَّقابُل، ولا يعني ذلك أنَّ أصحابَ الأرائكِ لا يستطيعون النَّظَرَ منها، بل يَنظرون منها متى أرادوا، وهذا ظاهرٌ في قول اللّه ﷻ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطفّفين: 23]، ونظرُهم مِن خَلفِ الحِجال صورةٌ مِن صوَرِ التَّرَف والنَّعيم.

الزَّمهرير والبرْد:

الفرقُ بين (البَرْد) و(الزَّمهَرير)، أنَّ (البرد) غيرَ الشَّديد يُستعمَل فيما يجعل الإنسانَ في حالٍ هنيئة؛ ولذا أوثِر لفظُه دون (الزَّمهرير) في قول اللّه ﷻ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]، ونُفيَ عن أهل النّار ذَوقُ بَرْدٍ في قول اللّه ﷻ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 389.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 314.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 56.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 27/ 47، ونخبة مِن أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر، ص: 524، وجماعة مِن علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 524.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 27/ 47.
(6) ابن القيّم، التِّبيان في أيمان القرآن، ص: 273.

الـزَّمْـهَـريـرُ هو الــبَرْد الـشَّـديد المؤذي

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ [النبأ: 24]؛ قال الزَّجّاج، "أي: لا يذوقون فيها بَرْدَ ريحٍ، ولا ظِلٍّ، ولا نَوم. فجعل البرد بردَ كلِّ شيءٍ له راحة، وهذا بردٌ ينفعهم، فأمّا الزَّمهرير فهو بردٌ يتأذَّوْن به، فلا ينفعُهم، فلهم منه مِن العذاب ما الله أعلم به"[1]؛ وقَوْلُ الزَّجاج يُبيِّن الفرق بينهما، فأوثِر لفظ (الزَّمهرير) دون (البرْد) في قول الله ﷻ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؛ لأنَّ (الزَّمهَرير) هو البرد الشَّديد المؤذي[2]، ونَفْيُ رؤيتهم إيّاه مِن تَمام النَّعيم والرّاحة.

الدُّنوُّ والقُرب:

الـدُّنـوُّ قُـربٌ يحصل بنُزول

الفرق بينهما أنَّ القُربَ أعَمُّ مِن الدُّنوّ؛ لأنَّ الدُّنوَّ قُربٌ يحصل بنُزولٍ؛ فالمعنى المحوريُّ لجذر الدُّنوّ: قُرْب الوصول إلى المَقَرِّ المراد أو المعتاد نزولًا: كسُقوط الشَّمس في الأفق متَّجهةً إلى مغيبها[3]. يقال: دَنَت الشَّمسُ للغروب وأدْنَت[4]؛ ولذا أوثِر لفظ (الدُّنوّ) دون (القُرب) في قول الله ﷻ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾، فدُنوُّ الظِّلال كِنايةٌ عن تَدَلّي الأدواح التي مِن شأنها أنْ تُظلِّلَ الجَنّات في معتاد الدُّنيا، ولكنَّ الجَنَّةَ لا شمسَ فيها فيُستَظلُّ مِن حَرِّها، فتَعَيَّنَ أنَّ تركيب ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ مَثَلٌ يُطلَق على تَدَلّي أفْنانِ الجَنَّة[5].

القُطوف والجنى:

الجنَى أعَمُّ مِن القُطوف

المعنى المحوريُّ لجذر الجَنَى: تحصيلُ الثَّمَر أو أخْذُه مِن الشَّجر[6]؛ والجَنَى: ما يُؤخَذ مِن الشَّجَر[7].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 180.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 551.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).
(4) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (دنو).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 390.
(6) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جني).
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 180.

المعنى المحوريُّ للقُطوف: قَطْع الطَّرَف (الدَّقيق) للشَّيء أو ما هو في طرَفه: كقطع عناقيد العِنَب، وهي في الأطراف وشأنُها أنْ تُقطَع[1].

ويدلُّ ما سَبَق على أنَّ لفظ (القُطوف) فيه اختصاصٌ بالعناقيد والأعناب؛ فأوثِر لفظُه دون (الجَنَى) في قول الله ﷻ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ لاشتمال العناقيد على الكثير مِن الثِّمار التي تُقطَف، وتناولُ العناقيد مِن الشَّجر، وتناول ثِمارِ العناقيد على التَّوالي صورةٌ مِن صور التَّرَف والانغماس في النَّعيم، ويزيد في تصوير تنعُّمِهم بهذه القُطوف كونُها ذُلِّلَت تذليلًا؛ فلم يبذلوا أدنى جهدٍ في تناولها.

وأمّا لفظ (الجَنَى) فهو أعَمُّ مِن (القطوف)؛ لأنَّ أصلَه أَخْذُ الثَّمَر مِن الشَّجر؛ ولذا أوثِر لفظُه دون (القطوف) في قول الله ﷻ: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرَّحمن: 54]؛ ليعمَّ ويشمل قربَ جميع ما يُؤخَذ مِن ثمار الجنَّتَين، ويُلاحَظ هنا لفظ ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ [الرحمن: 54]، أمّا في آية الحاقَّة وآية الإنسان فالضَّمير فيهما عائدٌ إلى (جنَّة)؛ فقد تكون هذه الجنَّة خُصَّت بالقُطوف.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قطف).

﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨﴾ [الإنسان: 15 - 18]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

عطاء الله لا يَنفَدُ، وكرمه سبحانه واسعٌ وممتدّ

لَمّا ذكر المولى سبحانه طعامَ أهل الجنَّة ولِباسَهم وهيئة سكناهم؛ ذكر ما يستتبعه ممّا تعارفه أهل الدُّنيا مِن أحوال أهل البذخ والتَّرف واللَّذات؛ لبيان عوض الله لهم، وسموِّ المنزل في أخراهم[1]، وقدَّمَ وصف الأواني التي فيها يَشرَبونَ[2] إبرازًا لعِظم ما فيه يتنعَّمون، ولمّا وصفت الآنية ومحاسِنها، أتبع ذلك بوَصفِ الشَّرابِ الذي يحويه وطيبِه[3] زيادة في الإمتاع، وجذبًا للأفئدة والأسماع.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَيُطَافُ﴾: أصل (طوف) يدلُّ على دوران الشَّيء على الشَّيء، وأن يُحَفَّ به[4]. طاف حول الشَّيء يطوف طوفًا وطوفانًا، والطَّوف: المشي حول الشَّيء[5]. ومنه الطّائف: لِمَن يدور حول البيوت حافظًا. يقال: طاف يطوف[6]. قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ﴾؛ أي: مِن أيّ طائف كان لكثرة الخدم[7]. ومنه استُعير الطّائفُ مِن الجنِّ، والخيال[8]. والطّائف: العاسُّ باللَّيل. والطَّوّاف: الخادم الذي يخدمك برفق وعناية. وجمعه: طوّافون[9].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 391.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 751، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 363.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (طوف).
(6) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144.
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (طوف).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (طوف).

2) ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾: أنى الشَّيءُ يأنَى إنًى؛ أي: حان. وآنَ الشَّيءُ: قَرُب إناه. وإناهُ؛ أي: وقتُه[1]. وآنيتُ الشَّيء أُنيًّا؛ أي: أخَّرته عن أوانه. وتأنَّيت: تأخَّرت، وترفَّقت. والإناء: ما يوضع فيه الشَّيء الذي آنَ وقتُه، وجمعه آنية، وجمع الآنية: الأواني[2]. وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾؛ الآنية جمع إناء، وهو اسم لكلِّ وعاء يرتفق له[3].

3) ﴿قَوَارِيرَاْ﴾: أصل (قرر) يدلُّ على تمكُّن. القواريرُ جمع قارورة، وأصل القارورة إناء شبه الكوز، ولا تسمَّى القارورة قارورة إلَّا إذا كانت من زجاج[4]. وسُمّيَت قارورة اشتقاقًا من القرار، وهو المُكث في المكان[5]. ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾؛ جمع قارورة، وهي ما قرَّ فيه الشَّراب ونحوه من كلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ[6].

4) ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾: أصل (قدر) يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكنهه ونهايته[7]. قدر الشَّيء: مبلغه[8]. القُدرة إذا وصف بها الإنسان فاسمٌ لهيئةٍ له بها يتمكَّن من فعل شيء ما. والقَدَر والتَّقدير: تبيين كميَّة الشَّيء، يقال: قدَرته وقدَّرته. فتقدير الله الأشياء على وجهين: أحدهما: بإعطاء القدرة، والثّاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة[9]. والقدَر والقدْر: ما يقدِّره الله من القضاء[10].

5) ﴿زَنجَبِيلًا﴾: زنجبيل: كلمة معرَّبة، وأصلُها بالكاف الأعجميَّة عِوَضَ الجيم[11]. وهو اسمٌ لجذور مثل جذور السُّعْد - بضم السّين وسكون العين - تكون في الأرض كالجَزَر الدَّقيق واللِّفت الدَّقيق، لونُها إلى البياض، لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطريَّة طيِّبة، وطعمُها شبيه بطعم الفُلفل، وهو ينبت ببلاد الصِّين والسِّند[12]. والزَّنجبيل:

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (أنا).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (أنا).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 391.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392، والجوهريُّ، الصِّحاح: (قرر).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 145.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(8) الجوهريُّ، الصِّحاح: (قدر).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (قدر).
(10) الجوهريُّ، الصِّحاح: (قدر).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.
(12) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.

ممّا كانت العرب تستطيبه جدًّا، فوعدهم اللّه تعالى أنَّهم يُسقَون في الجنَّة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنَّة. قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدُّنيا[1].

6) ﴿سَلْسَبِيلًا﴾: السَّلسبيل: اسم عيْنٍ في الجنَّة[2]، وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾؛ أي: سهلًا لذيذًا سلسًا[3]. وسلسبيل: وصفٌ، قيل: مشتقٌّ مِن السَّلاسة وهي السُّهولة واللِّين، فيقال: ماء سلسل؛ أي: عذب بارد[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجـنَّـة أهلها مرفَّهون؛ لأنَّهم من آنية فِضَّتها يـشـربـون، وبخمرها يتلذَّذون

بعد أن وصف الحقُّ ﷻ جانبًا من طعام ولباس ومسكن أهل الجنَّة أخذت السّورة الكريمة في وصف شرابهم؛ حيث يدور عليهم الخدم في الجنَّة بأواني الطَّعام الفِضّيَّة، وكيزان الشَّراب الَّتي أوجدها اللّه بقدرته؛ فكانت جامعةً بين صفاء الزُّجاجة وشفيفها وبياض الفِضَّة ولينها، والَّتي قدَّرها السُّقاةُ تقديرًا مناسبًا على مِقْدار ما يشتهي الشّاربون لا تزيد ولا تنقص، ومن كرم اللّه سبحانه لأهل الجنَّة أنَّهم يُسْقَونَ كأسًا من خمرٍ مخلوطةٍ بالزَّنجبيل ذي الرّائحة الطَّيِّبة الَّذي جعله اللّه عينًا في الجنَّة توصَفُ بالسَّلاسَةِ والعُذوبَةِ؛ لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

أُعـقِـب ذِكـرُ مـتَّـكـآت أهـلِ الـجـنَّـة ومجالسهم بـوصـف مـطـعـمـهـم ومشربهم

معنى (الواو) ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ﴾ عاطفة[6]، عطفتْ جملتَها "على

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 296.
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (سل).
(3) الرّاغب، المفردات: (سل).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 396.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 298.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 188.

جملة: ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ الآية، كما اقتضاه التَّناسبُ بين جملة: ﴿يَشۡرَبُونَ﴾، وجملة: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ في الفِعليَّة والمضارعيَّة، وذلك مِن أحسن أحوال الوصل، فعاد الكلامُ إلى صفة مجالس شرابهم. وهذه الجملة بيانٌ لما أُجمِل في جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾، وإنَّما عُطِفتْ عليها؛ لِما فيها مِن مغايرةٍ مع الجملة المعطوف عليها مِن صفةِ آنيةِ الشَّراب؛ فلهذه المناسبة أُعقِبَ ذِكرُ مجالسِ أهلِ الجنَّة ومتَّكآتهم بذِكرِ ما يستتبِعُه ممّا تعارفه أهلُ الدُّنيا من أحوال أهلِ البَذَخ والتَّرَف واللَّذّات بشُرب الخمر إذ يُديرُ عليهم آنيةَ الخمرِ سُقاةٌ"(1).

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع المبنيّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

أهل الجنَّة مخدومون، وهم في نعيمٍ دائم لا يسأمون

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ "أي: يدورُ على هؤلاءِ الأبرارِ الخدَمُ إذا أرادوا الشَّرابَ بآنيةٍ مِن فضَّةٍ"(2)، "وإذْ قد كان ذلك معروفًا لم تكنْ حاجةٌ إلى ذِكر فاعل الطَّواف؛ فبُني للنّائب"(3)؛ للعِلم به(4)، ولأنَّ المقصودَ بيانُ المُطافِ به، لا بيانُ الطّائف(5) فمعنى قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ﴾؛ "أي: مِن أيِّ طائفٍ كان؛ لكثرة الخَدَم"(6). "ولمّا كان الدَّوران بالآنية متجدِّدًا، عُبِّر فيه بالمضارع"(7).

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

على في قوله ﴿عَلَيۡهِم﴾ مِن باب العلوِّ المجازيِّ؛ إذ تصوِّر حال الأبرار المنعَّمين جالسين أو متَّكئين، والخدَم وقوفٌ عندهم يدورون عليهم بالآنية؛ "جزاءً على طوافهم على المحتاجين بما يُصلحهم"(8).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 391.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 140.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 391.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 222.
(5) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 271، والصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 276.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 455.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144.
(8) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144.

معنى (الباء) والتَّنكير ودلالتهما في ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾:

في الآنية ما لذَّ وطاب، من أفانين الطَّعام والشَّراب

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق[1]، وهو هنا بهذا المعنى، فكأنَّه جعل الطَّواف ملتصقًا بالآنية، وهذا يشير إلى أنَّ الآنية هي المقصودةُ؛ إشارةً إلى ما فيها مِن لذيذ الطَّعام والشَّراب، والأصل أنَّ "الطَّواف والإطافة كلاهما لازمٌ، وإنَّما جاءت التَّعدية هنا مِن الباء في قوله: ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾"[2]؛ أي: أنَّ هذه الباء أفادت هنا التَّعدية[3] أمّا التَّنكير فالظّاهر أنَّه للتَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثير؛ أي: بآنية كثيرة عظيمة فخيمة.

بلاغة ذكر العامّ بعد الخاصّ في ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾:

آنية الجنَّة للجمال جامعة، وهي بالنَّعيم مُترَعَة

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ﴾ جاء بعد قوله سبحانه: ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ﴾، "وتشمل الآنيةُ الكؤوسَ، فذِكرُ الآنيةِ بعد ﴿كَأۡسٍ﴾ مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ﴾ مِن ذِكر العامّ بعد الخاصّ إلّا إذا أُريد بالكأسِ: الخمرُ"[4].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها والغرض من التنكير في ﴿فِضَّةٍ﴾:

فضَّةٌ في صفاء الزُّجاج، تبعثُ على السُّرور والابتهاج

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[5]. "وقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ بيانٌ للآنية"[6] فكأنَّه جعل الفضَّة مبتدأ اتِّخاذِ الآنية، أو تكوينها على هذه الصّورة البديعة العجيبة، "فهي من فِضَّة كانت قواريرًا، فجعلها فِضَّة، وهي في صفاء القوارير، فلها بياض الفِضَّة وصفاء الزجاج"[7]، بحيث "يُرَى ما في داخلها مِن خارجها"[8]

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(2) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 494.
(3) الإيجيُّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 4/ 421.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(6) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 276.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 104.
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 296.

فهذا نوع مِن الفضَّة نفيس عزيز لا شبيه له ولا نظير؛ فلهذا كان جليل الشَّأن رفيع القدر، فالتَّنكير لبيان النَّوع وللتَّعظيم، وكلاهما صحيح بلا تناقض.

دلالة وصف الآنية بكونها ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾:

كلُّ آنيةٍ بنتُ تربتها، خُصِّصت لأداء حاجتها

إنَّما قيل: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، ليدلَّ بذلك على أنَّ أرض الجنَّة فضَّة؛ لأنَّ كل آنية تُتَّخذ، فإنَّما تُتَّخذ من تُرْبة الأرض التي فيها، فدلَّ جلَّ ثناؤه بوصفه الآنية متى يُطاف بها على أهل الجنَّة أنَّها من فِضَّة؛ ليعلم عباده أنَّ تربة أرض الجنَّة فِضَّة[1].

بلاغة التعبير لاكتفاء بذكر الفِضَّة في ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾:

مِن صوَر الإعجاز البراعة في الإيجاز

في قوله تعالى: ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ جعلَ الآنيةَ مخلوقةً مِن فضَّة، وليس في هذا دليل على انتفاء وجود أواني الذَّهب، "بل المعنى: يُسقَوْن في أواني الفِضَّة، وقد يُسقَوْن في أواني الذَّهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزُّخرف: 71]. أو نبَّه بذِكر الفِضَّة على الذَّهب، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النَّحل: 81]؛ أي: والبَرْدَ، فنبَّه بذِكر أحدِهما على الثّاني"[2] وقد يكون "هذا لصِنفٍ وذاك لصِنفٍ أعلى منه مع إمكانِ الجمع والمعاقَبَة"[3].

دلالة عطف الأكواب على الآنية في ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾:

ليس للأكواب عُرًى ولا خراطيم، وفي إفرادها بالذِّكر مزيد تفخيم

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ أي: يطوف عليهم الخَدَمُ بأواني الطَّعام، وهي مِن فِضَّة، وأكوابِ الشَّراب وهي الكيزان التي لا عُرَى لها ولا خراطيم"[4] وإنَّما مُيِّزت الأكوابُ بالذِّكر؛ لأنَّه ليس كلُّ إناءٍ كوبًا"[5]؛ إذ الكوبُ "هو الكوز لا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 104.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 140.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 144.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 291.
(5) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 148.

عروة له، فيسهُل الشُّرب منه مِن كلِّ موضِع فلا يحتاج عند التَّناول إلى إدارة"[1] وعليه فإنَّ عطفَ ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ على ﴿بِـَٔانِيَةٖ﴾ هو مِن باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الأكواب تحمل فيها الخمر لإعادة ملء الكؤوس[2] وثمَّ وجه آخر، وهو أنَّ "إفراد الأكواب بالذِّكر بعد الآنية لشرفها بالنِّسبة إلى غيرها، كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: 6]، ويُحتمل أن يكون المراد بالآنية: ما يُشرَب فيه كالقدح، وبالكوب ما يُصَبُّ مِنه في الإناء كالإبريق"[3].

نكتة جمع الآنية والأكواب وتنكيرهما:

نعيم الجنَّة قد حقَّق الغاية، ولا يعرف انقطاعًا ولا نهاية

عُبِّر بـ﴿بِـَٔانِيَةٖ﴾ و﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ﴾؛ لإفادة الكثرة غير المتناهية، فهي ممّا لا يُحصَى عددًا. "وقد جُمِعت الأكواب، حتَّى إذا امتلأت بالشَّراب، أُفرِدت، فكان لكلِّ شاربٍ كأسُه الذي يشرب منه، والعَيْن التي تفيض مِن هذه الكأس. وهذا مِن إعجاز القرآن الكريم في جلال التِّصوير، وروعة الأداء، وصِدق العرض"[4]. وأمّا التَّنكير فإنَّه يؤكِّد معنى الكثرة مع إفادته معنى التَّعظيم والتَّفخيم.

بلاغة المجاز بذِكر الآنية والأكواب:

مِن محاسِن القرآن الإشارة لمَن يفطِن إلى مراد العِبارة

معنى قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ "أنَّ لهم في الجنَّة أطعمةً وأشربةً يُطاف بها عليهم في صِحافٍ مِن ذَهَب وأكواب، ولم يذكر الأطعمة والأشربة؛ لأنَّه يعلم: أنَّه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب والآنية عليهم مِن غير أن يكون فيها شيء"[5].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 145، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 455.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 222.
(3) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 8/ 440.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1369.
(5) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 354.

فبقي أن يكون المراد أنَّه: يدور عليهم الخَدَم بالأواني الفِضّيَّة فيها الطَّعام والشَّراب على عادة أهل التَّرف والنَّعيم في الدُّنيا فيتناول كلُّ واحدٍ منهم حاجته، فذِكرُ الآنية والأكواب مجازٌ مرسَل مِن باب ذِكر المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه.

سرُّ وصف الأكواب بالجملة الاسميَّة، وبيان دلالة: ﴿كَانَتۡ﴾:

ليس لما في الجنَّة نظير، فآنيتها فضّيَّة في شفوف القوارير

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ في وصف الأكواب لتوكيد ثبوت هذا الوصف لها؛ لأنَّه ممّا لم يُعهَد له نظير، فمهما رُقِّقت الفضَّة فلن تصل إلى شفافية الزُّجاج بحال، ومهما قُسِّي الزُّجاج فلن يصل إلى متانة الفضَّة بحال؛ ولذلك جيء في جملة الوصف بفعل الكون ماضيًا لإفادة التَّحقق والدَّوام[1]، وللدَّلالة على أنَّ هذا الوصف المذكور هو كالجِبِلَّة في هذه الأكواب[2]، فقد وُجِدت على هذه الصِّفة في عِلم اللّه تعالى وسابق قضائه في نعيم أهل الجنَّة[3]، وتكوَّنت بتكوين اللّه تعالى؛ تفخيمًا لتلك الخِلقة العجيبة الشَّأن، الجامعة بين صفتي الجوهرَيْن المتباينَيْن[4].

الغرض مِن التَّعبير بالخبر بصيغة جمع التَّكسير ﴿قَوَارِيرَا۠﴾:

تُجمَع (قارورة) على قوارير[5]، وقد تُجمَع على (قارورات)[6]، وقد أوثر الجمع الأوَّل كونه الأشهر والأفصح، ولأنَّه أيضًا يدلُّ على الكثرة غير المتناهية، فنعيم الجنَّة دائم ومتجدِّد لا يفنى ولا ينفد.

تنوع موقع ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ في قوله: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ مِن الإعراب ودلالته:

أبدل للتَّبيين، ولتقرَّ عينُ العاملين

يصحُّ في ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثّاني أن يكون منصوبًا على البدل - وعليه الجمهور - مِن ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأوَّل على سبيل الإيضاح والتَّبيين؛ لأنَّه

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 19/ 486.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 145.
(3) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 149، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 222.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 671.
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قرر).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربية المعاصرة: 3/ 1796.

بَيَّن أنَّه مِن الفِضَّة؛ أي: مخلوقة مِن فِضَّة[1]. "ويجوز أن يكون تأكيدًا لفظيًّا لنظيره لزيادة تحقيق أنَّ لها رقَّةَ الزُّجاج فيكون الوقف على ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأوَّل.

ويجوز أنْ يكون تكريرًا لإفادة التَّصنيف؛ فإنَّ حُسن التَّنسيق في آنية الشَّراب مِن مكمّلات رونق مجلِسه، فيكون التَّكرير مِثلَ ما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: 22]، وقولِ النّاس: (قرأتُ الكتابَ بابًا بابًا) فيكون الوقف على ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثّاني"[2].

نكتة تكرار قوله: ﴿قَوَارِيرَاْ﴾:

في التَّكرير مزيد توكيد وتقرير

كُرِّر لفظ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّها كانت قوارير، لكن ليست قواريرَ معلومةً عندكم، بل قوارير مِن فِضَّة جامعة لبياضها ولينها في صفاء الزُّجاج وشفوفه[3]، فكان التَّكرير "توطئةً للنَّعت بقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾"[4] وحَسُنَ التَّكريرُ لِما اتَّصل به مِن بيانِ أصلِها، ولولا التَّكريرُ لم يَحسُن أنْ يكونَ الأوَّلُ رأسَ آيةٍ لشِدَّة اتِّصالِ الصِّفة بالمَوصوفِ"[5]؛ أي: أنَّه لمّا كان ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأوَّلُ "رأسَ آيةٍ، وكان التَّعبير بالقارورة ربَّما أفهَمَ أو أوْهَمَ أنَّها مِن الزُّجاج، وكان في الزُّجاج مِن النَّقص سرعةُ الانكسار لإفراط الصَّلابة - قال معيدًا للَّفظ أوَّل الآية الثّانية؛ تأكيدًا للاتِّصاف بالصّالح مِن أوصاف الزُّجاج وبيانًا لنوعها: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: فجمعتْ صِفتَي الجوهرَيْن المتباينَيْن: صفاء الزُّجاج وشُفوفه وبريقه، وبياض الفِضَّة وشرفها ولينها"[6].

(1) المنتجب الهمدانيُّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 296.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 393.
(3) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 487، والعليميُّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 7/ 237.
(4) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277.
(5) العكبريُّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1260، والقنُّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 469.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 145.

معنى ﴿مِن﴾ والتَّنكير ودلالتهما:

كلُّ ما ذَكر الله في القرآن ممّا في الجنَّة وسمّاه، ليس له نظائر في الدُّنيا ولا أشباه

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ "أنَّها مخلوقة مِن فِضَّة، وهي مع بياض الفِضَّة وحُسنِها في صفاء القوارير وشفيفها"[2]، فدلَّت ﴿مِن﴾ على أنَّ ابتداء تكوين القوارير كان الفضَّةَ، ومِن المعلوم أنَّ "القوارير لا تكون إلّا مِن زُجاج. فهذه الأكوابُ هي مِن فِضَّة، وهي مع هذا شفّافة يُرَى ما في باطنها مِن ظاهرها، وهذا ممّا لا نظير له في الدُّنيا"[3].

"فكمال الفِضَّة في بقائها ونقائها وشرفها إلّا أنَّه كثيف الجوهر، وكمال القارورة في شفافيتها وصفائها إلّا أنَّه سريع الانكسار، فآنية الجنَّة آنية يحصل فيها مِن الفِضَّة بقاؤها ونقاؤها، وشرفُ جوهرها، ومِن القارورة صفاؤها وشفافيتها"[4]. "وكذلك فِضَّة الجنَّة شفافة"[5]، وأمّا التَّنكير فللتَّعظيم أو للنَّوعيَّة، وهما ظاهران لا يتعارضان، فالفضَّة الموصوفة نوعٌ لم يعهده البشر، وما دام كذلك فلا جرم أنَّه عظيم القدر جليل الشَّأن.

سر وصف القوارير بكونها ﴿مِن فِضَّةٍ﴾:

قــواريــر مِــن فـضَّـةٍ خُـلِقت، وبالإبداع سُبِكت

قوله تعالى في وصف القوارير: "﴿مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: مخلوقة من فِضَّة"[6]، فهي صفةٌ لـ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ جاءت تبيّن نوع هذه القوارير التي قد جمعت صِفَتَي الجوهرَيْن المتبايِنَيْن: صفاء الزُّجاج وشفوفه وبريقه، وبياض الفِضَّة وشرفها ولينها، فهي أكواب في صفاء

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 671.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 291.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 751.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 412.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 363.

القوارير وبياض الفِضَّة، فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فِضَّة[1] "فالغرض مِن ذِكر هذه الآيةِ التَّنبيهُ على أنَّ نسبة قارورة الجنَّة إلى قارورة الدُّنيا كنسبة فِضَّة الجنَّة إلى رمل الدُّنيا، فكما أنَّه لا نسبة بين هذيْن الأصلَيْن، فكذا بين القارورتَيْن في الصَّفاء واللَّطافة"[2].

فائدة تعديد صفات آنية أهل الجنَّة:

تكامَلَت أسباب النَّعيم وتمَّت، ولـكـلِّ سبل الرَّفاه قد عمَّت

تعدَّدت في الآيات صفات آنية أهل الجنَّة، فذُكِر أنَّها ﴿قَوَارِيرَاْ﴾، وأنَّها ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، وأنَّها مقدَّرة ﴿تَقۡدِيرًا﴾، وهذا كلُّه مبالغة في وصف النَّعيم الذي تكاملت أسبابه، وتتامَّت صوَرُه؛ وذلك "أنَّ منتهى مراد الرَّجُل في الآنية التي يشرب منها: الصَّفاء والنَّقاء والشَّكل، أمّا الصَّفاء فقد ذكره اللّٰه تعالى بقوله: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾، وأمّا النَّقاء فقد ذكره بقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، وأمّا الشَّكل فقد ذكره بقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا﴾"[3].

سرُّ إيثار التَّعبير بالفِضَّة في ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾:

الفضَّة أقرب إلى بياض القوارير مِـن الـذَّهـب، الـذي بصِحاف (الـزُّخـرف) قد ذهب

"قال سبحانه هنا ﴿بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ﴾، وفي سورة الزُّخرف: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ [الزخرف: 71]؛ زيادةً في تكريمهم، وفي سموِّ منزلتهم؛ إذ تارةً يطاف عليهم بأكواب من فِضَّة، وتارة يطاف عليهم بصِحافٍ مِن ذهبٍ، ومِن المعروف أنَّه كلَّما تعدَّدت المناظر الحَسَنة، والمشارب اللَّذيذة، كان ذلك أبهجَ للنَّفس"[4] "ووُصفت هنا بأنَّها مِن فضَّة؛ أي: تأتيهم آنيتُهم مِن فضَّة في بعض الأوقات، ومِن ذهبٍ في أوقاتٍ أُخرى كما دلَّ عليه قولُه في سورة الزخرف: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ [الزخرف: 71]؛ لأنَّ للذَّهب حُسنًا وللفِضَّة حُسنًا فجُعِلَت آنيتُهم

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 20/ 34، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 455.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 751.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 752.
(4) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 222.

مِن المعدنيْن النَّفيسيْن لئلّا يفوتَهم ما في كلٍّ مِن الحُسنِ والجَمال، أو يُطاف عليهم بآنيةٍ مِن فضَّةٍ وآنيةٍ مِن ذهبٍ متنوّعة متزاوجة؛ لأنَّ ذلك أبهجُ منظرًا مثلَ ما قال مرَّة: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾، ومرَّة: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: 31]، وذلك لإدخال المسرَّة على أنفسهم بحُسن المناظِر فإنَّهم كانوا يتمنَّوْنَها في الدُّنيا لعزَّةِ وجودِها أو وجود الكثير منها، وأوثر ذِكرُ آنيةِ الفضَّة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البَياض"[1].

سرُّ التَّعبير بالصِّفة جملةً فعليَّةً: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾:

الشُّرب يتجدَّد مرَّة بعد مرَّة، يُديم الرِّيَّ والمَسَرَّة

الجملة الفعليَّة موضوعة - في الأصل - لإفادة التَّجدُّد والحدوث في زمن معيَّن مع الاختصار[2] وقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ صفة للقوارير، وناسبَ أن يُعبَّر فيها بالفعليَّة لتناسب تجدُّد الشُّرب مرَّةً بعد مرَّة، ففي كلِّ مرَّة يحتاجون فيها للشُّرب يُقَدَّر لهم الشَّراب فيها تقديرًا على قدر ريِّهم، وعلى قدر مشتهاهم،"وهذه الأواني قد قُدِّرت لهم تقديرًا تامًّا فليست صغيرة لا تفي بما يطلبون، ولا كبيرة تزيد على ما يحتاجون"[3].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿قَدَّرُوهَا﴾:

مِن تمام الإكرام السَّبق بإعداد سُبل الرَّفاه والإنعام

يفيد التَّعبير بالفعل الماضي التَّحقق والتَّوكيد مِن حيث إنَّه يدلُّ على شيء قد مضى وانقضى، والتَّعبير به هنا في قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يدلُّ على غاية الإكرام؛ إذ إنَّ وسائل النَّعيم قد أُعدَّت وجُهِّزت لأهل الجنَّة سلفًا قبل أن يسكنوها، وهذا نعيم فوق النَّعيم: ألّا ينتظر الضَّيف بالباب وقوف السّائلين!فخلاصة المعنى أنَّهم "قدَّروا تلك الآنية التي يُطاف عليهم بها تقديرًا على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392.

(2) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56.

(3) محمود محمَّد حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 797.

قَدْر ريِّهم لا تزيد ولا تنقص عن ذلك"[1]، "وهذا أبلغ في الاعتناء والشَّرف والكرامة"[2].

توجيه عود ضمير الفاعلين في ﴿قَدَّرُوهَا﴾ ودلالته:

كؤوس مقدَّرَة على قدر المشتَهَى؛ لتصل باللَّذَّة إلى المنتَهَى

قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ "يحتمل أن يكون الضَّمير للملائكة، ويحتمل أن يكون للطّائفين، ويحتمل أن يكون للمنعَّمين"[3] فإنْ كان المرادُ به المنعَّمين الشّاربين، فالمعنَى أنَّهم قَدَّروها في أنفسِهم أن تكون على مقاديرَ وأشكالٍ على حسب شهواتهم، فإذا رغبوا في الشَّراب انتصبتْ في الحال بين أيديهم تلك الأكوابُ، فكانت على قدرِ ما رغبوا وقدَّروا، وجاءت موافِقةً لما اشتَهَوْا أيَّما موافَقةٍ؛ فقد أُلهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدارِ ريِّ المشتهي حتَّى تغترف بذلك المقدار!، وإنْ كان المرادُ به السُّقاة والخَدَم الطّائفين، فالمعنى أنَّهم قَدَّروها على قدر ريِّ الشّاربين بمقدارٍ لا يزيد عن هذا الرِّيِّ فيُثْقِلُ الكفَّ، ولا ينقص عنه فيطلب الزِّيادة، وهذا ألذُّ الشَّراب؛ لكونه على مقدار حاجته: لا يفضلُ عنها ولا يعجز! ومِثل ذلك يُقال في توجيه عود الضَّمير على الملائكة[4].

سرُّ التَّعبير بالمفعول المطلَق ﴿تَقْدِيرًا﴾:

جُعِلت على مقدارٍ دقيق، فلا هي تزيد فتفيض، ولا تنقص فتغيض

قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ "هو مبالغةٌ في وصف الآنية ونفاستها؛ أي: أنَّها مقدَّرة ذات قدر كبير، وقيمة عظيمة"[5]. "و﴿تَقْدِيرًا﴾ مفعولٌ مطلَق مؤكِّد لعامله للدَّلالة على وفاء التَّقدير، وعدمِ تجاوزِه المطلوبَ، ولا تقصيرِه عنه"[6].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 106.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 291.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 412، والثَّعالبيُّ، الجواهر الحسان: 5/ 531.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 671، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 379، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 752، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 271.
(5) محمَّد عبد اللَّطيف الخطيب، أوضح التَّفاسير: 1/ 724.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 394.

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾:

أُتبِـع وصـفُ محـاسِـن الأكواب بذِكر ما تحويه مِن لذيذ الشَّراب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾ عاطفة[1]، عطفت جملة ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾ على جملة ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾[2]. وممّا حسَّن الوصل بينما كونُ الجملتيْن فعليَّتيْن مصدَّرتيْن بفعليْن مضارعيْن، ومِن تمام المناسبة ذكر الغاية بعد الوسيلة، ذلك أنَّه لمّا ذكر ﷻ الأكوابَ أتبعَها غايتَها، فقال تخصيصًا بالعطف: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾؛ أي: يُسۡقَوۡن فيها ما تشتهي أنفسُهم وتلذُّ أعينُهم[3]. وبذلك يكون المولى - جلَّ ثناؤه - قد أتْبع وصْفَ الآنيةِ ومحاسنِها بوصفِ الشَّراب الذي تحويه هذه الآنية ووصْفِ طيبِه[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع المبنيّ للمفعول: (يُسْقَوْنَ):

نعيم يتكرَّر فلا يُـمَـلّ، ولا مِن كثرة الاستهلاك يقلّ

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بالمضارع للدَّلالة على تجدُّد فعل السَّقي وتكرُّره ممّا يشير إلى وفور النَّعيم واستمراره. كما آثر أن يكون بناء هذا الفعل لما لم يُسَمَّ فاعلُه للعِلْم بالفاعل؛ إذْ معنى (يُسۡقَوۡن)؛ أي: يسقي اللّٰه تعالى تشريفًا وتكريمًا[5]، أو "يسقيهم مَن أرادوه مِن خَدَمِهم الذين لا يُحْصَوْن كثرةً"[6]، فالفاعل معلوم. وأيضًا لأنَّ الاهتمام هنا بالمَسقيّ لا بالسّاقي، وقد "ذكر (يُسۡقَوۡنَ) هنا دون (يَشۡرَبونَ)؛ لأنَّه الأنسب بما تقدَّمه من قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ الآية. ويمكن أن يكون فيه رمز إلى أنَّ هذه الكأس أعلى شأنًا مِن الكأس الأولى"[7] "ففيه زيادة تعظيمٍ لهم ليست في قوله: (يشربون مِن كأس) بصيغة المعلوم"[8].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 281.

(2) ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 158، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 189.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 146.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 394، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 497.

(5) البروسويّ، روح البيان: 10/ 272.

(6) القنَّوجيّ، فتح البيان: 14/ 471.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 177.

(8) البروسويّ، روح البيان: 10/ 272.

معنى (في) ودلالتها في ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾:

تحيط الجنَّة بالمنعَم وتحويه كإحاطة الظَّرف بما فيه

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[1]. وهذا هو المراد هنا مِن حيث إنَّها جعلت الجنَّة ظرفًا للنَّعيم قد حوى أهله المُكرَمين، أو جعل الكأس ظرفًا لما يحويه مِن شرابٍ طيّب عذب.

توجيه عود ضمير الغائب في قوله: ﴿فِيهَا﴾ ودلالته:

للجنَّة أو للقوارير، كما قرَّره أهل التَّفسير

"الضَّمير في ﴿فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يعود إلى تلك الأكواب التي هي قوارير مِن فِضَّة، فالأكوابُ وصفٌ لكؤوس الشَّراب وهي فارغة، والكأسُ مسمّاها وهي ملأى بالشَّراب"[2]. ويجوز أنْ يعود الضَّمير للجنَّة مِن قوله: ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[3].

الغرض من تقديم شبه الجملة على المفعول به:

خُصَّت الأكواب بما فيها، وقُدِّمت اهتمامًا وتنبيها

لمّا كانت هذه الآنية أو الجنَّة - حسبما ذُكر في توجيه عود الضَّمير مِن ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ - موصوفةً بما لا يوجد له نظير؛ ناسَبَ أن يقدَّم الضَّمير العائد إليها تخصيصًا لها، واهتمامًا بها، ومبالغة في تعظيمها. فهُم يُسقَون في هذه الجنَّة خصوصًا، وهذه الأكواب خصوصًا خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

نكتة تنكير ﴿كَأْسًا﴾ وإفرادها:

كأسٌ وُصِفت بما أشار إلى النَّعيم ودَلّ حَريَّةٌ بأن تُعَظَّم وتُجَلّ

دلَّ إفراد ﴿كَأْسًا﴾ على الجنس، فخمر الجنَّة أجناس وأنواع، ذُكرت في غيرِ ما آية مِن كتاب اللّه تعالى مفصَّلةً، ومنها جنسُ المذكور هنا: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾. وأمّا تنكيرها فلتعظيم كُنهها، ولرفعة شأنها؛ فإنَّ كأسًا قد وُصِفت بهذه الأوصاف لَهِيَ حَريَّةٌ بأنْ تُعَظَّم وتُجَلَّ.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1368.

(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 415، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.

مزاج الكأس زنجبيل، وهو وصف لا يحيد عنها ولا يميل

الغرض مِن وصف المفعول به بالجملة الاسميَّة:

تقدَّم أنَّ الجملة الاسميَّة تفيد بأصل وضعها ثبوتَ شيء لشيء ليس غيرُ، بدون نظر إلى تجدُّد ولا استمرار[1]، وقد ناسب هنا في وصف: ﴿كَأۡسٗا﴾ أن تكون جملة الصِّفة اسميَّة: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ لإفادة ثبوت هذا الوصف لها على سبيل الدَّوام، فكأنَّه وصف جبليٌّ ملازمٌ لها لا يفارقها بحال.

بلاغة التعبير بالمجاز ونوعه في ﴿كَأۡسٗا﴾:

أريد بالكأسِ خمرٌ كان مزاجُها زنجبيلا، فكان المجاز على المعنى دليلا

قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾؛ أي: ويُسقَى هؤلاء الأبرار في هذه الأكواب ﴿كَأۡسٗا﴾؛ أي: خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[2]. "فالكأس: الخمرُ نفسُها"[3]، أُطلِقت وأُريد بها هاهنا المشروب"[4] والقول في إطلاق الكأس على الإناء أو على ما فيه كالقول في نظيره المتقدّم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾"[5] أي: أنَّه مجاز بعلاقة المحلّيَّة، حيث أطلِق المحلُّ (الكأس) وأُريد الحالُّ فيه (الخمر)؛ تنبيهًا إلى أنَّ الكأس نفسه مِن فرط شفوفه صار كأنَّه مِن جنس الخمر حتَّى كاد يُشربُ!.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿مِزَاجُهَا﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِزَاجُهَا﴾ معنويَّة، أفادت تعريف المضاف إليه مِن وجه، وتشريفه مِن وجه آخر حيث أُضيف إلى شريف، وهو مزاج هذه الخمر الشَّريفة المباركة.

الغرض من تنكير ﴿زَنجَبِيلًا﴾:

عظُم زنجبيل الجنَّة وطاب، فعُدَّ مِن ألذِّ الشَّراب

أوثِر تنكير ﴿زَنجَبِيلًا﴾؛ لإفادة التَّعظيم والنَّوعيَّة، وللإشارة إلى

---

(1) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56.
(2) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7928، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 291.
(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 415.
(4) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 158.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.

أنَّه ليس ممّا عهده المخاطَبون، بل ليس فيه مِن زنجبيل الدُّنيا إلّا الاسم، أمّا حقيقة الماهيَّة فأينَ الثُّريّا مِن يَدِ المُتَناوِلِ؟ فهو زنجبيل لذيذ يشوق ويطرب ويروي. وأيضًا لأنَّ "الزَّنجبيل ممّا كانت العرب تستطيبه جدًّا وعدهم اللّه تعالى أنَّهم يُسْقَوْن في الجنَّة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنَّة"[1].

سرُّ إيثار المغايرة في ذكر المزاج بين ﴿كَافُورًا﴾، و﴿زَنجَبِيلًا﴾ وسر الترتيب:

شربوا باردَ الشَّراب وحارَّه، وكانت عيون جنَّتهم مقارَّه

لمّا قال اللّه - جلَّ ثناؤه - في صفة الكأس الأولى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وقال في صفة الكأس الثّانية: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ - "عُلِم منه أنَّ ما كان مزاجها زنجبيلًا غيرُ ما كان مزاجها كافورًا"[2]، وفُهِم منه أنَّ "معنى الآية أنَّ هذه سقية أخرى؛ أي: مرَّة يشربون مِن كأسٍ مزاجُها الكافورُ، ومرَّة يُسقَوْن كأسًا مزاجُها الزَّنجبيلُ"[3]، "فتارةً يُمزَجُ لهم الشَّرابُ بالكافور وهو باردٌ، وتارةً بالزَّنجبيل وهو حارٌّ؛ ليعتدل الأمرُ، وهؤلاءِ يُمزَجُ لهم مِن هذا تارةً ومِن هذا تارةً. وأمّا المقرَّبون فإنَّهم يشربونَ مِن كلٍّ منهما صِرْفًا"[4]

أمّا عن سرِّ تقديم سقية الكافور على الزَّنجبيل؛ فلأنَّ "المقصودَ الأهمَّ حالَ دخولهم الجنَّةَ: البرودةُ؛ لهجوم العطش عليهم مِن حرِّ العرصات، وعبور الصِّراط. وبعدَ استيفاء حظوظهم مِن أنواع نعيمها ومطعوماتها تَميل طباعُهم إلى الأشربة التي تُهيِّج الاشتهاءَ، وتُعين على تهنئة ما تناولوه مِن المطعومات، ويلتذُّ الطَّبع بشُربها؛ فلعلَّه الوجهُ في تأخير ذِكر ما يمزج به الزَّنجبيل عمّا يمزج به الكافور"[5].

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 296.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 272.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 291 - 292.
(5) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 272.

توجيه نصب ﴿عَيۡنٗا﴾، وأثره في المعنى، وعلّة فصله عن سابقه:

تعدُّد التَّأويلات بتنوُّع النَّظرات والتَّوجيهات

"قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا﴾ يجوز أن يكون بدلًا من قوله: ﴿زَنجَبِيلًا﴾. والمعنى: كان مزاجها: (عينًا)، وتلك العيْن لها طعمُ الزَّنجبيل. ويجوز أن يكون المعنى: ويُسْقَون عينًا"[1]. ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ اللّه تعالى يخلق طعمَ الزَّنجبيل في هذه العين، فتكون "﴿عَيۡنٗا﴾ على هذا القول مبدلةً من ﴿كَأۡسٗا﴾، كأنَّه قيل: ويُسقَوْن فيها كأسًا كأسَ عينٍ. أو منصوبة على الاختصاص"[2] فهذه محصّلة الوجوه الأربعة: بدل مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾ منصوبة مثلها، أو بدل مِن ﴿كَأۡسٗا﴾ على معنى: تُمزَج كأسُهم بالزَّنجبيل بعينه أو يخلق اللّه طعمَه فيها، أو تكون منصوبةً على الاختصاص[3]، أو بـ(يُسْقَوْنَ)؛ ولذلك فُصِلت عن سابقها لما بينهما مِن كمال الاتّصال.

دلالة إبدال ﴿عَيۡنٗا﴾ مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾:

ليس في زنجبيل الجنَّة لذع، بل لذَّةٌ وانسيابٌ ونفع

جريًا على القول ببدليَّة ﴿عَيۡنٗا﴾ مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾، فالمعنى أنَّ "الزَّنجبيل عينٌ في الجنَّة تُسَمَّى سلسبيلًا"[4]، وإنَّما "سُمِّيت العينُ زنجبيلًا؛ لأنَّ ماءها فيه رائحة الزَّنجبيل، والعَرَبُ تستلذُّه وتَستَطيبُه"[5]؛ ولذلك "وَصَفَ اللّه تعالى شراب أهل الجنَّة بذلك"[6]."ولمّا كان في تسمية تلك العينِ بالزَّنجبيلِ توهُّمُ أنْ ليس فيها سلاسةُ الانحدار في الحلْق وسهولة مساغها كما هو مقتضَى اللَّذع والإحراق - أزالَ ذلك الوهمَ بقوله: ﴿عَيۡنٗا﴾ بدلًا مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾"[7]."ومعنى كون الزنجبيل عينًا: أنَّ منقوعَهُ أو الشَّراب

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 46.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 672، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 74.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 281.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 292.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 199.
(6) الخازن، لباب التَّأويل: 4/ 380.
(7) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 272.

المستخرَج منه كثيرٌ كالعيْن على نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمّد: 15]؛ أي: هو كثير جدًّا، وكان يُعرَفُ في الدُّنيا بالعزَّة"[1]. "وكونُ الزَّنجبيل عينًا فيه خرقٌ للعوائد؛ لأنَّ الزَّنجبيل عندنا شجرٌ يحتاج في تناوله إلى علاج، فبيَّن أنَّه هناك عينٌ لا يحتاج في صيرورته زنجبيلًا إلى أنْ تُحيلَه الأرضُ بتخميره فيها حتَّى يصيرَ شجرًا ليتحوَّل عن طعم الماء إلى طعم الزَّنجبيل... والمعنى: أنَّ ماء تلك العيْن كالزَّنجبيل الذي تلتذُّ به العرب سهل المساغ في الحلْق، فليس هو كزنجبيل الدُّنيا يلذع في الحلْق فتصعب إساغته"[2].

معنى (في) ودلالتها في ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾:

أمِن أهلُ الجنَّة أن ينقطع شرابهم أو يغيض؛ فمِن تحتهم ينبع ويفيض

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[3]. وقد جعل هذا الحرفُ الجنَّةَ ظرفًا لهذه العين، وجعل العين تنبع مِن أصل الجنَّة، لا ترد عليها مِن خارجها، فبذلك يأمن أهلُها انقطاعَها.

دلالة التَّعبير بالمضارع المبنيِّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه: ﴿تُسَمَّىٰ﴾:

لا يُحصَى المسمّون كثرة، وقد فاضت العينُ بذلك شهرة

يدلُّ التَّعبير بالمضارع على التَّجدُّد والاستمرار، وفي قول اللّه تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ معنى الشُّهرة والوصف، فدلَّ ذلك على أنَّ هذه العين دائمة الجريان متجدّدتُه، وأنَّ وصفها بذلك هو ممّا اشتُهِر بين أهل الجنَّة وخزنتها وخدمها، ولمّا كان المقصود بيان المسمَّى لا المسمِّي؛ بُني الفعل للمفعول دلالةً على أنَّ واصفي هذه العين بالسَّلسبيل هم مَن لا يُحصَون كثرة، وأنَّ هذا أمرٌ متكرّر منهم كما تفيده صيغة المضارع.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 395.

(2) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 456.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

زنجبيل طيّبٌ سلسال، لا لذع فيه ولا اعتلال

فائدة تسمية العيْن بالسَّلسبيل بعد تسميتها بالزَّنجبيل:

"الزَّنجبيل: اسمُ العيْن التي يشرب بها المقرَّبون صِرْفًا، وتُمزَج لسائر أهلِ الجنَّة. أو هي عينٌ في الجنَّة يوجَد فيها طعمُ الزَّنجبيل"(1). "والفائدة في تسميتها بالسَّلسبيل بعد تسميتها بالزَّنجبيل هي أنَّها في طعم الزَّنجبيل ولذَّته، ولكن ليس فيها اللّذاع الذي هو مُنافٍ للسَّلاسة"(2)، "فليس هو كزنجبيل الدُّنيا يلذع في الحلق فتصعب إساغته"(3).

شُمِّيث سلسبيلًا لـســلاســة سَيْلِها، وحِدَّة جَريها، ولذَّتها فــي الـحـلْـق وانسياقها

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾، ونكتة تنكيرها:

"والسَّلسبيل: الدّائم الجريان، السّائغ الطَّعم، فيجري في الحلْق جريانَ الماءِ في منحدَرِ الوادي. وبه سُمِّيت العينُ، مِن تسمية الموصوف بصفته"(4)؛ أي: "لسلاسة انحدارها في الحلْق، وسهولة مساغها؛ يعنى: أنَّها في طعم الزَّنجبيل وليس فيها لذعُهُ، ولكنْ نقيضُ اللَّذع وهو السَّلاسة"(5)، فهي تنساب في الحلوق انسيابًا، وتسيل على أهل الجنَّة في طُرُقهم، وفي منازلهم، تنبُعُ مِن أصلِ العرش مِن جنَّة عدن إلى أهل الجِنان(6) أمّا تنكير ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ فللتَّعظيم، أو للكثرة؛ أي: كثرة الجري والسَّيلان.

جــمــعــت الـسَّـلـسـبـيـل بــيـن سلاسة الانـــســيـــاق وسهولة المساغ وطيب المذاق

توجيه قوله تعالى: ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ بين الوصف والعلميَّة:

يجوز أن يكون ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ اسمًا للعيْن، وذلك على معنى أنَّ الخمر يُمزَج بالزَّنجبيل، وهذا الزَّنجبيل من عيْنٍ تُسَمَّى سلسبيلًا(7) وعليه يكون قوله تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ بمعنى: أنَّها مذكورة بهذا الاسم

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 142.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 415.
(3) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 456.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1369.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 672.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 171، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297.
(7) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 47.

عند الملائكة، والأبرار، وأهل الجنَّة[1]. عرَّفهم اللّه إيّاها بهذا الاسم، وللّه أنْ يسمّي ما شاء بما شاء[2] وعلى القول بعلَميَّته فإنَّ الأصل فيه عدم الصَّرف للعَلَميَّة والتَّأنيث، غير أنَّ وجه قراءة الجمهور له بالتَّنوين هو مناسَبة الفواصل والتَّوفيق بين رؤوس الآي كما مرَّ في ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾، و﴿قَوَارِيرَاْ﴾ ويُحسِّن ذلك أنَّه لغةٌ لبعض العرب؛ أي: صرف ما لا يصرفه أكثرُ العرب[3] ويجوز أن يكون ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ صفةً للعيْن، وُصِفت بالسَّلاسة في الحلْق، وفي حال الجَري، وانقيادها لأهل الجنَّة يصرِّفونها حيث شاؤوا[4].

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ "بمعنى: توصَف وتُذكَر، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، والتَّقدير: عينًا سلسبيلًا فيها تُسَمَّى؛ أي: توصَف وتُذكَر؛ يعني: أنَّها مشهورةٌ متَّصِفة بالحُسن والطِّيب"[5]. و"أكثر العلماء على أنَّ ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ صفةٌ لا اسم"[6].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الآنية والأكواب:

الإنــاءُ يقع فيه الشُّرب، والكوب ما صُبَّ منه في الإناء

الفرق بينهما أنَّ الأكوابَ: هي الكيزان العِظام التي لا آذان لها ولا عُرى[7]، والإناء: ما يوضَع فيه الشَّيء[8]، وهو اسمٌ لكلِّ وعاء يُرتَفَق به[9]؛ فيَظهر أنَّه يُطلَق على كلِّ وعاء يقصد للاستعمال والمداولة للأطعمة والأشربة ونحوهما سواء كان مِن خشب أو معدن

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 143.
(2) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 150.
(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 48 - 49، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 365.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 109.
(5) المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 298.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 413.
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 140، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 751، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كوب).
(8) الرّاغب، المفردات: (أني).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (أني).

أو فخّار أو أديم أو زُجاج، يوضَع فيه ما يشرب، أو يُؤكَل، أو يطبخ فيه، والظّاهر أنَّه لا يُطلَق على ما يُجعَل للخزن فليست القِربة بإناء ولا الباطية بإناء، والكأس إناءٌ والكوز إناء والإبريق إناء والصَّحْفة إناء[1] ويدلُّ ما سبق على أنَّ الإناءَ يقع فيه الشُّرب كالكأس، والكوب ما صُبَّ منه في الإناء[2] وعَطفُ (أكواب) على (آنية) في قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الأكواب تُحمَل فيها الخَمْرُ لإعادة ملء الكؤوس[3].

الفِضَّة والوَرِق:

الفِـضَّـةُ مـادَّةٌ تُـفـرَّق وتُـجـزَّأ والـورِقُ جـزءٌ منها

الوَرِقُ الدَّراهم المضروبة مِن الفِضَّة[4]. ورجلٌ ورّاقٌ؛ أي: كثير الدَّراهم[5]. والمعنى المحوريُّ لجذر الوَرِق: طَبقاتٌ رِقاق عِراضٌ لطيفةٌ، ومنه الوَرِق؛ لأنَّ الفِضَّةَ تكونُ بالسَّكِّ دراهمَ رِقاقًا بعد أن كانت قَبلَه سبائكَ مكعَّبة غليظة، وفيها لُطف كونِها عَيْنًا؛ أي: مالًا[6].

وأوثِر لفظ (الورِق) دون (الفِضَّة) في سورة الكهف: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ [الكهف: 19]؛ لِكَون الورِق دراهمَ مضروبةً مِن الفِضَّة، وكان معهم ورِق مِن ضربِ المَلِك الذي كانوا في زمانه.[7].

يتبيّن ممّا سبقَ سِرُّ إيثار لفظ (الفِضَّة) دون (الورِق) في قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 751.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 392.
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (ورق).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ورق).
(6) محمد جبل، الاشتقاقيُّ: (ورق).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 15/ 210.

قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾؛ فإنَّ تلك الفِضَّةَ هي المادَّة الخالصة التي تكون منها تلك الآنية والقوارير والأساور؛ فتكون على أيِّ صورةٍ أحبّوا أن تكون عليها، وتتفرَّقُ بتفرُّقِ ما أرادوا أن تكون عليه.

العين واليَنبوع:

في العين صفاءٌ ودوامُ جريان، وفي اليـنـبـوع تفجُّرٌ وخروج

اليَنبوعُ: الموضع الذي ينبع منه الماء[1]، وهو أيضًا: الجدول الكثير الماء[2]. ومنابعُ الماء: مخارجه مِن الأرض[3]. ويقال: نَبَعَ الماءُ نَبْعًا ونُبوعًا: تفجَّرَ[4]، وخرج مِن العين، ولذلك سُمِّيت العين يَنْبوعًا[5]؛ فيلاحَظ في لفظ (الينبوع) معنى التَّفجُّر والخروج؛ ولذا أوثِر لفظُ (الينابيع) في قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: 21]؛ لأنَّ تصييرَ الماءِ الذي أدخله اللّه في الأرض ينابيعَ دليلٌ على عظيم قدرة اللّه ﷻ[6].

والمعنى المحوريُّ لجذر العين: دائرةٌ ينفذ منها لطيفٌ دائمُ الجَرَيان[7]، وسُمّيَت العَين الجارية النّابعة عَينًا تشبيهًا لها بالعين النّاظرة لصفائِها ومائِها[8]؛ فيلاحَظ في لفظ (العَين) صفاءُ ما يخرج منها ودوامُ جريانه؛ ولذا أوثِر لفظُ (العين) دون (الينبوع) في قول اللّه ﷻ: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾، وقوله ﷻ: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾؛ فإنَّ فيه دلالةً على صفاء خَمر الجَنَّة ودوامِ جريانِها.

(1) ابن فارس، المقاييس: (نبع).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزآباديُّ، البصائر، والقاموس المحيط: (نبع).
(3) ابن فارس، المقاييس: (نبع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبع).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (نبع).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 377.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عين).
(8) ابن فارس، المقاييس: (عين).

﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: 19 - 22]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من متاع الأجساد إلى عيش الأسياد

لمّا ذكر المولى الجليل - تبارك في علاه - المَطوفَ به؛ لأنَّه الغاية المقصودة؛ وصف الطّائف؛ لِما في طَوافِه مِن العظمة المشهودة؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلك، بعدَما نَجَوا منه مِن الهُلْكِ، ولمّا ذَكَر المخدوم والخدم؛ شَرَع في ذِكْرِ المكانِ[1]؛ تنبيهًا إلى أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظَمَ مِن هذا القَدْرِ المذكورِ[2]، ثمَّ أشار إلى تجمُّلهم بمحاسن الثّياب والحليِّ، وذكر في النِّهاية أنَّ هذه النِّعم جزاء عملهم[3]؛ ترغيبًا في السَّعي في الخيرات؛ لتحصيل ما جُمل في الآية مِن البركات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّنثُورٗا﴾: أصل (نثر) يدلُّ على إلقاء شيء متفرّق[4]. نثرت الشَّيء أنثره نثرًا، فانْتَثَرَ. والاسم النُّثارُ. والنُّثارُ بالضَّمّ: ما تناثر مِن الشَّيء[5]. ونثْرُ الشَّيء: نشره وتفريقه. يقال: نَثَرْتُهُ فانْتَثَرَ[6].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 752.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 296.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نثر).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (نثر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).

والنَّثْرَة: ما يَسيلُ مِن الأنف، وقد تسمَّى الأنفُ نَثْرَةً[1]، ومنه: النَّثْرَة لنجم يقال له أَنْفُ الأسد، وطَعَنَهُ فأَنْثَرَهُ: أَلْقاه على أنفه[2]، والاسْتِنْثارُ: جعل الماء في النَّثْرة[3]. والانْتِثارُ والاستِنثارُ بمعنى، وهو نثر ما في الأنف بالنَّفَس[4].

2) ﴿عَلِيَهُمْ﴾: أصل (علو) يدلُّ على ارتفاع الشَّيء فوق شيء تحته، وسُموُّه عليه[5]. العلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع. وقد علا يعلو عُلوًّا، فهو عالٍ[6]. وعَليَ يَعلَى علاءً، فهو عَليٌّ. فعَلا بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر، وعَليَ بالكسر في الشَّرف[7] وقوله تعالى: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ أي: فوقهم[8].

3) ﴿سُندُسٍ﴾: نمارق من الحَرير[9]، والسُّندس: صنف من الثياب، وهو رقيق الدّيباج[10]. وما رقَّ مِن ثياب الحرير[11].

4) ﴿خُضْرٌ﴾: خُضْرٌ جمع أخضر، والخُضْرَة: أحد الألوان بين البياض والسَّواد، وهو إلى السَّواد أقرب؛ ولهذا سُمّي الأسود أخضر، والأخضر أسود[12]. واخضرَّ الشَّيء اخضرارًا[13]. والمخاضَرَة: المبايَعَة على الخَضْرِ والثّمار قبل بلوغها[14]. وكلّ شيءٍ ناعم فهو خَضِر. يقال: أخذ الشّيءَ خِضْرًا مِضْرا؛ أي: غضًّا طَريًّا، وخُذْهُ خِضرًا مِضْرًا؛ أي هنيئًا مريئًا[15]، و﴿خُضْرٌ﴾ جمع أخضر[16].

---

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نثر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نثر).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).
(5) ابن فارس، المقاييس ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(6) الجوهريُّ، الصِّحاح وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).
(7) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، والخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 380.
(9) الكفويّ، الكلّيّات: (سندس).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سندس).
(11) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 380، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 581، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.
(12) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (خضر).
(13) الجوهريُّ، الصِّحاح: (خضر).
(14) الرّاغب، المفردات: (خضر).
(15) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: (خضر).
(16) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 581.

5) ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾: قيل: فارسيٌّ معربٌ، وتصغيره أبَيْرِقٌ(1). قال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ هو الدّيباج الصّفيق الحسَن، وهو ما غلُظ من الحرير والإبْرَيْسَم(2). وهو الدّيباج الغليظ المنسوج بخيوط الذّهب، يُلبس فوق الثّياب المُباشرة للجلد(3)، أو ما غلظ من ثياب الحرير(4).

6) ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾: أصل (حلو) يدلُّ على معانٍ منها طيب الشَّيء في ميل النَّفس إليه، وتحسين الشَّيء(5). الحُلْوُ: نقيضُ المُرِّ. والحلو كلُّ ما في طعمه حلاوة. يقال: حلا الشَّيء يحلو حلاوة. واحلَوْلَى مثله(6). والحُليُّ جمع الحَلْي، نحو: ثَدْيٍ وثُدِيٍّ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148](7). وقال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾. وحِلْية السَّيف جمعها حِلَى، مثل: لِحيَة ولِحًى. ويقال تَحلَّت المرأة إذا اتَّخذت حُليًّا أو لبسته. وحَلَّيْتُها، أي ألبستها، واتَّخذته لها(8).

7) ﴿أَسَاوِرَ﴾: أصل (سور) يدلُّ على علوٍّ وارتفاع(9) وسِوار المرأة معرَّب، وأصله دستوار، واشتُقَّ منه: سَوَّرْتُ الجارية، وجارية مُسَوَّرَةٌ ومخلخلة. والجمع أسْوِرَةٌ، وجمع الجمع أساورة(10). والسِوار: حلي من ذهب أو فضة يُحيط بموضع من الذراع(11).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

في هذا السّياق القرآنيِّ المبارك يصف المولى ﷻ خدم أهل الجنَّة بعد أن وصف شرابهم؛ حيث يدور على هؤلاء الأبرار في الجنَّة غلمان لخدمتهم دائمون لا يتغيَّرون، إذا رأيتهم أيُّها المعتبر الرّائي ظننتهم - لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم - اللؤلؤ

---

(1) الجوهري، منتخب من صحاح الجوهري: (استبرق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (استبرق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 313.
(4) النّسفيُّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 581، والخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 4/ 380، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلو).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (حلو).
(7) الرّاغب، المفردات: (حلي).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (حلو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سور).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (سور).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

لأهل الجنَّة خدم مِن الغلمان مخلَّدون، وثياب خضر يلبسون، ونعيم دائم هم فيه باقون

المفرَّق المضيء، وإذا أبصرت كذلك أيَّ مكان آخر في الجنَّة ممّا قد أعطي لهؤلاء الأبرار من مظاهر الأنس والسُّرور رأيت نعيمًا لا يدركه الوصف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما تعلو أبدانَ هؤلاء الأبرار في الجنَّة ثياب فاخرة خضراء من الحرير الرَّقيق، والحرير الغليظ، وأُلبِسوا كذلك في الجنَّة أساور فضّيَّة للزّينة والتَّحلّي، وسقاهم ربُّهُم فوق ذلك النَّعيم شرابًا بالغًا نهاية الطُّهر لا رِجْسَ فيه ولا دَنَسْ، ثمَّ يُقالُ لهؤلاء الأبرار: إنَّ هذا الَّذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثوابًا على أعمالكم الصّالحة، وكان عملكم في الدُّنيا مقبولًا عند اللّه تعالى، ومصحوبًا كذلك بالشُّكر والثَّناء[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

ذكر وصف الطّائف تصويرًا لما فيه المطوف به مِن عظَمَة المُلك بعد النَّجاة مِن الهُلك

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عاطفة[2]، عطفت جملتَها على جملة ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾[3]. وممّا حسَّن الوصل بين الجملتَيْن كونُهما فعليَّتَيْن، مضارعتَيْن، تصفان نعيم أهل الجنَّة. ومِن بديع المناسبة بينهما أنَّه لمّا ذُكِر المطوف به المسقيُّ لذَّةً ونعيمًا في قوله سبحانه ﴿وَيُسۡقَوۡنَ﴾؛ إذ هو الغاية المقصودة - ناسبَ أنْ يوصَف الطّائفُ لِما في طوافه مِن العَظَمة المشهودة؛ فلذا ذُكِر في هذه الآية أوصاف السُّقاة الذين يسقون الأبرارَ ذلك الشَّرابَ، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلك بعد ما نجوا منه مِن الهُلك[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع، والفرقُ بين هذا الطَّواف وطواف السُّقاة:

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 564 - 572، ومجمع الملك فهد، التفسير الميسر، ص: 1/ 579.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 189.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 147، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 170.

تجدُّد هذا الطَّواف وتكرُّره مرَّة بعد مرَّة، فشهوة أهل الجنَّة لا تنقضي، ولذَّتهم فيها لا تنتهي، ونعيمهم فيها لا ينفد، أمّا عن الفرق بين هذا الطَّواف والطَّواف المذكور آنفًا في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، فهو أنَّ الطَّواف الأوَّل هو طواف السَّقي، حيث يدور عليهم السُّقاة بالآنية المترَعة خمرًا. أمّا هذا الطَّواف المشار إليه بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، "فهذا طوافٌ لأداء الخدمة"[1]، يقوم به "نوعٌ آخَر مِن الخدم، يطوفون على هؤلاء الأبرار لخدمتهم"[2]، وهذا الأخير يدخل فيه السَّقي وغيره؛ ولذا فُصِل بينهما، وأوثِر في الأوَّل البناء للمفعول؛ لأنَّ الاهتمام فيه كان بالمطوف به: وعاءً وشرابًا وشاربًا منعَّمًا، وأوثِر في الثّاني البناء للفاعل؛ لأنَّ الاهتمام فيه كان بالطّائف نفسِه توسُّلًا بوصفه لبيان عظَمَة النِّعمة التي فيها المطوف به[3].

الأبرار في الجنَّة مخدومون، ونعيمهم فيها متجدِّدٌ غيرُ ممنون

معنى (عَلَى) ودلالتها:

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[4] و(على) في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يصوِّر اتِّكاءَ الأبرار على أرائكهم الفاخرة، وهؤلاء الوِلدان يدورون عليهم بما أراده الأبرار مِن صنوف الطَّعام والشَّراب، يقفون عندهم، وينحنون لهم بالآنية تكرمةً لهم، فلا يحتاج الأبرار إلى النُّهوض مِن جلوس، ولا إلى الانحناء مِن عُلوٍّ، بل هم في مكانهم وعلى هيئتهم، والخدم ينحنون لهم، وهذا هو المعهود في تَرَف الملوك وأهل البذخ؛ ولذا عُبِّر هنا بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

ينحني الخدم لأسيادهم؛ تلبيةً لأمرهم، وتكرمةً لهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 224.
(3) الإسكافيّ، درَّة التَّنزيل وغُرَّة التَّأويل: 1/ 1315، والكرمانيّ، أسرار التَّكرار، ص: 244.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامِرّائيّ، معاني النَّحو: 3/ 47.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾:

في التَّقديم إشعار بالاهتمام، ودلالة على الإكرام

أوثِر تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ لبيان الاهتمام بالمقدَّم، وهم الأبرار؛ إذ الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لهم، ومقام الإنعام يقتضي الإكرام المتوسَّل إليه هاهنا بالتَّقديم. كما أنَّ في هذا النَّظم تشويقًا للمؤخَّر ليقع مِن النَّفس موقعه الذي أُريد له.

بلاغة التعبير بالمجاز في التَّعبير بالوِلدان:

خُصَّ الأبرار بخدمتهم، تكميلًا لنعيمهم ومَسَرَّتهم

﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾: جمع وليد. وأصلُ وليد: (فَعيل) بمعنى (مفعول). ويُطلَق الوليدُ على الصَّبيِّ مجازًا مشهورًا بعلاقة ما كان؛ لقصد تقريب عهده بالولادة. وأحسَن مَن يُتَّخذ للخدمة الولدانُ؛ لأنَّهم أخفُّ حركةً وأسرَعُ مشيًا ولأنَّ المخدوم لا يتحرَّج إذا أمرهم أو نهاهم"[(1)].

سرّ وصف الوِلْدان بصيغة اسم المفعول المجموع: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾:

خُلِقوا مِن الجنَّة للبقاء مُددا، لا يتغيَّرون ولا يكبَرون أبدا

وصف الله - جلَّ ثناؤه - خَدَمَ الأبرار في الجنَّة بقوله: ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾، والمخلَّدون: الذين لا يتحوَّلون عن حالهم تلك أبدًا، ولا يتأثَّرون بمرور الدُّهور والأزمان. وهو مِن الخُلْد؛ أي: الثَّبات وعدم التَّحوُّل والانتقال مِن مكان إلى مكان. يُقال: أخلَدَ فلانٌ في مكانه؛ أي: لَزِمَه، وأخلَدَ إلى الرّاحة؛ أي: أقام في ظلّها. ومنه: جنَّة الخُلْد؛ أي: الخُلودُ والدَّوام فيها"[(2)] وفي المراد به هنا ثلاثة أقاويل: **أحدُها:** مخلَّدون لا يَموتون. **والثّاني:** صِغارٌ لا يكبَرون، وشبابٌ لا يهرَمون، فهم لا يتغيَّرون عن تلك السِّنّ. **والثّالث:** مُسَوَّرون مُقَرَّطون، فالخلد: القرط، وهو ضربٌ مِن الحُليّ[(3)] وأيًّا ما كان "فالمراد به دوامُ كونِهم على تلك الصّورة التي لا يُراد في الخدم أبلغُ منها، وذلك يتضمَّن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 110، والماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 171، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.

دوامَ حياتِهم وحُسنِهم ومواظبتِهم على الخدمة الحسنة"[1] ووُصِفوا بأنَّهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ للاحتراس ممّا قد يوهِمُه اشتقاقُ (ولدان) مِن أنَّهم يشبّون ويكتهِلون؛ أي: لا تتغيَّر صِفاتُهم، فهم ولدانٌ دومًا، وإلّا فإنَّ خلود الذَّوات في الجنَّة معلومٌ، فما كان ذِكرُه إلّا لأنَّه تخليدٌ خاصٌّ"[2]. "وهذا مِن تمام لذَّة أهل الجنَّة، أن يكون خُدّامَهم الولدانُ المخلَّدونَ، الذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين مِن تَبِعَتِهم، ويأتونهم بما يدَّعون وتطلُبُه نفوسُهم"[3].

أمّا التَّعبير باسم المفعول - دون اسم الفاعل (خالدون) - فلتضمُّنه الإشارةَ إلى أنَّ ثَمَّة مخلِّدًا خلَّدهم، وهو اللّه - جلَّ ثناؤه - وهذا يدلُّ على تمام إكرامه سبحانه لأهل الجنَّة إذ إنَّه قد أعدَّ لهم هذا النَّعيم إعدادًا خاصًّا بهم مغايرًا للعادة؛ لأنَّ العادة حاكمة بأنَّ الوِلدان يشِبّون ويهرمون، أمّا هؤلاء فقد أعدَّهم اللّه إعدادًا خاصًّا بحيث يثبتون على هذه الصِّفة، والتَّخليد ليس ذاتيًّا فيهم بل بتقدير اللّه سبحانه فمخلَّدون أقوى مِن حيث كونها تستحضر الفاعل المنعم الجليل، وهو بمثابة التَّعليل لخلودهم وعدم هرمهم.

بلاغة التَّعبير بالتَّشبيه:

لا يكون في التَّشبيه أحسن مِن اللُّؤلؤ المنثور على المكان الحَسَن

قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾؛ "أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السّادة، وكثرتِهم، وصباحَةِ وجوهِهم، وحُسنِ ألوانهم وثيابِهم وحُليّهم، حسبتَهم لؤلؤًا منثورًا. ولا يكون في التَّشبيه أحسن مِن هذا، ولا في المنظر أحسن مِن اللُّؤلؤ المنثور على المكان الحَسَن"[4] وفي كيفيَّة هذا التَّشبيه وجوهٌ:

أحدُها: شُبِّهوا في حُسنِهم وصفاءِ ألوانهم وانتشارهم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 292.

مَجالِسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللُّؤلؤ المنثور، ولو كان صَفًّا لشُبّهوا باللّؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثِرينَ. **وثانيها**: أنَّهم شُبّهوا باللُّؤلؤ الرَّطب إذا انتثر مِن صَدَفِه؛ لأنَّه أحسنُ وأكثرُ ماءً. **وثالثُها**: أنَّهم شُبِّهوا باللُّؤلؤ في وضاءته وبريقه ولمعانه؛ لأنَّ اللُّؤلؤ إذا كان متفرِّقًا يكون أحسنَ في المنظر لوُقوعِ شُعاع بعضِه على البعض، فيكون مخالفًا للمجتمِع منه[1].

فعلى الأوَّل يكون هذا التَّشبيه مِن التَّشبيهات المركَّبة، ووجهُ الشَّبه فيه متعدِّدٌ، وعلى الثّاني يكون مِن تشبيه المفرد بالمفرد؛ لأنَّ الانبثاث على هذا الوجه غير ملحوظ ولا منظورٍ إليه. ويجوز أن يكون مركَّبًا لتَصوُّر النَّثر مِن الصَّدَف مع تَصوُّر وجه الشَّبه: الطَّراوة والرَّونق[2].

دلالة التَّعبير بالظَّرف: ﴿إِذَا﴾:

جـزاء الأبـرار حتميُّ الوقوع، وأجـرهـم في الـجـنَّـة غير مقطوع

عُبِّر بالظَّرف المتضمِّن معنى الشَّرط ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾ لإفادة حتميَّة التَّحقُّق والوقوع[3]؛ أي: لا يقع بصرُك على هؤلاء الوِلدان - متى أبصرتَهم - إلّا حسبتَهم لؤلؤًا منثورًا.

الغرض من التَّعبير بالماضي والمقامُ للمضارع: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾، وتعيين بالمخاطَب:

إذا وعد المليك الواسع، فوعده متحقِّق واقع

عُبِّر بالماضي عن المستقبَل في قول الله تعالى: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ لإفادة تحقُّق وقوع الفعل، فكأنَّه لتأكُّد حدوثه وحتميَّة وقوعه بمنزلة الماضي الذي حصل وانقضى، فالمتكلِّم هو ربُّ العالمين - جلَّ ثناؤه - الذي لا يعجزه شيء، وإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(2) الطِّيبيُّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 16/ 203، والقونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 490، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 178.
(3) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 218.

أمّا عن تعيين المخاطَب بالكلام فثَمَّ مسلكان[1]: أحدهما: أن يكون المرادُ به النَّبيَّ ﷺ فهو أعلى الخلْقِ شأنًا، وأثبت النّاس نظرًا، وأوَّل مَن يدخل الجنَّة. والآخَر: أن يراد به كلُّ مَن يصلح للخِطاب ممَّن شأنه الرُّؤية، كائنًا مَن كان في أيِّ حالة رآهم فيها، فهو خطابٌ "لكلِّ مستمِع لهذه الآيات، أو تالٍ لها، وفي هذا ما يبعث أشواقَه إلى الجنَّة، ويشدُّ عزمَه على العمل لها، ليكون مِن أهلها، المنعَّمين بنعيمها، لا أن يكون مِن المشاهِدين لهذا النَّعيم مِن بعيد، كما يشهد أصحابُ النّار أصحابَ الجنَّة!!"[2]. فعلى الأوَّلِ الضَّميرُ المستترُ في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ حقيقةٌ، وعلى الثّاني استعارة أو مجاز مرسَل. وكذا الكلامُ في ضمير ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾[3].

دلالة التَّعبير بأداة التَّشبيه: ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾:

كـادوا مِـن فرط الـجـمـال أنْ يُحسَبوا لؤلؤًا منثورا

"تركيب ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ مفيدٌ للتَّشبيه المراد به التَّشابُه"[4]، وهو "تشبيهٌ مأخوذٌ مِن معنى ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، وهو تشبيهٌ بديعٌ، فقَدْ شبَّه الولدانَ باللُّؤلؤ المنثور، فهو قِسْم مِن أقسام التَّشبيه جاءتْ فيه الأداة فِعلًا مِن أفعال الظَّنّ"[5]، "وكأنَّه عبَّر بالحِسبان إشارةً إلى أنَّ ذلك مطلَق تجويز لا مع ترجيح"[6] فإنَّه على طريق التَّشبيه المقتضي لقُرب شَبَهِهم باللُّؤلؤ أنْ يُحسَبوا لؤلؤًا"[7].

سر التَّعبير بالمشبَّه به منكَّرًا موصوفًا: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾:

الـلُّـؤلـؤ المنثور أبـهَـى مَـنـظـرًا، وأبهَر موقعًا

في قول اللّه تعالى: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ جاء المشبَّه به نكرةً مقيَّدة بالوصف ﴿مَّنثُورًا﴾؛ للدَّلالة على شيئَيْن:

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 38، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 147 - 148، والقنّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 473.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371.
(3) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 489 - 490.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(5) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 359.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.

أحدُهما: التَّعظيم والتَّفخيم، وذلك مُستفادٌ مِن التَّنكير. والآخَر: الدَّلالة على كثرتهم، وانتشارهم في الخِدمَة، وإسراعهم فيها، وذلك مستفادٌ مِن التَّقييد بالوصف ﴿مَّنثُورًا﴾ "وإنَّما شبَّههم بالمنثور؛ لأنَّهم سراعٌ في الخِدمة، بخلاف الحور العين إذْ شبَّهَهُنَّ باللُّؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنَّهنَّ لا يُمتَهَنَّ بالخِدمة"[1]، وأيضًا "لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفًّا لشُبّهوا باللُّؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنَّ الله – ﷻ قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾، فإذا كانوا يطوفون كانوا نَثرًا"[2]، "واللُّؤلؤ إذا نُثِر مِن الخيْط على البِساط، كان أحسنَ مِنه منظومًا"[3]. وفيه دليلٌ أيضًا على كثرتهم، ودليلٌ على تفرُّقهم وانتشارِهم في الخِدمة وشَرَفِهم وحُسنِهم كاللُّؤلؤ إذا نُثِر[4]، فهو تشبيهٌ قُيّد فيه المشبَّه بحالٍ خاصٍّ؛ لأنَّهم شُبّهوا به في حُسن المنظَر مع التَّفرُّق[5]، فهم "كالمنثور مِن الزَّهر في الرَّوض، تتنقَّل العَيْن في محاسنه مِن زهرةٍ إلى زهرة، على خلاف ما لو ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ لأخذَتْه العَيْنُ كلَّه بنظرة واحدة!!"[6].

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ﴾ ودلالة التعبير بالماضي والمقام للمستقبل:

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ﴾ معطوفةٌ بالواو على مثيلتها في الآية الكريمة السّابقة[7] وممّا حسَّن الوصل بينهما كونُهما فِعليَّتيْن، ولا يضرُّ مجيء فعل الأولى مضارعًا والثّانية ماضيًا؛ لأنَّه في معنى المضارع، ومِن بديع المناسبة بين الجُملتيْن أنَّه "لمّا فصَّل

في الجنَّة مِن آثار رحمة الله الجليل ما لا يحصيه عدٌّ ولا تفصيل

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 144.
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 50.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، وابن الجوزيِّ، زاد المسير: 4/ 380.
(4) أبو حفص النسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 151، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 282.

سبحانه بعضَ ما في الجنَّة مِن وجوه النِّعم وصنوف العزَّة والإكرام - أتبعه بما يدلُّ على أنَّ ما فيها مِن آثار الله تعالى ورحمته ليس ممّا يحصيه العدُّ والتَّفصيل، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾؛ أي: في الجنَّة"[1] ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

نكتة التَّعبير بـ(إذا):

ليس في الجنَّة إلّا النَّعيم، وجزاء الأبرار فيها عظيم

(إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ "ظرفيَّة شرطيَّة تفيد حتميَّة الحدوث"[2]، "فالتَّقييد بـ(إذا) أفاد معنى الشَّرطيَّة، فدلَّ على أنَّ رؤية النَّعيم لا تتخلَّف عن بصر المبصِر هنالك، فأفاد معنى: لا ترى إلّا نعيمًا؛ أي: بخلاف ما يُرَى في جهات الدُّنيا"[3].

دلالة التَّعبير بالماضي والمقام للمستقبل: ﴿رَأَيْتَ﴾:

يتقلَّب بصر النّاظر في الجنَّة بين صنوف النَّعيم، وآثار الفضل العظيم

الماضي ﴿رَأَيْتَ﴾ في معنى المستقبَل، وهذا مستفاد مِن دلالة (إذا)، فإنَّها "ظرف لما يُستقبَل مِن الزَّمان متضمِّنة معنى الشَّرط"[4]. والمعنى: أينما يقعْ بصرُك في الجنَّة يقعْ على نعيم عظيم لا يبلغه وصف، وملك كبير لا يقطعه حدٌّ، وفي التَّعبير بالماضي إشعار بتحقُّق الوقوع؛ أي: أنتَ راءٍ يقينًا نعيمًا وملكًا كبيرًا، ليس في ذلك شكٌّ.

تقدير مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾:

أينما وقع البصر في الجنَّة لم يتعلَّق إدراكُه إلّا بنعيمٍ كثير، ومُلكٍ كبير

الفعل ﴿رَأَيْتَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدَّر؛ إذ إنَّه منزَّلٌ منزلة اللّازم ليفيد العمومَ في المقام الخطابيّ، فالمعنى: أنَّ بَصَرَ الرّائي أينما وقع في الجنَّة لم يتعلَّق إدراكُه إلّا بنعيم كثيرٍ لا توصَف عظمتُه، ومُلْك كبير لا يُعرَف كنهُه[5].

---

(1) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 443.
(2) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 219.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) المراديُّ، الجنَى الدّاني، ص: 367.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 673، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 416، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.

"و﴿ثَمَّ﴾ ظرفٌ، العاملُ فيه ﴿رَأَيْتَ﴾"[1]؛ "أي: إذا نظرت في الجنَّة، ورميت بطرفك ما أوتي الأبرارُ ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾"[2]. أمّا ﴿رَأَيْتَ﴾ الثّاني فجواب ﴿وَإِذَا﴾؛ أي: إذا فتحت عينك ترى نعيمًا[3].

نكتة التَّقييد بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾:

لا مكان يشبه الجنَّة ولا يدانيها، وهي بديعة بكلِّ ما فيها

(ثَمَّ) ظرف مكان مختصٌّ بالبُعد[4]؛ أي هناك في الجنَّة، والعامل في ﴿ثَمَّ﴾ معنى ﴿رَأَيْتَ﴾؛ أي: وإذا رأيتَ ببصرِك ثَمَّ"[5] وهو منصوب على الظَّرفيَّة. ومفعول الرُّؤية غير مذكور؛ لأنَّ القصد: وإذا صدرَتْ منك أيُّها المخاطب رؤيةٌ إلى هناك؛ أي: إلى الجنَّة ونعيمها ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ لا يقادر قدرُه، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: واسعًا لا غاية له"[6].

ولمّا كان هذا لا يحصل إلّا في الجنَّة، فقد قُيّدت الرُّؤية بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾؛ ذلك أنَّ الرّائي إذا أجال بصره في الدُّنيا فإنَّ عينه ستقع على جميل فيها وقبيح، ومهما زاد اتِّساع المُلك فإنَّه محدود، ومهما بلغ النَّعيم أقصى درجات الرَّفاه فإنَّ له منغِّصًا ولا بدَّ، أمّا في الجنَّة فإنَّ أدنى أهلها منزلة مَن يكون له مثل مَلِك مِن ملوك الدُّنيا، وعشرةُ أمثالِه، وما تشتهيه نفسُه وتلذُّ عينُه، كما ورد بالحديث الصَّحيح، وإنَّ النَّعيم فيها أبديٌّ لا منغِّص له، وعليه فإنَّ التَّقييد بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾ كان أشبه بالتَّخصيص، فلا مكان يشبه الجنَّة، ولا يدانيها في صفتها!.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 365.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 8/ 194.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 144.
(6) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 224.

نكتة تكرار ﴿رَأَيْتَ﴾:

النَّظر في الجنَّة نعمة بذاته، إذ يتقلَّب في صنوف النَّعيم وملذّاته

في قوله جلَّ ثناؤه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ "كُرِّر ذِكرُ الرُّؤية مبالغةً"[1]. "وفي مجيء نَظْم الآية في صورة خطابٍ بعثٌ لأشواق المخاطَب، ودعوةٌ له إلى مشاهَدة هذه الأحوال، ثُمَّ العمل على أخذ مكانه مع هؤلاء الذين ينظر إليهم"[2].

بلاغة التَّعبير بالتَّشبيه البليغ: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾:

في الجنَّة ما لا يدركه الوصف ولا الخيال، فسبحان مَن جعلها رمزًا للجَمال

في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ يصحُّ توجيهان: **الأوَّل:** التَّشبيه البليغ؛ "أي: مِثل أحوال المُلك الكبير المتنعِّم ربُّه. وفائدة هذا التَّشبيه تقريب المشبَّه لمدارك العقول"[3]، فإنَّ الواحد من أهل الجنَّة "عنده مِن القصور والمساكن والغرف المزيَّنة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه مِن البساتين الزّاهرة، والثِّمار الدّانية، والفواكه اللَّذيذة، والأنهار الجارية، والرِّياض المعجبة، والطُّيور المطربة - ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النُّفوس. وعنده مِن الزَّوجات اللّاتي هُنَّ في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظّاهر والباطن، الخيرات الحِسان، ما يملأ القلب سرورًا، ولذَّة وحبورًا، وحوله مِن الوِلدان المخلَّدين، والخدم المؤبَّدين، ما به تحصل الرّاحة والطُّمأنينة، وتتمُّ لذَّة العيش، وتكمل الغبطة. ثُمَّ علاوة ذلك وأعظمه الفوزُ برؤية الرَّبِّ الرَّحيم، وسماع خطابه، ولذَّة قُربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدّائم، وتزايد ما هُم فيه مِن النَّعيم كلَّ وقت وحين، فسبحان المَلِك المالك، الحقِّ المبين، الذي لا تنفد خزائنُه، ولا يقلُّ خيرُه، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبرِّه وإحسانه"[4].

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 413.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.

(4) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.

والثّاني: الاستعارة، "فالكبير مستعارٌ للعظيم، وهو زائد على النَّعيم بما فيه مِن رِفعةٍ وتذليل للمصاعب"[1]. أو يكون الكبير "مستعارًا مِن عِظَم الحجم لسعة الفضاء والمسافة، والعلاقة مطلَق السَّعة"[2]. والتَّوجيهان متقاربان متكاملان.

الغرض من تنكير ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾:

ما أعظمَ نعيمَ أهلِ الجنَّة وجزائهم! وما أشدَّ اتِّساعَ مُلكِهم

أوثر التَّنكير في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ لإفادة التَّعظيم، والمعنى: إذا نظرت في الجنَّة رأيتَ ﴿نَعِيمًا﴾ عظيمًا لا يوصَف عِظَمُه، ولا يحاكيه نعيم، فليس فيه كدر بوجه من الوجوه، ولا يقدر على وصفه واصف[3]، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ يعني: "عظيمَ القَدْر لا تحيط به عبارة، وهو يشمل المحسوس والمعقول"[4]، "فلا يقدر واصفٌ يَصِف حُسنَه، ولا طيبه"[5]، "ولا يقادَر قدرُه"[6]، "ولم يخطر على بال ممّا هو فيه من السَّعة وكثرة الموجود والعظَمَة"[7] "ومِن المُلك الكبير: تسليمُ الملائكة عليهم، ولبس التِّيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك. وأعظمهم منزلة مَن ينظر إلى وجه ربّه كلَّ يوم"[8].

سرّ تقييد المُلك بالصِّفة: ﴿كَبِيرًا﴾:

لا يتخلَّل نعيمَ الجنَّة كدَر، ولا يخطر على قلب بشر

قُيّد المُلك بالكِبَر في قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ لأنَّ النَّعيم قد يكون في حالة وُسطَى، أو يتخلله كدَر، أو يُخشَى زوالُه، فجاء القيد مزيلًا لهذا الوهم[9] وممّا أفاده هذا القيد أيضًا تعظيم الموصوف،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 491، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 290.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 200، والخازن، لباب التَّأويل: 4/ 380، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 178.
(5) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 51.
(6) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 424.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 149.
(8) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277.
(9) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.

فقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ "أي: عظيمًا واسعًا لا يريدون شيئًا إلّا قدَروا عليه، ولا يدخل عليهم مَلَك إلَّا باستئذان"[1]، "وأنَّ أدناهم منزلةً ينظر إلى مُلكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. لا زوال له"[2]، "وذلك أنَّ النِّعمة إذا كانت في معرض الزَّوال لا يتلذَّذ به صاحبُه، ولا يستبشر به الاستبشار التّامَّ"[3]، ثمَّ "إنَّ اللَّذاتِ الدُّنيويَّةَ محصورةٌ في أمور ثلاثة: قضاء الشَّهوة، وإمضاء الغضب، واللَّذة الخياليَّة التي يُعَبَّر عنها بحُبِّ المال والجاه، وكلُّ ذلك مستحقَرٌ؛ فإنَّ الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالمُلك الكبير الذي ذكره اللّه هاهنا لا بدَّ وأن يكون مغايرًا لتلك اللَّذّات الحقيرة"[4] "فالمراد بالمُلك الكبير هنا: السُّلطان العظيم الذي هو مظهر مِن مظاهر المُلك، وسِمةٌ مِن سِماته. وأيُّ سلطان أعظم مِن سلطان أهل الجنَّة، حيث تمضي إرادتُهم في كلِّ شيء، وتَنفذُ مشيئتُهم في كلِّ شيء؟! إنَّ خطرات النُّفوس، وهمسات الخواطر - أيًّا كانت هذه الخطرات، وأيًّا كانت هذه الهمسات - تتمثَّل لهم واقعًا حاضرًا بين أيديهم، قبل أن يكتمل ميلاد الخطرة، أو تتشكَّل صورةُ الهمسة!! فمَن في هذه الدُّنيا بلغ مِن نفوذ سلطانه معشار هذا السُّلطان؟"[5].

بلاغة التَّرقِّي في الآية:

في الجنَّة ما هو أعظم مِن القدر المذكور، فضلًا مِن المنعِم الشَّكور

في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ إشارة إلى أنَّ وراء هذا الفضل نعيمًا كثيرًا لا توصَفُ كثرته وجلاله[6]، فإنَّه "لمّا ذكر نعيم أهل الجنَّة بما تقدَّم ذكر أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظم مِن ذلك

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 380.
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297.
(3) الطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 204.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370 - 1371.
(6) أبو حفص النسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 151.

فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: وإذا نظرت في الجنَّة رأيت نعيمًا عظيمًا، ومُلكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف"[1] فالآية مِن باب التَّرقِّي والتَّعميم؛ يعني: أنَّ هناك أمورًا أُخرى أعلى وأعظم مِن القَدْر المذكور"[2]؛ فلذلك "أجمل نعيمَهم؛ لأنَّه أعلى وأعظم ممّا سبق، ولأنَّه ممّا لا يُحصَر ولا يَخطُر ببال أحد ما دام في الدُّنيا"[3]، "فهؤلاء الأبرار يَطعَمون أطيب المطاعم، ويَشرَبون ألذَّ وأمرأ المشارب، وهُم في حال اتِّكاء واسترواح، وبين أيديهم اللُّؤلؤ المنثور مِن الغِلمان يقومون على خدمتهم، وإذ يفيض عليهم مِن هذا النَّعيم ما تشرق به وجوهُهم مِن رضا ورضوان - تراهم وقد ألبسوا أفخر الثِّياب، وحُلّوا بأثمن الحُليّ وأكرمها.. فهذا ممّا يتمُّ به النَّعيم، وتكمل به المسرّات"[4].

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وأثره في المعنى:

ثراء الدَّلالات بتعدُّد التَّأويلات، وتنوُّع التَّوجيهات

قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة: ﴿عَالِيهِمْ﴾ ساكنةَ الياءِ مكسورةَ الهاء، فيكون في موضع رفع بالابتداء، وخبرُه: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. وقرأ الآخَرون بفتح الياء وضَمّ الهاء ﴿عَالِيَهُمْ﴾ على الصِّفة؛ أي: فوقهم، وهو نصب على الظَّرف[5].

والقراءة بسكون الياء لأنه مرفوع بالابتداء، ويكون خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾. ويكون المعنى: وثيابُ سُندس تعلوهم أبدانهم، ومَن نَصَبَ فهو على الظّرْفِ، كما تقول: فوقَهُم ثياب، أو على الحال وهو الأظهر، مِن شيئَين: أحدُهما: من الأبرار، والمعنى يطوف على الأبرار ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ عاليًا الأبْرارَ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ لأنَّه وقدْ

(1) المراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 170.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 274.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 298.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371 - 1372.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، وابن الجزري، النشر: 2/ 396.

وصف أحوالَهم في الجنَّة، فيكون المعنى يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء. والآخَر: أن يكون حالًا مِن الوِلدان. المعنى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ في حال علوِّ الثِّياب إيّاهم. فالنَّصب على هذا بَيِّن[1]، وكون الحال للأبرار أظهر "لأنَّ الضَّمائر الآتية بعد ذلك تدلُّ على أنَّها للمطوف عليهم مِن قوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾، و﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، وفكُّ الضَّمائر بجَعْلِ هذا كذا، وذاك كذا، مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك - لا يجوز"[2]. فالضَّمير في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ "للأبرار المطوف عليهم؛ لأنَّ المقام مقام تعداد نعيمهم وكرامتهم، فالمناسب أن تكون الثِّياب الموصوفة لهم، لا للوِلدان الطّائفين"[3].

بيان موقع ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ﴾ على القراءتين ممّا قبلها ودلالته:

تلك حالة أهل المُلك الكبير رفاهٌ، ونعيم، وثوبٌ وثير

قراءةُ نافعٍ وحمزةَ وأبي جعفرٍ: ﴿عَٰلِيهِمْ﴾ بسكون الياء تُؤوِّل "على أنَّ الكلام جملةٌ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا لجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، فـ﴿عَٰلِيهِمْ﴾ مبتدأ، و﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ فاعلُه، سدَّ مَسَدَّ الخبر، وقد عَمِل في فاعله وإنْ لم يكن معتمدًا على نفي أو استفهام أو وصف، وهي لُغةُ (خَبيرٌ بَنو لهْبٍ) وتكون الجملة في موضع البيان لجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾. وقراءةُ بقيَّةِ العشَرة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بفتح التَّحتيَّة على أنَّه حالٌ مفرَدٌ لـ(الأبْرار)؛ أي: تلك حالة أهل المُلك الكبير"[4].

فائدة التَّعبير بـ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾:

أوثر التَّعبير بالعُلوِّ للدَّلالة على تعدُّد أصناف الثِّياب التي يلبسها الأبرار؛ إشارةً إلى تنعُّمهم، وتنبيهًا على أنَّ لهم عدَّةً مِن الثِّياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلَها.

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 262.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 366 - 367.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾:

ثياب مِن الحرير نُسِجت، وللأبرار خُلِقت

قوله: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ يعني: ثيابُ ديباجٍ رقيقٍ حَسَنٍ، والسُّندس: هو ما رقَّ مِن الدِّيباج[1]. وإضافة الثِّياب إلى السُّندس كإضافة الخاتَم إلى الفِضَّة[2]، فهي إضافة بيانيَّة مثل: خاتم ذهبٍ، وثوب خزٍّ؛ أي: منه[3]؛ أي أنَّها على معنى (مِن)[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وأثره في المعنى:

وجازة المبنى آيةٌ في جلال المعنى

اختلف القُرّاء في قراءة هذيْن الحرفيْن، فقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب برفع ﴿خُضْرٌ﴾، وخفض ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾. وقرأ ابنُ كثير وشعبة بخفض ﴿خُضْرٍ﴾، ورفع ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. وقرأ نافعٌ وحفص برفعهما ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بخفضهما: ﴿خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[5]. و"حاصل القراءات في ذلك أربعُ مراتب: الأولى: رفعُهما. الثّانية: خفضُهما. الثّالثة: رفعُ الأوّل، وخفض الثّاني. الرّابعة: عكسُ ذلك"[6].

فمَن رَفَعَهما فقد قال: ﴿خُضْرٌ﴾ نعتُ الثّياب، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ عطفٌ على ﴿خُضْرٌ﴾، ومَن خَفَضَهما فقد قال: ﴿خُضْرٍ﴾ نعتٌ لـ﴿سُندُسٍ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ عطفٌ على ﴿سُندُسٍ﴾، ومَن رَفَعَ ﴿خُضْرٌ﴾ فقد جَعَلَه نعتًا لـ﴿ثِيَابُ﴾، ثمَّ خفَضَ ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾، ومَن خَفَضَ ﴿خُضْرٍ﴾ فقد جَعَلَه نعتًا لـ﴿سُندُسٍ﴾ ثمَّ رَفَعَ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾[7].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 112.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277، والجمل، حاشية على الجلالين: 8/ 195، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 475.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 396.
(6) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457 - 458.
(7) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 153.

والمعنى على القراءة الأولى: عاليهم ثيابُ سندسٍ، وثيابُ إستبرقٍ، على حذف المضاف.

والمعنى على القراءة الثّانية: عاليهم ثيابٌ مِن سُندُسٍ، وثيابٌ مِن إستبرقٍ.

والمعنى على القراءة الثّالثة: عاليهم ثيابٌ خضرٌ مِن سُندسٍ ومِن إستبرقٍ، فعلى هذا يكون الإستبرقُ أيضًا أخضرَ.

والمعنى على القراءة الرّابعة: عاليهم ثيابُ سُندُسٍ خُضرٍ، وإستبرَقٌ؛ أي: وثيابُ إستبرق، أيضًا على حذف المضاف[1].

نكتة الجمع بين السُّندس والإستبرق:

الرَّفيع منه كالقمصان ممّا يلي الأبدان، والغليظ على الظّاهر وله البريق واللّمعان

جمع بين السندس والاستبرق في قوله تعالى: ﴿عَلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾؛ إذ إنَّ هذا لباس الأبرار، وكأنَّهم يلبسون عدَّة مِن الثِّياب فيكون الذي يعلوها أفضلَها؛ ولهذا قال: ﴿عَلِيَهُمۡ﴾"[2]؛ "أي: قد جلَّلتهم ثياب السُّندس والإستبرق الأخضران اللَّذان هما أجلُّ أنواع الحرير"[3]، "يلبسون هذا وذاك جمعًا بين محاسن كليهما، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثَّروة"[4]؛ فيكون السُّندس شعارًا، ويكون الإستبرق دثارًا[5].

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، ونكتة مجيء الفعل ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

ما أبهى الجمع بين زينة الأبدان والملابس، مع زينة الأيدي والمعاصِم

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ عطف على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾[6]، "وساغ عطف الماضي على المضارع؛ لأنَّه

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 262، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 55 - 56، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457 - 458.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 755.
(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 399.
(5) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371.
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 283.

مستقبَل المعنى، وللإيذان بتحقيقه[1]. فصيغة المُضيّ في ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ للدَّلالة على تحقُّق وقوعه[2]؛ إذ "هو ماضٍ لفظًا ومستقبَلٌ معنًى؛ أي: ويُحَلَّون. وفيه تعظيم لهم بالنّسبة إلى أن يقال: وتَحَلَّوْا"[3]، ولأنَّ الحلية مقدَّمة على الطَّواف المتجدِّد المشار إليه بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ﴾، فالحلية ماضٍ بالنّسبة إلى الطَّواف، وإنْ كانا مستقبَلَيْن في نفس الأمر، غير أنَّه أُخِّر ذِكر الحلية عن الطَّواف؛ لأنَّ الطَّواف طواف الوِلْدان بأكواب وأباريق، فناسَبَ ذِكرُه عقيب قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾[4].

وبُني الفعل ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ للمفعول للعِلم بالفاعل؛ إذ المعنى: وحلّاهم ربُّهم أساورَ[5]، وأيضًا للاختصار في اللَّفظ، وللدَّلالة "على تيسُّر ذلك لهم، وسهولته عليهم، فقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾؛ أي: وُجِدَت تحلية المخدومين والخَدَم ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ وإنْ كانت تتفاوَتُ بتفاوُتِ الرُّتب"[6].

دلالة التَّعبير بالمفعول به جمعَ تكسير: ﴿أَسَاوِرَ﴾:

الأساور كثيرةٌ لا محصيَّة، حليةُ ما عملته الأيدي الزَّكيَّة

قوله تعالى: "﴿أَسَاوِرَ﴾: جمع كثرة، ولم يقل: (أسورة) التي تدلُّ على جمع القِلَّة"[7]. وقد "كان في الزَّمن القديم إذا مَلَكَ مَلِكٌ أقاليمَ عظيمةً كثيرةً لبس سوارًا، وسُمّي المَلِك المُسَوَّر لاتّساع مملكته وعظمتها وكثرة أقاليمها، وإن لم تجمع أقاليم لم يُسَوَّر، فما ظنُّك بمَن أُعطيَ مِن ذلك جمع الكثرة، وهي بالغة مِن الأعضاء ما يبلغ التَّحجيل في الوضوء كما قال ﷺ: "تبلغ الحلية مِن المؤمن حيث يبلغ الوضوء"[8].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 325.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277، والقنّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 476، والدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 361.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 493.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 113.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 149.
(7) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 219.
(8) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن فِضَّةٍ﴾:

يُحلَّى الأبرار بالفضَّة والعسجد المسبوك، كما هو شأن الملوك

﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ بيانيَّة[1]، فهذا "بيان لما يتزيَّنون به في أيديهم؛ أي أنَّ هؤلاء الأبرار يلبسون في أيديهم أساور مِن فِضَّة، كما هو الشَّأن بالنِّسبة للملوك في الدُّنيا، ومنه ما ورد في الحديث مِن ذكر سوارَي كِسرى"[2] ومعنى ابتداء الغاية فيها ملحوظ؛ إذ إنَّ هذه الأساور التي يتحلَّى بها الأبرار كانت فِضَّةُ الجنَّة ابتداءَ اتِّخاذها وخَلْقها.

توجيه متشابه النَّظم:

حُليُّ الأبرار مِن المعدنيْن، ولكلٍّ منهم ما تقرُّ به العيْن

قال اللّه تعالى في سورة الكهف: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: 31]، وقال سبحانه في سورتَي الحجِّ وفاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحجُّ: 23]، فكيف جعل تلك الأساور هاهنا من فِضَّة؟.

والجواب: مِن خمسة أوجه[3]؛ **أحدُها**: أنَّه لا منافاة بين الأمريْن، فلعلَّهم يُسَوَّرون بالجنسيْن، إمّا على المعاقبة في الأوقات: فتارةً يلبسون الذَّهب، وتارةً يلبسون الفِضَّة، وأخرى لؤلؤًا، وإمّا على الجمع، فيجمعون في أيديهم سوارَ الذَّهب وسوار الفِضَّة وسوارَ اللُّؤلؤ، كما تفعل النِّساء في الدُّنيا، وما أحسنَه! وإمّا على تبعيض السّوار بأنْ يكون بعضُه ذهبًا وبعضُه فِضَّة وبعضُه لؤلؤًا. **وثانيها**: أنْ يُعطَى كلُّ واحدٍ منهم ما ترغب فيه نفسُه ويميلُ إليه طَبعُه، فإنَّ الطِّباع مختلفةٌ، فرُبَّ إنسان يكون استحسانُه لبياض الفِضَّة فوقَ استحسانِه لصُفرة الذَّهب، فاللّه تعالى يعطي كلَّ أحدٍ ما تكون رغبتُه فيه أتمَّ، وميلُه إليه أشدَّ. **وثالثُها**: أنَّ هذه الأسورة مِن

(1) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 160.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 225.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 674، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 755، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 147.

الفِضَّة إنَّما تكون للوِلدان الذين هم الخَدَم، وأسورةُ الذَّهب للنّاس. **ورابعُها**: أنْ يكون حليُّ أهلِ الجنَّة يختلف بحسب اختلاف أعمالهم، فلعلَّه تعالى يُفيض عليهم جزاءً لما عَمِلوه بأيديهم حُليًّا وأنوارًا تتفاوت تفاوُتَ الذَّهب والفِضَّة، فللمقرَّبين الذَّهب، وللأبرار الفِضَّة، وعليه فقوله تعالى هنا: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ يكون هذا صفةَ الأبرار، وأمّا المقرَّبون فكما قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]. **وخامسها** - وهو عكس السّابق - "أنَّ الذَّهَب إنَّما يفضُل الفِضَّة في الدُّنيا لكثرة الفِضَّة وعِزَّة الذَّهَب، وهذا التَّفاوُت لا يوجَد في الجنَّة، وإنَّما المقصودُ عينُ الزّينةِ، والزِّينةُ توجَد فيهما جَميعًا"(1)، فأخبر بعض الآيات عن ذا تارةً، وأخبر بعضها عن ذاك أخرى.

فإن قيل: فلِم اقتصر - في هذه السّورة - مِن آنيتهم وحليتهم على الفِضَّة دون الذَّهب ومعلوم أنَّ الجِنان جَنَّتانِ مِن فِضَّة: آنيتُهما، وحِليَتُهما، وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذهبٍ: آنيتُهما، وحِليَتُهما، وما فيهما؟ قيل: سياق هذه الآيات إنَّما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصَّلًا دون تفصيل جزاء المقرَّبين، فإنَّه سبحانه إنَّما أشار إليه إشارةً تنبِّه على ما سكت عنه، وهو أنَّ شراب الأبرار يُمزَج مِن شرابهم.

فالسّورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التَّفصيل وذلك والله أعلم لأنَّهم أعمُّ من المقرَّبين وأكثرُ منهم؛ ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنَّهم ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ [الواقعة: 39 - 40]، وعن المقرَّبين السّابقين بأنَّهم ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾ [الواقعة: 13 - 14]. وأيضًا فإنَّ في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أنَّ جزاء المقرَّبين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر، وأيضًا فإنَّه سبحانه ذكر أهلَ الكُفر وأهلَ الشُّكر، وأهلُ الشُّكر نوعانِ: أبرارٌ أهلُ يمينٍ، ومقرَّبون سابقون. وكلُّ مُقرَّب سابقٌ فهو مِن الأبرار ولا ينعكس، فاسْمُ الأبرار والمقرَّبين كاسم الإسلام والإيمان: أحدُهما أعمُّ مِن الآخَر(2).

لطيفة في الرَّدِّ على استشكال كون الرِّجال في الجنَّة مُحَلَّيْن بما هو في العادة للنِّساء:

كون هذه الحُليِّ "لا تليق بالرِّجال، وإنَّما تليق بالنِّساء والوِلْدان، فأجيبَ بأنَّ ذلك ممّا

(1) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 121.
(2) ابن تيمية، دقائق التفسير: 3/ 24.

يختلِفُ باختلاف العادات والطَّبائع، ونشأةُ الآخِرة غيرُ هذه النَّشأة، ومِن المُشاهَد في الدُّنيا أنَّ بعضَ مُلوكِها يَتَحَلَّوْن بأعضادهم، وعلى تيجانهم، وعلى صدورهم ببعض أنواع الحُليِّ ممّا هو عند بعض الطِّباع أوْلَى بالنِّساء وللصِّبيان، ولا يرَوْن ذلك بدعًا ولا نقصًا؛ كلُّ ذلك لمكان الإلْف والعادة، فلا يبعد أن يكون مِن طباع أهل الجنَّة في الجنَّة الميْلُ إلى الحُليِّ مطلقًا لا سيَّما وهُم جُرْدٌ مُرْدٌ أبناءُ ثلاثين"[1].

ليست نشأة الأولى كالآخرة ولا تدانيها، فتلك جليلة ومختلفة بكلِّ ما فيها

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾:

الواو عاطفة[2]، وجملة (سَقاهُمْ) معطوفة على جملة ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾[3]. وقد حسَّن الوصلَ بين الجملتين كونُهما فعليَّتيْن، فعلاهما ماضييْن، جاءتا لبيان ما أعدَّه اللّه تعالى لعباده الأبرار في الجنَّة، حيث "ذكر سبحانه لونَ ملابس الأبرار، وأنَّها ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، وذكر حِليَتَهم، وأنَّها أساور مِن فِضَّة، فهذه زينة ظواهرهم، ثمَّ ذكر زينةَ بواطِنِهم وهو الشَّراب الطَّهور"[4]؛ أي: أنَّه "لمّا ذكر تعالى زينة الظّاهر بالحرير والحُليِّ قال بعده: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ أي: طهَّر بواطنَهم مِن الحَسَد والحقد والغلِّ والأذى وسائر الأخلاق الرَّديَّة"[5].

ذَكَر زينة الباطن والظّاهر، فتُشرق الوجوه بسرور السَّرائر

دلالة التَّعبير بالماضي، وسرُّ المغايرة بين البناء للمفعول: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، وللفاعل: ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ "ماضي اللَّفظ مستقبَل المعنى؛ إشعارًا بتحقُّقه ووقوعه[6]، "وأضافه اللّه إلى نفسه تشريفًا له وتخصيصًا[7]؛

أُسنِد السَّقي هنا لله؛ إشعارًا بتفضيل هذا الشَّراب على ما سواه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 181.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 284.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 325، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 191.
(4) ابن تيمية، دقائق التَّفسير: 3/ 24.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 293.
(6) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 502.
(7) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 154.

"فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدلُّ على فضلٍ في هذا دون غيره[1]، وعلى أنَّه نوع آخَر يفوقُ على النَّوعيْن المتقدِّمَيْن، وهما ما مُزِج بالكافور وما مُزِج بالزَّنجبيل؛ ولذلك أُسنِد سقيُه إلى اللّه ﷻ، ووَصَفه بالطُّهوريَّة[2] فبناؤه للفاعل كان "بيانًا لفضل ما يُسقَوْنه في نفسه وفي كونه مِن عند الإله الأعظم المتَّصف بغاية الإحسان على صفةٍ مِن العَظَمة تليق بإحسانه سبحانه"[3]، "وإظهارًا لكرامتهم؛ أي: أمَرَ هو بسقْيِهم كما يقال: أطعَمَهم ربُّ الدّار وسقاهم"[4].

أمّا بناء الفعل (حُلّوا) للمفعول فقد سبق أنَّه للعِلم بالفاعل اختصارًا في اللَّفظ، وللدَّلالة على تيسُّر ذلك لهم، وسهولته عليهم، ولأنَّ الحلية ثابتة غالبًا، بخلاف السَّقي المتجدِّد مرَّة بعد مرَّة.

نكتة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة ﴿رَبُّهُمْ﴾:

مِن أجلِّ أنواع النَّعيم تناوُل الشَّراب مِن لدُن البَرِّ الرَّحيم

لمّا كان السِّياقُ سياقَ تعداد ما أنعم اللّه تعالى به على عباده الأبرار في الجنَّة؛ ناسب أن يعبِّر "بصفة الإحسان تأكيدًا لذلك فقال: ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ أي: الموجِد لهم، المحسِن إليهم، المدبِّر لمصالحهم"[5] فالتَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ "هو إشارة إلى عِظَم ما يساق إلى هؤلاء الأبرار مِن نعيم، حيث يتناولون هذا الشَّراب الطَّهور مِن ربِّهم، بعد أن يكونوا قد تذوَّقوا ألوان النَّعيم الأُخرى.. فكان هذا الشَّرابُ مِن البَرِّ الرَّحيم هو النَّشوةَ الكبرى التي لا يحيط بها وصف، ولا يَعرِفُ كُنهَها إلّا مَن أكرمه اللّه بها"[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1372.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَبُّهُمْ﴾:

الإضافة في ﴿رَبُّهُمْ﴾ إضافة محضة، أفادت تشريف المضاف إليه وتفخيمه مِن حيث إضافته إلى الرَّبِّ العليِّ الأجلِّ الأعظم سبحانه وبحمده.

الغرض من تنكير ﴿شَرَابًا﴾:

شتّان ما بين الشَّرابَيْن والآنيتَيْن والمنزلتَيْن

التنكير في ﴿شَرَابًا﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم؛ "أي ليس هو كشراب الدُّنيا سواء كان مِن الخمر أو مِن الماء أو مِن غيرهما، بل هو بالغ الطَّهارة والوصف بالشَّرابيَّة مِن العذوبة، واللَّذَّة واللَّطافة، وهو مع ذلك آلة للتَّطهير البالغ"[1] وقد يدلُّ تنكير ﴿شَرَابًا﴾ على النَّوعيَّة، مِن حيث إنَّ هذا الشَّراب هو نوع مغاير للنَّوعيَن السّابقيَن: الممزوج بالكافور، والممزوج بالزَّنجبيل[2]؛ أي: "ويشربون مِن شرابٍ آخَر غير ما ذُكر، موصوفٍ بغاية الطُّهر والنَّقاء، إمّا لإذهاب آثار الطعام وجعلِه يتفصَّد مِن الجسد عرقًا، أو للتَّرفُّع عن اللَّذّات الحِسّيَّة والتَّخلُّص مِن مفاسد الأخلاق الرَّديئة، كالحسد والحقد والبغض وغير ذلك"[3].

دلالة وصف الشَّراب بصيغة المبالَغة ﴿طَهُورًا﴾:

شرابٌ فخيمٌ بلغَ في العذوبة الغاية، وفي الطَّهارة النِّهاية

وُصِف الشَّراب الذي يُسقاه الأبرار بالطَّهور تفخيمًا له، "وإشعارًا بأنَّ هذا الشَّراب قد بلغ النِّهاية في الطَّهارة"[4]، "واحتراسًا ممّا يوهمه شربُهم مِن الكأس الممزوجة بالكافور والزَّنجبيل مِن أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدُّنيا ومِن الغَوْل وسوء القول والهذيان، فعُبِّر عن ذلك بكون شرابهم ﴿طَهُورًا﴾ بصيغة المبالغة في الطَّهارة، وهي النَّزاهة مِن الخبائث؛ أي: منزَّهًا عمّا في غيره

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 19/ 494.
(3) الزُّحيليُّ التَّفسير المنير: 29/ 301.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 225.

مِن الخباثة والفساد"[1]، "فالشَّراب الطَّهور هو الطّاهر في نفسه المطهِّر لغيره. فالشَّراب يكون طَهورًا في الجنَّة - وإنْ لم يحصل به التَّطهير - لأنَّ الجنَّة لا يحتاج فيها إلى التَّطهير، ولكنَّه سبحانه لمّا ذكر الشَّراب - وهو اليوم في الشّاهد نجس - أخبر أنَّ ذلك الشَّراب غدًا طاهر"[2]، "فالآية ممّا يستروح بها في نجاسة الخمر؛ لِما فيها مِن التَّعريض بها"[3]، فبمفهوم المخالَفة يُستَنبَطُ "أنَّ شَراب خمر الدُّنيا ليس طهورًا"[4]، بخلاف خمر الجنَّة البالغ الطُّهوريَّة، بل إنَّه يطهِّر شارِبَه عن دَنَسِ الميل إلى اللَّذّات الحسيَّة والرُّكون إلى ما سوى الحقّ، فيتجرَّد لمطالعة جماله ملتذًّا بلقائه، باقيًا ببقائه، وبه تحصل الصَّفوة المهيِّئة لانعكاس نور الجمال الإلهيّ في قلوبهم، وهي الغايةُ القاصيةُ ومنتهى درجات الصِّدِّيقين؛ ولذلك خُتِم بها مقالةُ ثواب الأبرار[5].

شـراب الجنَّـة طاهِرٌ لم تدُسْه الأقـدام، مطهِّرٌ مِـن الآفــات والآثام

توجيه المراد بقوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾:

في معنى الطَّهور هنا قولان[6]: **الأوَّل**: المبالغة في كونه طاهرًا، ثمَّ فيه على هذا التَّفسير احتمالات؛ أحدُها: أنَّه لا يكون نجسًا كخمر الدُّنيا، وثانيها: المبالغة في البُعد عن الأمور المستقذَرَة؛ يعني: ما مسَّته الأيدي القذرة، وما داسته الأقدامُ الدَّنسة، وثالثها: أنَّها لا تَؤول إلى النَّجاسة؛ لأنَّها ترشح عرقًا مِن أبدانهم، له ريحٌ كريح المسك.

القول الثّاني: في الطَّهور أنَّه المطهِّر، وعلى هذا التَّفسير أيضًا في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.
(2) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 666.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.
(4) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 8/ 397.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 172، والواحديُّ التَّفسير البسيط: 23/ 56 - 57، والرّازيُّ، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.

الآية احتمالان؛ أحدهما: قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنَّة، تنبع مِن ساق شجرة، مَن شَرِب منها نزع اللّه ما كان في قلبه مِن غِلٍّ وغشٍّ وحسد، وما كان في جوفه مِن قَذَر وأذى.

وثانيهما: قال أبو قلابة: يُؤتَوْن الطَّعامَ والشَّرابَ، فإذا كان في آخِر ذلك أتَوْا بالشَّراب الطَّهور، فيشربون، فتَطهُر بذلك بطونُهم، ويفيض عرقٌ مِن جلودهم مثلُ ريح المسك، وعلى هذيْن الوجهَيْن يكون الطَّهور مُطَهِّرًا؛ لأنَّه يُطَهِّر باطنَهم عن الأخلاق الذَّميمة، والأشياء المؤذية، "ومِن طُهره أنَّه لا يصير بولًا نَجِسًا، ولكنَّه يصير رشحًا مِن أبدانهم كرشْحِ المسك"(1).

بيان متشابه النَّظم:

ذِكــرُ الأتْــبـاع يناسبه الاتِّساع، والاكتفاءُ بالأبرار يناسبه الاقتصار

"قال تعالى: ﴿*وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ [الطّور: 24]، وفي سورة الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ﴾ [الواقعة: 17 - 18]، وفي سورة الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾، فورد في سورة الطّور: ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ [الطور: 24] وفي السّورتين: ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ والمراد في السّور الثّلاث الخُدّام. فللسّائل أن يسأل عن الموجِب لتخصيص كلِّ آية بما ورد فيها.

والجواب - واللّه أعلم - يترتَّب على تمهيد، وهو أنَّ الغُلام هو الطّارُّ الشّارب، وقيل باستصحابه هذا الاسم إلى أن يشيب، والجمع غِلمان. وأمّا الوليد فاسمٌ للمولود حين يولَد، وهو (فعيل) وهي بنيةُ مبالغة، وفائدتها هنا استحكام الصِّغَر، وجمعُه (وِلدان)، وعلى هذا لا يرادف أحدُ الاسميْن الآخَر. فإنْ ورَدَ أحدُهما في موضع الآخَر فعلى المجاز والتَّوسُّع، والأصل ما مُهِّد.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 113.

وإذا تقرَّر هذا فوجْهُ وُرودِ الغِلمان في سورة الطّور - والله أعلم - مناسبةُ اللَّفظ باتِّساع مواقعه في أحد القولَيْن، وهي استصحابُ اسمِ الغُلوميَّة إلى المشيب، أو لاحتياج التَّوسُّع فيما يطوفون به ويستخدمون فيه بحسب أسنانهم لمَن تقدَّم مِن صِنفَي المخدومين، وهم الآباء والأبناء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطّور: 21]، فذُكر هنا الآباء الدّاخلون الجنَّة مجازاة على أعمالهم، والأبناء مِن الذُّرِّيَّة ممَّن لم يبلغ سنَّ التَّكليف، فدخل الجنَّة بغير عمل، فناسب الاتِّساع، وأمّا آية الواقعة فلم يقع فيها ذِكرُ الأتباع؛ فناسب ذلك ذِكر الوِلدان الذين لا تحتمل أسنانُهم خدمة الغِلمان، فناسب الاقتصارُ الاقتصارَ والتَّوسُّعُ التَّوسُّعَ، ووضح أنَّ العكس لا يناسب، ووصَفَ الوِلدان بقوله: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ إعلامًا بأنَّهم باقون على مقتضَى سنِّ الوليديَّة لا تتغيَّر أحوالُهم عن ذلك، وإلّا فالخلودُ الأُخرويُّ عامٌّ لهم ولغيرهم.

وجوابٌ ثانٍ: وهو أنَّه لمّا ذُكرت الذُّرِّيَّة في سورة الطّور بما كان يوهِم ذِكرهم مِن حيث دخولُهم الجنَّة بغير عمل أنَّهم فيها خُدّام لمَن اتَّبعوه؛ بيَّن قولُه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطّور: 24] أنَّ الكلَّ مِن تابِعٍ ومتبوعٍ مخدومون، وقيل: ﴿لَّهُمْ﴾ [الطّور: 24] باللّام المقتضية المِلك مع كون الضَّمير في ﴿لَّهُمْ﴾ [الطّور: 24] للكُلِّ مِن متبوعٍ وتابعٍ؛ إشعارًا لأنَّهم ملكهم غلمان لهم، يتصرَّفون في كلٍّ بما يُؤمَرون به ويُنهَون عنه، ولمّا لم (يقع) في سورة الواقعة وسورة الإنسان ذِكر الأتْباع مِن الذُّرِّيَّة لم يرد فيهما إلّا اسم الوِلدان، وهُم في الخدمة بمقتضى أسنانهم دون الغِلمان، وتناسَبَ هذا"[1].

دلالة حذف فِعل القول في ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾؛ "أي: يقال لهم ذلك تكريمًا لهم، وإحسانًا إليهم"[2]، "وهنا محذوف يقتضيه القول"[3]؛ "فهذا الكلام مقول قول محذوف قرينته الخطاب؛ إذ ليس يصلح لهذا الخطاب ممّا تقدَّم مِن الكلام إلّا أن يكون المخاطبون هم الأبرار الموصوف نعيمُهم. والقول المحذوف يقدَّر فعلًا في موضع الحال مِن ضمير

(1) الغرناطيُّ، وملاك التَّأويل: 2/ 453.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 293.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 414.

مِـن التَّـكـريـم أنْ يُـخـبَرَ أهل النَّـعـيم بعلَّة الفضل العظيم

الغائب في ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾؛ نحو: يقال لهم، أو يقول لهم ربُّهم، أو يقدَّر اسمًا هو حال مِن ذلك الضَّمير؛ نحو: مقولًا لهم هذا اللَّفظ، أو قائلًا لهم هذا اللَّفظ"(1)؛ أي: "يقال لأهل الجنَّة بعد دخولهم فيها، ومشاهدتهم لنعيمها: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ قد أعدَّه اللّه تعالى لكم إلى هذا الوقت، فهو كلُّه لكم بأعمالكم على قلَّة أعمالكم، كما قال حاكيًا عن الملائكة إنَّهم يقولون لأهل الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرَّعد: 24] وقال: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ٢٤﴾ [الحاقَّة: 24]. والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورُهم، فإنَّه يقال للمعاقَب: هذا بعملك الرَّديء فيزداد غمُّه وألمُ قلبه، ويقال للمُثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئةً له وزيادة في سروره"(2)، فهذا "مِن تحيَّة اللّه ﷻ لعباده الأبرار المكرَمين وهو يسقيهم مِن هذا الشَّراب الطَّهور.. فهم إذ يتناولون هذا الشَّراب مِن ربِّهم، يتناولونه محمَّلًا بهذه التَّحيَّة المباركة مِن المنعِم المتفضِّل عليهم؛ إذ يقال لهم: هذا جزاء ما عملتم، وهو ثمرة ما سعيتم؛ إنَّ سعيكم كان مشكورًا لكم مِن ربِّكم، وهذه التَّحيَّة مِن ربِّكم هي تحيَّة شكر وحمد لسعيكم"(3).

ويجوز "أنْ يكون ذلك إخبارًا مِن اللّه تعالى لعباده في الدُّنيا، فكأنَّه تعالى شرح جواب أهل الجنَّة أنَّ هذا كان في عِلمي وحُكمي جزاءً لكم يا معاشر عبادي، لكُم خلقتُها، ولأجلكم أعددتُها(4).

دلالة التَّعبير بالجملة المؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

لـيـس ثـواب الجنَّة بالمقطوع فيُخشَى زوالُه، ولا بـالمـتـكـرِّر فيُخاف ملالُه

أُكِّد جزاء الأبرار بـ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ اهتمامًا بالخبر، "وتسكينًا لقلوبهم؛ لئلّا يظنّوا أنَّ ما هم فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1372 - 1373.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.

على وجه الضِّيافة ونحوها فيظنّوا انقطاعَه"[1]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ معناه: "إنَّما هذا جزاءٌ لكم؛ أي: ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾؛ أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مِن قِبَل اللّه، وشكرُه للعبد قبولُ طاعتِه، وثناؤه عليه، وإثابتُه إيّاه"[2].

الغرض من التَّعبير بالمسند إليه اسم الإشارة، وبيان المشار إليه:

الإشارة إلى ما يكون حاضرًا مِن صنوف الثَّواب، كالحلية والطَّعام والشَّراب

اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ يُشار به إلى ما وُصِف مِن نعيم الجنَّة ممّا تقدَّم مِن عطاء اللّه للأبرار[3]؛ أي: هذا الذي أعطيناكم مِن الكرامة كان لكم ثوابًا على ما كنتم تعملون في الدُّنيا مِن الصّالحات، جوزيتم به، وشُكِر به سعيُكم"[4] فالإشارة إلى ما يكون حاضرًا لديهم مِن ألوان النَّعيم الموصوف فيما مضى مِن الآيات. والمقصود مِن ذلك: الثَّناء عليهم بما أسلفوا مِن تقوى اللّه، وتكرمتهم بذلك، وتنشيط أنفسهم بأنَّ ما أنعم به عليهم هو حقٌّ لهم جزاءً على عَمِلهم"[5].

معنى (اللّام) ودلالتها في ﴿لَكُمْ﴾:

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[6]. وهي بهذا المعنى هنا؛ أي أنَّ هذا الثَّواب العظيم كان جزاءً لكم خاصَّة على ما عملتموه، وما أسلفتموه في الأيّام الخالية.

الغرض من تقديم شبه الجملة على المسند في ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾:

مِن الإكرام تقديمُ ضمير المكرَمين؛ شُكرًا لسعيهم مِن ربِّ العالمين

أفاد هذا التَّقديم معنى التَّخصيص، وهو مؤكِّد لما في لام ﴿لَكُمْ﴾ مِن هذا المعنى، ففيه مزيد تكريم مِن حيث أُعلِم الأبرار

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 147.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 298، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 381.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 674.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.

أنَّ هذا الثَّواب الجزيل إنَّما هو لهم خاصَّة لا يشاركهم فيه أحد، وفيه كذلك تحسير للكافرين حيث إنَّهم لن ينالوا منه مثقال ذرَّة!، كما أنَّ في تقديم ضميرهم نوع إكرام لهم؛ شُكرًا مِن اللّه العظيم لسعيهم.

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾، ونكتة التَّعبير بالكون الماضي:

آنَسهم المولى بإعلامهم بأنَّ ما أغدق عليهم كان ثوابًا لهم على أعمالهم

الواو عاطفة، وجملة: ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ في محلِّ رفعٍ، معطوفةٌ على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى"[1]، وقد حسَّن الوصل بينهما مجيئُهما اسميَّتين مصدَّرتين بالنّاسخ (كان)، ومِن بديع المناسبة أنَّه لمّا عرَّفهم بثوابهم في قوله تعالى: ﴿كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ - "عطف على ذلك قوله: ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ علاوةً على إيناسهم بأنَّ ما أغدق عليهم كان جزاءً لهم على ما فعلوا بأنَّ سعيهم الذي كان النَّعيم جزاءً عليه، هو سعيٌ مشكور"[2].

وأمّا التَّعبير بالنّاسخ (كان) فلإفادة التَّحقيق والدَّوام؛ أي: "﴿وَكَانَ﴾ على وجه الثَّبات في علم اللّه تعالى ﴿سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾"[3].

توجيه معنى الشُّكر مِن الله تعالى، ودلالة مجيئه بصيغة اسم المفعول ﴿مَّشۡكُورًا﴾:

جزاهم الله على القليل بالكثير، وذلك هو الفضل الكبير

الشُّكر مِن اللّه تعالى قبول قليل العمل، والتَّجاوز عن التَّقصير فيه مع الإثابة عليه، فقوله تعالى: ﴿مَّشۡكُورًا﴾؛ يعني: "حَمِدَكم عليه ربُّكم، ورضيَه لكم، فأثابكم بما أثابكم به مِن الكرامة عليه"[4]، "فإنَّه سبحانه إذا قَبِل العَمَلَ شَكَرَه، فإذا شَكَرَه أثابَ عليه بالجزيل؛

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 284، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 191.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115.

إذْ هو سبحانه ذو الفضل العظيم"[1] ولمّا كان المقصودُ القبولَ لأنَّ القابل الشّاكر هو المعمول له؛ بُني للمفعول قولُه: ﴿مَّشۡكُورًا﴾؛ أي: لا يضيع شيئًا منه ويجازي بأكثرَ منه أضعافًا مضاعَفَة"[2].

ويجوز أن يكون ﴿مَّشۡكُورًا﴾ بمعنى: مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السَّعي على طريقة المجاز العقليّ؛ مثل قولهم: سَيْلٌ مُفعم. ولك أن تجعل ﴿مَّشۡكُورًا﴾ مفعولًا حقيقةً عقليَّة، لكن على طريقة الحذف والإيصال؛ أي: مشكورًا عليه. وإقحام فعل (كان) كإقحام نظيره آنفًا[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنثور والمتفرّق:

النَّـثر مختَصٌّ بتفريق الكثير، وهـو دالٌّ على نَشْرِ هذا الكثير مع تفريقِه

الفاء والرّاء والقاف أُصيل صحيح يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين[4]. فيقال: فرَّق بين الحقِّ والباطل، ولا يقال: نثر بينهما. ويُستعمَل التَّفريق في تشتيت الشَّمل والكلمة، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ [البقرة: 102]. ونَثْرُ الشيء: نَشْرُه وتفريقه[5]. ويقال: نثرَ الحَبَّ والجَوْزَ والسُّكَّر، أي: رماه متفرِّقًا[6]. ويتبيَّن ممّا سبق فرقٌ دقيقٌ بين (النَّثْر) و(التَّفريق)، وهو أنَّ النَّثر مختَصٌّ بتفريق الكثير، ولا يُستعمَل في التَّفريق بين شيئين، وأنَّه دالٌّ على نَشْرِ هذا الكثير مع تفريقِه؛ ولذا أوثِر لفظُ (النَّثْر) دون (التَّفريق) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾؛ فقوله

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 148.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(4) ابن فارس، المقاييس: (فرق).
(5) الراغب، المفردات: (نثر).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، والزبيدي، التاج: (نثر).

تعالى: ﴿لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ كناية عن كثرتِهم وانتشارِهم في الخدمة وشرفِهم وحُسنِهم[1].

التَّحلية والتَّزيين:

التَّحلية تختَصُّ بالتَّزيين بما يُزَيَّن به من مَصوغِ المعدنيّات أو الحجارة

استُعمِل التَّزيين في تحسين القبيح[2]، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: 48] واستُعمِل في تحسين الحَسَن لِمَن لَم يكن يُدرِك حُسنَه[3]، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: 7]، وفي تحسين حُبِّ ما هو زائلٌ فانٍ[4]، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14].

واستُعمِلَت التَّحلية مع أهلِ الجَنَّة كما في قول اللّه ﷻ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ [الحج: 23]، فدلَّ هذا على أنَّها تحليةٌ دائمة، ودلَّ على دوامِ شُعورِ المحَلَّى بحلاوةِ ما حُلّي به ودوامِ التَّنعُّمِ به، ودوامِ إدراك مَن حولَه حلاوةَ ما حُلّي به وجمالَه.

والزّينة: ما يُتَزيَّن به[5]، والحَلْي: ما يُزَيَّن به من مَصوغِ المعدنيّات أو الحجارة[6]؛ ولاختصاصه بهما أوثِر لفظ (التَّحلية) دون (التَّزيين) في هذه الآيات.

وقد يكون من أسرارِ إيثارِ لفظ (التَّحلية) دون (التَّزيين) في هذه الآيات أنَّ جذرَ (التَّحلية) قريبٌ من جِذر (التَّحليل)؛ فيكون في ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم حُلّوا بما كان محرَّمًا على بعضهم في الدُّنيا (كالذَّهبِ المحرَّم على الرِّجال)، وبما حَرَمَ بعضُهم أنفسَهم منه؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 148.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 73.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 7/ 339.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/ 375.
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والفيروزآباديُّ، القاموس المحيط: (زين).
(6) الفيروزآباديُّ، القاموس: (حلي).

كمَن حَرَمَ نفسَه من لبسِ شيءٍ من الفضَّةِ إيثارًا لإطعام مسكين، أو كمَن حَرَمَت نفسَها من لبسِ شيءٍ من الذَّهب أو الفضَّة إيثارًا لعملِ خيرٍ.

الأساور والقلائد:

في الأساور دلالةٌ على اتِّساع المُلك

القلائد جمع القِلادة: وهي ما جُعِل في العنق، يكون للإنسان، والفَرَس، والكَلْب، والبدنة التي تُهدَى ونحوها[1]. ويقال: قَّلدتُ المرأةَ قِلادةً: جعلتُها في عنقِها[2].

والأساور جمع السّوار: وهو حَلْيٌ شكله أُسطوانيٌّ فارغ الوسط يلبسه النِّساء في معاصمهنَّ ولا يلبسه الرِّجال إلا الملوكَ[3].

ومعلومٌ أنَّ العادة جرَت على أنَّ المتحلّي بالقلادةِ يتقلَّد بقِلادةٍ واحدة، والمتحلّي بالسّوار يلبس أكثر من سوار، وكلَّما كثرت الأساور التي يلبسها، زادت الدَّلالة على التَّرف والنَّعيم؛ ولذا أوثِر لفظ (الأساور) دون (القلائد) ويضاف إلى هذا أنَّ في لفظ (أساور) دلالةً على اتِّساع المُلك؛ فقد كان في الزَّمَن القديم إذا ملَكَ مِلكٌ أقاليمَ عظيمة كثيرة لبس سوارًا.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قلد).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والفيروزآباديُّ، القاموس المحيط: (قلد).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

[الإنسان: 23 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تكريم أخرويّ، وتشريف دنيويّ؛ تسليةً لصاحب المقام العليّ

لمّا ذكر الحقُّ سبحانه أصناف الوعد والوعيد، وبيَّن أحوال الكفّار والمؤمنين في الآخرة، ذَكَرَ ما شرَّف به نَبيَّه محمَّدًا ﷺ وما به ينشرح صدره، ويثبِّته في طريق الدَّعوة إلى الله؛ بسبب ما نسبوه إليه من كهانةٍ وسحرٍ[1]، ولمّا كان مِن ضروب إعراضهم عن قبول دعوته ضربٌ فيه رغباتٌ منهم مثل أن يترك قرعهم بقوارع التَّنزيل مِن تأْفين رأيهم وتحقير دينهم وأصنامهم، وربما عرضوا عليه الصِّهْر معهم، أو بذل المال منهم؛ أعقب أمره بالصَّبر على ما هو من ضروب الإعراض في صلابة وشدَّة، بأنْ نهاه عن أن يطيعهم في الضَّرب الآخر مِن ضروب الإعراض الواقع في قالب اللِّين والرَّغبة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُكْرَةً﴾: (بكر) أَصْلٌ يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيْءِ وبَدْئِه، ومنه: البُكْرَةُ وهيَ الغَداةُ، والجَمْعُ: البُكَرُ. والتَّبْكيرُ والبُكورُ والاِبْتِكارُ المُضيُّ في ذلكَ الوقْتِ[3]. والإبكارُ: اسْمُ البُكْرة، كالإصباح. هَذا قَول

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 369، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 155.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 403، والطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 213، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكر).

أهل اللُّغَة. وعِنْد ابن سيده: أنّه مصدر أبْكَرَ[1]. وهو الدُّخول في ذَلِك الوقْت، ويُقال: باكَرْتُ الشَّيْء، إذا بكَّرْتَ لَهُ[2]. والبُكْرَة: أوّل النَّهار، واشْتُقَّ مِن لفظه لفظُ الفِعل، فقيل: بَكَرَ فلانٌ بُكورًا: إذا خرج بُكْرَةً، والبَكور: المُبالِغ في البُكرة. وتصوَّر منها معنى التَّعجيل لتقدُّمها على سائر أوقات النَّهار، فقيل لكلِّ مُتعجِّلٍ في أمرٍ: بكْر[3].

2) ﴿وَأَصِيلًا ﴾: أصْلُ الشيء: قاعدته التي لو توهّمت مرتفعة لارتفع بارتفاعه سائره، وقد تَأصَّلَ كذا وأصَّلَهُ، ومجد أصيل، وفلان لا أصلَ له ولا فصلَ[4]، وجاءوا بأصيلَتِهم أي بأجمعهم وبجذورهم، والأصيل: العَشيّ من العصر إلى المغرب، باعتبار أنه أول دخول زمن الليل[5] وأصلُه، ويقال لِلْعشية: أصيل وأصيلَة، فجمعُ الأصيل أُصُل وآصال، وجمعُ الأصيلة: أصائِل[6]، وقيل: ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ العَشيِّ[7].

3) ﴿طَوِيلًا﴾: أصل (طول) يدلُّ على فضل وامتداد في الشَّيء[8]. الطّولُ والقِصَرُ مِن الأسماء المتضايفة، والطّول: خِلاف العرض. وطال الشَّيء؛ أي: امتدَّ. ويُستَعمل في الأعيان والأعراض كالزَّمان وغيره[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطب الحقُّ ﷻ في هذا النَّصّ القرآنيِّ المبارك رسولَه الكريم ﷺ فيُبيِّن أنَّه قد نزَّل عليه القرآن مِن عنده تنزيلًا مفرَّقًا

نــزل الـقــرآن الكـريـم تثبيتًا لقلب النَّبيّ ﷺ في أداء الرِّسالة، وحُـجَّـةً لـه مع قوَّة الدَّلالة

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (بكر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بكر).
(4) الرّاغب، المفردات: (أصل).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أصل).
(6) الراغب، المفردات: (أصل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طول).
(9) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (طول).

منجَّمًا لحكمة هي: أنْ يذكِّر النّاس بما فيه مِن الوعد والوعيد، والثَّواب والعقاب، مستمرًّا ومداومًا على الصَّبر لقضاء ربِّه وحكمه القدريّ مهما لاقَى مِن مقاساة الشَّدائد في سبيل تبليغ الرِّسالة، ومستمرًّا ومداومًا كذلك على عدم اتِّباع مَنْ كان منغمسًا في الشَّهَواتِ أو مبالغًا في الكُفر والضَّلال مِن مشركي قومه، وأن يكون ﷺ ذاكرًا لربِّه سبحانه دائمًا في جميع الأوقات، في أوَّل النَّهار وآخره، وأن يحرص ﷺ كذلك على أنْ يأخذ وقتًا مِن اللَّيل ليخلو فيه مع ربِّه ﷻ، فيصلّي له ويتهجَّد زمنًا طويلًا؛ رجاء التَّثبيت والنَّصر على الأعداء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف:

القـرآن وحـي حـقّ، وتنـزيـل صِدق

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جاءت الآية على صيغة الاستئناف الابتدائيِّ، والأرجح أنَّه استئناف للانتقال مِن الاستدلال على ثبوت البَعث بالحُجة والتَّرهيب والوعيد للكافرين به والتَّرغيب والوعد للمؤمنين به بمرهِّبات ومرغِّبات هي مِن الأحوال التي تكون بعد البعث، فلمّا استوفى ذلك ثُني عِنانُ الكلام إلى تثبيت الرَّسول ﷺ والرَّبط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغمّ على تصلُّب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه ممّا شأنُه أن يوهن العزيمة البشريَّة، فذكَّره الله بأنَّه نزَّل عليه الكتاب لئلّا يعبأ بتكذيبهم.

وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة قضاءٌ لحقِّ الاعتناء بأحوال النّاس في الدُّنيا فابتُدئ بحال أشرف النّاس وهو الرَّسول ﷺ ثمَّ بحال الذين دعاهم الرَّسول ﷺ بيْن مَن يحبّون العاجلة، ومَن اتَّخذ إلى ربِّه سبيلًا فأدخلهم في رحمته"[2].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 901 - 903.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 402.

نكتة توالي المؤكّدات في الآية:

يقطع التّوكيد الشُّكوك، ويشير إلى حكمة ملِك الملوك

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ مؤكَّدًا بجملة من المؤكِّدات. منها: (إنَّ)، و﴿نَحۡنُ﴾، و﴿تَنزِيلٗا﴾؛ للرَّدِّ على أولئك الجاحدين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند اللّه تعالى، وقالوا في شأنه: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31][1].

وجاء التَّوكيد بـ(إنَّ) لمضمون الخبر ومدلول المخبَر عنه اهتمامًا به، وأُكّد الفعل بالمصدر[2]، "وتكرير الضَّمير بعد إيقاعه اسمًا لـ(إنَّ) تأكيدٌ على تأكيدٍ لمعنى اختصاص اللّه تعالى بالتَّنزيل"[3]؛ فإنَّ قوله جلَّ ثناؤه: ﴿نَحۡنُ نَزَّلۡنَا﴾ يفيد الاختصاص، وتكريرُ الضَّمير مع (إنَّ) تأكيدٌ لهذا الاختصاص سواءٌ كان ﴿نَحۡنُ﴾ بعدَه تأكيدًا، أو مبتدأً، أو فصلًا؛ وذلك ليتمكّن في الذّهن أنَّه تعالى هو المنزّل لا غيره"[4]؛ لأنَّ "تأكيد الضَّمير المتَّصل بضميرٍ منفصَلٍ في قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ هو تقريرٌ لمدلولِ الضَّمير تأكيدًا لفظيًّا للتَّنبيه على عظَمَة ذلك الضَّمير، ليفضي به إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرَّر أنَّه فِعلُ مَن ذانِكَ الضَّميران له؛ لأنَّه لا يفعل إلّا فعلًا منوطًا بحكمة وأقصى الصَّواب. وهذا مِن الكناية الرَّمزيَّة. وبعدُ فالخبر بمجموعه مستعمَل في لازمِ معناه وهو التَّثبيت والتَّأييد، فمجموعُه كناية رمزيَّة"[5].

الغرض من التَّعبير بالمسند الفعليّ، ودلالة مجيء فعله ماضيًا:

دلَّ التَّقديم على التَّوكيد والحصر، ردًّا على مَن رمَى القرآن بالشِّعر والسِّحر

تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مفيد للحصر ردًّا على مَن قال إنَّه سحر أو

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 226.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 369.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 674، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 291.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 402.

كهانة أو شعر[1]، والمراد منه تمكين المعنى وتثبيته وقد حصل ذلك من تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل (نزَّل) قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه (الضَّمير المتَّصل بالنّاسخ في ﴿إِنَّا﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به (الضَّمير المتَّصل في ﴿نَزَّلْنَا﴾)، العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[2]، وقد أوثر فيه استعمال هذا الأسلوب إشعارًا بأنَّ الحكمة والصَّواب منحصر في هذا النَّوع مِن التَّنزيل، فكأنَّه كرَّر الإسناد إلى نفسه وجعله مختصًّا به، والحكيم لا يفعل إلّا ما هو حكمته[3].

دلالة التَّعبير بالماضي مسندًا لنون العظَمَة ﴿نَزَّلْنَا﴾:

الماضي مفيد للتَّحقيق، وهو بتوكيد المعنى حقيق

التَّعبير بالماضي يفيد التحقق، وذلك لأنَّه يدلُّ على شيء قد وقع وتحقَّق وقوعُه، والتَّعبير بضمير التَّعظيم يدلُّ على تعظيم هذا الفعل المتَّصل به ضمير التَّعظيم هذا، وهذا ظاهر؛ لأنَّ تنزيل القرآن الذي هو صفة الحقّ، وبه هداية الخَلْق، فهو مفتاح كلِّ خير، ومغلاق كلِّ شرّ.

سر التَّعبير بالتَّنزيل دون الإنزال:

عُبِّر بالتَّنزيل للإشارة إلى تنجيم نزول الذِّكر الجليل

في قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ إشارة إلى أنَّ هذا القرآن ينزل على النَّبيِّ ﷺ آياتٍ آياتٍ لا جملةً واحدة، كما يفيد ذلك لفظُ الفعل (نزَّل) الذي يفيد وقوع الفعل حالًا بعد حال، لا مرَّة واحدة[4] فالفرق بين الإنزال والتَّنزيل أنَّ التَّنزيل مختَصٌّ بالنُّزول على سبيل التَّدريج، أمّا الإنزال فمختَصٌّ بما يكون النُّزول فيه دفعةً واحدة[5]. وجاء إيثارُ فعل ﴿نَزَّلْنَا﴾ الدّالِّ على تنزيله منجَّمًا آياتٍ

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 495.
(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(3) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 161.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1382.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 254، وابن عادل، اللُّباب: 3/ 280.

وسورًا تنزيلًا مفرَّقًا إدماجٌ للإيماء إلى أنَّ ذلك كان مِن حكمة اللّه تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر بـ(إنَّ)، وتأكيد الضَّمير المتَّصل بالضَّمير المنفصِل، فاجتمع فيه تأكيد على تأكيد، وذلك يفيد مفادَ القصر؛ إذ ليس الحصر والتَّخصيص إلّا تأكيدًا على تأكيد كما قال السَّكّاكيُّ، فالمعنى: ما نزَّل عليك القرآن إلّا أنا. وفيه تعريض بالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، فجعلوا تنزيله مفرَّقًا شبهةً في أنَّه ليس مِن عند اللّه. والمعنى: ما أنزله منجَّمًا إلّا أنا، واقتضت حكمتي أن أنزله عليك منجَّمًا[1]؛ "ليكون أسهل لحفظه وتفهُّمه ودراسته، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجدُّ في الكون، فتكون تثبيتًا لإيمان المؤمنين، وزيادة في تقوى المتَّقين"[2].

معنى (على) ودلالتها:

القرآن الكريم تنزيل العليِّ الحكيم

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[3]. وهذا هو المراد هنا في قوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ﴾؛ لأنَّ تعدية فعل التَّنزيل "بـ(على)؛ لأنَّ التَّنزيل مِن فوق"[4]، فهو كلام العليِّ الحكيم. وفي هذا دليل على عُلوِّ اللّه تعالى، واستوائه على عرشه، كما هو متقرِّر في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة.

الغرض من تقديم شبه الجملة على المفعول به، ودلالة الخطاب فيه:

في تقديم ذِكره ﷺ تشريف لمكانته، وتخصيص له بآيته

في الآية القرآنية: ﴿نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خطاب لسيِّد الخلْق وحبيب الحقّ ﷺ[5] وفيها تقديمٌ لضميره؛ تشريفًا لمكانته،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 402 - 403.
(2) المراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 174.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 495.
(5) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 226، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 363.

وتخصيصًا له بآيته؛ إذ المعنى: إنّا نحن - أي: وحدنا - الذين نزَّلنا عليك - وحدَك أيُّها الرَّسول الكريم - هذا القرآنَ تنزيلًا محكمًا، وفصَّلناه تفصيلًا متقنًا، بأنْ أنزلناه على قلبك مفرَّقًا على حسب مشيئتنا وحكمتنا؛ ابتلاء منّا واختبارًا[1] ففي تقديم شبه الجملة تخصيص، فلم ينزل القرآن الكريم على أحد غير النَّبيّ ﷺ وفيه ردٌّ على مَن ادَّعوا النُّبوَّة وزعموا أنَّهم يوحَى إليهم، وردٌّ على الذين افتروا على اللّه سبحانه الكذب بأنْ قالوا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: 9]، وافتروا على النَّبيّ ﷺ الكذب بأن قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النَّحل: 103]. كما أنَّ في هذا التَّقديم تشريفًا للمقدَّم، ﷺ.

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن

الأقرب أن تكون اللام للعهد، إمّا الذِّهنيُّ فيراد به ما نزل قبل نزول آيات هذه السّورة الكريمة، وإمّا الحضوريُّ، فيراد به هذه الآيات التي نزلت آنذاك، والمحصِّلة أنَّ كلَّ ما نزل وما سينزل إنَّما هو مِن تنزيل اللّه تعالى وحده.

دلالة التَّعبير بالمفعول المطلَق، ونكتة تنكيره ﴿تَنزِيلًا﴾:

تفريقُ تقرير شأنِه أتقنُ ما يكون في إحكامِ أمرِه

أوثر التَّعبير بالمصدر في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾؛ لتأكيد التَّنزيل؛ دفعًا لتوهُّم المجاز، أو للتَّفخيم بواسطة التَّنكير[2]؛ أي: تَنْزِيلًا عظيما لا يقدَّر قدره، وفي هذا ردٌّ لعظيم إنكار الكافرين وشدَّة إعراضهم[3]، فالمراد: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: مفرَّقًا منجَّمًا لحكمةٍ اقتضتْ ذلك، فما افترَيْتَه ولا جئتَ به مِن عندِك، ولا مِن تلقاءِ نفسِك، كما يدَّعيه المشركون[4].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115.

(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 495.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 152، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 378.

(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 148، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272.

معنى (الفاء) ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ للإفصاح عن شرط مقدَّر؛ "أي: ما دام الأمر كما ذكرنا لك أيُّها الرَّسول الكريم فاصبر لحكم ربِّك، واخضع لقضائه ومشيئته، فهو سبحانه الكفيل بنصرك عليهم"[1]، "وإذا كان ما ذُكِر مِن تنزيل القرآن واقعًا، وحاصلًا مِن عندنا لا مِن عند غيرنا؛ فاصبر"[2]، "اصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنَّه سَيُدَبِّرك بحسن تدبيره"[3] ويجوز أن تكون "الفاء في ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ للسَّببيَّة"[4]؛ "أي: وبسبب أنَّا أنزلنا عليك القرآن تنزيلًا - اصبر لحكم ربِّك؛ أي: اصبر على امتداد نزول القرآن عليك، وما دام القرآن لم يختم فإنَّ مسيرتك لم تنته، وزادك في هذه المسيرة، هو الصَّبر.. فاصبر"[5].

هديناك إلى هذه الأسرار، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار

فائدة ذكر الصَّبر دون الشُّكر ونحوه بعد ذِكر تنزيل القرآن:

قد يرد على الإنسان سؤال في نفسه؛ حيث يقول: من المُتوقَّع أنَّه لمّا قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ أن يقول: فاشكر نعمة اللّه؛ لأنَّ تنزيل القرآن عليه ﷺ نعمةٌ، فلماذا قال اللّه ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾؟ ذلك لأنَّ تنزيل القرآن عليه ﷺ عهدٌ وميثاقٌ أن يُبلِّغه إلى الأُمَّة، وتبليغُه إلى الأُمَّة يحتاج إلى صبر ومعاناة؛ لأنَّه سوف يُكذَّب، وسوف يُؤذَى على هذا الوحي، فيحتاج إلى صبر؛ ولهذا نقول لكلِّ مَن مَنَّ اللّه عليه بعلم: اصبر على ما أعطاك اللّه مِن العلم، ابذُل هذا العِلم تعليمًا، ودعوةً، وخُلُقًا، وأدبًا، وعبادةً؛ لأنَّ اللّه لم يُحمِّلك هذا العِلمَ إلَّا ليسألك عنه يوم القيامة[6].

الوحي قول جليل ثقيل، يحتاج إلى صبر للقيام بأعباء التَّنزيل

(1) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 227.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 364.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 293.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 495، وثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 161.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1382.
(6) العثيمين، تفسير جزء قد سمع وتبارك: 14/ 358.

الغرض مِن الأمر وتعيين المخاطَب به:

الأمر للاستمرار والـدَّوام، فكلُّ ذلـك كـان مِـن فعله ﷺ

ذكر البلاغيّون أنَّ الأمر إذا وُجِّه إلى قائم به، وكذا النَّهي إذا وُجِّه إلى كافٍّ عنه فإنَّهما يراد بهما في هذه الحالة حثُّ المخاطَب بهما على الاستمرار والدَّوام على ما هو عليه مِن فعل أو ترك؛ حتَّى يزداد تمسُّكًا بما هو عليه مِن الحقِّ واليقين؛ تثبيتًا له، وتسكينًا لقلبه(1). وعلى هذا يتوجَّه الأمر في هذه الآيات ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾، و﴿وَٱذۡكُرِ﴾، و﴿وَٱسۡجُدۡ﴾، و﴿وَسَبِّحۡهُ﴾؛ فإنَّ رسولنا العظيم ﷺ كان صابرًا لحكم ربِّه سبحانه، ذاكرًا له ﷻ في كلِّ أحواله، قائمًا باللَّيل سجّادًا، فالأمر هنا مفيد للدَّوام؛ فقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ يعني: استقم على أمر اللّه تعالى ونهيه، مداومًا عليه(2)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرِ﴾؛ يعني: وداوم على ذِكره، أو دُمْ على الصَّلاة(3)؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يترك ذِكر ربِّه تعالى حتَّى يؤمَر به(4).

نكتة تعدية فعل الصَّبر باللّام:

عُدِّي فعل الصَّبر باللّام، لتضمُّنه معنى الخضوع والاستسلام

عُدِّي فعل ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ باللّام لتضمُّن الصَّبر معنى الخضوع والطّاعة للأمر الشّاقِّ، وقد يُعَدَّى بحرف (على) كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزّمّل: 10]. ومناسبة مقام الكلام ترجِّح إحدى التَّعديتَيْن(5)، وهي هنا الصَّبر على أذى المشركين، والكفُّ عن قتالهم حتَّى يأذن اللّه - تعالى به - مع الاستمرار والدَّوام على كافَّة التَّكاليف الشَّرعيَّة مِن الفروض، والتَّمسُّك بالنَّوافل.

---

(1) السَّكّاكيُّ، مفتاح العلوم، ص: 312، والإسفراييني، الأطول: 1/ 601، والعُمريُّ، درر الفوائد، ص: 268.
(2) السَّمرقنديُّ، بحر العلوم: 3/ 529.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292، والقونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 497.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 403.

معنى (اللّام) ودلالتها:

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1].

لكلِّ أجلٍ كتاب، وللصَّبر أعظم الثَّواب

وهو في قوله تعالى: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دالٌّ على الحينيَّة؛ "أي بمعنى: حين؛ أي: إلى حين حكم ربك"[2]. وفيه معنى الاختصاص أيضًا، كأنَّه قال: اصبر صبرًا خاصًّا بانتظارك مجيء حكم ربِّك.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وبيان سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة:

في الإضافة تشريف وتعظيم، وفي الرُّبوبيَّة أثر لُطف البَرِّ الرَّحيم

في قوله تعالى: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إضافتان: **الأولى**: إضافة الحكم إلى الاسم الأحسن، **والثّانية**: إضافة الاسم الأحسن إلى ضمير الخطاب العائد إلى سيِّد الخلْق ﷺ ولكلٍّ دلالتها.

فأمّا إضافة الحُكم إلى الاسم الأحسن ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فلتعظيم الحكم مِن حيث كونه حكم الحكيم الخبير، العليم القدير، وأمّا إضافة الاسم الأحسن إلى ضمير الخطاب المعنيِّ به النَّبيُّ ﷺ فلتشريفه النَّبيِّ ﷺ ولتسكين قلبه بأنَّ هذا الحُكم هو عين الحكمة والرَّحمة.

من أرسلكَ لنْ يكلكَ

أمّا إيثار التَّعبير بالرُّبوبيَّة فلأنَّ مِن لوازمها: الخلْق، والرِّزق، والملك، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[3]. وكلُّ هذا مراد هنا، فقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾؛ "أي: المحسن إليك بتخصيصه لك بهذه النِّعمة"[4]، الذي ما نَزَّل عليك القرآن لتشقى، بل رحمة وذكرى، ومنَّة كبرى، فأنتَ يا أكرم الخلق عند ربِّك في عين الرِّعاية، وحصن العناية، ومعارج الهداية، فالذي أحسن إليك بالخلْق والرِّزق، ومنَّ عليك فأرسلك بالحقّ، لن يسلمك لأعدائك.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1382.
(3) أحمد الزامليُّ، الآيات القرآنيَّة الواردة في الرَّدِّ على البدع المتقابلة - دراسة عقديَّة: 1/ 194.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 154.

دلالة عطف النَّهي على الأمر ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾:

في عطف النَّهي على الأمر تأكيدٌ لطلب المداومة على الصَّبر

جاءت الآية: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ معطوفة على جملة ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[1]، وهذا عطف للنَّهي على الأمر لما بينهما مِن بديع المناسبة، ذلك أنَّه "لمّا أمره سبحانه بالصَّبر، وكان الأمر به مفهومًا وجوده للمخالف، وكان المخالفون له ﷺ هم القِسمَ المضادَّ للشّاكر وهم الكفرة، وكان ما يدّعونه إليه تارةً مطلقَ إثم، وأخرى كفرًا، وثالثة غيرَ ذلك - ذَكَر النَّتيجة ناهيًا عن القِسمين الأوَّلين ليعلم أنَّ المسكوت عنه لا نهي فيه فقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾[2].

وفي هذا النَّهي تأكيد للأمر بالصَّبر؛ لأنَّ النَّهي عنه يشمل كلَّ ما يرفع موجبات الصَّبر المراد هنا. والمقصود مِن هذا النَّهي تأييسهم مِن استجابته ﷺ لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ما عرضوه عليه سيكون صارفًا له عمّا هو قائمٌ به مِن الدَّعوة إذ هم بُعَداء عن إدراك ماهيَّة الرِّسالة ونزاهة الرَّسول ﷺ[3].

فإنْ قيل: "قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ دخل فيه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ فكان ذكره بعد هذا تكريرًا؟ فالجواب: الأوَّلُ أمرٌ بالمأمورات، والثّاني نهيٌ عن المنهيّات، ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتَّصريح، فيكون التَّصريح به مفيدًا"[4].

معنى (مِن) ودلالتها في ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[5]، والمراد بقوله تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ كفّار مكَّة[6]، فكأنَّه جعلهم ابتداء

(1) محمود صافي، الجدول: 15/ 193.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 154.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 403.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 758.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 298.

النَّهي عن الطّاعة، فيشمل ذلك جميع الموصوفين بالإثم والكفر حالة دعوتهم إليهما.

الغرض من تقديم شبه الجملة على المفعول به في ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا﴾:

حسْن تقديم ضميرهم للتَّحذير من شرورهم

تقدَّم أنَّ قوله تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾: "يعني مِن مشركي مكَّة"(1)، وتقديم الضَّمير لا يراد به التَّخصيص بحيث يقال إنَّ المنهيَّ عن طاعتهم هم الآثمون الكافرون مِن أهل مكَّة فقط، بل إنَّ كلَّ آثم وكفور داخل في النَّهي إذا دعا إلى إثمه وكفرانه، فبقي أن يكون التَّقديم لأجل الاهتمام، وموافقة الواقع، وبيان أنَّ المذكورين بالضَّمير هم الذين كانوا يدعون النَّبيَّ ﷺ إلى ترك دعوته، فعرضوا عليه المال والنِّساء والسُّلطان، فأبَى - بأبي هو وأُمّي ونفسي - إلّا أن يؤدّي ما بُعِث به حتَّى استيأسوا منه ﷺ. فمِن هنا حسُن تقديم ضميرهم للتَّحذير مِن فتنتهم وشرورهم، وتوكيد عدم طاعتهم في إثمهم وكُفورهم.

الغرض مِن تنكير ﴿ءَاثِمًا﴾ وسرُّ مجيئه على صيغة اسم الفاعل:

مأخذ الاشتقاق علّة الحُكم، وهو هنا الفجور والإثم

قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا﴾ وقع نكرة في سياق النَّهي، فهو مفيدٌ للعموم؛ أي: لا تطع منهم أيَّ آثم كان، ولا تطع أحدًا دعاك إلى إثم، أو دعاك إلى كفر، أو إليهما جميعًا فإنَّه داعٍ إلى كلِّ واحد منهما(2) وإنَّما جاء مشتقًّا على زنة اسم الفاعل لأنَّ الحُكم على مشتقٍّ يقتضي أنَّ مأخذ الاشتقاق علَّةٌ؛ أي: ولا تطع منهم ذا إثم(3).

"والمراد بالآثِم والكَفور جنسُهما، وتعليقُ النَّهي بذلك مشعِرٌ بعِلّيَّة الوصفين له، فلا بدَّ أن يكون النَّهي عن الإطاعة في الإثم والكفر لا فيما ليس بإثم ولا كُفر.

والمراد: ولا تطع مرتكب الإثم الدّاعي لكَ إليه، أو مرتكب الكُفر

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 58، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 381.
(2) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 161.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 149، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292.

الدّاعي إليه؛ أي: لا تتّبع أحدًا مِن الآثم إذا دعاك إلى الإثم، ومِن الكفور إذا دعاك إلى الكُفر؛ فإنَّه إذا قيل: لا تطع الظّالمَ فُهِمَ منه: لا تتَّبِعْه في الظُّلم إذا دعاك إليه"[1].

سرُّ إيثار العدول:

طاعة الآثم والكفور تفضي إلى ارتكاب الإثم والفجور

كان مقتضى الظّاهر أن يقال: ولا تطعهم، أو ولا تطع منهم أحدًا، فعدل عنه إلى ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ للإشارة بالوصفين إلى أنَّ طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثمٍ أو كُفر؛ لأنَّهم في ذلك يأمرونه وينهَوْنه غالبًا فهم لا يأمرون إلّا بما يلائم صفاتهم، فالمراد بالآثِم والكَفور: الصِّنفان مِن الموصوفين، وتعليق الطّاعة المنهيَّ عنها بهذين النَّوعين مُشعِرٌ بأنَّ الوصفيْن علَّة في النَّهي"[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

(أو) للدَّلالة على أنَّهما سيّان في استحقاق العصيان

لكلمة ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ زيادةُ معنى لا توجد في الواو، وهو المنع مِن طاعة كلِّ واحد منهما على الانفراد[3]، فهي ههنا أوكد مِن الواو؛ لأنَّ الواو إذا قُلتَ: لا تطع زيدًا وعَمرًا فأطاع أحدَهما كان غيرَ عاصٍ؛ لأنَّه أمَرَه ألّا يطيع الاثنيْن. وهو المناسب هنا لأنَّ المقام للمبالغة في النَّهي عن طاعتهما مجتمعَيْن ومنفردَيْن[4] فمعنى الآية نهيٌ عن طاعة أحد هذيْن الموصوفَيْن، ويُعلَم أنَّ طاعة كليْهما منهيٌّ عنها بدلالة الفحوى؛ لأنَّه إذا أطاعهما معًا فقد تحقَّق منه طاعة أحدهما وزيادة[5]، لأنَّ متى كانت إطاعة كل واحد منهما قبيحة، فالجمع بين الطّاعتين أقبح[6].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 404.
(3) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 122.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 291.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 405.
(6) الإيجي، جامع البيان: 4/ 423.

سرُّ إيثار المغايرة في التَّعبير بين اسم الفاعل، وصيغة المبالَغة:

أُشير بالمشتقَّيْن إلى شـرِّ العباد زعـمـاء الـكُـفـر والعناد

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ اشتُقَّ مِن الإثم اسم فاعل هو ﴿ءَاثِمًا﴾، واشتُقَّ مِن الكُفر صيغة مبالغة هي ﴿كَفُورٗا﴾، وفي التَّعبير بالمشتقِّ إشارة إلى أنَّ الوصف فيه هو علَّة الحُكم[1]، فالمعنى: لا تطع كلَّ واحد مِن مرتكِبٍ لإثم وغالٍ في كُفر، فنهاه اللّٰه سبحانه عن ذلك، وفي ذكر هذين الوصفين إشارة أيضًا إلى زعيميْن مِن زُعَماء الكُفر والعناد، وهما عُتبة بنُ ربيعة، والوليدُ بن المغيرة؛ لأنَّ عُتبةَ اشتهر بارتكاب المآثِم والفُسوق، والوليدَ اشتهر بشدَّة الشَّكيمة في الكُفر والعُتوّ، وقد كانا كافرَيْن، فأُشير إلى كلِّ واحد منهما بما هو عَلَم فيه بيْن بقيَّة المشركين: مِن كثرةِ المآثِم لأوَّلهما، والمبالغةِ في الكُفر لثانيهما؛ فلذلك صيغتْ له صيغةُ المبالغة ﴿كَفُورٗا﴾"[2]، "ثمَّ صار المراد كلَّ آثم وكافر. لا تطع أيًّا كان فيما دعاك إليه مِن إثم أو كُفر؛ لأنَّ العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب"[3].

نكتة الجمع بين الإثم والكفر في ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾:

جُـمِـع بينهما لـتـشـويـه حـال المتَّصف بهما

"الإثمُ هو الرُّكون للمعاصي، والكُفور: الجُحود للنِّعمة"[4]، فالآثِم هو المُقدِم على المعاصي، أيَّ معصية كانت، والكَفور هو الجاحد للنِّعمة، فكلُّ كَفورٍ آثِمٌ، لكن ليس كلُّ آثم كَفورًا. وكلُّ مَن عَبَدَ غيرَ اللّٰه فقد اجتمع في حقِّه هذان الوصفان؛ لأنَّه لمّا عَبَدَ غيرَه فقد عصاه وجَحَدَ إنعامَه[5]. "فالكَفور - وإنْ كان آثمًا - فإنَّ فيه مبالغةً في الكُفر. ولمّا كان وصف الكَفور مباينًا للموصوف لمجرَّد الإثم، صلح التَّغايُر فحسُن العطف"[6].

---

(1) الطِّيبيُّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 16/ 210.

(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 426، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 404.

(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 303.

(4) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 156.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 758.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 369.

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَٱذۡكُرِ﴾:

لا سبيل إلى الصَّبر إلّا بتعويض القلب بما هو أحبُّ إليه مِن فوات ما يصبر عليه

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾(1) وممّا حسَّن الوصل بين الجملتين كونُهما فعليَّتَيْن طلبيَّتَيْن، ومِن بديع المناسبة بينهما أنَّه "لمّا كان الصَّبر يساعده القيامُ بعبادة اللّه، والإكثارُ مِن ذكره - أمَرَه اللّه بذلك فقال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، ولمّا كان لا سبيل إلى الصَّبر إلّا بتعويض القلب بشيء هو أحبُّ إليه مِن فوات ما يصبر عليه؛ أمَرَه بأنْ يذكر ربَّه سبحانه بكرة وأصيلًا؛ فإنَّ ذِكرَه أعظمُ العَوْن على تحمُّل مشاقِّ الصَّبر، وأن يصبر لربِّه باللَّيل فيكون قيامُه باللَّيل عونًا على ما هو بصدده بالنَّهار، ومادَّة لقوَّته ظاهرًا وباطنًا، ولنعيمه عاجلًا وآجلًا"(2).

فائدة ذِكر الاسم في ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

ذِكر الاسم إشارة إلى معرفة الأسماء

"ذِكرُ اسم الرَّبِّ يشمل تبليغ الدَّعوة، ويشمل عبادة اللّه في الصَّلوات المفروضة والنَّوافل، ويشمل الموعظة بتخويف عقابه ورجاء ثوابه"(3)، "فذِكرُ اسمِه لازمٌ لذكره"(4) فتارةً يقال له: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ وهو إشارةٌ إلى معرفة الأسماء، وتارةً يقال له:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: 205] وهو إشارة إلى مقام الصِّفات"(5).

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ وإيثار التَّعبير بالرُّبوبيَّة:

الإضافة إلى العظيم تفيد التَّعظيم

في قوله تعالى: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ إضافتان: **الأولى:** إضافة الاسم إلى الرَّبِّ، **والثّانية:** إضافة الرَّبِّ إلى ضمير الخطاب العائد إلى أكرم الخلْق ﷺ ولكلٍّ منهما دلالتها.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1383، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 326، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 193.

(2) ابن تيميَّة، دقائق التَّفسير: 3/ 25، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 405.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 156.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760.

أمّا الأولى فلتعظيم الاسم؛ إذ إنَّه أُضيف إلى العظيم الأعظم ﷻ، فحقُّ هذا الاسم أنْ يُذكَر ولا يُنسَى. وأمّا الثّانية فلتشريف النَّبيّ ﷺ، فحقُّه أن يطاع ويُتَّبع، وأمّا ذِكر الرُّبوبيَّة فلِما فيه مِن معاني التَّربية والإحسان والإكرام، وهذا مناسب لهذا المقام.

سر تقييد الذِّكر بـ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾:

جمع التَّقييدُ الـفـرائـض والنَّوافل بألطف إشـارة، وأوجز عبارة

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾: "أي: صلِّ لربِّك أوَّلَ النَّهار وآخرَه"[1]، وهذا "كنايةٌ عن الدَّوام"[2]؛ إذ التَّقييد بالبُكرة والأصيل يدلُّ على أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ هو الصَّلواتُ الخمس، فالبُكرة هي صلاة الصُّبح، والأصيل صلاةُ الظُّهر والعصر، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يراد به صلاةُ المغرب والعِشاء، فتكون هذه الكلماتُ جامعةً للصَّلوات الخمس وما يتبعها مِن النَّوافل، والذِّكر، والتَّسبيح، والتَّهليل، والتَّكبير في هذه الأوقات، وقد عُبِّر عن ذلك بألطف إشارة، وأوجز عبارة[3] وقد أُريد بالأمر هنا الدَّوامُ؛ لأنَّه ﷺ كان آتيًا بنفس الذِّكر المأمور به[4]، فيكون المعنى: دُم على ذِكر ربِّك في جميع الأوقات. وإنَّما خُصَّ هذان الوقتان لشرفهما[5].

دلالة العطف في ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

اللَّيل وقتُ تفرُّغ مِن بثِّ الدَّعوة، وتـفـرُّغ لـبـثِّ الدَّعوة

في عطف اللَّيل على البُكرة والأصيل استغراق لأوقات النَّهار كلِّه، فقوله تعالى ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾؛ يعني: في أوَّل النَّهار وآخره، ففي أوَّله صلاة الصُّبح، وفي آخره صلاة الظُّهر والعصر، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ يعني: صلاة المغرب والعشاء الآخرة.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 150.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 759، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.
(4) البروسويُّ، روح البيان 10/ 278.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 203.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾؛ يعني: التَّطوُّع مِن اللَّيل"[1] كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ إشارةً إلى أنَّ اللَّيل وقتُ تفرُّغ مِن بثِّ الدَّعوة"[2].

معنى (مِن) ودلالتها، والغرض من تقديم مجرورها على الفعل والفاعل:

في التَّقديم دليل اهتمام بصلاة اللَّيل والنّاس نيام

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[3]، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ﴾ ابتدائيَّة بعضيَّة؛ أي: وبعضَ اللَّيل فصلِّ له[4]، وفي التَّبعيض معنى الابتداء، كأنَّه جعل هذا البعض ابتداءَ الصَّلاة، وتقديم شبه الجملة ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ للاعتناء والاهتمام بظرفها وتشريفه، وذلك لِما في صلاة اللَّيل مِن مَزيد الكُلفة والمشقَّة؛ لأنَّه زمان الاستراحة مِن الأعمال والفراغ، ولِما فيه مِن الخلوص لبعده عن الرِّياء[5]؛ "فاستحقَّتِ الاهتمام بشأنها، وقُدِّم وقتُها لذلك"[6].

معنى (الفاء) ودلالتها في ﴿فَٱسۡجُدۡ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ﴾ على معنى الشَّرطيَّة، فالتَّقدير مهما يكن مِن شيء فصَلِّ مِن اللَّيل، وهو يفيد أيضا بتأكيده الاعتناء التّامَّ"[7]، "ففيها وكادة أخرى لأمرها"[8].

معنى (اللّام) ودلالتها:

خُصَّ ربَّك المعبود بالتَّوحيد والسُّجود

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[9].

(1) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 172.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 406.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 76، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 223.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292.
(6) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 278.
(7) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292.
(8) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 278.
(9) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.

وهو المراد في الآية: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ أي: اسجد له خصوصًا، وخصَّه بالتَّوحيد والخضوع والصَّلاة والعبادة. وفيه تعريض بالمشركين الذين كانوا يسجدون لأصنام شتَّى لم تنزل عليهم كتابًا، ولم تأمرهم بشيء ولم تنههم عن شيء، أمّا الآمر بالسُّجود هنا فهو الذي نزَّل هذا القرآن تنزيلًا.

بلاغة المجاز المرسَل في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ﴾:

اللَّيل موضع الخضوع، والسُّجود محلُّ ذرف الدُّموع

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ "أي: أكثِر له مِن السُّجود، ولا يكون ذلك إلّا بالإكثار مِن الصَّلاة"[1]، "فالسُّجود مجازٌ عن الصَّلاة بذِكر الجزء وإرادة الكُلِّ"[2]. وإنَّما خصَّ السُّجود "تنبيهًا على أنَّه أفضل الصَّلاة، فهو إشارة إلى أنَّ اللَّيل موضِع الخضوع"[3].

دلالة العطف في ﴿وَسَبِّحۡهُ﴾:

المندوبات حصن المحافظة على المكتوبات

"أصلُ التَّسبيح: التَّنزيهُ. ويُطلَق على مُطلَق العبادة القوليَّة والفعليَّة"[4]، وقد أُريد به هنا: التَّطوُّع[5]، وفي التَّعبير عن التَّهجُّد بالتَّسبيح وتأخير ظرفه دلالة على أنَّه ليس في مرتبة ما قبله[6]، فالعطف قد أشار إلى ضرورة أنْ تُشفع الفرائض بالنَّوافل، وأنْ ينتقل العبد بين الواجبات والمستحبّات التي تعينه على أداء المكتوبات، فهي حصن المحافظة عليها.

سر تقييد الفعل بالظَّرف الموصوف، ودلالة التَّنكير:

مَن أنِسَ بربِّه أطال مناجاته، واستعذب مناداته

التنوين في ﴿لَيۡلًا﴾ للتَّبعيض، فيفيد أنَّ تهجُّده ﷺ يكون في بعضٍ مِن اللَّيل لا في كلِّ اللَّيل[7] وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾؛ أي:

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 903.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.
(5) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 28/ 259.
(6) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 278.
(7) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 292، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.

صَلِّ للّه أكثرَ ليلِكَ، واجعلْ نومَك في الأقلِّ منه[1]، وتهجَّد له طويلًا مِن اللَّيل: ثلثيْه أو نصفَه أو ثُلُثَه كما مرَّ في (المزَّمّل)[2].

غير أنَّ توصيف اللَّيل بالطّول ليس للاحتراز عن القصير، فإنَّ الأمر بالتَّهجُّد يتناوله أيضًا، فهو لتطويل زمان التَّسبيح[3]، فهنا أمران: أمر بالسجود للّه بعضًا مِن اللَّيل، وأمرٌ بالتَّسبيح له تسبيحًا طويلًا ممتدًّا ما وسع الجهد، وهذا على معنى أنَّ ﴿طَوِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف دلَّ عليه الفعل ﴿وَسَبِّحۡهُ﴾؛ أي: سبِّحْه تسبيحًا طويلًا في وقت اللَّيل. وهذا المعنى أوْلَى مِن إعراب ﴿طَوِيلًا﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿لَيۡلًا﴾؛ فإنَّ وصْفَ اللَّيل هنا بالطّول لا معنى له، فاللَّيل هو اللَّيل، طويلًا كان أم قصيرًا. ثمَّ إنَّ (مِن) التي تفيد التَّبعيض لا تجعل لوصف اللَّيل بالطّول معنى"[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البُكرة والغُدوُّ:

في البُكرةِ تَبكيرٌ ومُبادَرَة

الغدوّ: هو اسمٌ لزمَن الصَّباح وهو النِّصف الأوَّل مِن النَّهار[5]، والبُكرة: أوَّل النَّهار[6]، حيث يخرج أوَّل الضَّوء مِن عمق الظَّلام ثمَّ يسترسل مستمرًّا ومتزايدًا[7]؛ ولِتقدُّمها على سائر أوقات النَّهار استُعمِل منها كلُّ متعجِّل وإن لم يكن في ذلك الوقت، فقيل: بكَّر فلانٌ في حاجته، وابتكَر وباكر[8] وأوثِر لفظُ (البُكرة) دون (الغُدوّ) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾؛ لِما في (البُكرة)

---

(1) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 157.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 418.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 278.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1384.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 242.
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، المفردات: (بكر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بكر).
(8) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/ 169، وابن عادل، اللُّباب: 5/ 213.

مِن التَّبكير والمبادَرة، وممّا ورَدَ في تفسير الآية: "أي: صَلِّ لربِّك أوَّل النَّهار وآخره، ففي أوَّله صلاة الصُّبح وفي آخره صلاة الظُّهر والعصر"[1]؛ فمَن بادرَ إلى صلاةِ الصُّبح التي ينام عنها الغافلون المفرِّطون، بادرَ إلى الصَّلواتِ كلِّها بلا ريب.

الأصيل والعَشيُّ:

العَشيُّ أعَمُّ مِن الأصيل

لفظ (الأصيل) قد أوثِر في هذه الآية دون (العشيّ)؛ لأنَّ العشيَّ على كونِه من زوال الشَّمس إلى الصَّباح يشمل صلاةَ المغرب والعشاء وصلاةَ التَّطوُّع مِن اللَّيل، وقد أُشير إلى ذلك كلِّه في الآية التّالية، وهي قول اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ يعني: صلاة المغرب والعشاء الآخِرة[2]، ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾؛ يعني: التَّطوُّع من اللَّيل[3].

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 150.

(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 172، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 150.

(3) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 172، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 150.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨﴾

[الإنسان: 27 - 28]

۞ مُناسَبةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

كـفـروا بـربِّـهـم منكرين إعـادة الإحياء؛ فأقام عليهم الحجَّة بما أودع فيهم مِن أعضاء

لمّا خاطب ربُّ العزَّة سبحانه رسوله الكريم ﷺ بالتَّعظيم والأمر والنَّهي؛ عدل إلى شرح أحوال الكفّار والمتمرِّدين[1]، ولمّا كان الإخبارُ عنهم يَتضمَّنُ أنَّهم يُنكِرونَ وُقوع يوم القيامة، وكان الباعثُ لهم على إنكاره شُبهةَ استحالة إعادةِ الأجسادِ بعد بلاها وفنائِها؛ جيءَ بما هو دَليلٌ للإنكارِ عليهم، وإبطالٌ لِشُبهتِهم، ببَيانِ إمكانِ إعادةِ خَلْقِهم، فالذي خَلَقَهم أوَّل مرَّةٍ قادر على أنْ يُعيدَهم، فهو سبحانه بكلِّ خلقٍ عليم[2].

۞ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ثَقِيلٗا﴾: أصل (ثقل) يدلُّ على ضدِّ الخِفَّة[3]. الثِّقَل والخفَّة متقابلان، والثِّقْلُ: واحد الأَثْقالِ، مثل حِمْلٍ وأحمالٍ. ومنه قولهم: أعطه ثِقْلَهُ؛ أي: وزنَه[4]؛ فكل ما يترجَّح على ما يوزن به أو يقدَّر به يقال: هو ثَقيل، وأصله في الأجسام، ثمَّ يقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَه الغُرم والوِزر[5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾؛ أي: شديدًا، وهو يوم القيامة[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 53.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ثقل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 299.

2) ﴿أَسۡرَهُمۡۖ﴾: أصل (أسر) يدلُّ على الحبس، وهو الإمساك[1]. الأسر: الشَّدُّ بالقِدِّ. مِن قولهم: أَسَرَ القتب يأسِره أسرًا: شدَّه بالإسار، وهو القِدُّ، وسُمّي الأسير بذلك، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذ ومُقيَّد وإن لم يكن مشدودًا. وهو أسير ومأسور، وقيل في جمعه: أسارى وأُسارى وأسرَى. قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾؛ أي: خَلۡقَهم[2]؛ إشارةً إلى حكمته تعالى في تراكيب الإنسان المأمور بتأمُّلها وتدبُّرها[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

قلوب الكُفّار معلَّقة بالدُّنيا، ولو شاء الله خالقُهم لأهلكهم ولأتى بقومٍ خيرٍ منهم

في هذا البيان القُرآنيِّ ينكر المولى ﷻ على هؤلاء الكُفّار حُبَّهم الدُّنيا وإهمال الآخرة؛ حيث يُبيِّنُ للنَّبيِّ ﷺ أنَّ هؤلاء المشركين باللّه مِن كُفّارِ مكَّةَ وغيرهم يحبّون البقاء في الدُّنيا وتُعجِبُهم زينتُها، ويتركون خَلۡفَ ظهورهم يومًا شديدًا وهو يوم القيامة، فلا يؤمنون به ولا يعملون له، واللّه ﷻ هو الذي أحسَن خَلۡقَهم وأبدعه وأحكم ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب، ولو شاء سبحانه لأهلكهم ولأتى بقوم خيرٍ منهم هم أطوعُ للّه سبحانه، ولرسوله ﷺ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إشارات وتنبيهات للزَّجر عن مقارفة ما وقع فيه الغافلون مِن جنايات

وقعت ﴿إِنَّ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ موقعَ التَّعليل، فهي بمنزلة فاء السَّببيَّة، فكأنَّه قال: لا تُطِع هؤلاء الكافرين، واشتغل بالأهمِّ مِن العبادة؛ فإنَّ هؤلاء تركوا الآخرة للدُّنيا؛ فاترُك أنتَ الدُّنيا وأهلَها للآخرة؛ فالجملة استئناف بيانيٌّ قُصِد به التَّعليل لِما قبله مِن النَّهي والأمر، فكأنَّ سائلًا سأل: لماذا نُهي النَّبيُّ ﷺ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 299.
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (أسر).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 574 - 577، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 306 - 307.

عن عدم طاعتهم؟ فأجيب: لأنَّهم يحبّون الدُّنيا العاجلة بسبب شدَّة الشَّهوة والمحبَّة لِلَذّاتها الجسديَّة، ومُتَعها الدَّنيَّة البدنيَّة، ويَدَعون خلف ظهورهم يومًا شديدًا عسيرًا يَثقُل حَملُ ما فيه، ويضعف الإنسان عن تحمُّل مشاقِّه وصعابه، وهو يوم القيامة وما فيه مِن نشرٍ وحشرٍ وحساب. وفي هذا تقريع وتوبيخ للمشار إليهم وهم أهل مكَّة[1]. فالمراد أنَّ الذي حمل هؤلاء الكُفّار على الكُفر وترْكِ الالتفات والإعراض عمّا ينفعهم في الآخرة ليس هو الشُّبهة حتَّى يَنتفعوا بالدَّلائل المذكورة في أوَّل هذه السّورة، بل الشَّهوة والمحبَّة لهذه اللَّذّات العاجلة، والرّاحات البدنيَّة، ولو أطاعهم لتخلَّق بخلقهم، فنُهيت الأُمَّة عن ذلك في شخص نبيّها ﷺ[2].

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

اسم الإشارة تحقيرٌ لشأن الكافرين، وتنبيه إلى جُرمهم وضلالهم المبين

أوثر التَّعبير باسم الإشارة الذي هو للقريب للإشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطَب لكثرة الحديث عنهم، ولتمييزهم أكمل تمييز بحيث يجعلهم مِن البروز بين النّاس بمنزلة مَن يشار إليه، وللدَّلالة على قربهم مِن النَّبيِّ ﷺ فيكون فيه إلماح لما عاناه ﷺ مِن شدَّة أذاهم مِن جرّاء مخالطته إيّاهم داعيًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وفي التَّعبير بالإشارة أيضًا تحقير لشأن المشركين[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُحِبُّونَ﴾:

درجوا على حبِّ العاجلة الدَّنيَّة؛ فامتلأت به نفوسهم وصار لهم سجيَّة

أوثر التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ للدِّلالة على تجدُّد ذلك وتكرُّره منهم؛ أي أنَّ ذلك دأبُهم ودَيْدَنُهم: يحبّون الدُّنيا محبَّة تتجدَّد في كلِّ وقت، فلا يشاركون معها حُبَّ الآخرة[4]؛ فحُبُّهم للعاجلة ليس طارئًا ولا لحظة عابرة، بل هو أمرٌ دَرَجوا

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1718، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 53.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407.

عليه وألِفوه وتجذَّر في نفوسهم، فأصبحوا لا يعتقدون غير العاجلة، "يسعَوْن لها جهدَهم، وإنْ أهلكوا الحرث والنَّسل"[1].

حبُّ الدنيا منشأ البلادة والقصور، ومعدن الأمراض للقلوب التي في الصدور

الغرض من حذف الموصوف وذكر الصفة ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾:

جاء التَّعبير بـ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وهي صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ معلومٍ مِن المقام، تقديره: الحياة العاجلة، أو الدّار العاجلة، والمراد بها مُدَّة الحياة الدُّنيا، وفي إيثار ذِكر الدُّنيا بوصف العاجلة توطئةٌ للمقصود مِن الذَّمِّ؛ لأنَّ وصف العاجلة يؤذِن بأنَّهم آثروها لأنَّها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رَضوا بالدّون؛ لأنَّه عاجل وليس ذلك مِن شيم أهل التَّبصُّر"[2].

الانغماس في حبِّ الزّائل مع غياب الزّاجر باعثٌ على الضّياع والهلاك

دلالة العطف:

عطفت جملة: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ على جملة: ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾؛ لبيان جانب آخر من الجوانب التي لأجلها جاء التَّشنيع والتَّوبيخ في الآية الكريمة، وهو عدم أداء شكر المُتَع الدُّنيويَّة، والانشغال بها عن الأهوال الأخرويَّة، وهذا العطف "واقع موقع التَّكميل لمناط ذمِّهم وتحميقهم؛ لأنَّهم لو أحبّوا الدُّنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرّوم: 7]"[3].

مَن يُدمِ الانشغال عن الآخرة يصدأ قلبُه ويعمَ عن كلِّ حقيقة باهرة

دلالة التَّعبير بالمضارع (﴿وَيَذَرُونَ﴾):

أوثِر التَّعبير بصيغة المضارع في قوله سبحانه: ﴿وَيَذَرُونَ﴾ للدّلالة على "أنَّهم مستمرّون على ذلك، وأنَّ ذلك متجدِّد فيهم ومتكرِّر، لا يتخلَّفون عن ذلك التَّرك؛ لأنَّهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم؛ فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم؛ لأنَّهم لا يَخْلون من عملٍ له على تفاوتٍ بينهم في التَّقوى"[4].

(1) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407 - 408.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407 - 408.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 408.

سرُّ إيثار التَّعبير بالوراء عن الأمام:

أوثِر التَّعبير بـ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ دون قُدّامهم أو أمامهم في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ للإشارة إلى أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك اليوم العظيم، بل أعرضوا عنه، فكأنَّهم جعلوه وراء ظهورهم.

نبذوا التَّذكير بالفناء؛ فقضي عليهم بالتَّعاسة والشَّقاء

الغرض مِن تقديم الظَّرف ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾:

قُدِّم الظَّرف ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ على قوله: ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ اهتمامًا بالمقدَّم، وتشويقًا للمؤخَّر ليتمكَّن مِن النَّفس كلَّ التَّمكُّن، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ مُشعِر بالإعراض عن واجب مفروض ممّا يوجِب ذمَّ المُعرِض عنه، فإذا عُلِم أنَّ هذا المتروك ظِهريًّا هو يومٌ ثقيل لا تجوز الغفلة عنه بَلْهَ الإعراض - زاد استشناع الجُرم واستفظاع الإثم. كما أنَّ في هذا التَّقديم رعاية على الفاصلة، فاجتمع جمال النَّظم مع جلال المعنى.

تقديم للفعل المذموم؛ تقريعًا لاستهانة بالأجل المحتوم

الغرض مِن تنكير ﴿يَوۡمٗا﴾:

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٗا﴾ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم؛ حيث إنَّه يومٌ تقع في أهوالٌ جِسامٌ عِظامٌ لا تقع في غيره، فكان حريًّا بأن يعظَّم كما صُرِّح به في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطفّفين: 4 - 6]. وهذا التَّعظيم يُعَظِّم بدوره جُرم مَن جعل هذا اليوم وراء ظهره، فلم يحفل به، ولم يعبأ بما فيه.

يوم القيامة يوم عظيم، وكلُّ خطب فيه جسيم

دلالة وصف ﴿يَوۡمٗا﴾ بـ﴿ثَقِيلٗا﴾:

جاء وصف يوم القيامة بالتَّثقيل في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ مبالغة في تعظيمه، وتعظيم ما يقع فيه مِن أهوال وأحوال، ويجوز حمل هذا الوصف "على جهة النَّسب؛ أي: ذا ثِقل، مِن حيث الثِّقل فيه على الكُفّار، فهو كقولهم (ليلٌ نائمٌ)"[1]؛ أي: نائمٌ

يوم القيامة مثقلٌ بالمتاعب لا يطيق فيه الكفّار حمل المصائب

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 415.

صاحبُه، وهذا مجاز بالإسناد، وإنَّما كان الثِّقل فيه على الكافرين "لِما يحملونه فيه مِن المصائب بسبب أنَّهم لا يُعِدّون له عُدَّته"(1)، وهو نظير قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ [المدَّثِّر: 9 - 10]. ويجوز حملُه على الاستعارة التَّصريحيَّة، وذلك بتشبيه شدَّة ذلك اليوم وهولِه بثقلِ شيء قادح باهظ لحامله، فاستُعير الثِّقل للدَّلالة على ذلك(2).

بلاغة الاحتباك:

الإيجاز ثوبُ الإعجاز

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ احتباك؛ حيث ذكر الحُبَّ والعاجلة أوَّلًا دلالة على ضدِّهما ثانيًا، والتَّرك والثِّقل ثانيًا دلالةً على ضدِّهما أوَّلًا، وسرُّ ذلك أنَّ ما ذكره أدلُّ على سخافة العقل بعدم التَّأمُّل للعواقب وتقدير الاحتباك: ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ ويُبغِضون الآخرة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ ويستمسكون بأيّام الدُّنيا التي زينتها الشَّهوات والملذّات(3).

دلالة الاستئناف في ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾:

استئناف لزيادة التَّشنيع عليهم، وبيان قبح فعالهم وعِظَم جرائمهم

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ استئناف مسوقٌ "للنَّعي عليهم تركهم للعبادة وغفلتهم عن طاعة بارئهم وموجدهم مِن العَدَم"(4) فلمّا كان الإخبار عنهم بأنَّهم ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ يتضمَّن أنَّهم ينكرون وقوع ذلك اليوم، وكان الباعث لهم على إنكاره شبهة استحالة إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها، وكان الكلام السّابق مسوقًا مساق الذَّمِّ لهم والإنكار عليهم - جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم، يعيده

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 508.

الذي خَلَقَهم أوَّل مرَّة كما قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: 51]، وغير ذلك مِن الآيات الحائمة حول هذا المعنى[1].

الغرض من تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ:

عظمة مطلقة في الخلق وإبداع، ودلائل واضحة تقرع القلوب والأسماع

أوثر تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص؛ أي: نحن - لا غيرنا - خلقناهم مِن طين بدءًا مِن آدم عليه السلام وفي أصلاب آبائهم وأرحام أمَّهاتهم، وأعطيناهم القوَى والقُدَر وشددنا وربطنا مفاصلهم وأوصالهم بعضهم ببعض: ربطناها بالأعصاب والعروق، وذلك في إحكام حكيم، وربط وثيق لا يقدر عليه أحد سوانا، فكلُّ المخلوقات قهرُ عظمَتنا[2]، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي، لا اشتراكًا ولا استقلالًا[3].

كما أفاد هذا التَّقديمُ أيضًا تقوية الخبر وتحقيقه بالنَّظر إلى المعنيّين بهذا الكلام وإنْ لم يكن خطابًا لهم ولكنَّهم هم المقصودون منه، وتقوية الحكم بناءً على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة مَن يشكُّ في أنَّ اللّه خلقهم حيث لم يجرؤوا على موجب العلم، فأنكروا أنَّ اللّه يعيد الخلق بعد البِلَى، فكأنَّهم يسندون الخلق الأوَّل لغيره، وتقوّي الحكم يترتَّب عليه أنَّه إذا شاء بدَّل أمثالهم بإعادة أجسادهم؛ فلذلك لم يحتج إلى تأكيد جملة: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ استغناءً بتولُّد معناها عن معنى التي قبلها وإن كان هو أولى بالتَّقوية على مقتضى الظّاهر، وهذا التَّقوّي هنا مُشعِر بأنَّ كلامًا يعقبه هو مصبُّ التَّقوّي[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(2) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 1718 - 1719.
(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 480، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 508.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناده إلى نون العظَمَة:

مَن خَلَق مِن العَدَم بلا عناء قَدَرَ على الإحياء وإعادة الإنشاء

أوثر التَّعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ لإفادة تحقُّق فعل الخَلْق وانقضائه؛ إذ المعنيّون بهذا الكلام هم أحياء يسمعون ويُرزَقون، ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور: 35]؟! وفي ذلك دليل قاطع على القدرة العظيمة المطلقة؛ إذ مَن أنشأ مِن العدم قادر على الإعادة بلا عناء، ومِن هنا حسُن أن يُسنَد الفِعل إلى ضمير التَّعظيم؛ لأنَّ إيجاد بشر يسمعون ويبصرون وينطقون مِن نطفة ماء مهين هو مِن أدلِّ الأدلَّة على العَظَمَة، وهذه الحجَّة مِن أقوى أساليب القرآن في إقامة البرهان العقليِّ.

دلالة العطف في ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾:

العطف لبيان ما أودع الله في الإنسان مِن قوًى مترابطة بعد إقامة البنيان

العطف الجامع بين جملة ﴿وَشَدَدۡنَآ﴾ وجملة ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ هو مِن باب التَّكميل، "والتَّكميل يَرِدُ على المعنى التّامّ فيكمِّله؛ إذ الكمال أمرٌ زائدٌ على التَّمام"[1]، فقوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ أفاد معنى تامًّا، وهو إيجاد البشر بعد أن لم يكونوا موجودين، فجاء قوله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ مكمِّلًا لهذا المعنى، ومبيِّنًا "ما أودع الله ﷻ في الإنسان بعد خلقه مِن قوًى جسديَّة، وعقليَّة، وروحيَّة، ونفسيَّة، فهذه القوَى التي أودعها الخالق - ﷻ - في كيان الإنسان، هي قوى مجتمعة، متساندة، متآلفة، يعمل بعضها مع بعض كأنَّها قوَّة واحدة، وفى هذا بيان لما للّه ﷻ مِن فضلٍ وإحسانٍ على الإنسان الذي خلقه، فأحسن خلقه، وأقامه على هذه الصّورة التي علا بها على أفق الحيوان، فصار بشرًا سويًّا، وأصبح خليفة للّه في الأرض"[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَشَدَدۡنَآ﴾، والغرض مِن الإسناد:

عُبِّر بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 121.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1384 - 1385.

تحقُّق الإحكام إنعام وحجَّة على سائر الأنام

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ لإفادة تحقُّق الإحكام في هذا البنيان العظيم وهو الإنسان، وقد أُسند الفعل إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ لوقوع ذلك مِن العليِّ القدير ﷻ ولبيان ما أودع سبحانه فيه مِن العظمة ودلائل القدرة، وذلك حيث "أحكم سبحانه خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظّاهرة والباطنة، حتَّى تمَّ الجسم واستكمل، وتمكَّن مِن كلِّ ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادرٌ على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدّار إلى هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدًى: لا يُؤمَرون، ولا يُنهَوْن، ولا يُثابون، ولا يُعاقَبون"(1).

الغرض مِن التَّعبير بالمفعول به مصدرًا مضافًا: ﴿أَسْرَهُمْ﴾:

عظَمَة الخالق وقدرتُه تُبرِزُها حكمته وخِلقته

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَسْرَهُمْ﴾ إضافة معنويَّة محضة، تفيد تعظيم الخَلْق الذي أُحكِم بشدِّ الأَسْر، وتشير إلى أنَّ البشر - وإنْ اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأطوالهم وقواهم - قد تساوَوْا في أصل الخِلقة، فأتمَّ اللّه خلْقهم، وشدَّ أسرهم، فهُم متشابهون مِن هذه الحيثيَّة، والفروقات بينهم لا تكاد تؤثِّر على هذا التَّشابه، فليس اختلافهم كاختلاف أنواع الحيوانات المندرجة تحت جنس واحد، وهذا مفهوم مِن إضافة المفرد (أسر) إلى ضمير الجمع (هم)، وهذا بخلاف إضافة الجمع إلى الجمع الذي يقتضي أن تكون القِسمة آحادًا، يكون لكلٍّ منهم شدُّ أسر يختلف عن غيره. فهذا الإحكام في الخلْق خاصٌّ بهم جميعًا، وجزء مِن هويَّتهم وكيانهم، لا ينفكُّ عنهم، فيوحي بعظَمَة الصَّنعة الإلهيَّة فيهم.

ثمَّ إنَّ هذه الإضافة فيها تقريع لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أنفسُهم، وغرَّتهم قوَّتهم، فاستكبروا في الأرض بغير الحَقِّ، فنسوا

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 903.

أصل خلقتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾ [النَّحل: 4]، وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ [يس: 78].

أمّا التَّعبير بالمصدر فللتَّجرُّد مِن الزَّمان، وإفادة الشُّمول؛ ليشمل كلَّ صور الإحكام في الخلق، مِن تماسُك البَدَن، وربط العِظام باللَّحم والأعصاب، إلى إحكام القوَى الدّاخليَّة والنَّفسيَّة، فيحمل المعنى أفقًا أوسع ممّا لو اقتصر على الفعل.

دلالة التَّعبير بأسلوب الشَّرط بالأداة ﴿وَإِذَا شِئۡنَا﴾:

تشنيع للكفّار على كُفرهم في مقابلة النِّعم وذِكر نعمة إيجادهم وتمكينهم

جيء بـ(إذا) لإفادة تحقُّق التَّلازم بين شرطها وجوابها، فإنَّ (إذا) تُستعمَل للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع أيضًا[1]. فالتَّعبير بها هنا أفاد "تحقُّق قدرته تعالى على التَّبديل، وتحقُّق ما يقتضيه مِن كُفرهم المقتضي لاستئصالهم، فجعل ذلك المقدورَ المهدَّد به كالمحقَّق، وعبّر عنه بما يُعَبَّر به عنه"[2] وفي هذا "إشارة إلى قدرة اللّه القادرة التي لا يفلت مِن سلطانها مخلوقٌ، والتي تخلق ما تشاء وتختار، دون معوِّق، أو معقِّب، وهؤلاء الآدميّون الذين خلقهم اللّه سبحانه على تلك الصّورة من الإحكام والإتقان، لا يمسكها إلّا اللّه، ولا يحفظ عليها وجودها إلّا هو، فإذا أراد سبحانه أن يبدِّل بهؤلاء الآدميّين غيرهم نفذت إرادته ومضت مشيئته"[3].

دلالة التَّعبير بالمشيئة، ودلالة مجيء فعلها ماضيًا مسندًا لنون العَظَمَة:

مشيئته نافذة وسلطانه سبحانه قاهر

ذُكِرت المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا﴾ لإبهام الوقتِ، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا شئنا أهلكناهم وبدَّلنا غيرهم ممَّن يطيع، فالتَّبديل في الذَّوات. أمّا التعبير بالماضي فللدِّلالة على أنَّ المشيئة

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 60، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 440، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 113، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 410، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 4/ 69 - 71.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 184، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والهرريُّ، الحدائق: 30/ 509.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1385.

الإلهيَّة متحقِّقة الوقوع لا يتطرَّق إليها شكٌّ؛ فمتى تعلَّقت إرادته بشيءٍ فهو كائن لا محالة، كما أنَّ التَّعبير بالماضي يلقي في نفس السّامع إيحاءً أن مشيئة اللّه سريعة النَّفاذ لا يعوقها شيءٌ ألبتَّة؛ وفي هذا طمأنة لأولياء اللّه، وتهديد ووعيد لأعدائه، وفي إسناده إلى الضمير الدال على التعظيم إشعار بالمهابة وتربية لها(1).

نكتة التَّعبير بالماضي مسندًا لنون العَظَمة: ﴿بَدَّلۡنَآ﴾:

بيده سبحانه الإفناء والتَّبديد، وهو فعّالٌ لِما يريد

عُبِّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿بَدَّلۡنَآ﴾ لإفادة تحقُّق التَّبديل متى توجَّهت إليه المشيئة الإلهيَّة. وهذا أمر عظيم في ذاته، وعظيم مِن حيث نسبته إلى اللّه ﷻ؛ ولذلك أُسنِد الفعل لنون العَظَمَة لبيان عظمة الفعل والفاعل جلَّ ثناؤه. وفي هذا تهديد لهم بالإهلاك؛ أي: وإذا أردنا إهلاكَهم وتدميرَهم جئنا بأمثالهم في شدَّة الخَلْق وإحكام الصُّنع ممَّن يطيعنا ويمتثل أمرَنا؛ فقدرتُنا صالحةٌ لذلك لا يتأبَّى عليها شيء مِن الممكنات ما دامت إرادتنا قد تعلَّقت به، والغرض مِن هذا الخبر بيان الاستغناء التّامّ عنهم، كأنَّه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد مِن المخلوقين ألبتَّة(2).

الغرض مِن التَّعبير بالمفعول به جمعًا مضافًا:

الإخبار بشموليَّة التَّبديل؛ زجر ومانع مِن الغواية والتَّضليل

في إضافة الجمع إلى الجمع: ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ إشارة إلى أنَّ قدرة اللّه سبحانه لا حدود لها، وأنَّه قادر على أنْ يقيم مكان هؤلاء الآدميّين أمثالًا، لا مِثلًا واحدًا(3)، فهو سبحانه القادر على أن يبدِّل مكان كلِّ واحد منهم واحدًا، وهذا مفهوم مِن إضافة الجمع إلى الجمع، وقد أوثرت هذه الصِّياغة هنا دون أن يقال: (بدَّلنا مِثلهم) للإشارة إلى طلاقة قدرة الصّانع

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 184، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 509.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1719.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1385.

العظيم جلَّ ثناؤه، فهو قادر على أن يأتي بمثل كلِّ واحد على حدة مع مراعاة اختلاف أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وخصائصهم، فكيف يُنكرون بعد ذلك البعث؟!.

نكتة التَّعبير بالأمثال:

استدلال بالبداءة على الرَّجوع، وهذا أمر متحقِّق الوقوع

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ جاء التعبير بـ ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾، والأمثال: جمع مِثل، وهو المُماثِل في ذاتٍ أو صِفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم، وهو التَّبديل الذي سيكون في المعاد، ويجوز أنْ يُراد أمثالهم في أنَّهم أُمَم، وعلى الوجه الأوَّل فهو يدلُّ على أنَّ البعث يحصل بخلق أجسام على مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدُّنيا للأرواح التي كانت فيها"[1]، "وهذا استدلال بالبداءة على الرَّجعة"[2].

دلالة التَّعبير بالمفعول المطلق ﴿تَبْدِيلًا﴾، ونكتة تنكيره:

قدرة الله تامَّة مطلقة، وإحاطته بالخلائق أكيدةٌ متحقِّقة

جيء بالمفعول المطلق ﴿تَبْدِيلًا﴾ الذي هو مِن جنس فعله تأكيدًا لهذا الفعل، ولدفع توهُّم إرادة المجاز، "وللدِّلالة على أنَّه تبديل حقيقيٌّ، وللتَّوصُّل بالتَّنوين إلى تعظيمه"[3]، "والمعنى: إذا شئنا بدَّلنا غيرهم ممَّن يطيع كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: 38]؛ ففيه ترهيب"[4] كما أنَّ لفظة ﴿تَبْدِيلًا﴾ التي تنتهي بألف المدِّ - وهو إيقاع مفتوح - تترك في السَّمع أثر الامتداد والاتِّساع؛ إشعارًا بامتداد سلطان اللّه سبحانه في الخلق والتَّبديل.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(يذرون) و(يدعون) و(يتركون):

الفرق بين الثلاثة أنَّ التَّركَ أعَمُّ وأوسَع، وأنَّ ما جاء مِن (ودعَ)

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 294.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 509.

يكون معه شيءٌ مِن الكُره والبُغض. قال اللّه ﷻ: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ [الأحزاب: 48]، وقال اللّه ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى: 3]؛ أي: ما تركك منذ اختارك، ولا أبغضَكَ منذ أحبَّك(1).

التَّركُ أعمُّ، وفي (ودعَ) تركٌ مع شيءٍ مِن البُغض، وفي (وذَرَ) ترك مع شيءٍ مِن الحُبِّ

وأمّا ما جاء مِن (وذَرَ) فيكون معه شيءٌ مِن الحُبِّ. قال اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: 234]؛ ويُلاحَظ هنا حبُّ الزَّوج للزَّوجة، وحبُّها له، وقال اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: 278]؛ ويُلاحَظ هنا أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على حُبِّ المال، وقال اللّه ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾ [نوح: 23]؛ ويُلاحَظ هنا حبُّهم لتلك الأصنام.

وفي قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ يُلاحَظ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾؛ فهم يُحِبّون العاجلةَ التي مِن أجلِها يَذرون وراءَهم يومًا ثقيلًا، ويُلاحَظ ذلك أيضًا في قول اللّه ﷻ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة: 20 - 21].

الأسْر والخَلْق:

في الخَلْقِ معنى التَّقدير والتَّسوية، وفي الأسْرِ معنى الرَّبط والتَّوثيق

في الخَلْق معنى التّقدير والتّسوية(2)، والخَلْقُ أصلُه: التَّقدير المستقيم، ويُستعمَل في إبداع الشَّيء مِن غير أصل ولا احتذاء، قال اللّه ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]؛ أي: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117](3). وكلُّ شيء خَلَقَه اللّه فهو مبتدِئُه على غير مثالٍ سُبِق إليه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: 54](4).

---

(1) الثّعلبيُّ، الكشف والبيان: 10/ 244، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 454.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 3، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/ 153، وأبو البقاء الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 430.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (خلق).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، التّاج: (خلق).

ويُستَعمَل في إيجادِ شيءٍ مِن شيءٍ، قال اللّه ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النِّساء: 1]، وقال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النَّحل: 4]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12][1]. وخَلَقَ اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا: أحدَثه بعد أنْ لم يكن[2].

والأَسْر: الرَّبط والتَّوثيق[3]، والأَسْرُ: شِدَّة الخَلْقِ[4]، ويقال: رَجُلٌ مَأسورٌ؛ أي: شَديدُ عَقْدِ المَفاصِلِ والأَوْصالِ[5]. وشَدَّ اللّه أَسْرَه؛ أي: قَوَّى إحكامَ خَلقِه[6]. واشتقاقُه مِن الإسار وهو القِدُّ الذي يُشَدُّ به الأقتاب، يقال: أسرت القَتَبَ أَسْرًا؛ أي: شددته وربطته، ويقال: ما أحسنَ أَسْرَ قَتَبِه! أي: شدِّه وربطِه[7]؛ ولذا أوثِر لفظ (الأَسْر) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوَّينا وأتقَنّا رَبْطَ مفاصلِهم الظّاهرة والباطنة بالأعصاب على وجه الإحكام بعد كونهم نطفةً أمشاجًا في غاية الضَّعف[8]، أو شدَدنا توصيلَ عظامِهم بعضها ببعض، وتوصيلَ أعضائهم بعضًا ببعض، وتوثيقَ مفاصلهم بالأعصاب[9]؛ فأوثر لفظ (الأَسْر) لدلالته على إحكامِ الخَلْقِ وإتقانه وشِدَّته، وهو مناسبٌ لقوله ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَآ﴾.

---

(1) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (خلق).

(2) ابن سيده، المحكَم: (خلق).

(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 675، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أسر).

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 280، وابن سيده، المحكَم: (أسر)، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 4/ 406، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 427.

(5) ابن سيده، المحكَم: (أسر).

(6) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة، والزَّبيديُّ، التّاج: (أسر).

(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 151.

(8) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158.

(9) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 675، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ
فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان: 29 - 31]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تفضيل وبيان؛ لهداية الحيران؛ بأنَّ التوصُّل إلى روضات النَّعيم بيد حكيم عليم

لمّا ذكر المولى العليُّ سبحانه أحوال السُّعداء والأشقياء؛ أرشد سبحانه إلى أنَّ في هذا الذِّكر تذكرةً وموعظةً للخلق، وفوائد جمَّة لمن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه[1]، ولمّا ناط اختيارهم سبيل مرضاة الله بمشيئتهم؛ أعقبه بالتَّنبيه إلى الإقبال على طلب مرضاة الله للتَّوسُّل برضاه إلى تيسير سلوك سبل الخير لهم؛ لأنَّهم إذا كانوا منه بمحلِّ الرِّضا والعناية؛ لطف بهم ويسَّر لهم ما يعسر على النُّفوس مِن المصابرة على ترك الشَّهوات المهلكة، وإذا لم يسعَوْا إلى مرضاة ربِّهم وكَلَهم إلى أحوالهم التي تعوَّدوها فاقتحمت بهم مهامَّه العماية؛ إذ هم محفوفون بأسباب الضَّلال بما استقرَّت عليه جبلّاتهم مِن إيثار الشَّهوات والاندفاع مع عصائب الضَّلالات[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: تارةً يقال، ويرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يمكنُ للإنسان أن يحفظَ ما يَقتنيه منَ المعرفة، وهو كالحفظِ إلّا أنَّ الحفظَ يقال اعتبارًا بإحرازِه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضارِه، وتارةً يقال لحضور الشَّيءِ في القلب أوِ القول، والذِّكرُ قد يكون عن نسيانٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 304، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 509.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 412، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 160.

وقد يكون لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ حفظٍ، والتَّذْكِرَةُ: ما يُتذكَّرُ به الشَّيءُ، أو تُستذكَرُ به الحاجةُ، وهو أعمُّ منَ الدِّلالة والأمارةِ، وكثيرٌ من صيَغ (التَّذكير) و(التَّذكُّر) تصلحُ لِما هو ضدُّ النّسيان ولمعنى الوعظِ وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجرُ، فيخشى الوقوعَ في الخطأ[1].

2) ﴿يُدۡخِلُ﴾: الدُّخول: نقيض الخروج. ويُستَعمَل ذلك في المكان، والزَّمان، والأعمال، يقال: دخل مكان كذا[2]. يقال: دَخَلْتُ البيت. والصَّحيح فيه أن تريد دَخَلْتُ إلى البيت، وحَذَفْتَ حرف الجرِّ فانتصب انتصابَ المفعول به[3] ودَخَلَ بامرأته: كناية عن الإفضاء إليها، قال تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النِّساء: 23][4].

المَعنى الإجْماليُّ:

سورة الإنسان فيها خير موعظة للمتّعظين، وإرادة الله فوق إرادة النّاس أجمعين

يرشدنا المولى ﷻ في ختام هذه السّورة الكريمة - بعد ذكر أحوال السُّعداء والأشقياء - إلى الطّاعة ويحذِّرنا من المعصية؛ فيُبيِّنُ سبحانه أنَّ هذه السّورة فيها خير موعظة لمن اتَّخذ بالإيمان والتَّقوى إلى مرضاة ربِّه طريقًا يوصِّله إلى مغفرته ورضوانه، واتِّخاذ هذا الطَّريق المُوَصِّل إلى المغفرة والرِّضوان لا يكون إلّا بتوفيق وإرادة من الكريم الرَّحمن؛ لأنَّه سبحانه العليم بأحوال خلقه، الحكيم في تدبيره وصنعه، وهو سبحانه وحده الَّذي يُدْخِل مَنْ شاء مِنْ عباده جنَّته حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون، وأمّا المشركون الظّالمون فقد هيَّأ لهم في الآخرة عذابًا مؤلمًا موجعًا، وهو عذاب جهنَّم[5].

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (دخل).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (دخل).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (دخل).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 577 - 579.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾:

إجمال للمأمول، وإدماج للمحصول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقال مِن بسط التَّذكير والاستدلال إلى فذلكة الغرض وحَوْصَلَته؛ إشعارًا بانتهاء المقصود وتنبيهًا إلى فائدته، ووجه الانتفاع به، والحثِّ على التَّدبُّر فيه، واستثمار ثمرته، وباعتبار ما تفرَّع عن هذه الجملة مِن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ يَقوَى موقعُ الفذلكة للجُملة"[1].

دلالة التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

لا يعتبر الجاحدون بالآيات، ولا يتذكَّرون بما فيها مِن عظات

حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ تأكيد لمضمون الجملة، فإنَّ قول القائل: (إنَّ زيدًا قائمٌ) ناب منابَ تكرير الجملة مرَّتين إلّا أنَّه أوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض مِن التَّأكيد[2] وهذا التَّوكيد لجملة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ جاء اهتمامًا بالخبر، وللرَّدِّ على مَن أنكر؛ "لأنَّ حال المخاطبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنَّها تذكرة"[3].

الغرض مِن التَّعبير باسم الإشارة الدّالّ على القرب ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

بيان حاضر وآيات كأنَّها ماثلة؛ فأعظم به بيانًا وأنعم بها تذكرة

الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ إلى الآيات المتقدِّمة أو إلى السّورة؛ ولذلك أُتي باسم الإشارة المؤنَّث[4]، وقد أوثر التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على القرب؛ لتعظيم الآيات المشار إليها، ولبيان قربها مِن المتلقّي فكأنَّها ماثلة بين يديه، قد مُيِّزت أكمل تمييز بحيث يشار إليها، وفي هذا دليل على البيان والوضوح الذي فيها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.
(2) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 526.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 76، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 184، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.

عظة تأثيرها في النَّفس عظيم، ووقعها شامل وعميم

دلالة التَّعبير بالخبر ﴿تَذۡكِرَةٌ﴾ منكَّرًا:

جاء التَّعبير بالخبر ﴿تَذۡكِرَةٌ﴾ منكَّرًا للمبالغة والتَّفخيم؛ "فهذه التَّذكرة توضِّح السَّبيل إلى الله سبحانه وإلى مرضاته"[1] "وهي عِظة مذكِّرة لما لا بدَّ منه في تحصيل السَّعادة الأبديَّة وهي اذِّكار بما غفلت عنه العقول"[2]، فلا جرم هي عظيمة فخيمة.

ليس الوعظ القرآنيُّ معلَّقًا، بل يقتضي بعد البيان أثرًا

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَمَن شَآءَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ للتَّفريع؛ حيث "فُرِّع على الحثِّ على سلوك سبيل مرضاة الله بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: ليس بعد هذه التَّذكرة إلّا العمل بها إذا شاء المتذكِّر أنْ يعمل بها"[3].

إلقاء للمسؤوليَّة بالتَّخيير، مصحوب بحكمةٍ إلهيَّةٍ وحُسن تَدبير

الغرض من التَّعبير بأسلوب الشَّرط (مَن):

أوثر التَّعبير بأسلوب الشَّرط (مَن) في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ ليشمل الكلام كلَّ مَن له عقل وعلم؛ لجعل المسؤوليَّة ملقاةً على عاتقهم، ففي هذا "تحريض شديدٌ على المسارَعَة إلى الطّاعة؛ لأنَّ الله تعالى قد مكَّن النّاس من ذلك، حيث وهبهم الاختيار والعقول المفكِّرة، وأرسل إليهم الرُّسل ليخرجوهم من الظُّلمات إلى النّور"[4]. فليس بعد ذلك حُجَّة، ولكنَّ الكافرين بآيات الله يجحدون!.

الاختيار محسوم وقائم؛ ولا يقوم به إلّا أولو العزائم

دلالة التَّعبير بفعل الشَّرط ماضيًا ﴿شَآءَ﴾:

جيء بالفعل ﴿شَآءَ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ لإفادة أنَّ مَن اتَّخذ إلى ربِّه سبيلًا هو مَن حقَّق مشيئة

(1) المظهريُّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 163.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 279.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 230.

ذلك؛ أي: الجادُّ العازم، لا المتلاعب المتهاون، "فمَن شاء أقام وجهه على هذا الطَّريق، ومَن شاء تنكَّبه، وأدار ظهره له"[1].

دلالة التَّعبير بفعل الجواب ماضيًا ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

مَن صدقت مشيئته، وصدقت إرادته كُتِب توفيقه وهدايته

عُبِّر بالماضي ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في جملة جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ لإفادة تحقُّق الإعانة والتَّوفيق مِن اللّه على مجاهدة النَّفس، ومغالبة الهوى، لِمَن صدقت مشيئتُه، وصحَّت هدايته، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه. "واتِّخاذ السَّبيل إلى اللّه عبارة عن التَّقرُّب إليه"[2]، فلا يُقدِم على سلوك سُبل رضا ربِّه سبحانه إلّا مَن صدَق عزمُه، فليس الإيمان بالتَّمنِّي!.

بلاغة التعبير بالاستعارة في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾:

رحلة الرّوح إلى ربِّها سبيلٌ عظيمٌ منجٍّ لها

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فيه استعارتان؛ ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ استعارة تمثيليَّة؛ حيث استُعير الاتِّخاذ لسلوك الطَّريق الموصِّل إلى مرضاة اللّه سبحانه لتصوير الإيمان والسَّير في طريق الطّاعة وكأنَّه قرار عمليٌّ يحتاج إلى تهيُّؤ، وفي قوله تعالى: ﴿سَبِيلًا﴾ استعارة تصريحيَّة؛ حيث استُعير السَّبيل للطّاعة والأعمال الصّالحة الموصِّلة للفوز بالنَّعيم والزُّلفى؛ فشبِّهت أفعال الطّاعة وكلُّ ما يتقرَّب به العبد إلى اللّه سبحانه بالطَّريق الذي يهتدي به السّالك للوصول إلى مقصده ومُبتغاه، بجامع الاهتداء إلى ما يحقِّق الغاية المنشودة في كلٍّ؛ وهذا يجعل مِن سلوك الطَّريق الموصِّل إلى اللّه سبحانه مشهدًا حيا محسوسًا، فكأنَّ المتلقّي يمشي في طريق مستقيمٍ؛ ليصل بعد ذلك إلى غاية محدَّدة[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1385.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411 - 412.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور:

إبراز واهتمام بالمتوصَّل إليه قبل معرفة سبل الوصول إليه

قدِّم الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على ﴿سَبِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ والمجرور لإبراز جهة المقصد (إلى الربِّ) قبل وصف الطَّريق الموصِّل؛ وفيه اختصاصٌ واهتمامٌ بالمآل؛ أي: إلى ربِّه خاصَّة، لا إلى غيره[1]؛ فجوهر التَّذكرة أن تكون موصِّلة إلى الله سبحانه فهو سبحانه الغاية مِن هذه التَّذكرة، كما أنَّ ذكر الله سبحانه فيها تنبيه للغافل، وتذكرة للعاقل؛ ولهذا قدِّم، وفيه مراعاة كذلك للفاصلة القرآنيَّة في السّورة المباركة.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها:

رضاه سبحانه هو غاية السّاعين، وإليه منتهى القاصدين

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[2]، وهو المراد هنا في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ إذ جعل الرَّبَّ ﷻ غاية السُّلوك، فمنتهى غاية العبد هو الوصول إلى ربِّه بنيل مرضاته سبحانه، "ولا يختلف العقلاء في شرف ما يوصِّل إلى الرَّبِّ؛ أي: إلى إكرامه؛ لأنَّ ذلك قرارة الخيرات"[3].

إيثار التَّعبير بالرُّبوبيَّة مضافًا ﴿رَبِّهِۦ﴾:

مَن شملته العناية الرَّبّانيَّة نال السَّعادة الأبديَّة

أوثر التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير الغائب ﴿رَبِّهِۦ﴾؛ إشعارًا بالقرب والرِّعاية التي يأنس بها مَن لاذ بحماه سبحانه؛ ترغيبًا في التَّقرُّب إليه بطاعته سبحانه فهو - سبحانه "المحسِن إليه الذي ينبغي له أنْ يحبَّه بجميع جوارحه وقلبه، ويجتهد في القُرب منه"[4]، وهو الذي يكلؤ كلَّ مَن تقرَّب إليه برعايته، ويشمله بعنايته؛ فلا يضامون، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 162.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 16.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 412.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 160، والخطيب، الشِّربيني، السِّراج المنير: 4/ 461.

الغرض من تنكير ﴿سَبِيلًا﴾:

عظمت سبل الإرشاد، وكثرت طرق الإمداد

جاء السَّبيل منكَّرًا لإفادة التَّعظيم والنَّوعيَّة؛ أي: أنَّ هذا السَّبيل المسلوك ينبغي أن تتوفَّر فيه شروطه مِن الإخلاص والتَّوحيد والمتابعة، فمَن سلك سبيلًا إلى ربِّه ليس فيه شروطه فهو مردود عليه، فمعنى النَّوعيَّة هنا ظاهر، ولمّا كان هذا السَّبيل موصِلًا إلى مرضاة اللّه تعالى والفوز بالجنَّة والنَّجاة مِن النّار - فلا شكَّ في أنَّه سبيل عظيمٌ رفيع الشَّأن، حيث إنَّه سبيل موصِّل إلى المولى العليِّ جلَّ في علاه، وقد بيَّن سبحانه الأمور غاية البيان، وكشف اللَّبس، وأزال جميع موانع الفهم، فلم يبق مانع مِن استطراق الطَّريق غير مشيئته سبحانه[1].

معنى (الواو) ودلالتها:

احتراس وتتميم؛ ليُعلم أنَّ الأمر في حقيقته بيد الخالق العظيم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ عاطفة، والجملة بعدها "يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أو حالًا مِن ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهي على كلا الوجهين تتميمٌ واحتراسٌ"[2]، "وتحقيقٌ للحقِّ ببيان أنَّ مجرَّد مشيئتهم غير كافيةٍ في اتِّخاذ السَّبيل كما هو المفهوم مِن ظاهر الشَّرطيَّة؛ أي: وما تشاءون اتِّخاذ السِّبيل، ولا تقدرون على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلّا وقت مشيئته تعالى تحصيلَه لكم؛ إذ لا دخل لمشيئة العبد إلّا في الكسب، وإنَّما التَّأثير والخلق لمشيئة اللّه ﷻ"[3].

تنوع القراءات القرآنيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾:

تنبيه ولفت للأنظار إلى حقيقة ما هم عليه مِن الاختيار

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بخلفه: ﴿وَمَا يَشَآءُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتّاء، ووجه الياء قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا يَشَآءُونَ﴾، ووجه التّاء أنَّه خطاب للكافَّة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾؛ أي:

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 160، والخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 461.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 412، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 328.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 76.

الطّاعة والاستقامة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، أو يكون حملا على الخطاب في مِنكُمۡ[1].

وفي قراءة الجمهور بالتّاء: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب عن الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ فمقتضى الظّاهر أن يقال: (وما يشاؤون)؛ ليلفت سبحانه أنظار المخاطبين إلى أنَّه لا مشيئة لهم على الحقيقة إلّا بعد مشيئته سبحانه، وفيه كذلك "نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم، ولا يردُّ هذا وجود ما لهم مِن الاكتساب والميل إلى الكفر"[2].

إيثار النَّفي بـ(ما) دون غيرها في ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾:

نفي قاطع لحول العباد، وإثبات حاسم لمشيئة ذي الطَّـول والإمداد

(ما) آكد في النَّفي مِن أُختَيْها (ليس) (لم)، وهي أوسع استعمالًا منهما أيضًا، فإنَّ (ليس) مختصَّة بنفي الجُمل الاسميَّة، و(لم) مختصَّة بنفي الجُمل الفعليَّة، وأمّا (ما) فتنفي الجمل الفعليَّة والاسميَّة، كما أنَّها قد تأتي ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلة[3] وقد جيء النَّفي بـ(ما) في الآية الكريمة؛ لإفادة النَّفي القاطع الحاسم الذي يقطع الطَّريق أمام الوهم أو التَّردُّد؛ فليس ثمَّة مجال لأنْ يشاء العبد شيئًا خارج إرادة اللّه، وفيه إبراز لضعف المشيئة البشريَّة، وهيمنة المشيئة الإلهيَّة.

بلاغة التعبير بأسلوب القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

القصر بنفي واستثناء درءٌ لشبهة قد ترد حول قوله (فَمَنْ شاءَ)

عُبِّر بالقصر في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لدفع توهُّم المتوهِّمين، والرَّدِّ على ما قد يرد على العقل مِن شُبهةٍ حول قضيَّة المشيئة؛ فقُصِر حصول مشيئتهم وتحقُّقها لهم على مشيئة اللّه ﷻ، فالمعنى: "وما تشاؤون أن تتَّخذوا إلى اللّه سبيلًا إلى النَّجاة، إلّا بمشيئة

---

(1) الفارسيُّ، الحُجَّة للقُرّاء السَّبعة: 6/ 361، وابن الجزريِّ، النَّشر: 2/ 396، والبنّا، الإتحاف، ص: 566.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 415.

(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 4/ 191 - 193.

اللّه، ولا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجرَّ لنفسه نفعًا إلّا بتوفيق اللّه، فالأمر إليه سبحانه، ليس إلى عباده، والخير والشَّرُّ بيده، فمشيئة العبد وحدها لا تأتي بخير ولا تدفع شرًّا، إلّا إذا أذن اللّه بذلك، ولكنْ يثاب الإنسان على اختياره الخيرَ، ويعاقب على اختياره الشَّرَّ"[1]؛ ولأجل هذا جيء بأقوى طرق القصر تأكيدًا للمعاني وهو النَّفي والاستثناء الذي والقصر بالنَّفي والاستثناء يستعمَل غالبًا فيما ينكره المخاطَب[2]، وليتقرَّر ويستقرَّ ويتأكَّد في نفوس المخاطبين أنَّه لا مشيئة لهم ألبتَّة إلّا بمشيئة اللّه وحده سبحانه جلَّ في علاه.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

إبــراز الفعـل للتَّأكيد، وإظهار للسُّلطان في كلِّ تقييد

يفيد المصدر المؤوَّل الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع ﴿أَن﴾ يدلُّ على مجرَّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصين مِن الإشكال، وتخليصٌ له مِن شوائب الإجمال، كما أنَّ ﴿أَن﴾ والفعل قد تفيد الإباحة، ولا تفيد القطع بحصول الفعل، بخلاف المصدر الصَّريح، فليس فيه شيء مِن هذا[3] فالتَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فيه تصريح بذِكر الفعل المسند إلى الاسم الأجلِّ الأحسن، وليس ذلك في المصدر الصَّريح. ولمّا كان ما بعد أداة الاستثناء حرفَ مصدر تعيَّن أنَّ المستثنى يُقَدَّر مصدرًا؛ أي: إلّا شيءُ اللّه (بمعنى: مشيئته)، وهو صالح لاعتبار المعنى المصدريّ، ولاعتبار الحالة، ولاعتبار الزَّمان؛ لأنَّ المصدر صالح لإرادة الثَّلاثة باختلاف التَّأويل، فإنْ قُدِّر مضافٌ كان المعنى: إلّا حالَ مشيئة اللّه، أو: إلّا زمنَ مشيئته، وإنْ لم يُقَدَّر مضافٌ كان المعنى: لا مشيئة لكم في الحقيقة إلّا تبعًا لمشيئة اللّه. وإيثار اجتلاب أن المصدرية من إعجاز القرآن"[4].

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 307.
(2) السّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 2/ 250 - 251.
(3) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 3/ 147 - 149.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 413.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَشَآءُونَ﴾:

أوثر التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ لإفادة تجدُّد أفعال العباد؛ أي أنَّ إرادتهم قائمة ومستمرَّة في كلِّ الأزمنة، لكنَّها - أبدًا - مقيَّدة بمشيئة اللّه سبحانه.

تستمرُّ الإرادة البشريّة في ظلِّ المشيئة الإلهيَّة

دلالة حذف مفعول المشيئة:

حذف مفعول المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ "لإفادة العموم، والتَّقدير: وما تشاؤون شيئًا أو مَشيئًا، وعمومُ الأشخاص يستلزم عمومَ الأحوال والأزمنة؛ أي: ما تشاؤون شيئًا في وقت مِن الأوقات أو في حال مِن الأحوال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾"[1].

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَشَآءَ﴾:

أحدث التَّعبير بصيغة المضارع في قوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ توازنًا أسلوبيًّا بديعًا، فإنَّ صدْر الجملة تضمَّن فعلًا مضارعًا هو قوله تعالى: ﴿تَشَآءُونَ﴾، فعُبِّر بالمضارع كذلك في خاتمتها، وهو قول اللّه تعالى: ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وقد أفاد ذلك أنَّ مشيئة اللّه دائمة متسمرِّة، فلا تنفكُّ مشيئة النّاس عن مشيئة اللّه تعالى، بل إنَّ مشيئة النّاس تابعة لمشيئة اللّه تعالى التي سبقت في الأزل، فصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ لا تعني أنَّ مشيئة اللّه متجدِّدة وحادثة - تعالى اللّه عن ذلك - بل بما يُظهِره سبحانه لعباده ويُبديه لهم، فتظهر مشيئته وكأنَّها مسايرة لمشيئتهم، فكأنَّها حدثت الآن، وليس الأمر كذلك، فإنَّ مشيئة اللّه جلَّ ثناؤه ليست مرتبطة بزمان محدَّد؛ ممّا يبعث في النُّفوس إحساسًا بالهيمنة الدّائمة، وللرَّبط بين المشيئتين للتَّأكيد على أنَّ مشيئة العباد تابعة دائمًا لمشيئة اللّه سبحانه، فمتى وقعت المشيئة مِن العبد ومتى كانت فمشيئته سبحانه كائنة، وما شاء سبحانه كان، وما لم يشأ لم يكن.

مشيئة باقية، وسلطان مستمرٌّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 412، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 184.

دلالة إسناد المشيئة للاسم الأحسن ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾:

إعــلام لقلـوب البشر أنَّ الله هــو الـفـاعـل المـخـتـار، وأنَّــه المتصرِّف القهار

أوثر التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لبعث المهابة في نفوس المخاطَبين، و"إظهار قهر الألوهيَّة"[1]؛ فمِن لوازم الألوهيَّة العلوُّ والقهر والسُّلطان، فالاسم العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ يستدعي في النَّفس الخضوع والانقياد لمشيئته سبحانه وهو ما يقتضيه السّياق المخبر بأنَّه لا مشيئة للعبد إلّا بمشيئته ﷻ، حيث إنَّه سبحانه "المَلِك الأعلى الذي له الأمر كلُّه والمُلك كلُّه على حسب ما يريد ويقدر"[2].

علَّة الفصل:

دامت مشيئته، وعظمت حكمته

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر يسوق إليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، فكأنَّه قيل: لِمَ؟ فالجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فهو واقع موقع التَّعليل لما سبق، حيث "قد علَّل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة اللّه، بأنَّ اللّه عليمٌ حكيمٌ؛ أي: عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير، حكيمٌ بدقائق ذلك ممّا لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكُنْه عقولُ النّاس؛ لأنَّ هنالك تصرفاتٍ عُلْويَّةً لا يبلغ النّاس مبلغ الاطّلاع على تفصيلها، ولكن حسبهم الاهتداء بآثارها، وتزكية أنفسهم للصَّدِّ عن الإعراض عن التَّدبُّر فيها"[3].

بلاغة الإطناب بالتَّذييل:

لـلـه سبحانه الـحـكـمـة الـبـالـغـة، والـحُـجَّـة الدّامغة

ذُيِّلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لبيان أنَّه سبحانه عليم بمَن يستحقُّ الهداية فييسِّرها له ويقيِّض له أسبابَها، ومَن يستحقُّ الغواية فيصرفه عن الهُدى، وله الحكمة البالغة، والحُجَّة الدّامغة[4]، فهو تذييل أو تعليل لجملة ﴿يُدْخِلُ مَن

(1) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 10/ 280.

(2) الخطيب، الشِّربينيُّ، السّراج المنير: 4/ 461.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 413.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 452.

﴿يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ أي: لأنَّه واجب له العلم والحكمة فهو أعلم، فمَن شاء أنْ يدخله في رحمته، ومَن شاء أبعده عنها[1]. وهذا التَّذييل جارٍ مجرى المَثَل مِن حيث كونه مستقلًّا بمعناه عمّا قبله.

موقع جملة ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ مِن الإعراب ودلالته:

فعل الله وكمال مشيئته يجريان على حسب عِلمه وحكمته

يجوز أن تكون الجملة مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ إذ يتساءل السّامع عن أثر مشيئة اللّه في حال مَن اتَّخذ إلى ربّه سبيلًا ومَن لم يتَّخذ إليه سبيلًا، فيُجاب بأنَّه سبحانه يُدخِل في رحمته مَن شاء أنْ يتَّخذ إليه سبيلًا، وأنَّه تعالى قد أعدَّ لِمَن لم يتَّخذ إليه سبيلًا عذابًا أليمًا، وأولئك هم الظّالمون.

ويجوز أن تكون الجملة خبرَ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وتكون جملة ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معترِضَةً بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها أو حالًا، وهي على التَّقديرَيْن مُنبِئة بأنَّ إجراءَ وصفَي العليم الحكيم على اسم الجلالة مرادٌ به التَّنبيه على أنَّ فِعله كلَّه مِن جزاءٍ برحمةٍ أو بعذابٍ جارٍ على حسب علمه وحكمته[2]، "فالجملة مقرِّرة لما فُهِمَ مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ولذا اختير الفصل"[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُدۡخِلُ﴾، و﴿يَشَآءُ﴾:

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ للاستمرار، لئلّا يتعنَّت متعنِّت ممَّن هو متلبِّس بالضَّلال فيقول: أنا لا أصلح لأنَّه ما أدخلني[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 413.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 416.
(3) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 503.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 12/ 162، والقونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 503.

الغرض من التَّعبير بالموصول وصلته ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

لا يَدخُل في رحمة الله إلّا مَن شاء الله

عُبِّر بالموصول العامّ وصلته في ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ لإفادة أنَّ الوصف الذي تضمَّنَتْه جملةُ الصِّلة، وهو قوله تعالى: ﴿يَشَآءُ﴾ هو العِلَّة في الحُكم، فإنَّه لا يَدخُل أحدٌ في رحمة اللّه تعالى إلّا بمشيئته سبحانه، فقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه تنبيه على أنَّ التَّوفيق واللُّطف ليس بواجب، بل هو بفضلٍ في رحمته وإحسانه(1).

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾:

مَن تقرَّب إلى مولاه بفعل الطّاعات غمرته الرّحمة وعمّته البركات

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة(2). وهو المراد هنا، حيث أفاد الحرف معنى الإحاطة والشُّمول، فكأنَّ الرَّحمة وعاءٌ محيط بالمؤمنين مِن كلِّ جانب، وهو مفيد كذلك معنى التَّمكُّن والمبالغة، فالرَّحمة لا تصلهم فقط، بل تغشاهم وتُجللهم حتَّى تأتي على كلِّ جزءٍ فيهم. وفيه هذا التَّعبير الدَّقيق ترغيبٌ في الإقبال على اللّه بفعل مراضيه، ونبذ معاصيه.

بلاغة التَّعبير بالمجاز المرسَل ﴿رَحۡمَتِهِۦ﴾:

تلطُّف في عرض النَّعيم، وإبراز لصور الخير العميم

في التَّعبير بالرَّحمة في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ مجازٌ مرسَل عَلاقته المحليَّة؛ "لأنَّ الرَّحمة هي السَّبب الموصِّل للجنَّة، وأنَّه بغير رحمة اللّه لا سبيل لأحدٍ إلى الجنَّة"(3)، والمراد بالرَّحمة "هاهنا: الجنَّة"(4)؛ إذ هي "محلُّ الرَّحمة"(5) وفي التَّعبير بالمجاز هنا تلطُّف في عرض النَّعيم، وإبراز أنَّ الجنَّة أثرٌ مِن آثار رحمة اللّه الواسعة.

---

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 503.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1387.

(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 381.

(5) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 163.

مقابلة بين جزاء الفريقيْن إبرازًا للعدالة الإلهيَّة، وتأكيدًا للإحاطة الكليَّة

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عاطفة[1]؛ عطفت جملة ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ على قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ إظهارًا للمقابلة بين جزاء الفريقيْن ترغيبًا وترهيبًا، وتأكيدًا لشمول العِلم والحكمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

تشنيع على الظّالمين، وتخصيصهم بالجزاء المهين

الغرض مِن تقديم ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أوثر تقديم لفظ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾؛ لجعل انتباه المخاطب يقع مباشرة على الوصف القبيح المذموم في الآية الكريمة، "والمراد بالظّالمين الكافرون؛ إذ الشِّرك ظُلمٌ عظيم، وغيَّر الأسلوب تنبيهًا على أنَّ كُفرهم داء أصابهم بسوء اختيارهم وعدم تأمُّلهم"[2].

"وانتصب الظّالمين على أنَّه مفعول لفعل محذوف يدلُّ عليه المذكور، على طريقة الاشتغالِ. والتَّقديرُ: أوعد الظّالمين، أو كافأ، أو نحو ذلك ممّا يقدِّره السّامع مناسبًا للفعل المذكور بعده"[3].

دلالة مجيء ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على صيغة اسم الفاعلين:

درجوا على مجافاة الطّاعات، ومقارفة المحرَّمات؛ فأُهينوا بأبشع المذمّات

أفاد التَّعبير بصيغة اسم الفاعلين في قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾؛ ثبوت الوصف للموصوفين حتَّى صار سجيَّة لهم، فليس حدثًا طارئًا عليهم، بل هم "عريقون في وصف المشي على غير سَنَن مَرضيٍّ كالماشي في الظَّلام؛ فهو يدخلهم في نقمته"[4].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿أَعَدَّ﴾:

أوثر التَّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 328.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 503.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 416.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 162.

﴿أَلِيمًا﴾ لإفادة تحقُّق الوقوع، وأنَّه قد بولغ في التَّهديد والوعيد، فالعقاب مُعَدٌّ سلفًا، منتظِر مستحقِّه، متغيّظ عليه. والمعنى: أنَّه قد جفَّ القلم بما هو كائن؛ لأنَّ معنى ﴿أَعَدَّ﴾ أنَّه علم ذلك وقضى به، وأخبر عنه وكتبه في اللَّوح المحفوظ، ومعلوم أنَّ التَّغيير على هذه الأشياء محال؛ فلا يزاد فيه ولا ينقص أبدًا[1]. وقوله تعالى: "﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ مثلُ أوعد وكافأ؛ ليطابق الجمل المعطوف عليها"[2].

تحقُّق الإعداد ترهيبٌ للاستعداد ليوم المعاد

الغرض من تقديم شبه الجملة، ومعنى اللّام ودلالتها:

اللّام لام الاختصاص؛ أي: لهم خاصَّة، وقدِّم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول به ﴿عَذَابًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتوكيد هذا الاختصاص، فهذا العذاب لهم وحدهم، لا يشاركهم فيه غيرُهم، وليشعر السّامع كذلك بثقل الوعيد، وفيه - مع ما تقدَّم - مراعاة للفاصلة القرآنيَّة في السّورة المباركة.

تشديد في التَّهديد وتخصيص بالوعيد

بلاغة الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ احتباكٌ، حيث ذكر الإدخال والرَّحمة أوَّلًا دلالةً على الضِّدّ ثانيًا، وذكر العذابَ ثانيًا دلالةً على الثَّواب أوَّلًا، وتقدير الاحتباك: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، ويُخرِج مَن يشاء مِنها، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾، والأبرار أعدَّ لهم نعيمًا مقيمًا.

أعدَّ الله للأبرار نعيمًا مقيما، وللظّالمين عذابًا أليما

وسرُّ ذلك أنَّ ما ذكره أوْلى بترغيب أهل العدل فيه وإن ساءت حالهم في الدُّنيا، وبترهيب أهلِ الظُّلم منه وإنْ حَسُنت حالهم في الدُّنيا، فقد رجع هذا الآخر المفصَّل إلى السَّعادة والشَّقاوة على أوَّلها المؤْذِن بأنَّ الإنسان معتنًى به غاية الاعتناء، وأنَّه ما خُلق

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 163.
(2) الخطيب، الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 461.

إلّا للابتلاء، فهو إمّا كافرٌ مغضوبٌ عليه، وإمّا شاكر منظور بعين الرِّضا إليه. فسبحان مَن خَلَقنا، ويُميتُنا، ويُحيينا بقدرته[1].

الغرض من تنكير ﴿عَذَابًا﴾، وسر وصفه بـ﴿أَلِيمًا﴾:

عظم الظُّلم والإجرام؛ فهوَّل العذاب ووُصِف بالإيلام

جاء قوله: ﴿عَذَابًا﴾ مُنَكَّرًا لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم، حيث إنَّه "لا عذاب أشدَّ منه إيلامًا وأفزع انتقامًا، ألا وهو حرمانهم عن ساحة عزِّ القبول"[2] ووصف بـ﴿أَلِيمًا﴾ للزّيادة في التَّهويل مِن شأن هذا العذاب الذي أعدَّه اللّه لمَن ظلموا أنفسهم بمقارفة معصيته، ومجافاة سبل هدايته، والمعنى: أعدَّ لهم عذابًا "متناهيًا في الإيلام"[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّذكرة والموعظة:

التَّذكِرَةُ صالحةٌ لمعنى التَّذكير والوَعظ

التَّذكِرَة ما يُتَذَكَّر به الشَّيء[4]. والوَعظ والعِظة والموعظة: تَذكير الإنسان بما يُلَيِّنُ قلبَه مِن ثوابٍ وعِقاب[5] والتَّذكِرةُ تَصلح لمعنى التَّذكير والوعظ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تذكَّر فقد يزدجر ويترك الكفر ويؤمِن[6]. وقد أوثِر لفظ (التَّذكِرة) دون (الموعظة) في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ لِما في السّورة مِن تذكيرِ الإنسان بنِعمةِ الإيجادِ والخَلق، وتذكيرِه بما أعَدَّه اللّه - ﷻ - للكافرين مِن العذاب والعقاب، وما أعَدَّه ﷻ لعبادِه الأبرار مِن النَّعيم في الجنَّة. ويُضاف إلى هذا أنَّ اسم السّورة هو (سورة الإنسان)؛ فعَلَى القولِ الذي يقول باشتقاقِ لفظ الإنسان مِن (النِّسيان)[7] كان في إيثار لفظ (التَّذكِرَة) دون (الموعظة) مناسَبَةٌ لذلك.

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 163، ومحمّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 225.
(2) النَّخجوانيُّ، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 472.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 185.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(5) ابن سيده، المحكَم: (وعظ).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(7) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نسي).

الدُّخول والوُلوج:

الـدُّخـول أعَـمُّ وأوسَـعُ مِـن الوُلوج

الوُلوج يختصُّ بالدُّخول في مضيق؛ ولذا أوثِر لفظُه دون (الدُّخول) في قول اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40][1] وأوثِر لفظُ (الإدخال) دون (الإيلاج) في قول اللّه ﷻ: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ رحمةَ اللّه ﷻ واسعة. وقال القرطبيُّ: "أي: يُدخِلُه الجنَّةَ راحمًا له"[2].

والدُّخول في الشَّيء يقتضي المكوثَ فيه مدَّةً تطول أو تقصر، أو يقتضي الاستقرارَ فيه وعدم الخروج منه؛ وأوثِر لفظ (الدُّخول) دون (الولوج) في قول اللّه ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النِّساء: 124]؛ لِسِعَةِ الجَنَّة وعدمِ خروجِهم منها.

والولوج يشير إلى خروجٍ بعدَه[3]؛ ولذا أوثِر لفظ (الولوج) دون (الدُّخول) في قول اللّه ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2]؛ فإنَّ ما يدخل فيها مِن الماء[4] يخرج بأمر اللّه ﷻ وقدرته، وما يدخل فيها مِن البُذور[5] يخرجه اللّه ﷻ زرعًا، والذين يدخلون فيها مِن الأموات[6] يُخرجهم اللّه ﷻ أحياءً يوم البعث[7].

والإيلاج يدلُّ على إدخالِ شيءٍ في شيءٍ شيئًا فشيئًا[8]؛ ولذا أوثِر لفظُه دون الإدخال في قول اللّه ﷻ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحجّ: 61]؛ فمُثِّل بالإيلاج اختفاءُ ظلام اللَّيل عند ظهور نور النَّهار وعكسه تشبيهًا لذلك التَّصيير بإدخال جسمٍ في جسمٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (ولج).
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 153.
(3) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 522، 523.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 6/ 383، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 259.
(5) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 4/ 432.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 4/ 432، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 6/ 383، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 259.
(7) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 6/ 383.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 315.

آخر، فإيلاج اللَّيل في النَّهار: غشيان ضَوء النَّهار على ظلمة اللَّيل، وإيلاج النَّهار في اللَّيل: غشيان ظلمة اللَّيل على ما كان من ضَوء النَّهار؛ فالمولَج هو المختفي، فإيلاج اللَّيل انقضاؤه. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة؛ لأنَّ تَقَلُّصَ ظلمة اللَّيل يحصل تدريجًا، وكذلك تقلُّص ضوء النَّهار يحصل تدريجًا، فأشبه ذلك إيلاجَ شيءٍ في شيءٍ إذ يبدو داخلًا فيه شيئًا فشيئًا[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 315.

سُورَةُ المُرۡسَلَاتِ

سُورَةُ المُرسَلَاتِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيّ والمدنيّ وعد الآي:

سورة المرسلات مكّيّة اتّفاقًا

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة إجماع المفسّرين على مكّيّتها[1]، ونقل القرطبيّ عن ابن عَبّاسٍ وقَتادَة استثناءَ آيَةٍ مِنها، وهيَ قَوْلُه تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ مَدَنيَّةٌ[2]، وذكر هذا الاستثناءَ نفسَه السّيوطيُّ[3]، ولكنّ الأرجحَ عند المحقّقين من العلماء مكّيّتها كلُّها؛ لما أخرجَهُ البُخاريُّ عَنْ عَبْدِ اللّه بن مسعودٍ ﵁ قالَ: بَيْنَما نَحْنُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ في غارٍ بمِنًى؛ إذْ نَزَلَ عَلَيْه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، وإنَّهُ لَيَتْلوها، وإنّي لأَتَلَقّاها مِنْ فيه، وإنَّ فاهُ لَرَطْبٌ بها؛ إذْ وثَبَتْ عَلَيْنا حَيَّةٌ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «اقْتُلوها»، فابْتَدَرْناها، فذَهَبَتْ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «وُقيَتْ شَرَّكُمْ، كَما وُقيتُمْ شَرَّها»[4]. يقول ابن عاشور: "وهي مكّيّة عند جمهورِ المفسّرين من السّلَفِ، وذلك ظاهِرُ حديثِ ابن مسعودٍ المذكورِ آنفًا، وهو يَقتَضي أنّها مِن أوائل سوَرِ القرآن نزولًا؛ لأنّها نزلَت والنّبيُّ ﷺ مختفٍ في غارٍ بمِنًى معَ بعض أصحابِه"[5]، وقال دروزة: "وترابُطُ فُصولِ السّورة وتوازُنُها وخُصوصيَّةُ نَظْمِها تُسَوِّغُ القولَ: إنّها نزَلَت دفعَةً واحِدَةً"[6].

وأمّا عددُ آياتها؛ فيقول فيها الدّانيّ: "هي خَمْسونَ آيَة في جَميع العدَد؛ لَيْسَ فيها اختِلاف"[7].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 430.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 153.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 67.
(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1830).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 418.
(6) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 207.
(7) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 261.

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبُها المصحفيّ بين سورتَي الإنسانِ والنَّبَأِ

هذه السّورة هي السّابعة والسّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهْلِ النَّظَر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتَي (الإنسانِ) و(النّبأ)، وأمّا ترتيبُها النّزوليُّ؛ فهي السّورةُ الثّالثَة والثّلاثون نزولًا؛ نزلت بين سورتَي (الهُمَزَة) و(ق)(1).

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصّل

هذه السّورة الكريمة مِن طِوال المفصّل، الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلَةُ بنُ الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(2).

وقد ورد في فضلها عن ابن عباسٍ رضي الله عنه أنَّهُ قال: قال أبو بَكْرٍ: يا رسولَ الله، قَدْ شِبْتَ؛ قالَ: شَيَّبَتْني (هودٌ) (والواقِعَةُ) (والمُرْسَلاتُ) (وعَمَّ يَتَساءَلونَ) (وإذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ)(3).

وورد أنّ النّبيّ ﷺ كان يقرأ بها في صلاة المغرب، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: إنَّ أُمَّ الفَضْلِ بنْتَ الحارِثِ سَمِعَتْهُ، وهوَ يقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، فقالَتْ: يا بُنَيَّ، لَقَدْ ذَكَّرْتَني بِقِراءَتِكَ هَذِهِ السّورَةَ، إنَّها لَآخِرُ ما سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بها في المَغْرِبِ(4).

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ المُرْسَلاتِ اشتَهَرَت بهذا الاسْمِ وبـ(والمرسلات عرفًا)

وردَت تَسْميَتُها بسورة ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، وسُمّيت (والمرسلات)

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 207، وعبد القادر بن ملّا حويش، بيان المعاني: 1/ 250.

(2) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76، برقم: 187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192)، وهو مخرَّج في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (1059).

(3) أخرجه الترمذي في جامعه، برقم: (3297)، والحاكم في المستدرك، برقم: (3314)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم: (3723).

(4) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (462).

في صحيح البخاريِّ[1]، وتُسَمّى في المصاحف المشرقيّة والمغربيّة، وفي جميع التَّفاسير سورةَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وذَكَرَ ابنُ عاشور عن بَعْضِهم أنّها تسمّى (سورة العُرْفِ)[2]، وليس لهذا الاسْمِ مستندٌ إلّا ورودُ هذا اللَّفْظِ في طالعَتِها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾.

وقد ارتبَطَ اسْمُها بمِحْوَرِها ارتباطًا مُباشرًا، وقد قامَ البقاعيُّ بالرَّبط بين أسْمائِها ومَقْصودِها خيرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: الدّلالةُ على آخرِ الإنسان، مِن إثابة الشّاكرين بالنّعيم، وإصابة الكافرين بعذاب الجحيم، في يوم الفَصْلِ بَعْدَ جمْعِ الأجسادِ، وبعث العبادِ، بَعْدَ طَيِّ هذا الوُجودِ، وتغيير العالم المَشْهود، المحسوس المعهود، بما له سُبْحانَهُ مِنَ القُدْرَةِ على إنباتِ النَّبات، وإنشاءِ الأقوات، وإنزال العلوم، واتِّساع الفُهوم، لإحياء الأرْواحِ، وإسعاد الأشْباحِ، بأسبابٍ خفيَّة، وعللٍ مرئيّة، وغير مرئيّة، وتطوير الإنسان في أطوار الأسْنانِ، وإيداع الإيمان فيما يُرْضي مِن الأبدان، وإيجاد الكفران في أهل الخَيْبَةِ والخسران، مع اشتراك الكلّ في التّبيان، في أساليب هذا القرآن، الذي عجز الإنس والجانّ على الإتيان بمثل آيةٍ منه، على كَثْرَتِهم وتَطاوُلِ الأزمان، واسمُها المُرْسَلاتُ - وكذا: العُرْفُ - واضِحُ الدّلالة عَلى ذَلِكَ، لِمَن تَدبَّر الأقسامَ، وتذكّر ما دلّت عليه من معاني الكلام"[3].

المحور العامّ للسورة:

إنّ محورَ سورةِ المرسلات يقومُ كذلكَ على إقْسامِ اللّه تعالى على وُقوع يوم الفصل، مبيِّنَةً بعضَ أماراته عند وقوعه، ومنها: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 8 - 14].

وقد اقتضى ذلك الأمور الآتية:

أوّلاً: اقتضى هذا المِحْوَرُ أن يُبَيِّنَ بعضُ آيات اللّه تعالى في الأنفس والآفاق الدّالّة على كمال قُدْرَتِه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢

(1) البخاري، صحيح البخاري: 6/ 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 418.
(3) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 147.

فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: 20 - 27].

مِحْوَرُ السّورة يَقومُ على إثباتِ وُقوعِ القيامَةِ وبيانِ أحوالِ النّاسِ فيها

ثانيًا: واقتضى هذا المِحْوَرُ أيضًا أن يُبيِّنَ جزاءُ المُكَذّبين والمؤمنين بيوم الفَصْلِ، مقدِّمَةً ومُفَصِّلة حالَ المكذّبين به.

ثالثًا: ثمّ اقتضى هذا المِحْوَرُ كذلك أن تُخْتَتَم بوعيد المكذّبين وتهديدِهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [المرسلات: 46 - 50].

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

تدورُ السّورةُ حولَ إثْباتِ الجَزاء في يومِ الفَصْلِ

تدورُ هذه السّورةُ المكّيّةُ حولَ الكلامِ عَن البعثِ وأحوالِ الآخرة، فهي كسائرِ السّوَرِ المكّيّة متعلّقةٌ بأمورِ العقيدةِ، فذُكِر فيها القَسَم على وُقوعِ البَعْثِ، ثُمّ بيان مقدّماته، ثمّ إيراد بعضِ دلائل القُدْرَةِ والوحدانيّة، وتلاها وصْفُ بَعْضِ الأمور الغيبيّة وأحوال الكفّار والمؤمنين في عالم الآخرةِ ولوم الكُفّار على بَعْضِ أعمالِهم.

أوّلًا: افتُتِحت السورة بالقَسَم بالرّياح والملائكةِ على وُقوع يوم القيامةِ - وهو يومُ الفصلِ - وحدوثِ العذاب للكفّار، وبيان علامات ذلك العذابِ ووَقْته.

ثانيًا: أوردت السورة بعض دلائلِ القدرة الإلهيّة على البعث وإحياء النّاس بعد الموت، وهو إهلاكُ بَعْضِ الأُمَم المُتقدّمة وخلق النّاس، وجعل الأرض كِفاتًا والجبال الشّامخات للتّثبيتِ، وتضمّن ذلكَ وعيد الكافرين بعُقوبَة مُماثلة، وتوبيخ المكذّبين على إنكارِ نِعَمِ اللّه تَعالى عليهِم في الأنْفُس ومخلوقاتِ الأرض.

ثالثًا: حدَّدَت السورة مصير المجرمين، ووَصَفَت عذابَ الكافرين وصفًا تشيبُ له الوِلْدانُ.

رابعًا: وصَفَت نعيم المؤمنين المتّقين، وألوانَ التّكريم والإحسانِ والإفضال في جنان الخُلْدِ.

خامسًا: خُتِمَت السّورةُ بتَقْريع الكفّار وتوبيخِهم على بَعْضِ أعمالِهِم، وأبانَت سبَبَ امتناعِهِم عن عبادةِ اللّه سُبحانَهُ، وهو طُغْيانُهُم وإجْرامُهُم[1].

تميّزت سورة المُرْسَلات بخصائِصَ أفْرَدَتْها عن غيرها مِن السّوَر

الخصائِصُ الموضوعيّة للسورَة:

أوّلًا: تميّزت السّورة الكريمةُ ببراعَةِ الاستهلال؛ إذ استهلّت بهذه الأقْسامِ التي لم يُشارِكْها فيها غيرُها، وإن شارَكَتْها بعضُ السّور الأخرى في الاستهلالِ بأصلِ القسَم.

ثانيًا: التّوازن بين مَشاهِدِ الهَوْلِ والرَّحمة، فبين زواجِر المكذِّبين، تلوحُ بَشائِرُ المتَّقين، فينتَقِلُ الإيقاع من صخَبِ الإنذارِ إلى سكينةِ النَّعيم، في مشهدٍ بيانيٍّ بالغ التَّأثير.

ثالثًا: نهاية السّورة بالاستفهام التّوبيخيّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو ختامٌ يقطَعُ الكلامَ قطعًا حاسمًا، فيُغْلِقُ على السّامع بابَ المُراوَغة، ويترك في النَّفس أثَر الصَّدمة البلاغيَّة الأخيرة.

الخصائِصُ الأسلوبيّة للسورَة:

جاءت سورة المرسلات بأساليب تعبيرية انفردت بها عن غيرها من السور.

أوّلًا: تميّزت السّورة الكريمةُ بأنّها كرّرت بعضَ الكلمات، مثل لفظة (اليوم)؛ إذ وردت خمسَ عشرةَ مرّة، ورَدَ منْها لفظُ (يَومَئِذٍ) عَشْرَ مرّات[2]، ووَرَدَت فيها (يَومُ الفَصلِ) ثلاث مرّات[3]، وليس هذا بغريبٍ على سورةٍ أخذَت على عاتِقها الحديثَ عن يوم القيامَةِ

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 311.
(2) الآيات: 12، 13، 14، 15، 19، 24، 28، 34، 35، 37، 38، 40، 45، 47، 49.
(3) الآيات: 13، 14، 38.

وأحداثِه، وكذلك وردت لفظةُ التّكذيبِ إحدى عشرةَ مرّة[1]، وتكرّرت فيها أربعُ جُمَلٍ شرطيّة متتابعة، هي: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾، وكذلك تكرّرت فيها جملةُ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عَشْرَ مرّات[2]، ولا يُعَدّ هذا التّكرارُ لَها مذمومًا، بل هو من التّكرار المحمودِ؛ لأنّ كلّ آيةٍ مِنْها جاءت في سياقٍ ومَعْنًى يُغايِرُ سياقَ الآيةِ الأُخْرى.

ثانيًا: تكرّرت فيها أفعالُ الأمْرِ بوجهٍ لافتٍ، مثل: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ مرّتين[3]، ﴿كُلُواْ﴾ مرّتين[4]، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾، ﴿وَتَمَتَّعُواْ﴾، ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾، وتكرّر فيها الفعل المَبْنيُّ لِما لم يُسمّ فاعِلُهُ، مثل: ﴿تُوعَدُونَ﴾، و﴿طُمِسَتۡ﴾، و﴿فُرِجَتۡ﴾، و﴿نُسِفَتۡ﴾، و﴿أُقِّتَتۡ﴾، و﴿أُجِّلَتۡ﴾، و﴿يُؤۡذَنُ﴾، و﴿قِيلَ﴾.

ثالثًا: بَرز في السّورة مُعْجَمٌ لألفاظِ الأكْلِ والشُّرْبِ، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾، وقوله: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾، وقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

رابعًا: تكرّر في السّورة الكريمَةِ أسلوبُ الاستِفهامِ خَمْسَ مرّاتٍ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وقوله: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾.

خامسًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الجِناس الاشتقاقيِّ، مثل: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾، ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾، ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوَت موادّ بصيَغٍ صرفيّةٍ انفرَدَت بها عن غيرها مِن السّور، مثل: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾، ﴿عَصۡفٗا﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، ﴿نَشۡرٗا﴾، ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾، ﴿فَرۡقٗا﴾، ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾، وغيرها.

---

(1) الآيات: 15، 19، 24، 28، 29، 34، 37، 40، 45، 47، 49.

(2) الآيات: 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49.

(3) الآيتان: 29، 30.

(4) الآيتان: 43، 46.

سابعًا: امتازَتِ السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها، وهي: ﴿كِفَاتًا﴾، و﴿شَـٰمِخَـٰتٍ﴾.

ثامنًا: تتابُعُ الجُمَلِ القصيرةِ سريعةِ الإيقاع؛ إذ جاءَت آياتُ السّورة قصيرةً، حادَّة، متلاحقة، تُحدث في السَّمع وقْعَ القصف والرَّعد، موافقةً لمعنى الإنذارِ والوعيدِ.

تاسعًا: تميّزت السّورة الكريمةُ بوفرة الأنساق التّعبيريّة، التي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، منها: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ١ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ٢ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ٣ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ٤ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

هذه السّورة مرتبطَةٌ تمامَ الارتباطِ بسورَةِ الإنسانِ، يقولُ الغرناطيُّ: "أَقْسَمَ تعالى بالملائكة المُتتابعين في الإرسالِ، والرّياح المسخّرة والآتية بالمَطَر، والملائكة الفارِقَة بما تنزّل به بينَ الحقِّ والباطِل، والمُلْقيات الذِّكْرَ بالوَحْيِ إلى الأنبياءِ إعذارًا من الله وإنذارًا؛ أقسم تعالى بما ذكرَهُ من مَخلوقاته على صِدْقِ الموعود به، في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ٤﴾ [الإنسان: 4]، وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ١٠﴾ [الإنسان: 10]، وقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: 22]، وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ٢٧﴾ [الإنسان: 27]، وقوله: ﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣١﴾ [الإنسان: 31]، ولو لم يتقدّم إلّا هذا الوعدُ والوعيدُ المُخْتَتَمُ به السّورةُ؛ لطابَق افتتاح الأخرى قَسَمًا عليه أشدّ المطابقة، فكيف وسورَةُ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ برأسِها مَواعِدُ أخرويّةٌ وإخْباراتٌ جَزائيّة؟ فأقسَمَ ﷻ على صِحَّةِ الوُقوع، وهو المُتَعالي الحقُّ وكلامُهُ الصِّدْقُ"(1).

وقد جعل الزّحيليُّ وجوهَ اتِّصالها بسورة الإنسانِ "من وجهَيْن:

أحدُهما: أنّه تعالى وعد المؤمنين الأبرارَ، وأَوْعَدَ الظّالمين الفُجّار في آخِرِ السّورة المتقدِّمَة، بقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣١﴾ [الإنسان:

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 353 - 354.

سورَةُ المُرْسَلاتِ مُتَّصِلَةٌ تمام الاتِّصالِ بسورَةِ الإنْسانِ مَضْمونًا وأُسْلوبًا

31]، ثُمّ أقْسَمَ في مَطْلَعِ هذه السّورة على تحقيقِ ما وعد به هُنالك المؤمنين، وأوعَد به الظّالمين، ثمّ ذكَرَ وقْتَهُ وأشْراطَهُ بقولهِ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾.

والآخَرُ: ذَكَرَ تعالى في سورة الإنسانِ نَزْرًا مِن أحوال الكفّار في الآخرة، وأطْنَبَ في وصف أحوال المؤمنين فيها، والأمرُ في هذه السّورة على العَكْسِ: إطنابٌ في وصْفِ الكفّار، وإيجازٌ في وصفِ المؤمنين، فوقع بذلكَ الاعتدالُ بينَ السّورَتَيْنِ"[1].

---

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 310.

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا
٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ [المرسَلات: 1 - 7]

مِـن بَـسْـطٍ في ذِكْـرِ الإكـرام إلى صَيْـحَـةٍ زاجـرةٍ بوُقوعِ الانتقامِ

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا خُتِمَت سورة الإنسان بذِكْرِ ما أُعدَّ للمؤمنين مِن النَّعيم والمُلك الكبير، وما أُعدَّ للكافرين مِن الأغلال والسَّعير، وتذكيرٍ رفيقٍ يفتح للرّاغبين باب اللُّجوء إلى الله سُبحانَهُ بالمسير، وقد قوبِل ذلك بتكذيب الكفّار؛ أعْقَبَها بالمُرْسَلاتِ لقَرْعِ الأسماع بصَرْخَةِ الإنذار، والتوكيد على أنَّ ما أُمهلوا له واقعٌ، وأنَّ للكافرين عذابَ النّار؛ لتكون بذلك كالرَّعد بَعْدَ النَّسيم، وكالصَّيحة بعد الهَمْسِ، فانتظم التَّرغيبُ مع التَّرهيبِ في سلكٍ بيانيٍّ عجيبٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾: أصل (رسل) يدلُّ على الانبعاثِ والامْتِداد[2]، فالرَّسْل: الانبعاث على التُّؤَدة، فيقال: ناقة رَسْلَة: سهلة السَّير، وشعر رَسْلٌ: مُسْتَرْسِلٌ[3]، واستَرْسَل الشَّعر: صار سَبْطًا، واسترسل إلى فلان، أي: انبسَط، واستأنس، وترسَّل في الأمور والقراءة والمنطق: اتَّأد، وتمهَّل، وتوقَّر، وتثبَّت[4].

ومنه الرَّسول: المنبَعِث، والذي يتابع أخبارَ الذي بعَثَهُ، مِن قولهم:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 372، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 164، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 419، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 310.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).

جاءت الإبل رَسَلًا، أي: متتابعة، ويُتَصوَّر منه الرِّفق تارَةً، فيقال: على رِسلك؛ إذا أمرتَه بالرِّفق، وتارةً الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرَّسول[1].

والرَّسول يقال للواحد والجَمْع، فالواحد كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]، وللجمع: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعَّراء: 16]، وجمع الرَّسول: رُسُل، وجمع الرِّسالة: الرَّسائِل[2]، ورسُلُ الله تَعالى تارةً يُراد بهم: الأنبياءُ، وتارةً يُرادُ بهم: الملائكة[3]، يقال: راسَلَهُ مراسلة، فهو مُراسل، والرَّسول: اسم للرِّسالة واسمٌ للمرسَل[4].

والإرسال: التَّوجيهُ، وقد يكون بتَسْخيرٍ، كما هو في إرسالِ الرِّيح، وقد يكون ببَعْثِ مَن له اختيار، نحوُ إرسالِ الرُّسل، والإرسالُ يُقابلُ الإمساكَ، وأرسل الشَّيء: أطلقَهُ، وأهْمَلَهُ[5]، والمُرْسَلاتُ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ يجوزُ أن يُرادَ بها الأنبياءُ، أو الملائكةُ، أو الرّياحُ[6].

2) ﴿عُرْفًا﴾: أصل (عرف) يدلُّ على سكون النَّفس وطمأنينَتِها[7]، والمعرفة والعِرفان: العلم وإدراك الشَّيء بتفكُّر وتدبُّر[8]، وهو ضدُّ الإنكار؛ لأنَّ النَّفس إذا أنكرت شيئًا استَوحَشَت منه، وإذا عرَفَتْهُ؛ سكَنَتْ له، واطمأنَّت، يقال: عرَف الشَّيءَ يعرِفه معرفَةً وعِرفانًا، واعْتَرَفَه: علِمه، والمعروفُ: ضِدُّ المُنْكَر، والعُرف: ضدّ النُّكر[9]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: متتابعاتٍ كعُرْفِ الفَرَسِ[10].

3) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: العَصْفُ: بقلُ الزَّرع[11]، العَصْفُ والعَصيفَةُ: الذي يُعْصَفُ مِن الزَّرعِ، ويقال لحطام النَّبت المتكسِّر: عَصْفٌ، وعاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكَسرُ الشَّيءَ، فتجعله

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (رسل).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (رسل).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 175.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرف).
(8) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(9) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).
(10) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 301، والخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 382.
(11) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عصف).

كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرِّيحُ تشبيهًا بذلك[1]، وعَصَفْنا الزَّرع نعصفه، أي: جَزَزْنا ورَقَه الذي يَميل في أسفله ليكون أخفَّ للزَّرع، وإن لم يُفعل مالَ بالزَّرع[2].

ومكانٌ مُعْصِفٌ، أي: كثير الزَّرع، وعَصَفَتِ الرِّيحُ، أي: اشتدَّت، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصوفٌ، ويومٌ عاصِفٌ، أي: تَعْصِفُ فيه الرِّيحُ[3]، وقول اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾، قال المفسِّرون: هي الرّياح الشَّديدَةُ الهُبوبِ[4].

4) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾: أصل (نشر) يدلُّ على فتح شيءٍ وتشعُّبه[5]، ونشَر الثَّوبَ، والصَّحيفة، والسَّحابَ، والنِّعمة، والحديثَ، والمتاع وغير ذلك يَنْشُرُه نَشْرًا: بَسَطَها، والنَّشر: الرّائحة الطَّيِّبة، وقد نَشَرت الأرضُ، فهي ناشِرَةٌ: أَنْبَتَت الكلأَ اليابِسَ، ونشَرتُ الخبرَ أنشُرُه: أذعْتُه، وانْتَشَر الخبرُ: ذاع[6]، ونَشَر الميِّتُ يَنْشُرُ نُشورًا، أي: عاشَ بعد الموت، ومِن ذلك: يومُ النُّشور، وأَنْشَرَهُم اللّه تَعالى: أحياهم، ونَشِر الميِّتُ نشورًا، أي: بعثه اللّه تَعالى، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]، أي: إليه المَبْعَثُ والمرجع[7].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾، أي: الرِّياح اللَّيِّنة، أو الرِّياح التي يُرْسِلُها اللّه سُبحانَهُ بُشْرًا بين يَدَي رحمته، فتنشر السَّحاب، وتأتي بالمطر، أو الملائكة ينشرون الكتُبَ ودواوين الأعمالِ يومَ القيامة[8].

5) ﴿عُذۡرًا﴾: أصل (عذر) مِن العَذِرة: وهي الشَّيء النَّجِس، ومنه قيل لقُلفة الرَّجل والمرأة عَذِرَة، يقال: عذَّرت الصَّبيَّ: طهَّرته، وأزلتُ عَذِرَتَه[9]، والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يَمْحو به ذنوبَهُ، ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ[10]، واعتذر بمَعْنى أعذر، أي: صار ذا عُذْرٍ[11]، والمعذِرة:

(1) الرّاغب، المفردات: (عصف).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (عصف).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عصف).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عصف)، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 301.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشر).
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نشر).
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 301، والخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 382.
(9) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عذر).
(10) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عذر).
(11) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عذر).

اسمٌ على مَفعِلة مِن عذَر يَعْذِر[1]، وقوله تعالى: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾، أي: لِلإعْذارِ والإنذارِ[2]، وأيضًا هما مَصْدَرانِ لـ (عَذَر)؛ إذا محا الإساءَة، و(أنذر)؛ إذا خوَّف[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القسَم بهذه المخلوقات أكبرُ دليلٍ على حقيقَةِ البَعْثِ والجزاءِ

ابتدأ اللّه ﷻ هذه السّورة الكريمة بالقَسَم بطوائفَ عدَّةٍ مِن مخلوقاته سبحانه، كالقسم بالملائكَةِ المرْسَلَة بالمعروفِ والخَيْرِ مِن أمرِ اللّه تَعالى ونَهْيِه سبحانه، وبالرِّياحِ الشَّديدة الهُبوبِ المُهْلِكَة المدمِّرة، وبهذه الرِّياح اللَّيِّنة التي تنشر السَّحاب، وتأتي بالمطر، وبالملائكة كذلك، أو آي القرآنِ التي تُفرِّق بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام، وبهذه الملائكةِ التي تَتَلَقَّى الوحيَ من عند اللّه تَعالى، وتَنْزِلُ به على أنبيائهِ عليهم السلام؛ لتبليغ النّاس ما يَنْفَعُهُم في دينِهم ودنياهم؛ إعذارًا من اللّه سُبحانَهُ إلى خَلْقِه وإنذارًا منهُ إليهم؛ لئلّا يكون لأحدٍ على اللّه ﷻ حجَّةٌ بعد التَّبليغ والإنذار، وللتَّأكيد كذلك على أنَّ الشَّيءَ المقسَمَ عليه مِن الوعد بالثَّواب والعقابِ والبعث والجزاء في يوم القيامَةِ أمرٌ نازِلٌ ومحقَّق لا محالة[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ استهلالِ السّورة بأسلوب القَسَم وبيانُ غرضِه:

تنبيهٌ على جلالةِ قَدْرِ المقسَم به، وتعظيمٌ لشأنِ المقسَم عليه

افتتاح السّورة بأسلوب القسَم يشير إلى أنَّ ما تضمَّنته مِن معانٍ هو حقيقٌ بأن يُعظَّم، ويُنظر له بعين الاهتمام والاعتبار؛ ذلك أنَّ القَسَم بالشَّيء دليل أهمِّيَّته، وأهمِّيَّة جواب القَسَم[5].

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عذر).
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 304.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 274.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 580 - 590، ونخبة من علماء التفسير، التَّفسير الميسَّر، ص: 580.
(5) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 227.

وفي مستهلِّ سورة المرسَلات "أقسم تعالى بخمسة أشياء؛ تنبيهًا على جلالة قدر المقسَم به، وتعظيمًا لشأن المقسَم عليه، فأقسم الله بالرِّياح التي تحمل الرَّحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخيرَ أو الشَّرَّ، وبالملائكة الأبرار الذين يتنزَّلون بالوحي للإعذار والإنذار؛ أقسَمَ على أنَّ أمر القيامة حقٌّ لا شكَّ فيه، وأنَّ ما أوعد الله تعالى به المكذِّبين من مجيء السّاعة والثَّواب والعقاب كائنٌ لا محالة، فلا ينبغي الشَّكُّ والامتراء"(1)، "فالمقصود مِن هذا القَسَم تأكيد الخبر"(2).

معنى التَّعريف ودلالته:

جوازُ الحَمْلِ على العهد والجنس؛ لتَذْهَبَ في تصوُّره النَّفسُ كُلَّ مذهبٍ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ يجوز أن يكون التَّعريف للعَهْدِ العِلْميِّ، فيكون المرادُ نوعًا خاصًّا مِن المرسَلات والعاصفات والنّاشرات... إلخ، على أنَّ المقصود به أصنافٌ مِن الرِّياح والملائكةِ.

ويجوز أن يكون التَّعريف للجِنْسِ في ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، فيقال فيه: "قد عمَّ جلَّ ثناؤه بإقْسامِهِ كلَّ ما كانت صفتُه ما وصف، فكلُّ مَن كان صفتُه كذلك؛ فداخِلٌ في قَسَمه ذلك مَلَكًا أو ريحًا أو رسولًا من بني آدم مُرسَلًا"(3).

ونحو ذلك في ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، "فيقال: إنَّ الله تَعالى ذِكْرُه أقسَم بالنّاشرات نشرًا، ولم يخصِّص شيئًا مِن ذلك دون شيء، فالرِّيح تنشر السَّحاب، والمطرُ ينشُر الأرض، والملائكة تنشُر الكُتُب، ولا دلالة مِن وجه يجب التَّسليم له على أنَّ المراد مِن ذلك بعضٌ دون بعض، فذلك على كلِّ ما كان ناشرًا"(4).

(1) ابن علي محمد، مختصر التفسير: 3/ 476.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 419.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 125.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 127.

وكذلك في ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾، فقد "أقسَم ربُّنا جلَّ ثناؤه بالفارِقات، وهي الفاصِلات بين الحقّ والباطل، ولم يخصِّص بذلك منهنَّ بعضًا دون بعض، فذلك قَسَمٌ بكلِّ فارقة بين الحقّ والباطل، مَلَكًا كان، أو قرآنًا، أو غيرَ ذلك"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿عُرۡفٗا﴾:

دقَّـةُ الـبَـيـانِ القُرآنيِّ في انتقاء الألفاظِ المُلائِمَةِ لسياقاتِها

أصل ﴿عُرۡفٗا﴾: "متتابعة كتتابُع شَعْرِ العُرف، فحُذِف (متتابعة)، فبقي (كتتابُع)، ثمَّ حُذف المِثل، فبقي (تتابُع شَعْر العُرف)، ثمَّ حُذف (التَّتابُع) ثمَّ (الشَّعر)، فبقي ﴿عُرۡفٗا﴾"[2] على التَّشبيه، "والمعنى على التَّشبيه؛ أي: حال كونها عُرفًا، أي: شبيهة بعُرف الفرَس مِن حيث تَلاحُقِها وتَتابعُها كما أنَّه كذلك، أو على أنَّه مصدر كأنَّه قال: والمرسَلات إرسالًا، أي: متتابعةً"[3].

والحاصل أنَّ التَّعبير بـ ﴿عُرۡفٗا﴾ أفاد معنى التَّشبيه الذي لا يُفيده التَّعبير بـ (رَسَلًا)، وإن كان في هذا الأخير جناسُ الاشتقاق، وفيه موافقَةٌ لنسَقِ ما بعدَهُ.

بلاغَةُ التَّشبيهِ في ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾:

تَـجْـري الـرّيـاحُ مُـتَـتـابـعـةً كـالـعُـرف، بينَ لُـطْـفٍ وتـوسُّـط وعَصْفٍ

العُرْف مأخوذٌ مِن عُرف الفرَس، وهو اسم للشَّعر المتتابِع الثّابت في محدَّب الرَّقبة[4].

فقوله تعالى: ﴿عُرۡفٗا﴾، أي: متتابعةً على التَّشبيه بتتابُع عُرف الفَرَس، وهو الشَّعرات المتتابعة فوق عنقه؛ لأنَّه طرَف مستوٍ، بعضُه في إثر بعض، فهو مِن باب التَّشبيه البليغ؛ إذ شُبّهت الرِّياح أو الملائكةُ المرسَلون في تتابُعِهم بشعر عُرف الفَرَس، والعربُ تقول:

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 128.

(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغَيْب: 16/ 221.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانُه: 10/ 332.

(4) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 802.

يركب النّاس إلى فلانٍ عُرفًا واحدًا؛ إذا توجّهوا إليه، فأكثَروا[1]. وكان الأصلُ: والمرسَلاتِ متتابعةً كالعُرف، وهو عُرف الدّابة، كالفَرَس والضَّبع، أي: الشَّعر المعروف على قَفاها، فحذف (متتابعة) لدلالة التَّشبيه عليه، ثمَّ حذف أداة التَّشبيه مبالغةً"[2].

ثــراءُ المـعـاني ووَفْــرَتُــهــا باختِلاف الإعرابِ

توجيهُ نَصْب ﴿عُرۡفٗا﴾، وأثرُهُ في المَعْنى:

في انتصابِ قولهِ تعالى: ﴿عُرۡفٗا﴾ أوجه، ولكلٍّ منها أثرُه في المعنى:

أحدُها: أن يكون انتصابُه على الحالِ مِن ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، أي: أُرْسِلَت متتابعةً، يقال: جاؤوا عُرْفًا واحدًا؛ إذا توجَّهوا إليه، وأكثروا، وتتابعوا، أي: يتلو بعضُها بعضًا، ومنه: عُرفُ الفَرَسِ.

والثّاني: أن يَنْتَصِب على المفعول له، أي: أُرسِلت للعُرف، أي: للإحسان والمعروف، والعُرف: ضدُّ النُّكْر، يقال: أَوْلاه عُرْفًا، أي: معروفًا.

والثّالث: أن يَنْتَصِبَ على إسقاطِ الجارِّ، أي: أُرسِلت بعُرْفٍ، فحُذف الجارُّ، وأوصل الفعل إلى المجرور، أي: أُرسِلوا بالمعروف[3].

وهي معانٍ متآزرةٌ، فالأوَّل يَصِفُ حالَها ساعةَ إرسالِها، والثّاني يبيّن الغرضَ الذي مِن أجله أُرسلت، والثّالث يبيّن ما أُرسِلت به.

تفريعُ العَصْفِ على الإرسال، دون تريُّث ولا إمهالٍ

معنى (الفاء) ودلالَتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ فاء التَّفريع، فالعاصفاتُ تفريعٌ على المرسَلات، أي: تُرسَل، فتعصِف، والعصفُ يُطلق على قوَّة هبوبِ الرّيح عموما[4]. وقد دلَّت هذه الفاءُ على اتّصال سُرعة جَرْيهنَّ في نزولهنَّ وهُبوطِهنَّ بالإرسال مِن غير مُهلة، وهي - أي: الفاءُ - لعطف الصِّفة على الصِّفة؛ إذ الموصوف متَّحدٌ[5].

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 416، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 383، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 280.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 188.

(3) المنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 306.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 421.

(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 452، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 533.

توجيهُ الوَصْفِ بقولِهِ: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ بين الحقيقةِ والمجَازِ:

تَبْتَدِرُ العاصِفات أمرَ ربِّها، وتُذْعِنُ للأقضية التي أُرسِلت بها

توصَف الرِّيح بالعصف - وهو الشِّدَّة - لإهلاكها مَن تُرسَل عليهم، أو لأنَّها تأتي بالعصف، وهو ورق الزَّرعِ وحطامُه، أو تُنْعَتُ بذلك لسُرْعَتِها في مُضيِّها لتنفيذ أمره، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ [الأنبياء: 81](1)، فالوصف به هنا حقيقة، أمّا إن أريد به الملائكةُ؛ فاستعمالُ (العاصِفاتِ) بمعنى المُسْرِعاتِ سرعَةَ الرِّيح مجازٌ على سبيل الاستعارة، ولا يَبْعُدُ أن يراد بالعاصفاتِ: المذهِبات المهلِكاتُ بالعذاب، الذي أُرسِلن به مَن أُرسِلن إليه على سبيل الاستعارة أيضًا أو المجاز المرسَل(2)، ويمكن أن تكون قد شبِّهت بالرِّياح في شدَّة السُّرعةِ، فيكون استعارةً مكنيَّة وتخييليَّةً(3).

نكتة تعديد الصِّفات، وتعيين المراد بها:

عظَمَ الموصوفُ بتعظيم وصْفِه بالإقسامِ، وتعديدُه إبرازٌ لصُنوفِ الإنعامِ

أقسم اللّه سبحانه في أوَّل تلك السّورة الكريمة بأشياءَ عظيمةٍ مِن خلقه، ذَكَرَ ﷻ صفاتِها، ولم يَذْكُر أسماءَها(4). فأمّا الصِّفات؛ فهي لموصوفاتٍ أُريد أن تُعظَّم بصفاتها، وأمّا تعديدها؛ فإمّا أن يَرْجِع إلى موصوفٍ واحد، وإمّا إلى أكثر مِن موصوف، وأيًّا ما كان، فتعديدُها دليلُ تعظيمِ موصوفها، وجلالة قدره، "فأقسم اللّه بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر مِن عجائب اللّه وقدرته وقوام الوجودِ بإيجادِها(5). ولمّا كان المُقسَمُ به موصوفاتٍ قد حُذِفت، وأُقيمت صفاتُها مقامَها، وقع الخلاف في تعيينِ تلك الموصوفات(6)، ولا سيَّما ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، و﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾، و﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، فقيل: هي

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1724.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 188.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 505.
(4) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1723.
(5) الدّرَّة، تفسير القرآن وإعرابُه وبيانُه: 10/ 376.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 3731.

الرِّياح، وقيل: الملائكة أو الرُّسل، و﴿عُرۡفٗا﴾، أي: متتالية كعُرف الفَرَس، واختار كونَها الرّياحَ ابنُ مسعود، وابنُ عبّاس، واختار كونَها الملائكةَ أبو صالح عن أبي هريرة، وعن أبي صالح: أنَّها الرُّسلُ[1]. والحاصِلُ أنَّ الأوصاف الخمسة؛ إمّا أن تجْريَ على الملائكة، وإمّا على الرّياحِ[2].

فعلى القول بأنَّها الملائكة سمّاهم (المُرۡسَلاتِ)؛ لأنَّ اللّه تعالى يُرۡسِلُهُم بالوحي وغيره، وسمّاهم (العاصِفاتِ)؛ لأنَّهم يعصفون كما تعصف الرِّياح في سُرعة مضيِّهم إلى امتثال أوامر اللّه تعالى، وسمّاهم (النّاشِراتِ)؛ لأنَّهم يَنۡشُرون أجنِحَتَهُم في الجوِّ، وينشرون الشَّرائعَ في الأرض، أو ينشرون صحائف الأعمال، وسمّاهم (الفارِقاتِ)؛ لأنَّهم يُفَرِّقون بين الحقِّ والباطل.

وعلى القول بأنَّها الرِّياح سمّاها (المُرۡسَلاتِ)؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الرّوم: 48]، وسمّاها (العاصِفاتِ) مِن قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]، أي: شديدة، وسمّاها (النّاشِراتِ)؛ لأنَّها تنشر السَّحاب في الجوِّ، ومنه قوله: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [الرّوم: 48]، وسمّاها (الفارِقاتِ)؛ لأنَّها تُفَرِّق بين السَّحاب، ومنه قوله: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الرّوم: 48]، وأمّا (المُلۡقياتِ ذِكۡرًا)؛ فهُم الملائكة؛ لأنَّهم يُلۡقونَ الذِّكر للأنبياء ﷺ.

وأمّا العطف بالفاءِ؛ إذا كان في الصِّفات، فيدلُّ على أنَّها راجعَةٌ إلى موصوفٍ واحِدٍ، فإذا تقرَّر هذا؛ فالظّاهر أنَّه أقسَم أوَّلًا بالرِّياح، فهي مُرۡسَلاته تعالى، ويدلُّ عليه عطف الصِّفة بالفاء - كما قلنا - وأنَّ العصف مِن صفات الرِّيح في عدَّة مواضع مِن القرآن، والقَسَم الثّاني فيه ترقٍّ إلى أشرفَ مِن المقسَم به الأوَّل، وهم الملائكة، ويكون ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾ مِن صفاتهم - كما قلنا في عطف الصِّفات - وإلقاؤُهم الذِّكۡرَ - وهو ما أنزل اللّه - يصحُّ إسنادُه إليهم"[3].

نكتَةُ المغايرة بين الواو في ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، والفاء في ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ و﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾:

أوثِرت الفاء عند إرادة عطف الصِّفة على الصِّفة؛ لأنَّ الموصوف متَّحد، أمّا العدولُ

(1) عطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 400.

(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 220.

(3) أبو حيّان في كتابيه: البحر المحيط: 10/ 374، والنَّهر المادُّ: 5/ 486.

الفاءُ لعَطْفِ الصِّفات؛ تنزيلًا لها منزلَةَ تغيُّرِ الذّاتِ

إلى الواو في ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾؛ فلأنَّها غير (المُرْسلاتِ)، فالقسَمُ الأوَّل وصَفَهم اللّه بوصْفَيْن يتعقَّب أحدهما على الآخَر، والقسم الثّاني وصفهم بثلاثةِ أوصاف كذلك[1]، فعَطَفُهُم بالفاء؛ لتنزيل تغايُرِ الصِّفات منزلةَ تغايُرِ الذّات[2]. ولمّا كان العُصوف للعواصف يتعقَّب الهُبوب؛ عطفَ بالفاء تعقيبًا وتسبيبًا، فقال: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾، أي: الشَّديدات مِن الرِّياح عَقِبَ هُبوبِها"[3]، فـ "لِعَدَمِ انفِصال السُّرعة عن الإرسالِ؛ عُطِف بالفاء[4].

أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾؛ فهو استئنافُ قسَمٍ آخرَ؛ لذلك كانت بـ (الواو)؛ لعدم ترتُّبه بسُرعة على ما قبلَهُ[5]، "ولأنَّ النَّشر لا يتَّصل بالإرسالِ لا محالة، بل يكون الإرسالُ لغَيْرِ النَّشر[6].

ولمّا كان حصولُ النَّشر يترتَّب عليه الفَرْقُ من غير مُهلة؛ عطف عليه بالفاءِ، فقال: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾؛ لتفرُّعِ الفَرْقِ عنِ النَّشر[7].

وإلقاء الذِّكْرِ متفرِّع على الفَرق؛ لأنَّهم يخصّون كلَّ ذِكر بمَن هو مُحْتاجٌ إليه، فذِكرُ الكُفّار بالتَّهديد والوعيد بالعذاب، وذِكرُ المؤمنين بالثَّناء والوعد بالنَّعيم[8]؛ لذا فقد عُطِف بالفاء على ما قَبْلَهُ لتفرُّعه عنهُ، فقال: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾.

سرُّ إيثار الجَمْع بين الرِّياح والملائكةِ في القسَم:

بِـنَـبـاتِ الأرض تحيا الأبـدانُ، وبالوَحْي يَحْيا الوجدانُ

جُمِعَ بين الرِّياحِ والملائِكَة؛ لوجودِ مجانَسَةٍ بينَهما، فالملائكَةُ روحانيّون، فهم بسبَبِ لطافَتِهِم وسُرْعَة حَركاتِهم كالرِّياح، ولأنَّ

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 281.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 188.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 165.
(4) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 294.
(5) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 74، والشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 294.
(6) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 162.
(7) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 294، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 422.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 422.

كِلَيْهما مِن المَوْجوداتِ العلويَّة؛ لأنَّ الأصلَ في العطفِ بالواو أن يكون المعطوفُ بها ذاتًا غيرَ المعطوفِ عليه[1].

كما أنَّ حياةَ الأرضِ والنَّبات وأبدان الحيوان بالرِّياح، فإنَّها مِن روح اللّه، وقد جَعَلَه اللّه تعالى نُشورًا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكَة، فبِهَذَيْنِ النَّوعين يَحْصُل نَوْعا الحياةِ؛ ولهذا فُصِلَ أحدُ النَّوعين مِن الآخر بالواو، وجُعِل ما هو تابع لكلِّ نوع بعده بالفاء[2].

بلاغةُ ترتيب الأوصافِ على ما جاءت عليه ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾:

غايَةُ الإلقاءِ نَشْرُ الشَّرائع، وقَطْعُ الأعْذارِ والموَانِع

إنَّ ترتيب مُضيّ الأمر على الإرسالِ بِهِ والأمر بإنفاذه ظاهرٌ، وأمّا ترتيبُ إلْقاءِ الذِّكْرِ إلى الأنبياء - عليهم السلام - على الفَرْق بين الحقِّ والباطلِ، معَ ظُهور تأخُّر الفَرْق عن الإلقاء؛ فلتأويل الفَرْق بإرادَته، فحينئذٍ يتقدَّم على الإلقاءِ، أو لتَقَدُّم الفَرْق على الإلقاء من غيرِ حاجَةٍ إلى أن يُؤَوَّل بإرادَته؛ لأنَّ هذا الفَرْق يحصُل بنَفْسِ نزول المَلَك بالوحي، الذي هو الحقُّ المخالِف للباطل الذي هو الهوى ومُقْتَضى الرَّأي الفاسد، وإنَّما العِلم به متأخِّر[3].

وأيضًا فإنَّ إيثار تقديم نشرِ الشَّرائعِ ونشرِ النُّفوسِ والفَرقِ على الإلقاء؛ للإيذانِ بكونها غايةً للإلقاء، حقيقةً بالاعتناء بها، أو للإشعارِ بأنَّ كُلًّا مِن الأوصافِ المذكورةِ مُستقلٌّ بالدَّلالةِ على استحقاقِ الطَّوائفِ الموصوفةِ بها التَّفخيمَ والإجلالَ بالإقسام بهنَّ، ولو جيء بها على ترتيب الوقوعِ؛ لربَّما فُهِمَ أنَّ مجموعَ الإلقاءِ والنَّشرِ والفرقِ هو الموجِبُ لِما ذُكِرَ مِن الاستحقاقِ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 767، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 420.
(2) ابن القيّم، الضَّوء المنير: 6/ 257.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 188.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 77.

نُكْتَةُ التَّعبير بالمَفْعولِ المُطْلَق: ﴿عَصۡفٗا﴾ و﴿نَشۡرٗا﴾ و﴿فَرۡقٗا﴾:

زيادةٌ في البَيانِ، وتَقْويَةٌ للكَلامِ

أوثِر التَّأكيد بذِكْرِ المَصادِرِ زيادةً في البَيانِ وتقويةً للكلامِ في قولِه: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾، وهو مِن المحسِّنات اللَّفظيَّة[1]، فقوله تعالى: ﴿عَصۡفٗا﴾ مفعولٌ مطلَق مؤكِّد لعامله[2]؛ تأكيدًا لتحقيق الوصف؛ إذ لا داعيَ لإرادةِ رفْعِ احتِمالِ المجازِ[3]، أي: وحقِّ الرِّياح المرسَلات لعذاب المكذِّبين، فتَعْصِفهم عصفًا، وتُهْلِكهم إهلاكًا شديدًا، فقوله: ﴿عَصۡفٗا﴾ وصفٌ مؤكِّد للإهلاكِ الشَّديد[4].

بَلاغَةُ الجِناسِ:

تَعانُقُ جَمالِ المَبْنى مَعَ جَلالِ المَعْنى

بين ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ و﴿عَصۡفٗا﴾، وبين ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ و﴿نَشۡرٗا﴾، وبين ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾ و﴿فَرۡقٗا﴾: جناسُ الاشتِقاق، وهو مِن المحسِّنات اللَّفظيَّة التي لها وقْعٌ في الأذن، يَسْتَميلُها، فتَصغَى إليه، فيَنْتَبِه العقلُ، وهو المرادُ، مَعَ ما في التَّعبير بالمَصادِرِ مِن تأكيدٍ للأوْصافِ.

تَوْجيهُ الكِنايَةِ في ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾:

شَريعَتُنا مَحَجَّةٌ بيضاءُ، لَيْلُها ونَهارُها سَواءٌ

النَّشرُ: حقيقتُه ضدُّ الطَّيِّ، ويَكثُر استعمالُه مجازًا في الإظهارِ والإيضاحِ، وفي الإخراجِ، فـ (النَّاشِرات) إذا جُعِل وصفًا للملائكَة؛ جاز أن يكون نشرُهم الوحيَ، أي: تكرير نزولِهم لذلك، وأن يكون النَّشر كنايةً عن الوُضوح، أي: بالشَّرائع البَيِّنَة[5].

توجيهُ قولِه تَعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ بينَ الاستِعارَةِ والمَجاز:

ثَراءُ الدَّلالاتِ بتَنوُّعِ التَّأويلاتِ

الإلقاء: طَرْحُ الشَّيء على الشَّيْء، وهو في هذا الموضع للتَّبيين والإفهام، فالملائكَةُ يُلقون على الأنبياءِ، والأنبياء يُلْقون على الأُمَم، والعُلَماء يُلقون على المتعلِّمين[6].

(1) الزُّحيليُّ، المنير: 29/ 313، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 564.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابُه وبيانُه: 10/ 376.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 421.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 233.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 421.
(6) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 126.

فالإلقاء هنا بمعنى: الإيصالِ والإنزالِ لا الطَّرْح[1]، و﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾: الملائكةُ الذين يبلِّغون الوحيَ، وهو الذّكر، والإلقاءُ مُستَعارٌ لتَبْليغ الذّكر مِن العالَم العُلويّ إلى أهل الأرض بتَشْبيهِهِ بإلقاءِ شَيءٍ مِن اليَدِ إلى الأرْض[2].

أمّا على توجيهُ ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾ بالرّياح؛ فإنَّ الرّياح المَوصوفَةَ بصِفات القَهْر واللُّطفِ؛ لمّا كانت سببًا لتمسُّك العاقل بذِكْر اللّه تعالى والالتجاء إلى عفوه ورحمته وبَذْلِ الجهد في شكر نعمته؛ صارت تلك الرّياح كأنَّها ألْقَتِ الذّكر، فكان الإسنادُ إليها مجازيًّا[3].

توجيهُ القراءاتِ المتواترة في قوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾، وبيانُ وجهِ نَصْبِهما:

قرأ رَوْحٌ عن يعقوب ﴿عُذُرًا﴾ بالضَّمِّ، وقرأ باقي العشرةِ ﴿عُذۡرًا﴾ بالسُّكونِ، وأمّا ﴿نُذۡرًا﴾؛ فقد قرأ أبو عمرٍو وحفصٌ عن عاصم وحمزة والكسائيُّ وخلَفٌ ﴿نُذۡرًا﴾ بالسُّكونِ، وباقي العشرة قرؤوا بالضمِّ ﴿نُذُرًا﴾[4]. فالنُّذُر بالتَّثقيل والنُّذْر، مثل: النُّكر والنَّكير، وهُما جميعًا مَصْدَرانِ، ويجوز في النَّذير ضَرْبانِ، أحدهما: أن يكون مصدرًا كالنَّكير والشَّحيح، وعذير الحيّ، والآخر: أن يكون فعيلًا يُراد به: المنذِر، كما أنَّ الأليمَ يُراد به: المُؤْلِم، ويكون النَّذير مِن أنذر، كالأليم مِن آلَمَ، ويجوز تخفيف النُّذْر على حدِّ التَّخفيف في العُنْق والعُنُق، والأُذْن والأُذُن، والعُذْر يجوز فيه التَّخفيف والتَّثقيل[5]، ويجوز أن يكونا جَمْعَيْن لعَذيرٍ ونَذير، ويجوز أن يكون العُذُر جَمْعَ عاذِرٍ، كشارِفٍ وشُرُف، والمعنى في التَّحريكِ والتَّسكين واحد[6].

وأمّا انتصابُهما؛ فهوَ على البدل مِن ﴿ذِكۡرًا﴾، كأنَّه قيل: فالملقيات

كِتابٌ جليلٌ لا تَنْقَضي عَجائبُه، ولا يَشْبَعُ طالبُه

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 281.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 422.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 453.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 217.
(5) الفارسيُّ، الحُجَّة للقُرّاء السّبعة: 6/ 362 - 363.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 304.

عذرًا أو نذرًا، أو على المفعول مِن أجله، أو على أنَّهما مصدران في موضِع الحال، أي: عاذرين أو منذرين، ويجوز مع الإسكانِ أن يكونا جَمْعَيْن[1]، والحاصل أنَّ الضَّمَّ في ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾، على أنَّهما جمعان لـ (عذير) بمعنى المَعْذِرَة، و(نذير) بمعنى الإنذار، أو بمعنى (العاذر) أو (المنذِر)، والسُّكون على أنَّهما مصدرانِ[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالَتُها في ﴿أَوۡ نُذۡرًا﴾:

تـنـوَّعَ الـوحـيُ إعـذارًا وإنـذارًا، فلم يُبقِ لمحتَجٍّ أعذارًا

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نُذۡرًا﴾ للتَّنويع[3] والتَّقسيم[4]، فإنَّ المَلَك ينزل بالوحي مِن ربِّ العالمين إمّا "لإزالة أعذارِ المعتذِرين عن الإيمان؛ حتَّى لا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [المائدة: 19]، وإمّا لإنذار الكافرين والفاسقين؛ حتَّى يُقلِعوا عن كُفْرِهم وفُسوقِهم، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: 165]"[5].

بَلاغَةُ الإيجازِ في ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾:

الإيـجـازُ ثـوبُ الإعجازِ

قوله تعالى: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ "مصدران لـ (عذر)؛ إذا محا الإساءةَ، و(أنذر)؛ إذا خوَّف، أو جمعان لـ (عذير) بمعنى: المعذرة، و(نذير) بمعنى: الإنذارِ، أو بمَعْنى: العاذِر والمنذِر"[6].

وهذان اللَّفظانِ قَد بلَغا الغايةَ في الإيجاز والاختِصار، وحصول العظة والاعتبار، فإنَّ الذِّكر الذي تُلْقيه الملقيات هو الوحي الذي يبلِّغه المَلَك إلى الأنبياء والمرسلين، فيُحيي القلوب بالذِّكر، كما حَيِيَت الأرض بالماء المنزَّل مِن السُّحب المُزْجاةِ بالرِّياح.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 374.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 280.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 220.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 423.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 234.
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 274.

وهذا الوحيُ "إمّا عذرًا للمعتذِرين إلى اللّه تعالى بتَوْبَتِهِم واستغفارهم عندَ مُشاهَدَتِهِم لآثار نِعْمَةِ اللّه تعالى ورحمتِه في الغَيْثِ، فيَشْكرونَهُما، فتخصب أراضيهم، ويحُلُّ الخير بواديهم، وإمّا إنذارًا للذين يَكْفُرون بها"[1].

فحُذِف متعلِّق المَصْدَرَيْن، وطوبق بين اللَّفظيْن، وعُلِّل التَّنزيل، واستوعِبت الأقسامُ بالتَّفصيل، وكلُّ هذا في ثلاثِ كلماتٍ فقَطْ.

غرَضُ تطويلِ القَسَم في مُفْتَتَح السّورة:

تشويقُ السّامع لِما سيطرق القلوبَ والمسامِعَ

أقسَمَ اللّه تعالى في مُفْتَتَح هذه السّورة بأقسام خَمْسَةٍ على أنَّ القيامةَ وما فيها حقٌّ لا مِراءَ فيه، وكلُّه واقِعٌ ما له مِن دافع.

والمقصود مِن القَسَم: التَّنبيه على جلالة المقسَم به[2]، وفي تطويل القَسَم تشويقُ السّامع لتلقِّي المقسَم عليه[3]، الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾، والواقع أنَّ بينَ كلِّ قسَم ومقسَم عليه مناسبةَ ارتباطٍ في الجملة غالبًا، واللّه تعالى يقسِم بما شاء على ما شاء؛ لأنَّ المقسَم به مِن مخلوقاته، فاختيار ما يُقْسِم به هنا أو هناك غالبًا يكون لنوعِ مُناسبَةٍ، ولو تأمَّلناه هنا؛ لوَجَدْنا المُقْسَمَ عليه هو يوم القيامة، وهم مكذِّبون به، فأقسَم لهم بما فيه إثباتُ القُدْرَة عليه، فالرِّياح عرفًا تأتي بالسَّحاب تَنْشُرُه، ثمَّ يأتي المَطَر، ويحيي اللّه تَعالى الأرضَ بعدَ مَوْتِها، وهذا مِن أدلَّة القُدْرَةِ على البَعْثِ، والعاصِفات منها بشدَّة، وقد تَقْتَلع الأشجارَ، وتهدِمُ البيوتَ ممّا لا طاقة لهم بها، ولا قدرةَ لهم عليها، وما فيها مِن الدَّلالة على الإهلاك والتَّدمير، وكلاهما دالٌّ على القدرة على البعث، ثمَّ تأتي الملائكة بالبيان والتَّوجيه والإعذار والإنذار: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[4].

(1) عبد اللَّطيف الخطيب، أوضح التَّفاسير: 1/ 726.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 765.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 419.
(4) عطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 401.

علَّة الفَصْلِ:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾؛ لوُقوعِه جوابَ قسَم، فبينه وبين سابقه شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، فكأنَّ القسَم قد حوى سُؤالًا مضمرًا عن جوابِه، فجاء الجوابُ بغيرِ الواوِ.

نُكْتَةُ تَصْديرِ جُمْلَةِ جوابِ القَسَم بـ (إنَّ):

يَحسُن توكيدُ الأخبارِ لمواجَهَةِ الشَّكِّ والإنكار

صُدِّرت جملة جواب القسَم بـ (إنَّ)؛ تأكيدًا لتقويَةِ تحقيقِ وُقوعِ الجواب[1]، أي: إنَّ هذا كلَّه لواقعٌ، أي: لكائنٌ لا محالة، فلا مجال للشَّكِّ والافتراء[2]. ولمّا كان المخاطَبون بذلك ساعةَ نُزولِ الآياتِ هُم المشركين، وهؤلاء كانوا مُعْرِضين ومكذِّبين ومنكِرين، فقد حسُن توكيدُ الخبَرِ لِمواجَهَةِ هَذا الإنكارِ.

معنى (ما) ودلالَتُها في ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾:

خوطِبوا بما يَعلَمون، لو أنَّهم كانوا يَعْقِلون

(ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ موصولة بمعنى (الذي)، وهي اسم (إنَّ)، و﴿تُوعَدُونَ﴾ صِلَتُها، والعائد محذوف، أي: إنَّ الذي توعَدونَهُ لواقِعٌ[3]، وخُصَّ الموعودُ بمجيءِ القيامة؛ لأنَّ المذكورَ عقيبَ هذه الآيَةِ علاماتُ القيامة، فدلَّ ذلك على أنَّ المراد بالموعود هو القيامة فقط، ومَن قال: إنَّ المراد كلُّ ما توعدونه مِن الخير والشَّرِّ؛ فقد نظَر إلى عُموم لفظِ الموصول[4].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تُوعَدُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول، وبيان المخاطَب به:

لا ينقطع الوعدُ ولا الوعيد؛ استدامَةً للتَّرغيب والتَّهديد

قوله تعالى: ﴿تُوعَدُونَ﴾، أي: مِن العذاب في الدُّنيا والآخرة، ومِن قيام السّاعة ومِن البَشائر لأهلِ الطّاعة، ولمّا كان هذا أمرًا مستمرًّا؛ فقد عُبِّر عن ذلك بالمضارع الدّالِّ على التَّجدُّد، "وبناه للمفعول؛ لأنَّه المرهوب لا كونه من معيَّن مع أنَّه معروف أنَّه ممّا تَوَعَّد به اللّه على

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 423.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 376.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 67.
(4) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 454، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 423.

لسانِ محمَّد ﷺ"[1]. أمّا المخاطَبون به؛ فهم كُفّار مكَّة أصالةً[2]، وكلُّ مَن كانَ على شاكِلَتِهم ممّا يَصلُح للخِطاب.

نكتَةُ حَذْفِ مفعول الوَعْدِ:

من محاسن نَظْمِ الكلام حذفُ ما تُدْرِكُه الأفهامُ

مفعولُ الوَعْدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: ما توعَدون به مِن أمر السّاعة[3]، ويدخل في هذا "قيامُ السّاعة، والنَّفخُ في الصّور، وبعثُ الأجساد، وجمع الأوَّلين والآخِرين في صعيد واحد، ومجازاةُ كلِّ عامل بعمله: إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، إنَّ هذا كلَّه ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، أي: لكائن لا محالة"[4]، فهو واقِعٌ بكم ونازل عليكم[5]، وذلك لأنَّ اللّه تَعالى "ذَكَر عَقيب هذه الآيات علاماتِ يوم القيامة، فدلَّ على أنَّ المرادَ مِن هذه الآيةِ هو القيامَةُ فقَط"[6]. وإنَّما حُذِفَ مفعولُ الوَعْدِ للعِلم به، ولإدخال الرَّهبة في نفوسِ المُخاطَبين، واختصارًا للألفاظ طلبًا للإيجازِ.

نكتَةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

مواجَهَةُ الإنكار، وقَطْعُ الحُجَجِ والأعْذارِ

لَمّا تمَّت هذه الأقْسام، مشتملةً على أمورٍ عِظام، منبِّهةً على أنَّ أسبابَها مِن الرِّياح والمياه كانت مع النّاس، وهم لا يَشْعُرون بها، وأيضًا فإنَّه يجوز أن تكونَ القيامة كذلك سواء بسواء، قال ذاكرًا للمُقسَم عليه مؤكِّدًا لأجل إنكارهم: ﴿إِنَّمَا﴾[7]، ثُمَّ "دخلت اللّام على خبر (إنَّ) للتَّأكيد؛ لأنَّ الموضِعَ موضِعُ تأكيدٍ؛ لأنَّ القسَم يؤكِّد به الكلامُ"[8].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 167.
(2) المحلّيُّ، تفسير الجلالين، ص: 784.
(3) ابن الجوزيِّ، زاد المسير: 4/ 383.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 297.
(5) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 177.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 768.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 167.
(8) المنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 308.

وجاءت الجملةُ اسميَّةً؛ للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام، وهذا أيضًا مِن ضروب توكيد الكلام، والغرضُ مِن ذلك مواجهَةُ إنْكار الكافرين الذين كذَّبوا القرآنَ، وكَفَروا بالبَعْثِ والجزاءِ.

نكتة التَّعبير باسْمِ الفاعل (واقِعٌ):

توكيدُ الوقوع، وأنَّه غيرُ مَرْدودٍ ولا مدفوعٍ

قوله تعالى: "﴿لَوَٰقِعٌ﴾، أي: متحتِّمٌ وقوعُه، مِن غير شكٍّ ولا ارتياب"(1)، وفي التَّعبيرِ باسم الفاعل دلالةٌ "على تحقُّق وقوعه؛ لأنَّه حقيقةٌ في الحالِ اتِّفاقًا، فيُفيد التَّعبيرُ به التَّحقُّقَ في الماضي"(2)، ومِن هنا كان التَّعبير باسم الفاعل دالًّا على التَّأكيد(3).

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾:

في الوُقوع إشارةٌ إلى الاستقرار، وتحقيقُ وعيدِ العليِّ القهّار

(الواقِعُ) في كلامِ العرب: الثّابِت، وأصلُهُ عِنْدَهُم: "السّاقط على الأرض، فاستُعير للشَّيء المحقَّق تشبيهًا بالمستقرّ"(4)؛ لأنَّ الذي يقَعُ على الأرض؛ فإنَّه يستقرُّ عليها، ويَثْبُت، مع ما في التَّعبير بمُفْرَدَةِ الوُقوعِ مِن معاني السُّقوط مِن عُلوٍّ، والتَّحطيم والتَّهشيم ونحو ذلك.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّشر والنَّثر والتَّفريق:

النَّثر مُختَصٌّ بتفريق الكثيرِ، ولا يُستعمَل في التَّفريق بين شَيئَين، وفي النَّشْرِ فتحٌ وبَسْطٌ

(فرق) تدلُّ تصريفاتُه على تمييزٍ وتَزْييلٍ بين شَيئَيْنِ(5)، فيقال: فرَّق بين الحقِّ والباطل، ولا يقال: نَثَرَ بينهما، ويُستعمَل التَّفريق في تشتيتِ الشَّملِ والكلمة، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102]، وقوله ﷺ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94].

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 904.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 510.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 296.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 423.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).

ونَثْرُ الشَّيءِ: نَشْرُه وتفريقُه(1)، ويقال: نَثَرَ الحَبَّ والجَوْزَ والسُّكَر، أي: رماه متفرِّقًا(2)، ويتبيَّن ممّا سبق فرقٌ دقيقٌ بين (النَّثْر) و(التَّفريق)، وهو أنَّ النَّثر مختَصٌّ بتفريق الكثيرِ، ولا يُستعمَل في التَّفريق بين شَيْئَيْنِ، وأنَّه دالٌّ على نَثْرِ هذا الكثيرِ مع تفريقِه.

و(نشر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتح شيءٍ وتَشَعُّبه، ومنه: نشرتُ الكتابَ: خلاف طويتُه(3)، والنَّشْرُ في الأصل: بَسْطُ الشَّيءِ ومدُّه، ونقيضه: الطَّيُّ(4)، والمعنى المحوريُّ لجذره: تَفريقٌ ببَسطٍ ومدٍّ(5).

وقد أوثِر لفظُ (النَّشْر) دون النَّثْر والتَّفريق في قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾؛ لِما في النَّشر مِن فتح وبَسط، فممّا ورد في تفسير قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: أنَّها الملائكة الموكَّلون بالسُّحُب، ينشرونها(6)، أو ينشرون أَجْنِحَتَهُم في الجوّ عند النُّزول بالوحي(7). وورد أنَّها الملائكةُ تَنشر كُتُبَ اللّٰه ﷻ(8)، وأنَّها الرِّياح يُرْسِلُها اللّٰه تعالى نَشْرًا بين يدي رَحْمَتِه، أي: تَنْشُر السَّحاب للغَيْثِ(9).

وأنَّها الأمطارُ؛ لأنَّ اللّٰه ﷻ يَنْشُر بها النَّباتَ بقدرته(10)، والنَّشْر في هذا التَّأويل بمعنى: الإحياء، يقال: نشر اللّٰه تَعالى الميّتَ وأَنْشَرَهُ، أي: أَحْياهُ(11)، وفي إحياءِ النَّباتِ فتحٌ وبَسْط.

وورد أنَّها الصُّحُفُ تُنْشَرُ عَلى اللّٰه تَعالى بأعمال العِبادِ(12)، قال اللّٰه ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: 10]، أي: فُتِحت بعد أن كانت مطويَّةً، والمراد: صُحفُ الأعمال التي كَتَبَت

(1) الرّاغب، المفردات: (نثر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (نثر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النواظر، ص: 583.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشر).
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.
(7) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 430.
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 127، والماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 176، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.
(9) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.
(10) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 127، والماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 176، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.
(11) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.
(12) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 176، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 155.

الملائكةُ فيها ما فعَلَ أهلُها من خيرٍ وشرٍّ، تُطوَى بالموت، وتُنشَر يومَ القيامة، فيقف كلُّ إنسان على صحيفته، فيَعلم ما فيها[1].

وبعدما ذكرَ الطبريُّ أكثرَ من تأويلٍ في تفسير قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرًا﴾، قال: "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصّواب أن يقال: إنَّ اللّه تعالى ذِكرُه أقسمَ بالنّاشِرات نَشْرًا، ولم يُخَصّص شيئًا من ذلك دون شيء... ولا دلالة مِن وجه يجب التَّسليم له على أنَّ المراد من ذلك بعضٌ دون بعض، فذلك على كلِّ ما كان ناشرًا"[2]، فدلَّ هذا على أنَّ لفظَ النَّشرِ جامعٌ لكلِّ ما سبق ذِكرُه، وهذا مِن أسرار إيثار لفظه دونَ النَّثر والتَّفريق في هذه الآيةِ.

وفي قول اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ [الأعراف: 57]، وقرأ حمزَةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ (نَشْرًا) – بفتح النّون وإسكان الشّين – عَلى المَصْدَر، وقال القرطبيُّ بعد ذِكْرِه هذه القراءَة: "فكأنَّها كانت مطويَّةً، فنُشِرَت عند الهبوب"، ثُمَّ قال: "وقد قيل: إنَّ نَشرًا (بالفتح) من النَّشر الذي هو خلاف الطَّيّ على ما ذكرنا، كأنَّ الرّيحَ في سكونها كالمطويَّة، ثُمّ تُرسَلُ من طيِّها ذلك، فتصير كالمُنْفَتِحَةِ[3].

الوُقوع والهويّ والسُّقوط:

الهويُّ سُقوطٌ شديدٌ، والوقوعُ في الأصلِ ثُبوتُ الشَّيءِ واستقرارُه

الهويُّ أخَصُّ مِن السُّقوط، فهو سُقوطٌ شديدٌ، وهذا ظاهرٌ في قول اللّه ﷻ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحجّ: 31]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ [القارعة: 8 - 11].

أمّا السُّقوط؛ فقَد يكون شديدًا، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 234.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 578.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/ 229.

﴿كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطور: 44]، وقد يكون خفيفًا، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59].

وأمّا الوقوع؛ فهو في الأصل: ثُبوتُ الشَّيءِ واستقرارُه[1]، ويُعَبَّر به عن السُّقوطِ أيضًا[2]، ويدلُّ معنى الثُّبوتِ الذي في الوقوع على حدوثِ الشَّيءِ وتحقُّقِه بلا ريب؛ ولاختصاصِه بهذا أوثِر لفظُه دون الهويّ والسُّقوطِ في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (وقع).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (وقع).

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ
نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ
١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾

[المرسَلات: 8 - 15]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قسَمٌ ووعيدٌ، وبيانٌ لصوَر التَّهديدِ

لمّا أقسَم اللّه سُبحانَه على أنَّ ما يوعَد الخلقُ به واقعٌ لا رَيْبَ فيه، وكان المقسَمُ عليه أمرًا عظيمًا تَشيبُ لِهَوْلِه الولدان، وترهف له القلوبُ والآذان؛ أعقبَ القسَمَ بتَفْصيلِ المَوعودِ العظيم ومَشْهَد وُقوعِه؛ تصويرًا لانفِراط نِظام الكَوْن بعدَ إحْكامِه، وتبدُّلِ معالِمِه بعدَ انتِظامِه؛ إيذانًا بأنَّ الحسابَ قد آن أوانُه، وأنَّ الجزاء المرتقب حان وقتُه وزمانُه[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُمِسَتۡ﴾: أصل (طمس) يدلُّ على مَحْوِ الشَّيء ومَسْحِه، الطَّمْسُ والطُّموس: الدُّروس، وإزالةُ الأثرِ بالمَحْو[2]، وطَمَس الطَّريقُ؛ إذا درس، وامَّحى، وطموسُ البَصَر: ذهابُ نورِه وضَوْئِه، والطَّمس كذلك: التَّباعد، يقال: طمس الرَّجلُ، يطمس؛ إذا تباعَدَ.

والطّامس: البَعيد[3]، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾، أي: مُحيَ نورُها، ومُحِقَت[4].

2) ﴿فُرِجَتۡ﴾: أصل (فرج) يدلُّ على تفتُّح في الشَّيء[5]، الفَرْجُ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 169.
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (طمس).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طمس).
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 304، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 274.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرج).

والفُرْجَةُ: الشَّقُّ بين الشَّيئين كفُرْجَةِ الحائط[1]، والفَرْجُ: ما بين الرّجْلين، وكنّي به عن السَّوءَة، وكثُر حتّى صارَ كالصَّريح فيه، واستعير الفَرْجُ للثَّغر وكلِّ موضِعِ مخافَةٍ، وجمعهُ: فُروجٌ، سُمّي فرجًا؛ لأنَّه غيرُ مَسْدودٍ[2]، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾، أي: انشقَّت[3].

3) ﴿أُقِّتَتۡ﴾: أصل (وقت) يدلُّ على حدِّ شيءٍ وكُنْهِهِ في زمانٍ وغيرِه[4]، الوَقتُ: نهايَةُ الزَّمان المفروض للعمَلِ، ومقدار مِن الزَّمان، وكلُّ شيء قدَّرت له حينًا؛ فهو موَقَّت، وكذلك ما قدَّرت غايته؛ فهو موقَّت وموقوت؛ إذا بيَّن للفِعْل وقْتًا يُفعَل فيه[5]، وقَّتُّ كذا: جعلت له وقْتًا، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوَعْدُ الذي جُعِلَ له وقْتٌ[6]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾، قال الزَّجاجُ: جَعَلَ لَها وقتًا واحِدًا للفَصْلِ في القضاءِ بينَ الأُمَّة[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهـوالُ يـوم القيامة عظيمَةٌ، وشـدائِـدُه على المكذِّبين وخيمَةٌ

يُخْبِرُنا اللّه ﷻ في هذا النَّصِّ القرآنيِّ المباركِ عَن بعضِ أهوالٍ وعلاماتٍ في يوم القيامَةِ التي يشيب لِهَوْلِها الولدان مِن شدَّة وقْعِها وعَظَمَة أمْرِها وظُهور أثَرِها، وهي تتمثَّل في مَحْو ضوء النُّجوم وذهابه، وانشقاق السَّماء، واقتلاع الجبال مِن أماكنها بسرعة، وتحديد وقتٍ لاجتماع الرُّسل في يوم القيامة للشَّهادة على الأُمَم في هذا اليوم العظيم، الذي يَفْصِلُ اللّه تعالى فيه بين الأُمَم وأنبيائِهم، وبين الخلائِقِ بأعْمالِهم، إمّا إلى الجنَّة، وإمّا إلى النّار، والذي أعدَّ اللّه تَعالى فيه للمكذّبين عذابًا شديدًا وإهلاكًا عظيمًا[8].

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فرج).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (فرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقت).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (وقت).
(6) الجوهريُّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (وقت).
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (وقت).
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 304 - 305، والهرريُّ، حدائق الروح والريحان: 30/ 536 - 539.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾:

بينَ الاستِئْنافِ والتَّفريعِ يَحصُلُ الإنذارُ والتَّقريعُ

يجوز أن تكون الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾؛ "للتَّفريع على قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾؛ لأنَّه لمّا أفاد وقوعَ البعث، وكان المخاطَبون ينكرونَهُ، ويتعلَّلون بعدم التَّعجيل بوُقوعِه؛ بيَّن لهم ما يحصُلُ قَبْلَهُ زيادةً في تهويله عليهم، والإنذار بأنَّه مؤخَّر إلى أن تَحْصُلَ تلك الأحداثُ العظيمة"[1]، فذَكَر "ما لا تَحْتَمِلُه العقول؛ لتزدادَ الهَيْبَة، ويتعاظَم الخَوْفُ معبِّرًا بأداةِ التَّحقُّق: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾"[2].

ويجوز أن تكونَ الفاءُ استِئْنافيَّةً[3]، فكأنَّه ابتُدِئَ بها كلامٌ جديدٌ عن أحداثِ القيامة بعد تقدُّم الإقسام على وقوعها.

دلالة التَّعبير بـ (إذا)، ونكتةُ تَكْرارِها دون الاكتفاءِ بالعَطْفِ:

تـكـرارٌ لتوكيدِ الوَعيد؛ زيادةً في التَّخويف والتَّهديدِ

(إذا) ظرفيَّة شرطيَّةٌ، وهي تفيد الحدوثَ المحقَّقَ[4]، وتدلُّ على أنَّ ما بعدها متيقَّنُ الوقوع، فلا مجال للامتراءِ فيه، وقد حسُن مجيئُها بعد الإقسام؛ لتكون توكيدًا بعد توكيدٍ.

وقد أُعيدَت هنا؛ "تأكيدًا للمعنى وزيادةً في التَّخويف"[5]، وكرِّرت "في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعدَ حروف العطف مع إغناءِ حرفِ العطف عن إعادة (إذا)، كما في قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾ [القيامة: 7 - 10]؛ لإفادة الاهتمام بمضمون كلِّ جملة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 423.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 168.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانُه: 10/ 333، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 199، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 293.
(4) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 229.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 169.

مِن هذه الجُمَل؛ ليكونَ مَضمونُها مستقلًّا في جَعْلِهِ علامةً على وُقوع ما يوعَدون"[1].

دلالة دخول (إذا) على الاسم: ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلْجِبَالُ﴾ و﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

﴿ٱلنُّجُومُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ مرفوعَةٌ "عند أهل البَصْرَةِ على الفاعليَّة، ورافعُها فعلٌ مضمَر يفسِّره ﴿طُمِسَتْ﴾، وعند أهل الكوفةِ على الابتداءِ، والخبرُ ﴿طُمِسَتْ﴾، والوجهُ هو الأوَّل؛ لأنَّ (إذا) فيها معنى الشَّرطِ، والشَّرطُ بالفعل أولَى"[2]، فإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ هذا التَّأويل فيه زيادةُ مَبْنًى - وإن كانت مقدَّرة - على التَّأويل الآخَر، وزيادةُ المبنى زيادةٌ في المعنى، فيكون تكرارُ الفعلِ مِن باب التَّوكيد الذي يحسُن في مثل هذه السِّياقات، فالتَّقدير: إذا طُمِست النُّجوم؛ طُمِست، وإذا فُرِجت السَّماء؛ فُرِجت، وهكذا.

تكرارُ الفِعْلِ زيادَةٌ في المَبْنى؛ لزيادةِ تقريرِ المَعْنى

معنى التَّعريف ودلالتُه في ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلْجِبَالُ﴾ و﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

الأقربُ في تعريفِ السَّماء أن يكون للعَهْدِ العلميِّ، فيُراد به السَّماء المعهودةُ، وهي السَّماء الدُّنيا، فإنَّ الانشقاقَ والانفِطارَ والانفِراجَ سيحدُث فيها هي كما يَشْهَدُ له ظاهر القرآن، وكذا ما سيحدثُ في أجرامها، نحو ما سيحصُل للشَّمس مِن تكويرٍ، وللقمر مِن خسْفٍ، وللنُّجوم مِن انطماسٍ وانكِدارٍ، وللكواكب مِن انتِثارٍ... كلُّ هذا خاصٌّ بالسَّماء الدُّنيا لا بغيرها، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصّافّات: 6]، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصّلت: 12].

لن تُبقيَ القيامَةُ على نَجْمٍ ولا جبل، وتؤجَّل إليها شهادَةُ الرُّسل

والأقرب في تعريف باقي الألفاظِ أن يكونَ للجِنس، فيشمَلُ كلَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 424.

(2) المنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 308.

نجْمٍ وجَبَلٍ ورَسولٍ، فلا يُخَصُّ منها نجمٌ دون نجم، أو جبل دون جبل، أو رسولٌ دون رسولٍ.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ دون المَصابيحِ أو البُروج:

في النُّجوم طلوعٌ وظهورٌ وبُدوٌّ، يناسِبُهُ الطَّمس الذي هو الإزالَةُ والمَحْوُ

تدورُ مادَّة (نجم) في اللُّغة حول الظُّهور والطُّلوع، فيقال: نَجَمَ الشَّيءُ يَنجُم نُجومًا، أي: ظهَر، وطَلَعَ، وكلُّ ما طَلَعَ، وظَهَر؛ فقد نَجَمَ[1].

أمّا الطَّمس؛ فهو يدلُّ على محو الشَّيء ومسحِه وإزالة أثرِه، فالطُّموس: الدُّروس والامِّحاء، والطَّمس: استِئصالُ أثَرِ الشَّيء[2].

ومِن هنا تظهر علَّة إيثار ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ في التَّعبير دون غيرها، فيُراد بها هنا أجرامُ السَّماء التي لها طلوع وظهور، وسيذهب بها جميعًا الطَّمسُ الذي هو المحو وإزالة الأثر.

وباستقراءِ القرآن الكريمِ يظهَرُ أنَّ التَّعبير بالمصابيح يَقْتَرِنُ بالزِّينة والحفظ، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ [فصِّلت: 12]، وقوله سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [المُلك: 5]؛ لِما في المصابيح مِن قوَّة الإحراقِ.

أمّا البروجُ؛ فهي المنازِلُ: منازِلُ أجرام السَّماء لارتفاعها وظهورها، ويُستفاد منها في معرفة السِّنين والحسابِ والفصولِ والمناخ، ونحو ذلك، وهذه لا يُناسِبُها التَّعبيرُ بالطَّمْسِ.

دلالَةُ التَّعبير بالماضي ﴿طُمِسَتۡ﴾ و﴿فُرِجَتۡ﴾ و﴿نُسِفَتۡ﴾ و﴿أُقِّتَتۡ﴾ و﴿أُجِّلَتۡ﴾ مبنيًّا للمفعول:

وعدٌ متحقِّق الوقوعِ، والعلمُ بفاعِلِه يقينيٌّ مَقْطوعٌ

التَّعبير بالماضي يفيد التَّحقيق وتأكيدَ الحصول، وهذه الأحداث التي ذُكِرت في الآيات إنَّما ستقع في المستقبل، غيرَ أنَّه قد عُبِّر عنها

---

(1) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نجم).

(2) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طمس).

بلفظ الماضي؛ إمعانًا في تأكيدِ وُقوعِها، وأنَّها ممّا نُزِّل منزلة ما وقَع، وانتهى، فهذا وعدُ اللّه تعالى، ولا يخلف اللّه سُبحانَهُ وعده، ولا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه سبحانه وبحمده، وقد حسُن الخروجُ عَن مُقْتَضى الظّاهر في سياق الرَّدِّ على إنكار الكافرينَ المكذِّبين.

وأمّا بناءُ هذه الأفعال للمفعولِ؛ فلأنَّ المقصودَ الاعتبارُ بحُصولِ الفِعْلِ، وتأكيد تحقيقه، لا بتَعْيينِ فاعِله، وتنبيهًا على أنَّه مِن المعلوم أنَّ فاعلَها هو اللّه سُبْحانَهُ تعالى؛ إذ لا يَقْدِرُ على فِعْلِ هَذا أحَدٌ غيرُه[1]، وقد أدَّى البناءُ للمفعولِ هُنا إلى الاختصارِ والإيجازِ مع رعايةِ الفاصلَةِ.

معنى (الواو) ودلالَتُها في ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ﴾:

أحداثُ القيامَةِ عظيمَةٌ، وأهوالُها جسيمَةٌ، لا تخشع لها إلّا القلوبُ السَّليمة

(الواو) في الجمل الثَّلاث عاطفة، والجُمل بعدها معطوفة على جملة: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[2]، وقد حسَّن الوصلَ بين الجمل مجيئُها على نسَقٍ واحِدٍ مع اتِّحاد المضمونِ الذي هو الإخبارُ عن علاماتِ يومِ القيامة وأحداثها العظيمَةِ، فكانت كأنَّها قذائفُ متتاليَةٌ متواليَةٌ تقرَعُ الأسماع، وتُرْهِبُ القلوبَ.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿فُرِجَتْ﴾ دون (انشقَّت)، أو (انفطرت):

الانفراج تفتُّحٌ لإلقاءِ الذِّكر، أو لمجيءِ الحُكْمِ والأمر

تدور مادَّة (فرج) حول مَعاني الخَلَل والتَّفتُّح في الشَّيء، ومِن ذلك الفُرجة في الحائط وغيرِه، أي: الشَّقُّ[3]، ومعناه المحوريُّ: انفتاحٌ أو متَّسعٌ في أثناء جِرمٍ كثيفٍ أو بين أجرامٍ[4].

أمّا الانشقاقُ؛ فيدلُّ على الانصِداعِ في الشَّيء، فالشَّقُّ: الصَّدعُ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 170، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 425.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 333، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 293 - 294.

(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرج).

(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرج).

في عودٍ أو حائطٍ أو زُجاجَة[1]، ومعناه المحوريُّ: صدعُ الشَّيء الشَّديد صدعًا نافذًا إلى عُمقه[2].

وأمّا الانفطارُ؛ فيدلُّ على فتْح شيءٍ وإبرازِه، وأصلُه: الشَّقُّ طولًا، يقال: فطَرَ الشَّيءَ يَفْطُرُه فطْرًا فانْفطَر، وفطَّرَه: شَقَّهُ، وتَفَطَّرَ الشَّيءُ: تَشقَّقَ، والفَطْر: الشَّقُّ[3]، ومعناه المحوريُّ: خروجُ الشَّيءِ أو نفاذُه أوَّلَ أمرِه شاقًّا ما فوقَهُ بضَغْطٍ أو نحوه[4].

فخلاصةُ ما سبق أنَّ الفَرْج: تفتُّح وخلَلٌ، والشَّقُّ: انصداع نافِذ إلى العمق، والفَطْر: الشَّقُّ طولًا المؤدّي إلى البُروز.

ومنه تظهر مناسبة التَّعبير بالانفراج هاهنا؛ لأنَّه سَبَقَه كلامٌ عن الملائكة التي تلقي الوحي في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾، وذُكِر بعدها كلامٌ عن تأجيل الرُّسل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾، فهذا كلُّه يُناسِبُه التَّفتُّح والاتِّساع: التَّفتُّح لإلقاء الذِّكر، أو لمجيء الحُكم والأمر.

سرُّ ترْكِ ذِكر الأرضِ في الآيات:

تحسُن الإشارةُ إذا فُهِمت مِن العبارة

ذَكَرَت الآياتُ بعضَ علاماتِ يوم القيامةِ وأهوالِه العَظيمَة، فذَكَرَت انطِماسَ النُّجوم، وانفراجَ السَّماء، ونسْفَ الجبال، ولم تَذْكُر الأرضَ صراحةً، ولكنَّها ذكرت ما يدلُّ على حالها، وذلك بذِكر ما يحدُثُ للجبال، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ﴾، "أي: على صلابتها ﴿نُسِفَتۡ﴾، أي: ذُهِب بها كلِّها بسُرْعَةٍ، ففرَّقَتْها الرِّياح، فكانت هباءً منبثًّا، فلم يَبْقَ لَها أثَرٌ، وذلك كما يُنسَف الحَبُّ، فزال

(1) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فطر).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فطر).

ثباتُ الأرض بالأسباب التي هي الرَّواسي؛ لأنَّ تلك الدّارَ ليسَت بدارِ أسبابٍ"[1].

بلاغةُ الكِنايَةِ الرَّمزيَّة في ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ﴾:

في التَّعبير عن طَمْسِ النُّجوم وفرْجِ السَّماء ونسْفِ الجبال "كنايةٌ رمزيَّة على تحقيق وقوعه؛ لأنَّ الإخبارَ عن أماراتِ حُلولِ ما يوعدون يَسْتَلْزِمُ التَّحذيرَ مِن التَّهاون به؛ ولذلك خُتِمت هذه الأخبارُ بقوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾"[2].

نكتَةُ الإخْبارِ عَن الرُّسل بصيغَةِ التَّأنيث ﴿أُقِّتَتۡ﴾ و﴿أُجِّلَتۡ﴾:

يدلُّ التَّأنيث على التَّكثير، وفي القيامة يُجمَع كلُّ نذير

أُخبِر عن الرُّسل بصيغة التَّأنيث في قوله تعالى: ﴿أُقِّتَتۡ﴾؛ لأنَّ لفظَ (الرُّسُل) جَمْعُ تكسيرٍ، فيجوز فيه الوجهانِ، "ولأنَّ مجيء الفعلِ بصيغة التَّذكير يدلُّ على القِلَّة، ومجيء الفعل بصيغة التَّأنيث يدلُّ على الكثرة، كما قال تعالى في سورة يوسف: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]"[3].

والتَّكثيرُ هُنا مرادٌ مِن حيث كونُ المرادِ جَمْعَ الرُّسل جميعًا، لا فريقًا منهم، وذلك كما قال تعالى: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في قوله تعالى: ﴿أُقِّتَتۡ﴾:

تُعاقِب العربُ بينَ الواوِ والهَمْزَةِ

قرأ أبو عمرو: ﴿وُقِّتَتۡ﴾ بواوٍ بدل الهمزةِ وتشديد القافِ، وقرأ أبو جعفرٍ: ﴿وُقِتَتۡ﴾ بواوٍ وتخفيفِ القافِ، وقرأ الباقونَ - وهو الوجهُ الثّاني لابن جمّاز عن أبي جعفرٍ - : ﴿أُقِّتَتۡ﴾ بالهمزِ في أوَّلِه[4]، "والعرب تُعاقِب بين الواو والهمزة، كقولهم: وكَّدت، وأكَّدت،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 169.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 424.
(3) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 3/ 362.
(4) أبو عليّ الفارسيُّ، الحُجَّة للقُرّاء السَّبعة: 6/ 364، وابن الجزري، النشر: 2/ 396، ومحمد سالم محيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 3/ 325.

ووَرَّخت الكتاب، وأرَّخته، ووَرَّجت بين القوم، وأرَّجت، ووِشاح وإشاح، ووِكاف وإكاف، ووِسادة وإسادة"[1].

والقراءتان: ﴿وُقِّتَتۡ﴾، و﴿أُقِّتَتۡ﴾ بمعنى واحد، فمن قرأ ﴿أُقِّتَتۡ﴾ بالهمز، فإنَّه أبدل الهمزة مِن الواو لانضمام الواوِ، وكلُّ واو انضمَّت، وكانت ضمَّتُها لازمةً؛ جاز أن تُبْدَل منها همزة، ومعنى ﴿أُقِّتَتۡ﴾: جُعِل لها وقتٌ وأجَل"[2].

"والأصل فيها (الواو)؛ لأنَّه مشتقٌّ مِن الوقت، قال جلَّ وعزَّ: ﴿كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النِّساء: 103]، فهذا مِن (وُقِتَت) مخفَّفة، إلّا أنَّ الواو تُستَثْقَل فيها الضَّمَّة، فتُبْدَل فيها همزة[3]. وأمّا قراءةُ أبي جعفرٍ ﴿وُقِتَتۡ﴾ بواوٍ وتخفيفِ القاف؛ فإنَّ معناه بمعنى ما تقدَّمَ، أي: جُعِلَ لَها يومُ القيامَةِ وقْتًا، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾ [الدخان: 40][4].

علَّة فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ عن سابقه:

قوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿أُجِّلَتۡ﴾، وهذه الجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمَرٍ[5]، أي: إنَّها "مقولُ قولٍ محذوفٍ في محلّ نصبٍ على الحال مِن مرفوع ﴿أُقِّتَتۡ﴾، أي: يقال: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾"[6]؛ ولذلك فُصِلت عَن سابِقَتِها؛ لأنَّ الأصلَ في جملةِ الحالِ فصلُها عمّا قبلَها؛ لأنَّ الحالَ المفردةَ تُفصَلُ لزومًا، فكانت الحالُ الجملةُ مفصولةً في الأَصْلِ إلّا لأمرٍ يعرضُ لَها يوجِبُ وصْلَها.

معنى (اللّام) ودلالتها في ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾:

الأصل في معنى (اللّام) أنّه موضوع للدَّلالة على الاختصاصِ[7]، وقد أفادت هنا معنى التَّوقيت[8]، أي: إنَّ الأجَل المضروبَ لجَمْعِ الرُّسل هو يومُ الفَصْلِ، فاختصَّ هذا اليومُ بهَذا الجَمْعِ.

(1) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 28/ 279.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 266.
(3) النَّحّاس، إعراب القرآن: 5/ 73.
(4) ياسر بيومي، مصحف توجيه القراءات العشر وكشف أسرارها البلاغية والإعجازية، ص: 597.
(5) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 633.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 334.
(7) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.
(8) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 230.

استـفـهـامُ تـعـظـيـمٍ؛ تعجيبًا من هَوْلِ يَوْمٍ عظيم

نوعُ الاستِفهام وغرَضُهُ في قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾: استفهامٌ على التَّعظيم، أُريدَ به تعجيبُ العباد مِن هولِ هذا اليوم، وبيان مَدى عِظَمِه[1].

والمعنى: "لأيّ يوم أُخِّرت الأمورُ المتعلّقة بهؤلاء؟ وهي تعذيبُ مَن كذَّبهم، وتعظيمُ مَن آمن بهم، وظهورُ ما كانوا يَدْعونَ الخلْقَ إلى الإيمان به مِن الأهوال والعَرْضِ والحساب ونشر الدَّواوين ووضع الموازين"[2]، ثمَّ بيَّن ذلك، فقال: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾[3]، "ففي الكلام معنى التَّعظيم لليوم والتَّعجُّب منه، ومعنى التَّعجُّب في هذا أنَّه تعالى ذِكرُه يُعَجِّب العبادَ مِن هوْلِه وفَظاعَته"[4].

ثـراء الـدَّلالات بتعدُّد التَّأويلات

توجيهُ (أيِّ) على الموصوليَّة وأثرُه في المعنى:

يجوز "أن تكون (أيّ) موصولةً دالَّة على التَّعظيم والتَّهويل، وهو ما يُعبَّر عنه بالدّالِّ على معنى الكمال، وتكون صفةً لموصوفٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ما أُضيفت إليه (أيّ)، وتقديرُه: ليوم أيِّ يومٍ! أيْ: ليومٍ عظيم، ويكون معنى ﴿أُقِّتَتۡ﴾: حضَر ميقاتها الَّذي وُقِّتَ لها، وهو قول ابن عبّاس: جُمِعَت"[5].

عـظـيـمٌ هـو اليوم الذي فيه تعذيبُ الكَفَرة وإهـانـتُـهـم، وتكريمُ المؤمنين ورعايتُهم

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿يَوۡمٍ﴾:

تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ يفيدُ مَعْنى التَّعظيم[6]، "والمَعْنى: ليوم عظيمٍ أُخِّرت أمورُ الرُّسل، وهو تعذيب الكَفَرة وإهانتُهم، وتعظيم المؤمنين ورعايتُهم، وظهورُ ما كانت

(1) أبو حفص النَّسفيُّ، التيسير في التَّفسير: 15/ 166، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 678، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 418، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 158.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 769، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 70.

(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 305.

(4) مكّيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7957.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 426.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 375، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 170، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 294.

الرُّسل تذكُرُه مِن أحوال الآخرة وأهوالها؛ ولذا عظَّم شأنَ اليوم، وهوَّل الأمرَ بالاستفهام"[1]، وقد "عظَّم اللّه تعالى ذلك اليوم، وأشاعَ عنه التَّهويل ثلاثَ مرّات، في قوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وقوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: العذاب والخِزي لِمَن كذَّب باللّه، وبرُسُله، وبكُتُبه، وبيوم الفَصْلِ، فهو وعيدٌ شديد"[2].

علَّة فصْلِ قوله تعالى: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ عن سابقِه:

تعانُق الجُمَلِ والتَّراكيب في نظْمٍ بديعٍ عجيبٍ

قوله تعالى: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بدلٌ مِن ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾[3] مبيِّنٌ له، أو هوَ متعلِّق بمقدَّرٍ، والمعنى: أُجِّلت ليوم الفصل بين الخَلائِق[4].

وعلى التَّأويل الأوَّل - وهو البدليَّة - فالفصلُ لعلَّة كمالِ الاتِّصال؛ إذ "فَسَّر تعالى ذلك الذي عجَّب منه بقوله: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾، يعني: بين الخَلْق في مُنازَعَتِهم، وحسابهم، ومنازلهم من جنَّة أو نار"[5]، والمعنى: "أُحْضِرت الرُّسلُ ليومٍ عظيمٍ، هو يومُ الفَصلِ"[6].

وعلى التَّأويل الثّاني، فالفصلُ لشِبْهِ كمال الاتِّصال، "وكأنَّ سائلًا سأل عن ذلك اليوم الموعود؟ فأُجيب: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ الذي ليس بالهَزْلِ"[7].

معنى اللّام، ونوعُ الإضافةِ، ودلالةُ التَّعريف في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

يومُ الفَصْلِ يومٌ عسيرٌ، على الكافرين غيرُ يسيرٍ

أمّا (اللّام)؛ فالأصل فيها أنَّها موضوعةٌ للدَّلالة على معنى الاختصاص[8]، وفي هذه الآية أفادَ - مع الاختصاص - معنى

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 296.
(2) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 317.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 70.
(4) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 382.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 418.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 426.
(7) حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 805.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.

التَّوقيت[1]، أي: إنَّ الأجَل المضروبَ لجَمْعِ الرُّسل وبيان ما كانوا يَدْعونَ إليه مِن أحوالِ الآخرة وأهوالها وتكريم مَن آمن، وتعذيب مَن كفرَ، هوَ هذا اليوم - يوم الفصل - فاختصَّه اللّه تعالى بهذا الجمع الذي سيكونُ فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: 49 - 50]، وإعادة هذه اللّام بَعْدَ تقدُّم ذِكرها في ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ يُفيد نوعَ توكيدٍ.

وأمّا الإضافةُ؛ فمحضَة أفادت تعريفَ المضافِ، ودلَّت على تعظيمِهِ وتهويلِه، فهو "يومٌ يَفْصِلُ اللّه فيه بين خَلْقِهِ القضاءَ، فيأخذ للمظلوم مِن الظّالم، ويجزي المحسِن بإحسانه، والمسيءَ بإساءته"[2].

فالتَّعريف في ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، وهو ما ذُكِر في غير ما آيةٍ في كتاب اللّه تعالى، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس: 54]، وقوله تبارك اسمُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [الحجّ: 17]، وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة: 3]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8].

ونحوه كثير.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾:

الفَصْلُ: تمييز الحقِّ مِن الباطل بالقَضاء والجزاء؛ إذْ بذَلِكَ يَزولُ الالتِباسُ والاشتباه والتَّمويه الذي كان لأهلِ الضَّلال في الدُّنيا، فتتَّضح الحقائق على ما هيَ عليهِ في الواقع[3]. وسمِّي يومُ القيامَةِ بيَوْمِ الفصل؛ لأنَّه لا يتركُ فيه شيئًا إلّا وقع الفَصْلُ فيه بين جميعِ الخَلْقِ مِن كلِّ جليلٍ وحقير[4]. وقد ناسب التَّعبيرُ بيوم الفصلِ في هذه السّورة،

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 230.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 131.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 426.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 170.

الفَصْلُ بالمقام أوفَق، وهو بالسِّياق ألْيَقُ

التي تكرَّر فيها قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وخُتِمَت بقوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾، فهؤلاء المكذِّبون المصرّون على الكُفْرِ باللّه تعالى وملائكته وكتُبه ورُسُله، والمتشبّثون بجحد يوم القيامة، هؤلاء لا بدَّ لهم مِن يوم يُفصَل فيه بينَهُم وبين مكذّبيهم، فينال كلٌّ جزاءَه، وذلك نحو قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون: 108 - 111]، فأوثِر الفَصْلُ هنا دون غيرِه؛ لأنَّه أنسَبُ للسِّياق والمقامِ.

معنى (الواو) ودلالَتُها:

في الاستِئْنافِ قَطْعٌ، وفي العطف تشريكٌ وجَمْعٌ

يجوز أن تكون الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ عاطفةً[1]، عَطَفَت جُمْلَتَها على ما قبْلَها، ويجوز أن تكون استِئنافيَّة[2]، وتكون الجملةُ بعدَها مبتدِئةً معنى جديدًا. أمّا العطفُ؛ ففيه تَشْريكٌ، ويحسِّنه توالي الإنشاءِ بالاستفهام: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾. وأمّا الاستئنافُ؛ ففيه قَطْعٌ وائْتنافٌ، ويحسِّنه تحوُّل الخطابِ للمُفْرَد ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ بعدَ الجَمْعِ ﴿تُوعَدُونَ﴾.

نوع الاستفهام وغرضه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

يـوم الفصل أعظم مِن يعرف أمرَه إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل[3]، وهو تعظيمٌ تابع للتَّعظيم المستفاد مِن الاستفهام والتَّنكيرِ السّابقَيْن[4].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 334.
(2) محمود صافي، الجدول: 15/ 200.
(3) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 671، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 298، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 334.
(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 158.

والمعنى: وما عِلْمُكَ بيومِ الفَصْلِ وشدَّته ومَهابَتِه؟ ومِن أين تعلَمُ كُنهَه، ولمْ ترَ مِثلَه، وإن اجتهدتَ في التَّعرُّف؟ ثمَّ زاده تهويلًا بقوله: ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، أي: إنَّه أمرٌ بديعٌ هائلٌ لا يُقادَر قَدْرُه، أمرٌ يَسْتَحِقُّ أنْ يُسأل عنه، ويُعَظَّم، وكلُّ ما عُظِّم بشيء؛ فهو أعظم منه، ولا يَقْدِرُ أحدٌ مِن الخَلْق على الوصول إلى عِلمه؛ لأنَّه لا مِثل له يُقال عليه، ثمَّ أتبعه بتهويل ثالثٍ، وهو قوله: ﴿وَيۡلٌ﴾[1]، "فإنَّ ذلك اليومَ أعظمُ مِن أن يَعْرِفَ أمرَه إنسانٌ، أو يُحيطَ به عقلٌ أو وجدان"[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

للنَّظم القرآنيّ عــادات، ولكلِّ تركيبٍ دلالاتٌ

يستخدِمُ القرآنُ الكريم تارةً تركيبَ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، وتارةً: (وَما يُدْريكَ)، والمُلاحَظُ أنَّ الأوَّل أغلَبُ؛ إذ ورد ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّة، وأمّا الآخَرُ؛ فقد ورد ثلاثَ مرّات فقط، وورد في مواضعِهِ الثّلاثة متبوعًا بحَرْفِ الرَّجاء (لعلَّ).

وفي الفرق بين التَّركيبين قال الفرّاءُ: "كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ فقد أدراهُ، وما كان مِن قوله: (وما يُدْريكَ)؛ فلمْ يُدْرِه"[3]، أي: إنَّ كلَّ موضع جاء فيه تركيب ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ قد أخبر به اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ، أي: أخبره بما فيه، وكلُّ موضع جاء فيه تركيبُ (وَما يُدْريكَ)؛ فلم يخبِر به اللّه تعالى رسولَه ﷺ[4].

فإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ قوله تبارك اسمُه هنا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ هو الأنسب بالسِّياق؛ لأنَّه قد أخبر في السّورة نفسِها بهذا اليوم وما يكون فيه، فقال ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 275، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 70، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 170، والشَّوكانيُّ فتح القدير: 5/ 431.

(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابُه وبيانُه: 10/ 378.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 280.

(4) مقاتل بن سليمان، تفسير القرآن: 4/ 811.

﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، إضافةً إلى ما ذُكِرَ من الظِّلِّ ذي الشُّعَب الثَّلاث، والشَّرر الذي بحَجْمِ الجمَل.

تعيينُ المخاطَب في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ يصحُّ أن يُراد به النَّبيُّ ﷺ، ويكون المعنى: "وأيُّ شيء أدراك يا محمَّدُ ما يومُ الفَصْلِ؟ معظِّمًا بذلك أمرَه، وشدَّة هولِه"[1]. ويصحُّ أن يكون الخطابُ عامًّا لكلِّ مَن يعقل ممَّن تصحُّ مخاطبَتُه، فيكون المعنى: "وما أدْراكَ أيُّها المخاطَب، ما يَوْمُ الفَصْلِ؟ إنَّه يوم هائل شَديدٌ، لا تُحيطُ العبارة بكُنْهه، ولا يعلم إلّا اللّه تعالى وحدَه مقدار أهوالِه"[2]. والتَّوجيهانِ مُتَكامِلان، فيُقال: إنَّ المرادَ به عُموم المخاطَبين وعلى رأسِهم سيِّد الخلق أجمعينَ ﷺ.

الخِطاب لعُمومِ المُخاطَبين، وعلى رَأْسِهم سيِّد الخَلْق أجمعينَ ﷺ

معنى ﴿مَا﴾ ودلالَتُها في ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ استفهاميَّة واقعَةٌ مبتدأً، و﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ خبرٌ عنها، وهذا الاستفهامُ مُسْتَعْمَلٌ في معنى التَّهويل والتَّعجيب[3].

تَوالَت الاستِفهاماتُ كالقَوارِعِ المُزلزِلاتِ

وهذا الاستفهامُ جاءَ بعد استفهامَيْن سَبَقاهُ، أحدهما: قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، والآخر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، وفي هذا كلِّه زيادةُ تعظيم وتَفْخيم وتهويلٍ لِهَذا اليوم العظيم - يَوْمِ الفَصْلِ -، وقد حسُن هذا؛ لأنَّ مِن أغراض هذه السّورة الكريمة الرَّدَّ على زَعْم المُشْركين أنَّه لا بَعْثَ ولا جزاء، فهوَّلت ما يُنْكِرون لبيانِ أنَّهم يَخْرُصون، ويَهْرِفون بما لا يعرفون.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 131.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 235.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 427.

نُكْتَةُ وضْعِ الظّاهر موضِعَ المضمَر في ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

تفظيعٌ وتهويلٌ؛ تعظيمًا لخَطْبٍ جَليلٍ

في قولهِ تعالى: ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ "وُضِع الظّاهر موضِعَ الضَّمير لزيادَةِ التَّفظيع والتَّهويل المَقْصودَيْن مِن الكلام"[1]، "والأصلُ: وما أدراك ما هو؟ وإنَّما أُظْهِرَ في مقام الإضمار؛ لتقوية استحضارِ يوم الفصْلِ قصدًا لتهويلِه"[2].

علَّة فصْلِ قولهِ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عن سابقه:

أسلوبُ القرآن رائـعٌ، ومعانيه دررٌ بدائع

فُصِلت هذه الجملة عمّا قبلها؛ لكونِها استئنافًا، وذلك حملًا لهذه الآية على نظائرها الآتية، والقصدُ مِن هذا الاستئناف "تهديد المشركين الذين يَسْمَعون القرآن، وتهويل يوم الفَصْلِ في نُفوسِهم ليحذروه، وهو متَّصل في المعنى بجملة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ اتِّصالَ أجزاء النَّظم، فموقعُ جملة: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ابتداء الكلام، وموقع جملة: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ التَّأخُّر، وإنَّما قُدِّمت؛ لتُؤْذِن بمعنى الشَّرط، وقد حَصَلَ مِن تغيير النَّظم على هذا الوجهِ أن صارَت جُمْلَةُ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بمنزلة التَّذييل، فحصل في هذا النَّظم أسلوب رائعٌ، ومعانٍ بدائع، وبعض المفسِّرين جعل هذه الجملة جواب (إذا)، أي: يتعلَّق (إذا) بالاستقرار الذي في الخبر، وهو: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، والتَّقدير: إذا حصل كذا وكذا؛ حلَّ الويلُ للمكذِّبين، وهو كالبيان لقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾، فيحصُلُ تأكيدُ الوعيدِ، ولا يَرِدُ على هذا عُروُّ الجواب عن الفاء الرّابطة للجواب؛ لأنَّ جواب (إذا) جوابٌ صوريٌّ، وإنَّما هو متعلِّق (إذا)، عومِل معاملةَ الجواب في المعنى"[3].

نكتَةُ تنكير ﴿وَيۡلٞ﴾، ومعنى تنوين ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

هـولٌ فظيـع لا يقادَر قدرُه، ولا يُتَصوَّر شرُّه

التَّنكير في ﴿وَيۡلٞ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل، وكذا تنوين ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 192.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 427.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 427.

الذي هو تنوينُ عوضٍ عن كلمة (الفصل)، ومعنى ﴿وَيۡلٞ﴾، "أي: هلاك عظيم ثابت ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: في ذلك اليوم الهائل"[1]، "وبوارٌ عظيم للمكذّبين بالتَّوحيد، والجاحدين للنُّبوَّة والمعاد، وبكلّ ما ورد عن الأنبياء والرُّسل، وأخبروا به"[2]، "و﴿وَيۡلٞ﴾ في الأصل مصدَرٌ بمعنى: (هلاك)، وكان حقُّه النَّصبَ بفِعْلٍ مِن لفظه أو معناه، إلّا أنَّه رُفِع على الابتداءِ؛ للدَّلالة على ثبات الهلاك ودوامِه للمدعوّ عليه"[3]، "ففي الصِّيغة دلالةٌ على أنَّ ثباتَ العذابِ ودوامَه كائنان للمَدْعوِّ عليهم"[4].

ويكفي في تعظيم الويل وتفظيعِه ما "روي أنَّه مَجْمَعُ ما يسيل مِن قيح أهل النّار وصديدهم، وإنَّما يسيل الشَّيء فيما سَفُلَ مِن الأرض، وانْفَطَر، وقد عَلِمَ العباد في الدُّنيا أنَّ شرَّ المواضع في الدُّنيا ما استَنْقَعَ فيها مياهُ الأدْناسِ والأقذار والغُسالات مِن الجيَف وماء الحَمّامات، فذُكِرَ أنَّ ذلك الواديَ مستنقعُ صديدِ أهل الكُفر والشِّرك؛ ليَعْلَم ذَوو العقول أنَّه لا شيءَ أقذَرُ منهُ قذارة، ولا أنتن منه نتنًا، ولا أشدَّ منه مرارة، ولا أشدَّ سوادًا منهُ"[5].

معنى (اللّام) والتَّعريفِ ودلالَتُهما في ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

استحقّوا الويلَ العظيمَ لتَكْذيبِهِم القرآنَ الكريم

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاصِ[6]، وهي بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، فهي تدلُّ على: "الاستحقاقِ والاختصاص"[7]، أي: إنَّهم استحقّوا هذه العقوبة؛

(1) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 538.
(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1727.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 192.
(4) سعيد حوَّى، الأساس في التَّفسير: 11/ 6320.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 158.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.
(7) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّري الجامع: 12/ 230.

بسبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم وعتوِّهم، وما ظلَمَهُم اللّه تَعالى، ولكن ظَلَموا أنفُسَهُم، وأنَّ هذا العقابَ خاصٌّ بهِم هُم.

وأمّا التَّعريفُ في ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فلِلْجِنْسِ؛ ليَدْخُلَ فيه كلُّ مكذِّب، سواءٌ أكذَّب اللّه تعالى، أم كذَّبَ أحدَ رسلِه ﷺ، أو أحدَ ملائكته، أو أحدَ كتبه، أو بالبعث والجزاء.

توجيهُ قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بين الخبريّة والإنشائيَّة:

دعـاءٌ محقَّق، ووعدٌ مصدَّق

الجملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يحْتَمِلُ أن تكون خبريَّةً، ويجوزُ أن تكون إنشائيَّةً؛ "لأنَّ تركيبَ (ويل له) يُستَعمل إنشاءً بكثرة، والويلُ: أشدُّ السّوء والشَّرِّ، وعلى الوجه الأوَّل؛ يكون المراد بالمكذّبين: الذين كذَّبوا بالقرآن، وعلى الوجه الثّاني في معنى الجملة: جميع الذين كذَّبوا الرُّسل، وما جاؤوهم به، وبذلك العموم أفادَت الجملةُ مفادَ التَّذييل، ويَشْمَلُ ذلك المُشْرِكين الذين كذَّبوا بالقرآنِ والبَعْثِ؛ إذْ هُم المَقْصودونَ من هذه المواعظ، وهُم الموجَّه إليهم هَذا الكلام، فخوطِبوا بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾"[1].

دلالة التَّعبير باسْمِ الفاعِلِ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

دَرَجـوا على التَّكذيبِ، فصار لـهـم سجيَّة، وفتح لهم أبواب كلِّ خَطيَّة

الكذِبُ هو الإخبار عن الشَّيءِ بخلاف ما هو عليه، سواءٌ فيه العَمْد والخطأ، غيرَ أنَّ الإثم يلحَقُ المتعمّد لا المخطِئ[2]، فالكاذِبُ هو المخبِر بما يُخالِفُ الواقع، وجَمْعُه: (الكاذبون).

وأمّا المكذّب؛ فهو المُنْكِر، يقال: "كَذَّبَ بالأمر تكذيبًا وكِذّابًا: أنْكَرَهُ"[3]، "وكَذَّبْتُه: نسبتُه إلى الكَذِب، صادقًا كان أو كاذبًا، وما جاء في القرآن؛ ففي تكذيب الصّادقِ، نحوُ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11]"[4]، وجَمْعُ المكذِّب: (المكذِّبون).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 427.
(2) الفيّوميُّ، المصباح المنير: (كذب).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (كذب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كذب).

فهؤلاء المكذِّبون المذكورون في سياق الآيات هُم الذين رموا القرآنَ والنَّبيَّ ﷺ بالكذب، والقرآنُ أصدَقُ الحديث، والنَّبيُّ ﷺ أصدق البشَر، فصار ما فعَلَهُ الكُفّارُ كذبًا؛ لأنَّه إخبارٌ بخلاف الواقع، وتكذيبًا؛ لأنَّه اتِّهام للصّادق بالكذبِ افتراءً عليه، فصاروا كاذِبينَ مكذِّبين.

واسْمُ الفاعِل يدلُّ على أنَّ التَّكذيبَ صارَ سجيَّة فيهم، رَضَعوا لِبانَها صغارًا، ونَبَتَ مِنْها لَحْمُهم كبارًا، فصاروا راسِخين فيه.

نكتَةُ حَذْفِ متعلِّق المُشْتَقّ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

تعانُقُ بهاءِ المبنى مع جلالِ المعنى

قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: للمكذِّبين بالتَّوحيد، والنُّبوَّة، والمعاد، وبكلِّ ما ورد مِن الأنبياء ﷺ، وأخبروا عنهُ، فلم يُذكَر متعلّق التَّكذيبِ لإفادَةِ العموم، أي: عموم كلِّ مكذَّب به، ولأنَّ كثيرًا مِن ذلك معلومٌ مِن هذا السِّياق ومِن غيره، مع ما أدَّى إليه هذا الحذفُ مِن بلاغةِ الإيجاز مع رعايةِ الفاصِلَة، فتعانَقَ بذلك بهاءُ المَبْنى مع رونَقِ المَعْنى[1].

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على المُسْنَدِ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

يَنْتَظِرُ المكذِّبين عذابٌ مهين في يومٍ كانوا به يَكْفرون

تقديمُ شبه الجملةِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على المُسْنَد أفاد تخصيصَ وُقوعِ الويلِ بهِم في هذا اليوم؛ ليردَّ على ما توهَّمه الكافرون المكذِّبون مِن صلاح أنفُسِهِم وعُلوِّ منزلتهم عند الله تعالى لِما كانوا فيه مِن النِّعمة والسَّعة، وقد حكى القرآنُ عَنْهُم مَقالَتَهُم: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣﴾ [مريم: 73]، فقال سُبحانه ردًّا عليهم: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 55 - 56]، وقال ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 770.

﴿ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التَّوبة: 55]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: 196 - 198].

وأيضًا؛ فقد حسُن هذا التَّقديم؛ لأنَّهم كذَّبوا بهذا اليوم، فعوقِبوا بالوَيْلِ فيه خصوصًا؛ ليكون عليهم حسراتٍ فوقَ حسرات، وهذا ما جاء بعدُ في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

نكتَةُ حذْفِ جوابِ الشَّرط (إذا):

جواب (إذا) في هذه الآيَةِ محذوفٌ على تقدير: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ﴾، فحينئذٍ تقَعُ المجازاةُ بالأعمال، وتقوم القيامَةُ، ويَجْري ما أخْبَرَ به الرُّسلُ[1]. فالجواب محذوف لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ عليه[2]، "وتهويلًا له؛ لتذهب النَّفْسُ فيه كلَّ مذهبٍ"[3]، والحذف على هذه الصّورة مِن أساليب الإيجاز البيانيِّ الذي امتاز به القرآنُ.

تهويلٌ لتَذْهَبَ النُّفوس فيه كلَّ المذاهِب، ويُفضَح به أمْرُ كُلِّ كاذبٍ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانفِراجُ والانفِتاحُ:

الانفراجُ يكونُ بعدَ إحداثِ شَقٍّ في الشَّيء بقوَّةٍ، كإحداثِ فُرجَةٍ في حائطٍ، والانفتاحُ دالٌّ على يُسْرِ الفَتحِ للفاتحِ، فذُكِر في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾، ما يُشير إلى كمالِ قوَّته ﷻ، وذُكِر في قوله ﷻ: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ: 19] ما يُشير إلى

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 84، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 770.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 375، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 282.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 169.

كمال قُدرتِه ﷻ، فكان تشقيقُ هذا الجِرم العظيمِ كَفَتْحِ الباب سهولةً وسرعةً[1].

التَّأجيل والإرجاءُ:

الإرجـاءُ تأخيرٌ مِن دون تحديدِ أجَلِ الحُلول، والتَّأجيل تأخيرٌ لوقت معيَّن

الفرقُ بينَهُما أنَّ الإرجاءَ تأخيرُ ما حَلَّ وقتُه أو تُوُقِّع حلولُه مِن دون تحديدِ وقتِ حلولِه في الغالبِ[2]، والتَّأجيلُ تأخيرٌ لوقتٍ محدَّدٍ معيَّن، وقد أوثِر لفظ (التَّأجيل) دون (الإرجاء)، في قول اللّه ﷻ: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾؛ لأنَّ اللّه تَعالى قال في الآية قبلَها: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾، أي: جُمِعَت لوَقْتِها ليوم القيامة، والوقت: الأجَلُ الذي يكون عنده الشَّيء المؤخَّر إليه، فالمعنى: جُعِل لها وقتٌ وأجلٌ للفَصل والقضاء بينهم وبينَ الأمم[3]، وذكرَ اللّه تَعالى اليومَ الذي أُجِّلوا له بعد قوله ﷻ: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، فقال سبحانه: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾.

(1) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 34.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجأ).
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 157.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسَلات: 16 - 19]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إيقاظٌ للعقولِ بقدرةِ المقتدرِ على ما هو معلومٌ ومجهول

لمّا أقسم اللّه سبحانه على وقوعِ الوَعْدِ والوعيد؛ تنبيهًا على كمال السُّلطان؛ أتبع ذلك بما هو شاهدُ العيان ودليلُ البرهان مِن آثار قُدْرَتِه في القرون الخاليَة، وجنايات الأمم الباغية؛ ليُعلَم أنَّ مَن أجرى تلك الوقائع في سالف الزَّمان؛ قادرٌ على إعادة الأجساد بعد الفناء، وجمعِ الخَلْقِ ليَوْمِ الفَصْلِ والجَزاء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أصل (أول) يدلُّ على ابتداء الأمر[2]، فالأوَّل: نقيض الآخِر، وهو ابتداء الشَّيء الذي يترتَّب عليه غيرُه، سواءٌ أكان له آخِرٌ أمْ ليس له آخِر، وأوَّل: جمعه أوائل[3]، وإذا قيل في صفة اللّه تَعالى؛ فمعناه: أنَّه الذي ليس قبلَهُ شيءٌ، وإلى هذا يَرْجِع مَن قال: هو الذي لا يَحْتاجُ إلى غيره، ومَن قال: هو المُستَغني بنَفْسِه[4]، ومعنى: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هنا: الأمم الماضية المكذِّبة لرسلهم[5].

المَعنى الإجماليُّ:

قدرةُ الله تَعالى تتجلَّى في إهلاك المكذِّبين مِن السّابقين ومَن سلك مَسْلَكَهُم إلى يوم الدِّين

يبيِّن اللّه ﷻ في هذا السِّياق القرآنيِّ المبارك بأسلوبِ الاستفهام المفيد للتَّقرير عن مدى قُدْرَتِه سبحانه على إهلاك هؤلاء المشركين مِن الأمم السّابقين الذين كذَّبوا باللّه تَعالى ورسلهِ عليهم السلام، كقوم نوحٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 771، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 164، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 182.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أول).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (أول).
(4) الرّاغب، المفردات: (أول).
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 305.

وعادٍ وثمودَ، وإهلاك مَن لَحِقَهُم مِمَّن سلك مسلَكَهُم في الكُفْرِ والتَّكذيب، كقوم لوطٍ وشُعَيْبٍ وموسى ﵈، وكذلك يتحقَّق هذا الإهلاك لهؤلاء المشركين مِن كفّار مكّة؛ لتكذيبهم النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ، وسيكون لهم ولغيرهم ممَّن كذَّب مثلَهم الوعيدُ الشَّديدُ بالعذاب العظيم والهلاك الكبير في الدُّنيا والآخرة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصْلِ الآية ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عن سابقتها:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونه استئنافًا بخطابٍ موجَّه إلى المشركين الموجودين الذين أنكروا البعث، معترضًا بين أجزاء الكلام المخاطَب به أهل الشِّرك في المحشر، وهوَ يتضمَّن استدلالًا على المشركين الذين في الدُّنيا، بأنَّ اللّه سُبحانَهُ انتقم مِن الذين كفروا بيوم البعث مِن الأمم الذين سبقوهُم؛ ليكون تحذيرًا لهم أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بأولئك[2].

الله سبحانه لا يُعْجِزُه إهلاكُ الآخرين، فقَد أهلَكَ أسْلافَهُم الأوَّلين

نوعُ الاستفهام وغرضُهُ في ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ "استفهامٌ إنكاريٌّ، وهو داخلٌ على نفيٍ، ونفيُ النَّفي إثباتٌ، ويعبَّر عنه بالاستفهام التَّقريريّ، والمرادُ به: طلَبُ الإقرار بما بَعْدَ النَّفي"[3]، "والمقصود به هنا: استخراجُ الاعتراف والإقرار مِن مُشْركي قُرَيْشٍ على صحَّة البعث؛ لأنَّ مَن قدر على الإهلاك؛ قادرٌ على الإعادة، أي: لقد أهْلَكْنا الأقوام الأوَّلين الذين كذَّبوا رُسُلَهم"[4]، "فأقرّوا بذلك، فاعتبِروا به، وتنبَّهوا له، واحذروا أن تكونوا مثلهم، فإنَّ مِثْلَ ذلك

تقريرٌ عقليٌّ جميلٌ لإمكان البَعْثِ بطريقةِ قياسِ التَّمثيل

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 594.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 428.
(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 14.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 236.

الفِعْلِ الذي فعَلْناهُ مع غيْرِكُم نَفْعَلُهُ بالمُجْرِمين، الذين يُكَذِّبون بيَوْمِ الدِّين مِنْكُم"(1)، "فالاستفهامُ للتَّقرير استدلالًا على إمكانِ البَعْثِ بطريقَةِ قياسِ التَّمثيل"(2).

سرُّ إيثار التَّعبير بالإهْلاك دونَ غيره:

الإهلاكُ إفناءٌ وإعدامٌ، وغلَبَ استعمالُهُ في الاستئصالِ التّامّ

يدلُّ جذر الهلاك على كَسْرٍ وسقوط، وقد غَلَبَ استعمالُهُ في الإعدام والإفناءِ(3)، ومِن هنا افترَقَ عن الموتِ، "وإهلاك الأوَّلين له حالتان:

إحداهما: حالةٌ غير اعتياديَّة تنشأ عن غضَبِ اللّه تعالى، وهو إهلاكُ الاستِئصالِ، مثلُ إهلاكِ عادٍ وثمودَ.

والأُخرى: حالَةٌ اعتياديَّة، وهي ما سنَّ اللّه عليه نظامَ هذا العالم مِن حياة وموتٍ.

وكلتا الحالتَيْن يصحُّ أن تكون مرادًا هنا، فأمّا الحالةُ غير الاعتياديَّة؛ فهي تذكيرٌ بالنَّظر الدّالِّ على أنَّ اللّه لا يرضى عن الذين كذَّبوا بالبعث، وأمّا الحالة الاعتياديَّة؛ فدليل على أنَّ الذي أحيا النّاس يُميتُهُم، فلا يَتَعَذَّر أن يُعيدَ إحياءَهم"(4).

بلاغَةُ الطّباق بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ طباقُ إيجابٍ، وقد استَوعَب جميع المكذِّبين في الزَّمن الماضي والحاضر، فلا يوجَدُ أحدٌ خارجٌ مِن قبضته ﷻ، وهذا وعيدٌ شديد لكلِّ مخاطَب بهذه الآيات، ويدخُل فيه الكُفّار دخولًا أوّليًّا.

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

إهلاكُ الآخرين أشدّ، والتَّنبيه عليهِ أوْكَدُ

حرف ﴿ثُمَّ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتبيّ؛ لأنَّ التَّهديدَ أهمُّ مِن

(1) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 805.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 428.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 428.

الإخبارِ عَن أهْلِ المَحْشَر؛ لأنَّه الغرضُ مِن سَوْق هذا كلّه، ولأنَّ إهلاك الآخرين الذين لم يعتبِروا بمَن سبَقَهم أشدُّ مِن إهلاك الأوّلين؛ لأنَّه مسبوقٌ بإهلاكٍ آخَرَ، وفي ذلك تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ واضِحٌ لمُشْرِكي مكَّةَ[1].

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾ و﴿نَفْعَلُ﴾ مسندًا إلى ضميرِ العظَمة:

الفعل المضارعُ دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرارِ، وهوَ يُشير إلى وُقوع الحدَثِ مرَّة بَعْدَ مرَّةٍ، حالًا واستقبالًا.

ليس لسُنَّة الله تَعالى تبديلٌ، ولا لقضائه مردٌّ ولا تحويلٌ

وفي التَّعبيرِ بهِ في قوله تَعالى: ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾، و﴿نَفْعَلُ﴾ إشارةٌ إلى تكرُّر هذا الأمْرِ مَعَ كلِّ أُمَّة مكذّبة، فسُنَّة اللّه تعالى في جميع المُجْرِمين واحدَةٌ، لا استِثناء لأحد، ولا محاباة لأحد، والمعنى: "كما أهلكنا المتقدّمين لإجرامهم وتكذيبهم؛ نفعَلُ بالمتأخّرين الذين حذَوا حَذْوَهُم، واستنّوا سُنَّتهم، فسُنَنُنا تجري على وتيرةٍ واحدة"[2].

وفي هذا تهديد أكيدٌ، ووعيد شديدٌ لأهل مكَّة الكافرين، وهذا "معلومٌ مِن المُضارِع، فيكون تهديدًا وإخبارًا عمّا يقع بعد الهجرةِ، كبَدْرٍ"[3].

وإسناد الفعلينِ إلى ضمير العظَمَة المستترِ (نحن) يُفيد تعظيمَهُما من حيث أُسنِدا إلى العظيم ﷻ، فليس كفِعْلِ اللّه تعالى فِعْلٌ، وليس كبَطْشِهِ بَطْشٌ، وفي هذا عبرةٌ لمُعْتَبِرٍ وترهيبٌ لَمَن كان له قَلْبٌ.

نكتة التَّعبير بالإتْباع دون (ثمَّ الآخِرين):

التَّعبير بالإتْباع تهديدٌ لمَن لمّا يأتِهِ الهلاكُ والوعيد

لو جاء النَّظم القرآنيُّ هكذا: (ألم نهلك الأولين ثُمَّ الآخرين)؛ لفاتت شدَّة التَّهديد وقوَّة الوعيد؛ لأنَّه قد يُفهَم منه ساعتئذٍ أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 429، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 236.

(2) المراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 183.

(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 296.

الهلاك قَد تمَّ، وحصل للأوَّلين والآخِرين، فيظنُّ المخاطَبون أنَّهم عنه بعيدونَ، فلذلك جاء قوله تعالى: ﴿نُتۡبِعُهُمُ﴾ بالرَّفع؛ "ليكونَ مقطوعًا عمّا قبله، ويُستأنفَ به الكلامُ على وجهِ الإخبار عمّا سيَقَعُ في المستقبل بإضمارِ المُبْتَدَأ، وفيه وعيدٌ لكفّار مكَّةَ"[1].

فالتَّعبير بالإتْباع تهديدٌ لِمَن لمّا يأتِهِ الهلاك، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: في المستقبَل، فيدخل هنا: كُفّارُ قريشٍ وغيرُهم ممَّن أجرم فيما يُستَقْبَل، فيَشْمَله الهلاكُ[2].

مِن شأنِ الاستِئْنافِ البيانيّ أن يُفصَل عن سابقِه، ويُمهّد للاحِقِه

علّة فصلِ قولِهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عن سابِقِهِ:

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ موقِعَ البيان لجملة: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، "وهو كالتَّذييل يبيّن سببَ وقوع إهلاك الأوَّلين، وأنَّه سببٌ لإيقاع الإهلاك بكلِّ مجرم، أي: تلك سُنَّةُ اللّه في معاملة المجرمين، فلا محيصَ لَكُم عنها"[3].

فلمّا كانت هذه الجملة بيانًا لسابِقَتِها، أو كالإجابة عن سُؤالٍ نشأ عنها، تقديرُه: (لماذا فعل اللّه ذلك بالأوَّلين والآخرين؟)، فأجيب: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: لأنَّهم مجرمون، لمّا كان ذلك كذلك؛ فقد حسُن الفَصْلُ بين الجُمْلَتَيْن.

تشابهوا في الجُرْمِ، فتَساوَوا في الحُكْمِ

بَلاغَةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

"الكاف للتَّشبيه، و(ذلك) مفعولٌ مطلَق، أي: نَفْعَلُ بالمُجْرمين فعلًا مثلَ ذلك الفعل؛ لكونِ فِعْلِهم مثلَ فِعْلِهم، والاتِّحادُ في السَّبب يَقْتَضي الاتِّحادَ في المُسبَّب"[4].

---

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 284.
(2) الثَّعالبيُّ، الجواهر الحِسان: 5/ 538، والمحلِّيُّ، تفسير الجلالين، ص: 785.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 429.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 515.

"فالكافُ بمَعْنى: مِثل، والإشارةُ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تعود إلى الفعل المأخوذ مِن قوله: ﴿نَفۡعَلُ﴾، أي: مثل ذلك الفعلِ نَفْعَلُ بالمجرمين"[1]، والمعنى: "مِثل ذلك الفعل الشَّنيع نفعَلُ بكلِّ مَن أجرم؛ إنذارًا وتحذيرًا مِن عاقبة الجُرْمِ وسوءِ أثَرِهِ"[2].

نكتة التَّعبير باسْمِ الإشارة للبَعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

التَّعبير باسم الإشارة للبعيدِ يفيد تعظيمًا وتهويلًا، فالفعلُ المشار إليه فِعْلٌ شنيعٌ فظيعٌ، وهو الإهلاكُ والاستئصالُ.

بلاغةُ الإطنابِ بالتَّذييل بقولِهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

الوَيْلُ لمَن أذْمَنوا عَنِ الحقِّ الصُّدودَ، مِن عذابِ الله تَعالى المَرْصودِ

قَوْلُ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تعقيبٌ على هذا التَّقرير، والمعنى: "كما فعلنا بالأوَّلين، وألحقنا بهم الآخِرين؛ كذلك نفعَلُ بالمُجْرِمين في كلِّ أُمَّة، وفي كلِّ جيلٍ، فهذا هو حكمُ اللّه في أهل الضَّلال، لا استثناءَ فيه، وفي هذا إشارةٌ إلى المُشْرِكين الذين يواجِهون النَّبيَّ ﷺ بعِنادِهِم وضَلالِهِم، ويَرْكَبونَ نَفْسَ الطَّريق الذي ركبه الضّالّون مِن الأوَّلين والآخِرين قَبْلَهُم، فالوَيْلُ لَهُم يومئذٍ مِن عذابِ اللّه المرصودِ لكلِّ مكذِّب بهذا الحديثِ"[3].

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿نَفۡعَلُ﴾ دونَ غَيْرِهِ مِن مفرداتِ الانتقام والإهلاكِ:

التَّعبير بالفعل أعمُّ وأشمَلُ، والتَّهديد بهِ أكمَلُ

التَّعبير بالفِعْلِ أعمُّ مِن غيره مِن نحو البَطْشِ والإهلاكِ والانتقام وغيرها، فيكون ذلك بالبطش إغراقًا، أو إحراقًا، أو خَسْفًا، أو صيحة، أو رَجْفَةً، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40]، وقد يكون بأيدي

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 237.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 679.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1397 - 1398.

المؤمنين قتالًا في سبيل اللّه تَعالى لتكون كلمةُ اللّه هي العليا، كما وقَعَ لِكُبَراء الكُفْر في غزوة بَدْرٍ الكُبْرى، ولِنَحْو ذلك أُشير بقوله تَعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التَّوبة: 52]، وقد يكون بسَبَبٍ خفيٍّ. فالتَّعبير بالأعمّ أوقعُ في التَّهديد، فتذهب النُّفوس في توقُّعه كلَّ مذهب، فتَبْقى على وجَلٍ.

معنى (الباء) والتَّعريفِ ودلالَتُهما في ﴿بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

عـــذابُ اللـه تَـعـالى لَصيقٌ بـالمُـجْـرمـينَ، ولَـيْـسـوا منهُ بناجينَ

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع؛ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان الإلصاقُ أم مجازيًّا[1]، ممّا يفيد أنَّ هذا الفعلَ - فعلَ العذابِ - لصيقٌ بالمجرمين، كما كانت أفعالُ إجرامِهم لصيقةً بهم، فلَم يُعْجِزوا ربَّهم في إيصالِ العَذابِ إليهم، ونزول النَّكال بهِم، وقد ظنّوا أنَّهم في مَعزِل. أمّا اللّام؛ فللاستغراق، وهو مِن الموصول الحرفيّ، أي: بكلِّ مَن أجرم مِن كلِّ أُمَّة[2]، وهذا يقتضي العُمومَ[3].

دلالَةُ التَّعبير باسْمِ الفاعل ﴿بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ونكتَةُ اختياره:

عـمـومُ الـعِـلَّـة يَـقْـتَـضي عمومَ الحُكْمِ

(المجرمون) مِن ألقاب المُشركين في اصطلاح القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المطفّفين: 29]، وورد في هذه السّورة أيضًا في قوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾، وإنَّما ذُكِر وصفُ ﴿بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ سببَ عِقابِهم بالإهلاكِ هو إجرامُهم[4]، "فأتى بالصِّفة المقتضية لإهلاكِ العذاب، وهي الإجرام"[5]، "أي: هذا الإهلاك إنَّما نَفْعَلُهُ بهِم لكونهم مُجْرِمين، فلا

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 515، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 209.

(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 429.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 376.

جَرَمَ في جميع المجرمين؛ لأنَّ عمومَ العلَّة يَقْتَضي عمومَ الحُكم"[1]؛ "أي: كذلك نُهلِك مَن أجْرَم، فاكْتَسَبَ مُخالفةَ اللّه ورسولِه ﷺ"[2].

وفي هذا "تحذيرٌ مِن عاقبةِ الجُرم وسوءِ أثَرِه"[3]؛ "كي يَرْتَدِعَ، ويَنْزَجِر أهلُ الشِّرك والكفر بعد بعْثَته ﷺ، وإلّا كان مآلُهم التَّدميرَ والهلاك؛ لأنَّ اللّه قد أهلك مَن أهلك لكونِهم مُجْرِمين، فهذا الحُكْمُ عامٌّ في جميع المُجْرِمين؛ لأنَّ عموم العلَّة - وهي الإجرام - يقتضي عمومَ الحُكْمِ، وهو العذابُ"[4].

بلاغةُ تكرارِ قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في خاتِمَةِ كلِّ مَقْطَعٍ:

تهويلٌ وتكرير؛ لمزيدِ التَّأكيد والتَّقرير

كُرِّرت هذه الجملة في هذه السّورة عَشْرَ مرّات لمزيد التَّرغيب والتَّرهيب، وفي كلِّ جملة وردت أخبارٌ عن أشياءَ مِن أحوال الآخرة، وتذكيرٌ بأحوال الدُّنيا، فناسب أن يُذكَر الوعيد عَقيب كلِّ جملة منها بالويل والدَّمار للكفرة الفُجّار.

وفائدة هذا التَّكرار هي أن يُجدِّد الكُفّارُ والفُجّار عند سماع كلِّ نبأ اتّعاظًا، وخوفًا مِن عقاب اللّه تَعالى لهم في الآخرة؛ إنْ هُم أصرّوا على تكذيبهم.

ومثلُه تَكرارُ قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 16 - 17] في سورة القمر، وتكرارُ قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن: 13] في سورة الرَّحمن[5].

والتَّكرار في مقام التَّرغيب والتَّرهيب مستحسَنٌ؛ لأنَّ بسْط الكلام في التَّرغيب والتَّرهيب أدعى مِن الإيجاز إلى إدراك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 771.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7960.
(3) البَروسويُّ، روح البيان: 10/ 284.
(4) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1729.
(5) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابُه وبيانُه: 10/ 378.

البُغية، ولا سيَّما إذا تغايرت الآياتُ السّابقةُ على المرّات المكرَّرة، كما هو هنا[1].

وأيضًا؛ فلأنَّه وعيد لكلِّ مَن كذَّب، "قسَّمه بينهم على قدر تَكْذيبِهم، فإنَّ لكلِّ مكذِّب بشيء عذابًا سِوى تكذيبِه بشيء آخَر، ورُبَّ شيء كذَّب به هو أعظم جُرمًا مِن تكذيبه بغيره؛ لأنَّه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرَّدِّ على الله، فإنَّما يُقْسَم له مِن الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه، وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝﴾ [النَّبأ: 26]"[2].

ولأنَّ "مَن كذَّبك في أشياء؛ كان مِن البلاغة أن تقرِّره بواحدة منها، ثُمَّ تقول له عند قيام الدَّليل: (ويلٌ لك!)، ثمَّ تفعل فيما بعده كلِّه كذلك، وتعيدُ عليه ذلك القولَ بعينِه تأكيدًا له وتحقيقًا لوقوع معناه؛ دلالةً على أنَّ الغَيْظَ قد بلغ منتهاه، والفجور وانقطاع العذر لم يَدَعْ موضعًا للتَّنصُّل منه والبعد عنه، وذلك في كلام العرب شائع معروفٌ سائغ"[3].

ولأنَّ هذه الآية ذُكِرت في كلِّ مرَّة متَّصلة بالجُرم والذَّنب، الذي جاءَت للتَّحذير والتَّخويف منه والتَّهديد والوعيد عليه، فيكون لها بذلك أكبرُ الأثَر في الزّجر والمنع؛ لأن الذّنب إذا قارنه عقابُه، واتَّصل به عذابُه؛ كان ذلك آكدَ في الزَّجر وأقوى مِن الرَّدع، وأدعى إلى البعد منه والتَّنائي عنه"[4].

نكتةُ الإظهار في مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾:

تسجيلٌ عليهم بالتَّكذيب، وبيانٌ لِما استحقّوه مِن التَّعذيب

المراد بالمكذِّبين: المخاطَبون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾، على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تقريرٌ لنظيره المتقدِّم في الآية الخامسةَ عشْرةَ وإعادةٌ لمعناهُ، فهو إظهار في مقام الإضمارِ؛ لتسجيل أنَّهم مكذِّبون، والمعنى: ويلٌ يومئذٍ لكم[5].

(1) زكريّا الأنصاريُّ، فتح الرّحمن: 1/ 593، والكِرمانيُّ، أسرار التَّكرار، ص: 244 - 245.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 158.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 171.
(4) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1727.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 429 - 430.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأوَّلون والسّابقون:

كلُّ أوَّلٍ سابقٌ مَن تلاه، وليس كلُّ سابِقٍ أوَّلًا

(السّابق) قد يكون مسبوقًا وقد لا يُسبَق، كما تقول: سبَقني فلانٌ إلى الخيرِ، فهو متقدِّمٌ عليكَ، وإن كان قد سبَقَهُ غيرُهُ، بخلافِ (الأوَّل)؛ فإنَّهُ لا سابق له، ومن أوجُهِ الفرقِ بينَهما: أنَّ (السّابقَ) يقتضي مسبوقًا، بخلافِ لفظ (الأوَّل)؛ فإنَّه لا يقتضي ثانيًا[1]، ولذا كان مِن أسماءِ اللّه تعالى: الأوَّل، كما قال سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: 3].

وقد أوثِر لفظ (الأوَّلين) دون (السّابقين) في قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّ هذه الآياتِ إخبارٌ عن إهلاكِ الكفّار من الأُمَمِ الماضين مِن أوَّل مَن كانوا على الكُفْر، ولَم يُسْبَقوا إليهِ إلى آخر مَن يكونون على الكُفْرِ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 120.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 159.

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾ [المرسَلات: 20 - 24]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن أدلَّةِ الإهلاكِ والإفناءِ، إلى بَراهينِ الإيجادِ والإنشاءِ

لمّا أظهَر المولى الجليل سبحانه سلطانَ قدرتِه في الإهلاك والإفناء؛ أتبعَ ذلك ببرهانٍ أوضح في الإيجاد والإنشاء؛ ليُعلَم أنَّ مَن قدر على إفناءِ القرونِ الماضية؛ قادرٌ على إنشاءِ الأبدانِ البالية، فدلَّ خَلْقُ الإنسان مِن ماءٍ مهينٍ على أنَّ الإعادة عليه سبحانه يسيرةٌ، فاستوتْ أدلَّةُ القدرة في الفناءِ والبقاء والخلقِ والجزاءِ[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّكِينٍ﴾: أصل (مكن) يدلُّ على رسوخ الشَّيء مجتمعًا[2]، ومِنْهُ: المكان، وهو المَوْضِعُ الحاوي للشَّيء، والمكان في أصل تقديرِ الفِعْلِ (مَفْعَل) مِن الكون؛ لأنَّه موضوعٌ لكونِ الشَّيء فيه، غيرَ أنَّه لكثرته في الكلام أُجري مُجرى فعال[3]، والمكانة: التُّؤدة، وقال اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ [الأنعام: 135]، أي: على حيالِكُم وناحيَتِكُم[4]، والمكان والمكانة واحدٌ، والمكان الموضِعُ، والجمع: أمكِنَة، وأماكن، وهو مصدر مِن (كان) أو موضعٌ منه[5]، و﴿مَّكِينٍ﴾ في

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 173، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 376.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (مكن).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديُّ، تاج العروس: (مكن).

قول اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ أي: مكانٍ متمكّنٍ ثابتٍ راسخٍ[1]، محفوظٍ ممّا يُفْسِدُهُ[2].

2) ﴿فَقَدَرۡنَا﴾: القُدْرَةُ وصفٌ يتمكّنُ به الفاعلُ مِنَ الفِعْلِ دون عَجْزٍ، والقديرُ: هو الفاعل لما يشاء على قَدْرِ ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصحُّ أن يوصف به إلّا اللّه تعالى[3].

والقَدَر: القضاءُ الموَفَّق، يقال: قدَّر اللّه تَعالى هذا تقديرًا، والقَدْر والقدَر: ما يُقَدِّره اللّه ﷻ من القضاء، والقَدْرُ والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيَّة الشَّيء[4]، وقال اللّه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91]، أي: ما عظَّموا اللّه حقَّ تعظيمه[5]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ يجوزُ أن يكونَ مِنَ القُدرةِ المنافيَةِ للعَجْزِ أو مِنَ التَّقدير[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

منّة اللّه تَعالى على العباد في خَلْقِهِم جليلة، ونِقْمَتُه على مَنْ كذَّب بقُدْرَتِه وبيلَةٌ

يمتنُّ اللّه ﷻ على خلقه في هذه الآيات البيِّنات؛ إذ يذكِّرهم سبحانه بنِعَمِه الجزيلة عليهم في الخلق والإيجاد مبيِّنًا هذه الحقيقةَ المسلَّمَ بها، وهي خَلْقُه لهم من ماء ضعيف حقيرٍ، وهو ماء الرَّجل والمرأة، وجعل هذا الماءَ في مكانٍ مستقرٍّ آمِنٍ، وهو رحمُ المرأة، إلى وقت محدَّد معروف، وهو مدَّة الحمل الَّتي قدَّر اللّه تَعالى فيها ذلك الخَلْقَ تقديرًا حكيمًا منضبطًا في أطوار متعدِّدة، فكان بذلك نِعْمَ المقدِّر والموجِد لِلمخلوقات سبحانه، وما دام الأمر كذلك؛ فالهلاك والعذاب الشَّديد يومَ القيامة حاصِلٌ لهؤلاء الَّذين يكذِّبون بقدرة اللّه تَعالى ووحدانيَّته سبحانه[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 431.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 173.
(3) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(4) الخليل، العين: (قدر).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (قدر).
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 541 - 542.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 303 - 304، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 237.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

تكريرٌ للتَّقرير، وانتزاعُ الاعترافِ بقُدْرَةِ القدير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هو امتنان مِن اللّه تعالى على خلقه احتجاجًا على الإعادة بالبَداءة، أي: قد خلقناكم مِن منيٍّ ضعيف حقير بالنِّسبة إلى قُدرَة البارئ ﷻ[1].

فهو تقرير لانتزاع الاعتراف بالقدرة، جيء به بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، على طريقة تَعداد الخطابِ في مَقام التَّوبيخ والتَّقريع، وكلٌّ مِن التَّقرير والتَّقريع مِن مقتضيات ترك العطف لشَبَهِه بالتَّكرير في أنَّه تكرير معنى، وإنْ لم يكن تكريرَ لَفْظٍ، والتَّكرير شبيهٌ بالأعدادِ المَسْرودَة، فكان حقُّه تركَ العطفِ فيه[2].

بلاغَةُ تكرار الاستفهامِ بـ ﴿أَلَمْ﴾:

كيف تتكبَّرون وأصلُكم نطفَةٌ مذِرَةٌ، وآخِرُكُم جيفَةٌ قَذِرةٌ

الهمزة في قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ للاستفهام الإنكاريِّ التَّقريريِّ[3]، أي: لقد خلقناكم أيُّها النّاس مِن ماءٍ مَهينٍ، أي: مِن نطفة حقيرة ضعيفة[4].

فهذا "تقرير على ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادًا مُتقنًا دالًّا على كمال الحكمة والقدرة؛ ليُفْضيَ بذلك التَّقريرِ إلى التَّوبيخ على إنكار البعْثِ والإعادة، وإلى إثبات البعث بإمكانه؛ بإعادة الخلق كما بُدِئَ أوَّل مرَّة"[5].

والمَعْنى: "ألا تعترفون بأنَّكم خُلِقتم مِن نطفة مَذِرة مُنْتِنة وُضِعت في الأرحام إلى حين الولادة، ونحن قد قدَّرنا ذلك، فنعم المقدِّرون؛

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 298.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 430.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 318، وثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 166، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 337، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 564.
(4) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 166، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 237.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 430.

إذ خلقناكم في أحسن الصّوَر والهيئات؟ أفلا يستحقُّ ذلك الخالق منكم الشُّكرانَ لا الكُفران والاعتراف بوحدانيَّته وإرساله للرُّسل والإقرار بالبعث؟ لكنَّكم كفرتُم أنعُمَه، ونَكَلْتُم عن الاعتراف بوحدانيَّته، وعبدتُم الأصنام والأوثان، وأنكرتُم يوم الفصل والجزاء، فسَتَرَونَ في هذا اليوم عاقِبَةَ ما اجترحْتُم"[1].

وفي هذا التَّقرير تذكيرٌ للمكذِّبين وتعجيبٌ مِن غفلتهم عن أيسَرِ المشاهَداتِ، وهي أنَّ مَن خَلَقَهُم مِن النُّطفة الحقيرة الضَّعيفة؛ كان قادرًا على إعادة خلقِهِم للبعث والحساب، "فمَن أقرَّ بقدرته تعالى على الإبداءِ؛ لزمه أن يُقِرَّ بقدرته على الإعادةِ"[2].

سرُّ إيثارِ المُغايرَةِ في التَّعبير بين المضارع ﴿نَخۡلُقكُّم﴾، والماضي ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾:

براعة البيانِ القرآنيِّ في استخدام صيَغِ الأفعالِ

المضارعُ في قولهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم﴾ قد تسلَّط عليه النَّفيُ بـ (لم) التي تَقْلِبُ زمنَهُ للمُضيِّ. أمّا قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾؛ فهو ماضٍ خالِصٌ صيغَةً ومَعْنًى، وكان مِن المُمْكِن في غيرِ القرآن أن يقال: (أما خلقناكم... فجعلناه؟)، فيكون الفعلانِ ماضيَيْنِ، غيرَ أنَّ المُضارِعَ ﴿نَخۡلُقكُّم﴾، وإن كان منفيًّا بحرف يَقْلِب زمنَهُ إلى الماضي؛ فإنَّه لا يزال مُشْعِرًا بتكرُّر الحدوث في الماضي، وهذا الماضي يصدُق على كلِّ لحظةٍ مرَّت، وانقضَت.

وهذا مناسبٌ تمام المناسبة لِما جاء لهُ الفِعْل، فما زال الخَلْق متجدِّدًا مع كلِّ نطفة تستقرُّ في رحم، تلك النُّطفة التي تكون علقة، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا، فخلقًا آخرٍ مكتمل الأعضاء، فتبارك اللّٰه أحسن الخالقين!.

أمّا الماضي ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾؛ فهو الأنسب لِما جاء بعده مِن قوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾؛ إذ يدلُّ على التَّحقُّق والإشعارِ بالاستقرار.

(1) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 183.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 457.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالَتُها في ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

الأصل في معنى ﴿مِّن﴾ أنَّها موضوعَةٌ؛ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[1]، وهي بهذا المعنى هاهنا؛ "لأنَّ تكوين الإنسانِ نشأ مِن ذلك الماء[2].

نكتَةُ تنكيرِ ﴿مَّآءٍ﴾، ودلالةُ وصفِهِ بـ ﴿مَّهِينٍ﴾:

مِن ماء ضعيفٍ حقيرٍ خُلِق إنسانٌ سميعٌ بصير

قوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ يعني: مِن نُطْفَةٍ ضعيفة حقيرةٍ[3]، فالتَّنكيرُ فيه للتَّحقير[4]، ووصفُهُ بـ ﴿مَّهِينٍ﴾ مبالغَةٌ في هذا التَّحقير؛ ليَعْلَمَ كلُّ متكبِّرٍ ومكذِّبٍ أصلَه.

ويجوز أن يكون التَّنكير للنَّوعيَّة، أي: هوَ نوعٌ مخصوصٌ مِن الماء، والمراد به هاهنا: "المنيُّ مِن الرَّجُل والمرأة"[5]، ويكون التَّحقير مستفادًا مِن وصفه بـ ﴿مَّهِينٍ﴾.

"وَوَصْفُ الماء الذي خُلِق منه الإنسانُ بأنَّه ﴿مَّهِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه في ظاهرِهِ شيءٌ لا وزْنَ له في مَرْأى العين، بل هو شيءٌ مستقذَر، لا يَحْرِص عليه الإنسانُ"[6]، فعلى أيِّ شيءٍ يتكبَّر عن الإيمان باللّٰه تَعالى واليوم الآخر[7]؟.

سرُّ إيثار التَّعبيرِ بوَصْفِ ﴿مَّهِينٍ﴾ دونَ غَيْرِه:

مَهين بهوان الحدوثِ والإمكان، وما زال يُنكِرُ البعثَ الإنسانُ

قوله تعالى: ﴿مَّهِينٍ﴾، "أي: ضعيفٍ حقير قذرٍ مُنْتِنٍ ذليلٍ، وهو النُّطفة"[8]، فهو "ماء مَهين بهوان الحدوثِ والإمكان والابتذال"[9]،

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسَّامرَّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 132، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 159.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 516.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 418.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1398.
(7) حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 805.
(8) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 15.
(9) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 285.

"مَهين كمهانَةِ لُحوم الأموات وعِظامِهِم الرَّميمة، ولا يمنع مِن إحـيائِـها طـولُ مـدَّة لُبْـثِها في الأرض، فإنَّه كمدَّة لبث النُّطفة في الرَّحم"[1].

"وهذا الوصف كنايةٌ رمزيَّة عن عظيم قُدْرَةِ اللّه تَعالى؛ إذْ خَلَق مِن هذا الماء الضَّعيف إنسانًا شديدَ القوَّة عقلًا وجسمًا"[2]، وفيه كذلك بيانٌ لِعَظيم جُرْم الكافرين الذين يُنْكِرونَ البعث والإعادة بعدَ الموت، وهم يَعْلَمونَ أَصْلَ نَشْأَتِهِم، "وظاهرٌ في العقل أنَّ القادِرَ على الابتداء قادِرٌ على الإعادة، فلمّا أنكروا هذه الدَّلالة الظّاهرة؛ لا جرم قال في حقِّهم: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾"[3].

معنى (الفاء) ودلالَتُها في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾، وتوجيهُ عودِ هاء الضَّمير فيه:

تعقيبٌ يدلُّ على العناية وكمال الرِّعاية

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ عاطفة[4]، و"تدلُّ على المباشَرَة، وهاء الضَّمير تعود على الماء المهينِ الذي يُشكِّل الجنين، أو على الجنين نفسه"[5].

وعَطْفُ جملة ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ على ما قَبْلَها بالفاءِ يُشْعِرُ بالتَّعقيب، وهذا موافِقٌ لِما يحدُثُ في الواقع؛ إذ يتدفَّق المنيُّ مِن الرَّجل والمرأة، فإذا كتب اللّه تعالى مِنه خلْقًا؛ فإنَّ هذا المنيَّ يُسرِع إلى الاستقرارِ في الرَّحم إلى أجَل الولادةِ الذي قدَّره اللّه تعالى.

وفي هذا العَطْفِ أيضًا "تفصيلٌ لكيفيَّة الخَلْقِ على سبيلِ الإدماجِ مَع مُناسَبَتِه؛ لأنَّ له دخلًا في تبيين إمكان الإعادة؛ إذْ شديدُ القُدْرَةِ لا يعجزه شيء؛ ولذلك ذيَّله بقوله: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾"[6].

(1) المهائميُّ، تبصير الرَّحمن: 3/ 490.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 771 - 772.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 337.
(5) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 233.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾:

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّها موضوعَةٌ؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[1]، وقد جاءت هنا؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّة الحقيقيَّة[2]، فإنَّ الرَّحم هو وعاء النُّطفة التي يُصيّرها اللّه تَعالى جنينًا.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿قَرَارٍ﴾، ودلالَةُ وصْفِهِ بـ ﴿مَّكِينٍ﴾:

تفخيمٌ للقَرار، وتعظيمٌ للاقتِدارِ

القرارُ المكينُ المذكور في قول اللّه تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِم؛ وذلكَ لأنَّ ما يُخلَق منه الولَدُ لا بدَّ أنْ يثبُت فيه، ويتمكَّنَ، بخلاف الذي لا يُخلَق منه الولَدُ[3]، فالتَّنكير فيه للتَّعظيم والتَّفخيم، وهذانِ راجعان لدقَّة الخَلْق وعظمَةِ التَّدبير.

"ومعنى ﴿مَّكِينٍ﴾: حصينٌ، وهو في الأَصْلِ صِفَةٌ لُمسْتَقرٍّ، وُصِف به المَحَلُّ مبالغةً، كما عُبّر عنه بالقرار، فإنَّ الرَّحِم ليس بقرارٍ، بل مستَقَرٌّ فيه"[4].

"فالقرار: موضِعُ الاستقرارِ، والمكين: الحَصين، أي: جعلنا ذلك الماءَ في مقرٍّ حصين يتمكَّن فيه الماءُ محفوظًا سالمًا مِن التَّعرُّض له، فـ ﴿مَّكِينٍ﴾ مِن المكانَةِ بمَعْنى التَّمكُّن، لا منها بمعنى المنزِلَةِ والمَرْتَبَةِ مِن (الكونِ) "[5].

فـ ﴿مَّكِينٍ﴾ على زِنَةِ (فعيل)، "مِن مَكُن مكانَةً؛ إذا ثبَت، ورسخ، ووَصْفُ القرارِ بالمَكين على طريقة المجاز العقليّ، أي: مكين الحال والمستقرّ فيه، فالتَّقدير: مكين فيه، والمراد بالقرار المكين: الرَّحم"[6].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.
(2) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 233.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 772.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 516.
(5) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 285.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.

وأيضًا فإنَّ "وصفَهُ بالمكين معجزَةٌ مستقلَّة، فمَن عَلِم مَدى ما أُحيط به الجنينُ مِن حِمايَةٍ؛ يَعْرِفُ دقَّة المعجزة"[1].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في ﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾:

مُسْتَوْدَعُ خَلْقِ الإنسانِ قرارٌ مَكينٌ، ومستقَرٌّ حَصينٌ، منَّةُ ربِّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، "يعني: جمعناه في الرَّحِم، وهو قرارُ الماءِ مِن الرَّجُل والمرأة، والرَّحِم مُعَدٌّ لذلك، حافظٌ لِما أودِع فيه مِن الماء"[2].

والتَّعبير بالقرارِ المَكينِ كنايَةٌ عن موصوفٍ، وهو الرَّحم، وقد دلَّت هذه الكنايَةُ على عظيم منَّة اللّه تعالى على الخَلْقِ، بأنْ جَعَلَ مستودعَ خَلْقِهم قرارًا مكينًا، مستقرًّا حصينًا.

"فهذا الماءُ المستقذَر المَهين قد جَعَلَهُ اللّه ﷻ ماءً مصونًا محفوظًا ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، هو رَحِم الأُمّ، إنَّ هذا الماء المَهين إذًا ليس كما يَبْدو في ظاهر الأمر شيئًا محقَّرًا أشبه بفضلات الإنسان، وإنَّما هو في حقيقته حياةٌ تضمُّ في كيانها هذه المخلوقاتِ البشريَّةَ، إنَّه النّاس في صوَرِهم وأشكالهم، وإنَّه صوَرُهم المضمَرة، ووجودُهم المستور؛ ولهذا صانه اللّه ﷻ، وأودعه هذا القرارَ المكينَ الذي أعدَّه له"[3].

بلاغَةُ الجِناسِ بينَ ﴿مَّهِينٍ﴾ و﴿مَّكِينٍ﴾:

فواصِلُ الآياتِ قوارعُ مُزلزِلاتٌ

بين لفظي ﴿مَّهِينٍ﴾ و﴿مَّكِينٍ﴾ جناسٌ غيرُ تامٍّ، وهوَ جناسٌ لاحِقٌ؛ لاختلاف نَوْعِ الأحرف بين الهاءِ والكاف، وهذا الجناسُ - مع ما يتركُه مِن وقع بديع لا تُخطِئه الأُذُن - يُبْرِزُ عظيمَ منَّة اللّه تعالى على البشر بأنْ حفظ أصلَ خِلْقَتِهم - على حَقارَتِهم وضَعْفِهم - في مكانٍ حصينٍ حَريز، فمَن قدر على هذا؛ فهو بلا شكٍّ أقدَرُ على الإعادَةِ بعدَ المَوْتِ.

(1) سعيد حوَّى، الأساس في التَّفسير: 11/ 6322.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 299.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1399.

علَّةُ فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ عن سابقه:

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ متعلّق بمحذوفٍ في موضِعِ الحالِ مِن الهاءِ في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾، أي: مؤخَّرًا إلى قدر معلوم[1]؛ ولهذا فُصِل عن سابقه، ولم يُعطَف عليه.

مَعْنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالَتُها في ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾:

لكلِّ أجلٍ كتابٌ، فلْيعتبِرْ أولو الألباب

الأصلُ في مَعْنى (إلى) أنَّها موضوعةٌ للدَّلالة على انتِهاءِ الغايَةِ[2]، وهو هُنا بهذا المعنى؛ إذ يفيد عمومَ الغاياتِ[3]، فالمعنى: "أنَّ هذا المستودَعَ الذي أودِع فيه هذا الماءُ، لا يُمْسِكُ هذا الماء إلّا إلى زمَنٍ محدود، وغايةٍ ينتهي إليها، وهي مُدَّة حمل الجنين في رحِمِ الأُمِّ، مِن استقرار النُّطفة فيه إلى خروجها منه بشرًا سويًّا"[4].

نُكْتَةُ تنكير ﴿قَدَرٍ﴾، ودلالَةُ وصْفِهِ بـ ﴿مَّعۡلُومٍ﴾:

قدَّر الله تَعالى المقاديرَ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ أي: إلى مُدَّة معيَّنة مِن ستَّة أشهُرٍ أو تسعة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾[5]، فالقَدَرُ المعلوم هو مُنْتَهى الحَمْل[6]، أو يومُ ولادَته[7]، أو إلى أن يُصَوَّر[8]، ووصفه بـ ﴿مَّعۡلُومٍ﴾ يوحي بفخامَةِ هذا القَدْر؛ إذْ لَم يَكُن تقديرُهُ إلّا على وفْقِ الحِكْمَة الإلهيَّة العَظيمَة.

نُكْتَةُ التَّعبير باسْمِ المَفْعول ﴿مَّعۡلُومٍ﴾:

تـفـرَّد الـلـه سُبحانَهُ بالعِلْمِ والتَّدبير والخَلْق والتَّقدير

قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾، "أي: مقدارٍ عَلِمَهُ اللّه؛

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 338، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 202.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 16.
(3) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 233.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1399.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 299.
(6) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 88.
(7) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 178.
(8) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 15.

لكونه فيه"[1]، وقد "حكم به، وهو تسعة الأشهر، أو ما دونها، أو ما فوقها"[2].

فالتَّعبير باسم المفعول هاهنا للعِلْم بالفاعل، وهو اللّه تعالى، "فذلك الوقْتُ معلومٌ للّه تَعالى لا لغيره، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34]"[3]، فهذا "معلومٌ عند اللّه في كلِّ شخص، فأمّا عند الآدميّين؛ فيَخْتَلِف، فليس بمعلومٍ قَدْرُ شَخْصٍ بعَيْنِه"[4].

هذا، وقد أفادَ التَّعبيرُ باسم المَفعولِ الاختصار والإيجاز، مع رعايةِ الفاصلَة، فتعانَقَ بهاءُ المبنى مع جلال المعنى.

معنى (الفاء) ودلالتها في ﴿فَقَدَرۡنَا﴾:

تفريعُ الخَلْق على الإيداع؛ لِبيان الاقتدارِ والإبداع

الفاء في قول اللّه تَعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ يُرادُ بها تفريعُ ما بعدها على ما قبلَها، وهوَ قولُه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، والمعنى: "جعلناه في الرَّحِم إلى انتهاء أمدِ الحمل"[5]، "فقدرنا بقُدْرَتِنا وحِكْمَتِنا مسيرةَ هذه النُّطفة في الرَّحِم، وتنقُّلَها فيه من طَوْرٍ إلى طور، وذلك بقَدَرٍ معلوم، وتقديرٍ مَوْزونٍ، وحِسابٍ مُحْكَمٍ دقيقٍ"[6].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة المتواترة لقولِه تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾:

ثراءُ المعاني والدَّلالات، بتعدُّد التَّوجيهاتِ والتَّأويلات

قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ والكسائيُّ: ﴿فَقَدَّرۡنَا﴾ - بالتَّشديد - من التَّقدير، وقرأ باقي العشرَةِ بالتَّخفيف: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ من القُدرة؛ لقوله تَعالى بعدُ: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾[7]، "فمَن قرأ بالتَّخفيف؛ فتأويلُها: فمَلَكنا، فنِعم المالكون، ومَن قرأ بالتَّشديد؛ فتأويلُها: فقَضَيْنا، فنِعم القاضونَ"[8].

(1) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير: 15/ 167.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 679.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 772.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 418.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1399.
(7) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 305، وابن الجزري، النشر: 2/ 397.
(8) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 178.

وقد أفادَت "الكلمتانِ مَعْنَيَيْن متغايريْن، أي: قدَّرنا وقتَ الولادة وأحوالَ النُّطفة في التَّنقيل مِن حالة إلى حالة حتَّى صارت بشرًا سويًّا، أو الشَّقيّ والسَّعيد، أو الطَّويل والقصير كلُّه على قراءة التَّشديد"[1].

"ويتأكَّد هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ [عبس: 19]، ولأنَّ إيقاع الخلق على هذا التَّقدير والتَّحديد نعمةٌ مِن المقدِّر على المخلوق، فحسُن ذِكرُه في موضِع ذِكْرِ المنَّة والنِّعمة، ومَن طعَنَ في هذه القراءة؛ قال: لو صحَّت هذه القراءة؛ لوجب أنْ يقال: فقدَّرنا، فنِعم المقدِّرون، وأجيب عنه بأنَّ العرب قد تَجْمَعُ بين اللُّغتين، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾ [الطَّارق: 17]، وأمّا القراءة بالتَّخفيف؛ ففيها وجهان:

الأوَّل: أنَّه مِن القُدرة، أي: فقدَرْنا على خَلْقِه وتصويره، كيف شِئْنا، وأرَدْنا، فنِعم القادرون؛ إذ خلقناه في أحسن الصّوَر والهيئات. **والثّاني**: أنَّه يقال: قَدَرت الشَّيء - بالتَّخفيف - على معنى: قَدَّرته، قال الفرّاء: العرب تقول: قدَر عليه الموت، وقدَّر عليه الموت، وقدَر عليه رزقه، وقدَّر بالتَّخفيف والتَّشديد، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: 16]"[2].

ومعنى القدرةِ لازِمٌ لمَعْنى التَّقدير، وإبرازُه في معرض المَدْحِ ظاهر، ولأنَّ إثبات القدرة أولى؛ إذِ الكلام مع المنكرين[3].

"وعلَّة مَن شدَّد أنَّه أراد به التَّذكير؛ لأنَّه تعالى قدَّر الإنسان نطفةً ثمَّ علقة ثمَّ مضغة... فدلَّ التَّشديد على تكرير الأحوال، ومَن خفَّف؛ أجراه على لفظ (القادرين)؛ إذ فعلُه: قَدَرَ مخففًا، فالتَّخفيف بمعنى الملكِ والقدرة على ذلك، والتَّشديد بمعنى التَّقدير، فمَن شدَّد (فَقَدَّرْنا)؛ جمع بين مَعنَيَين: التَّقدير بقدَّرنا، والملكِ بالقادِرين، ومَن خفَّف؛ جعله كلَّه بمعنى الملك والقدرةِ"[4].

"والمعنيان متقاربانِ؛ لأنَّه تعالى بيَّن أوَّلًا خَلْقَهم، ثمَّ بيَّن أنَّ ذلك بقُدْرَتِه، وكلُّ شيء كان بالقدرة يكون بالتَّقدير، وبالعكس"[5].

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 160.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 772.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 227.
(4) المكّيُّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7961.
(5) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 516.

دلالَةُ التَّعبير بنونِ العظَمة في آيات هذا المقطَع:

نـونُ المتكلِّم العظيم دلَّت على التَّقديس والتَّعظيمِ

جاء استعمالُ نون المتكلّم العظيم مرادًا به الرَّبُّ ﷻ، وقد استُعْمِل لفظ الجمع؛ إشارةً إلى عظمة إتقانِ الخلْق، وعظمةِ جَعْل الجنين في قرارٍ مكين، ولأنَّ خَلْق الأجنَّة على ما وصَف النَّصُّ القرآنيُّ لا يمكن أن يفعله إلّا الرَّبُّ العظيم الذي يخلُق ما يشاء، ويختارُ بعِلْمِه وحِكْمَتِه وقُدرته[1].

فقوله تعالى: "﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾، أي: بما لنا مِن العظمة، ولمّا كان هذا عظيمًا تَرْجَمَه، وبيَّنه معظّمًا له بقوله: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾، أي: بعظمتنا على ذلك، فجعلناه على مقدارٍ معلوم مِن الأرزاق والآجال والأحوال والأعمالِ"[2].

معنى (الفاء) ودلالَتُها في قوله: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾:

تفريعُ المَدْحِ والثَّناء على تعظيمِ الخَلْق والإنشاء

الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ يُرادُ بها تفريعُ ما بعدَها على قولِه: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾، فهو "تفريعُ إنشاءِ ثناءٍ، أي: فدلَّ تقديرنا على أنَّنا نِعْمَ القادرون، أي: كان تقديرنا تقديرَ أفضلِ قادرٍ، وهذا تنويهٌ بذلك الخَلْقِ العجيب بالقدرة"[3]، "فإنَّ القُدْرَةَ لمّا أتَت بما هو مقتضى الحكمة؛ كانت قُدرةً جديرة بالمدح"[4]؛ "لأنَّ إيقاع الخَلْق على هذا التَّحديد نعمةٌ مِن المحدّد على المخلوق"[5]، فحسُن بذلك التَّفريعُ.

نكتَةُ التَّعبير بأسلوبِ المَدْح ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾:

لا نحصي ثناءً على الله تَعالى شاكرين امتنانَه، كما أثنى هو عَلى نَفْسِه سُبْحانَه

قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ هو ثناء مِن اللّه ﷻ على ذاتِه الكريمة، التي لا يُحسِن الثَّناءَ عليها، ولا يوفيها حقَّها إلّا هو ﷻ، وفي هذا يقول الرَّسول الكريم في تمجيد ربِّه والثَّناء عليه: «لا أُحْصي

(1) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 576 - 577.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 173.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(5) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 592.

ثَناءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1]، "وفي هذا الثَّناء مِن اللّه ﷻ على ذاته الكريمة إشارةٌ إلى أنَّ هذا الإبداعَ في الخلق، والإحكامَ في التَّصويرِ مشهدٌ يقِفُ الوُجودُ كلُّه مبهورًا أمامَ جلاله وروعته، ثمَّ لا يجد مِن صيغ الثَّناء ما ينطق به في هذا المقام، فكان صمتُه أبلغَ مِن كلِّ كلام، وكانت حُجَّته على الصَّمت أنْ تكلَّم أحكَمُ الحاكمين ربُّ العالمين، فليس بعدَ قول اللّه تَعالى قولٌ، ولا بَعْدَ ثنائِهِ ثناءٌ، فالوَيْلُ يومئذٍ لمَن كان لا يرجو للّه وقارًا، ولا يعرف لجلاله قدرًا"[2].

فهذا "التَّمدُّح بالقُدرة على ذلك هو حقٌّ، ولا يقدر عليه إلّا اللّه، كما جاء في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: 58 - 59]"[3].

معنى التَّعريف ودلالتُه في ﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾:

تعظيمٌ وتعميم لكلِّ شيء يقَعُ في قدرةِ العظيم

قوله: ﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ هوَ القادرون: اسم فاعلٍ، مِن الفعل (قدر) اللّازم، أي: إذا كان ذا قدرةٍ، وبهذا يكون الكلامُ على وجهِ التَّأسيسِ لا التَّأكيدِ، والمعنى: فنِعْمَ القادرون على الأشياءِ[4]، والتَّعريفُ فيه للاستغراقِ والتَّعميم، أي: القادرون على أيِّ شيءٍ أَرَدْناهُ، فلا يقِفُ شَيْءٌ أمامَ مَشيئَتِنا، ولا يُعْجِز شيءٌ قدرتَنا، ومعنى التَّعظيم والتَّفخيم فيه بارزٌ لا يخفى.

وإنَّ "مجيء هذا المعنى في هذا السِّياق فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن قدر على ذلك؛ فهو قادر على أنَّ يُحْيِيَ الإنسانَ مرَّة ثانية، وأنَّ هذا ممّا ينبغي أن ينبِّه الإنسانَ، فيُصَدِّقَ أنَّ اللّه قادر على إعادته، ومِن ثَمَّ خُتِمت الفقرة بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾"[5].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (486).
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1399 - 1400.
(3) عطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 402.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(5) سعيد حوَّى، الأساس في التَّفسير: 11/ 6322.

نكتَةُ حَذْفِ متعلّق القُدْرَة في ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾:

تعميمٌ واختصارٌ للعلم بصوَر الاقتِدارِ

حُذِف متعلِّق القدرة مِن قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾؛ لإفادة التَّعميم وعدَم الحَصْرِ، وللعلم بالمقدورِ عليهِ لَدى المخاطَبين، أي: فقَدَرْنا على خَلْقِكُم وإيجادِكُم مِن النُّطفة المَهينة المَكينة في ظُلمة الرَّحِم، ونَقَلْناكُم مِن النُّطفة إلى العَلَقة، وإلى المضغة، وإلى أنْ جعلناكم أجسادًا، ثمَّ نفخنا فيكم الرّوح، وقَدَرْنا على إخْراجِكُم وإظهاركم من ظُلمات الأرحام إلى فضاء العالَم، وعلى تربيتكم فيه إلى أنْ صار كلٌّ منكم ذا رأيٍ ورُشْدٍ قابلًا لحَمْلِ التَّكاليف"[1].

بلاغَةُ جِناسِ الاشتقاق بين ﴿قَدَرٍ﴾ و﴿فَقَدَرْنَا﴾ و﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾:

تآزُرُ رَوْنَقِ المَبْنى مع جمالِ المَعْنى

بينَ قولِه تعالى: ﴿قَدَرٍ﴾ و﴿فَقَدَرْنَا﴾ و﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ لَهُ وقْعٌ لا تُخطِئُه الأذُن المرهفة، وفيه - مع جمالِ المَبْنى - تأكيدٌ على معنى القدرة المطلَقة، التي قرَعَ السَّمعَ ألفاظٌ ثلاثةٌ مشتقَّة مِن جذرها اللُّغويّ، فلا يَبْقى أمامَ المُستَمِع إلّا الإذعانُ لقدرة القديرِ المُقْتدِر سبحانه وبحمدِه.

وهذه التَّقديرات "تشمَلُ المقادير الزَّمانيَّة والمكانيَّة، والذّاتيَّة والوصفيَّة، ومقاديرَ كلِّ شيء في خَلْق كلِّ جنين، مِن ذواتٍ، وصفات، وأحوال، وأطوار، وغير ذلك، فكلُّ خُلق بمقدار، وكلُّ حركةٍ محدَّدة بمقدار، وكلُّ طوْرٍ محدَّدٌ بمقدار، وكلُّ وصف محدَّد بمقدار، ويدلُّ فعل ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على تحديد المقادير، وعلى القدرة على تكوينِ المخلوق وفق المقاديرِ المحدَّدة في خطَّة تكوينِه، وكذلك اسم الفاعل ﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ يدلُّ على المَعنَيَين"[2].

(1) النَّخجوانيُّ، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 474 - 475، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 904.
(2) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 576 - 577.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المَهين والحَقير:

المَهين ضعيفٌ والحَقيرُ صغيرٌ

(حقر) أصلٌ واحد، وهو استصغار الشَّيء، يقال: شيءٌ حقير، أي: صغير[1]، وحقَرَه، واحتقَرَه، أي: استصغرَه[2]، وتَحاقَرَتْ إليه نفسُه: تصاغرت، والتَّحقيرُ: التَّصغير[3].

والمعنى المحوريُّ لجذر (مهن): خُلوُّ الشَّيءِ مِن مادَّة الغِلَظِ والشِّدَّة، فيكون ضعيفًا أو سهلًا[4]، والمَهين: الضَّعيف، وهو فعيلٌ مِن: مَهُنَ، أي: ضَعُف، وميمُه أصليَّة، وليس هو مِن مادَّة هان[5].

وأوثِر لفظُ (المَهين) دون (الحقير)، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ لأنَّ وصفَ ماءِ الرَّجُلِ بهذا الوصف كنايةٌ رمزيَّة عن عظيم قدرة اللّه ﷻ؛ إذْ خَلَقَ مِن هذا الماءِ الضَّعيفِ إنسانًا شديدَ القوَّة عقلًا وجسمًا[6].

القُدرَةُ والاستِطاعَةُ:

الاستطاعةُ أخصُّ مِنَ القدرة

القُدْرَةُ وصفٌ يتمكَّنُ به الفاعلُ مِنَ الفِعْلِ دون عَجْزٍ، والقدرةُ المطلقةُ خاصَّةٌ باللّه تَعالى، ومحالٌ أن يوصَف غيرُهُ اللّه تَعالى بالقدرة المطلقة مَعْنًى، وإن أُطلِق عليه لفظًا، بل حقّه أن يقال: قادرٌ على كذا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيلِ مَعْنى التَّقييد، ولهذا لا أحدَ غير اللّه يوصَف بالقدرة من وجهٍ إلّا ويصِحّ أن يوصفَ بالعجز من وجهٍ، واللّه تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كلِّ وجه.

والقَديرُ: هو الفعّال لما يشاء على قَدْرِ ما تقتضي الحكمة، لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقر).

(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حقر).

(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (حقر).

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مهن).

(5) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (مهن)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 431.

زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصِحُّ أن يوصفَ به إلّا اللّه تعالى، قال اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: 20][1].

وقدرةُ اللّه ﷻ تأتي مع المشيئة؛ إذْ هي صفةٌ تقتضي التَّمَكُّنَ مِن فِعل الشَّيء وترْكِه بالإرادة، فاللّه ﷻ وصفَ نفسَه بأنَّه قادرٌ، أي: إن شاءَ؛ فعَلَ، وإن لمْ يشأ؛ لَم يَفْعَل[2].

والاستطاعَةُ أخَصُّ مِنَ القدرة؛ لأنَّ فيها مَعْنى الانقيادِ؛ إذ مادَّة الطّاء والواو والعَيْن دالَّةٌ على الإصحابِ والانقيادِ[3]، ثُمَّ إنَّ الاستطاعة اسمٌ لمعانٍ يَتمَكَّن بها الفاعلُ مِمّا يُريدُهُ مِن إحداثِ الفِعْلِ، وهيَ: إرادتُه للفِعْلِ، وقُدْرَته على الفعل بحيثُ لا يكون له مانِعٌ منه، وعلمُهُ بالفِعل، وتهيُّؤ ما يتوَقّف عليه الفِعْل؛ ولذا يُقال: فلانٌ قادِرٌ على كذا، لكنَّه لا يُريده، أو يَمْنَعُه منهُ مانِعٌ، أو نحو ذلك، فبانَ بهذا أنَّ الاستطاعَةَ أخَصُّ مِن القُدْرَةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(2) ابن تيميَّة، منهاج السُّنة النَّبويَّة: 1/ 405، وأبو البقاء الكفويُّ، الكلِّيّات، ص: 866.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ۝٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ۝٢٧ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ [المرسَلات: 25 - 28]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

توسيعُ البرهانِ بعد خَلْقِ الإنسانِ بآيةِ تسخيرِ الأكوانِ

لمّا أبان اللّه سبحانه عن قدرته في خلق الإنسان مِن ماءٍ مهين؛ أتبع ذلك بآيةٍ أوسَعَ في الآفاق تملأ العقولَ يقينًا وتزيد القلوبَ تسليمًا؛ فذكَّر بأنَّه جَعَلَ الأرض كفاتًا للأحياء والأموات، وبالجبال الرَّواسي والماء الفُرات؛ ليشهد الكونُ كلُّه أنَّ القادرَ على التَّقدير في الكبيرِ والصَّغير، هو وحده المستحقُّ للتَّصديق والتَّوقير[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِفَاتًا﴾: الكَفْتُ: القبض والجمع، تقول: كَفَتُّ الشَّيء أكْفِتُه كَفْتًا؛ إذا ضَمَمْتَهُ إلى نفسِك، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾، أي: تجمع النّاس أحياءَهم وأمواتهم[2]، وقال الفرّاء: يريد تَكْفِتُهم أحياءً على ظهرها في دورِهم ومنازلهم، وتَكْفِتُهم أمواتًا في بَطْنها، أي: تحفظهم وتحرِزُهم[3].

والكَفْتُ: السَّوق الشَّديد، واستعمالُ الكَفْتِ في سَوْقِ الإبل كاستعمال القَبْضِ فيه، ويقال: كفته اللّه، أي: قبضَهُ اللّه تعالى، وكل شيءٍ ضَمَمْتَهُ إليكَ، فقد كَفَتَّهُ[4].

2) ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾: أصل (شمخ) يَدُلُّ عَلى تَعَظُّمٍ وارتِفاعٍ[5]، يُقال:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 174.
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (كفت).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (كفت)، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(4) الرّاغب، المفردات، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (كفت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شمخ).

شَمَخَ فلانٌ بأنْفِه، وشمخَ أنفُه ليَ؛ إذا رفع رأسَه عِزًّا وكِبْرًا، وقد شَمَخَ شُموخًا، والجمع: شَوامِخُ، وشَمَخَ الرَّجل بأنفِه: تكبَّر[1]، ومن هذا قيل للمتكَبِّر: شامِخٌ وشمّاخٌ، وقد شَمَخ الجبلُ، فهو شامِخٌ، أي: طويل في السَّماء[2]، وقول اللّه ﷻ: ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾، أي: عاليات مُرْتَفعات[3].

3) ﴿فُرَاتًا﴾: أصلُ (فرت) يدلُّ على الماء الفُرات، وهوَ العَذْبُ[4]، يقال: ماء فراتٌ ومياه فراتٌ، فيُقال للواحد والجمع، وقد فرُت الماءُ يَفرُت فُروتَةً؛ إذا عذُب، فهو فراتٌ[5].

❁ المَعنى الإجماليّ:

نِعَمُ الله تَعالى علـى عـبـاده لا تُحَدُّ، والمكذِّبون بـهـا فـي خـيـبـةٍ وعذابٍ مُمْتَدٍّ

لا يزال اللّه ﷻ يذكِّرنا في هذا البيان القرآنيِّ بنِعَمِه الوفيرة علينا مستخدمًا في ذلك أسلوبَ الاستفهام؛ لإفادة التَّقرير بهذه النِّعم العظيمة الَّتي تتمثَّل في جعله الأرض ضامَّةً وجامعةً لَمن على ظهرها من الأحياء الَّذين لا يُعَدّون، ولمن في بطنها من الأموات الَّذين لا يُحْصَون، وفي تثبيتها كذلك بالجبال المرتفعات العاليات؛ لئلّا تميدَ، وتضطربَ بأهلها، وفي تسخيره لنا الماءَ العذبَ الفرات من السَّحاب، وممّا أنْبَعَهُ سبحانه من عيونِ الأرض، ومع هذه النِّعم كلِّها الدّالَّة على عظمة الخالق سبحانه، فإنَّ هناك من النّاس مَنْ يكذِّب بها، ويَجْحَدُها، ومِن ثَمَّ كان لهُ الهلاك والعذاب الشَّديد في الآخرة[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصْلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

تكرير للتَّقرير تقريعًا، وتوبيخًا لـلـمـكـذِّبـين وتشنيعًا

قولُهُ تَعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ تقريرٌ جاءَ "على سَنَن

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (شمخ).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (شمخ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (شمخ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرت).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (فرت).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 304، والمجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة، تفسير المنتخب، ص: 875.

سابقيهِ في عدَم العَطْفِ؛ لأنَّه على طريقَةِ التَّكرير للتَّوبيخ، وهو تقريرٌ لَهُم بما أَنعم اللّه به عليهم مِن خلْقِ الأرض لهم بما فيها ممّا فيه منافِعُهم، كما قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النّازعات: 33]"(1).

تقرير لانتزاع الاعترافِ بقُدْرَةِ خفيِّ الألطاف

نوعُ الاستفهامِ وغَرَضُه في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾:

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾؛ للاستفهام الإنكاريِّ التَّقريريِّ(2)، أي: قد جعلناها كافِتَةً(3)، يعني: "موضعًا يضمُّ أحياءً كثيرةً على ظهره، وأمواتًا غير محصورةٍ في بطنه، فالأحياء يَسكنون في منازلهم، والأموات يُدفنون في قبورهم"(4).

وفي هذا الاستفهام "نوعٌ مِن التَّوبيخ للمكذِّبين باللّه ورسله والإيمان وبالبعث والحساب"(5)، فكأنَّه قيل: "أليس مِن نِعَم اللّه على خَلْقِه أن جَعَلَ الأرضَ تَضُمُّهم إليها حالةَ كونِهم أحياءً وأمواتًا؟"(6)؛ ولذلك "هدَّد بالوَيْلِ على تكذيبِهم وكُفْرانِهم بها؛ تعريضًا بأنَّهم قابَلوا تلك النِّعمَ الموجِبةَ للشُّكر بالكُفر والعصيان، وتخويفًا لهم بسوءِ عاقِبَةِ صَنيعِهم هذا يوم الحسابِ والجزاءِ"(7).

عرَّفهم بالنِّعم النَّفسيَّة؛ لأنَّها كالأصل للنِّعم الآفاقيَّة

سرُّ تأخير الكلام عن الأرضِ على الكلام عَن خَلْقِ البَشَر:

قُدِّم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ على قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾؛ لأنَّه "لمّا ذكر إفناء الأوَّلين والآخِرين؛ ذكر، ووقَّف على أصلِ الخِلْقَة التي يقتضي النَّظر فيها تجويزَ البعث"(8).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(2) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 166، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 338.
(3) المنتجَب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 312.
(4) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 593.
(5) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 234.
(6) حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 806.
(7) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 8/ 460.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 376.

وأمّا قوله تعالى هاهنا: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ إلى آخر آياتِ هذا المقطع؛ فإنَّه يُعَدُّ نوعًا "مِن تخويف الكُفّار، وذلك لأنَّه ذكَّرهم بالنِّعم التي له عليهم في الأنفُس، وفي هذه الآية ذكَّرهم بالنِّعم التي له عليهم في الآفاق، ثمَّ قال في آخر الآية: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، والسَّبب فيه أنَّ النِّعم كلَّما كانت أكثر؛ كانت الجنايَةُ أقبحَ، فكان استحقاقُ الذَّمّ عاجلًا والعقابِ آجلًا أشدَّ، وإنَّما قدَّم تلك الآيةَ على هذه الآيةِ؛ لأنَّ النِّعم التي في الأنفُس كالأصل للنِّعم التي في الآفاق، فإنَّه لولا الحياةُ والسَّمع والبصر والأعضاء السَّليمةُ؛ لما كان الانتفاعُ بشيءٍ مِن المخلوق ممكنًا"[1].

فالحاصل أنَّه "عرَّفهم أوَّلًا نِعَمَه الأنفُسيَّة؛ لأنَّها كالأصل، ثمَّ أتبعها النِّعم الآفاقيَّة"[2]، فإنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ هو "مشهَدٌ آخَرُ مِن مشاهد قدرة الخالق ﷻ، فإذا عَميَت بعضُ البصائر عن أن ترى مسيرة هذه النُّطفة الصَّغيرة، وأن تَشْهَد ما انطوت عليه مِن حياة، وما تفجَّر منها مِن مخلوقاتٍ؛ فإنَّها تستطيع أن تَنْظُر إلى كائنٍ آخَرَ، أكبَرَ حجمًا مِن هذه النُّطفةِ.

إنَّه الأرض! الأرض كلُّها بما على ظهرها، وما في بطنها، فماذا يُرى مِن هذه الأرض ظاهرًا أو باطنًا؟ إنَّها النُّطفةُ مكبَّرةً! إنَّها حياة وموتٌ في وقت معًا.. إنَّها حياة منطلقة مِن مواتٍ، ومواتٌ يتخلَّف مِن حياة.. إنَّها رحم كبير، يتفتَّح لنُطَف الماء الذي يتحلَّب عليه مِن السَّحاب، ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: 5]"[3].

معنى التَّعريف ودلالتُه في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

التَّعريفُ في الأرض يراد به الجنسُ، والمراد: جميعُ بقاعِ الأرض،

منَّةٌ عظيمَةٌ، ونِعْمَةٌ جسيمَةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 772.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 285.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1400.

فلمّا أُريد بها الجمعُ؛ نُعِتَت بالجمع[1]، فقال سُبْحانَهُ: ﴿كِفَاتًا﴾، وهو جمع (كافتة)، وفيه امتنان عظيم على الخَلْق بأن ذلَّل لهم ربُّهم الأرضَ كلَّها تكفتهم أحياءً وأمواتًا.

سرُّ تقديمِ ذِكر الأرض على الجبالِ والماء:

يحسُن في باب الامتنان التَّذكيرُ بما هو قريبٌ ودانٍ

قُدِّم الامتنانُ بنعمة الأرضِ على الامتنان بنعمة الجبال والماء؛ "لأنَّ أقرب الأشياء إلينا مِن الأمور الخارجيَّة هو الأرض"[2]، وممّا يحسُن في باب الامتنانِ المرادِ به التَّقريرُ ونزعُ الاعترافِ أن يُبتَدَأ بالنِّعم القريبة الدّانية، فالمنَّة بها أخصُّ.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿كِفَاتًا﴾ و﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾:

نكاتُ البلاغةِ تتواردُ ولا تتزاحَمُ

يجوزُ في تنكير ﴿كِفَاتًا﴾ و﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ أكثرُ مِن معنى:

الأوّل: التَّفخيم، "كأنَّه قيل: تكفت أحياءً لا يُعَدّون، وأمواتًا لا يُحصَرون، على أنَّ أحياء الإنسِ وأمواتَهُم ليسوا بجميع الأحياء والأموات"[3].

والثّاني: التَّبعيض؛ "لأنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهُم ليسوا بجميع الأحياء ولا الأموات"[4]، "فإنَّ الأحياء والأموات مطلقًا غير منحصرةٍ في أحياءِ الإنس وأمواتِهم؛ لأنَّ بعض الحيوان يكفِتُه الهواء، وبعضَهُ الآخر يكفِتُه الماء، فالأرض كفاتٌ لبَعْضِ الحيوان الذي هو أحياءُ الإنسِ وأمواتُهُم"[5]، "ولا ينافي ذلك التَّفخيم؛ نظرًا إلى أنَّه بعضٌ غير محصور، كثيرٌ في نفسه"[6].

والثّالث: "التَّكثير، أي: أحياء وأمواتًا لا تُعَدُّ، ولا تحصى"[7]، وهذا مترتِّب على الأوَّل الذي هو التَّفخيم.

---

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 772.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 679 - 680.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 76.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 459.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 193.
(7) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.

علّة فصْلِ قولِه تعالى: ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ عن سابِقِهِ، وبيانُ أوجُه نَصْبِهما:

تعدُّد الأعاريب مِن صوَرِ بلاغة النَّظْمِ العجيبِ

أمّا نصب ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾؛ ففيه وجوهٌ[1]، وبيانُها أنَّه يجوز نَصْبُهما "بنفس كفات على أنّهما مفعولان، على معنى: كافتةً أحياءً وأمواتًا، وإن شئت؛ أبْدَلْتَهما منها، كأنَّه قيل: ألم نجعل الأرض أحياءً وأمواتًا؟ وإن شئتَ جَعَلْتَهُما حالَيْنِ؛ إمّا مِن معمول الكِفات، كأنَّه قيل: كافتة الخلق أو النّاس أحياءً أو أمواتًا، أو تكفِتُكُم أحياءً وأمواتًا، وإمّا مِن الأرض، أي: منها كذا، ومنها كذا، والمراد: ما ينبت مِن الأرض وما لا ينبت؛ لأنَّ حياة الأرض بالنَّبات، وموتها بالخرابِ والجفاف، وإن شئت نَصَبْتَهُما بنفس الجَعْلِ على أنَّه مفعول ثانٍ له، على معنى: جعلنا بعضَ الأرض أحياءً بالنَّبات، وبعضَها أمواتًا بالخراب والجفافِ، و﴿كِفَاتًا﴾ على هذا حالٌ مِن الأرض، أي: في حالِ كَوْنِها ضامَّة جامعة للخَلْق، وتكون الحالُ مقدَّرة"[2].

وعلى ما تقدَّم مِن أوجه النَّصبِ؛ تَظْهَرُ علَّة الفَصْلِ بين هذه الآيَةِ وسابِقَتِها.

بلاغة الطِّباق بين ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾:

النّاس إمّا أحياء في الـدّور، وإمّا أمواتٌ في القبور

بين لفظ ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ طباقُ إيجابٍ أفضى إلى استيعابِ التَّقسيم، فالنّاس إمّا حيٌّ وإمّا ميّت، ولا ثالثَ لهما، "والأرض تكفت الأحياء على ظَهْرِها، وتكفت الأموات في بطنها"[3]، "ففائدةُ ذِكْرِ هذَيْن الجمعَيْن ما في معنيَيْهما مِن التَّذكير بالحياة والموت"[4].

والمعنى: "ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحيائِكم وأمواتكم، تكْفِت أحياءَكُم في المساكن والمنازل، فتضمُّهم فيها، وتجمعهم، وأمواتَكم

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 224، والنَّحّاس، إعراب القرآن: 5/ 75، والعُكبريُّ، التِّبيان: 2/ 1264.
(2) المنتجَب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 313.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 419.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 433.

في بطونها في القبور، فيُدفَنون فيها"(1)؛ "ولهذا كانوا يُسَمّون الأرض أُمًّا؛ لأنَّها في ضمِّها للنّاس كالأُمّ التي تضمُّ ولدَها، وتكفله، ولمّا كانوا يُضَمّون إليها؛ جُعِلت كأنَّها تضُمُّهم"(2).

بلاغةُ التَّتميم والإدماجِ في قولِه: ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾:

تُحاصِرُهُم الآياتُ والبراهينُ، ولا يزالون بالبَعْثِ مكذِّبينَ

سيقت هذه الآيةُ مساق الامتنان على المخاطَبين بهذه النِّعم؛ حَمْلًا لهم على الإقرار بها، والاعتراف بقدرة المُنعِم الجليل على الخَلْق والإيجاد والتَّقديرِ وفق ما اقتَضَتْهُ حِكْمَتُه، ومَن كان هذا فعلَه؛ كان محالًا أن يَخْلُق عبثًا، أو أن يَتْرُك خلقَه سُدًى، فيؤول ذلك إلى الاعتراف بالبعث والحساب والجزاء.

"ومحلُّ الامتنان هو قوله: ﴿أَحۡيَآءٗ﴾، وأمّا قوله: ﴿وَأَمۡوَٰتٗا﴾؛ فتتميمٌ وإدماجٌ ... لأنَّ فيه مشاهدةَ الملازمة بين الأحياء والأموات تدلُّ على أنَّ الحياة هي المقصود مِن الخِلقة، وهذا تقرير لهم بالاعتراف بالأحوال المشاهَدة في الأرض الدّالَّة على تفرُّد اللّٰه تعالى بالإلهيَّة"(3).

دلالة المقاطع السّابقة على إمكان البعث بشواهِدِه:

تكاثرت أدلَّة إثباتِ البَعْثِ والجزاء، وأعين المكذِّبين عنها في عَماءٍ

الآياتُ مِن قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إلى هاهنا قد تصدَّت؛ "لإثبات البَعْثِ بشواهدَ ثلاثةٍ: أحدها: بحالِ الأُمَم البائدة في انقراضها. الثّاني: بحال تكوين الإنسان. الثّالث: مصير الكلِّ إلى الأرض.

وفي كلِّ ذلك إبطالٌ لإحالتهم وقوعَ البَعْثِ؛ لأنَّهم زَعَموا استحالتَه، فأُبطِلت دعواهم بإثبات إمكان البعث، فإنَّه إذْ ثبت الإمكانُ؛ بطلَت الاستحالة، فلمْ يبقَ إلّا النَّظر في أدلَّة ترجيح وقوع

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 133.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 773.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432 - 433.

ذلك الممكن"(1). ومِن هنا حسُن أن يُختَم كلُّ مقطَع منها بقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّه "تكرير للتَّوبيخ والتَّقريع على جُحودهم لنِعَم اللّه التي يرونها بأعينهم، ويحسّونها بحواسِّهم، ويستعملونها لمنفعَتِهم"(2).

فائدة ذِكر (أمْواتًا) بعد قوله: ﴿كِفَاتًا﴾:

مِـن منَّـة الله تَعالى على خلْقه فــي محياهم الدّورُ والقصورُ، وفي مماتِهم اللُّحودُ والقبورُ

أصلُ الكَفْت في لسانِ العربِ: الضَّمُّ، "ومعنى الكفات هاهنا: هو أنَّ الأرض تضمُّ الخَلْق أحياءً وأمواتًا، فالضَّمُّ في حال الحياة هو باكتِنانِهم واستقرارهم على ظَهرها، وبعد الممات باكتِنانهم في بطنِها، وهو القبورُ"(3)، "فكما أنَّ الدّور والقصور مِن نِعَم اللّه على عباده ومنَّته، فكذلك القبور: رحمةً في حقّهم، وسترًا لهم عن كون أجسادهم باديةً للسِّباع وغيرها"(4).

كما أنَّ "في الآية امتنانًا يجعل الأرض صالحَةً لدفن الأموات، وقد ألْهَم اللّه لذلك ابنَ آدم حين قتل أخاه ..."(5).

معنى (الواو) ودلالَتُها:

تَـعْـدادُ النِّـعَـم وإبرازُ المِنَن

الواو في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ حرفُ عَطْف، فالجملة معطوفةٌ على سابِقَتِها: ﴿نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾(6)، ووُصِلَ بين الجملتَيْن؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، وذلك لاتِّحادِهما في الخبريَّة؛ فإنَّ كَوْنَ قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ خبرًا ظاهِرٌ، وأمّا قولُه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾؛ فإنَّه وإن كان استفهامًا في اللَّفْظِ، إلّا أنَّ معناه التقريرُ، والمعنى: قد جعلنا الأرض كفاتًا، كما أنَّ بين الجملَتينِ تناسُبًا في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 433.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 238.
(3) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 129.
(4) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 904.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 433.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 338، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 203.

اللَّفْظِ؛ فاتِّفاقُهما في الفِعْليَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ والمسنَدِ إليهِ فيهما، وأمّا في المَعْنى؛ فلأنَّه في سياق تعديد النِّعم وإظهار المِنَن.

دلالَةُ التَّعبير بالماضي مُسْنَدًا لنونِ العظَمَة: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

يفيد الماضي التَّحقيق، وهو بتوكيدِ المعنى حقيقٌ

أفاد التَّعبيرُ بالماضي معنى التَّحقيق، وهذا يشير إلى أنَّ منَّة اللّه تعالى بإرساء الجبال قد سَبَقَت خَلْق البشر على الأرض، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فُصِّلت: 9 - 10]، أي: قد أعدَدْنا ذلك لكُم قبل أن نخلقكم، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115].

ولمّا كان ذلك ممّا لا يقدِر عليه إلّا اللّه ﷻ، وكان السِّياق في إثباتِ قُدْرَته جلَّت عظمتُه؛ ناسب أن يُسنَد الفعل فيه إلى نون العظَمَة، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، "أي: بما لنا مِن القدرة التّامَّة"(1).

معنى (في) ودلالَتُها في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾:

أوتادٌ في الأرض راسياتٌ، وعلى قدرة الباري شاهداتٌ

الأصل في معنى (في) أنّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة(2)، وهو هنا بمعنى الظَّرفيَّة الحقيقيَّة، فإنَّ الأرضَ وعاءٌ للجبال؛ إذ إنَّه "قد قُدِّر طول هذه الجبال داخل الأرض بأضعاف طولها فوقَ الأرضِ"(3).

نكتَةُ تقديم شبه الجملةِ على المفعول بهِ:

خُصَّت الأرضُ بنِعَمٍ كثيرَةٍ، وآلاءٍ وفيرَةٍ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به ﴿رَوَٰسِيَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾؛ لأجل التَّخصيص امتنانًا بالنِّعمة، وليعود الضَّميرُ عليها من قريبٍ، بخلاف ما لو قيل:

---

(1) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 465.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

(3) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 235.

وجعلنا رواسي شامخاتٍ فيها بعد قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءً وَأَمۡوَٰتًا﴾.

وأيضًا فإنَّ في التَّقديم اهتمامًا بالمقدَّم، وهو المناسب هنا؛ لأنَّ السِّياقَ سياقُ امتنان بنعمة الأرض وما فيها مِن سُبل تذليلِ عَيْشِ النّاس عليها.

نكتةُ تنكير ﴿رَوَٰسِيَ﴾، ودلالَةُ وصْفِها بـ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾:

شـامـخـاتٌ شـاهـقـاتٌ خَضَعَت لعظمة الله تَعالى

قوله تعالى: ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾، "يعني: الجبالَ، والرَّواسي: الثَّوابت، والشّامخات: الطّوال، ومنه يقال: شمخ بأنفِه؛ إذا رفعه كِبرًا"[(1)]، والمعنى: "وجعلنا في الأرض جبالًا ثابتاتٍ فيها، باذخاتٍ شاهقاتٍ"[(2)]، "لولاها؛ لمادَت بأهلها، ومِن العجائب أنَّ مراسيَها مِن فوقها خلافًا لمراسي السُّفن، ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾، أي: هي مع كونِها ثوابتَ في أنفُسِها مثبّتة لغيرها طوال جدًّا عظيمة الارتفاع، كأنَّها قد تكبرَّت على بقيَّة الأرض وعلى مَن يُريد صُعودَها"[(3)]، وهذا الارتفاعُ العظيم يدلُّ على عظمَةِ الخَلْق وإتقانه وإحكامه، ومِن ثمَّ على عظمَةِ الخالقِ سُبۡحانَهُ.

وأمّا التَّنكيرُ؛ ففيهِ وجْهانِ:

أحدُهما: أن يكون التَّنكيرُ "لإفادة التَّبعيض؛ لأنَّ في السَّماء جبالًا، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النّور: 43]"[(4)]، فيكون ذلك إشعارًا "بأنَّ فيها ما لم يُعرَف، ولم يُرَ"[(5)]، وذلك "كما في الأراضي التي لم تُعمَر والجزائر العامرة"[(6)]، "فأرض الله تعالى واسعة، وفيها ما لم يعلمْهُ إلّا الله ﷻ"[(7)].

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 135.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 175.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 680.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 276.
(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 297.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.

والآخَر: أن يكون التَّنكير للتَّفخيم[1]، وهذا واضح جليٌّ في سياق الامتنان، "والإشارة فيه إلى عظيمِ منَّته أنَّه لم يخسِفْ بكُم الأرض؛ وإن عَمِلتُّم ما عَملتُم"[2].

ووصفُ جمعِ المذكّر بالجمعِ المؤنَّثِ لغيرِ العقلاءِ مُطَّردٌ في كلام العرب، ومِنْهُ قول اللّه تَعالى: ﴿أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: 197][3].

سـرُّ إيثـار المغايـرة فـي التَّعبـير بـين ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ فـي أوائـلِ السّـورة، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ هُنا:

إبـداعٌ واتِّـفـاقٌ معَ ما يناسِبُ السِّياق

أصل (جبل) يدلُّ على تجمُّع الشَّيء في ارتفاعٍ مع غِلَظ الهيئة[4]، "واعتُبِر معانيه، فاستُعير منه، واشتُقَّ منه بحَسَبِه، فقيل: فلان جبل لا يتزحزح؛ تصوُّرًا لمعنى الثَّبات فيه، وجَبَلَهُ اللّه على كذا: إشارة إلى ما رُكِّب فيه مِن الطَّبع الذي يأبى على النّاقل نقلُه، وفلان ذو جِبِلَّة، أي: غليظ الجِسم"[5].

أمّا الرُّسوُّ؛ فتدور معانيه حول الثَّبات مع التَّمكُّن[6]، "والرَّواسي: الجبال؛ لأنَّها رسَت، أي: ثبتَت"[7].

وأمّا الشُّموخُ؛ فتدور معانيهِ حول التَّعظُّم والارتفاع الخارق للأُفُق مَعَ رُسوخِ الأصل[8].

فتحصَّل ممّا سبق أنَّ المعنى المحوريَّ في (جبل) هو التَّجمُّع والغِلَظ، والمعنى المركزيُّ في (رسو) هو الثَّبات والتَّمكُّن، والمعنى الأبرز في (شمخ) هو الارتفاع.

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 680، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 276، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 175، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.
(2) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 673.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 80.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبل).
(5) الرّاغب، المفردات: (جبل).
(6) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسو).
(7) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 419.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شمخ).

ومن هنا نستطيع أن نتلمَّس سرَّ إيثار التَّعبير بالجبال في قوله تعالى أوَّلَ السّورة: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، وبالرَّواسي الشّامخات هاهنا في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ ذلك أنَّ التَّعبير بالجبال أوثر في سياق ذِكر أحداث يوم القيامة وأهوالها؛ إذ تذهب هذه الأحداثُ العظيمة بصلابة الجبال (الغليظة)، فتَنْسِفُها بالتَّفتيت، فتجعلها كثيبًا مهيلًا، ثمَّ هباءً مُنْبَثًّا، فكان التَّعبير بما يدلُّ على الغِلظ أنسبَ لإبراز المفارقة.

أمّا الرُّسوُّ والشُّموخ؛ فأوثِرا في سياق الامتنان بخَلْقِ الأرض وتسخير ما عليها، فرُسوُّ الجبال يُثَبِّت الأرض، ويحفَظُها مِن الاضطراب، وشموخُها وارتفاعها يتسبَّب في نزول مياه الأمطار[1]؛ "إذ إنَّ هذه الجبال تنزل الأمطار عليها، وترتَطِمُ بها السُّحب الرُّكاميَّة، ويحدث مِن ذلك السُّيول الجارفة التي تشقُّ طريقَها في الأرض، وتتكوَّن الأنهار العذبة، فيسقي اللّه منها الإنسان والحيوان، وينبت الزَّرع، ويدرُّ الضَّرع، وتحيا الأرض بعد موتها، وذلك ممّا يدعو إلى التَّبصُّر والاعتبار، وجاء قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾، أي: عذبًا سائغًا شرابُه، جاء كالأثر الطَّيِّب المبارك المترتِّب على تذكير اللّه لهم بنعمة خلق الجبال وإيجادها"[2].

"وهذا امتنان بخلق الجبال؛ لأنَّهم كانوا يأوون إليها، وينتفعون بما فيها مِن كلأ وشجر، قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النّازعات: 32 - 33]"[3]، "فهو امتنان منه سبحانهُ على عباده في معرض ذكر النِّعم الكبيرة المنسيَّة"[4].

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾:

الواوُ عاطفَةٌ، وجملة: (أَسْقَيْنَاكُمْ) معطوفة بالواو على جملة (جَعَلْنا)[5]؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فإنَّهما متَّحدتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسُبٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا اللَّفظ؛ فاشتراكُهما في الفِعليَّة والماضويَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وأمّا في المَعْنى؛

(1) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 583.

(2) مجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1732.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 434.

(4) مأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 303.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 338، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 299.

عطفٌ للمناسَبة، تحسُن به بينَ المِنَن المعاقبَة

فذِكْرُ الماءِ عقيبَ ذكر الجبالِ؛ "لأنّها تنحَدِرُ منها المياهُ تجري في أسافلها، وهي الأوديَةُ، وتقرُّ في قرارات وحياض وبحيراتٍ"(1).

سرُّ التَّعبير بـ ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾، ونكتَةُ إسنادِهِ إلى نونِ العظَمَةِ:

تمكينٌ من الشُّرب والإسقاءِ؛ لتَعظُّمَ المنَّة بالعطاءِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾، أي: "جعلناه سقيًا لكم، ومكّناكم مِن شربه، وكذا مِن سقيه دوابكم ومزارعكم"(2)، ومِن هنا عُبّر بالإسقاء دون السّقاء؛ لأنَّ (أَسْقَيْنَاكُمْ) فيه معنى التَّمكين مِن الشُّرب والسَّقي، أمّا (سقيناكم)؛ فهو للشَّفة، أي: للشُّرب فقط، "قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان: 21] للشَّفة، وما كان للشَّفة؛ فهو بغير ألفٍ، وفي لغة قليلةٍ قد يقول للشَّفة أيضًا: أَسْقَيْته"(3).

وأمّا إسناده إلى نون العظمة؛ فإنَّه "لمّا كان مِن العجائب الخارقة للعوائد فوَرانُ الماءِ الذي مِن طَبْعِه أن يغورَ لا أن يفور لِما له مِن الثِّقل واللَّطافة، التي أفادته قوَّة السَّريان في الأعماق، وفي كون ذلك منه مِن موضع مِن الأرض دون آخر، وكونه مِن الجبال التي هي أصلُ الأرض ومِن صخورها غالبًا؛ دلالة ظاهرة على أنَّ الفعل للواحد المختار الجبّار القهّار لا للطَّبائع؛ قال سبحانه: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾، أي: جعلنا لكم بما لنا مِن العظمة شرابًا لسَقْيِكُم وسَقْيِ ما تريدون سقيَهُ مِن الأنعام والحرث وغير ذلك"(4).

نكتَةُ تنكيرِ ﴿مَّآءً﴾، ودلالةُ وصفِهِ بـ ﴿فُرَاتًا﴾ دون غيره:

الماءُ أصلُ الحياةِ، وهوَ منَّةٌ عظيمة من الله جلَّ في عُلاهُ

التَّنكير في ﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ يحتمل التَّفخيم والتَّبعيض(5)، أمّا التَّفخيمُ؛ فواضحٌ لِعظَمِ المنَّة عليهم، ولدلالة ذلك على عظيمِ القدرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 434.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 286.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 562.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 175.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 680، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 76، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 434.

وأمّا التَّبعيض؛ فلقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النّور: 43]، وفيها ماءٌ فُرات أيضًا، بل هي معدِنُه ومصبُّه، فهذا مُفهِم للتَّبعيض، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضًا.

وأمّا قوله ﷻ: "﴿مَّآءٗ﴾؛ فاسمُ جنسٍ متشابه الأجزاء، يشمل القليل والكثير"[1]، "والفُرات: الصّافي العذب، ولا يقال للملح فرات، وهي لفظة تجمع ماءَ المطرِ ومياهَ الأنهار"[2]، وقوله تعالى: "﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾، أي: عَذْبًا زُلالًا مِن السَّحاب، أو ممّا أنبعه اللّه مِن عيون الأرض"[3]، "عظيمًا عذبًا سائغًا، وقد كان حقيقًا بأن يكون مِلْحًا أُجاجًا لما؛ للأراضي المُمَسِكَة له مِن ذلك"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَفتُ والطَّيُّ:

في الكفتِ جمعٌ وضمٌّ، وفي الطَّيِّ إدراجٌ

(طوي) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إدراج شيءٍ حتّى يُدرَجَ بعضُه في بعض، يقال: طويت الثَّوبَ والكتابَ طيًّا أطويه[5]، والطَّيُّ: ردُّ بعض أجزاءِ الجِسم على بعضِه الآخر[6]، وهو نقيضُ النَّشْر[7]، ويُعَبَّر بالطَّيِّ عن مُضيِّ العُمر، يقال: طوى اللّه تَعالى عُمرَ فلانٍ[8].

وأمّا (كفت)؛ فأصلٌ صحيح، يدلُّ على جمعٍ وضمٍّ[9]، ومِن ذلك قولهم: كَفَتُّ الشَّيءَ؛ إذا ضممتَهُ إليك[10]، فالكَفْتُ في اللُّغة: الضَّمُّ

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 519.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 419.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 299.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوي).
(6) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (طوي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 159، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (طوي).
(8) الرّاغب، المفردات: (طوي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفت).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كفت).

والجَمع[1]، والكِفات: اسم للشَّيء الذي يُكْفَت فيه، أي: يُجمَعُ، ويُضَمُّ فيه، يقال: كَفَتَه يَكْفِتُه، أي: جَمَعَه، وضَمَّه[2]، فالكِفات: اسمٌ جاء على صيغَةِ الفِعال مِن: كَفَتَ؛ إذا جَمَعَ، ومنه سُمّيَ الوعاءُ: كِفاتًا، كما سُمّي ما يَعي الشَّيء: وِعاءً، وما يضمُّ الشَّيء: الضِّمام[3].

ولأنَّ اللّه ﷻ جعلَ الأرضَ تَجمَعُ الأحياءَ، وتضمُّهم على ظهرِها والأمواتَ في بطنِها[4]؛ أوثِر لفظُ (الكَفْت) دون (الطَّيِّ) في قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾، أي: ألم نَجْعَل الأرضَ كِفاتَ أحيائِكم وأمواتكم تكْفِت أحياءَكُم في المَساكِن والمنازل، فتضمّهم فيها، وتَجْمَعُهم، وأمواتَكم في بطونها في القبور، فيُدفَنون فيها[5]، فالأرض تَضمُّ الأحياءَ إلى منازِلِهم والأمواتَ في قُبورِهم[6].

والكَفْتُ أيضًا: تقليبُ الشَّيء ظَهرًا لبَطْنٍ، وبطنًا لظَهْرٍ، وانْكَفَتوا إلى منازِلِهم، أي: انقلَبوا[7]، فيكون معنى الكِفات على ذلك في قول ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾: أنَّهم يتصرَّفون على ظهرها، وينقلبونَ إليها، ويُدفَنون فيها[8].

الفُراتُ والعَذْب والزُّلال:

العَذْب: الماء الطَّيِّب[9]، ويقال: عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً، فهو عَذْبٌ، أي: طيِّب[10]، وهو من المَنع؛ لأنَّ الماءَ العَذْبَ يعذب العطشَ، أي: يمنعه[11].

والماء الزُّلال: السَّريعُ النُّزولِ والمَرِّ في الحَلْق، وزَلَّ الماءُ في حَلْقِه يَزِلُّ زُلولًا، أي: ذهبَ، وقد سُمّي الماءُ العَذْبُ الصّافي الخالص زُلالًا[12]؛ لأنَّ هذا كلَّه يجعله سَلِسَ المرورِ في الحَلْقِ سريعَه[13].

---

(1) الواحديُّ، البسيط: 23/ 90، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 305، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 161.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 636، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 432.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 179.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 133.
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 161.
(7) الخليل، العين: (كفت).
(8) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 161.
(9) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عذب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(11) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عذب).
(12) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زلل).
(13) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زلل).

الفراتُ أعذَبُ المياه، والعَذْبُ طيِّبُها، والزُّلالُ سَريعُها نزولًا ومُرورًا في الحَلْقِ

والفُراتُ: أَشَدُّ الماءِ عذوبةً[1]، أو أعذَبُ المياه[2]، وهو قامِعٌ للعطش من فرط عذوبتِه[3]، وقد يكون مأخوذًا من مقلوب (رفت) بمعنى: كَسَرَ، فيكون سُمّي بذلك؛ لأنَّه يكسِر سَوْرَةَ العَطَش[4].

وقال السَّمين الحلبيّ: "ويقال: سُمّيَ الماء الحلوُ فراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشَ، أي: يشقُّه، ويَقطعُه"[5].

وقد أوثِر لفظُ (الفرات) دون (العذب) و(الزُّلال)، في قول اللّه ﷻ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ لأنَّ هذا الماء كان حقيقًا بأن يكون مِلحًا أُجاجًا لِما للأراضي المُمَسِكة له مِن أملاح[6]، فوصَفُه بلفظ (الفُرات) إشارةٌ إلى عظيم قدرةِ اللّه ﷻ؛ إذْ لم يكن هذا الماءُ عَذْبًا فقط، بل هو أشَدُّ الماءِ عذوبةً، ولمّا كان المرادُ من الإسقاء إذهابَ العطش؛ أوثِر لفظُ (الفرات) الدّالّ على أنَّ هذا الماء قامعٌ للعطش من فرط عذوبته، وقال ابن عطيَّة: "والفُراتُ: الصّافي، ولا يُقالُ لِلمِلحِ: فُراتٌ"[7]، والمعنى المحوريّ لجذر (الفرات): خُلوص الماء من المِلْح مع صَفائه من الكُدورَة[8]، وكَونُ هذا الماءِ على هذه الصِّفة دالٌّ على سهولةِ مرورِه في الحَلْق.

الشُّموخُ والارتفاعُ:

الشُّموخ أخَصُّ مِنَ الارتفاعِ مُطْلَقًا

الفرق بينهما أنَّ الشموخَ ارتفاعٌ خارقٌ للأُفُق مع رُسوخِ الأصل[9]، فهو أخصُّ من الارتفاعِ، ولذا أوثِر لفظ (الشُّموخ) دون (الارتفاع)

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرت).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (فرت).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 128.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فرت)، و(رفت).
(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 8/ 490، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (فرت).
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.
(7) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 419.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرت).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شمخ).

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾، وذُكِر في الآية ما يدلُّ على الثَّبات الدّالّ على رسوخ الأصل، وهو قوله تعالى: ﴿رَوَاسِيَ﴾، يقال: رسا الجبلُ يَرسو؛ إذا ثبتَ أصلُه في الأرض[1].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رسو).

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٤﴾ [المرسَلات: 29 - 34]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انتقالٌ من البُرهانِ إلى الجزاء، وتجلٍّ للوعيدِ بَعْدَ البلاءِ

لمّا بيَّن اللّه سبحانه أدلَّة قُدْرَتِه في الخَلْقِ والإنشاء، وأخبر أنَّ للمكذِّبين باللّه تعالى وأنبيائه سوءَ العذاب؛ بيَّن هنا نوعَ ذلك العذابِ بما يَحارُ فيه أولو الألبابِ، ويَخِرُّ من هَولِه كُلُّ مُخبِتٍ أوّابٍ؛ إظهارًا لمصير المكذّبين بعد تمامِ الحُجّة ووضوح البيِّنة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُعَبٖ﴾: (شعب) أَصْلانِ مُخْتَلِفانِ، أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلى الافتِراقِ، والآخَرُ عَلى الاجتماعِ[2]، والشِّعْبُ: القَبيلَةُ المُتَشَعّبة من حيٍّ واحد، من قبائل العَرَب والعجم، وجمعه: شُعوبٌ[3]، والشَّعب أكبرُ مِن القَبيلَة، ثمَّ القَبيلَة، ثمَّ العِمارَة، ثمَّ البَطن، ثمَّ الفَخِذ[4]، والشِّعب من الوادي: ما اجْتَمَعَ منهُ طرَفٌ، وتفرَّق طرَفٌ، فإذا نظرتَ إليه من الجانب الذي تفرّق؛ أخذتَ في وهْمِكَ واحدًا يتَفَرّق، وإذا نظرتَ من جانب الاجتماع؛ أخذتَ في وهْمِك اثنَيْنِ اجْتَمَعا[5]، وشَعِبْتَ الشَّيء؛ إذا جمعتَهُ، وشَعبْتُهُ؛ إذا فرّقته، وشعَبْتَه؛ إذا أصلحته[6]، وقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، يَعْني: دُخان جَهَنَّمَ إذا ارْتَفَع؛ افترَقَ ثَلاثَ فِرَقٍ[7].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعب).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شعب).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (شعب).
(5) الرّاغب، المفردات: (شعب).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شعب).
(7) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 276.

2) ﴿ٱللَّهَبِ﴾: أصل (لهب) يدلُّ على ارتفاعِ لِسانِ النّار[1]، واللهبُ: اضطرام النّار الَّذي قد خَلَص من الدُّخان، واللهيبُ: ما يبدو من اشتعال النّار، ويقال للدُّخان وللغبار: لَهَبٌ؛ إمّا لأنَّه ينشأ منه أو على التَّشبيه في الارتفاع، كما سُمّي به الغُبارُ كذلك[2]، والتهبت النّارُ، وتلهَّبت: اتَّقدت، وألهبتُها: أوقدتُها[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: لا يدفَعُ من حرّ النّار شيئًا[4].

3) ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾: أصل (قصر) يدلُّ على ألّا يبلُغَ الشَّيء مَداهُ ونهايته، والآخر على الحَبْس، والأصلان مُتقاربان[5]، والقِصَرُ: خلاف الطّول، وهما من الأسماء المُتضايفَة التي تُعْتَبَر بغَيْرِها، وقَصَّرْتُ كذا: جعلته قَصيرًا، وقَصَرْتُ كذا: ضَمَمْت بعضَه إلى بعض، ومنه سُمّي القَصْرُ، وجمعه: قُصورٌ[6]، والقصر أيضًا: أصول الشَّجر، والقَصْرُ: واحد القُصور[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾: هوَ البِناءُ العَظيمُ[8].

4) ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: أصل (جمل) يدلُّ على تجمُّعٍ وعِظَمِ الخَلْق، وله مَعْنًى آخرُ، وهوَ الحُسْنُ[9]، ومنه: الجَمال، وهو الحُسْنُ الكثير، والفعل منه: جَمُل يجمُل[10].

واعْتُبِر منهُ مَعْنى الكثرة، فقيل لكلِّ جماعةٍ غير مُنْفَصِلَة: جُمْلَة، ومنه قيل للحِساب الذي لم يفصَّل، والكلامِ الذي لم يُبيَّن: مُجْمَل[11]، وحقيقة المُجْمَل: هو المُشْتَمِل على جملةِ أشياءَ كثيرةٍ غيرِ مُلخَّصة[12]، والجَمَلُ يقال للبَعير؛ إذا بَزل، وجمعه: جِمال وأجْمال وجِمالات وجَمائِلُ[13]، وقوله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع: جِمالة، والجِمالَة: جمع: جَمَل[14]، و﴿صُفْرٌ﴾ جَمْعُ أصفرَ، يَعْني: لَوْنَ النّارِ[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لهب).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (لهب).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (لهب).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 545.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (قصر).
(7) الرّاغب، المفردات، والجوهريُّ، الصِّحاح: (قصر).
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمل).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(11) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(12) الرّاغب، المفردات: (جمل).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(14) الرّاغب، المفردات: (جمل)، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.
(15) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

جزاءُ المُكذِّبين بآياتِ الله تَعالى نارٌ عظيمة تُحيطُ بهم مِن كلِّ اتِّجاه

يخبرنا الله ﷻ في هذا النَّصِّ القرآنيِّ المبارك عن حال هؤلاء المكذِّبين بيوم القيامةِ وما فيه مِن المعاد والجزاء والجنَّة والنّار، مبيِّنًا أنَّهم سَيُقال لَهُم يوم القيامة على سبيل الإذلالِ والإهانة: سيروا أيُّها المشركون إلى عذاب جهنَّم الَّذي كنتُم به تكذِّبون في الدُّنيا، سيروا فاستظلّوا بدُخانِ جهنَّم الَّذي يتفرَّع منه ثلاثُ قِطَعٍ من النّار، والَّذي ليس بظلٍّ على سبيل الحقيقةِ، فهو لا راحةَ ولا طُمأنينةَ فيه، ولن يَدْفَعَ عنكم من حرِّ جهنَّم شيئًا؛ لأنَّها تقذِفُ مِن النّار بشَرَرٍ عظيم متطاير، كلُّ شرارة منها كالبناءِ العالي المرتفعِ المشبَّه بالإبل السّود الَّتي يميل لونُها إلى الصُّفرة، ثُمَّ خَتَم سبحانه النَّصَّ بهذا التَّهديدِ المتمثِّل في الهلاك والعذابِ الشَّديد لكلِّ مكذِّب بآياتِ الله تَعالى ووعده ووعيدِه سُبْحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصْلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

مِن شأن الاستئناف البيانيّ أن يُفصَل عن سابِقِه، ويُمهّد لِلاحِقِه

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ جملة مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، لوقوعِها في جوابٍ مقدَّرٍ أثارتْهُ الجملةُ قبْلَها، والتَّقديرُ: "ما يُصْنَع بالمكذِّبين يومئذٍ؟ وتقديره: يقال لهم يومئذٍ: انطلقوا، أي: سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدُّنيا، يعني: نارَ جهنَّم"[2]. فبين الجملتين الكريمتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المسمّى: الاستئنافَ البيانيَّ.

الغرَضُ مِن الأمر ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ونكتَةُ التَّعبير بالانطِلاقِ، وتَعيين المُخاطَبينَ:

توجيهُ الكُفّار إلى نارِ العَذاب، فقَدِ استَحَقّوا بجَرائِمِهِم أشدَّ العِقابِ

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ "خطابٌ للمكذِّبين في يوم الحَشْر، فهو مقولُ قولٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغَةُ الخطاب بالانطلاق، دون وُجود

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 304، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر: 1/ 581.
(2) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 167.

مخاطَب يُؤمَر به الآن، والأمر بانطلاقهم مستعمَل في التَّسخير؛ لأنَّهم تَنْطَلِقُ بهِم ملائكَةُ العذابِ قَسْرًا"(1).

ويجوز أن يكونَ الأمْرُ أمْرَ إهانَةٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ بأن يَذْهَبوا، ويَسيروا إلى ما كانوا يَجْحَدونَ به، ويُنْكِرونَهُ مِن عذاب يوم القيامة(2).

وهذا الأمْرُ دالٌّ على شدَّة الغضَبِ؛ لأنَّه لمّا وصَلت أدلَّة السّاعة في الظُّهور إلى حدٍّ لا مزيد عليه، وحُكِم على المكذِّبين بالويل مرَّة، وأُكِّد بثلاث، فكان مِن حقِّ المخاطَب أن يُؤْمِن، فلم يؤمن؛ فلذا قال تعالى مُعْلِمًا لهم بما يُقال لهم يوم القيامة؛ إذْ يحلُّ بهم الويلُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾"(3).

هذا، وقد "جاء في العبارة فعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ دون: اذهبوا، أو انصرِفوا؛ ليدلَّ هذا الفعلُ على أنَّ المكذِّبين يُكلَّفون يوم الدِّين - بعد مُحاسَبَتِهم وفَصْلِ القضاء بشأنِهم - أن يُسْرِعوا في الذَّهاب لدار العذابِ، وإلى نُزُلهم فيها ليَنالوا جزاءَهُم فيها جزاءً وفاقًا معادلًا لكُفْرِهم وجَرائِمِهم، وفي هذا التَّكليفِ حَزْمٌ لا تَساهُل معه ولا تهاوُن، فقد أُبرِم الأمرُ، وتمَّ بشأنهم الحُكم، فلْيُسرِعوا إلى منازلِهم في الدَّركات، وإلى مستقرّاتهم في دارِ العَذابِ: جهنَّم وبئسَ القرارُ"(4).

نكتَةُ حَذْفِ فِعْلِ القول مِن ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾:

استِحضارُ المَوْقِف والحال، وتصوُّر اللهب والأغلالِ

الأمْرُ في قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ "هو بتقديرِ القَوْلِ، أي: يُقال لَهُم توبيخًا وتقريعًا: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدُّنيا(5)، والظّاهر أنَّ القائلِين هم خزنَةُ النّار وزَبانيَةُ جهنَّم(6).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 434 - 435.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 80، ومجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1733.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.

(4) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 587.

(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 433.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 773، والقشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 673، وأبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير: 15/ 169، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 286.

وهذا الخطابُ صورَةٌ مُقْتَطَعَة ممّا سوف يوجَّه إليهم يوم الدِّين، حينما يُؤمَرون بالانطلاق إلى دركاتِهم في جهنَّم، وهو يَحْكي يومَ الحياةِ الدُّنيا ما سوف يخاطَبون به بعد حِسابِهم، وفصل القضاء بشأنهم، والحكم عليهم بالخلود في النّار؛ إذ منازلهم في أعماقها حتَّى الدَّرك الأسفل منها، وفنُّ الاقتطاع هذا مِن الأساليب القرآنيَّة البديعة التي تعتمد على عرْضِ صورةِ المَشْهَدِ، الذي سوف يكون مستقبلًا، كأنَّ الحدثَ واقع الآن؛ للإشعارِ فكريًّا بأنَّه سوف يتحقَّق حتمًا، ولإعطاء المشهَدِ صورةَ أمْرٍ واقعِ الآن، ففي هذا مِن الإمتاع ما في المشاهدة الفعليَّة لدى وُقوع الحدث، فلقد فاجأ اللّٰه ﷻ المكذّبين بالآخرة، فخاطبهم كأنَّهم الآنَ في يوم الدِّين[1]، وهذه نكتةُ حذفِ فعلِ القولِ وقائلِه.

مَعْنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالَتُها:

ساءَت جهنَّمُ غايَةً، وبِئْسَت مِن نهايَةٍ

الأصْلُ في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أنَّه موضوعٌ؛ للدَّلالة على انتِهاءِ الغايَةِ[2]، وهو هُنا بهذا المَعْنى؛ إذ جَعَل النّار وما فيها مِن صنوف العذابِ غايةَ هذا الانطلاقِ المأمور بِه، وبئست الغايَةُ.

فهاهُم المكذِّبون "بيوم الفصل، بعد أنْ أصرّوا على موقفهم مِن التَّكذيب به، وبعد أن ضربوا صفحًا عن كلِّ ما قام بين أيديهم مِن شواهدَ، وما انْتَصَب لهم مِن أدلَّة على قدرة اللّٰه تَعالى التي لا يُعْجِزُها شيءٌ، فمَضَوا في طريق الكُفْر والضَّلال، حتَّى ضمَّتهم القبور، ثمَّ هاهُم أولاء يُبعثون مِن قبورهم، ويَتَلَفَّتون إلى أيِّ مساقٍ هُم مَسوقونَ إليه، وإذا صوتٌ مزلزِل يخترِقُ أصْماخَ آذانِهم، ويُلقي فيها بهذا

(1) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 586.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 16.

الأمر الصّادع: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: انطَلِقوا إلى موقِفِ الحِساب والجزاء، إلى ساحَةِ الفَصْل، فهذا يومُه الذي كنتُم به تُكَذِّبون، ثمَّ يتبع هذا الأمر بأمْرٍ آخَرَ يكشِف لَهُم عَن وجْهِ المنطلَق الذي ينطلقون إليه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾"[1].

نـــوعٌ مِـــن الـــعـــذاب، يـحـارُ فيه أولو الألـبـاب، ويخرُّ مِـن هَـوْلِـهِ كلُّ مُخْبِتٍ أوّاب

مَعْنى ﴿مَا﴾ ودِلالَتُها:

يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ موصولَةً بمعنى (الذي)، أي: انطَلِقوا إلى الذي كنتُم بِهِ تكذِّبون، يعني: إلى عذاب النّار؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعث والنُّشور والنّار[2]، "وعُبِّر عنه بالموصولِ وصِلَتِهِ؛ لما تتضمَّنه الصِّلة مِن النِّداء على خَطَئِهم وضَلالِهم"[3].

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفَةً بمعنى (شيءٍ)، أي: "انطلقوا إلى عذابٍ كنتُم به تكذِّبون، فهذه جهنَّم التي يكذِّب بها الكافرون"[4]، والتَّنكير فيه للتَّعظيم.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة[5]، وتكون ما دَخَلَتْ عَليهِ في تأويلِ مصدَرٍ، أي: انطلِقوا إلى تكذيبكم، أي: إلى جزاء تكذيبكُم.

نكتة التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكون ماضيًا ﴿كُنتُم﴾:

توطَّنت نُفوسُهُم على الـكُـفْـرانِ، فـاسْـتَـحـقّـوا العذابَ والهَوان

أفاد التَّعبير بالكون الماضي معنى الثُّبوت والاستقرار لِما دخلت عليه (كان) في الماضي، فيكون قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم﴾ بمعنى: "ما هو لكُم كالجِبِلَّة"[6]، ممّا يدلُّ على توطُّن نُفوسِهم على التَّكذيب وإصرارِهم عليهِ.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1402.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 267، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 433.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 806.
(5) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 236.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.

ألْصَقوا تكذيبَهُم بالوعيد، فاستحقّوا العذابَ الشَّديد

معنى (الباء) ودلالَتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

الأَصْلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يُفيدُ مَعْنى الإلصاقِ المجازيّ، ويوحي بأنَّ هؤلاء الكُفّار قد ألْصَقوا تكذيبَهُم بوعيدِ اللّه تعالى في كِتابِه، وعلى لسان رسوله ﷺ، فصار الأمرُ أنَّهم كلّما أوعِدوا؛ كذَّبوا، وكلَّما أُنذِروا؛ كذَّبوا، فلا جرم يقال لَهُم يومَ القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

خصّوا الوعيد بالتّكذيب، فنالوا بهِ غاية التّعذيبِ

نُكْتَةُ تَقْديمِ شبه الجملة على المُسْنَد في ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾:

قُدّم شِبْهُ الجملة على المسنَدِ في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإفادَةِ التَّخصيصِ، أي: كنتُم به خصوصًا تكذّبون، وكأنَّهم لم يكذِّبوا إلّا بما يُدْعَوْنَ الآنَ أن ينطلقوا إليه، وقَد كانوا به يَسْتَعْجِلون، فلذلك قال لَهُم مذكِّرًا بعباراتِ الوَعيدِ يَوْمَ كانوا في حياةِ الابتِلاء: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، فالنّار، ووادي (ويل) فيها، ومعاقبتهم بالعذاب يوم الدِّين هو بعينه ما كانوا به يكذِّبون، هذا، وقد أفاد التَّقديمُ - مع التَّخصيص - رعايةَ الفاصلة.

مَرَدوا على التّكذيب، واستمرّوا، ففي قَعْرِ الجحيم استقرّوا

نكتَةُ التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ودلالَةُ مجيء فِعْلِهِ مُضارِعًا:

جيء بالمُسْنَد جملةً فعليَّةً فعلُها مضارع في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم، هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ قد أُسنِد فيه مرَّتين؛ مرَّة إلى المسند إليه (التّاء في ﴿كُنتُم﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به (واو الجماعة)، العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّةٍ مكرَّرة، فيَقْوى الحُكْمُ، ويَثْبُتُ في الذِّهن[2].

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

وتجري هذه الصِّياغة في المقاماتِ التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير، وهي كثيرةٌ لا تُحصَى[1]، ومنها هذا المقام الذي أريد فيه تأكيدُ تكذيب الكافرين في الدُّنيا لما يوعَدون به، فيكون تذكيرُهم بهذا ساعةَ رُؤْيَتِهم إيّاه بعينِ اليَقين نوعًا مِن التَّعذيب النَّفسيّ والرّوحيّ قبل التَّعذيب البدنيّ.

وقول الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، معناهُ: "يقال للكُفّار: سيروا إلى ما كنتُم به تكذِّبون مِن العذاب، يعني: النّارَ، فقَد شاهَدْتُموها عيانًا"[2].

وأمّا التَّعبير عن فِعْلِ التَّكذيبِ بصيغة المضارع؛ فللدّلالةِ على تَجدُّد التَّكذيبِ وتَكراره[3]، أي: "﴿تُكَذِّبُونَ﴾، أي: في الدُّنيا مِن العذاب تكذيبًا هو مِن عِظَمِه بحيث يُعَدُّ غيره بالنِّسبة إليه عدمًا، وتجدِّدون ذلك التَّكذيب مستمِرّين عليه"[4].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

خُيِّروا في الدُّنيا، وأُجبِروا في الآخرة

قرأ رَوَيسٌ عن يعقوبَ: ﴿ٱنطَلَقُواْ﴾ بفتح اللّام - في الموضع الثاني من السورة فقط -، وقرأ باقي العشرةِ بكَسْرِها: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾[5].

فأمّا قراءة رَوَيْسٍ - بفتح اللّام - فمِن (انطَلَقَ) فعلًا ماضيًا، على أنَّهُ خَبَرٌ، كأنَّهم لمّا أُمِروا بالأوَّل؛ امتثلوا؛ إذ الأمرُ هناك ممتَثَل قطعًا، وأمّا قراءة الباقين - بكسر اللّام - ؛ فمِن (انطلِقْ) أمرًا متكرِّرًا بعدَ الأمر الأوَّل بالانطلاق؛ بيانًا للمُنْطَلَق إليهِ[6].

(1) محمَّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 220.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.
(3) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 236.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 397.
(6) البنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 567.

والقراءتان متكاملتانِ مُتآزِرتان، "فكأنَّه قيل: كانوا يُؤمَرون في الدُّنيا بالإيمان والطّاعة، فلا يَلْتَفِتون إليه، ويُكَذِّبون مَن أمَرَ به، فلمّا أُمِروا في العُقبى بالانطلاقِ إلى ما كذَّبوا بهِ؛ سَمِعوا، وأطاعوا اضْطرارًا، فلو أطاعوا في الدُّنيا؛ لكان خيرًا لهم"[1].

علَّة فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ عن سابِقِهِ:

الفَصْلُ بينَ البدَلِ وبينَ الاستئنافِ البَيانيِّ

يتفرَّع بيان علَّة الفصلِ بين الآيتَيْنِ عَلى اختِلافِ القِراءَةِ لِهَذا الحَرْفِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، فقراءة الجمهور - بكسر اللّام - على أنَّه أمرٌ، تكون تكرارًا للأمر الأوَّل[2]، وتكون "جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ إلى آخرها بدلَ اشتمال أو مطابقًا من جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾"[3]، فبين الجملتين كمالُ الاتّصال، "وأُعيد فعل ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ على سبيل التَّوكيد؛ لقصد الزّيادة في تقريعهم وتوبيخِهم"[4].

وأمّا قراءة رُوَيْس عن يعقوبَ على صيغة المُضيِّ: ﴿ٱنطَلَقُواْ﴾؛ فهو إخبارٌ، ويكون حينئذٍ "استئنافًا بيانيًّا جوابَ سؤالٍ مقدَّر، بأنَّه: هل يُمْتَثَلُ الأمر؟ فأُجيب بأنَّهم امتثلوا الأمرَ اضطرارًا؛ ولذلك تُرِك العطف"[5].

أو كأنَّه قيل: فما كان حالُهم عندَ هذا الأمر الفَظيع؟ وما كان بَعْدَ الأمر؟ فقيل: ﴿ٱنطَلَقُواْ﴾[6]، "أي: لمّا أُمِروا؛ امْتَثَلوا ذلك، وهذا موضِعُ الفاءِ، فكانَ يَنْبَغي أن يكون التَّركيب (فانطلَقوا)، نحو قولك: قلتُ له: اذهب، فذهب"[7]، وإنَّما "تُرِكَت الفاءُ بناءً على أنَّ الكلامَ استئنافٌ لبيانِ امتثالهم كَرْهًا بَعْدَ ما يُقال لهم بلَفْظِ الأمر"[8].

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 460.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 377.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 238.
(5) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 520.
(6) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(7) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 77، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 177.
(8) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 460.

وفي قراءة الجمهور تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ وذلك حيث "أُخْبِر عمّا يقال للمكذّبين في يوم الفصل، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: يُقال لَهُم: انْطَلِقوا لِما كذَّبتم به مِن العذاب، ثمَّ بين ما أُجْمِلَ بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾"[1]، فوضَّح ذلك العذاب، وفصَّله.

نكتَةُ تَكْرارِ قولِه تَعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ﴾:

توكيدُ التَّقريع، وزيادَةُ التَّهويل والتَّشنيعِ

على قِراءَةِ الجُمْهورِ فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ الثّاني تكريرٌ للأوَّل لغرض التَّوكيد[2]، "ولقصد التَّوبيخ أو الإهانةِ والدَّفع، ولأجله أُعيد فعل ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرف ﴿إِلَىٰ﴾، ومقتضى الظّاهر أن يقال: انْطَلِقوا إلى ما كنتُم به تكذّبون ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ، فإعادةُ العامل في البدَلِ للتَّأكيد في مقام التَّقريعِ"[3].

نكتَةُ تَسْمِيَة دُخانِ جهنَّم ظِلًّا:

تهكُّم واستهزاءٌ بالمكذِّبين الأشقياءِ

الظّلُّ في لسان العربِ يُرادُ به: "حجابٌ عالٍ يَدْفَعُ أذى الحرِّ عن الإنسانِ، فقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾، أي: لا يدفع الأذى، فهو في صورةِ ظلٍّ، وليس له معنى الظِّلِّ"[4].

وفي تسميةِ النّارِ ظِلًّا "مجازٌ، مِن حيث إنَّها محيطةٌ بهم مِن كلِّ جانب؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزُّمر: 16]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55]، ويجوز أن يكون المرادُ الظّلَّ مِن يَحْمومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]"[5].

---

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 424.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 680، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 587.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 130.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 78.

وأيًّا ما كانَ؛ فتسميَةُ ذلك ظلًّا "استعارةٌ تهكُّميَّة لتشبيهِ ما يعلو مِن الدُّخان بالظّلِّ، وفيه إبداعٌ؛ لأنَّ الظّلَّ لا يعلو ذا الظّلّ"[1].

"وفي دعوتهم إلى الانطلاق إلى ظلٍّ هو مِن دخان جهنَّم، لا إلى جهنَّم ذاتها، مع أنَّهم مدعوّون إليها أصلًا، في هذا استهزاءٌ بهم، وسخرية منهُم، ومبالغة في إيلامِهم؛ إذ يُلوَّح لهم بالظّلّ، الذي يفتَحُ لهم بابًا مِن الأمل، فإذا هذا الظّلُّ لا يتمتَّع به إلّا مَن أخذ مقعده من النّار"[2]، "فعبَّر عنه بالظّلّ تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم يتشوَّقون ظلًّا يأوونَ إلى بَرْدِه"[3]، فلا يَجدونَ إلّا جحيمًا، وعذابًا أليمًا.

نكتَةُ تنكيرِ ﴿ظِلّٖ﴾، ودلالةُ إفْرادِهِ، ووَصْفِهِ بـ ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾:

دخانٌ عظيمٌ يَحْبِسُ الأنفاس، ويكوي بالنّار، ويَرْمي بالشَّرارِ

أمّا تنكير الظّلّ؛ فلإفادة التَّعظيم، ويدلُّ على هذا وصفُه بـ ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، أي: يتشعَّب لعِظَمِه[4]، فهذا الوصفُ كنايَة عن كون ذلك الدُّخان عظيمًا، فإنَّ الدُّخان العظيمَ ينقَسِمُ إلى شُعَب كثيرة؛ بناءً على أنَّ التَّشعُّب مِن لوازمه[5]، "فلمّا كان عِظَم دخانِ جهنَّم مستلزمًا لتشعُّبه؛ تَشَعَّبَ لا محالة"[6]، "فانقسم، وتفرَّق - لعِظَمِه وشدَّته - إلى ثلاثِ شُعَبٍ: شُعْبَةٍ وطائفَةٍ منهُ تكونُ مِن فوقهم، وأُخرى مِن تحتهم، وثالثةٍ تُحيط بهم مِن كلِّ جانب، وذلك كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزُّمر: 16]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55]، أو شعبة على يمينِهم، وشعبة على يسارِهم، وشعبة ثالثة مِن فوقهم"[7]، "والمراد أنَّهم يَتَنَقَّلون مِن عذاب إلى آخَر، وأنَّ العذابَ محيطٌ بهم مِن كلِّ جانب"[8].

---

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1403 - 1404.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 276.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 286.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 461.
(7) مجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1733.
(8) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 326.

وأمّا إفراده؛ "فلأنَّه جُعِلَ لهم ذلك الدُّخان في مكانٍ واحدٍ؛ ليكونوا متراصّين تحته؛ لأنَّ ذلك التَّراصَّ يزيدُهُم ألمًا"[1].

لطيفَةُ كَوْنِ الشُّعَبِ ثلاثًا:

جزاءٌ وِفاقٌ بلا حَيْفٍ، حقٌّ بلا زَيْفٍ

الشُّعَب في قول اللّه تعالى: ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ "جمعُ شُعْبَة: وهي الفريق مِن الشَّيء والطّائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائفَ، وأُريدَ بها طوائفُ مِن الدُّخان، فإنَّ النّار إذا عَظُم اشتعالُها؛ تصاعدَ دخانُها مِن طَرَفَيْها ووَسَطِها لشدَّة انْضِغاطِهِ في خُروجه منها، فوصف الدُّخان بأنَّه ذو ثلاثِ شُعَب؛ لأنَّه يكون كذلك يوم القيامة"[2]، "وإنَّما سُمّيت شعبةً؛ لأنَّ أصلها مِن مصدر واحدٍ، هو النّار"[3].

وأمّا خصوصيَّة الشُّعب الثَّلاث؛ فلأنَّ تكذيب المكذِّبين كانَ باللّه تَعالى وكُتُبه ورُسُله، فتُعَذِّبهم كلُّ واحدة منها عذابًا يَعْلَمون هناك لأيِّ تكذيبةٍ مِنْها هيَ، أو لأنَّ الحاجبَ عن أنوار القُدسِ: الحِسُّ والخيال والوهْمُ، أو لأنَّ السَّبب فيه: القوَّة الوهميَّة الحالَّة في الدِّماغ، والغضبيَّة التي في عين القلب، والشَّهويَّة التي في يساره[4]؛ "ولذلك قيل: تقفُ شعبةٌ فوقَ الكافرِ وشعبةٌ عن يمينِه وشعبة عن يساره"[5].

ويحتمل أن تكون الخصوصيَّة؛ لتضييعهم القوى الثَّلاث التي هي السَّمع والبصر والفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23]، فشكرُها ورعايتُها مبدأ السَّعادات، وإتلافها وعدمُ حفظِها منشأ الشَّقاوات[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435 - 436.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1403.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 177.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 80.
(6) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.

أو لأنَّ الطُّرق المؤدّية لهذه الشُّعب الثَّلاث ثلاثة، "أحدها: تكذيب الرُّسل صريحًا، وثانيها: تكذيبهم اقتضاءً، وثالثها: ارتكاب المعاصي"(1)، "وقال ابن عبّاس: هذه المخاطَبة تقال يومئذٍ لِعَبَدَةِ الصَّليب؛ إذا اتَّبَعَ كُلُّ أحد ما كان يعبد، فيكون المؤمنون في ظِلّ اللّه، ولا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، ويقال لعَبَدَةِ الصَّليب: انطلقوا إلى ظِلِّ معبودكم، وهو الصَّليب له ثلاثُ شُعَبٍ"(2).

وهذه لطائفُ ومناسباتٌ لا يُمكِنُ الجَزْمُ بشيءٍ مِنْها إلّا إذا وردَ عمَّن قولُهُ حجَّةٌ.

علَّة فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ عن سابقِه:

نُعتُ الظِّلُّ بما يُجرِّده من صفاتِ الظِّلال، ويجعَلُهُ كأنَّه لَمْعُ آل

﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نافية، و﴿ظَلِيلٍ﴾ نعت لـ ﴿ظِلّٖ﴾ منفيٌّ مجرور(3)، أي: "لا يظلُّكم من حَرِّ هذا اليوم؛ بل يُدْنيكُم من لهب النّار إلى ما هو أشدُّ عليكم من حَرِّ الشَّمس، ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ عنكم ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: لا يدفع عنكم من حَرّه شيئًا، كما يدفع الظلُّ الحرَّ"(4)، وشأن الصِّفةِ ألّا يُفْصَلَ عن مَوْصوفِها بواوٍ، ولذا تعيَّن حذفُ الواوِ.

نكتَةُ توجيهِ النَّفي للمُبالغَةِ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾:

المرادُ المُبالغَة في النَّفي، لا نفي المُبالغَةِ

﴿ظَلِيلٍ﴾ جاءَت على زِنَةِ (فعيل)، وهي من أَوْزانِ المُبالغَة، ونفيُ كونِهِ ظَليلًا يدلُّ على نفي ما تقَعُ عليهِ المُبالغَةُ، وهي تقَعُ على الدَّوام، وتقَعُ على ما هو المقصود بالظِّلّ، وهو سَتْرُ الحَرارَةِ وحَجْبُها.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ هَذا من قبيلِ المُبالغَةِ في النَّفي؛ "لأنَّ نَفْيَ المُبالغَةِ يَرِدُ كثيرًا في كلامِ العَرَبِ مُرادًا منهُ المُبالغَةُ في النَّفي"(5)، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، "أي: مِن الحَرِّ بوجهٍ مِن الوجوه"(6).

(1) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 168.
(2) الثَّعالبيُّ، الجواهر الحسان: 5/ 539.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 339، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 204.
(4) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 95.
(5) الدُّسوقيُّ، حاشية على مختصر المعاني: 3/ 375.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.

بلاغَةُ الإدماج في قولِه: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾:

وصفٌ أزال التَّوهُّم، لَكِنْ عَن طريق التَّهكُّم

في وصْفِ الظِّلِّ بأنَّه ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ إدماجٌ بديعٌ؛ إذ "أدْمَجَ في معنى ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ معنيَيْن، أحدهما: التَّهكُّم بهم؛ لأنَّ مفهومَ الظِّلِّ للاستِرواح، وهاهُنا عكسُه، كما في قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]. وثانيهما: تعريضٌ بأنَّ للمُؤْمنين ظِلًّا على خلافِه؛ ليَزيدَ في تَحسُّرِهم"(1).

بلاغَةُ جناسِ الاشْتِقاقِ بين ﴿ظِلٍّ﴾ و﴿ظَلِيلٍ﴾:

اكْتِساءُ جَلالِ المَبْنى ببهاءِ المَعنى

لفظُ الظَّليل في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يُرادُ به: "القويُّ في ظِلالِه، اشْتُقَّ له وصفٌ مِن اسمه؛ لإفادة كماله فيما يُراد منه، مثل: ليلٌ أليل، وشِعْرٌ شاعر، أي: ليس هو مثل ظلِّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النِّساء: 57]، وفي هذا تحسيرٌ لَهُم، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]"(2).

ووصفُ الظِّلِّ بـ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ - وهو مأخوذٌ من لفظ الظِّلِّ - لإرادةِ التَّوكيدِ، "كنوم نائم، أي: لا يُظِلُّ مِن الحَرِّ، وتوصيف الظِّلِّ بأنَّه لا يُظِلُّ مِن حَرِّ ذلك اليوم، وهو حَرُّ النّار؛ للدَّلالة على أنَّ تسميةَ ما يغشاهم مِن العذاب بالظِّلِّ استهزاءٌ بهم، فإنَّ شأن الظِّلِّ أن يَدْفَعَ عمَّن يستظلُّ به مقاساة شدَّة الحَرِّ، وأنَّه ينفعُه ببَرْدِه ونَسيمِه، والذي أُمِروا بالانطلاق إليه يضاعِفُ عليهم ما هُم فيه مِن الحَرِّ والعذاب فضلًا عن أن يستريحوا ببَرْدِه"(3).

وهذا الجناسُ قَد أحْدَثَ - مع ما تقدَّم - وقعًا في الأذُن يجذِب انتباهَها، ويسترعي سمعَها.

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 230.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.

نكتَةُ عطف ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ على سابقه:

دفعُ توهُّمِ وُجود شيءٍ من البَرْد في لفظِ الظِّلّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ عاطفة، و(لا): نافية لا عملَ لَها، وجملة ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ في محلِّ جرٍّ صفَةٌ ثانيَةٌ لـ ﴿ظِلّٖ﴾[1].

وقد جيء بالصِّفة الأولى ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ اسمًا، وبالثّانية ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ فعلًا؛ دلالةً على نفي ثبوت هذه الصِّفةِ واستقرارها للظِّلّ، ونفي التَّجدُّد والحدوث للإغناء عن اللهب[2]، فإنَّهُ لمّا "كان ما انتفى عنه غزارة الظِّلِّ التي أفهمَتْها صيغةُ المبالغةِ قد يكونُ فيه نفعٌ ما؛ قال: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾، أي: شيئًا من إغناءِ ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: هذا الجنس"[3]، والمرادُ "أنَّهم إذا استظلّوا بذلك الظِّلِّ؛ لم يَدْفَعْ عنهُم حَرَّ اللهب"[4].

وبمجموعِ هذه الأوصافِ "يكون لفظُ الظِّلِّ، قد فقَدَ خصائصَه المعروفة مِن البرودة والشُّعور عنده بالرّاحة، وصار المقصودُ به ظِلًّا آخر، لا بَرْدَ فيه، ولا يَدْفَعُ عنهم شيئًا مِن حَرِّ اللهب، وهذه الصِّفات إنَّما جيء بها لدَفْعِ ما يوهِمُه لفظُ ﴿ظِلّٖ﴾"[5].

نكتَةُ تَكْرار (لا)، ودلالَةُ التَّعبير بالمُضارِعِ المَنْفيّ:

كُرِّرت (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ لتوكيد النَّفي[6]، وسُلِّطَ هذا النَّفيُ على المضارع؛ لتعميمِه على الدَّوام، في الحال والاستقبال، أي: إنَّ هذا الظِّلَّ "غيرُ مُفيدٍ في وقت مِن الأوقات مِن حَرِّ اللهب شيئًا"[7].

---

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 300.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 638، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 78.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 239.
(6) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 237.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.

حذفٌ للتَّعميم؛ بياناً للغبْنِ العظيم

نكتَةُ حذفِ معمولِ الفعل ﴿يُغۡنِي﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿يُغۡنِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، والتَّقدير: لا يُغني شيئًا، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بيانيَّةٌ[1]، أي: إنَّ هذا الظّلَّ "غيرُ مُغْنٍ لهم مِن حَرِّ اللهبِ شيئًا"[2]، فالحذفُ يُرادُ به التَّعميم؛ لأنَّ حذفَ المتعلّق يُفيدُ ذلكَ.

تَضْمينُ الإغْناءِ مَعْنى الدَّفع، فلَيْسَ في ظلِّ جَهنَّم أيُّ نَفْعٍ

نكتَةُ التَّعبير عن الدَّفع بالإغْناءِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾:

حقيقةُ الإغناء: جعلُ غيرِكَ غنيًّا، أي: ليسَت له حاجَةٌ في ذلك الغرَضِ، وقد عُدّيَ بحرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ على معنى البدليَّة، أو لكونِه ضُمِّنَ معنى الفِعْلِ: يُبْعِد[3]؛ "لأنَّ الغنيَّ عن الشَّيء يباعده، كما أنَّ المحتاج إليه يقرّبه، فصَحَّ أن يعبَّر بإغناء شيء عن شيء عن إبعادِهِ عنه، فكان المَعْنى أنَّ هذا الظّلَّ لا يُظِلُّكم مِن حَرِّ الشَّمس، ولا يدفع عنكم لهب النّار"[4]، "وبذلك سُلِبَ عن هذا الظّلِّ خصائصُ الظِّلال؛ لأنَّ شأن الظِّلِّ أن يُنفِّس عن الذي يأوي إليه ألمَ الحَرِّ"[5].

لا شيءَ يدفَعُ لهبَ النّار، ولا يطفئ تغيُّظَها على الكُفّار

معنى ﴿مِنَ﴾ والتَّعريفِ، ودلالَتُهُما في ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾:

الأصْلُ في معنى (مِن) أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[6]، وهي بهذا المَعْنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، "وإنَّما عُدِّي في الآية بـ ﴿مِنَ﴾؛ لأنَّه أراد أنَّ ابتداء الإغناء منه"[7]، وإذا كان هذا الإغناءُ منفيًّا؛ فقد دلَّ على أنَّ هذا اللهب لا دافِعَ له. أمّا تعريف اللهب؛ فللعهد العِلْميِّ، أي: لهب جهنَّم المذكور ظِلُّ دخانِها المتشعّب ثلاثَ شُعب.

---

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 457.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 81.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.

(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.

(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.

(7) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 424.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱللَّهَبِ﴾ دون غيرِه:

اللـهـب على النّار دليلُ شدَّة الاشْتِعارِ

أصلُ اللهبِ: ارتفاعُ لسانِ النّار، واللهب أيضًا: اضطرام النّار، واللهيب: ما يبدو مِن اشتعالها[1]، واللهب كذلك: "ما يعلو على النّار؛ إذا اضْطَرَمَت مِن أحمرَ وأصفرَ وأخضَرَ"[2].

وهذا الوصف يدلُّ على شدَّة اشتعال النّار، فإنَّ النّار الضَّعيفة لا لهَبَ لها، فهُم في هذا الموقف يَنْظُرون، فيرون جهنَّم قد أُتي بها ولها يومئذٍ: «سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها»[3]، فإذا ﴿رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]، فكيف إذا أُلقوا فيها؟.

علَّة الفَصْلِ:

فَـصْـلٌ لأجل التَّعليل؛ لعَدَمِ غناء الظِّلِّ غير الظَّليل

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ[4]؛ إذ هو "بمنزلة التَّعليل لعدم غناء الظِّلِّ غير الظليل"[5].

فكأنَّ سائلًا سأل عن سبب عدم إغناء ظِلِّ النّار، فأُجيب بما يفسِّر هذا السَّببَ، وهو "أنَّ هذه النّار يتطايَرُ منها شررٌ متفرّق في جهاتٍ كثيرة، كأنَّه القَصْر عِظَمًا وارتفاعًا، وكأنَّه الجمال الصُّفر لونًا وكثرةً وتَتابُعًا وسُرعةَ حركةٍ"[6]، فكيف يكون لها ظلٌّ يُغني مِن لهيبها؟.

نكتَةُ تصدير الجملة بـ ﴿إِنَّهَا﴾، وبيانُ مَرْجِعِ الضَّمير:

أصبَحَ الوعيدُ بجَهَنَّم حقيقةً تـمـلأ سَـمْـعَ المـكـذِّبـين وأبصارَهُم

الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ إلى نارِ جهنَّمَ المستفادَةِ من قول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، "كما يُقال للذي يُساقُ إلى القَتْلِ - وقد رأى رجلًا بيَدِه سَيفٌ فاضطرب لرؤيته، فيُقال له: إنَّه الجلّاد.

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (لهب).
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 163.
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2842).
(4) محمود صافي، الجدول: 15/ 204.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 339.
(6) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 186.

وإجراءُ تلك الأوصافِ في الإخبار عنها لزيادة التَّرويع والتَّهويل، فإنْ كانوا يرَوْن ذلك الشَّرر لقُربهم منه؛ فوصفُهُ لَهُم لتأكيدِ التَّرويع والتَّهويل بتظاهُر السَّمع مع الرُّؤية، وإنْ كانوا على بُعدٍ منهُ؛ فالوصف للكَشْفِ عن حالهِ الفظيعة.

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتِمام بهِ؛ لأنَّهم حينئذٍ لا يشكّون في ذلكَ، سواءٌ رأوه، أو أُخبِروا به"[1].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تَرۡمِي﴾، ودلالةُ مجيء فِعْلِه مُضارعًا:

إفـادَةُ التَّوكيد، والـدَّلالـةُ على الاسـتـمـرارِ والتَّجديدِ

عُبِّر بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي﴾؛ لإفادة تقوية الحُكْم وتوكيدِه عن طريق تكرُّر الإسناد؛ إذ إنَّ الفعل ﴿تَرۡمِي﴾ قد أُسنِد مرَّتين؛ مرَّة إلى الضَّميرِ في ﴿إِنَّهَا﴾، ومرَّة إلى ضميره المستتر في ﴿تَرۡمِي﴾ العائد أيضًا على ما عاد إليه الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾، فهو بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحُكْمُ ويَثْبُتُ في الذِّهن[2].

وأمّا معنى المُضارعيَّة فيه؛ فلإفادة تجدُّد الحدَث واستمراره، "فصار ذلك تنبيهًا على أنَّه لا يزال يَسْقُطُ عليه مِن الهواءِ شراراتٌ كالقُصور"[3]، وأنَّ هذه النّارَ متَّقِدة أبدًا لا تَخبو.

دلالَةُ التَّعبير بالرَّمي، ونكتَةُ حذفِ مَعْمولِه في ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ﴾:

شنَّت النّارُ حربَها على الكافرين، فرَمَتْهُم بقَذائِفِ الشَّرر العظيمِ

يدلُّ الرَّمي على النَّبذ والإلقاء[4]، والتَّعبير عن تطاير الشَّرر مِن النّار بالرَّمي فيه دلالة على شدَّة استعارِها واضْطِرامِها[5]، حتَّى صارَ ذلك يتطايَرُ كالقذائف المدمِّرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 777.

(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رمي).

(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.

معنى (الباء) والتَّنكيرِ، ودلالَتُهما في ﴿بِشَرَرٍ﴾:

مِـن عظمة شَرَرِها؛ تُعرَف عظمَةُ جَمْرِها

الأصل في (الباء) أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على الإلصاق حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِشَرَرٍ﴾ دالٌّ على معنى الإلصاق هذا، فكأنَّ قذائف جهنَّم قد التَصَقَت بهذا الشَّرر ممّا يوحي بقصديَّتها إصابةَ الكافرين المكذِّبين به، ولا يَبْعُد هذا، وقد أثبت اللّه تَعالى للنّارِ الرُّؤيةَ، والكلامَ، والشَّهيقَ، والغَيْظَ.

وأمّا الشَّرر؛ "فهو ما تطايرَ مِن النّار، سُمّي بذلك لاعتقاد الشَّرِّ فيه"[2]، وهو "اسمُ جنسٍ جمعيٌّ، واحدُه: شررة، وهو مؤوَّل هنا، أي: كلُّ واحدةٍ منه كالقَصْر"[3]، فالتَّنكير فيه للتَّعظيم والتَّفخيم.

"وإذا كانت الشَّررةُ مثلَ القَصْرِ الضَّخم أو الحِصْنِ العالي العظيم، أو كأُصول الشَّجر العِظام، فكيف يكون حالُ النّار التي تَرْمي بذلكَ؟ أعاذنا اللّه منها"[4].

بلاغَةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾:

تشبيهٌ بفَرْطِ الضَّخامة والعِظَم، فيا ويلَ المكذِّبين من الأُمَم

في قوله تَعالى: ﴿بِشَرَرٍ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ تشبيه مرسَل مُجمَل؛ إذ شبَّه الشَّرر المتطاير مِن النّار بالقَصْرِ في مقاديره[5]، "وإنَّ في التَّشبيه بالقَصْرِ - وهو الحِصن - تشبيهًا مِن جهتين، مِن جهة العِظَم، ومِن جهة الطّول في الهواءِ"[6].

وفي هذا التَّشبيه "إشارَةٌ إلى ضَخامَةِ حَريقِها الذي لا تَبْلُغ جبال الدُّنيا مجتمعَةً بعضًا مِن ضخامته"[7]، وهوَ مِنْ بدائع التَّشبيهات

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(4) مجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1734.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 164.
(6) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 681.
(7) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.

القرآنيَّةِ؛ لأنَّ الشَّرارة إذا كانت مثلَ القَصْرِ الضَّخم، فكيف تكون حال تلك النّارِ الملتهبة؟.

معنى التَّعريفِ ودلالتُه في ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾، ودلالة الإفرادِ فيه:

كلُّ شررة كقَصْرٍ مَشيد، ومصيرُ المكذِّبين فيها هو الخلودُ

القصْرُ في قول اللّه تعالى: ﴿بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ هوَ البناء العالي المرتفِعُ، و(الـ) فيه للجنس، "أي: كالقُصور؛ لأنّه شُبّه به جَمْعٌ، وهذا التَّعريف مثل تعريف (الكتاب)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: 25]، أي: الكُتُب، وعن ابن عبّاس: الكتاب أكثر مِن الكُتُب، أي: كلُّ شررةٍ كقصرٍ، وهذا تشبيهٌ في عِظَم حَجْمِه"[1].

وكان في هذا الإفرادِ رعايةٌ للفاصلة، فهو أنسَبُ للفاصِلَةِ بعدها ممّا لو قيل: (كالقصور).

بلاغَةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾:

براعَةٌ في البَيانِ، وتخويفٌ مِن شَرَرِ النّيرانِ

الجِمالَةُ: اسمُ جمعٍ لطائفةٍ من الجمالِ، وجمعُها: جمالاتٌ، ومعنى ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾، أي: "تُشْبِه طوائفَ مِن الجمال متوزّعة فِرَقًا، وهذا تشبيه مركَّب؛ لأنَّه تشبيه في هيئة الحَجْم، مع لونِه مَعَ حرَكَتِه"[2]، فقد شُبِّهت بالجمالات لسُرْعَةِ سَيْرِها، أو لمتابعة بعضِها بعضًا[3].

وفي هذا "تنبيهٌ على أنَّ في كلِّ واحدٍ من تلك الشَّرارات أنواعًا من البلاء والمحنة، فكأنَّه قيل: تلك الشَّرارات كالجمالات الموقَّرة بأنواعِ المِحْنَة والبلاء"[4].

وعلى تأويل الجِمالات بالقُلوس العظيمة التي تكون للسُّفن، يكون "التَّشبيه مِن ثلاث جهات: مِن جهة العِظَم، والطّول، والصُّفرة"[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 165.
(4) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 593.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 681.

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ودلالتُه:

تصويرٌ عجيب، وتخييلٌ غريب

ضمير الهاءِ "في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ راجع إلى الشَّرر باعتبار اللَّفظ، أي: شُبِّهت الشَّرر بالقصور، ثمَّ شُبِّهت بالجمال؛ ليبيِّن أنَّ المراد مِن التَّشبيه الأوَّل هو العِظَم مع اللَّون، فالجمال والقَصْرُ سيّان باعتبار العِظَم، ثمَّ ضُمَّ معه ﴿صُفۡرٞ﴾، فيكون التَّشبيه الثّاني مع الأوَّل، كبَدَل الاشتمال في نحو: أعجبني زيدٌ كرمُه"(1).

وهذا يَذْهَبُ بالمعنى "إلى تصويرٍ عجيب وتخييل غريبٍ؛ شُبِّهت الشَّرارةُ حين تنقضُّ مِن النّار في عِظَمها بالقَصْر، ثمَّ شُبِّه القَصْرُ المشبَّه به حينَ يأخُذ في الارتفاع والانبساط، فإنَّه حينئذٍ ينشقُّ عن أعدادٍ لا نهاية لها، بالجمالات المتكاثرة، فيُتصوَّر منها حينئذٍ العِظَمُ أوَّلًا، والاتِّساقُ مَعَ الكثرة والصُّفرة والحركة المخصوصة ثانيًا، فيبلغ التَّشبيهُ إلى الذِّروة العُليا"(2).

سرُّ المغايرة في التَّشبيه بين (الكاف) في ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾، و(كأنَّ) في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾:

تأكيدُ التَّشبيه، وتكريرُ التَّنبيه

(كأنَّ) آكَدُ من (الكاف) في باب التَّشبيه، فقولُ القائلِ: زيد كأنَّه الأسد، أبلغ وآكَدُ مِن قولِه: زيد كالأسد(3)؛ وذلك راجع إلى معنى (كأنَّ)، "ومذهب الخليلِ، وسيبويه، والأخفش، وجمهور البصريّين، والفرّاء: أنَّها مركَّبة مِن كاف التَّشبيه و(إنَّ)، فأصل الكلام عندهم: إنَّ زيدًا كالأسد، ثمَّ قدَّموا الكافَ اهتمامًا بالتَّشبيه، ففُتِحت (إنَّ)؛ لأنَّ المكسورة لا يدخل عليها حرفُ الجرِّ"(4).

والفرق بين الأصل والفرع في (كَأنَّ) هو أنَّ "التَّشبيهَ في الفرع أقعدُ منه في الأصل، وذلك إذا قلتَ: زيدٌ كالأسد، فقد بَنَيْتَ كلامَك على اليقين، ثمَّ طَرأ التَّشبيهُ بعدُ، فسَرَى مِن الآخِر إلى الأوَّل، وليس

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 231.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 233.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 330.
(4) المراديُّ، الجنى الدّاني، ص: 568.

كذلك في الفَرْعِ الذي هو قولُكَ: كأنَّ زيدًا أسدٌ؛ لأنَّك بَنَيْتَ كلامَك مِن أوَّله على التَّشبيه"[1].

وقد اختير في التَّشبيه الأوَّل (الكاف) لأصالَتِها، "ولمّا أُريد به التَّنبيهُ على استقلال التَّشبيه الثّاني؛ عُدِلَ عنه إلى لفظِ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾"[2].

بلاغَةُ توالي تَشْبيهَيْن لِمُشبَّه واحِدٍ:

تَقويَةُ إثْباتِ الوَصْفِ للمُشبَّه، وتأكيدُ شَرَفِه

في قوله تعالى: ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ تشبيه مرسَل مجمَل لحذف وجه الشَّبه، وفي قوله جلَّ ذكرُه: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ تشبيه مرسَل مفصَّل لذِكر وجه الشَّبه وهو اللَّون[3]، والمشبَّه واحدٌ فيهما، وهو الشَّرر المتطاير مِن النّار.

وحاصل التَّشبيهَيْن أنَّه "شُبِّه الشَّررُ في العِظَم بالقصر، وفي اللَّون والكثرةِ والتَّتابع وسرعة الحركةِ؛ بالجِمالات الصُّفر، وقيل أيضًا: إنَّ ابتداء الشَّرر يعظُم فيكون كالقَصْر، ثمَّ يَفْتَرِقُ فتكون تلك القِطَعُ المتفرِّقة المتتابعة كالجِمالات الصُّفر"[4].

والمرادُ بالتَّشبيه الأوَّل في قوله: ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾ بيانُ أنَّ تلك النّار عظيمة جدًّا، والمرادُ بالتَّشبيه الثّاني في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ "شدَّة اشتعالها، والتَّهكُّم بهم، كأنَّه قيل: كنتُم تتوقَّعون مِن وثنيَّتكم كرامَةً ونِعمةً وجمالًا، إلّا أنَّ تلك الجِمال هو هذه الشَّرارات التي هي كالجِمال"[5].

فقد شبَّهَ اللّه تَعالى "الشَّرر الذي يَنْفَصِلُ عن النّار في عظمته وضخامته بالقَصْر، وهو البناءُ العالي المُرْتَفِع، وشبَّهه أيضًا حين يأخُذُ في الارتفاع والتَّفرُّق بالجِمال الصُّفر في هَيْئَتِها ولَوْنِها وسرعة

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 564.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 523.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 324، والدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 385.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 775.
(5) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 327.

حركتها وتزاحُمها، والمقصود بهذا التَّشبيه: زيادةُ التَّرويع والتَّهويل، فإنَّ هؤلاء الكافرين لمّا كذَّبوا بالحساب والجزاء؛ وصَفَ اللّه تعالى لهم نارَ الآخِرة بتلك الصِّفات المرعبة، لعلَّهم يُقْلِعون عن شِرْكِهم، لا سيَّما وأنَّهم يرَوْن النّار في دنياهم، ويرَوْن شَرَرَها حين يتطاير، وإنْ كان الفرق شاسعًا بين نار الدُّنيا ونار الآخرة، وزيادةً في التَّخويفِ والإنذار؛ خُتِمت هذه الآيات أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾"[1].

والتَّشبيهُ بالشَّيئَيْن في إثباتِ وصْفَيْن أقوى في ثبوتِ ذَيْنِكَ الوصفيْن من التَّشبيه بالشَّيء الواحد في إثبات ذيْنِكَ الوَصْفيْن، وبيانُ ذلك أنَّ مَن سمع قولَه: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ تَسارَع ذهنُه إلى أنَّ المرادَ إثباتُ عِظَم تلك الشَّرارات، ثمَّ إذا سَمِعَ بعد ذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ تَسارَع ذهنُه إلى أنَّ المراد كثرةُ تلك الشَّرارات وتتابُعها ولونُها، فـ "التَّشبيهُ بالقَصْرِ وبالجمالات الصُّفر، كالبيانِ المفصَّل المكرَّر المؤكَّد، ولمّا كان المقصودُ من هذا البيان هو التَّهويل والتَّخويف، فكلَّما كان بيانُ وجوهِ العذاب أتمَّ وأبينَ؛ كان الخوف أشدَّ، فثبت أنَّ هذا التَّشبيه أتمُّ"[2].

فالحاصل أنَّه "شبَّه الشَّرر حين ينفصِل من النّار في عِظَمه بالقَصْر، وحين يأخُذ في الارتفاع والانبساطِ لانشقاقه عن أعدادٍ غيرِ محصورة بالجِمال؛ لِتَصَوُّرِ الانشقاق والكثرةِ والصُّفرة والحركَةِ المَخْصوصَة، وقد روعِيَ التَّرتيبُ في التَّشبيه رعايةً لتَرْتيبِ الوجود"[3]، "وتُرِكَ العطف تنبيهًا على استقلال كلٍّ من التَّشبيهيْن على حيالِه، وتغييرُ أداة التَّشبيه له مدخَلٌ في ترك العطفِ"[4].

نكتة تنكير ﴿جِمَٰلَتٞ﴾، ودلالة جَمْعِها ووَصْفِها بـ ﴿صُفۡرٞ﴾:

الجِمالات جَمْعُ: جِمالة، وهي اسمٌ لطائِفَةٍ مِن الجِمال، وواحِدُ الجِمالةِ: جَمَلٌ، "وهو الحيوان المعروف، وفي جمع الجَمل على (جمالات) إشارةٌ إلى أنَّها من الجمال المتخيَّرة من بين الجِمال ضخامةً وامتلاءً، مثل: (رِجالات) التي هي جمع لـ (رِجال) ذوي صفات متميِّزة"[5].

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 776.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 195.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 523.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.

تعظيمٌ وتكثيرٌ لـشَـرَرِ جهنَّم المُسْتَطيرِ

فأمّا الجمع؛ "فللدَّلالة - مع كِبَره - على كثرتهِ وتتابُعه واختلاطِه وسُرعة حركته"[1]، وأمّا التَّنوين فيه؛ فلتأكيدِ مَعْنى التَّكثير[2].

"فهذا الشَّرر ينطلق بعضُه إثْرَ بعضٍ في تتابُعٍ كأنَّه قُطْعان مِن الجمال الصَّفراء، ينطلق بعضها إثرَ بعض، فالويل للمكذِّبين، مِن هذا البلاء المحيط بهم، ومِن هذه النّار التي ترمي بهذا الشَّرر العظيم"[3].

وأمّا وصْفُها بـ ﴿صُفْرٌ﴾؛ فمعناهُ: "سودُ الإبل، لا ترى أسوَدَ مِن الإبل إلّا وهو مُشرَب بصُفرة؛ فلذلك سَمَّت العربُ سودَ الإبل: صُفْرًا، كما سَمَّوا الظِّباء: أُدْمًا؛ لِما يَعْلوها مِن الظُّلمة في بياضها"[4]، وهذا بيانٌ لسَواد الشَّرر المتطايِر مِن النّار التي أوقِد عليها حتَّى اسودَّت، فهي سوداء مُظلِمة كاللَّيل البهيمِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظِّلُّ والفَيْء:

الظِّلُّ أعَـمُّ من الفَيْء

(ظل) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على سَترِ شيءٍ لآخَرَ، وهو الذي يُسَمَّى الظِّل، فمعنى الظِّل: السَّتر[5]، والظِّل: ظِلُّ الإنسان وغيره، والظِّلُّ يكون بالغداة والعشيّ، ومن أوَّل النَّهار إلى آخره[6].

ويقال: أظلَّتْني الشَّجرة، واللَّيلُ: ظِلٌّ[7]، وظِلُّ اللَّيل: سوادُه؛ لأنَّه يستر كلَّ شيء، وظِلُّ الشَّمس ما سَتَرَتْهُ الشُّخوص مِن مَسْقَطِه[8]، ومِن هذا الأصلِ يُقال: أنا في ظِلِّك، ومنه: ظِلُّ الجنَّة، وظِلُّ شجرها إنَّما هو سَتْرٌ[9].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 195.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 225.
(5) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27.
(6) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 26، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(8) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 26، 27.
(9) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.

وأمّا الفَيء؛ فلا يكون إلّا بالعشيّ بعد الزَّوال، ولا يقال لِما قبله فيءٌ[1]، فالفيء هو الظِّل بعد الزَّوال خاصَّةً، وهو مِن الرُّجوع، ولا رجوع إلّا بعد زوال الشَّمس من جانبِ المَشرق إلى جانبِ المَغرب[2]، فإنَّما يُسمَّى بعد الزَّوال فيئًا؛ لأنَّه ظِلٌّ فاءَ من جانبٍ إلى آخَرَ، أي: رجعَ، والفَيء: الرُّجوع[3].

وحاصلُ ما سبقَ أنَّ الظِّلَ أعَمُّ من الفَيْء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجَنَّة، ويقال لكلّ موضعٍ لَم تَصِلْ إليه الشَّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زالَتْ عنه الشَّمس[4]، ولأنَّ في الظِّل معنى السَّتر؛ أوثِرَ لَفْظُ (الظِّل) دون (الفيء) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، أي: دُخان جهنَّم[5]، فدلَّ اللَّفظُ على عِظَمِ هذا الدُّخان[6] وكثافتِه[7].

الرَّميُ والقَذْفُ:

الرَّمــي أخـصُّ مـن الـقَـذْفِ باعتبارِ مَعْرِفَةِ مَكـانِ الـرَّمْـيِ ومُتَعَلّقاته

قذفُ الشَّيءِ المادّيِّ قد يكون دونَ معرفةِ المَسافة، التي يَصِلُ إليها المقذوف أو المكان الذي يصل إليه؛ ولذا أوثِرَ لفظُه في قول اللّه ﷻ: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39]، فهي حينئذٍ لم تكُن تَعرف إلى أين سيصِل نبيُّ اللّه موسى ﵇، ويُعبَّر بالقذف عن السُّرعة في وضعِ الشَّيء؛ ولذا أُطلِقَ على الوضع في التّابوت في قول اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: 39]؛ تمثيلًا لهيئة المُخفي عملَه، فهو يُسرِع وضْعَه من يدِه كهيئةِ من يَقذِف حجرًا ونحوه[8].

(1) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل)، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (فيأ).
(3) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، 28، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والفيروزابادي، البصائر: (ظلل).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 136، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(6) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 95، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 216.

والرَّمي تُعْلَم فيه المسافة، ويُعلَم فيه المكانُ الذي يُرمَى إليه[1]؛ ولذا أوثِر لفظُ (الرَّمي) دون (القَذف) في قول اللّٰه ﷻ: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾، فالرَّمي لا يكون عشوائيًّا، ولذا أوثِر أيضًا في قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وفي قوله ﷻ: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤﴾ [الفيل: 4].

الجِمال والإبِل:

الجِمالُ أخَصُّ من الإبل

لفظُ الإبل يقال لَمسانِّها وصغارها، وليس لَها واحِدٌ من اللَّفظ[2]، والجَمَل: الذَّكَر من الإبل؛ إذا بَزَلَ[3]، أي: انشقَّ نابُه في السَّنة التّاسعة[4]، ولا يقال له: جملٌ إلّا بعد البُزول[5]، وهذا يدلُّ على أنَّه وصلَ إلى تمام ضخامتِه وعِظَم جِسمِه، وأنَّه قد بلغَ الغايةَ في سرعةِ حركتِه[6]؛ ولذا أوثِر لفظ (الجِمالة) دون (الإبل) في قول اللّٰه ﷻ: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾، ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِ شَرَرِ النّار وسرعةِ حركتِه[7].

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 7/ 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبل).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جمل).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (بزل).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جمل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جمل).
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 165، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 578، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧﴾ [المرسَلات: 35 - 37]

❁ مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انقِطاعُ العُذْرِ بعد البيانِ الوافي

لمّا أبانَ اللّه سبحانه عن هوانِهم في دارِ العقاب بالنّارِ والشَّررِ واللهيب؛ أتبعَ ذلك بما هو أشدُّ رهبةً وأعظمُ مصيبةً، وهو خرسُ الألسنةِ بعد طول التَّكذيب، وانقطاعُ العذر بعد تكرار التَّنديد؛ فجاءت الآياتُ تُكمِلُ صورةَ الخزي في المشهَدِ العظيم؛ إذ لا إذنَ يُمنح، ولا نطقَ ينفع، ولا شيء يشفَعُ، ولا عذرَ يُسمَع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾: أصل (عذر) من العَذِرَةِ وهو الشَّيء النَّجس، ومنه سمّي القُلْفَةُ: العُذْرَةُ، تقول: عَذَرْتُ الصّبيَّ؛ إذا طهّرتَه، وأزلتَ عُذْرَتَهُ، وكذا عَذَرْتُ فلانًا، أي: أزلتُ نجاسةَ ذَنْبِه بالعَفْوِ عنه[1]، والعُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبَهُ، ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ[2]، والمُعْذِرُ: مَن يَرى أنّ له عُذْرًا، ولا عُذْرَ له، والعَرب تَقول: أعذر فلان، أي: كانَ مِنْهُ ما يُعذَر بِهِ، واعتذر بمعنى أعذر، أي: صار ذا عُذْرٍ[3]، والمُعْتَذِر يُقال فيمن له عُذْرٌ، وفيمَن لا عُذْرَ له[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾، أي: لا يكون لَهُم إذْنٌ واعْتِذارٌ[5] بطَلَبِ العَفْوِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح: (عذر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (عذر).
(4) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عذر).
(5) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 587.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخَتْمُ على أفواه المكذِّبين سببُهُ إقامَةُ الحجَّة عليهم يومَ الدّين

يخبرنا اللّه ﷻ في هذا السّياق القرآنيِّ المبارك عن يوم القيامَةِ وما فيه من الأهوالِ والمَواقِفِ الصَّعبة التي تتجلَّى في الخَتْمِ على أفواه هؤلاء المكذِّبين بنِعَمِ اللّه تَعالى وفضله وأياديه، وفي عدَمِ السَّماح لهم بتقديم المعذرة في هذا اليوم؛ لإقامة الحجَّة ووقوع القولِ عليهم؛ بسببِ ظُلْمِهِم وكفرهم بآيات اللّه سُبحانَهُ، وفي التَّهديد كذلك لَهُم بالهلاك والعذابِ الشَّديد؛ لأَنَّهم كفروا باللّه تَعالى ورسوله ﷺ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصْلِ الآيات عن سابِقَتِها:

في يوم القيامَةِ عذابٌ شديدٌ، وسيعلَمُ المكذِّبون فيه صِدْقَ الوَعيدِ

هذه الآيات متَّصلة بالسِّياق ومعقِّبة على ما سبقَها، كما هو ظاهر، والوصف السّابق قويٌّ مرعِب، فجهنَّم التي يُساق المكذّبون إليها، التي كانوا يكذِّبونها، ترمي بشرر عظيم الحَجْمِ والطّول، وقد ضُرِب عليها رواقٌ ذو ثلاثِ شُعَب يظنُّه الرّائي ظلًّا واقيًا، ولكنَّه لا يلبث أن يَعْرِف أنَّه لا يصلح للاستظلال، ولا يقي مِن اللهب، وما يلي ذلك يحكي ما سوفَ تكون عليه حالُ المكذِّبين مِن سوءٍ وحرَجٍ في هذا اليوم العصيب، فهُم لا يستطيعون أن يقولوا شيئًا، ولا يُسمَحُ لَهُم بالاعتذار عمّا بدا مِنْهُم[2].

فتكون هذه الآيةُ مُستأنَفَةً مَسوقَةً لبَيانِ الحالِ في ذلك اليومِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبير باسْمِ الإشارة للقَريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

الهاء في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّنبيه، و(ذا)

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 327 - 328.

(2) دروزة، التَّفسير الحديث: 2/ 214.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 343.

يومُ عذاب الكافرين المكذِّبين قريبٌ

اسمُ إشارةٍ يُرادُ به يوم القيامة[1]، وله هاهنا تأويلانِ سائغان: "فإن كانت الإشارة على ظاهرها؛ كان المشار إليه هو اليوم الحاضر، وهو يومُ الفَصلِ، فتكون الجملة مِن تمام ما يُقال لهم في ذلك اليوم بعدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وموقِعُ الجُملَةِ على هذا التَّأويل موقِع تكريرِ التَّوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وهو مِن جملة ما يُقال لهم في ذلك اليومِ، واسمُ الإشارة مستعمَلٌ في حقيقتِه للقَريب.

وإن كانت الإشارةُ إلى المذكور في اللَّفظ، وهو يومُ الفصْلِ المُتحدَّث عنه بأنَّ فيه الويلَ للمكذِّبين؛ كان هذا الكلام موجَّهًا إلى الذين خوطِبوا بالقرآن كلِّهم؛ إنذارًا للمشركين منهم وإنعامًا على المؤمنين، فكانت ضمائرُ الغَيبة جاريةً على أصْلِها، وكانت عائدةً على المُكذِّبين مِن قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وتكون الجملة معترِضةً بينَ جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾، واسمُ الإشارة الذي هو إشارَةٌ إلى القريب مستعمَل في مشارٍ إليه بعيدٍ؛ باعتبار قُرْبِ الحديث عنه على ضربٍ مِن المجازِ أو التَّسامح"[2].

ويُضاف إلى ما سبق ما في التَّعبير باسْمِ الإشارة مِن تمييزِ المشار إليه أكملَ تمييز، وفيه ردٌّ على المكذِّبين الذين أنكروه، مع ما في الإشارة مِن تعظيم المشار إليه، وهذا التَّعظيم مستفاد مِن السِّياق.

دلالَةُ التَّعبير بالاسميَّةِ في قولِه تَعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾:

عـذابُ المكذِّبين فظيعٌ لا يُتَصوَّر، وحالُهم يومَ القيامَةِ ثابتَةٌ لا تتغيَّر

قوله: ﴿يَوۡمُ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبر ﴿هَٰذَا﴾[3]، والجملة الاسميَّةُ تُفيدُ بأصْلِ وضعِها ثبوتَ شيءٍ لآخَرَ دون نَظَرٍ إلى تجدُّدٍ ولا

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 238.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 439.
(3) المنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 316.

استمرارٍ[1]، غير أنَّها قد تخرج عن هذا الأصل، وتفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَبِ القرائن، إذا لم يَكُن في خَبَرِها فِعْلٌ مُضارِعٌ، وذلك بأنْ يكونَ الحديثُ في مقام المدح، أو في معرض الذَّمّ[2].

ومن الذَّمّ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، فدلَّ سياق الكلام على ثُبوت حال المكذّبين بعدَم النُّطق تحقيرًا لهم وتعذيبًا ودوام ذلك واستمراره، ويؤكّد هذا وُجودُ الفِعْلِ المُضارع المنفيّ في صفةِ اليوم المُشار إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾.

لا تَنْطِقُ ألسِنَةُ المكذِّبين مِن شدَّة العذاب يومَ الدِّين

نَوْعُ الإضافَةِ ودلالَتُها في ﴿يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾:

تُرِكَ التَّنوين في لفظِ ﴿يَوۡمُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأجْلِ الإضافة[3]، فـ ﴿يَوۡمُ﴾ مضافٌ إلى ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾[4]، "أي: هو يومٌ يُعرَفُ بمَدْلولِ هذه الجُمْلَة"[5].

فالإضافَةُ محضَةٌ (معنويَّة) تفيدُ تخصيصَ المضافِ بالمُضاف إليه[6]، بغَرَضِ تعظيم المُضاف، أي: إنَّ هذا اليومَ عظيمٌ شديدٌ على المكذّبين، لا يَنْطِقون فيه من الخوف والوجل الشَّديد[7].

وقد "استدلَّ بعض أهل النَّظر على أنَّه يراد به بعضُ أوقات اليوم دون بعض؛ بإضافة اليوم إلى الفِعْلِ"[8]، قائلًا: "العربُ لا تُضيف اليوم إلى فعَلَ يَفْعَل، إلّا إذا أرادت السّاعة مِن اليوم والوقتَ منه، وذلك كقولهم: آتيك يومَ يَقْدَمُ فلانٌ، وأتيتُك يوم زارَكَ أخوك،

---

(1) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(2) الهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 67، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(3) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 563.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 420.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440.

(6) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.

(7) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 905.

(8) مكّيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 12/ 7975.

فمعلومٌ أنَّ معنى ذلك: أتيتُك ساعة زارَك، أو آتيك ساعَةَ يَقْدَمُ، وأنَّه لم يكُن إتيانُه إيّاه اليومَ كلَّه؛ لأنَّ ذلك لو كان أخَذَ اليومَ كلَّه؛ لم يُضَف اليومُ إلى فعَلَ ويَفْعَل، ولكنْ فعَلَ ذلك؛ إذْ كان اليومُ بمَعْنى: (إذْ) و(إذا) اللَّتين يَطْلُبان الأفعالَ دون الأسماءِ"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بنَفْيِ النُّطق دونَ الكلام:

الفرق بين النُّطق والكلام: أنَّ الكلام هو ما يُتحدَّثُ به قليلًا كان أو كثيرًا، وأمّا النُّطق؛ فهو إدارة اللِّسان في الفَمِ بالكلام[2].

لا تتحرَّكُ ألسِنَتُهم الَّتي لاكوها بالتَّكذيب؛ إذ تعقدُها شدَّةُ التَّعذيب

إضافةً إلى أنَّ النُّطق قد يكون لِما لا نَفْهَمُهُ نحنُ البشَر، كما قال اللّه تعالى في قصَّة سليمان ﷺ: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النَّمل: 16][3]، وهذا بخلافِ مَعْنى الكلام الذي يَدلُّ على نُطقٍ مُفهِم، ويُتَّسع في دلالةِ الكلمة، فتُسمَّى اللَّفظة الواحدةُ المُفهِمة كَلمةً، والقصَّةُ كلمةً، والقصيدةُ بطولها كَلمةً[4]، وعند كثير مِن المتكلِّمين لا يقع الكلام إلّا على الجملة المركَّبة المفيدة[5].

وممّا سبَق يتبيَّن سرُّ إيثار التَّعبير بنفي النُّطق دون نفي الكلام في هذه الآية الكريمة التي تَصِفُ حال المكذِّبين الضّالِّين يوم القيامة، فقد نفَت الآيةُ عَنهُم مُطْلَقَ تحرُّك اللِّسان في الفَم مِن هول ما يَلقَوْن، وكأنَّ ألسنتَهُم قد انعقدت عن الكلام بل النُّطق، ولو بغير المُفهِم، فهُم "لا ينطقون فيه ببِنْتِ شفَةٍ مِن شدَّة الحيرة والدَّهشة"[6]، فلم يبق إلّا الصُّراخ، "فلا تتحرَّك ألسنتُهم، كما كانت تتشدَّق في الدُّنيا بالزُّور"[7]، إضافةً إلى أنَّ لفظَ ﴿يَنطِقُونَ﴾ فيه

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 142.
(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 541 - 542.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نطق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (كلم).
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.
(7) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1405.

إشارَةٌ إلى احتِقارِهم؛ إذِ المَعْنى: أنَّ هؤلاءِ الكفّار المكذِّبين ليسوا مِن جِنْس النّاطِقينَ ذوي العُقول[1].

"وقد يكون المراد أنَّهم لا يَنْطِقون بما يُفيد، فكأنَّهم لا يَنْطِقون، وتقول العرَبُ لِمَن ذَكَرَ ما لا يُفيد: ما قلتَ شيئًا"[2]، فصار "نُطْقُهُم بالأعذار الكاذبَةِ كلا نطقٍ في عدَمِ الدَّفع والنَّفع"[3].

بلاغَةُ الالتفاتِ مِن الخطابِ في ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى الغَيْبَةِ في ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾:

في الانتقال من خطاب هؤلاء الكافرين المكذِّبين بقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى إجراء ضمائر الغيبَةِ عليهم التفاتٌ بديعٌ؛ إذ إنَّهم أوَّلًا خوطِبوا خطابَ إهانَةٍ وتحقيرٍ بالأمر المُذِلّ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾؛ ليشهدوا بأنفُسِهم حقيقةَ ما كان الرَّسولُ ﷺ يخبِرُهُم به، ويُحذِّرهم منه، وهُم مصرّون على تَكْذيبه، فيَنْطَلِقون إليه راغِمين تَسوقُهُم الملائكة، وتَنْبُذُهُم في الحُطمةِ الزَّبانيةُ، فلمّا صاروا في دركاتِ الجحيم؛ حسُن ألّا يُلتَفت إليهم، بل عَنْهُم؛ زيادةً في تحقيرهم.

وممّا يزيد هذا الالتفاتَ حُسنًا "أنَّهم قد استحقّوا الإعراضَ عنهم بعد إهانتهم بخطاب ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾"[4]، فجاء قولُه تعالى بعدَه بضميرِ الغائب: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ على وجهِ الإهمال[5].

دلالَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ﴾ على ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾، وبلاغةُ السَّجع في الفاصِلَتَيْن:

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ اتِّصال في المعنى بين الجملةِ الأولى والثّانية، "فَعَطْفُ ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ على جملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ يعني أنَّه لا يُؤْذَن لهم إذنٌ

بالآثام تحمَّلوا، فأُهينوا، وأهمِلوا

بأيِّ عُذرٍ يَعْتَذِرون بعد ما كَفروا بالحقِّ المبين، وتولَّوا عنه مُعْرِضين

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (نطق).
(2) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 187.
(3) النَّخجوانيُّ، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 475.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 439.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240.

يتفرَّع عليه اعْتِذارُهُم، أي: لا يُؤذَن لهم في الاعتذار، فالاعتذار هو المقصودُ بالنَّفي، وجُعِل نفيُ الإذنِ لهم توطِئَةً لنَفْيِ اعتذارهم"[1]، أي: لا يُؤْذَن لهم بكلام يُلْقون فيه بأعذارٍ يَعْتَذِرون بها عن جِناياتِهم في الحياة الدُّنيا: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ [الرّوم: 57]، فالوَيْلُ لهؤلاء المكذِّبين، ولكلِّ مكذِّب بيَوْم الدِّين[2]، وممّا حسَّن الوصلَ بين الجُملتين اتِّفاقُهما في الخبريَّة، وفي التَّعبير بالمضارعِ المنفيِّ، وفي دلالَتِهما على نَفْيِ التَّكلُّم بالاعتذار وبغيره عن الكافرين المكذِّبين يوم القيامة.

وتوافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ الآيات، مِنْ بابِ السَّجْع، وهو من المحسِّنات البديعيَّة، وتدلُّ كلُّ واحدَةٍ من السَّجعتَيْن على معنًى يُغايرُ ما دلَّت عليهِ الأُخْرى.

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارِعِ المَنْفيِّ المَبْنيِّ للمَفْعول ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ﴾:

المكـذِّبـون في الآخِرَةِ في عذابٍ فظيعٍ، وليسَ لَهُم نَصيرٌ ولا شَفيعٌ

بناءُ الفِعْلِ للمَفْعولِ في ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ﴾ للعِلْم بفاعله، وهو مالكُ يوم الدِّين ﷻ، فهؤلاء الكافرون لا يَقْدِرونَ على شيء إلّا بإذن اللّه تَعالى.

وفي عدَم ذِكْرِ الفاعل أيضًا دلالَةٌ على عدَمِ وُجودِ ناصِرٍ لَهُم ولا شفيع، أو حتَّى فرَج يأتيهم من دون اللّه ﷻ[3].

واختيارُ صيغَةِ المُضارع المنفيِّ للدَّلالة على استِمرارِ المَعْنى، فهؤلاء الكافرون مستمرٌّ عدمُ الإذنِ لَهُم في الاعتذار؛ كُلّما همّوا بذلك، أو حاوَلوه، وهذا الحالُ يوجِعُهُم، ويعذِّبهم[4]، فهم "لا يَقْدِرون على الكلام، ولا يُؤْذَن لهم فيه؛ ليَعْتَذِروا، بل قد قامت عليهم الحُجَّة: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ [النَّمل: 85]"[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1405.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 300.

معنى (اللّام) ودلالَتُها في ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾:

اختصّوا بحِرْمانِ الإذن بالاعْتِذار، بَعْدَما تقدَّم القرآنُ لَهُم بالإنذارِ

الأصل في معنى (اللّام) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاختِصاص[1]، وهي هنا بهذا المعنى، أي: لا يؤذَن لهم خاصَّة، ممّا يدلُّ على شدَّة جُرْمِهم وإثْمِهم وعِظَم خَطيئَتِهم، فلمّا سَدّوا آذانهم عن سماع الحقِّ، وصرفوا ألسنتهم عن قول الصِّدق؛ حُرِموا يوم القيامة مِن مجرَّد الإذْنِ بالكلام؛ ليقدِّموا أعذارَهُم، فكان جزاءً وفاقًا، وإنَّما لَم يُؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنَّ اللّه سُبْحانَهُ أزاحَ الاعتذار في الدُّنيا بتَقديم الإنذار، بدليلِ قوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾؛ ولهذا قال في آخِر هذا الإخبار: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[2].

مَعْنى (الفاء) ودلالَتُها في ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾:

أيُّ عُذْرٍ لِمَن أعرَضَ عَن مولاهُ، وجحَدَهُ، وكفَر أياديَه ونِعَمَه؟

الفاء معناها التَّعقيبُ بلا مُهْلَةٍ، مع إفادة التَّرتيب، أي: إنَّها تُفيدُ الاتِّصالَ[3]، "وعطفُ ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ على ﴿يُؤۡذَنُ﴾ يدلُّ على نَفْي الإذْنِ والاعتذارِ عقيبَهُ مُطلَقًا، وهو ليس جوابًا، ولو جَعَلَهُ جوابًا؛ لدلَّ على أنَّ عدمَ اعتِذارِهِم لِعدَمِ الإذن، فأوْهَم ذلك أنَّ لهم عذرًا لكنْ لا يُؤذن لهم فيه"[4]، فهو "عطفٌ عَلَى ﴿يُؤۡذَنُ﴾ مُنْخَرِطٌ في سِلْكِ النَّفي"[5].

فالمعنى: لا يكونُ لَهُم إذْنٌ واعتذارٌ، "أي: لا يُؤذَن لهم في الاعتذار، فالاعتذار هو المقصود بالنَّفي، وجُعِلَ نفيُ الإذن لهم توطئةً لنَفْيِ اعتذارهم؛ ولذلك جاء ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ مرفوعًا، ولم يَجِئ منصوبًا على جواب النَّفي؛ إذْ ليس المقصودُ نفيَ الإذنِ وترتُّبَ

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.

(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 426.

(3) المراديُّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 61.

(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 277، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.

(5) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 587، والمنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 317، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 288 - 289.

نفي اعتذارهم على نفي الإذن لهم؛ إذْ لا محصولَ لذلك؛ فلذلك لم يكُن نصب ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ مساويًا للرَّفع، بل ولا جائزًا، بخلاف نحو قوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: 36]، فإنَّ نفْيَ القَضاءِ عليهم، وهُم في العذاب مقصودٌ لذاته؛ لأنَّه استمرار في عذابهم، ثمَّ أجيب بأنَّه لو قُضي عليهم؛ لَماتوا؛ أي: فقَدوا الإحساسَ، فمعنى الجوابيَّةِ هُنالك ممّا يُقصَدُ.

ولذا فلا حاجةَ هُنا إلى ما ادَّعاه أبو البقاءِ أنَّ ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ استئنافٌ؛ تقديره: فهُم يعتذرون، ولا إلى ما قاله ابنُ عطيَّة تبعًا للطَّبريِّ: إنه يُنصب لأجلِ تَشابُهِ رؤوس الآياتِ، وبعدُ؛ فإنَّ مناط النَّصب في جواب النَّفي قصْدُ المتكلِّم جعْلَ الفعلِ جوابًا للنَّفي، لا مجرَّد وجود فعلٍ مضارع بعد فعلٍ منفيٍّ"(1).

فالفاء هاهنا في ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ للنَّسق فقط، ولا يُفيد كونَهُ جزاءً ألبتَّة(2).

ثمَّ إنَّ فيه فائدةً أخرى، وهي حصولُ الموافقَةِ في رؤوس الآيات؛ لأنَّ الآياتِ بالواو والنّون، ولو قيل: (فيعتذروا) لَم تتوافق الآيات، "ألا ترى أنَّه قال في سورةِ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦﴾ [القمر: 6]؛ فثَقَّل لأنَّ آياتها مثقَّلة(3)، وقال في موضع آخر: ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨﴾ [الطَّلاق: 8]، وأجمع القُرّاءُ على تثقيل الأوَّلِ، وتخفيف الثّاني؛ ليوافق كلٌّ منهما ما قبله"(4).

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارِع ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾:

يـومَ القيامَةِ لا يُقبَل مِن الكافرين اعتذارٌ، وليس لَهُم في الآخِرَةِ إلّا النّار

للمُضارع هنا دلالةٌ على التَّجدُّدِ والاستمرار واستحضارِ الصّورة، فهؤلاء المكذِّبون الذين لا يَنْفَعُهُم اعتذارُهم في الآخرة لا شكَّ أنَّهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 682.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 226.
(3) المرادُ بالتَّثقيل: التَّحريكُ، ويُقابِلُهُ التَّخفيف مرادًا به الإسكان.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 778 - 779.

يُحاوِلون جاهِدين أن يَنْجوا مِن هذا العذاب العظيم، فيظلّون يَهُمّون بالاعتذار زمنًا طويلًا مستمرِّين على ذلك مع استمرار مَنْعِهِم.

وقد أوثر لفظُ الاعتذار دونَ غيرِه؛ لمعناه المناسبِ لحالِ هؤلاء، "يُقال: اعْتَذَرْتُ إلى فلانٍ؛ إذا أتيت له بعُذْرٍ يترتَّب عليه مَحْوُ الإساءة"(1)، وهذا هو المَعْنَى في قوله: ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾، فإساءَتُهُم لا تُمحَى، وعذابُهم لا يُخفَّف.

نُكتة حَذْفِ متعلّقِ النُّطْقِ والاعتذار في ﴿لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾:

شـدَّة الأهـوال أسْـكَـتَـت الـكـافـريـن الجُهّال

حُذِفَت المتعلِّقاتُ هنا لقصد التَّعميم والاختصارِ مع رعاية الفاصلةِ، أمّا التَّعميم؛ فالكافرون في هذا اليوم ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ بمنطقٍ ينفَعُهُم، ولا يعتذِرون بعُذْرٍ يدفَعُ عنهم(2)، ثمَّ يَحِقُّ عليهم القولُ، ويُطبَق عليهم العذاب، وتوصَد عليهم أبواب جهنَّم، ويقول لهم اللّه جلَّ وعزَّ وتعالى وتقدَّس: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، فلا يَنْطِقونَ بشَيْءٍ، ولا يَعْتَذِرون بشيءٍ.

وأمّا مراعاة الفواصلِ؛ "فالعرب تستحبُّ وفاقَ الفَواصل، كما تستحبُّ وفاقَ القَوافي، والقرآنُ نزل على ما تستحبُّ العربُ من موافقة المقاطِع"(3).

درءُ التَّعارضِ بينَ هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يدلُّ على اعتذارِهِم:

في يوم الأهـوالِ تتعدَّد الأحوالُ، بين إذْنٍ بالكلامِ وحِـرْمـانٍ مِـن المقالِ

قال اللّه تعالى هُنا: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وهناك آيات أخرى تدلُّ على أنَّهم يَنْطِقون، ويعتذرون، كقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ [النَّحل: 28]، وقوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38]، إلى غير ذلك من الآيات، فيَبْدو ثَمَّ تعارُضٌ ظاهِرٌ بين الآيات، وليس هذا واقعًا، وخلاصةُ الجواب عن هذا كلِّه من أوجهٍ(4):

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240 - 241.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 211.

(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 103 - 104.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 300، والمنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 317، والشِّنقيطيُّ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 335 - 336.

الأوَّل: أنَّ القيامة مواطِنُ، ففي بعضِها يَنْطِقون وفي بعضها لا ينطقون، وقد ورد التَّنزيل بهما، فعَرَصات القيامة حالاتٌ، والرَّبُّ تعالى يخبِرُ عن هذه الحالِ تارَةً، وعن تلكَ الحالِ تارةً؛ ليدلَّ على شدَّةِ الأهوال والزَّلازل يومئذٍ؛ ولهذا يقولُ بَعْدَ كلِّ فصْلٍ مِن هذا الكلام: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

والثّاني: أنَّهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة، وما لا فائدة فيه كالعَدَم، فالعرَبُ تقول لِمَن تكلَّم، ولم يأتِ بفائدة: ما قلتَ شيئًا، فنفوا عنه القولَ على الرُّغم مِنْ أنَّه تكلَّمَ، وأسمعَ.

والثّالث: أنَّهم بعد أن يقول الله تَعالى لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، يَنْقَطِعُ نُطْقُهُم، ولم يَبْقَ إلّا الزَّفير والشَّهيق، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ [النَّمل: 85]، وهذا الوجهُ الثّالثُ راجِعٌ للوجه الأوَّل، أي: إنَّهم "تكلَّموا، واختصَموا، ثمَّ خُتِم على أفواهِهِم، فتكلَّمت أيديهِم وأرجلُهم، فحينئذٍ ﴿لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾"(1)، أي: إنَّ في القيامَةِ مواطِنَ، فهُم قد ينطقون في موطِنٍ، ولا ينطقون في موطن آخَر(2).

"والهدف العامُّ هو وصفُ هَوْلِ مصير الكُفّار وشدَّة موقِفِهم يومَ القيامَةِ؛ لإثارة الرُّعب والفزع في نُفوسِهم، وحَمْلِهم على الارعِواء والازدجار"(3).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّطق والتَّكلُّم:

الكلامُ في اللُّغة يُعبَّر به عن كلِّ ما أفهمَ المقصود(4)، فيشمَلُ ما

النُّطقُ أخَصُّ من التَّكلُّم

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 386.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240 - 241.
(3) دروزة، التَّفسير الحديث: 2/ 214 - 215.
(4) محمَّد محيي الدّين عبد الحميد، التُّحفة السَّنيَّة بشرح الآجرّوميَّة، ص: 33.

كان لفظًا وما لم يكُن، كالخَطِّ والكتابةِ والإشارةِ وما يُفْهَمُ مِن حالِ الشَّيء، وهو المسمّى: لسانَ الحالِ[1].

والنُّطق خاصٌّ بالصَّوت الذي له مَعْنًى[2]، يقال: نَطَقَ يَنْطِقُ نُطقًا ومَنْطِقًا ونُطوقًا، أي: تَكَلَّمَ بصَوتٍ وحُروفٍ تُعْرَفُ بها المَعاني[3].

وأوثِر لفظ (النُّطق) دون (التَّكلُّم) في قول الله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لأنَّ لسانَ حالِهم يتكلَّم، ولكنَّهم لا يستطيعون النُّطقَ ببِنتِ شَفَةٍ[4]، والنُّطق: إدارةُ اللِّسانِ في الفَم بالكلام[5]، وهو لفظٌ مشتركٌ بين القوَّة الإنسانيَّة التي يكون بها الكلامُ وبين الكلامِ المبرَزَ بالصَّوت[6]، فكأنَّ هذه القوَّة قد نُزِعَت منهم.

الإِذْنُ والإِباحَةُ:

الإباحةُ قد لا تَسبقها رغبةٌ في الشَّيءِ الذي يُباح، والإذنُ تَسبقه رغبةٌ في فِعلِ الشَّيء، كمَن يَرغب في دُخولِ بيتٍ، فيُؤذَن له؛ ولذا أوثِر لفظُ (الإذن) دون (الإباحة)، في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، فإنَّهم يَرْغبونَ في النُّطقِ، ولكنَّهم لا يَقْدِرونَ على شيءٍ إلّا بإذْنِ الله ﷻ[7].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 434، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/ 184، والسُّيوطيُّ، همع الهوامع: 1/ 48، ومحمَّد محيي الدّين عبد الحميد، التُّحفة السَّنيَّة بشرح الآجرّوميَّة، ص: 33.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نطق).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (نطق).

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.

(5) العسكريُّ والجزائري، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، وأبو القاسم الكرمانيُّ، لباب التَّفاسير، ص: 2650.

(6) الرّاغب، المفردات: (نطق).

(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٠﴾ [المرسَلات: 38 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِنْ صَمْتِ الحيْرةِ والدَّهشةِ إلى نِداءِ التَّرهيبِ والوَحْشَةِ

لَمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى حالَ المكذِّبين في موقِفِ الحَيْرَةِ والدَّهشة، وقد خُتِمَت أفواههم، فلا نطقَ يُسمَعُ، ولا اعتذارَ يُقْبَل، وكان ذلك أمارةَ الحُكْمِ بعَجْزِهم وضَياعِ حجَّتِهم؛ أعقب ذلك بذِكْرِ مشهدٍ آخر مِن مشاهد ذلك اليوم، فقال: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ إيذانًا بانتقالِ الموقف من سُكوتِ العَجْزِ إلى صَوْلَة الحكم، ولمّا كانت مواطِن القيامة تُسمَّى أيّامًا؛ لتنوُّعِ أحكامِها وتعدُّد مواقِفِها، تميَّزَ يومُ الفَصْلِ عن غيرِه بكَوْنِه موطِنَ القَضاء النِّهائيِّ بعد انقطاعِ القَوْلِ والحيلَة، فاجتمع فيه تمامُ العَدْلِ وكمالُ القَهْر؛ ليَبْدوَ المكذِّبون في غايَةِ الذُّلِّ، لا مقالَ لهُم ولا كَيْد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَيۡدٞ﴾: أصل (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لشَيْءٍ بشدَّة[2]، والكَيْدُ: المكر، يقال: كادَهُ يكيدُهُ كَيْدًا ومَكيدَةً، وكذلك المُكايَدَةُ[3]، وهو ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُسْتَعْمَلُ في المذموم أكثر[4]، والكَيْدُ من المَكيدَةِ، وقد كادَهُ مَكيدَةً[5]، وكلُّ شيءٍ تُعالِجُهُ فأنتَ تَكيدُهُ[6]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾: إن كانَت لَكُم حيلَةٌ؛ فاحتالوا لأنفُسِكُم[7].

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 441.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كيد).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (كيد).
(4) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (كيد).
(6) الجوهريُّ، الصِّحاح: (كيد).
(7) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.

المَعنى الإجْماليُّ:

يوم القيامة هو يوم الفصل بين النّاس أجمعين، وتحديد مصير المُؤمنين والكافرين

يبيِّن اللّه ﷻ في هذا النَّصِّ القرآنيِّ المبارك أنَّ يوم القيامةِ هو يومُ الفَصلِ بين جميع الخلائق، وهو اليومُ الذي سَيَجْمَعُ فيه كفّارَ هذه الأمَّة بقدرته سبحانه مع مَنْ كان قَبْلَهُم مِن الأمم الهالكَةِ المكذِّبة بأنبياءِ اللّه تعالى ورُسُله ﷺ؛ وذلك للفَصْلِ بينَهُم وبينَ عبادِهِ المُؤْمنين، ولتَمْييزِ المُحقّين من المُبْطِلين، ولبيانِ إنْ كان لهؤلاء المكذِّبين حيلَة في هذا اليوم لدَفْعِ العَذابِ عَنْهُم، أو التَّخلُّص من بَطْشِ اللّه تعالى وانتقامه حتَّى يَحْتالوا لإنقاذِ أنْفُسِهم مِن ذلك العذاب، إلّا أنَّهم لن يَسْتَطيعوا الاحتيال؛ لأنَّ العذابَ واقع بهم لا محالة، ولأنَّ الهلاك المعدَّ لهم؛ بسبَبِ كُفْرِهم وتكذيبِهم بآياتِ اللّه تَعالى قَد أحاطَ بهِم مِن كلِّ اتِّجاهٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآياتِ عَن سابِقَتِها:

فَصْلٌ يُجَلّي مَشْهَدَ يومِ الفَصْلِ

فُصِل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾ عن سابقه؛ لِما بينَهُما من كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ هذا "تكرير لتوبيخهم بعدَ جُملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، شُيّع به القول الصّادر بطردِهم وتحقيرهم، فإنَّ المطرودَ يُشَيَّع بالتَّوبيخ، فهو ممّا يقال لهم يومئذٍ، ولم تعطف بالواو؛ لأنَّها وقعت موقع التَّذييل للطَّرد، وذلك من مقتضيات الفصل، سواءٌ كان التَّكرير بإعادة اللَّفظ والمعنى، أم كان بإعادة المعنى والغرض"[2].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للقريب: ﴿هَٰذَا﴾، ونكتة تكراره:

إشارةُ القُرب تجديد لاستحضار الكَرب

أوثر التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾؛ لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز مِن حيث إنَّه تبكيتٌ للمكذِّبين به، وهو على نسَقِ قوله

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 277، ونخبة من علماء التفسير، التَّفسير الميسر: 1/ 581.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 441.

سبحانه: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ [الطّور: 13 - 15]، "فالمشار إليهِ هو اليومُ الحاضِر، وهو يوم الفصل"(1)، وما فيه مِن حسابٍ وجزاء... إلخ.

وفي الإشارة للقريب - وإن كان وقتَ تلاوة هذه الآيات بعيدًا - استحضارٌ له، وتهويلٌ لأمره، وتفخيم لشأنهِ؛ بحيث إنَّه ممّا يُشار إليه، "والإخبار عن اسم الإشارة بأنَّه يوم الفصلِ باعتبار أنَّهم يتصوَّرون ما كانوا يَسۡمَعون في الدُّنيا مِن محاجَّة عليهم لإثبات يوم يكون فيه الفصل، وكانوا يُنۡكِرون ذلك اليوم، وما يتعذَّرون بما يقعٍ فيه، فصارت صورة ذلك اليومِ حاضرةً في تصوُّرهم دون إيمانِهم به، فكانوا الآنَ مُتَهَيِّئين لأنْ يوقِنوا بأنَّ هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون بحُلولِه، وقد عُرِف ذلك اليوم مِن قبلُ بأنَّه يوم الفصل، أي: القضاء، وقد رَأوا أُهۡبَةَ القَضاء"(2).

وقد تكرَّر اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾؛ لتَجۡديدِ الهَوۡلِ وتَقۡريبِه، ولتأكيد مَعۡنى القُرب، وكأنَّ يوم القيامَةِ ماثلٌ أمامَ السَّمع والبصر، والملائكة قد نَصَبَت الموازين، والخلائق تَصۡطَفُّ، والنِّداء يُجَلۡجِلُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾(3).

دلالة التَّعبير بتركيب ﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾:

الفصلُ شعارُ السّورة، وهو محلُّ تأمُّلٍ لذوي البَصيرة

كُرِّر التَّعبير بتركيب ﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾: هنا بعد تقدُّمه في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [المرسلات: 13،14] في ثلاثة مواضع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 439.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 441.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 181، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 239.

مِن السّورة المباركة: "لتأكيدِ وُقوعِه، ولتَوْبيخِهم على إنكاره"[1]، ولترسيخ مبدأِ العَدالة الإلهيَّة، وهو المبدأ الذي تقوم عليه السّورة من أوّلها إلى آخرها؛ ممّا يبعث في النَّفس الرَّهبةَ العَظيمةَ والهَيْبَة الشَّديدة من ذلك اليوم، الذي "يُفْصَلُ فيه بين الخلائق، ويتميَّز فيه الحقُّ من الباطل، فيؤتى كلُّ عاملٍ جزاءَ عَمَلِه من ثواب وعقاب، ويُفصَل بين العباد بعضِهم مع بعض، فيُقتصُّ مِن الظّالم للمظلوم، وتُردُّ له حقوقُه"[2].

معنى التَّعريف ودلالتُه في قوله: ﴿ٱلْفَصْلِ﴾:

تعيينٌ للمَوْعودِ وتعظيمٌ للمَشْهودِ

جاء التَّعريف في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، أي: الفصل المعهود الذي لا يَدَعُ مثقال ذرَّة، في اليوم الذي وُعِدوا به، وعُرِف في أذهانهم من كثرة ما سَمِعوه من الرُّسل والكتُب السّابقة، وأيضًا فإنَّ هذا التَّعريف يُضْفي على اللَّفظة تفخيمًا وتعظيمًا؛ إذ إنَّه يوحي بأنَّ هذا اليوم هو يومُ الفصلِ الحقيقيّ الكامل المشهود، وكأنَّ كلَّ فصْلٍ سِواه لم يكن فصلًا، وهو كذلك.

ويمكن أن يكونَ التَّعريفُ للاستغراق؛ لشمول كلِّ صور الفَصْلِ والتَّمييز والعدل والحُكم والقضاء، فهو يومُ الفصل بين الخلائق، الذي يفصِلُ اللّه فيه بحُكمه العادل بين السُّعداء والأشقياء.

علَّة فصْلِ قولِه تعالى: ﴿جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ عن سابقه:

التَّقريرُ والبيانُ لتحقُّقِ فصل القضاءِ بينَ الثَّقلين

فُصِل قوله تعالى: ﴿جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ عن سابقه؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، فإنَّ ذِكر الجمع بعد الفصل هو "بيانٌ للفصل بأنَّه الفصلُ في النّاس كلّهم لجزاء المحسنين والمسيئين كلّهم، فلا جرم جُمِعَ في ذلك اليوم الأوَّلون والآخرون، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 239.
(2) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 550.

[الواقعة: 49 - 50]"[1]؛ "إذ الفَصْلُ بينَ المحقِّ والمبطل والرُّسل لا يستحقُّ إلّا بجَمْعِ الكلِّ، فلا بدَّ مِن إحضارهم لا سيَّما عند مَن لا يُجَوِّز القضاء على الغائب"[2].

"فجملة ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ مفسِّرة موضِّحة لقولِه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾؛ لأنَّه إذا كانَ يوم الفصل بين السُّعداء والأشقياء، وبين الأنبياء وأُمَمِهم؛ فلا بدَّ مِن جَمْعِ الأولين والآخرين حتَّى يقعَ ذلك الفَصْلُ"[3].

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ الماضي في ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾:

يُسْرُ جَمْعِ الخَلائقِ يومِ القيامَةِ على الله تعالى

أوثر التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ في مقام الحديث عمّا سيقع في المستقبَل، وهو (الجمع)؛ لإفادة التَّحقُّق، والدِّلالةِ على أنَّ الحدثَ واقعٌ لا محالة[4]، فكأنَّه سبحانه يقول: لقد وقع الجَمْعُ، وانتهى أمره، وقد تمّ ذلك في حُكْمِ اللّه تَعالى وقضائه، وهذا أدخَلُ في التَّرهيب وأوقع في النَّفس، وفيه دلالةٌ على أنَّ جمع الخلائق أمرٌ على اللّه سُبحانَهُ يسيرٌ، فهو في ميزان القدرة الإلهيَّة مُنْتَهٍ لا يتأخَّرُ.

والمعنى: "هذا هو يومُ الفصلِ الذي كنتُم به تكذِّبون، لقَد وقَعَ، فلا مناصَ لكم منه، ولا مخرجَ لكُم مِن البلاء الذي أنتُم مُلاقوه فيه، وقد التَقَيْتُم فيه بمَن سبقَكم مِن المكذِّبين قبلَكُم، الذين ضُرِبتْ لكُم الأمثالُ بهم في الدُّنيا، فلم تَنْتَفِعوا بها، ولم يكُن لكُم فيمَن سَبَقَكُم عبرَة"[5].

بلاغَةُ حذفِ القولِ في قولِه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

حذف القَوْلِ لمفاجأة السّامع ومعايشة الموقف بلفظٍ جامع

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مقولُ قولٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 779.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 344.
(4) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 388.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1406.

محذوفٍ[1]، وأصل الكلام: ويُقال لهم: هذا يوم الفصل؛ للإشعار بحضور الموقف وسُرعة المفاجأة، وأيضًا فإنَّه ينقل السّامعَ مِن عالَم التَّلقّي إلى عالَم المشاهدة: عينِ اليقين، فيعيش رهبَةَ الخِطاب.

نكتَةُ العُدول عن (جمعناكم فيه) إلى النَّظم المتْلوّ:

عُدولٌ لتعظيمِ الفِعْلِ وتعميمِ الجَمْعِ

عُدِل بقوله: ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عن مقتضى الظّاهر: (جمعناكم فيه)؛ لبيان عاقبة الكفر والتَّكذيب؛ فإنَّ كُفّار مكَّة الذين خوطِبوا بهذه الآياتِ قَد ساروا على سَنَن مَن كان قبلهم مِن المكذِّبين مِن قوم نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ والذين مِن بعدهم الذين قالوا: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، فجَمَعَهُم الله تعالى مَعَ أسْلافِهم ليُريَهُم جميعًا صدقَ ما كانت الرُّسل تُخبرهم به وتحذِّرهم منه، وهو ما أُشير إليه في أوَّل هذه السّورة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، فيجمع الله تعالى المكذِّبين في النّار أفواجًا: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: 8 - 9]، فيُلْقَوْنَ فيها هُم وأسلافُهُم الذين هُم على شاكِلَتِهم مِن الأُمم السّابقة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: 38]، وهذا مِن جملة العذاب النَّفسيِّ الرّوحانيِّ فوق العذابِ البدنيّ.

توجيهُ عودِ الضَّمير في ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾:

عـودُ الضَّـميرِ للمبالَغة في التَّحذير

المعنيّون بضمير الخِطاب في قوله تعالى: ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ هم "المشركون الذين سبق الكلامُ لتَهْديدِهم، وهم المكذِّبون بالقرآن؛ لأنَّ عطف ﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على الضَّمير يمنع مِن أنْ يكون الضَّمير لجميع المكذِّبين مثل الضَّمائر التي قبله؛ لأنَّ الأوَّلين مِن جملة المكذِّبين،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 344.

فلا يقال لهم: ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فتعيَّن أن يختصَّ بالمكذِّبين بالقرآن، والمعنى: جمعناكُم والسّابقين قبلَكُم مِن المكذِّبين"[1].

وعَوْدُ الضَّمير في ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ إلى المخاطَبين يُبرز المواجهةَ المباشرةَ، ويُضاعِف التَّهديدَ، ثمَّ يُتبَع بذِكْرِ الأوَّلين لتَعْميمِ الوَعيدِ وإحاطَةِ الجَمْعِ.

دلالة التَّعبير بالجَمْعِ دون غيره:

الجمع تَضامٌّ وتلاحُم، وكثرةٌ وتزاحُمٌ

الجَمْعُ يدلُّ على تضامِّ الشَّيء[2]، والمعنى المحوريُّ: تضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا أو تلاحُمًا أو تراكُمًا[3].

وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بهِ في قوله تعالى: ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للإشعار بتزاحُم الخَلْق وكثرتهم في ذلك اليوم المَهيب العظيم، فكأنَّك ترى أمواجًا مِن البَشَر متراصَّة في مشهدٍ عجيبٍ، وموقفٍ رهيبٍ، وفيه إشارةٌ إلى الضَّمِّ قبل التَّفريق، ممّا يدلُّ على عظمة القدرة الإلهيَّة.

معنى الواوِ ودلالتِها في قوله: ﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

واوُ العَطفِ لتوسيعِ الجَمْعِ والوَصْفِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ "عاطفة، أو للمعيَّة، و(الأوَّلينَ) معطوف على الكاف أو مفعولٌ معَه"[4]، وقد جيء بها لإفادة أنَّ الموقف لا يقتَصِر على قوم دون قوم، بل يشمل الخلقَ كلَّهم مِن الأوَّلين والآخرين، كما أنَّها تُشعِر المُخاطَبين مِن المشركين بأنَّهم بُعِثوا، وحُشِروا، وأوقِفوا للحساب هم وأسلافُهم الذين ظنّوا كما ظنَّ المخاطَبون أنَّهم لن يُبعَثوا، وأنَّهم إلى اللّه تَعالى لا يُرجَعون، فلمّا كان الجُرم واحدًا؛ كان العقاب كذلك جزاءً وفاقًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 1/ 479.
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/ 335.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 344.

فتخويفُهم بهذه الآيات - وهم في الدُّنيا - وتذكيرُهم بالأمم السّابقة يحمِلُ تحذيرًا مِن مصيرٍ مماثلٍ؛ إنْ هم أصرّوا على عنادهم واستكبارهم وتكذيبهم، وهذا نحو قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فُصِّلت: 13].

نكتةُ ذِكْرِ (الأوَّلِينَ) هنا بعدَ تقدُّمه في ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

تكريرُ الأوَّلـين؛ لتقريرِ الهلاكِ والحشرِ بيقينٍ

جاء ذِكْرُ (الأوَّلينَ) في موضِعَيْنِ مِن السّورة: أحدهما: في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والآخَرُ: في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

فأوَّل الموضعين كان في الهلاك والاستئصال؛ لبيان ما حلَّ بهم في الدُّنيا، أمّا الموضع الآخَر؛ فلِبَيان مصيرهم ومآلهم يوم القيامة، فلا هُم في الدُّنيا نجَوا، ولا في الآخرة فازوا، ولا شيءَ أشدُّ مِن ذلك في الزَّجر والوعيد والتَّهديد لِمَن سار على خُطاهم، واتَّبع سَنَنهم مِن المخاطَبين مِن كفّار مكَّة ومَن بَعْدَهُم ممَّن اعتقد مُعْتَقَدَهُم من الملاحدة.

فالحاصِلُ أنَّ هذا التَّكرار لهذه اللَّفظة بعَيْنِها ربَطَ بينَ مشهَدِ الهلاك ومشهد الجَمْع، فحين يسمَعُ المخاطَب (الأوَّلينَ) تقرَعُ أذنَه مرَّةً أخرى، يتذكَّر وُرودَها قريبًا في السّورة؛ إذ بيَّنت ما حلَّ بأولئك الأوَّلين من الهلاك، فيزداد الموقفُ رهبةً، وتذكيرًا بالعاقبة، كما أنَّه يرسِّخ معنى الإحاطة والاقتدار، وأيضًا فإنَّ التَّكرارَ هنا مناسِبٌ لِنظام التَّكرار الذي بُنِيَت عليه السّورة، وهو الذي مِن شأنِه أن يرسِّخ المعانيَ في الأذهانِ.

معنى (الفاء) ودلالتُها:

ترتيبٌ وتفريعٌ؛ لتصعيدِ التَّهديدِ والتَّشنيعِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾؛ لتفريع التَّحدّي على الجمع، وتصعيد التَّهديد بعد البيان؛ إذ إنِّها تدفع السّياق إلى ذروة التَّهكُّم والتَّحدّي، وأيضًا "لتوبيخ الحاضرين على

ما يكيدون به للرَّسول ﷺ وللمُسْلِمين"[1]، أي: بعد أن تمَّ الجَمْعُ، وظَهَرَ العَجْزُ، وبانَ المَصير، فإنْ كان ثَمَّ لكُم حيلَة؛ فأظْهِروها الآن؛ إن استطعتُم.

نكتة التَّعبير بحرف الشَّكِّ (إنْ):

تشكيكٌ في القدرة البشريَّة وتَجْليَةٌ للعظَمَة الإلهيَّة

جيء بحرف الشَّكِّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾؛ للدَّلالة على نفي قُدرة الكافرين المكذِّبين على فِعْلِ شيء في هذا اليوم العظيم، وكذا "للتَّوبيخ والتَّذكير بسوءِ صنيعهم في الدُّنيا، والتَّسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذٍ؛ إذ مُكّنوا مِن البحث عمّا عسى أن يكون لهم مِن الكيد، فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك؛ فقد سُجِّل عليهم العَجْزُ، وهذا مِن العذاب الذي يعذَّبونه؛ إذ هو مِن نوع العذاب النَّفسانيِّ، وهو أوقع على العاقل مِن العذاب الجسمانيِّ"[2].

فحاصل المعنى: "إنْ قدرتُم على أن تتخلَّصوا مِن قبضتي، وتنجوا مِن حُكمي، فافعلوا، فإنَّكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى في سورة الرَّحمن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ٣٣﴾ [الرَّحمن: 33]"[3].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَكُمْ﴾:

الأصل في معنى (اللّام) أنَّها موضوعةٌ للدَّلالة على الاختصاص[4]، وهي هنا بهذا المعنى، أي: لتخصيص المخاطَبين، والمعنى: إن كان لكُم أنتُم خُصوصًا كَيْدٌ؛ فهو كيدٌ مقصودٌ مِن قِبَلِكم ومخصَّصٌ لكم، وهذا يزيد مِن وقع التَّهديدِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 388.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النحو: 3/ 64.

نكتَةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة على المُسْنَدِ إليهِ في ﴿لَكُمْ كَيْدٌ﴾:

زيــــــادة في الـتَّـخـويـف، وإيـقـاعٌ للشَّكِّ عـلـى كـيـدهـم الضَّعيف

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿لَكُمْ﴾ على المسند إليه ﴿كَيْدٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾؛ لتأكيد الاختصاصِ المُستَفادِ مِن اللّام في ﴿لَكُمْ﴾، فالمخاطَبون قد ملؤوا الأسماع والأبصار في الدُّنيا، وقد عظُم كيدُهم للنَّبيِّ ﷺ وللمسلمينَ ومكرُهم بهم، وقد أعْجَبَتْهُم قوَّتُهُم، وغرَّهم حِلْمُ اللّه تعالى عليهم، فاليومَ لا يَستَطيعونَ فِعلَ أيِّ شيء، لا دفعَ العذابِ عَن أنفُسِهم، ولا تخفيفَه، ولا تَحْويلَهُ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿كَيْدٌ﴾:

جيء بلفظ ﴿كَيْدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ منكَّرًا؛ للتَّحقير مِن شأن كيدِهِم هذا، وأيضًا لإفادة الشُّمول، أي: فإن كانت لكُم أدنى حيلةٍ في الخلاص مِن العذاب؛ فاحتالوا، وأنقِذوا أنفُسَكُم مِن بَطْشِ اللّه تعالى وانتِقامِهِ؛ إنْ قدرتُم.

معنى (الفاء) ودلالَتُها في ﴿فَكِيدُونِ﴾:

تـشـنـيـعٌ على المـكـذِّبـين؛ لكيدِهِم لأولياءِ الـلـه تـعـالى المؤمنين

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ[1]، وفيها معنى التَّعقيب بلا مُهْلَةٍ، أي: إن كان لكم أدنى كيدٍ؛ فهاتوهُ، ولا تتمهَّلوا، وفي هذا تقريعٌ لهم على كيدهم للمؤمنين في الدُّنيا بما مكّنهم به مِن الأسباب، وتنبيهٌ على أنَّه مَن آذى وليَّه؛ فقد آذنه اللّه تعالى بالحربِ[2].

الغرضُ مِن الأمر ﴿فَكِيدُونِ﴾:

أمـرٌ للتَّعجيز وإظـهـارِ عـدم المَقْدِرَة؛ لإحكامِ الـجَـزاء وإبـرازِ الهَيْمَنَةِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَكِيدُونِ﴾؛ لتَعْجيز هؤلاء الكافرين وتَوْبيخِهِم[3] "على كَيْدِهِم للمؤمنين في الدُّنيا، وتخجيلٍ لهم بأنَّهم كانوا في الدُّنيا يدفعون الحقوق عن أنفُسِهم، ويُبْطِلون حقوق النّاس

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 344.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1406.

بضروبِ الحيل والمكايد والتَّلبيسات، فخاطبهم اللّه حين علموا أنَّ الحيل منقطعةٌ والتَّلبيساتِ غيرُ ممكنةٍ بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾؛ لِما ذُكر مِن التَّقريع والتَّخجيل، ولإظهار عَجْزِهم عن الكيد، فإنَّ مثل هذا الكلامِ لا يتكلَّم به إلّا مَن تيقَّن بعَجْزِ مُخاطَبِه عمّا هو بصددِه"[1].

وهو "مِن جنس العذابِ الرّوحانيِّ، فلهذا قال عقيبَه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾"[2].

بلاغةُ جناس الاشتقاق بين ﴿كَيۡدٞ﴾، و﴿فَكِيدُونِ﴾:

جناسٌ في المبنى لتعزيزِ المَغْزى

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ جناسُ الاشتقاقِ بين ﴿كَيۡدٞ﴾، و﴿فَكِيدُونِ﴾؛ لإحداث تناغمٍ بين اللَّفظين المتقابلين، ولتعزيز المعنى المراد، وهو المبالغة في نفيِ الكيدِ عَنْهُم يوم القيامَة؛ إعلامًا بأنَّ كيدَهُم الذي قدروا عليه في الدُّنيا بإذن اللّه تعالى، قد رُدَّ عليهم في الدُّنيا فما قدروا على إطفاء نورِ اللّه تَعالى، وهاهم أولاء يعاقَبون بهذا الكيد في الآخرة؛ إذ جُرِّدوا مِن كلِّ مُلك وسُلْطانٍ وقُدْرَةٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَيْد والمكر:

الكيدُ أقوى مِن المكر

الكيد أقوى من المكر؛ إذ المَكْرُ: هو التَّدبيرُ الخَفيُّ لإلحاق الضَّرر بالآخَر، ولا يعلم ذلك الممكورُ به، فلو قال له: أقدِرُ أن أفعل بك كذا؛ لم يكُن ذلكَ مكرًا، وإنَّما يكون مكرًا؛ إذا لم يُعلِمه به، والكيد: اسمٌ لإيقاعِ المكروهِ بالآخَر قَهْرًا، سواءٌ أعَلِمَ به أم لم يعلَم؟ والشّاهد قولكَ: فلان يُكايِدُني؛ فسُمّي فعلُه كيدًا، وإن عَلِمَ به[3].

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 289.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 779.

(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259، 260، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 6/ 34، 10/ 169، 170.

وأوثِر لفظُ (الكيد) دون (المكر)، في قول اللّه ﷻ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾؛ لأنَّهم في الدُّنيا كانوا يَكيدون للرَّسول ﷺ وللمسلمين، ويتجرَّؤون بإعلانِ الحربِ عليهم بما مكَّنَهم اللّه تَعالى مِن الأسباب، فالمعنى في الآية: فإنْ كان لكم كيدٌ اليوم، كما كان لكم في الدُّنيا؛ فافعلوه[1].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 682، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 167، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 277، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21 181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 442.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢
كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٤٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾ [المرسَلات: 41 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلَها:

مِــن وعــيــد المكذِّبين إلى ذِكْرِ ظِـلال المتَّقين؛ ينتَقِلُ البيانُ في حُسْنٍ وتبيين

بعد أن بيَّن اللّه تعالى ما يحلُّ بالكافرين مِن ألوانِ النَّكالِ والهوان؛ أعقبَه بذِكْرِ ما يكون للمؤمنين مِن السَّعادة والكرامة والامتنان، فانتقل النَّظمُ مِن سوادِ النّيران إلى إشراقِ الجِنان، ومِن زمهريرِ الوعيد إلى أنسامِ الرِّضوان؛ لتَتضاعَفَ حَسْرَةُ الكافر، وتتزايد غمومُه وهمومُه على ما ضيَّع في الزَّمن الغابر، وهذا مِن جنس العذاب النَّفسيِّ، والهوان الرّوحانيِّ؛ ليتجلَّى عدلُ اللّه تَعالى في الجزاء، وفضلُه في الإنعامِ والعطاء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظِلَٰلٖ﴾: أصل (ظلل) يدلُّ على سَتْرِ شيءٍ لشَيْءٍ، وهو الذي يُسَمَّى: الظِّلَّ[2]، والظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِ البارز للشَّمس، وهو أعمُّ من الفيء، فإنَّه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشَّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس[3]، وأظَلَّني فلانٌ: حَرَسَني، وجعلني في ظلِّه وعزّه ومناعته[4].

وظِلٌّ ظَليلٌ: فائضٌ، والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ، وهي الجبال، وهي السَّحاب أيضًا[5]، واللَّيلُ كُلّه ظِلٌ، وإذا أسْفَرَ الفَجْر؛ فمن لَدُن الإسْفار

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 779 - 780، والقنّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 332، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1738.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (ظلل).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلل).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلل).

إلى طُلوع الشَّمس كُلُّه ظِلّ، وظِلُّ اللَّيل: سوادُه، وكلُّ شَيْء أظلَّك؛ فهوَ ظُلَّة[1]، والظّلالُ أيضًا: ما أظَلَّك من سحابٍ ونحوه[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾، أي: جمع ظلٍّ، وهي ظِلال الشَّجر[3].

2) ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أصل (هنأ) يدلُّ على إصابةِ خير من غير مشقَّة[4]، يُقال: هَنُؤَ الطَّعامُ يَهْنُؤُ هَناءةً، أي: صار هنيئًا، وكذلك هَنِئَ الطَّعامُ، مثل فقِه وفَقُهَ[5]، والهَنيءُ: كلُّ ما لا يلْحَقُ فيه مشقّة، ولا يعقب وخامَة[6]، وأصله في الطّعام، يقال: هَنِئَ الطّعامُ؛ فهو هَنيءٌ[7]، يقال: أكلْنا من هَذا الطَّعام حَتَّى هَنِئْنا مِنْهُ، أي: شَبِعنا[8]، ويُقال: هنأني خيرُ فلانٍ، أي: كانَ هَنيئًا بغَيْر تَبِعة ولا مَشَقّة[9]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: خالِصَ اللّذة لا يشوبُهُ تَنْغيصٌ[10].

المَعنى الإجْماليُّ:

جـزاءُ أهـل التَّقـوى والإحسانِ جنّاتُ النَّعيم، وجزاءُ أهلِ الشَّقاءِ والعِصْيان نارُ الجحيمِ

يُخْبِرُنا اللهُ ﷻ في هذا النَّظْمِ القرآنيِّ المباركِ عن حال عبادِه المتَّقين الَّذين امْتَثَلوا أوامِرَهُ، واجتنبوا نواهيَه؛ فاسْتَحقّوا بذلك هذا النَّعيمَ الدّائم المتمثِّل في ظِلال الأشجار الوارفَة، وأنهار المياه العذبَةِ الجارية، وثمار الجنَّة الكثيرة المتنوِّعة ممّا يستلذّون.

واستحقّوا كذلك أن يُقال لهُم على سبيل التَّشريف والتَّكريم: كُلوا أيُّها القومُ أكلًا لذيذًا، واشربوا شُربًا سائغًا لا تكديرَ عليكُم

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (ظلل).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ظلل).
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هنأ).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (هنأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (هنأ).
(7) الرّاغب، المفردات: (هنأ).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (هنأ).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (هنأ).
(10) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 385.

فيهِ ولا تَنْغيصَ؛ بسبَبِ ما قدَّمتم في الدُّنيا من صالِحِ الأعمال، وإنّا بمِثْلِ هذا الجزاء العظيم سَنَجْزي، ونُثيبُ أهلَ الإحسان في أعمالِهِم وطاعَتِهِم لَنا.

أمّا هؤلاء المكذِّبون بيوم الدّين؛ فليس لهم إلّا الهلاكُ والدَّمار الدّائم؛ لإيثارهم المتاعَ الفاني في الدُّنيا على النَّعيم الباقي في الآخِرَة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصْلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

فَضلُ النَّعيمِ عنَ الجحيمِ تجليَةٌ للبَوْنِ العَظيمِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن سؤال مقدَّر، دعت إليه الآيات السّابقة، التي فيها ذِكْرُ أحوال المكذِّبين، وما أُعِدَّ لهم مِن سوء العذاب المُهين، فكأنَّ سائلًا سأل عن حال غيرِ المكذِّبين بعد ما سَمِعَ حال المكذِّبين؛ فأُجيب ببيان حالِ المتَّقين[2].

"ويجوز أن يكون هذا ختامَ الكلام الذي هو تقريعٌ للمُشْركين، حُكي لهم فيهِ نعيمُ المؤمنين الذي لا يُشاهِدُهُ المُشْرِكونَ لبُعْدِهِم عن مكانِه، فيُحكى لهم يومئذٍ فيما يقال لهم؛ ليكون ذلك أشدَّ حسرةً عليهم وتنديمًا لهم على ما فرَّطوا فيه ممّا بادَرَ إليه المتَّقون المؤمنون، ففازوا، فيكون هذا مِن جملة القَوْلِ الذي حُذِف فِعْلُهُ عندَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ويجوز أن يكون هذا ابتداءَ كلام مستأنَفٍ؛ انتُقل به إلى ذِكْرِ نعيم المؤمنين المتَّقين تنويهًا بشأنهم، وتعريضًا بترغيب مِن المشركين الموجودين في الإقلاع عنه؛ لينالوا كرامَةَ المتَّقين"[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 611 - 612.
(2) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 170.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443.

نُكتَة تَصْديرِ الجُملة بـ ﴿إِنَّ﴾:

صُدِّرت جملَةُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ لتؤكِّد الخبرَ[1]، ولتقرّرَه في نفس السّامع بعد ما سَمِعَ مِن الوعيد والتَّهديد، فكأنَّها تقول: إنَّ المتَّقين في نعيم مقيم دون ريبٍ أو شكٍّ، فتواجِه بذلك إنكارَ المُنْكِرين وتكذيبَ المُكذِّبين.

معنى التَّعريفِ ودلالَتُه في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

تـخـصـيـصٌ لأهْلِ التَّكرمة، وإشــادةٌ بعُلوِّ المَنْزِلَة

جيء بقَوْلِه تَعالى: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ معرَّفًا بـ(الـ) الجنسيَّة لاستغراقِ جميعِ أفْرادِ جِنْسِ المتَّقين، فتصدُقُ على كلِّ مَن اتَّصف بالتَّقوى في أيِّ زمانٍ ومكانٍ[2]، في إشارة إلى أنَّ علَّة التَّكريم هي التَّقوى التي هي امتثالُ أوامرِ اللّه تعالى واجتنابُ نواهيه[3].

فالمتَّقون هم الذين "يجعلون بينهم وبين كلِّ ما يُغْضِبُ اللّه وقايةً ممّا يُرضيه؛ لعراقَتِهم في هذا الوصف يومَ القيامة"[4].

نكتةُ حذف متعلِّق التَّقوى:

التَّقوى شاملةٌ لكلِّ فعلٍ عظيمٍ ولـكـلِّ وصـفٍ كريمٍ

حُذِفَ متعلِّق التَّقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾؛ لإفادة التَّعميم ولتفخيم شأن التَّقوى، فتشمل كلَّ ما ينبغي اتِّقاؤه مِن سخط اللّه تَعالى ومعاصيه في أيِّ وجهٍ كان، وأيضًا فإنَّه يجعل التَّقوى شاملةً لفِعْلِ كلِّ محبوبٍ للّه تعالى، واجتناب كلِّ مكروهٍ له سُبْحانَه، فلا تُقيَّد بشيءٍ دون آخَر، وهذا مِن بديع الإطلاق في مقام المَدْحِ.

مَعْنى ﴿فِى﴾ ودلالَتُها في قولِهِ تَعالى: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾:

تمكُّنٌ واستِقْرارٌ في جنّات القَرارِ

الأصل في الحرفِ ﴿فِى﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[5]، وهي بهذا المعنى

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 386، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 182.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

في قوله تعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾[1]، "وهي ظرفيَّة حقيقيَّة بالنِّسبة للظِّلال؛ لأنَّ المستظلَّ يكون مظروفًا في الظِّلِّ، وظرفيَّة مجازيَّة بالنِّسبة للعُيون والفواكه؛ تشبيهًا لكثرةِ ما حولَهُم مِن العيون والفواكِهِ بإحاطَةِ الظُّروف"[2].

وقد أوثر التَّعبيرُ بحرفِ الظرفيَّة ﴿فِي﴾؛ ليُفيدَ التَّمكُّن والثَّبات والاندماجَ في النَّعيم، لا مجرَّد المرورِ أو الظَّرف العارض، أي: إنَّهم مستقِرّون غارقون في ظلالٍ وارفةٍ، وعيونٍ جاريةٍ، حتَّى كأنَّ الظِّلال والعيونَ تَحْتَويهِم احتواءً، لا يَخْرُجون عنها طرفَةَ عينٍ.

نكتَةُ تنكير ﴿ظِلَٰلٖ﴾ و(عُيونٍ) و(فَواكِه)، ودلالَةُ جَمْعِها:

تنكيرُ اللَّفظ شاهِدٌ بسَعَةِ المعنى، وجمعُهُ ناطِقٌ بشُمولِ دلالاتِ المَبْنى

جاءت الألفاظُ الثَّلاثة: ﴿ظِلَٰلٖ﴾ و(عُيونٍ) و(فَواكِه) نكراتٍ؛ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم، أي: ظلال عظيمة، وعيون غزيرة، وفواكه ليسَت كأيِّ فاكهَةٍ عرفَها النّاسُ، فنعيم الجنَّة لا يُحَدُّ ولا يوصَف، فقد تناهى في العظمَةِ والفخامة.

وجاء التَّنكير أيضًا؛ لإفادة التَّكثير والتَّنوُّع، فالمعنى: ظلالٌ مِن كلِّ لونٍ، وعيونٌ من كلِّ مورد، مِن ماءٍ وعسَلٍ ولبَنٍ وخَمْرٍ، كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمَّد: 15]، وفواكهُ مِن كلِّ طعمٍ وشكلٍ، وذلك كما قال سبحانه: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمَّد: 15]، وكما قال ﷻ: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ [الواقعة: 20]، وقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢﴾ [الواقعة: 32]، فالتَّنكيرُ هنا يفتَحُ أبوابَ الخيال أمامَ العَقْلِ البشريِّ؛ ليتصوَّر ما شاء مِن صور النَّعيم[3].

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443.
(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 389 - 390، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 241 - 242.

ومجيءُ الجمع في الألفاظ الثَّلاثة فيهِ إشعارٌ بالكثرةِ والسَّعة، أي: إنَّ نعيمَهُم ليس موضعًا واحدًا ولا نوعًا واحدًا، بل جنّاتٌ تتعدَّد مظاهرُها وألوانُها(1).

تَوْجيهُ قولِهِ تَعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ بينَ الكِنايَةِ والمَجاز:

مُتْعَةٌ حسّيَّة ومعنويَّة لأصحابِ المَقاماتِ العَليَّة

قولُهُ تعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٖ﴾ "كنايةٌ عَن راحَتِهِم العُظمى؛ لأنَّ الظِّلَّ للرّاحة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: 57] ونحوه، وإنّما ذَكَرَ اللهُ الظِّلَّ تشويقًا للقلوب؛ لأنَّ مِن البلاد ما هي حارَّة قليلةُ المياهِ والأشجار والظِّلال"(2)، أو الظِّلال "كناية عن تكاثُفِ أشجار الجنَّة، كقولِهِم: زيدٌ طويلُ النِّجاد، بمعنى: طويل القامَة؛ وإن لم يكُن لَهُ نِجاد، وإلّا فلا شَمْسَ حتّى يُتَصوَّر الظِّلُّ"(3).

وأمّا ذِكر العيون؛ "فكنايَةٌ عن وُجود أرضٍ تتفجَّر فيها هذه العيون، وكلُّ ذلك كناية عن الجنَّة التي أعدَّها الرَّبُّ ﷻ لسُكْنى المتَّقين الخالدين فيها يوم الدّين، ولسُكنى الأبرار والمحسنين، فهم متَّقون وفوق المتَّقين، وظاهرٌ أنَّ استخدامَ هذه الكنايات هو من أساليب البيان غيرِ المباشر، وهو مِن أساليب البُلَغاء الرَّفيعة"(4).

ويجوز أن يكون ذِكر الظِّلال والعيون مجازًا مرسَلًا علاقته المحلّيَّة، وهي الجنَّة؛ لأنَّ الظِّلال تمتدُّ، والعيونَ تجري، والفواكهَ تكون فيها ناضِجَة(5).

دلالَةُ التَّعبير بالجُمْلَةِ الاسميَّة في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾:

قرارٌ دائمٌ لا يَزولُ، ولا شيءَ دونَه يَحولُ

الجملَةُ الاسميَّة تُفيدُ بأصْلِ وضْعِها ثبوتَ شيءٍ لآخر ليس غيرُ،

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 197، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 188، وعبد اللَّطيف الخطيب، أوضح التَّفاسير: 1/ 727.

(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 289.

(3) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 169.

(4) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 605 - 606.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 346، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 209.

دون نَظَرٍ إلى تجدُّد ولا استمرار[1]، وقد تخرُجُ عن هذا الأَصْلِ، وتفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَبِ القَرائن؛ إذا لم يكُن في خَبَرِها فعلٌ مُضارِعٌ، وذلك بأن يكونَ الحَديثُ في مَقام المَدْح، فسياق الكلام في معرض المدْحِ دالٌّ على إرادة الاستمرارِ مع الثُّبوت[2]، ومِن ذلك سياق هذه الجملةِ، فقد سيقَت الجملة الاسميَّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾؛ للدِّلالة على الثُّبوت والاستقرار، فالمعنى: إنَّ نعيمَ المتَّقين ثابِتٌ دائِمٌ غيرُ مُنْقَطِعٍ، فليس هو حالًا عابرة أو ظَرْفًا مؤقَّتًا، بل قرارٌ دائمٌ لا يزول.

بلاغَةُ المقابلة بين ظِلِّ المكذِّبين المجرمين، وظِلال المتَّقين المُحْسِنين:

يا بُعد ما بينَ اللهب والجحيم، ووارِف الظِّلِّ والنَّعيم

جمعت السّورة بين ظلّين متقابلين: ظلِّ المجرمين في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، وظلِّ المتَّقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾؛ إبرازًا لعَدْلِ الله سُبْحانَه الكامل، وإظهارًا للمفارقة بين الظِّلَّين؛ ذلك أنَّه "لمّا بَعَثَ الكفّار ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾؛ أعَدَّ في مقابلته للمؤمنين ثلاثَةَ أنواعٍ من النِّعمة: أوَّلها: قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، كأنَّه قيل: ظلال المكذِّبين ما كانَت ظَليلَةً، وما كانت مُغْنيَة عن اللهب والعَطَش، أمّا المتَّقون؛ فظِلالُهُم ظَليلَة، وفيها عيونٌ عذبَةٌ مُغْنيَة لَهُم عنِ العطش، وحاجزة بينَهُم وبين اللهب، ومعهم الفواكهُ التي يَشْتَهونَها، ويتمنَّونها"[3].

فقوله سُبحانه في وصْفِ نعيم المتَّقين: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، أي: "لا كما تقدَّم مِن ظلِّ الدُّخان، ولا يُشْبِهُها أعلى ظلٍّ في الدُّنيا ولا أحسنه إلّا بالاسم، ودلَّ على أنَّها على حقيقتِها بقوله: ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ لأنَّها

(1) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(2) الهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 67، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 779.

تكون عنها الرّياضُ والأشجار الكبارُ، ودلَّ أيضًا على أنَّ ذلك الظلَّ المتشعِّب للتَّهكُّم بما ذُكِرَ بعدَه مِن أوصافِ النّار؛ فهذه العُيون تُبرِّد الباطن، وتُنبِت الأشجارَ المظلَّة، كما أنَّ اللهب يحرُّ الظّاهر والباطن، ويُهلِك ما قرُب منه مِن شجر وغيره، فلا يُبقي، ولا يذر"[1]، فمَن اتَّقى؛ أُظِلَّ بظلال الرَّحمة، ومَن كذَّب؛ أُظِلَّ بظلال اللهب.

دلالَةُ عطفِ (فَواكِهَ) على سابِقِه:

مُـتْـعَـةُ الجنَّة شامِلَةٌ، والحياة فـيـهـا خـالـدة كاملَةٌ

يُرادُ بالفواكِه: "ما يُتَفكَّه به ممّا تطلبُه أنفسُهم وتستدعيه شهواتُهم، فمتى اشتَهَوا فاكهة؛ وجدوها حاضرةً، فليست فاكهةُ الجنَّة مقيَّدةً بوقتٍ دون وقتٍ، كما في أنواعِ فاكهة الدُّنيا"[2].

وعَطْفُ (فَواكِهَ) على قوله: ﴿فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ مِن باب الجَمْع بين نعيم الظِّلِّ والماء، ونعيم الطَّعام واللَّذَّة؛ إذ إنَّ الله سُبْحانَه "لمّا ذكر العيونَ؛ أتبعَها ما ينشأ عنها، فقال دالًّا على أنَّ عَيْشَهُم كلَّه لذَّة: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾"[3].

معنى (مِن) و(ما) ودلالَتُهما في ﴿مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾:

إنـعـامٌ مِـن غير قَيْدٍ، وأخْذٌ مِن غير إحصاءٍ ولا عَدٍّ

الأَصْلُ في معنى (مِن) أنَّها موضوعةٌ؛ للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وهو في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ للتَّبعيض، وهذا التَّبعيضُ "مِن أصناف الشَّهوات لا مِن أصناف الفواكه؛ فأفاد أنَّ تلك الفواكهَ مضمومَةٌ إلى ملاذَّ أخرى ممّا اشتَهَوه"[5]، والتَّبعيض آيِلٌ أيضًا إلى معنى ابتداءِ الغاية؛ لأنَّه قد جُعِلَ الاشتهاءُ بداية التَّنعُّم بالظِّلال والعيون والفواكه، فيدلُّ على أنَّ هذه الأشياءَ لا تخرُجُ بحالٍ عنِ الاشتهاء، فهي مِن أوَّلها إلى آخرها مستطابَةٌ مُشتهاة.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 182.
(2) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 183.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443.

وأمّا (ما)؛ فموصولة بمعنى (الذي)[1]، وقد سيقَت لإبهام المَقْصودِ وإفادة عموم المُتْعَةِ؛ إذ لم يردِ البيانُ القرآنيُّ: مِن فواكه كذا وكذا، بل عمَّم؛ ليدلَّ ذلك على كلِّ ما يشتهونه، لا يحدُّه نوعٌ ولا لونٌ.

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارِع ﴿يَشۡتَهُونَ﴾:

شهوةٌ تتجدَّدُ وإنْعامٌ غيرُ محدَّد

عُبِّر بالمضارع ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدُّد والاستمرار، فهو بخلاف الماضي الذي يدلُّ على التَّحقُّق والثُّبوت، وقد جيء بالمُضارِع هُنا؛ ليُصوِّر حالًا حيَّةً دائمةَ الحركة، كأنَّ الشَّهوة تتجدَّد والنَّعيم يتجدَّد معها، "فمتى اشتهَوا فاكهة؛ وجدوها حاضرة، فليست فاكهة الجنَّة مقيَّدة بوقت دون وقت، كما في أنواع فاكهة الدُّنيا، فيقول اللّه تعالى لهم: كلوا مِن الثِّمار، واشربوا مِن الأنهار"[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَشۡتَهُونَ﴾:

حرارةُ الاشتِهاءِ تُبرِزُ عِظَمَ العَطاءِ

حقيقةُ الشَّهوةِ: رغبَةٌ حادَّة شديدةٌ في مرغوبٍ بدنيٍّ[3]، وأصلُها: نزوع النَّفسِ إلى ما تريدُهُ[4]، "وتأتي في سياق المحسوسات، مِن الأطعمة، والأشربة، والمال، والأولاد، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، وقد تكون الشَّهوةُ مذمومةً أو محمودةً"[5]، وهي هنا محمودةٌ بلا شكٍّ، فالحديثُ عَن تنعُّم أهلِ النَّعيم في الجنَّةِ.

وقد أوثر الفعلُ ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ على غيرِه للتَّعبير عن تلذُّذهم وشدَّة رَغْبَتِهم، "وفيه إشعارٌ بأنَّ المآكل والمشاربَ في الجنَّة بحسَبِ شَهَواتِهم"[6]، "فيتناولونها لا عن جوعٍ وامتلاءٍ، بل عن شهوةٍ وتلذُّذٍ،

(1) محمود صافي، الجدول: 15/ 208، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 304.
(2) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 594.
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهو).
(4) الرّاغب، المفردات: (شهو).
(5) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.
(6) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 169.

والحاصلُ أنَّهم مستقِرّون في فنون التَّرفُّه وأنواع التَّنعُّم خلاف ما عليه مُخالِفوهُم"[1]، الذين ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: 54].

علَّةُ الفَصْلِ:

نداءُ تكريمٍ بَعْدَ وصفِ النَّعيم

فُصِلت جملة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن سابقتها؛ إيذانًا بالانتقال مِن وصف النَّعيم إلى نداء الإكرام، ومِن عرض الجزاءِ إلى مُباشَرَته، فكان الفَصْلُ عنوانَ تشريفٍ ومقامَ تكريم، والمعنى: (ويقال لهم على سبيل الأُنس والتَّكريم: كلوا أكلًا لذيذًا، واشربوا شربًا هنيئًا)، "على وجه التَّفكُّه والتَّلذُّذ لا لحفظ الصِّحَّة؛ فإنَّها حاصلة بدونه"[2].

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الغَيبة إلى الخِطابِ في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾:

مِن غَيبةِ الثَّناء إلى خِطابِ التَّبشير بالعطاءِ

التُفتَ مِن الغَيبة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى الخِطاب بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾؛ لتَصويرِ المَشْهَد، وكأنَّ النَّعيم صار حاضرًا، وصار أهلُه يُنادَون به نداءَ المكرَّمين، فبعد أن كان الحديثُ عنهم وصفًا لنعيمهم؛ صار إليهم خطابًا لتكريمهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، وهذا التَّحوُّل المفاجئ يوحي بأنَّهم قد أُدخلوا الجنَّة، وتوجَّه إليهم الخطابُ الإلهيُّ أو نداء الملائكة بالتَّمكين مِن النَّعيم.

نكتةُ حذفِ فِعْلِ القَوْلِ مِن ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾:

إبهامُ القائلِ لتَفْخيمِ المقالِ وتَسْريعِ بيانِ النَّوالِ

قولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ، وهذا المقولُ في محلِّ نَصْبٍ على الحالِ مِن ضميرِ المتَّقين في متعلّق الخبرِ ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، أي: هُم مستقرّون في ظـلالٍ مقولًا لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، أي: بما كنتُم تَعْمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمال الصّالحة[3].

"والمقصودُ مِن ذلك القولِ كرامتُهم بعَرْضِ تناول النَّعيم عليهم،

---

(1) الخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 467.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 183.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 82، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 345.

كما يفعَلُهُ المُضيف لضيوفِه"[1]، "والقائل لهم الملائكةُ إكرامًا لهم، أو يقال لهم مِن قِبَل اللّه تَعالى"[2].

وحُذِف فِعْلُ القولِ؛ اهتمامًا بالمَقولِ والمقول له، وتفخيمًا للمقالِ، وأيضًا ليَشْعُرَ كلُّ مؤمنٍ يقرأ هذه الآياتِ أنَّها تخاطِبُه هو بلا واسطة، بخلاف ما لو قيل: يُقال لهم كلوا... فإنَّه يردُّها إلى المَقولِ لَهُم، وفي هذا ترغيبٌ شديد في الإيمان والتَّقوى والعمل الصّالحِ.

الغرَضُ مِن الأمْرِ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾:

رضًا تامٌّ، وتكريمٌ وإنعامٌ

قولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ ظاهره أمرٌ بالأكل والشُّرب، لكنَّ المقام مفيدٌ أنَّه ليس أمرَ تكليفٍ ولا طلبَ فعلٍ، بل هو أمرُ تشريفٍ وتنعيمٍ ورضًا، كما هو شأن الخطاب لأهل الجنَّة[3].

كما أنَّه يحمِل معنى الطَّمأنة للمؤمنين وإزالةِ خَوْفِهم مِن زوال النَّعيم؛ إذ إنَّ قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ إعلانٌ عَمَليٌّ عن نَيْل الثَّواب، والمعنى: "كلوا أيُّها الأبرار مِن هذه الفواكه، واشربوا مِن هذه العيون كلَّما شئتُم أكلًا هنيئًا خالصَ اللَّذَّة، لا يشوبُه سقم، ولا يكدِّره تنغيص، وهو دائمٌ لكم لا يزول، ولا يورثكم أذًى في أبدانكم؛ جزاءً بما عَمِلتُم في الدُّنيا مِن طاعة اللّه، واجتهدتُم فيما يقرِّبكم مِن رضوانه"[4].

دلالَةُ عطْفِ الشُّرب على الأكلِ:

اكْتِمالُ صورَةِ الرّاحة والنَّعيم الخالِصِ

عُطِف الشُّرب على الأكل في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ إعلامًا بكمال النَّعيم وشموله؛ إذ إنَّ الأكل والشُّرب هما قُطْبا النِّعمة الجسديَّة ومِلاكُ التَّمتُّع الماديِّ، فالأكل وحدَه لا يُغني عن الشُّرب، ولا الشُّرب يُغني عن الأكل، فعُطف الشُّرب على الأكل؛ لتَكْتَمِلَ صورة الرّاحة والنَّعيم الخالص، وفيه تصويرٌ لوفرة النَّعيم وتعدُّده، فليس

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 443.
(2) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 780.
(4) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 189.

النَّعيمُ مقتصرًا على نوعٍ واحِدٍ، بل يمتدُّ إلى كلِّ ما يتلذَّذ به الجسَدُ، وتستلذُّه النَّفس، فكأنَّ الآية تقول: تمتَّعوا بجميع ما تشتهيه الأنفُسُ، فذلك جزاؤكُم الكامِلُ، "فكُلوا مِن نِعَم الجنَّة وثمراتها، واشربوا مِن مائها وشَرابها؛ أكلًا وشربًا هنيئًا سائغًا رافهًا، بلا داء ولا تُخمة؛ بسبب ما كنتُم تعمَلونه في الدُّنيا مِن الأعمال الصّالحة، خصوصًا الصّيامَ"[1].

نُكتة حذفِ مَعْمولِ الأكْلِ والشُّرب:

إطلاقٌ في النَّعيم ومبالغةٌ في التَّكريم

حُذِف معمولُ الأكْلِ والشُّرب في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾، فالأصْلُ أن يُقال: كُلوا مِن ثِمارِ الجنَّة، واشْرَبوا مِن أنهارِها، واكتُفي بالفِعْلَيْن مجرَّدين للعلم بالمفعولِ، وليدلَّ على الإطلاقِ والعُموم في النَّعيم، وليفتح خيال السّامع على غيرِ حدٍّ ولا نوعٍ، وليوجِز اللَّفظ في سلاسةٍ وهُدوءٍ؛ ليناسِب ذلك مقام الرِّضا والهناء، فالمَعْنى: "تناولوا جميع المآكِل على وجْهِ التَّفكُّه والتَّلذُّذ لا لحِفْظِ الصِّحة؛ فإنَّها حاصِلَةٌ بدونِه، واشْرَبوا مِن جميع المشارِب كذلكَ؛ فإنَّ عيونها ليسَت مِن الماء خاصَّةً، بل مِن كلِّ شرابٍ أكلًا وشربًا"[2].

بلاغةُ الكِنايَةِ في قولِه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾:

قولُه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ كنايةٌ عن الخلود في النَّعيم ودوام الرّاحة؛ لأنَّ المقصودَ ليس الفعلَ ذاتَه، بل ما وراءه مِن نعيمٍ وسرورٍ واطمئنانٍ، فالخطابُ يُفهَم منه: تمتَّعوا بنعيمكم الدّائم، فقد أمِنتم المنعَ والحرمان، وهو الخلودُ في النَّعيم.

نكتَةُ تقييدِ الأكْلِ والشُّرب بقولِه تَعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾:

سلامتُهم مِن المنغِّصات والمكدِّرات؛ زيادة في التَّكريم والعطاءات

قُيِّد الأمرُ بالأكل والشُّرب في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ بصفة (الهَنَأ)، وهو "ما لا يلحَق فيه مشقَّة، ولا يعقبه وخامَة"[3].

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 290.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 183.

(3) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 170، والجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 594، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 905.

وقد جيء بهذا التَّقييد؛ للتَّنبيه إلى أنَّ النَّعيم الدُّنيويَّ قد يُخالِطه كدرٌ أو تلحَقُ به مشقَّة، أمّا نعيمُ الآخرة؛ فهو خالٍ مِن المنغِّصات، دائمٌ لا يزول[1]، وفيه إظهارٌ لكمالِ النِّعمة، وإيماءٌ إلى الأمْنِ النَّفسيِّ الكامل، فلا يَخاف أهلُ الجنَّة مَرَضًا ولا حرمانًا، فكأنَّ لفظة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ تُترجم معنى الطُّمأنينة الأبديَّة في صورةٍ لفظيَّةٍ موجزةٍ.

معنى (الباء) و(ما) ودلالَتُهما:

شـمـولٌ في الجَزاء، وجلالٌ في العَطاءِ

الأصل في معنى (الباء) أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على الإلصاقِ حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وهي في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّببيَّة، أي: لإفادة تسبُّب ما بعدها في وقوع متعلِّقه، أي: كلوا واشربوا بسبَبِ ما كنتُم تعملون في الدُّنيا مِن الأعمال الصّالحة، وذلك مِن إكرامهم بأنْ جُعِلَ ذلك الإنعامُ حقًّا لهم[3].

وفيه النَّصُّ على أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سببٌ في تمتُّعهم بنعيم الجنَّة في الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]، ولا يُنافي هذا ما جاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ: «ما مِنْكُمْ أحَدٌ داخِلُ الجَنَّةَ بعَمَلِه»[4]؛ إذ الدُّخول بفضلٍ مِن الله تعالى، والعملُ الصّالحُ سببٌ، أو يُقال: إن الباءَ في الآية سببيَّةٌ، وفي الحديث باءُ العِوضِ، فافتَرَقا.

ففي اختيار الباء دون غيرها إشارةٌ إلى اتِّصال السَّبب بالمسبَّب اتّصالًا وثيقًا؛ فكأنَّ العمل الصّالح قد صار وسيلةً مباشرةً لهذا النَّعيم، لا مجرَّد شرطٍ له، وهذا أبلغُ في تصوير

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 183.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 444، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 434، والقَنّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 345.

(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (5673)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2816)، وأحمد في مسنده، برقم: (10123) واللفظ له.

عدل اللّه تَعالى وإكرامه؛ إذْ جُمِع بين الفَضْلِ والجزاء في أوجز لفظٍ وأحسن عبارة.

وفي السَّببيَّة معنى الإلصاق أيضًا، فكأنَّه جعل الثَّواب ملاصقًا للعَمَل، بدايةً مِن تعجيل البُشْرى به لهؤلاء المتَّقين في الدُّنيا، وساعة يوافون ربَّهم ﷻ فيُحشَرون إليه وفدًا، إلى دخولهم الجنَّة مكرَّمين متمتّعين.

وأمّا (ما)؛ فتَحْتَمِلُ ثلاثَةَ أوجُهٍ:

الأوَّل: أن تكون مصدريَّة تُؤوَّل مع الفِعْلِ بعدَها بمَصْدَرٍ صريح، فالمعنى: كُلوا، واشْرَبوا هنيئًا؛ بسبَب عَمَلِكُم الصّالح الذي عملتموه، وتكون فيها إشارة إلى أنَّ العمل الصّالح هو السَّبب المباشر للنَّعيم، فارْتَبَط الجزاءُ بالعمَلِ ارتباطَ العلَّة بالمعلول، وكأنَّ النَّعيمَ ثمرةُ الغرسِ الذي غَرسوهُ في الدُّنيا.

والثّاني: أنَّها موصولة بمعنى (الذي)[1]، أي: كلوا واشربوا هنيئًا؛ بسبب الذي كُنتم تعملونه في الدُّنيا مِن الأعمال الصّالحة، ويكون فيها إشارةٌ إلى أنَّه لا بدَّ مِن صلاح العمل لدخول الجنَّة، فلو لم يكن صالحًا، أو افتقد شرطًا مِن شروط القبولِ؛ فهو مردودٌ على صاحبه.

والثّالث: أنَّها نكرةٌ موصوفَةٌ بمَعْنى (شيء)، أي: كلوا، واشربوا هنيئًا؛ بسبب شيءٍ كنتم تعملونه، ويكون فيها إشارةٌ إلى تعظيم العمل الصّالح، وأنَّ القليلَ منه - مع الإخلاص والمتابعة وتفضُّل اللّه تعالى بالقبول - كافٍ بعد رحمةِ اللّه تعالى في دخول الجنَّة.

نكتة التَّعبير بفِعْلِ الكون ماضيًا في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الـدَّوامُ عنوانُ الإكرامِ

عُبِّر بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل:

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 345.

بما تَعْمَلون، أو بما عَمِلْتُم؛ لإفادة أنَّ عملهم الصّالح لم يكن طارئًا ولا عابرًا، بل كان سجيَّةً ملازمةً لهم وحالًا دائمة في الدُّنيا، فكأنَّه يُقالُ لهم: "بجِبِلّاتكم التي جَبَلْتُكم عَلَيْها"(1).

وقد جيء به ماضيًا؛ لإفادة التَّحقُّق والثُّبوت، فكأنَّ المعنى: هذا النَّعيم الذي تَنْعَمون فيه الآنَ هو جزاء أعمالٍ قد أدَّيتموها في الدُّنيا، وأيضًا فإنَّ فيه إشعارًا بتحقُّق الفضل واستقرارِه.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، ودلالةُ مجيء فِعْلِهِ مضارعًا:

استـمـراريَّـة الـفعـل عـنـوانُ الإقبال والفَضْلِ

عُبِّر بالمسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة تقوية الحُكم وتوكيده؛ اهتمامًا بالخبَر، وتعريضًا بالمشركين الذين كانوا مِن المؤمنين يَضْحَكون، وباتوا بهم يَسْتَهْزِئون، فهذه أعمالُهُم قد تقبَّلها اللّٰه تعالى، وأدخلهم بها الجنَّة.

والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليّ تقويةَ الحُكم، هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه - التّاء في ﴿كُنتُمۡ﴾ - ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به - واو الجماعة - العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمنزلة التَّعبير بجُمْلَةٍ فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحُكْمُ، ويثبُتُ في الذِّهن(2).

وتَجْري هذه الصِّياغة في المقاماتِ التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير، مثل الاهتمام بالخبَر، ومواجهة الشَّكِّ والإنكار لدى المخاطَب، وردِّ الدَّعاوى والشُّبهات، وغير ذلك مِن مقامات التَّقوية والتَّقرير، وهي كثيرةٌ لا تُحصَى(3).

وقد جيء بالفِعْلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ لإفادة الاستمرار

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 183.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، ص: 125.

(3) محمَّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 220.

والتَّجدُّد، فهو يُصوِّر حالَهُم في الدُّنيا على أنَّها كانَت موصولةً بالعَمَلِ الصّالح دائمًا، فكأنَّهم كانوا كلَّ يوم في عملٍ صالحٍ جديدٍ، وفيه أيضًا استحضارُ الحدَثِ الغابر، كأنَّه واقعٌ الآنَ أمامَ العَيْنِ، فهو يُحْيي صورةَ الماضي في ذِهْنِ السّامع؛ ليُذكِّره بما كان سببًا في هذا النَّعيم، وهو العملُ الصّالح الذي هَداه ربُّه إليه، وأعانَهُ عليه.

علَّةُ فصْلِ قولِه تَعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عن سابِقِه:

الفَضلُ لأجْلِ التَّعليل؛ لإبراز تفضُّل المَولى الجليلِ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عن سابِقِه؛ لأنَّه "تعليلٌ للأمْرِ بالأكْلِ والشُّرب، أي: إنَّ ذلك دَيْدَنُنا ودأْبُنا نُكافئُ المحسِنَ على إحسانِهِ، كما نجزي المسيءَ على مساءته"[1].

فهي جملةٌ في إجابة سؤالٍ مقدَّر ناشئٍ عن سبب الأمرِ التَّشريفيّ لهؤلاء المتَّقين بالأكل والشُّرب والتَّنعُّم، فجاء الجوابُ: لأنَّ عادة الرَّبِّ المنّان مكافأةُ أولي التُّقى والإحسان، فيكون بين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصالِ.

نُكتة تصدير الجُملة بحرف التَّوكيد المقرونِ بنونِ العظَمَة ﴿إِنَّا﴾:

عنايةٌ إلهيَّةٌ لأصحابِ الرُّتَبِ العليَّة والأعمالِ المرضيَّة

صُدِّرت جملة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بحرف التَّوكيد؛ لإفادة الاهتمام بالخبَر[2]، ولجَعْلِ الكلام قطعيًّا، وقطع كلِّ احتمالٍ للشَّكِّ في وعدِ اللّه تَعالى للمُحْسِنين بالجزاء.

وأمّا أسلوب التَّعظيم فيها؛ فلإبراز العِنايَةِ الإلهيَّة بشأن جزاءِ المُحْسِنين، أي: نحن بما لنا من العظمَةِ[3] "نُعْطي مثلَ هذا الجزاء الطَّيّب للمؤمنين، الذين أحسَنوا أقوالَهم وأفعالهم، وصانوا أنفُسَهُم عن كلِّ ما لا يُرْضينا، هذا هو جزاء المتَّقين المحسنين"[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 345.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 444.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 184، والخطيب الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 467.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 242.

بلاغةُ التَّشبيه في ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

تشبيهُ الجزاءِ بالمُشاهَد لبيان عِظَم المَشاهِد

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ للتَّشبيهِ لإفادة المماثلة، أي: مثل ذلك الجزاء الذي أُعطي للمتَّقين مِن الظِّلال والعيون والفواكه والنَّعيم والكرامة نَجْزي كلَّ محسنٍ في كلِّ زمانٍ ومكان[1].

وفي التَّشبيهِ تحويلُ الخبرِ إلى مشهدٍ بصريٍّ محسوسٍ يُرى؛ إذ إنَّه لم يُكتَفَ بوصف المعنى المجرَّد، بل رُبِطَ بصورةٍ حاضرةٍ أمام المخاطَب، فكأنَّه يُقال: تأمَّلوا ما شاهدتُموه مِن النَّعيم، فهكذا نَجْزي كلَّ محسنٍ مِن عبادي، وأيضًا فإنَّ فيه نوعًا مِن المقابلة اللَّطيفَة، فالكافُ تَشي بأنَّ الجزاءَ جاءَ على قَدْرِ العمَلِ إحسانًا بإحسانٍ وإتقانًا بإتقانٍ.

نكتَةُ التَّعبير باسْمِ الإشارَة للبَعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تفخيمٌ وتعظيمٌ للمقامِ السّامي الكريمِ

الإشارة بـ (ذَلِكَ) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ "إلى النَّعيم المُشاهد إنْ كانت الجملةُ التي فيها إشارةٌ موجَّهةً إلى المتَّقين، أو الإشارة إلى النَّعيم الموصوف في قوله: ﴿فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾؛ إنْ كانت الجملةُ المشتملَةُ على اسْمِ الإشارَةِ موجَّهةً إلى المكذِّبين"[2].

وقد جيء بِهِ للبَعيد؛ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم[3]، وبيان بُعْد المنزلَةِ ورِفْعَة المقام؛ وأيضًا فإنَّ فيه إيماءةً إلى أنَّ ما سبَقَ ذِكْرُه مِن نعيم المتَّقين مرتبةٌ عاليةٌ ساميةٌ لا تُنال إلّا بإحسانٍ عظيمٍ.

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على المُسْنَدِ ﴿نَجۡزِي﴾:

تقديمُ المثالِ لإبرازِ الكَمالِ

قُدِّم شبه الجملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على المُسْنَدِ ﴿نَجۡزِي﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للاهتمامِ بتَمْثيلِ الجَزاء وتَثْبيتِه في

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 184، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 189، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن التَّربيُّ الجامع: 12/ 241.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 444.

(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22.

الذِّهن، ولإلقاءِ الضَّوء على مضمونِ العَطاء الإلهيِّ قبل الإفصاح عن فاعله.

نكتة التَّعبير بالمسند ﴿نَجۡزِي﴾ فِعْلًا مضارعًا:

جـزاءٌ متـجدِّدٌ وعطاءٌ متمدِّدٌ

عُبِّر بالمسند فعلًا مضارعًا ﴿نَجۡزِي﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد الجزاء واستمراره، فهو لا يقتَصِرُ على واقعة واحدة، أي: إنَّ جزاء المحسنين سُنَّةٌ جاريةٌ دائمةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لا حادثة عابرة تخصّ قومًا بعَيْنِهم، فالتَّعبير بالفعل المضارعِ يُشيع في النَّفس حياةَ الفِعْلِ ودوامه، كأنَّ الجزاءَ يتجدَّد آنًا بعد آنٍ، ولمحسِنٍ بعد مُحْسِنٍ.

سرُّ التَّعبير بالجزاءِ دون الإثابة ونحوِها:

تعبيرٌ بالجزاء؛ لبيان العدالةِ المَصْحوبَةِ بالفَضْلِ في العطاء

تدور معاني مادَّة (جزي) حول قيام الشَّيء مقامَ غيرِه ومكافأته إيّاه، فالجزاءُ: ما فيه الكفايَةُ من المقابلة، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، أمّا الثَّواب؛ فتدورُ معانيهِ حول العَوْدِ والرُّجوع[1].

وقَد اختيرَ الفِعْلُ ﴿نَجۡزِي﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الجزاء الإلهيَّ عدلٌ مقرونٌ بفضلٍ، فهو جزاءٌ على الإحسان، جاء أوسعَ منهُ وأعظمَ وأكرم. فالمعنى: "مِثل هذا الجزاء الحسن العظيم نكافِئُ ونَجْزي المحسنين بلا بَخْسٍ ولا نقصٍ"[2].

وفي ذلك ترغيب عظيم للمخاطَبين بأن يُحسِنوا العمل؛ لينالوا حُسنَ الجزاء مِن ربِّ العالمين، فهل جزاء الإحسانِ إلّا الإحسانُ؟.

معنى التَّعريف ودلالتُه في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

تـعـيـينُ أهـلِ الرِّضا والهَناء، الـحـائـزيـن لـلـتَّـكـريـم والعطاءِ

يجوز أن يكونَ التَّعريف في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ للجنس، فتفيد (الـ) فيه استغراقَ أفرادِه، ويكونَ المعنى: كذلك نجزي كلَّ مُحسِن في كلِّ زمان ومكان[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (جزي)، و(ثوب).

(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1738.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 82، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 386، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 552.

ويجوز أن يكون للعَهْدِ الذِّكْريِّ الكنائيِّ، والمرادُ أولئك المُحْسِنون الموصوفون في هذا السّياق خصوصًا، الذين تقدَّم ذِكْرُهُم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، فكأنَّ المعنى: إنّا نجزي هذا الجزاء مِن الظِّلال والعيون والفواكه للمحسنينَ مِن هذا الصِّنف، الذين آمنوا، واتَّقوا، وأحسنوا، وهذا يُفيد الرَّبط الوثيق بين السِّياقيْن، ويُظهر أنَّ ما جرى ذكرُه مِن النَّعيم ليس خاصًّا بالمذكورين وحدَهم، بل هو قاعدة مطَّردة في جزاء كلِّ محسنٍ على شاكلتهم[1]، فالإحسان هنا مخصوص.

وهذان المعنيان متكاملان، فيُراد بالمحسنين كلُّ مَن اتَّصف بالإحسان، ويدخل فيه المذكورون مِن المتَّقين دخولًا أوَّليًّا.

نكتة التَّعبير باسم الفاعلِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الـــــدَّوام على الإحــــســــان؛ يـجـرُّ مـزيـدًا من الامتنان

أوثر التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لإفادة أنَّهم عريقون في الإحسان، وأنَّه صار سجيَّة راسخة فيهم[2]، يتكرَّر منهم، ويتجدَّد، فكأنَّهم مجبولون على الإحسان، يلازمهم ملازمةً تامَّةً، وهذا أليق بمقام الثَّناء والإكرام؛ لأنَّ الله تعالى لا يُجزل الجزاء على فعلٍ طارئٍ، بل على خُلُقٍ متأصِّلٍ وسيرةٍ متَّصلة.

نكتة وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

إظـهـارُ الاسـمِ لتعميمِ الحكمِ وتشريفِ السِّمَةِ

وُضع الظّاهر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضعَ المضمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يقال: كذلك نجزيكم؛ ليكون ذلك "مدحًا لهم بصفة الإحسان، مع الإشعار بعلَّةِ الحُكم"[3]، وبيان أنَّهم أُكرِموا بهذه الكرامة العظيمة؛ لأنَّهم محسنون، أحسنوا العملَ، فحسُن جزاؤهم.

(1) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 170.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 184.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 197.

دلالة التَّعبير بالإحسان دون العمل:

عُبِّر بلفظ الإحسانِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ دون غيره، "فلم يقل: نجزي العاملين، ممّا يُشعِر بأنَّ الجزاء إنَّما هو على الإحسان في العمل لا مجرَّد العمل فقط؛ إذ إنَّ الغاية مِن التَّكليف، إنَّما هي الإحسان في العمل"[1]، وهو تجويده، وإتقانه، وإخلاصه، ومتابعة الرَّسول ﷺ فيه، وعبادةُ اللّه تعالى على مَرْتَبَتي المُشاهدَة والمُراقبَة، وهو أن يَعْبُدَ المُؤمنُ ربَّهُ تعالى كأنَّه يراه، فإن لم يكن العابد يرى ربَّه، فإنَّ ربَّه ﷻ يراهُ.

إيثارُ الإحسانِ لإظهارِ الإتقانِ والإخلاصِ في الميزان

نكتة حذف متعلّق الإحسان:

حُذِف متعلِّق الإحسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لإفادة التَّعميم والإطلاق؛ ليعمَّ كلَّ إحسانٍ كان؛ إحسانهم في عبادة ربِّهم، وإحسانهم في معاملة خَلْقه، وإحسانهم في السِّرِّ والعلن، وإحسانهم في القول والعمل، فالمعنى: كذلك نجزي المحسنين في كلِّ وجهٍ مِن وجوه الإحسان، لا في نوعٍ واحدٍ منه، وهذا الإطلاق أبلغ في مدحِهم وأوسعُ في الوعد.

إطلاقُ الإحسانِ؛ لإشاعة الوعد والرِّضوان

وأيضًا فإنَّ الإحسان في ذاته مرتبةٌ جامعة تشمل سائر الطّاعات والمكارم، فهو ليس صفةً جزئيَّة تحتاج إلى متعلَّق، بل هو غاية الغايات في العبوديَّة والسُّلوك، قال النَّبيُّ ﷺ في تعريفه: «أنْ تَعْبُدَ اللّه كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ؛ فإنَّهُ يَراكَ»[2]، فجاء حذف المتعلِّق؛ إشارةً إلى كمال هذه المرتبة، فالمحسِن مُحسنٌ بإطلاق، أينما كان وأيًّا كان فعله، وأدَّى أيضًا هذا الحذفُ إلى الإيجاز ورعايةِ الفاصلَة.

سرُّ مغايرة التَّعبير بين التَّقوى في أوَّل المقطع، والإحسان في آخره:

بدأ السِّياق بذكر التَّقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ

مِن عَمَلِ الوِقاية إلى عَمَلِ الرِّعاية

(1) عطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 404.
(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (50)، ومسلم في صحيحه، برقم: (9).

﴿وَعُيُونٍ﴾، وهي مقام الاحتراز والرَّهبة، وانتهى بذكر الإحسان في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهو مقام الإقبال والمحبَّة والمراقبة؛ ليُمثِّلا معًا سُلَّم الارتقاء الرّوحيِّ، فكان في ذلك ترقٍّ في ذِكْرِ درجاتِ أهل الإيمانِ.

فائدة ذِكر وعيد المكذِّبين بعد ذِكر ثواب المتَّقين المحسنين:

نـال الطائعون الثَّوابَ الجزيل، وبقي المكذِّبون في العذاب الوبيل

ذُكر وعيد المكذّبين بعد ذِكر ثواب المتَّقين المحسنين؛ لإظهار تمام المفارقة بين العاقبتين، فبعد أن بيَّن الله تعالى نعيمَ المتَّقين المحسنين وهناءَهم؛ أعقب ذلك بذِكر ضدِّه مِن شقاء المكذِّبين وعذابهم؛ لزيادة المعنى وضوحًا في النَّفس، وتقوية أثر الموعظة، وأيضًا فإنَّه يحمل معنى التَّعريض بأنَّ حرمانهم مِن مثل ذلك النَّعيم إنَّما هو بما قضوا به على أنفسهم؛ إذْ أبَوا أن يكونوا مِن المحسنين تكملةً لتنديمهم وتحسيرهم الذي بودِئوا به مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى آخره[1].

فحاصل المعنى: أنَّ الذين خافوا ربَّهم في الدُّنيا، واتَّقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يومَ القيامة في ظلال الأشجار الوارِفَة، وعيون الماء الجارية، يتنعَّمون في دار الخلدِ والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذِّبين، الذين هم في ظلٍّ مِن يحموم، وهو دخان جهنَّم الأسود الذي لا يقي حرًّا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظلُّ به ممّا يشتهيه لراحته سوى شرر النّار الهائل، وهو "مِن جنس العذاب الرّوحانيّ بالنِّسبة إلى الكافرين حين يرون الذين اتَّقوا الشِّركَ في النَّعيم المقيم"[2].

فذِكر ثوابِ أهل الإيمانِ بعد ذكر عذاب أهل الكُفرانِ يُرادُ به

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 444.
(2) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 333.

التَّحسير، وفيه "إثارةُ الحسد الذي يأكل قلوبَهم، إن كان ثمَّة بقيَّةٌ لم تأكلها نارُ جهنَّم"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجزاء والثَّوابُ والأجرُ:

الـجـزاءُ فيه مَعنى الغَناء والكِفايةِ، والأجْرُ يَختَصُّ بما كان خيرًا، والثَّواب خاصٌّ بالمنافِعِ الأُخْرَويّة

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعنَيَيْن: الكِراء على العمل، وجَبْرُ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[2].

وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإنْسان من جَزاء عملِه[3].

وأمّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[4].

والفَرْقُ بينَها[5]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دون الضّرِّ، ويتضمَّن معنَى المعاوضةِ.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء فهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمَل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخْرَويَّة.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1407.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(4) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).
(5) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

وآثر البيانُ القرآنيُّ لفظَ الجزاءِ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لدلالَتِهِ على الغَنَاء والكفاية، وهو أليَقُ بمَعْنى الإحسان؛ إذِ الإحسانُ عملٌ زائدٌ على مُطْلَقِ الامْتِثال، فناسبَهُ جزاءٌ يُكافئه، أي: يَستَوْفي قَدْرَ الإحسان، ويليقُ بعلوِّ مكانَتِهِ ومرتبته.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسَلات: 46 - 50]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

درجات ثمَّ دركات؛ لبيان تفاوت الغايات

لَمّا بيَّن اللّه سبحانه أنواعَ السَّعادة والكرامة التي للمتَّقين المحسنين؛ وبَّخ اللّه تعالى الكفّار، وهدَّدهم بزوال نعم الدُّنيا في وقت قصير، وتعرُّضهم للآفات العظيمة في الآخرة، ثمَّ ذكَّرهم بتقصيرهم في طاعة اللّه تَعالى، وإهمالهم فريضة الصَّلاة[1]، ثمَّ ختم السّورة بالتَّعجُّب مِن الكفّار، وبيَّن أنَّهم إذا لم يؤمنوا بهذه الأدلَّة اللَّطيفة مع تجلّيها ووضوحها؛ فبأيِّ حديث بعده يؤمنون[2]؟.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَدِيثٍ﴾: أصل (حدث) يدلُّ على كون الشَّيء لم يكن[3]، ومِنْهُ الحديثُ، وهو نقيض القديم، والحدوث: كونُ الشَّيء بعد أن لم يكن، عرضًا كان ذلك أو جوهرًا، وإحْداثه: إيجاده[4]، يُقال: أحدثهُ اللّه فحدث، وحَدَثَ أمرٌ، أي: وقع[5]، ويقال لكلّ ما قرب عهده: محدَث، فعلًا كان أو مقالًا، وكلّ كلام يبلغ الإنسانَ من جهة السّمع أو الوحي في يقظته أو منامه؛ يقال له: حديث، وسمّى تعالى كتابه حديثًا، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: 34]، والحديث: الطّريّ من الثمار[6]، والحَديثُ: الجديدُ من الأشْياء، والحَدَث من أحْداث

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 332، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 780.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدث).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (حدث).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (حدث).
(6) الرّاغب، المفردات: (حدث).

الدَّهْر: شِبْهُ النّازِلَة، والحَديثُ: الخبرُ، يأتي على القليل والكثير، ويُجمَعُ على أحاديثَ على غير قياس[1]، ورجُلٌ حِدْثٌ، أي: كثير الحديث[2]، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: بأيِّ خبرٍ يُخبر بالحقِّ، وينطِقُ بما كان وما يكون على الصِّدْقِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اختُتِمت هذه السّورة الكريمة بهذا الأمر، الذي يحمل التَّهديد والوعيد الموجَّه لكفّار مكَّة، وغيرهم ممَّن سار على دربهم في الكفر والتَّكذيب؛ إذ أمَرَهُم سُبْحانه في هذا النَّصِّ الأخير مِن السّورة الكريمة بالأكْلِ والشُّرب والاستمتاع بالدُّنيا وشهواتها الفانيَةِ مدَّةً قليلةً إلى مُنْتَهى آجالهم؛ لأنَّهم مشركون باللّه ﷻ مستحقّون للعذاب، واقع عليهِم هذا الهلاك الأبديُّ؛ بسبب كُفرهم وتكذيبهم للنَّبيِّ ﷺ، وبسبب أنَّهم كانوا إذا أُمِروا بالصَّلاة أو الخضوع للّه تَعالى؛ لا يُصَلّون، ولا يخضعون؛ ولهذا توعَّدهم المولى سبحانه بالهلاك والعذاب الشَّديد، ثمَّ خَتَمَ النَّصَّ الكريم مِن السّورة بهذا الاستفهامِ الذي يُفيد التَّعجُّب الإنكاريَّ مِن هؤلاء المشركين؛ لعدَم إيمانِهِم بما جاءَ في القرآن الكريم، وهو الكتابُ المبيِّن لكلِّ شيء، الواضح في أحكامه وأخباره، والمعجِز في ألفاظه ومعانيه، فبأيِّ شيء بعده يصدِّقون؛ إنْ لم يصدِّقوا به، وهو معجزةُ اللّه تَعالى الخالدةُ إلى قيام السّاعة[4]؟.

مَن تمتَّع بالقليل الفاني؛ خَسِر الكثير الباقي، ومن لم يصدِّق بالقرآنِ؛ فليس له إلّا الخسران

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصْلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ "استئنافٌ ناشِئٌ عن قوله: ﴿إِنَّا

ستَنْقَطِعُ عنهُم اللَّذّات، وتَبْقى عليهِم التَّبعاتُ

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (حدث).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حدث).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 555.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 308، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 553 - 556.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ إذ يُثير في نُفوس المكذِّبين المخاطَبين بهذه القوارع ما يكثر خُطورُه في نفوسهم مِن أنَّهم في هذه الدُّنيا في نعمة محقَّقة، وأنَّ ما يوعدون به غيرُ واقِعٍ، فقيل لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾"[1].

الغرض مِن الأمر في ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾:

إمهالٌ وإنذارٌ بأنَّ العاقبةَ هي النّار

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ "خطابٌ للكفّار بصيغة الأمْرِ على جِهَة التَّهديد، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فُصِّلت: 40]"[2]، "وهو مستعمَلٌ في الإمهال والإنذار، أي: ليس أكْلُكم وتمتُّعكم بلذّات الدُّنيا بشيءٍ؛ لأنَّه تمتُّعٌ قليلٌ ثمَّ مأواكم العذاب الأبديُّ"[3]، وذلك "بسبب أنَّكم كنتُم في الدُّنيا دأبكم الإجرام، والإصرار على الكفر والفسوق والعصيانِ"[4].

تعيينُ المُخاطَب بالأمْرِ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾:

تعيينٌ للخطاب لِبَثِّ روحِ الخَوْفِ والاضطرابِ

الْتُفِت بالخطابِ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ مِن الحديثِ عن المتَّقين ووصْفِ بعض ما سيكونون عليه مِن النعيم إلى مواجهة المكذِّبين، وهم ما زالوا في حياةِ الامتحان في الدُّنيا، وفيه فنّ التَّنقُّل في الخِطاب بين حياتَي الابتلاء والجزاء وهو مِن البدائع القرآنيَّة التي لم تُعرَف عند البلغاء قبل نزولِ القرآن، وفيه إشعارٌ لهم بأنَّهم تحت المراقبة الدّائمة، وبأنَّ تمتُّعَهُم بما يحبّون مِن الحياة الدُّنيا خاضِعٌ لقضاء اللّه وقدَرِه ضِمْنَ ظُروف امتحانِهم.

نكتَةُ عَطْفِ (تَمَتَّعوا) على ﴿كُلُواْ﴾:

متاعُ الدُّنيا سَهْلُ النَّوالِ سريعُ الزَّوال

عُطِف التَّمتُّع على الأكل في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾؛ للانتقال مِن الخاصِّ إلى العامِّ؛ إذ إنَّ الطَّعام

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 445.
(2) النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 174.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 445.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 242.

هو أوَّل أبواب اللَّذَّة والمتعة الدُّنيويَّة وأدناها، وأيضًا فإنَّه يُعَدُّ انتقالًا مِن الضَّروريِّ إلى الكماليِّ؛ إذ إنَّ الإنسان إذا توافرت عنده الضَّروريّات، وأوَّلها الطَّعام والشَّراب؛ طمَحَت نفسُه بعد ذلك إلى الوصول إلى باقي أنواع المُتَع التي في الدُّنيا، وقد جيء باللَّفظين؛ ليُعبِّرا عن أنَّ كلَّ ما قد تَطْمَعُ فيهِ نفسُ الإنسان، وتطمَحُ إليه زائلٌ وقَصيرٌ، وزائف وحقير، وقد يكون سَهْلَ النَّوال، لكنَّه وشيكُ الزَّوال.

نكتةُ حذفِ معمولِ الأكل، ومتعلّق التَّمتُّع:

الـحـذفُ للتَّعميم؛ بيانًا لضآلَةِ المَتاعِ الدُّنيويِّ الذَّميم

أوثر حذْفُ مَعْمولِ الأكْلِ ومتعلِّق التَّمتُّع في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾؛ لإفادة التَّعميم اختصارًا، وللإشارة إلى حقارَتِه، وأنَّه حريٌّ ألّا يُذكر، أي: "كُلوا مِن حطام الدُّنيا حيث شئتُم رغدًا واسعًا وافرًا، وتمتَّعوا بأمْتِعَتِها الكثيرة زمانًا قليلًا، فإنَّكم مُجْرِمون بالجرائم العَظيمَة، مؤاخَذون عليها بالآخرة في النَّشأة الأخرى بشُؤْم تَكْذيبِكُم بما أُمِرتم بتصديقِه"[1].

نكتة تقييد الأكل والتَّمتُّع بقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾:

قـلَّـة الـزَّمـان إخـطـارٌ بدناءة الـحـالِ وإنـذارٌ باقتِراب الزَّوال

قُيِّد قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ بقوله: ﴿قَلِيلًا﴾؛ "لأنَّ متاعَ الدُّنيا وزمانه قليلٌ؛ لأنَّه زائلٌ مع قِصَرِ مدّته في مقابلة مدَّة الآخرة، وذلك إلى منتهى آجالهم"[2]، "ولا يُؤْثِر ذلك على الباقي النَّفيسِ إلّا خسيسُ الهِمَّة"[3]، وبعد ذلك "لن يكون هناك تمتُّع وأكل إلّا مِن شجر الزَّقوم والحميم وغِسْلين"[4].

بلاغة الإدماج في ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾:

متاعُ المُجْرِمين زائِـفٌ وحقير، وعُمْرُه وإنْ طالَ قَصيرٌ

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ إدماجٌ، فأصل الكلام: كُلوا مِن لذائذ الدُّنيا، وتمتَّعوا بشهواتها الفانيَة، كما هو شأن البهائم التي

(1) النَّخجوانيُّ، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 476.
(2) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 22.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 185.
(4) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 241.

همُّها ملْءُ بطونها، ونَيْلُ شهواتها زمانًا قليلًا إلى منتهى آجالكم، وقد سيقَت هذه الصّورة للتَّعبير عن قِصَر المدَّة، التي يقضيها هؤلاء في النَّعيم الزّائل الزّائف مقابل نعيم المتَّقين الأخرويِّ الدّائم، وأنَّ حياتَهُم ما هي إلّا كحياةِ البهائم.

بلاغَةُ الكِناية في ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾:

تهديدٌ ووعيدٌ لِما وقَعوا فيه مِن الجُرم الشَّديد

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ "كنايةٌ عن ترقُّب سوءِ عاقبةٍ لهم، وقد وقع قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ موقعَ البيان لتلك الكناية، أي: كُلوا، وتمتَّعوا قليلًا الآن، وويلٌ لكم يوم القيامةِ"[1].

علَّةُ فصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ عن سابقه:

مَـن خـدعـه السَّرابُ الغرّار؛ حُـرِم عـيـشَ الأبرارِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ تعليلٌ للتَّهديد[2]؛ إذ علَّل التَّهديدَ المذكور في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ بإجرامهم؛ دلالةً على أنَّ كلَّ مجرم مآله هذا[3]، ثمَّ علله بعلَّة أخرى، وهي أنَّهم إذا قيل لهُم: صلّوا؛ لا يصلّون، واستُدِلَّ به على أنَّ الأمر للوجوب، وأنَّ الكفّار مخاطَبون بفروع الشَّريعة[4]، فكأنَّه إجابةٌ عَن سؤال مقدَّر ناشئ عن قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾، فالإجابة: أنَّهم مجرمون لا يصلّون، فيكون بين الجملتين شبهُ كمالِ الاتّصالِ.

بيانُ لازمِ فائدةِ الخبر: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾:

تهديدٌ ووعيدٌ، وإنـذارٌ بعذاب شديدٍ

قوله تَعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ "خبَرٌ مستعمَل في التَّهديد والوعيد بالسّوء، أي: إنَّ إجرامَكم مُهْوٍ بكُم إلى العذاب، وذلك مستفادٌ من مقابلة وصْفِهم بالإجرام بوَصْفِ المتَّقين بالإحسان؛ إذِ الجزاء من جنس العمل، فالجملة واقعة موقعَ التَّعليلِ"[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 446.
(2) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 170.
(3) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 594.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 197.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 446.

نكتةُ تصديرِ الجُمْلَة بـ (إنَّ):

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ الموجَّه لمُشْرِكي قُريش وكُفّارها وغيرهم مِن الكُفّار تهديدًا بـ (إنَّ)؛ للتَّوكيد على أنَّه لا بدَّ مِن وقوع العذاب بهم يوم الفصل؛ لأنَّهم كانوا ينكرون وصفهم بالإجرام(1)؛ ولذا فقد أُكِّد الخبَرُ لردِّ إنكارهم أنَّهم مجرمون(2).

الرَّدُّ الأكيدُ عَلى إنْكارِ كَوْنِهِم مُجْرمينَ

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة دونَ الفعليَّة في ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾:

عُبِّر بالاسميَّة دون الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾؛ لبيان ثُبوتِ صِفَةِ الإجرام لهم، واستقرارها في نفوسهم، كأنَّها جبلَّة وسجيَّة فيهم، فمعنى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾: أنَّ الإجرام صفةٌ ثابتةٌ فيكم، راسخةٌ في ذواتكم الخبيثة، لسيت بعارضةٍ ولا بطارئة عليكم، وهذا ممّا يقتضي المبالغةَ في التَّوبيخ والزّيادة في الإنكار(3).

امتلأت بحُبِّ الإجرام قُلوبُهُم؛ فانطفأ نورها، وعَميَت أبصارُهم

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾:

جاء لفظ ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾ نكرةً للتَّحقير والاستهانة، أي: أنتم مجرمون حقيرون لا يُعرف لكُم قَدْرٌ ولا وزن، شأنكم شأن كلِّ مَن تجرَّأ على اللّٰه تعالى بالتَّكذيب والعصيان، فادْخُلوا في أممٍ قد خلت مِن قبلكم، قد سَبَقوكُم بمثيل جُرمكم.

تهويلُ الجُرمِ وتحقيرُ الجُناةِ

نكتة العدول عن (ويلٌ يومئذٍ لكم) إلى النَّظم المتلوّ:

أوثر التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ "لقَصْدِ وصْفِهم بالتَّكذيب، والتَّقديرُ: (ويل يومئذٍ لهم أو لكم)، فهو تهديدٌ ناشئٌ عن جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾"(4)، وأيضًا فإنَّ الوصف يحملُ في ذاته علَّة الوعيد، فكأنَّ المعنى: ويل لهم؛ لأنَّهم مكذِّبون، وهذا أبلغُ في الحِجاج والتَّقريع مِن مجرَّد توجيه الخطاب إليهم.

إبرازٌ وإظهارٌ للتَّعميم والإنذارِ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 185 - 186، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 242.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 446.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 185 - 186.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 447.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾:

وصلٌ للجزاءِ بالابتلاءِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ "عاطفة متَّصلة بقوله: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، كأنَّه قيل: ويل للذين كذَّبوا، والذين إذا قيل لهم: اركعوا، أو بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ على طريق الالتفات، كأنَّه قيل: هم أحْرياء بأنْ يُقال لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾، ثمَّ بكَوْنِهم مُجْرِمين، وبكَوْنِهم إذا قيل لهم: صَلّوا، لا يُصَلّون"[1].

بلاغةُ الإدماج والكناية في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾:

أمرٌ بالرُّكوعِ يحمِلُ تقريعًا ودعوةً للرُّجوعِ

أُدمِج التَّوبيخ في طيِّ الدَّعوة في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾، فالكلام في ظاهِره أمرٌ بالرُّكوع والخضوع، وفي باطنه تقريعٌ على الجحود والامتناع؛ إذ إنَّ الإعراض عن الرُّكوع صورةُ استكبارٍ مستكِنٍّ في القلوب مستقرٍّ في النُّفوس، وهو كناية عن عدم إيمانهم؛ لأنَّ الصَّلاة عماد الدِّين؛ ولذلك عبَّر عن المشركين بـ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5][2].

نكتة التَّعبير بـ (إذا):

دعوةٌ تتجدَّد، تُقابَلُ بعنادٍ وتشدُّد

الأصل في (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[3]، وهي بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾، فـ (إذا) "شرطيَّة، تفيد حتميَّة الحدوث، أي: تحقُّق الحصول"[4]، فإنَّ ترْكَهم للصَّلاة؛ إذا دُعوا إليها، أمرٌ متحقَّقٌ ثابتٌ.

والمعنى: "إنَّ هؤلاء الكفّار لا يفعلون ذلك، ولا يَنْقادونَ لطاعَتِه، ويَبْقَون مُصِرّين على جَهْلِهم وكُفْرِهم وتعريضِهم أنفسَهم للعقابِ العظيم"[5].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 346.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 446.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 60، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 440، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 113، وفاضل السّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 4/ 71.
(4) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 242.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 781.

نُكتة التَّعبير بالماضي المبنيّ للمفعول ﴿قِيلَ﴾، ودلالةُ تعديَتِهِ باللّام:

حُجِب القائِلُ لِفَضْحِ ما تلبَّسوا به مِن الرَّذائل

جيء بالفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾؛ لأنَّ المراد هو بيان الفعل لا تعيين الفاعل، فليس في تعيينه كبيرُ فائدة، وقد أفاد ذلك أنَّ كلَّ نداءٍ وُجِّه إليهم - أيًّا كان مصدرُه - لم يُجْدِ نفعًا معهم[1]، فقد انسدَّت آذانهم أمام كلِّ داعٍ إلى الحقِّ[2].

أمّا تعدية فعل القول باللّام؛ فللدَّلالة على إيصال هذا القَوْلِ إلَيْهم، وبلوغه مسامعهم، وعدم انحِجابِ شيءٍ منهُ عَنْهُم، ممّا يشير إلى عظيم مُعانَدَتِهم، وشديد لَدَدِهم.

بلاغة الالتفات مِن الخِطاب في ﴿إِنَّكُم﴾ إلى الغيبة في ﴿لَهُمُ﴾:

في تحوُّلِ الضَّمير إعراضٌ وتحقيرٌ، وزَجْرٌ عَن ملاقاة ذاك المصيرِ

التُفِت بالقول مِن الخِطاب: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ إلى الغَيبة: ﴿لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ﴾؛ تحقيرًا لهم وإعراضًا عنهم، "واستدعاءً لغيرهم أن يَشْهَدَ موقفهم هذا الآثم، وأن يُنْكِره عليهم، ويتلقَّى منهم عبرةً وموعظةً، فلا يقع تحت طائلة هذا التَّهديد الذي هُدِّدوا به"[3].

وفي هذا الالتفاتِ أيضًا مقابلة إدبارِهم وتولّيهم عن الاستجابَةِ لدَعْوَةِ اللّه لَهُم لِما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، تولَّى اللّه سبحانهُ عنهم.

وأيضًا لأنَّ في الخطابِ تعميمًا للمخاطَبين، وفيهم المُسْلِمون الرّاكعون السّاجدون، فكيف يستقيمُ أن يُقال: (وإذا قيل: لكم اركعوا؛ لا تركعون)، ولا سيَّما بعد أن فُصِل بين ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ وبين ما لو قيل: (وإذا قيل لكم...) بقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؟ فلذلك جيء بضمير الغيبة لتَعْيين المراد، وتمييز الكفّار عن المؤمنين بالإبعاد.

(1) القنّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 23.

(2) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 242.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 15/ 1408.

الغرض مِن الأمر ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ على ظاهره في الدّلالةِ على الإيجاب والإلزام، ويفسِّر سببَ استحقاقهم العذابَ الأليم، فإنَّهم تَركوا الواجِبَ المأمور، وارتكبوا المحرَّم المحظورَ.

نـفـي الـحـالِ كشْفٌ عَن أعظَمِ أسبابِ الوَبالِ

سرُّ إيثارِ نَفْيِ المُضارع بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾:

نفيُ المضارعِ بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾؛ إذ إنَّ (لم) تَنْفي الفِعْلَ في الزَّمن الماضي، أمّا (لا)؛ فتَنْفيهِ في الحالِ والوَقْتِ الحاضِر؛ لتُبرز الصّورة، وكأنَّها مشهدٌ حيٌّ يُرى، وليس خبرًا يُروى.

كما أنَّها تفيد ثبوتَ ملازمةِ صِفَةِ التَّكبُّر عن الرُّكوع لهم؛ وذلك لأنَّ الآية نزلَت في ثقيفٍ - على ما رويَ - الذين امتنعوا عن الصَّلاة، وقالوا لرسول اللّه ﷺ: حُطَّ عنا الصَّلاة؛ فإنّا لا ننحني، فإنَّها مسبَّة علينا[1]، فأبى ﷺ، وقال: «لا خَيْرَ في دينٍ لَيْسَ فيهِ رُكوعٌ»[2].

نفيُ الرُّكوع دون الاسـتـجـابـة؛ لـرفـضـهـم كـلَّ صـوَرِ الخُضوعِ والإنابَةِ

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾ دون (لا يستجيبون):

أوثر التَّعبير بـ ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾ دون (لا يستجيبون)؛ لبيان تمرُّدهم، ونفي الخضوع التّامّ عنهم؛ إذ إنَّ الاستجابة تدلُّ على قبول الدَّعوة مجرَّدة، أمّا الرُّكوعُ؛ فهو خضوعٌ تامٌّ، وأيضًا فإنَّه أخصُّ مظاهر العبوديَّة والذُّلِّ، فالمعنى: لم يَكْتَفوا برَفْضِ الدَّعوة باطنًا، بل أظهروا التَّمرُّد بجوارِحِهِم، فهو أقْسى في الذَّمِّ، وأعمقُ في توبيخ المتكبِّرين، وأبلغُ في تصوير الكِبر، وأشدُّ في التَّوبيخ.

وأيضًا لِما في التَّعبير بـ ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾ من بلاغة طِباقِ السَّلْبِ الذي يُظهِر المُفارقَة الصّارخة بين ما يُؤمَرون به، وما يُجيبون به هذا الأمر.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 197.

(2) رواه أبو داود في سننه، برقم: (3026)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، برقم: (4711).

نكتةُ حذف متعلّق الرُّكوع:

حَـذْفُ المتعلّق ناطقٌ بالتَّمرُّد المُطْلَقِ

حُذف متعلَّق الرُّكوع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ ليَشْمَل الخطاب كلَّ خضوعٍ للّه تَعالى في الصَّلاة، وفي الطّاعة، وفي السُّلوك؛ فكأنَّ الخطاب يقول: اخضعوا للّه سُبحانَهُ في كلِّ شأنٍ، وقد حُذِف في سياق ذمِّهم ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ كذلك؛ لتَوْسيعِ دائرة التَّشنيع؛ إذ إنَّهم لا يخضعون للّه تَعالى في موطنٍ ولا مقام، لا في صلاةٍ ولا في طاعةٍ؛ فالخُضوع غابَ عَن قُلوبِهم، كما غابَ عَن جَوارِحِهم[1].

توجيهُ إرادة المجاز في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُواْ﴾:

الرُّكوع أساسُ الخشوع ولبُّ الخضوع

قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُواْ﴾ "مجاز مرسَل عَلاقته الجزئيَّة؛ إذ أُطْلِقَ الجزء وهو (الرُّكوع)، وأُريدَ به الكلُّ، وهي (الصَّلاة)"[2]، "وخُصَّ هذا الجزء؛ لأنَّه يُقال على الخضوع والطّاعة، ولأنَّه خاصٌّ بصلاة المسلمين"[3]، "ولأنَّ كثيرًا مِن العرب كان يأنف مِن الرُّكوع والسُّجود، ويراها هيئةً مُنْكَرَةً؛ لِما كان في أخلاقهم مِن العجرفة"[4].

الغرض مِن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾:

لا يَـرُدُّ حججَ القرآنِ إلّا عليلُ العقلِ سقيمُ الجَنانِ

الاستفهامُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ "مستعمَل في الإنكار التَّعجيبيّ مِن حالهم، أي: إذا لم يصدِّقوا بالقرآن مع وُضوح حُجَّته، فلا يُؤْمِنون بحديثٍ غيره، والمقصودُ أنَّ القرآنَ بالِغُ الغايَةِ في وُضوح الدِّلالة ونهوض الحجَّة، فالذين لا يُؤْمِنونَ به؛ لا يؤمنون بكلامٍ يسمعونَهُ عَقِبَ ذلك"[5].

وفيه كذلك معنى النَّفي؛ إذ المعنى: "أنَّ القرآنَ قد تضمَّن مِن

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 334.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 243، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 242.
(3) القنّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 23.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 421.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 448 - 449.

الإعجاز والبلاغة والأخبار المغيَّبات وغير ذلك ممّا احتوى عليه ما لم يتضمَّنْهُ كتابٌ إلهيٌّ، فإذا كانوا مكذِّبين به، فبأيِّ حديثٍ بعده يصدِّقون به؟ أي: لا يُمْكِنُ تَصْديقُهُم بحديثٍ بعد أن كذَّبوا بهذا الحديثِ الذي هو القرآنُ"[1].

مَعْنى (الفاء) و(الباء) ودلالَتُهُما:

مَن لا يوعَظُ بالقُرآن؛ فلا واعظَ لَهُ

الفاء في قوله: ﴿فَبِأَيِّ﴾ فصيحةٌ تُنْبِئُ عن شرطٍ مقدَّرٍ، تقديرُهُ: إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ وقد دلَّ على تعيين هذا المقدَّر ما تكرَّر في آيات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ فإنَّ تكذيبَهُم بالقُرآن وما جاء فيه مِن وُقوع البَعْثِ[2].

وأمّا الباءُ؛ فالأصل في معناها أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على الإلصاقِ، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3].

وهو في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ للملابسَة، أي: بأيِّ كلام ملابسٍ لهؤلاء، أو متعلِّقٍ بهم يُؤْمِنون؟ أو هي للسَّببيَّة، أي: بأيِّ حديثٍ يكون سببًا لإيمانهم بعد القرآن؟.

وفيها أيضًا معنى الإلصاق، فكأنَّه جعل الإيمان ملاصقًا للحديث، ولمّا لَم يَكُن حديثٌ يتسبَّب في إيمان مُسْتَمِعيه، فيَلْتَصِق به إيمانُهم غير الوحي؛ كان السُّؤال استنكاريًّا تعجيبيًّا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

نُكتَةُ تَنْكيرِ ﴿حَدِيثٍ﴾:

تنكيرٌ مُنبِئٌ عَن احتقارِ كلِّ قولٍ بَعيد عن التَّنزيل المجيدِ

جيء بقوله: ﴿حَدِيثٍ﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّعميم، أي: لن يُؤمنوا بأيِّ حديثٍ قطُّ بعدَه أو غيره؛ كما يتضمَّن التَّنكيرُ أيضًا إشارةً إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 380.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 448، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 243، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 346.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

احتقارِ كلِّ حديثٍ سوى القرآن؛ "فإنَّ هذا الحديثَ قد حاصَرَهُم محاصَرةً تامَّةً فكريَّةً عقليَّةً منطقيَّةً، ومحاصرةً نفسيَّةً مِن محْوَرَي الخَوف والطَّمع"(1)، فإذا كذَّبوا بالقرآن، ولم يُؤمِنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجَّة، وروعة البيان؛ فبأيِّ شيء بعد ذلك يؤمنون؟.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿حَدِيثٍ﴾ دون (كلام) ونحوه:

حـديـثُ اللـه تَعالى أبهى مِن كلِّ كلامٍ، وخير مقوِّم للسُّلوك ومنير للأفهام

أوثر التَّعبير بـ ﴿حَدِيثٍ﴾ دون (كلام)؛ إذ إنَّ "الحديث هو الكلام الهادئ الذي يتكلَّم به المحدِّث في مجلس متكافئ بينه وبين مَن يستمع إليه، فلا يشعر المستمِع بأنَّه في موقع الأدنى الذي يتلقَّى مِن الأعلى، بل يشعُر بأنَّهما على سواءٍ، في التَّلقّي والعطاء، بخلاف عمَلِ الخطيب أو المعلِّم أو المدرِّ، أو مَن يلقي محاضرة، أو الآمر النّاهي، أو الشّاعر، أو نحوِهم، والحديثُ أكثرُ الكلام قبولًا وتأثيرًا في النُّفوس البشريَّة؛ إذْ لا يواجه عقبةً صادَّة في الغالب مِن الأحوال، ولا يواجه نفورَ مُسْتَكْبِرٍ يرفُضُ تلقّي العِلم مِن معلِّم؛ ولهذا وصف اللّٰه تَعالى كلامَه لعباده في كتابِهِ بأنَّه مِن نوع الحديث، وأرشد بهذا الوصف الدُّعاة إلى دينِ اللّٰه بأن يكونوا محدِّثين، حتَّى تكون دعوتُهم أوقعَ في نفوس مَن يوجِّهون لهم الدَّعوة.

ولِما في مادَّة (حدث) مِن معاني التَّجَدُّد حالًا بعد حال، وإيجاد الشَّيء بعد أن لم يكُن، وإظهاره والكشف عنه(2)، وهو مناسِبٌ لنُزولِ القرآن منجَّمًا؛ ليُحدِث لهم ذِكرًا، ويجدِّد لهم وعظًا، فما جدَّدوا هم إلّا هزوًا ولعبًا.

دلالة التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعْدَهُۥ﴾، وبيانُ مرجِعِ الضَّمير فيه:

لا مـعـجـزةَ تُساوي معجزةَ القرآنِ الكريم

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿بَعْدَهُۥ﴾ "صفةً لـ ﴿حَدِيثٍ﴾، فهو

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (حدث).

ظرفٌ مستقرٌّ، والمراد بالبعديَّة: تأخُّر الزَّمان، ويقدَّر معنى: بالغ أو مسموع بعد بلوغ القرآن أو سماعه، سواءٌ كان حديثًا موجودًا قبل نزول القرآن، أم حديثًا يوجد بعدَ القرآن، فليس المعنى أنَّهم يؤمنون بحديثٍ جاء قبل القرآن مثل التَّوراة والإنجيل وغيرهما مِن المواعظ والأخبار، بل المراد أنَّهم لا يؤمنون بحديثٍ غيرِه بعد أن لم يُؤمنوا بالقرآن؛ لأنَّه لا يقع إليهم كلامٌ أوضَحُ دلالةً وحجَّةً مِن القرآن، ويجوز أن يكون ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ متعلِّقًا بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فهو ظَرْفٌ لغوٌ، ويبقى لفظُ ﴿حَدِيثِۭ﴾ منفيًّا بلا قَيْدٍ، وُصِفَ أنَّه بَعْدَ القرآن، والمعنى: لا يؤمنون بعدَ القُرآن بكلِّ حديثٍ، وضمير ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائد إلى القرآن، ولم يتقدَّم ما يدلُّ عليه في هذه السّورة؛ ليكون معادًا للضَّمير، ولكنَّه اعتُبِر كالمذكور؛ لأنَّه ملحوظ لأذهانهم كلَّ يوم مِن أيّام دعوة النَّبيِّ ﷺ إيّاهم به... ويجوز أن يكون ضمير ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدًا إلى القولِ المأخوذ مِن قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾، فإنَّ أمْرَهم بالرُّكوع الذي هو كنايَةٌ عن الإيمان كان بأقوال القرآن"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

إذعـانٌ مفقودٌ بـعـدَ بـرهـانٍ مشهودٍ

أوثر التَّعبير بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ دون (يوقنون)؛ إذ إنَّ الإيمانَ تصديقٌ قلبيٌّ يَبْعَث على القَبولِ والخُضوع والعمل، فهو الأنسَبُ للمَقام، وأمّا اليقينُ؛ فهو علمٌ جازمٌ لا يَلْزم أن يُصاحِبَهُ خضوعٌ أو إذعانٌ قلبيٌّ، فالإيمانُ يَجْمَعُ بين العلم والتَّسليم، أمّا اليقينُ؛ فقَد يكون معرفةً عقليَّةً دون خضوعٍ وجدانيٍّ، وأيضًا فإنَّ السّورة لا تتحدَّث عن قوم يجهلون الحقَّ، بل عن قوم يعرفونه، ثُمَّ يعاندونه، فهم لا تَنْقُصُهُمُ البراهين، بل ينقصهم الإذعان والانقيادُ؛ لذا لم يقل: فبأيِّ حديثٍ بعده يوقنون؟ لأنَّهم يعلمون أنَّه حقٌّ، لكنَّهم لا يؤمنون به، فجاء التَّعبير بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ ليدلَّ على غياب الخُضوع القلبيِّ على الرُّغم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 448.

مِنْ وضوح الدَّليل العقليِّ، وكذا سياق السّورة منذ مَطْلَعِها قائِمٌ على التَّذكير والوعيد والإنذار، فالمطلوبُ منهم لم يكن مجرَّدَ إدراك الحقيقة، بل الإيمان بها والعمل بمُقْتَضاها، ومِن ثمَّ كان الأنسب لفظ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّه يتناسب مع الوعيد السّابق، والأمر بالرُّكوع، ورفض الخضوع، فكأنَّ السّورة مِن أوَّلها إلى ختامها تدور حول الإيمان الذي يثمر عملًا، لا مجرَّد اليقين.

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، وتعيينُ المراد بواوِ الجماعة:

يدلُّ المضارع على الحدوث في الحال والاستقبال، وقد جيء به هنا في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ ليُفيد أنَّ نفي الإيمان عَنْهُم ليسَ مقصورًا على زمنٍ دون آخَر، بل هو حالٌ دائمةٌ متجدِّدةٌ فيهم، كما أنَّ فيه تجسيدًا لإعراضهم وإنكارهم.

بلاغَةُ التَّناسُب بين المَقْطَعِ والمَطْلَعِ:

تآخي مَعاني آخِرِ السّورة مَع أوّلها

أقسَم اللّه تعالى بالمرسلات وما بعدها على وُقوع وعده، فقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾، ثُمَّ ذكر مِن أحوال الآخرة ما ذُكِرَ ابتداءً من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾، وأنذر المُكَذّبين في أكثرَ مِن موضعٍ إلى أواخر السّورة بقولهِ ﷻ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

ثُمّ ختم السّورة بما يحدث يوم القيامةِ للمُكَذّبين والمُؤمنين، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

وذكرَ المُتَّقين وجزاءَهُم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾، فقد استُكمِل ما بُدِئَ بالحديثِ عنه مِن يوم القيامَةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّكوع والخُضوع:

الرُّكوعُ خُضوعٌ بانحناءٍ

الرُّكوعُ أخَصُّ مِن الخُضوع، فإنَّ الرُّكوعَ خُضوعٌ بانحناء[1]، وقد أوثِر لفظ (الرُّكوع) دون (الخُضوع)، في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ لأنَّه يُقال على الخضوع والطّاعة، ولأنَّه خاصٌّ بصلاة المسلمين[2]، ولأنَّ بعض العربِ نفرَ عن الدّين مِن أجلِه، وقالوا: لا نَنْحَني، فإنَّها مَسَبَّةٌ علينا[3]، ومعنى قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ﴾، أي: صَلّوا الصَّلاة التي فيها الرُّكوع، وأطلقَه عليها تسميةً لها باسمِ جزءٍ منها[4].

---

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركع).

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 186.

(3) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 28/ 295، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 168، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 186.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 186.

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ

سُورَةُ النَّبَإِ

سُورَةُ النَّبَإِ

❁ التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدَنيّ وعد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة إجماعَ المُفسِّرينَ على مَكّيّتها[1]، وبذلك قالَ القُرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3]. وأمّا عددُ آياتها فيقولُ فيها الدّانيّ: "وَهي إحْدَى وأرْبَعونَ آيَةً في البَصْريّ، وأرْبَعونَ في عدد الباقينَ، واختلافُها آيَة ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ عدّها البَصْريّ، ولم يعُدَّها الباقونَ"[4].

ترتيبُ النّزول وترتيب المُصحَف:

جـاءَ ترتيبها المُـصـحَـفـيّ بـيـنَ ســـورَتَي (المُـرسَـلات) و(النّازعات)

هذه السّورةُ هي الثّامنةُ والسّبعونَ في التّرتيبِ المُصحَفيّ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابتُ والمُعوّلُ عليه عندَ أهلِ النّظَر والتّحقيق، وقد جاءَ ترتيبُها بين سورَتي (المُرسَلات) و(النّازعات)، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ فعُدّتِ السّورةُ الثّمانينَ في ترتيبِ نُزولِ السّوَر عندَ جابرِ بن زَيد، نزلَتْ بعدَ سورةِ (المعارج) وقبلَ سورةِ (النّازعات). وفيما روي عن ابنِ عبّاس والحسَن ما يقتضي أنّ هذه السّورةَ نزلَتْ في أوّلِ البعثة[5].

فضائلُ السّورة:

هذه السّورةُ من سوَر المُفصَّل

هذهِ السّورةُ الكريمةُ من أواسِطِ المُفصّل الّذي قال فيهِ الحَبيبُ ﷺ فيما رواهُ عنهُ واثلةُ بنُ الأسقَع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 423.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 169.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(4) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 262.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 5.
(6) ابن حنبل، المسند، حديث رقم: (16982)، والطّبراني، المعجم: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيّ، شعب الإيمان، حديث رقم: (2415) 352.

وقد وردَ في فضْلِها عنِ ابن عباسٍّ ﵄ قال: قالَ أبو بكر ﵁: يا رسولَ اللّه قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْني (هودٌ) (والواقِعَةُ) (وعَمَّ يَتَساءَلونَ) (وإذا الشَّمْسُ كوِّرَت)»[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ (النّبأ) اشتهَرَتْ بهذا الاسمِ وبعدَّةِ أسماء

وردَتْ تسميتُها بسورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ في صَحيحِ البُخاريّ[2]، وتُسمّى في المَصاحِفِ المَشرقيّة والمغربيّة، وفي جميعِ التفاسير سورةَ (النبأ)، وذكرَ السّيوطيّ لها أربعةَ أسماءٍ: (عمَّ، النّبأ، والتّساؤل، والمُعصِرات)[3]، ولا شكّ أنّ الاسمَيْنِ الأخيرَيْن اجتهاديّان.

وقد ارتبطت أسماؤُها الدالّةُ على القيامةِ بمِحوَرها ارتباطًا مُباشرًا في نظَرِ البقاعيّ؛ حيثُ قالَ: ومقصودُها: "الدِّلالةُ على أنّ يومَ القيامة الَّذي كانوا مُجمِعينَ على نفيِه، وصاروا بعدَ بَعْثِ النّبيّ ﷺ في خلافٍ فيهِ مَعَ المُؤمنين ثابتٌ ثباتًا لا يَحتمِلُ شكًّا ولا خِلافًا بوَجْهٍ؛ لأنّ خالقَ الخَلْقِ - مع أنّه حكيمٌ قادرٌ على ما يُريد - دبّرَهُم أحسَنَ تدبيرٍ، وبَنَى لهُم مَسكَناً وأتقنَهُ، وجعَلَهم على وجهٍ يَبقَى به نوعُهُم من أنفُسهم، بحيث لا يحتاجونَ إلى أمْرٍ خارجٍ يَرَونَه، فكان ذلك أشدَّ لأُلفتِهم وأعظمَ لأُنسِ بعضِهم ببعض، وجعلَ سقفَهم وفِراشَهم كافِلَين لمَنافِعِهم، والحكيمُ لا يترُكُ عبيدَه - وهو تامُّ القُدرة، كاملُ السُّلطان - يَمرَحون، يَبغي بعضُهُم على بعض، ويأكلونَ خَيرَهُ، ويَعبدونَ غيرَه، فكيفَ إذا كان حاكِمًا؟ فكيفَ إذا كانَ أحكَمَ الحاكِمين؟ هذا ما لا يجوزُ في عَقْلٍ، ولا يَخطُرُ ببالٍ أصلًا، فالعلمُ واقعٌ بِهِ قَطْعًا، وكلٌّ من أسمائِها واضِحٌ في ذلك بتأمُّلِ آيَتِه، ومبدأ ذكرِهِ وغايتِه"[4].

(1) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، حديث رقم: (3308)، والحاكم، المستدرك، حديث رقم: (3314).
(2) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة النّبأ: 4/ 1880.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 196.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 151 - 152.

المِحور العامّ للسورة:

مِـحـوَرُ الـسّـورة يقومُ على إثباتِ وُقــوع القيامة وبــيــانِ أحــوالِ النّاس فيها

إذا كانتْ سورةُ (المُرسَلات) قد قامَ مِحوَرُها على إقسامِ اللّه تعالى بوُقوعِ يوم الفَصل، مُبيِّنةً بعضَ أماراتِه عندَ وقوعِه، وبيانِ بعضِ آياتِ اللّه تعالى في الأنفُسِ والآفاقِ الدّالّة على كَمالِ قُدرتِه، وبيانِ جَزاءِ المُكذّبين والمُؤمنينَ بيوم الفَصل، مُفصّلةً في حالِ المُكذّبينَ به، حيثُ اقتضاها هذا المِحورُ أنْ تُختتَمَ بوَعيدِ المُكذّبينَ وتهديدِهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات: 46 - 50]؛ فإنّ محورَ هذه السّورةِ إنّما جاءَ مُؤكّدًا لما في تلك السّورةِ، فبالرّجوعِ لما ذكرَهُ العُلماء في بيانِ مَقصَدها الرَّئيس لم أجِد خلافًا بينَهُم على أنّ مِحورَها يدورُ حولَ إثباتِ عقيدةِ البَعْث والجزاء، ومواقفِ النّاس منه وبيانِ جَزائِهم.

فيجد النّاظرُ في مَقاطِعِ السّورة أنّها من أوّلِها حتّى خاتمَتِها تتحدَّثُ عن اليوم الآخِرِ، وعَن موقفِ المُكذّبينَ منه، واختياراتِهم الّتي جعلَتْهم إمّا من فريقِ الطّغاة الَّذين بَقَوا على تكذيبِهم، وإمّا من فريقِ المُتّقين الَّذينَ آمَنوا وصدَّقوا وعَمِلوا بما أُنزِلَ إليهم من رَبّهِم.

مَوضوعاتُ السّورةِ وخصائصُها:

مَــدارُ الـسّـورةِ يدورُ حولَ إثباتِ البَعْث والجزاءِ في يومِ الفَصْل

اشتملَتْ هذه السّورةُ على وصفِ خَوْضِ المُشركينَ في شأنِ القُرآن وما جاءَ بِه ممّا يُخالِفُ مُعتقداتِهم، ومن ذلك إثباتُ البَعْث، وسُؤالُ بعضِهم بعضًا عنِ الرَّأي في وقوعِه مُستهزئينَ بالإخبار عن وُقوعه، وتهديدُهم على استهزائِهم، وفيها إقامةُ الحُجّة على إمكانِ البَعْث بخَلْقِ المَخلوقات الّتي هيَ أعظَمُ من خَلْقِ الإنسان بعدَ مَوتِه، وبالخَلْق الأوّلِ للإنسانِ وأحوالِه، ووَصْفِ الأهوالِ الحاصلةِ عندَ البعثِ من عذابِ الطّاغينَ معَ مُقابلةِ ذلك بوصفِ نعيمِ المُؤمنين، وصفة يوم الحَشْر إنذارًا للَّذين جَحَدوا به، وإيماءً إلى أنّهم يُعاقَبونَ بعذابٍ

قريبٍ قبلَ عذابِ يومِ البعث، وأدمَجَ في ذلك أنّ علمَ اللّه تعالى مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن جملةِ الأشياءِ أعمالُ النّاس[1].

الخصائصُ المَوضوعيّة للسورة:

تمـيّزت سـورةُ النّبأ بخصائِصَ أفـردَتْـهـا عـن غيرِها مِنَ السّوَر

أوّلاً: تميّزتِ السّورةُ الكريمة ببراعةِ الاستهلال، حيثُ استهلّتْ بأسلوبِ الاستفهامِ الّذي شاركَتْها فيه سوَر: (الإنسانِ، الغاشية، الشّرح، الفيل، الماعون)، ولا شكَّ أنّ هذا الاشتراك في مَطالِعِ هذه السّوَر ناشِئٌ عن ترابُطٍ مَوضوعيٍّ وأسلوبيٍّ يجمعُ بينها.

ثانيًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها حَشَدَتْ بآياتٍ مُتتابعةٍ وقصيرةٍ مظاهِرَ قُدرةِ اللّه تعالى وإنعامِه على عبادِه في الأرضِ والجِبال والسّماواتِ وما بينَهُما من آلائِه وعظيمِ خَلقِه.

ثالثًا: انفردَتِ السّورةُ الكريمة بالحديثِ عن تفتُّحِ السَّماء أبوابًا عندَ بَدءِ اليومِ الآخِر، حيثُ قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: 19]، ثمَّ عطفَتِ الحديثَ عن سَيْرِ الجبالِ ومَصيرِها بحيثُ تكونُ سَرابًا، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20].

رابعًا: حَوَتِ السّورةُ الكريمةُ في آخِرِها صورةً فريدةً لم تَتَكرّر في غيرِها لحالِ الكافِرِ عندَ ندَمِه حينَ يَرى العذاب: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: 40].

الخصائصُ الأسلوبيّة للسورة:

تمـيّزت سـورةُ النّبأ بأساليب تعبيرية أفردَتْها عـن غيرِها مِـنَ السّوَر

أوّلاً: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها كرّرتْ بعضَ الكلمات والجُمَل كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، ومثلُ لفظةِ (الجعل) حيثُ وردتْ خمس مرّات[2]، وكلمةِ (اليوم) خمسَ مرّات[3]، ووردَتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 6.
(2) الآيات: 6، 9، 10، 11، 13.
(3) الآيات: 17، 18، 38، 39، 40.

فيها لفظةُ (الكذب) ثلاثَ مرّات[1]، ووردَتْ فيها كلمةُ (الجبال) مرّتَيْن[2]، وكذلك وردَتْ لفظةُ الجزاءِ مرّتَيْن[3]، ولفظةُ (العذاب) مرّتَيْن[4]، ولفظةُ (الحساب) مرّتين[5]، و(الرّحمن) مرّتين[6]، ولفظُ (الأرض) مرّتَيْن[7]، و(السّماء) مرّتَيْن[8].

ثانيًا: بَرَزَ في السّورةِ قاموسٌ لألفاظِ الأكلِ والشُّربِ والمَتاعِ والجَزاء، سواءٌ كانَ للمُؤمنينَ أوِ للمُكذّبينَ؛ مثل: ﴿مِهَٰدًا﴾، ﴿أَوْتَادًا﴾، ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ﴿سُبَاتًا﴾، ﴿لِبَاسًا﴾، ﴿مَعَاشًا﴾، ﴿مَآءً﴾، ﴿ثَجَّاجًا﴾، ﴿حَبًّا﴾، ﴿وَنَبَاتًا﴾، ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾، ﴿أَلْفَافًا﴾، ﴿بَرْدًا﴾، ﴿شَرَابًا﴾، ﴿حَمِيمًا﴾، ﴿وَغَسَّاقًا﴾، ﴿حَدَآئِقَ﴾، ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾، ﴿وَكَوَاعِبَ﴾، ﴿أَتْرَابًا﴾، ﴿وَكَأْسًا﴾، ﴿دِهَاقًا﴾.

ثالثًا: برزَ في السّورة الكريمةِ ظاهرةُ (الإيجاز بالحذف)، حيث حُذِفت في جُلِّ آياتها بعضُ الألفاظ والجُمل، فقد انبنَتْ آياتُها على الإيجازِ العَجيب من خلالِ حَذفِ ما يُمكنُ الاستغناءُ عنه؛ لدلالةِ المَوجود عليه، وهذا ما يُسمّونَه في البلاغةِ: شَجاعةَ العربيّة.

رابعًا: برزَتْ في السّورة الكريمة مُركّباتٌ وصفيّة كثيرةٌ، نذكُرُ منها: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾، ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

خامسًا: برزَتْ في السّورةِ الكريمةِ ظاهرةُ تعاطُفِ بعضِ الألفاظ على بعضٍ، مثل: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾، ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾.

سادسًا: برزَ في السّورةِ الكريمةِ أسلوبُ (التّشبيه البليغ) بحذفِ أداةِ التّشبيه ووَجْهِ الشَّبَه، مثلُ: ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، ﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾.

سابعًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها حَوَتْ أبنيةً صرفيّة لم تأتِ في غيرها من السّوَرِ،

(1) الآيات: 28(2)، 35.
(2) الآيتان: 7، 20.
(3) الآيتان: 26، 36.
(4) الآيتان: 30، 40.
(5) الآيتان: 27، 36.
(6) الآيتان: 37، 38.
(7) الآيتان: 6، 37.
(8) الآيتان: 19، 37.

مثل: ﴿مَعَاشًا﴾، ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾، ﴿أَلۡفَافًا﴾، ﴿أَحۡقَابًا﴾، ﴿كِذَّابًا﴾، ﴿مَفَازًا﴾، ﴿وَكَوَاعِبَ﴾، ﴿صَوَابًا﴾، ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾، وغيرها.

ثامنًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها حَوَتْ ألفاظًا فريدةً في مادّتِها وبِنائِها الصّرفيّ، وهي: ﴿وَهَّاجًا﴾، ﴿ثَجَّاجًا﴾، ﴿دِهَاقًا﴾.

تاسعًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بوَفرة الأنساقِ التّعبيريّة الَّتي لم تتكرّرْ في غيرها كما في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا﴾، ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾... ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾، وغيرَها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورةُ النّبأ متّصلةٌ تمامًا بسورة المُرسَلات مَضمونًا وأسلوبًا

هذهِ السّورةُ مُرتبطةٌ تمامًا بسورةِ المُرسَلات، حيث جعلَ الزُّحيليّ وجوهَ اتّصالها بسورةِ المُرسَلات من ثلاثةِ وُجوهٍ:

أوّلًا: تشابُهُ السّورتينِ في الكلامِ عنِ البَعْثِ وإثباتِهِ بالدّليل، وبيانِ قُدرةِ اللّه عليهِ، وتوبيخِ الكُفّارِ المُكذّبينَ به، ففي المُرسَلات: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾ [المرسلات: 16] ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ [المرسلات: 20] ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥﴾ [المرسلات: 25] وفي هذهِ قال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا﴾. الآيات [6 - 16].

ثانيًا: اشتراكُ السّورتينِ في وصْفِ الجنّةِ والنّار، ونعيمِ المُتّقين وعَذابِ الكافرينَ، ووصفِ يومِ القيامة وأهوالِه.

ثالثًا: فصّلتْ هذه السّورةُ ما أُجمِلَ في السّورةِ المُتقدّمة، فقالَ تعالى في المُرسَلات: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾ [المرسلات: 12 - 14]، وقال سُبحانَهُ في هذه السّورة: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ إلى آخرِ السّورة[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 5.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾ [النَّبأ: 1 - 5]

القرآنُ أبانَ حِكمةَ الرَّحمن بأفصَحِ أُسلوبٍ وأعجَزِ بَيان

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ أنْ خُتِمت سورة المُرسَلات بذكرِ تكذيبِهم بيوم الفَصْل، ووَعيدِهِم بالوَيلِ المُتكرِّر، والتّنبيهِ إلى أنَّهم إذا كَفَروا بهذا القرآنِ فلن يُؤمنوا بشيءٍ بعدَه، افتتحَتْ سورةُ النَّبأ بتعجيبٍ مِن إنكارهم، وتنبيهٍ إلى أنَّ ما خالَفوا فيه الرَّسولَ أمرٌ ظاهرٌ لا يقبَلُ النِّزاع، إذ القرآنُ قد أبانَ حِكمةَ الرَّحمن بأفصحِ بيانٍ وأعجَزِ أسلوب، فجاءَ الاستفهامُ في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخ، للدِّلالة على أنَّ مَوضِعَ خِلافهم لا يَخفى حتَّى يحتاجَ إلى سُؤال، بل هو أوضَحُ مِن أنْ يَختلفَ فيهِ عاقلٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّبَإِ﴾: أصلُ (نبأ) يدلُّ على الإتْيانِ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ: نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ، ومِنْ هَذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لِأنَّهُ يَأْتي مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ[2]، وقيّدَهُ الرّاغبُ بثلاثةِ أُمورٍ؛ فقالَ: النَّبَأُ خبرٌ ذو فائدةٍ عَظيمة، يَحصُلُ به علمٌ أوْ غلبةُ ظنٍّ، قال: ولا يقالُ للخَبَرِ في الأصل (نبأٌ) حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، وحقُّ الخَبَرِ الَّذي يقالُ فيهِ: نبأٌ أنْ يتعرَّى عنِ الكذبِ[3]، وقيّده في المُعجَم الاشتقاقيِّ بسَبْقِ الخَفاء، ومنه النَّبْأة: الصَّوتُ الخفيّ، والنَّبأ كذلك: ما كان خفيًّا قبلَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين عمدة الحفّاظ: (نبأ).

الإخبارِ به[1]، والمرادُ بـ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: القرآنُ في قولِ جَميعِ المُفسِّرين. وقال أهلُ المعاني: النّبَأُ العظيم: الخبَرُ العظيمُ الشَّأن؛ وذلك أنه يُنبئُ عن التّوحيد، وصفةِ الإله، وتصديقِ رَسوله، والخبرِ عمّا يجوزُ وعمّا لا يجوزُ، وعن البعثِ، والنُّشور، والنَّفخ في الصّور، وقيامِ النّاس منَ القُبور[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجـزاءُ الإلـهيُّ المَتين مُحيطٌ لا مَحالةَ بالمُكذِّبين

تُخبِرُنا الآياتُ الكريمة أنَّ قُريشًا في حالةِ تَساؤُلٍ مُستمِرٍّ عن النَّبأ العظيم، الَّذي جاءَ به النبيُّ ﷺ، وهو القرآنُ، وما دعا إليه مِن توحيدِ اللّه واليومِ الآخِر، فتساؤُلُهم يُنبئُ عن شكّهِم وضَلالهم، وتخاطِبُ الآياتُ هؤلاءِ المُكذِّبين بتحذيرٍ قاطع: أنَّهم سَيَعلمونَ عندَ موتِهم عاقبةَ إنكارِهم للرَّسول ﷺ وتكذيبِهم النُّبوَّة، وسَيَعلمونَ يومَ البَعْث حينَ يُحشَرونَ إلى النار، حينَ لا يَنفَعُهم عِلمُهم ولا إيمانُهم، لتُؤكِّدَ على حتميَّةِ الجزاء، وعَجزِهم عنِ الإفلات من حُكْمِ اللّه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جُملةِ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ في النّظم:

التمهيدُ للبَعث بـأسـلـوبٍ يُـثيرُ الانتباهَ ويُعمّقُ وقعَهُ في النّفس

افتُتِحَ النظمُ في هذه السّورةِ الكريمة باستفهامٍ عن مَوضوعِ التّساؤُل، فقالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثمَّ جاءَ الجوابُ عنهُ بقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، والجملةُ في مَوقِعِ التَّمهيدِ لما سيُذكرُ لاحِقًا من أمرِ البَعْثِ، الَّذي كانوا فيه مُختلفينَ، فكان هذا الاستفهامُ أداةَ تشويقٍ وإثارةٍ لاهتمام السّامع، ولم يُذكَرِ الخبرُ أوَّلًا، بل أُرجِئَ في الأسلوبِ حتى تولّدَ التطلّعُ إليه، ثمَّ أبهمَ بلفظ: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليزدادَ وقعُهُ، ثمَّ جاءَ التوضيحُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 111، 112.
(3) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 501.

فيزدادُ القارئ تعلّقًا بمتابعةِ السّياق، وهذا الأسلوبُ البديع يجمَعُ بين النُّدرةِ والعُذوبة، وبينَ الإجمالِ المُثيرِ والتّفصيلِ المُبين، فيخدِمُ غرضًا قرآنيًا عظيمًا، وهو ترسيخُ حقيقةِ البَعْثِ والنُّشورِ في نفسِ السّامع، ويُهيّئُهُ لتلقّي ما يلي من مشاهدِ القيامة وعَجائِبِها[1].

الدّلالةُ البيانيّة في الاستهلالِ بـ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾:

براعةُ الاستهلال بحُسنِها تَكشِفُ القضيَّةَ المحوريَّة وتُنبّه إلى حَسْمِها

الاستفهامُ الافتتاحيُّ والجوابُ عنهُ في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ لم يكُن قطُّ تشويقًا وتمهيدًا، بل كان أيضًا إيذانًا بأنّ أمرًا عظيمًا سيُفصَل فيه، وأنّ هذا النبأ الَّذي اختَلَفَ فيه القومُ لا بدّ من قولٍ حاسِمٍ يُبيّنُ الحقَّ فيه، وإذ كان هذا النّبأُ هو محوَرَ خوضِهم وجدالِهم، فقد جاءَ افتتاحُ السّورةِ به على نحوٍ يُعَدُّ من أبلغِ ضروبِ براعةِ الاستهلال[2]. إذ يَلفِتُ الانتباهَ إلى القضيَّةِ الجوهريَّة، ويُمهّدُ لما سيُعرَضُ من دلائِلها وحُجَجِها ومَشاهِدِها، وكأنّه يقولُ: هذا ما تدورُ عليهِ السّورةُ من أوّلِها إلى آخِرِها[3].

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

شُهرةُ المَرجِع، تُغني عن التَّنصيصِ على المَوضِع

الضَّمير في قولِه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعودُ إلى جماعةٍ من الغائبينَ، وهُم المشركونَ من أهلِ مكَّة، مع أنَّهم لم يُذكَروا صَراحةً قبل ذلك في السّياق، لكنَّ هذا الأسلوبَ مألوفٌ في القرآن، حيثُ يُشارُ إلى أقوامٍ بألفاظٍ أوْ ضمائرَ عامّةٍ دونَ أنْ يُصرّحَ بهم في المَوضِعِ نفسِه، اعتماداً على شُهرتِهم وتَكرارِ ذكرِهم في مواضِعَ كثيرةٍ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 6، ودرويش، إعراب القران: 10/ 350.

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 45، وعصام الحنفي، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/ 129، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 4/ 282، وابن معصوم، أنوار الرّبيع في أنواع البديع: 1/ 53، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 6.

ومَبنى هذا: أنّ المُشركين معروفونَ في الخطابِ القرآنيِّ بأنَّهم محورُ المُعارضةِ والجدالِ، وعليهِ فقد صار يُفهَمُ ذلك من الضَّمير والإشارةِ دونَ حاجةٍ إلى تسميتِهم، فحصلَ الإيجازُ والاقتصادُ في اللَّفظِ معَ تمامِ الفَهْم، وهو من خصائصِ البلاغةِ القُرآنيَّة[1].

نُكتة العُدول بالضّمير عن الظّاهر في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

بقي أنَّ العدولَ عن الظّاهر إلى الضَّمير يُفيدُ عمومَ كلِّ مُتسائلٍ عن إمكانيةِ البعثِ والقيامة ووقوعِهما، فيتحقَّقُ العمومُ الصّادقُ بمُشركي زَمَن النُّزول وغيرِهم من الَّذين يشكّونَ أوْ يُنكرونَ ذلك.

توجيهُ اعتبارِ تساؤُلِهم في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ على جهةِ الاستهزاءِ:

تكذيبُهم الرّاسِخُ العَميق، يُنافي صدقَ التّساؤُلِ بطَريقِ التَّحقيق

يجوزُ أنْ يكونَ سُؤالُهم في قولِهِ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ليس سؤالَ استعلامٍ حقيقيّ، وإنَّما هو على وجهِ الاستهزاءِ أوِ التّهكُّم، فهم لم يَكونوا طالبينَ للحقِّ أوْ باحثِينَ عن جَواب، بل ساخرينَ من الحديثِ عنِ البَعث والنُّشور، وهو شأنُ كثيرٍ من أقوالِ المُشركين في مواضعَ أُخرى من القرآن، ويدلُّ على هذا المعنى أنَّ حالَهم كانت حالَ مكذّبينَ لا شاكّين، فهُم لم يكونوا في مقامِ التردُّد، بل كانوا موقنينَ بالتَّكذيب، مُستقرّينَ عليه في قلوبهم، ما يجعَلُ تساؤُلَهم أقربَ إلى التّهكّمِ منه إلى الاستفهامِ الحقيقيِّ[2].

علّةُ حذفِ ألفِ (ما) في ﴿عَمَّ﴾:

﴿عَمَّ﴾ أصلُهُ: (عَنْ ما)، و(عن): حرفُ جرٍّ، و(ما): اسمُ استفهامٍ، وقد حُذفَت ألفُ (ما) للتّفرقةِ بينَ الاستفهاميَّة والخبريّة الَّتي هي الموصولةُ، وللتَّخفيفِ لكثرةِ الاستعمال، والفتحةُ في﴿عَمَّ﴾ دليلٌ على الألفِ المحذوفةِ، وحذفُ (الألف) من (ما) الاستفهاميَّةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 8.

إذا دخلَ عليها حرفُ الجرِّ من فصيح الاستعمال[1]. وفي الحذف هنا إشارةٌ معنويّةٌ بديعةٌ، وهو أنَّ هذا التَّساؤُلَ ممّا يَنبغي أنْ يُحذَف، فإنْ لم يكنْ ولابدّ، فيُخفَى ويُستحيا من ذكرِه ويُخفَّف[2].

مَعنى (ما) ودلالتُها في ﴿عَمَّ﴾:

المَجهولُ الكُنْهِ كالشَّيءَ العظيمَ الَّذي لا يحيطُ به الوَصف

في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وردَ الاستفهامُ بـ(ما)، والأصلُ فيها: أنَّها تُستعملُ للسُّؤال عن ماهيَّةِ الشَّيء وحقيقتِه، كقولك: ما الرّوح؟ ما المَلَكُ؟ أي: ما حقيقتُهما؟ وهذا يدلّ على أنَّ المسؤولَ عنهُ مَجهولُ الكُنْه. فإذا كان هناك أمرٌ عظيمٌ جدًا يَعجَزُ العقلُ عن إدراكِ كُنهِهِ وحقيقتِه، فإنَّه يكونُ في حُكم المجهولِ من شِدّةِ عظمتِه. فصارَ بينَ استعمالِ (ما) للسُّؤالِ عن الماهيَّة، وبينَ عِظَم الشَّيءِ الَّذي لا يُحيطُ به العقلُ وجْهُ مُشابهة. ومن هذه المُشابهةِ جرى التّعبيرُ بـ (ما) هُنا في قولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، إذ جاءَت (ما) لا لمُجرَّدِ الاستفهام الحقيقيّ، بل للإيحاءِ بأنَّ هذا الخبرَ عظيمُ القدرِ إلى حدٍّ أنَّ العقولَ لا تُحيطُ بحقيقتِه، فكأنّهُ مجهولُ الكُنه، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ [المطففين: 8]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد: 12]، فالمرادُ ليس مُجرَّدَ طلبِ التَّعريفِ والفَهم، بل التَّفخيمُ والتَّهويلُ، وكأنَّ المُتلقّيَ يعجَزُ عن تصوُّرِ حقيقةِ هذهِ الأمور لعظمَتِها، فـ(ما) خرجَتْ هنا عن أصلِها في الاستفهام عن الماهيَّة؛ لتُستعمَلَ مجازًا في التَّفخيم والتَّهويل[3]. والقرينةُ على ذلك التَّعظيم والتَّهويل وصفُ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ في الجواب.

دِلالة صيغةِ التَّفاعُل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

المبالغةُ والتَّكثير تنسجِمُ مع الحدثِ الخَطير

جاءَ قولُه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ على صيغةِ (يَتَفاعَلونَ) من التّساؤُل، وهذه الصّيغةُ (مثلُ: تساءَلوا، وتراءَوا، وتضارَبوا) موضوعةٌ في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 410، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 5/ 809.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 190.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 5.

الأصلِ للدِّلالة على أنَّ الفعلَ صادرٌ من أكثرَ مِن واحدٍ، وكلُّ واحدٍ منهم فاعِلٌ من جهةٍ، ومفعولٌ من جهةٍ أخرى. مثل: تَراءى القومُ أي كلُّ واحدٍ منهم رأى غيرَهُ، فـ(التّفاعُل) يجمَعُ بين الفاعليَّة والمفعوليَّة في أطرافٍ مُتعدِّدة. لكنْ لمّا تُسنَدُ الصّيغة لفاعلٍ واحد، يبقى التّركيز على جانبِ الفاعليّة فقط، وأمّا كونُ مَفعولٍ له فيُترك لعقلِ السّامع يَفهَمُه ضِمنًا، وأحياناً يمكنُ تجريدُ صيغةِ (التّفاعُل) من بعضِ المعاني، فيُراد بها فقط: صدورُ الفعلِ من أكثرَ مِن واحِد، مِن غيرِ نظَرٍ إلى كونِه واقعًا عليهم، مثلُ: (تراءَوُا الهِلالَ)، فكلّهم رأوْهُ، لكنَّ الهلال لم يَرَهم، لكن لمّا كان في مواجهتِهم صار كأنّه رآهُم مَجازًا. وأحيانًا قد يذكرُ معها مفعولٌ، وأحيانًا يُحذفُ لأنَّه مفهومٌ، وأحيانًا تتجرّدُ مِن معنى (المُشاركة المتبادلةِ منَ الطّرَفَين)، ويُرادُ بها فقط تعدُّدُ الفعلِ باعتبار تعدُّدِ مُتعلّقِه، مع أنّ الفاعل واحدٌ، مثلُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النجم: 55]، أي: تُجادِلُ أوْ تشكُّ في نِعَم كثيرة، مع أنّ الفاعلَ واحدٌ. وهنا في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: عن أيِّ شيءٍ عظيمٍ يسألُ هؤلاءِ القومُ بعضُهُم بعضًا ويتجادلونَ فيه؟ وقد يكونُ المعنى: يَسألونَ بعضَهم بعضًا فيما بينَهُم. أو: يَسألونَ الرَّسولَ ﷺ والمؤمنينَ. أوْ: كلُّ واحدٍ منهم يسألُ ويُجادِلُ في مواضعَ مُتعدِّدة، فصيغةُ التّفاعُل هنا تدلُّ على كثرةِ السّؤال، واشتراكِهم فيه، وتوزُّعِه بينهم، وفيها وصفٌ للحالةِ العامّة بينَ القوم المليئةِ بالجدالِ والتّشكيك. كما أفادتْ صيغةُ المضارعةِ دلالةَ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لذلك التَّساؤُلِ الدّائر بينهم ممّا يدلُّ على مَدى إنكارِهم واستخفافِهم وظنِّهم السَّيِّئ بربِّهم[1].

بيانُ حقيقةِ التّساؤل بتحديدِ محلِّ التّداخُل

دلالةُ تعقيبِ الاستفهامِ بجوابِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

لمّا كان الاستفهامُ الواردُ في قولِه ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ليس غرضُهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84.

الحقيقيُّ طلَبَ الفَهم، بل أُريدَ به التَّهويلُ والتّشويق، جاءَ بعدَهُ الجوابُ بقولِه ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ على سبيلِ البيانِ الفاصِل، فوقَعَ موقِعَه البيانيَّ البديع، إذ أزالَ الإبهامَ بعدَ التَّمهيدِ له، فاستقرَّ المعنى في نفسِ السّامع بعدَ أنْ هيّأه الأسلوبُ للتّساؤُل عن أمرٍ جلَلٍ. وقد نُزِّل السّامعونَ منزلةَ مَن يجهلُ الأمر ويتشوّقُ لمعرفتِه، ليتوجّه ذهنُهُم إلى عظمةِ النَّبأ المذكور. وهذه طريقةٌ قرآنيّةٌ توظّف الاستفهامَ لا لتطلُّبَ به الفَهم، بل لتُنبِّهَ الغافلَ، وتُثيرَ انتباهَهُ، وتجعلَهُ كمَن يسأل، فيَنبغي أنْ يُجاب. وهي نظيرُ قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16] ثُمَّ أجابَ بذاتِه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، لإثباتِ الأمْرِ وتقريرِه بصيغةٍ جازمة.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الجواب:

مِن عناصرِ التَّعظيم، الإيجازُ في الكلام والتّقديم

أوردَ النّظمُ الكريم الجارَّ والمَجرور ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ متعلّقًا بجوابٍ محذوفٍ يُفهَمُ من السّياق، أي: (يَتساءَلونَ عنِ النَّبأ العَظيم)، فحُذِفَ الفعلُ وأُبقيَ المجرورُ للانتقالِ السَّريعِ إلى المقصودِ منَ الكلام، موافقةً للسّياق، ومُراعاةً لنَسَقِ السُّؤال، فجاء الأسلوبُ في أعلى دَرَجاتِ الجَزالة والبلاغةِ التَّنزيليَّة(1).

مَعنى ﴿عَنِ﴾ ودلالتُها في ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

المُجاوزةُ المَجازيَّة تكشِفُ عن عظمةِ الحالة الاستغرابيَّة

حرفُ ﴿عَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الأصلُ فيه إفادةُ مَعنى المُجاوَزة والانفصالِ، كما يقالُ: (رَميتُ السَّهمَ عن القَوس)، أي جاوزَهُ وانفصَلَ عنه. وهنا دخلَتْ على المَسؤولِ عنهُ، وكأنَّ السّائل يتطلّعُ إلى أمرٍ قد بَعُد عنهُ علمُهُ، فهو يسألُ عنهُ طلبًا لكشفِه. وأصلُ السّؤال يتعدَّى بـ (عن)، فيقالُ: سألتُكَ عن كذا؛ فالمعنى أنَّهم جعلوا مدارَ تساؤُلِهم حول هذا الأمر الخطير: ﴿ٱلنَّبَإِ

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 9، ودرويش، إعراب القران: 10/ 351.

﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ بحرفِ المُجاوزة - هنا - ليُشعِرنا بكونِ المسألةِ خارجةً عَن مألوفِهم، بعيدةً عن مَداركهم، فأثارَتْ ذلك التّساؤلَ بينهم، وهذا يعمّقُ مِن معنى الاستغرابِ والتّشكيك الَّذي وقَعوا فيه، وكأنَّهم جادَلوا واعترضوا على ما ليسَ لهم به طاقةٌ ولا خِبرةٌ.

توجيهُ دِلالتَي الاستقلالِ والارتباطِ في ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

تقديمُ المُبهم ليتحقّقَ التّشويقُ بإيرادِ المُفهم

السّورةُ الكريمةُ افتُتِحتْ بالاستفهام: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثمَّ جاءَ بعدَها البيانُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ فهل الجملةُ الثّانية جملةٌ جديدةٌ مُستقلّةٌ؟ أوَ هلْ هي مُتّصلةٌ بالأولى ومُتمّمةٌ لها وجزءٌ من السُّؤال؟ في ذلك توجيهانِ[1]:

الأوّل: توجيهُ البصريّين:

ويَرَونَ أنَّ الكلام قد تمّ عندَ قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي كأنَّ الآيةَ الأولى وحدَها سُؤالٌ على سبيلِ التّهويلِ، ثمَّ جاءَ قولُهُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جملةً مُفسِّرةً للسُّؤال، أي: (يتساءَلونَ عن أيِّ شيءٍ؟ عنِ النَّبأ العظيم) فحذفَ (يَتساءلون) لدلالةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في الآيةِ الأولى عليه. ويكونُ المعنى: أنَّهم جعلوا تساؤُلَهم مُنصبًّا على هذا الخبرِ الجَلل، لكنْ بطريقةٍ مُستقلّةٍ أسلوبًا، كأنّك تقولُ: (أتدري ما يَتَساءَلون؟ يَتساءَلونَ عنِ النَّبأ العظيم). وهذا الانفصالُ في التَّعلُّق يجعلُ النَّظمَ أبلغَ، لأنَّه يُقسّم الجُملة إلى ضربين: سؤالٌ مهيّجٌ أوّلًا، ثم إيضاحُ خطورةِ المسؤولِ عنه ثانيًا.

الثّاني: توجيهُ الكوفيّين:

ويرونَ أنَّ الآيةَ الثّانيةَ متّصلةٌ بالأولى مُتعلّقةٌ بها، فالمعنى: (عمّ يتساءلون؟ عن النَّبأ العظيم)؛ فكلمةُ ﴿عَمَّ﴾ عندَهم ليستْ سُؤالًا قائمًا بذاته، بل هي في قوّة: (عن أيٍّ شيء يتساءلونَ عن النّبأ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 110، 111.

العظيم؟). وبهذا يكونُ الكلام جملةً واحدةً مُتماسكةً، لا جُملتين منفصلتين، وأثر هذا الاختلاف: أنّ رأيَ البصريين يُكسِب النّظم إيقاعًا بلاغيًا قويًّا: إذ يَفصلُ التّساؤُلَ عن تعيين موضوعِه، فيتولّدُ تشويق، ثمَّ يأتي البيانُ بعد ذلك. أمّا رأيُ الكوفيين فيُبقي على الوحدةِ المعنويَّة والتّرابُط في التّعلّق، فيظهرُ المعنى في جملةٍ إنشائيَّة استفهاميّةٍ واحدة، بخلاف التَّوجيهِ الأوّلِ القائمِ على جملتينِ؛ الأولى إنشائيّةٌ، والثّانية خبريّةٌ.

بلاغةُ الوصفِ ودلالتِهِ في ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

وصفُ النّبأ بالعَظَمة لِزيادةِ التّنويهِ بالشّدّة

جاءَ وصفُ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بكونه عظيمًا في قولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لزيادةِ تعظيمِهِ والتّنويهِ بشأنِه، وهو تعظيمٌ مستمدّ من طبيعةِ الخبَرِ نفسِه، ومِن مصدرِه الَّذي هو اللّٰه تعالى، العليمُ بالغَيب؛ فكونُ النَّبأ صادرًا عن ربِّ العالمين يجعَلُه مُتجاوِزًا لكلِّ ما اعتادهُ النّاس من الأخبار والأحاديث، ويستحِقُّ من السّامع أنْ يُصغيَ له بأقصى درجاتِ الاهتمامِ والتّوقير. كما أنَّ وصفَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ يُنظَرُ فيه إلى مضمونِه؛ إذ هو يتناوَلُ أهوالَ البعثِ والنُّشور، وقد سبقتِ الإشارةُ إليه في مواضِعَ من القرآن قبلَ نُزولِ هذه السّورة، فصارَ مَعهودًا عندَ المُخاطَبين أنَّ هذا النَّبأ حين يُذكَر، يُرادُ به أمرُ البعث وما فيهِ من انقلابِ الأحوال، وفصلِ القَضاء، ومشاهدِ اليومِ الآخِر، وكلُّها أمورٌ تستحِقُّ وصفَ العَظمة[1].

دلالةُ اجتماعِ المَوصوفِ والصِّفة:

تفخيمُ النّبأ إلزامٌ بالإذعان، ودفعٌ لكلِّ تردُّدٍ أوْ بُهتان

إنَّ وصفَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بلفظِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ مع أنَّ كلمةَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ في أصلِها لا تُطلق إلّا على الخبرِ الجَليلِ الشَّأن، إنَّما جاء لِمَزيدِ التّفخيم، ولإبرازِ خُطورةِ هذا الخبر على وجهٍ أبلَغ، فتكرارُ المعنى بأسلوبِ التّوكيد هنا ليس حشوًا، بل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 10.

هو تنبيهٌ مقصودٌ إلى عِظَم استثنائيٍّ في هذا النَّبأ بالذّات. وهذا التّوكيدُ في مقامِ التّفخيم يُفهَمُ منه أنَّ النَّبأ على هذا القدرِ منَ العَظمة لا يليقُ معَهُ التّشكيكُ أوِ الجدَل، بل يجبُ على كلِّ سامعٍ أنْ يُذعِنَ له ويتهيّبَ شأنَه، فلا يجعلُه محلَّ نزاعٍ أوِ استهزاء، كما كان يفعَلُ المشركون، فهو ليسَ كغيره من الأخبارِ القابلةِ للرَّدّ أوِ التّأجيل، بل هو خبرٌ يقينيٌّ ومَصيريٌّ واجبُ التّصديق[1].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾:

كلُّ أنباءِ الوَحْي محَلُّ تساؤُلٍ وجِدالٍ قويّ

التَّعريفُ بـ(أل) في قولِه ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو تعريفُ جنسٍ، لا تعريفُ عهدٍ، أي: لا يُقصَدُ به نبأٌ معيّنٌ فقط، بل يُراد به كلُّ خبرٍ عظيم بلّغَهُم به النبيُّ ﷺ من أمورِ الدّين الكُبرى، وعلى رأسِها البعثُ والنُّشور. فيكونُ المقصود أوسعَ من حصرِه في خبرٍ واحد، بل يشمَلُ عمومَ الرِّسالة بما فيها من التَّوحيدِ والوَحْيِ والحِساب والجَزاء، ممّا أثارَ جدَلَهم واستهزاءَهُم[2].

دلالةُ وصفِ النَّبأ العظيمِ بالاختلافِ فيه:

خُطورةُ الاختلاف، في النَّبأ المتّصِف بالإنصاف

وُصِفَ النَّبأُ أوَّلًا بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، ثمَّ وُصِفَ بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾، الدالِّ على زيادةِ التّأكيدِ على خطرِه وجديّتِه. وهذا التّتابُعُ الوصفيُّ ليس تعديدًا في الألفاظ، بل تعميقٌ لمكانةِ النَّبأ وأثرِه في النّفوس، إذ يعكِسُ حالةَ الاختلاف والجدلِ حولَه، ويُهيِّئُ السّامعَ أوِ القارئَ لمُدارسةِ أمرِ النَّبأ والتَّساؤُلِ عن حقيقته، بما يدلُّ على أهميَّة الانتباه والجديّة في التَّعامُل معَهُ[3].

نكتةُ التَّعبير بالمَوصولِ وصِلتِهِ في ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

الكفرُ والتّكذيبُ بما يَستوجِبُ الإيمانَ والتَّصديقَ الأكيد

في قولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ جاءَ التّعبيرُ باسمِ الموصولِ وصلتِه؛ زيادةً في التّهويلِ والتَّفخيم، فالمَوصولُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 10.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 85.

﴿ٱلَّذِى﴾ يُشعر بأنَّ المقصودَ أمرٌ معلومٌ عظيمُ الشَّأن، ثمَّ تأتي الصِّلةُ لتكشفَ عن حالِه؛ فكأنَّ الكلامَ يقول: (هو ذلك الخبرُ الجلَلُ، المشهورُ بين النّاس، الَّذي ملأهُم اختلافًا وجدالًا)، وهذا أبلغُ في التّفخيم من مجرَّدِ الوصف؛ وإبرازًا لخطورةِ حالِهم مع هذا الخبر، فالصِّلة ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ صاغتِ القضيّةَ على هيئةِ جملةٍ اسميَّة، فيها إسنادٌ ثابتٌ: ﴿هُمْ﴾ و﴿مُخْتَلِفُونَ﴾. فدلّ على أنَّ الاختلاف في هذا الخبرِ العظيم أمرٌ راسِخٌ مُلازِمٌ لهم، لا طارئَ يزولُ عنهم. وأيضًا: تشنيعًا عليهم، فالتّعبيرُ بالموصول يُشعِرُ بكونِهم هم المَعنيّين المَخصوصينَ بالذّمّ، كأنَّه يُعرّفُهم من خلال مَوقِفِهم المَشين: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: صار اختلافُهم علامةً مُميِّزةً لهم. وليَجعلَ الاختلافَ صفةً قائمةً بذواتهم، لا مجرّدَ فعلٍ فعلوه وانتهى، فصار الاختلاف سجيَّةً لهم، فتلك هي نكتةُ التَّعريفِ بالإضمارِ مَعَ التّكوينِ الاسميِّ في ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أيضًا.

مَعنى (في) ودلالتُها في ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾:

أبعدُ النّاسِ عنِ الإنـصـاف، مَن استغرقَهُ الجدَلُ والاختلاف

حرفُ الظَّرفيّة في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، يفيدُ في أصلِه: كونَ الشّيءِ واقعًا داخلَ شيءٍ آخر؛ فيدُلُّ هنا على أنَّ اختلافَهم قد أحاطَ بهِم وأحاطوا بهِ، فهُم غارِقون فيه كالغارِقِ في ظَرْفٍ يَملؤُه من جميعِ جِهاته، ويدلّ على التّلبُّس والتّمكُّن، فهم متمكِّنون من الاختلافِ فيهِ ومتمكَّنٌ منهم لا يَملِكون فكاكًا منه، ولذا جاءَ بضميرِ الرّفع المُنفصل وحرفِ الظّرفيّة المُقدّم والوَصفِ الاسميِّ ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي قد استغرَقَهُم هذا الجدلُ حتَّى صارَ حالًا لهم، ولو قيل: (اختلفوا في النّبأ)، لكان مُجرّدَ خبرٍ عن فعلٍ صدرَ منهم، لكنَّ: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يصوّر أنَّ الاختلافَ ظرفٌ يحيطُ بهم، وكأنَّهم مُقيمونَ فيه لا يخرجونَ عنه، ممّا يَزيد التّوبيخَ والذّمَّ.

دلالةُ الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ في ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

التّخصيصُ والتّأكيد، بيانٌ للاختلافِ الشّديد

الضَّميرُ في قولِهِ ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ يفيدُ التّأكيد، وفي الوقتِ نفسِهِ يَحمِلُ معنى الاختصاص الادّعائيِّ، أي: هم على وجهِ الخصوصِ المُختلفون في هذا النَّبأ العظيم، وهذا الأسلوبُ يُبرزُ شدَّة إنكارِهم وتكذيبهم، ويَجعلُهُم في موضِعِ المُساءَلةِ والمواجَهة. ومعَ أنَّ الاختلاف في أمرِ البعث لم يكن مَحصورًا في قريشٍ وحدَهم، إلا أنَّ كثرةَ خوضِهم فيه، وإظهارَهم للعناد والمُكابرة، جعلَهم كأنَّهم هم المُختصُّون به، وقدّمَهم القرآن في هذا السّياق لا لكونهم وحدَهم المُختلفين، بل لأنَّ مُعارضتهم كانت أبرزَ وأشدَّ، فجاء الأسلوبُ مُشيرًا إليهم تعريضًا وتَقريعًا[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسميَّة في ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

ثبوتُ التّكذيب بيومِ الحِساب القَريب

جاءَ التّعبيرُ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميَّة بدلًا من الفعليَّة، كأنْ يُقالَ مثلًا: (الَّذي يَختلفون فيه)، لما في الجملة الاسميَّة من دلالةٍ على الثّبوتِ والاستمرار؛ فليس الاختلافُ عارضًا ولا مَحدودًا بزمَنٍ، بل هو حالٌ راسِخةٌ فيهم. وهذا الأسلوبُ يرسُمُ صورةً نفسيَّةً دقيقة لحالِهم، فهم ليسوا في طَوْرِ تفكيرٍ أوْ بحثٍ، بل قد استقرَّ فيهم التّكذيبُ واستمرّ، فصار جزءًا من مَوقفِهم، ممّا يوجِبُ الإنكار عليهم والردَّ الحاسِمَ على باطِلِهم، ويُبرزُ ما هُم عليه من انغلاقٍ وتَعَنُّتٍ[2].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾:

إبرازُ محلِّ الاختلاف والتّكذيب ليثبُتَ نقيضُهُ بالبُرهانِ السَّديد

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُخۡتَلِفُونَ﴾ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾؛ ليُفيد العنايةَ بشأنِ النَّبأ نفسِهِ، فكأنَّ المعنى: في هذا النّبأ خاصّةً يقَعُ اختلافُهُم، وهو ما لا يَنبغي أن يكونَ محلَّ خلاف؛

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 243.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

لأنَّه نبأٌ عظيمٌ واضحُ البرهان، فتقديمُ المجرورِ يُشعِرُ بأنّ تعلّق الاختلافِ به في ذاته أمرٌ مُستنكَرٌ. وفي تقديمِ (الجارِّ والمجرور) أيضًا تحقيقٌ لجرْسِ الفاصلة وانسجامِها مع ما قبلَها وما بعدَها، وهي من لطائفِ البلاغةِ القُرآنيَّة، حيث يُراعى المعنى أوّلًا في النّظم التَّركيبيِّ، ثمَّ يُبنى عليه النَّظمُ الصَّوتيُّ دونَ تكلُّفٍ[1].

دلالةُ ﴿مُخۡتَلِفُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاختلافُ الكبير في ذلك النَّبأ الخَطير

عبّرَ النَّظم الكريمُ بصيغةِ اسمِ الفاعل مَجموعًا في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾؛ للدِّلالة على تلبُّسِهم بالاختلاف تلبُّسًا مُستمِرًّا لا ينفكُّ عنهم، كما أفادَتِ الجمعيَّةُ حالةً من التَّشارُك في ذلك الاختلافِ الثّابتِ فيهم، وصيغةُ الافتعال أفادَتِ المُبالغةَ والكثرة في ذلك الاختلافِ الشَّديد.

دلالةُ ﴿كَلَّا﴾:

الرَّدعُ والإبطال لِكلِّ شكٍّ واحتيال

كلمةُ ﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ جاءَتْ على وجهِ الرَّدْع والإنكار، وهي تفيدُ قطعَ الحديث السّابق وتكذيبَه، وردَّ ما تضمّنَهُ من استهزاءٍ أوْ تساؤُلٍ باطِل، فهي تردَعُ أولئكَ المُتسائلينَ عنِ النَّبأ العظيم ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾، وتُبطِل ما يحمِلُ تساؤُلُهم من إنكارٍ لحقيقة البعثِ ومجادلةٍ فيها، وقد وُضعتِ الجملة في سياقِ الجوابِ عن تساؤُلِهم، فجاءت مفصولةً غيرَ معطوفة، لكونها ردًّا قاطعًا على سؤالٍ باطلٍ. وهذا الرّدعُ القرآنيُّ يوجَّهُ إليهم رغم أنَّ السّياقَ خبريٌّ عنهم، لأنَّهم هم المَعنيّون بالإنذار. وفي هذا الرَّدّ ما يفيدُ إثباتَ البعثِ من وجهٍ بديع، إذ إنَّ إبطال إنكارِهم له يلزمُ منه إثباتُه، فالسّياق يقلبُ مَوقفَهم عليهم، ويحوّلُ استهزاءَهُم إلى حُجّةٍ عليهم تُثبِت حقيقةَ ما أنكَروهُ[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو زكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 595، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

دلالةُ تعقيبِ ﴿كَلَّا﴾ بمضمونِ الإنكار:

الرَّدْعُ بالوَعيد لتهديدِ أهْلِ التَّكذيب

الغالبُ في استعمالِ ﴿كَلَّا﴾ أنْ يُعقَّب بعدَها بما يوضِّحُ مضمونَ الرَّدعِ ويُحقّقُ الإنكار، ولهذا أُتبِعَ الرَّدعِ هنا بقوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، أي: سَيذوقون ثمرةَ استهزائِهم وتكذيبهم، فالعِلْمُ الَّذي يوعَدون به ليس عِلْمًا نافعًا، بل هو علمٌ اضطراريٌّ يأتي بعدَ فواتِ الأوانِ، يواجِهونَ فيه الحقيقة وجهًا لوجهٍ، فيَتَيقّنونَ من وقوعِ البعث، ويُعانونَ من العذاب الَّذي أنكَروه[1].

دلالةُ حذفِ مفعولِ العِلْم في ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾:

العُموم أوِ اللُّزوم يُنبئانِ عن التَّهديدِ المَفهوم

حُذِف مفعولُ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ ليشمَلَ كلَّ ما سيَعلمونَهُ من حقائقِ البعث وشدائدِ العذاب، فهو حذفٌ يفيدُ التَّهويلَ والعُموم، ويُنبِئُ عن مصيرٍ مُفجعٍ سيكشِفُ لهم حينَ يحُلّ بهم. وقيل أيضًا: إنَّهم سَيَعلمونَ عندَ الموت ما كانوا يُنكرونَهُ في الحياة، فيكون لهم عِلْمان: علمٌ بحقيقةِ البعث، وعلمٌ بعاقبةِ التّكذيب[2]. ولا يبعُدُ أنْ يكون الفعلُ مُرادًا به اللّزومُ، أي سَيوجَدُ منهم العِلْمُ ويتحقَّقُ ممّا يشيرُ إلى أنّهمُ الآنَ جَهَلَةٌ بشكلٍ مُنقطِعِ النَّظير.

بلاغةُ ما أفادَتْهُ ﴿كَلَّا﴾ من الإبطالِ والإنكار:

الإبطالُ للإنكار مُستلزِمٌ لإثباتِ ضدِّهِ الصّارمِ البتّار

الرّدعُ الَّذي تضمّنَتْهُ الآيةُ ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ وما تَلاها، ليس مجرّدَ إنكارٍ على تساؤلهم، بل هو في حقيقتِهِ إعلامٌ قاطعٌ بأنّ يومَ البعث واقعٌ لا ريبَ فيه؛ فالإبطالُ هنا يَنقلِبُ إلى إثباتٍ بطريقةٍ بلاغيّةٍ راقية؛ إذ إنَّ إنكارَ المُنكَر يُفضي إلى تقريرِ ضدِّه، أي إثباتِ الحقّ. كما أنَّ في هذا الإبطال إشعارًا بوعيدٍ شديدٍ يَنتظِرُهم، فهم لن يَعلموا فقط وقوعَ ما أنكَروه، بل سيذوقونَ عاقبةَ ذلك التّكذيب في الدُّنيا عندَ لحظةِ المَوْت، وفي الآخرةِ بما ينالُهُم من العذابِ العَظيم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11، 12.

(2) أبو حيان، البحر: 10/ 384، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11، 12.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 12.

دلالةُ الكنايةِ في ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾:

الإخبارُ بالعلْمِ المُستقبليّ يَستلزمُ الوعيدَ الجليّ

في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن الوعيد؛ إذ ذُكِر العلمُ وأُريدَ لازمُهُ وهو وقوعُ العذاب، فحصلَ التّصويرُ بإثباتِ الملزوم وإرادةِ اللّازم، وهذا أبلغُ في التّهديدِ مِن التَّصريح؛ لأنَّه يُهيّئ المخاطَب لتوقُّع أمرٍ مجهولِ التَّفاصيل، معلوم الفَظاعة، فيقَعُ في النَّفس أشدَّ وقعٍ. ومن بديعِ هذا الأسلوب القرآنيّ في الوعيدِ أنَّه يوهِم المُخاطبين بأنَّهم سيُجابونَ على تساؤُلهم، لكن لا بالبرهانِ أوِ الخطاب، بل بالواقِعِ الَّذي لا يُكذّب. فقد صوّروا إنكارَهم في هيئةِ سؤالٍ استهزائيٍّ، فجاء الردُّ بصيغة ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ الّتي تحملُ معنى: سَتُدركونَ الحقيقة بأنفُسِكم، ولكن على وجهٍ مُفزعٍ لا يَسُرُّ. وهذا الأسلوبُ هنا شبيهٌ بقول النّاسِ في لُغَتهم: (الجواب ما ترى لا ما تَسمَع)، أي إنَّ الردّ لن يكونَ بالكلام أوِ الحُجّة، بل بما يُعايشونَهُ من شدائدِ المَوْت والبَعْث والعَذاب. وهذا أبلَغُ في الرّدعِ والوَعيد، لأنَّه تحويلٌ للخطابِ مِن حِوارٍ نظريٍّ إلى مصيرٍ مَحسوس[(1)].

مَوقِعُ جملةِ: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾:

سَيَعلَمُ الظّالمون أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلبون

جملةُ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ (الأولى) في قولِه: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ بطريقِ الاستئناف؛ وعليهِ فالوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ تمامُ الإنكار والزَّجر، ثمَّ استأنفَ بيانَ مضمونِ ذلك بجُملةِ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، أي: سيعلَمُ هؤلاءِ المُستهزئون أنّ ما كانوا يَتساءلونَ عنه ساخرينَ ومُستهينين، هو في الحقيقة أمرٌ واقِعٌ لا محالةَ، وأنَّ البعث الَّذي أنكروهُ هو حقٌّ مُبرَمٌ[(2)].

نُكتةُ التَّعبير بالعِلْم بدلَ العَذابِ أوِ العُقوبة:

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (سَيُعذَّبون، أَوْ سَيُعاقَبون)، بل قالَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85.

﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، فعبّر بلفظِ (العلم) دونَ غيره؛ لُمراعاةِ السّياق؛ إذ كانوا قد أظهَروا إنكارَهُم وتساؤُلَهم عن النَّبأ العظيم، فجاءَ الردُّ موافِقًا لَمجراهم الظاهريِّ، أي كأنّهم باحثونَ عن عِلْمٍ ومعرفة، فكان الجوابُ على نفس النّسَق: سيحصُلُ لهم (العلم)، ولكنْ على هيئةِ إدراكٍ مُؤلِمٍ بالحقيقةِ المُرّة، حينَ لا ينفَعُ النّدَمُ، ففيهِ ما فيهِ من التّهكّم بهِم والتَّسجيلِ عليهِم[1].

الاخــتــلافُ والـتّـسـاؤُلُ يُناسِبُه الوعيدُ بالعِلْم الحاصِل

دلالةُ دُخولِ (السّين) على المُضارع:

(السّينُ) في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ تدلُّ على الاستقبالِ القريب، للإيذانِ بأنَّ ما سَيلقَونَه من عِلْمٍ (أي إدراكٍ للحقائق بعينِها) وشيكٌ قريبُ الوُقوع، لا يبعُدُ عنهم كما يظنّون، وكأنَّ القرآن يقولُ لهم: لنْ يطولَ بكم الزّمن حتّى تنكشِفَ لكمُ الحقيقةُ، ولكنْ حينَها لا ينفَعُ العلْمُ ولا يُجدي الفَهْمُ[2].

التأكيدُ بالوُقوع لـلـردِّ عـلى كل ظَنٍّ مَقطوع

مَوقِعُ جملةِ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ ممّا قبلَها:

جملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ توكيدٌ للأولى ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ مِن حيثُ المعنى، وإنْ كانتْ ليستْ توكيدًا باعتبارِ اصطلاحِ النحويّين؛ لأنّه فُصِلَ بينها وبينَ الَّتي قبلَها بحرفِ العطفِ، والتَّوكيدُ لا يُفصَلُ بينَهُ وبينَ مؤكَّدِه بشيءٍ مِنَ الحروف[3].

التَّوكيدُ بالجُملة لإثـبـاتِ العِـلْـم بالنِّهاية المُؤلِمة

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾:

لم تجئ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ للتَّراخي الزَّمنيّ، وإنّما للتّراخي الرّتَبيِّ، أي إنَّها تفيدُ تصاعُدًا في المَعنى والغَرَض، فما بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أعظمُ أثرًا وأشدُّ تهديدًا ممّا قبلَها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12.
(3) تفسير ابن عثيمين - جزء عمَّ، ص: 25، 26.

دلالةُ التَّكرارِ في ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾:

التَّكرار العَريض لمزيدِ التّأكيدِ والتّغليظ

معَ أنَّ الجُملة بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ هي نفسُها في ظاهِرها: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ إلّا أنَّ التكرارَ لم يُقصَدْ به مجرّدُ التَّأكيد اللَّفظيّ، بل ارتقاءٌ في شدّةِ التَّهديد؛ فالأوّلى وعْدٌ بالعقوبة، والثّانيةُ تنبيهٌ على أنَّ العُقوبةَ الثّانية أشدُّ وأعظَمُ ممّا يتخيَّلونَ؛ إذًا فارتقاءُ الرّتبة هنا هو أنَّ ما سَيَلْقَونه لاحقًا بعدَ إدراكِهم الأوّل سَيكون أدهَى وأعظمَ من مجرَّدِ المعرفةِ الأولى بالحقائق، بل هو تمكُّنُهم من العَذاب، وانغماسُهُم فيه، بعدَ فواتِ أوانِ التَّوبة والنَّجاة[1].

وُجوهٌ في تكرارِ: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾:

تعدُّدُ مَشاهِدِ التّهديد، مِنَ الموتِ إلى القيامة إلى العذابِ الشّديد

ذُكِرَ في تفسيرِ تكرارِ قولِه تعالى ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ وجوهٌ متعدّدة، كلُّها تهدفُ إلى بيانِ أنَّ التكرار لمجرَّدِ التّأكيد اللَّفظيِّ غيرُ كافٍ وحدَه لتفسير البلاغةِ فيه، بل هناك مقاصِدُ خاصّةٌ بكلِّ مَرّة، منها:

أنَّ الأوّلَ توعّدٌ عندَ النّزع، والثّانيَ توعّدٌ في الآخرة؛ أي إنّ الكفار سيذوقونَ أوّلَ مَراحِلِ العذاب عندَ سَكَرات الموت (النَّزع)، ثمَّ يعلمونَ العذابَ الأكبرَ عندَ البَعْث والنُّشور، فهما مَشهدانِ مُختلفانِ.

أوِ الأوّلُ توعّدٌ بأهوالِ القيامة، والثّاني بالنّار نفسِها؛ فالمشهدُ الأوّلُ إرعابٌ لما فيه من زلازلَ وأهوال، أمّا المشهد الثّاني فهو دخولُ النّارِ حقيقةً.

أوِ الأوّلُ ردعٌ عن التّساؤُلِ والاستهزاء، والثّاني عن الكُفر ذاتِه؛ فالأوّلُ نهيٌ عن العبَثِ والتَّشكيك، والثّاني نهيٌ أعمُّ وأخطَرُ، وهو الاستمرارُ في الكفر والصَّدِّ عن الحقِّ[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 351.

(2) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 595، وأبو السّعود إرشاد العقل: 9/ 85.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبأُ والخَبَرُ والحَديث:

النّبأ هو الخبرُ العظيم الَّذي له شأنٌ، وتترتّبُ عليه عاقبةٌ

(النَّبأُ) أصلُ (نبأ): الانتقالُ من مكانٍ إلى مكان، وسُمّيت الأخبارُ المَحكيّة بالأنباء؛ لكونِها تنتقلُ من جهةٍ إلى جهة، والنّبأُ يقال في الخبَر الَّذي لا يَعلمُه المُخبَر، ولذا يَقتصِرُ على الأخبارِ ذاتِ الفائدةِ العَظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُهُ المُخاطَب، يُحدِثُ عنده عِلمًا لم يكُنْ عندَه فيَستفيدُ. وأمّا (الخبَر) فهو العِلْمُ بحقيقةِ الشَّيء، وهو عامٌّ في جميعِ المعلومات المَعلومةِ بالخبَر، وهو أعمّ من النّبأ في نفْسِه وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكونُ حقًّا وباطلًا، وقد يكونُ ذا فائدةٍ أوْ خاليًا منها، وقد يكون المُخبَر عالِمًا بما يُخبَر بِهِ أوْ غيرَ عالم(1). وأمّا (الأحاديث) فهي الأقاويلُ الّتي تحدُثُ بعدَ أنْ لم تكُنْ، وكلامٌ يحدثُ منه الشّيءُ بعد الشَّيء؛ فأصل ذلك من الحُدوث، وهو النُّشوءُ الجديدُ للشّيءِ قبلَ أنْ يكونَ، ومنه الحديثُ ضدُّ القديم(2). فهو أخصُّ من (الخبَر) أيضًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خبر - نبأ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

دلائلُ القُدرة الغرّاء تدعو إلى الإيمانِ بالبَعثِ والجَزاء

بعدَ أنْ قرَّر النَّظمُ الكريمُ في مَطلَعِ السّورة عِظَمَ (النّبأ) الَّذي كذَّبوا به، ووبّخَهم على تساؤُلِهم فيه، أتى بالدَّليلِ القاطِعِ الَّذي لا يقبَلُ شَكًّا ولا تردُّدًا، فذكّرَهُم بآياتِهِ الباهِرة ومَخلوقاتِهِ العَجيبة الَّتي أنشأها منَ العَدَم، شاهدةً على كمالِ قُدرتِهِ وإحكامِ حِكمته، الموجِبة للتَّصديقِ بما جاءَتْ به الرُّسُل من شرائعَ وبعثٍ وجَزاء، مُبتدِئًا بما يُلامِسُ حياتَهم ومَعاشَهُم وهو الأرضُ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾، ومذكّرًا بما في الأرضِ الَّتي جعلَها لَهُم فِراشًا دالًّا على كَمالِ قُدرتِهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِهَٰدٗا﴾: أصلُ (مهد) يدلّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ المَهْدُ، ومَهَّدْتُ الأمْرَ: وطَّأْتُهُ. وتمَهَّدَ: تَوَطَّأ، والمِهادُ: الوطاءُ مِنْ كُلِ شَيْءٍ[1]، والمهدُ: مهدُ الصَّبيِّ. والمِهاد: الفِراش. وقد مهّدتُ الفراشَ مَهْدًا: بَسَطتُهُ، ووطَّأتُهُ. وتمهيدُ الأمور: تَسويتُها وإصلاحُها، وتمهيدُ العُذرِ: بسطُهُ وقَبولُهُ[2]، والمَهْد والمِهاد: المكان المُمَهَّد الموطَّأ[3]. والمرادُ بقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾: أي: فِراشًا لكم موَطًّأً مُذلَّلًا يمكنُ الاستقرارُ عليه لتتصرَّفوا فيها كما شِئتُم[4].

2) ﴿أَوۡتَادٗا﴾: الوَتِدُ: بالكَسر ككتِف: واحِدُ الأوتادِ، وبالفتحِ لغةٌ، وكذلك الوَدُّ في لغةِ مَن يُدغِمُ التّاءَ في الدّال، تقولُ: وتَدْتُ الوَتَدَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (مهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (مهد).
(4) البقاعيّ، نظم 21/ 195.

وتِدًا[1]، والوَتَدُ: مَعروفٌ، ويُعبّرُ عن ثباتِ الشّيءِ واستقراره، ومنه الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؛ لأنَّ اللّه تعالى لمّا خلقَ الأرضَ على الماءِ جعَلَتْ تتكافأ كالسَّفينة، فأرساها وثبّتَها بالجبالِ لقولِه في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: 15] فهي بمنزلةِ أوتادِ الخَيمة المَشدود عليهِ أطنابُها. وقد يُعبّرُ بذلك عَن ثبات الأمرِ ورُسوخِهِ، ومنه قولُهم: ثبّتَ اللّه أوتادَك[2]، ومعنى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ أي: جعَلنا الجبالَ أوتادًا للأرض لِتَسْكُنَ ولا تتحرَّكَ كما تُرسَى الخيامُ بالأوتاد[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

دلائلُ الكونِ العَجيبة تحضُّ على الإيمانِ بالقُدرةِ العَظيمة

تُخبرنا الآيتانِ الكريمتانِ عن مَظاهِرِ قدرةِ اللّه وعِلمِه وحِكمته ورَحْمَته في الكون، لتكونَ دليلًا على توحيدِهِ وصدقِ رسولِه ﷺ وضرورةِ الإيمان بالبَعْثِ والحساب، فتخاطِبُ الآيتانِ الإنسانَ بعرضِ دلائلِ هذه القدرةِ قائلةً: ألم نُصَيِّرِ الأرض مُمَهَّدةً لهم صالحةً لاستقرارِهِم عليها؟! وجعلنا الجبالَ عليها بمنزلةِ أوتادٍ تمنَعُها من الاضطرابِ؟.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جُملة: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

دلائلُ المألوفات على عَجائبِ المَخلوقات

جاءتِ الآيتانِ مِن قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ للاستئنافِ البيانيّ، ليُفسّرَ إجمالَ ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، ويُدلِّلَ عليه بما هو مُشاهَدٌ مَحسوس، والسّببُ في ذلك: أنّ أعظَمَ ما جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ ممّا كذّبَ به المشركونَ أمرانِ:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وتد)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (الوتد).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وتد).
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 30.

الأوّل. إبطالُ إلهيَّةِ الأصنام.

الثاني. إثباتُ البَعثِ والنُّشور.

وهذانِ هما أصلانِ مِن أُصولِ العقيدة، وكانا محلَّ إنكارِهم وتَكذيبِهم الرَّئيس، وسببَ عدائِهم الشَّديد للنَّبيِّ ﷺ، والآيتانِ تذكيرٌ بالأدلّةِ الأرضيَّة الَّتي تدلُّ على قدرةِ اللّه في الخلقِ والتّدبير، وبالتّالي تؤكِّد إمكانَ البَعْث، وتُبطِلُ مَزاعِمَ المُشركين في ألوهيَّةِ أصنامِهم[1].

تقريرُ المُخاطَبين علـى الحـقِّ الثّابتِ بالدَّليلِ القَويم

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَلَمْ﴾:

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، والتَّقريرُ هنا على وجهِ النّفي، وهو من أبلغِ أساليبِ التّقرير؛ إذ يجعَلُ المخاطَبَ مُقرًّا بما لا يُمكنُه إنكارُهُ، وغالبًا يقَعُ هذا النّوعُ من الاستفهامِ بـ(لم)، والنّفيُ فيه ليسَ هو المقصودَ، بل هو زيادةُ تأكيدٍ للتّقرير، وتثبيتٌ للحُجَّة. فالمعنى الحقيقيُّ: أجعلْنا الأرضَ مِهادًا؟ نعم، جعلْناها كذلك، وهو خطابٌ يُلقَى على وجهِ الإلزام، فمن أنكر البعثَ بعدَ هذا، فقد كابرَ في الواضِحات[2].

شدُّ الانتباه بكلِّ إصرارٍ إلى الحقِّ النّادِّ عنِ الإنكار

بلاغةُ الالتفاتِ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب، فبعدَ أنْ كانَ الحديثُ عنهم بضميرِ الغائبِ، التفتَ السّياقُ إليهم بالخطابِ الصَّريح؛ فمعنى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، أي: ألم نجعلْ لكُم... وأسلوبُ الالتفات هنا بليغٌ في إفادةِ التّوبيخ والإلزام والتّقْوية مِنْ وقْع الحُجَّة على مَسامعهم، حيث يواجَهون بها وجْهاً لوجه في موضِعٍ لا مفرّ فيهِ منَ الاعتراف. وعليهِ فقد خُصّ بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12، 13.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 86، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 351.

الالتفات مُنكِرو البعثِ المُظهِرونَ للاستهزاء والتّكذيب تبكيتًا لهم وتقريعًا، وشدًّا للانتباهِ إلى حقيقةٍ لا يُنكِرها ذو عَقلٍ[1].

بلاغةُ التّعبير بالجَعْلِ في ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ﴾:

الخَلْقُ سابِقٌ، والجَعْلُ لاحِق

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿نَجۡعَلِ﴾ بدَلًا من أنْ يُقال (نخلُقْ)، في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، وذلك لأغراضٍ بلاغيّةٍ ودلاليَّةٍ[2]:

أوّلا - ﴿نَجۡعَلِ﴾ تدلُّ على التّصيير والتّقديرِ والتَّسخير، أي إنَّ اللّه صَيّر الأرضَ مِهادًا، أي فراشًا مُمَهَّدًا للرّاحة والمَعيشة، أمّا لفظ (نخلُقُ) فيأتي للتّعبيرِ به عن الإيجادِ من العدم، ويتعدَّى إلى الذّات غالبًا أوْ إلى أصلِ الصِّفة الجوهريَّة فيها، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي أوجدَها من العَدَم.

ثانيًا - ﴿نَجۡعَلِ﴾ تليقُ بالمقاماتِ الّتي يُقصَدُ بها بيانُ الهَيئة أوِ التّهيئة أوِ التّخصيصُ بعدَ الخلق، فالأرضُ مَخلوقةٌ أوَّلًا، ثم جُعِلت على هيئةِ المِهاد، أي مهَّدها وبسَطها وصيّرها صالحةً للحَياة.

ثالثًا - في التّعبيرِ بـ﴿نَجۡعَلِ﴾ لطافةٌ بلاغيّةٌ، فهو يُشعِرُ بالعِناية الخاصَّة في التّهيئةِ والتَّسخير، وكأنَّ اللّه تعالى يَلفِتُ أنظارَهم إلى هذه النِّعمة الكبرى الّتي يَرَونَها ويَعيشونَ عليها ليلَ نَهار، لا على مجرَّدِ إيجادِ الأرض، بل على تَهيئَتِها خِصّيصًا لهُم.

سرُّ إيثارِ وصفِ الأرضِ بـ ﴿مِهَٰدٗا﴾:

اللُّطف والرَّحمة يَنبعثانِ منَ المِهدِ بكلِّ دقَّة

في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ لم يقُل النَّظمُ: (فراشًا) أوْ (بِساطًا) أوْ (قَرارًا)، لكنِ اصطفى لفظَ ﴿مِهَٰدٗا﴾؛ لأنَّ المِهاد في الأصل: ما يُمَهَّدُ للصَّبيِّ لينامَ عليه، أي يُسوَّى ويُليَّن ليكونَ أرفقَ وأنسَبَ؛ ومِهادُ الطِّفل هو فراشُهُ المُمهَّد المُريح، فاختيارُ (المِهاد) دونَ (الفِراش) أوِ (البِساط)؛ لقَصْدِ الإشعار بالتّسويةِ والتَّهيئةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 86، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14.

والإعداد، فالأرضُ ليسَتْ مُجرَّدَ بساطٍ واسعٍ أوْ فراشٍ جامعٍ، بل هي مُهيّأةٌ ومعدّةٌ بدقّةٍ لحياة الإنسان، من استواءِ سَطْحِها، وتوازُنِ أجزائها، وصلاحيَتِها للسُّكنى والزَّرعِ والمَعاش. وهذا المعنى أوْفى من الفِراش أوِ البِساط. كما أنّ هذا اللَّفظ يُشعِر بالعطفِ والرَّحمة؛ لأنَّ المِهاد في الأصل يُستعمَلُ في حقِّ الطِّفل، والطِّفلُ أعجَزُ الخَلْق وأحوجُهم للرِّعاية، فجاءَ التّعبير بما يدلّ على أنّ الله تعالى أعدّ الأرضَ للإنسان كما يُعِدّ الوالدُ مِهادًا لولدِهِ في عنايةٍ ورحمة. وإذا كان لفظُ (المهاد) يُؤذِن بالرّاحة والهدوء والانتفاع، فهو هنا أنسبُ مع مقامِ الامتنان، إذ يذكّرُهم الله بنعمِه الّتي تُشعِرُ بالسَّكينة لا بمجرَّدِ البَسْطِ والفرْش(1).

نكتةُ التَّعبير بالمَصدَرِ ﴿مِهَٰدٗا﴾:

إعـــدادُ الأرض بعِناية لسُكنى الإنــسـان بكـلِّ رِعاية

التّعبيرُ بالمَصدر ﴿مِهَٰدٗا﴾ في قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ من استعمال المصدرِ بمعنى المَفعول، أي: المَمهودُ أوِ المُمَهَّدُ، والمعنى: ألم نجعَلِ الأرضَ مُمَهَّدةً مُسوّاةً صالحةً لاستقراركُم؟ وهذا كما تقولُ: (هذا ضَربُ الأمير) أي: مَضروبُ الأمير. وقد يكونُ من وصفِ الشَّيء بالمصدرِ؛ للدِّلالة على كمالِ اتِّصافِهِ بالصِّفة، حتَّى كأنَّه هو الصِّفةُ عينُها. مثلُ قولك: (زيدٌ عدلٌ)، أي بالغٌ في العدل حتَّى صار هو نفسَ العَدْل. فالمعنى: الأرضُ صارَتْ مِهادًا خالصًا للنّاس، فهي عينُ التّمهيد والرّاحة. وقد يُراد بالمصدرِ معنى النِّسبة باعتبارِ الإضافة، أي: (ذاتَ مِهاد)؛ كأن الآيةَ تقول: الأرضُ ذاتُ مِهادٍ للنّاس، فيها استقرارُهُم وتمهيدٌ لأحوالِهِم، أوِ (المهادُ) هنا بمعنى اسمِ الشّيء (المَهْد) أي: جعلنا الأرضَ للخلقِ كالمَهْدِ للصَّبيِّ (السَّرير)، وهو الّذي مُهِّدَ له فيُنَوَّم عليه(2).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بسط، فرش، مهد).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 8.

دلالةُ (الكِناية) في جَعْلِ الأرضِ مِهادًا:

مَن جعلَ الأرضَ مِهادًا قادرٌ على جعلِها هباء

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ سلكَ القرآنُ مَسلَكًا بديعًا في الاستدلالِ العقليِّ المحسوس، فبدأ بما هو ألصَقُ بحواسّهم، ليقطَعَ العُذر، ويثيرَ التأمُّلَ في قدرة اللّه: فالأرضُ مفروشةٌ كالمَهْد، مُهيّأةٌ لاستقرارِهِم، تصلُحُ للعيش والبناءِ والزِّراعة، وهذا لا يكونُ إلا بقدرةٍ عَظيمة، وإرادةٍ دَقيقة؛ ففيه كنايةٌ عنِ القُدرة على تخريبِ ذلك المَهْد وإفنائِه، ووجهُ الاستدلال في ذلك على إمكانِ البعث: أنّه إذا كانَ اللّه سبحانه جعلَ الأرض مِهادًا بتقديرٍ بالغٍ وانتظامٍ دقيق، فكيف يُنكَرُ عليه أنْ يُعيدَ خلقَ الإنسان بعدَ موتِهِ؟ أليس الَّذي قدّرَ الأرض بهذا الإتقان قادرًا على إحياءِ المَوْتى، وإعادةِ نظامِ العالَم بعدَ القيامة من جديد؟! فالبدءُ بـ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ هو تمهيد عقليّ وتدريجيّ في الاستدلالِ، يَبدأ من المحسوسِ المُشاهَد، ليقودَ السّامعَ إلى التّسليمِ بالبَعثِ والنُّشور، الَّذي هو محلّ النّزاعِ في السّورة[1].

نكتةُ (الفصل) في ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ﴾:

يُدرَكُ سرُّ الوحدانيَّةِ والنُّشور بالتّأمّلِ في مَشاهِدِ الكَونِ المَنظور

فصلَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ وما عُطِف عليه مِن آيات باهرةٍ عمّا قبلَها؛ لأنّ هذه الجُملةَ وقعَتْ موقعَ الدَّليلِ العقليّ المُقنِع، فجاءَ على جهةِ الاستئنافِ دون العطف، لتكونَ مستقلّةً في الحُجّة، واضحةً في البُرهان[2]، وقد جمعَ اللّه في هذه الآية الكريمة ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ وما بعدَها بينَ أعظمِ استدلالين؛ هما:

الاستدلالُ على الوحدانيَّة: فقد تفرّدَ اللّه بالخَلْقِ والإيجاد، وهذه علامةُ ربوبيّتِه وألوهيّتِه، إذ لا خالقَ سِواه.

(1) أبو حيّان، البحر: 10/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13.

والاستدلالُ على إمكانِ البَعْث: فإنَّ إعادةَ خلقِ الإنسان أهوَنُ في ميزان العَقْل من خَلْقِ الأرضِ والجبال والسَّماءِ والماءِ والنَّبات. فإذا أقرّوا بهذه المَخلوقات العَظيمة، فكيف يُنكرونَ البعثَ، وهو دونَها في الصَّنعةِ والهَيئة؟!.

دلالةُ التّشبيهِ البليغِ في جعلِ ﴿ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾:

تمهيدُ الأرض دليلٌ على وقوع يومِ العَرْض

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ تشبيهٌ بليغٌ للأرض؛ بأنَّها مفروشةٌ مُيسّرة كفراشِ الطِّفل، فشُبِّهت بـ(المِهاد)، أي: الفراش المفروش بلُطفٍ، دونَ أن تُذكَر أداةُ التّشبيه ولا وجهُهُ، وهذا من بليغِ المَجاز، والتّشبيهُ البليغ هنا يوحي بعِنايةٍ فائقةٍ في الخَلْق؛ فجعلُ الأرض على هذا النَّحوِ من الانبساطِ والتَّيسير لا تقدِرُ عليه إلّا قوّةٌ مُدبّرةٌ عليمة، وهذا في ذاتِهِ بُرهانٌ على الوحدانيَّة، ودليلٌ على القُدرة على البعث. وفيهِ أيضاً تذكيرٌ بلُطْفِ اللّه بعبادِهِ وتيسيرِهِ لمَعاشِهِم منذُ خَلقَ الأرض، من قبلِ أنْ يَكونوا ويوجَدوا[1].

مُناسبةُ البَدْء بذِكرِ خَلْقِ الأرضِ في الاستدلالِ على البَعث:

مُراعاةُ الأصل مِنَ القَولِ الفَصْل

بدأ النّظْمُ بالاستدلالِ على إمكانِ البعث بخلقِ الأرض، في قولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾؛ لأنَّ البعث مُتعلِّقٌ بخروجِ النّاسِ من الأرض، فهو إحياءُ المَوْتى من بُطونها، فكانتِ الأرضُ أقربَ شيءٍ إلى تصوُّرِ السّامع عندَ ذكرِ القيامة والبَعث، ولهذا جاءَ البدءُ بها في هذا السّياق التّقريريِّ الحِواريّ. فالبعثُ يبدَأُ منَ القبور، والقبورُ في الأرض، فمِن المناسِب أنْ يُستهلّ الاستدلالُ بالأصلِ الَّذي يكونُ منهُ النُّشور[2]. وأيضًا ذكرَ الأرضَ أوّلًا لتقديمِها قبلَ السَّماء في ترتيبِ الأدلّة، ففي هذه الآياتِ لم يُبدأ بذكرِ خَلْقِ السَّماوات كما في مواضِعَ أُخرى؛ لأنَّ الغرضَ هنا ليس بيانَ عظمةِ الخَلْق مُطلقًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13، 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14.

بل بيانَ قربِ البَعْثِ وإمكانِهِ، ولذلك اقتُصر على ذكرِ الأرضِ أوَّلًا؛ لأنَّها المَهْدُ الَّذي يُبعث منه النّاس، ثمَّ تتابعَتْ دلائلُ القدرة في المَخلوقات الأُخرى.

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾:

من ثبّتَ الأوتاد قادرٌ على تَسييرها بكلِّ استِعداد

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ يتضمَّنُ تشبيهًا بليغًا، حيثُ شُبّهتِ الجبالُ بالأوتادِ تشبيهًا حُذِفَتْ منه أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصارَ الكلامُ أوجزَ وأبلغَ، والمعنى: الجبالُ كأنَّها أوتادٌ للأرضِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ جعلَها ثابتةً كالأوتاد قادرٌ على تسييرِها وإزالتها فلا داعيَ للعِناد.

بلاغةُ تعقيبِ ذكرِ الجبالِ للأرض:

مُراعاةُ الوَظيفة والصّورة للتّأمُّلِ في المخلوقاتِ الكَبيرة

لمّا شُبّهتِ الأرضُ بالمِهاد (أي: كالفراش الممهّد داخلَ البيت)، تبادَرَ إلى الذّهن أنَّ المهادَ يكون في بيتٍ، فناسبَ أنْ تُشبَّه الجبالُ بأوتادِ ذلك البيت، أي بالأعمدةِ الَّتي تثبِّتُ الخيمة، وهذا التّشبيهُ يُصوّرُ تماسُك الأرض وثباتَها، رغم أنَّ الجبال بارزةٌ وناتئةٌ، ممّا قد يُظنّ أنَّه يُخِلّ بمهاديَّة الأرض. ويحتمِلُ أنَّ التّشبيه بالأوتادِ لا يقتصِرُ على الصّورةِ فقط، بل يشمَلُ الوظيفةَ أيضًا، أي: كما تُثبّتُ الأوتادُ الخيامَ، تُثبّتُ الجبالُ الأرضَ وتحفظُ توازُنَها. وهذا المعنى قد فُهِم قديمًا بفِطرةِ العرب، وثبتّهَ العلْمُ الحديثُ وأقرّهُ من حيثُ كونُ الجبالِ مَغروسةً في الأرضِ كالأوتاد؛ لتمنعَ اضطرابَ القِشرة الأرضيَّة[2].

دلالةُ الخِطاب بذكرِ الجبالِ بعدَ الأرض:

للجبالِ في الحَياة مَنافع داعيةٌ للعَجَب من قُدرةِ الصّانع

ذكرُ النّظم (الجبال) في الآيةِ بعدَ قولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ لم يكنْ مجرّدَ وصفٍ لتكوينِ الأرض، بل تضمّنَ إشارةً إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14، 15.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14، 15.

ما تحملُهُ من منافعَ عظيمةٍ للنّاس، وخاصَّةً العرب، الَّذين كانوا يعيشونَ في بيئاتٍ شديدةِ الارتباطِ بالجبال. ومِن تلك المَنافِع:

أنَّها مَسايلُ الأودية: فهي مُنحدَراتٌ تنسابُ فيها المياهُ، ممّا يُعينُهُم على الزِّراعةِ والرّيِّ.

وقَراراتُ المياه: أي مَواضِعُ استقرارِ الماءِ في سُفوحِها، حيث تتجمّعُ مياهُ الأمطار.

والمَراعي الخضراءُ: فغالبًا ما تنمو الأعشابُ والنّباتاتُ في سُفوح الجبالِ ووديانِها، فتكونُ مراعي خضراء للأنعام.

والتَّحصّنُ: حيثُ تُعدُّ ملجأً في أوقاتِ الخَوف؛ لما فيها من مَنَعَةٍ ووُعورةٍ.

ومراقبةُ الطُّرُق: فالمُرتفعات تُستخدمُ لمُراقبةِ القوافِلِ أوِ الأعداءِ القادِمينَ[1].

التّناسُقُ البلاغيُّ في إدماجِ (الجبال) بينَ (الأرضِ والإنسان):

لا تستقيمُ الحياةُ الإنسانيّةُ إلّا بعدَ ثباتِ الكُرةِ الأرضيّة

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ إدماجًا بلاغيًا - أي إدراجًا في السّياق دونَ كونِهِ أصلًا في مِحورِ الخِطاب - فدخلَتِ الجُملة بينَ قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾: الدّالّ على خلقِ الأرضِ وتَمهيدِها. وقولِه: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾: وهو بيانُ ما يخصُّ الإنسانَ نفسَه من الخَلْقِ والتَّدبير. فذِكرُ الجبال هنا اعتراضٌ بيانيٌّ يجمَعُ بينَ المعنى الكونيِّ والمعنى النِّعَمي (أي النِّعمة)، وهو من أساليبِ القُرآن الرَّفيعة في جَمْعِ الأدلَّةِ وحَشْدِ القَرائن[2].

سرُّ إيثارِ وصفِ الجبالِ بـ(الأوتاد):

الأوتـادُ ثباتٌ للغَير، والرَّواسي ثباتٌ للنَّفس والغَير

التّعبيرُ القرآنيُّ في (سورةِ النّبأ) جاء بلفظِ (الأوتاد) لا (الرّواسي) فقال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؛ لأنّ الأوتادَ جمعُ (الوَتَد):

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

وهو ما يُغرَزُ في الأرضِ لتثبيتِ الخيام، والجبالُ شبّهَها القرآن بالأوتاد؛ لأنها تُثبّت الأرضَ وتَربِطُ قِشرتَها، كما يَربِطُ الوتدُ الخيمةَ[1]. والفرقُ بين (الأوتاد) و(الرَّواسي) أنّ الرَّواسيَ: فيها معنى الثَّباتِ والرُّسوخ، فهي رواسِخُ ثوابِتُ في نفسِها[2] - يعني الجبال - ولذلك لا تتحرّكُ لِكبَرها وثِقَلِها، وهي مُرسيَةٌ لغَيرها فهي مُثَبِّتَة للأرض، ولذلك قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15]، أمّا الأوتادُ فتُبرِزُ مَعنى التّثبيتِ للغَير، أي إنّ وظيفةَ الجبال ليسَتْ في ذاتِها فقط، بل في حِفْظِ الأرضِ من الاضطِراب؛ فالأوتاد تركّز على معنى الثّبوت المُتعدّي لا الذّاتيّ.

ووجهُ الإيثار في هذا الموضِع: أنّ سياقَ سورةِ (النّبأ) يعدِّدُ النِّعَم على النّاس: (الأرضُ مهادٌ، والنّومُ سُباتٌ، والجبالُ أوتادٌ... إلخ).

فجاءَ التّعبير بـ (الأوتاد) ليُبرزَ أنَّ جعلَ الجبالِ نعمةً راجعٌ إلى الإنسانِ نفسِه؛ لأنها تُثبّتُ الأرضَ ليستقِرَّ عليها ويَهنأ بالعيش فيها. ففي (الأوتاد) مناسبةٌ معَ المشهدِ الكونيِّ في السّورة، فـ(المهاد) للأرض يوحي بالرّاحة والاستقرار، و(الأوتاد) للجبالِ يُكمّل المعنى: فالمهادُ لا يَستقِرُ إلا إذا ثُبِّت بالأوتاد. في حين أنَّ (الرواسي) أليقُ بمواضِع الحديث عن العَظمةِ والقُدرة، كما في قولِه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15].

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وتد).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رسا).

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: 8 - 9]

لبقاءِ الأرضِ أوْتاد، ولِبقاءِ الأزواج سُبات

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

أعقَبَ ذلك التّمهيدَ والتّثبيتَ بذكرِ ما في أنفُسِهم من بديعِ الصَّنعة، فجمَعَ بينَ آياتِ الأنفُسِ والآفاقِ؛ ليتيقّنوا أنَّ الحقَّ ظاهِرٌ، فقالَ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، ولمّا ذكرَ ما بهِ دوامُ بقاءِ النّوعِ الإنسانيّ من التّزاوُجِ، أتبعَ ذلك بذكرِ ما يَحفَظُ قِواه منَ التّلاشي والاضطراب، فجعلَ النَّومَ راحةً وانقطاعًا عن الحركةِ؛ ليَستعيدَ الجسَدُ نشاطَه، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبَاتًا﴾: أصلُ (سبت) يدلّ على راحَةٍ وسُكونٍ، يُقالُ لِلسَّيْرِ السَّهْلِ اللَّيِّنِ: سَبْتٌ[1]. والسَّبْتُ: حلْقُ الرَّأس، والسَّبْتُ: إرسالُ الشَّعَرِ عن العَقْص (إنامَتُه وبطحُهُ)، والسَّبْتُ: الدّهر، ويومُ التّوقّفِ عن العمَلِ عندَ اليَهود[2]. ومَن قالَ إنَّ أصلَ السَّبت: القطعُ قرّرَ أنَّ الرّاحة والسُّكونَ لا يَحصُلانِ إلا بقطعِ الحَركة وتركِ العمَل، ومن ذلك السُّبات: السّكونُ[3]. ومعنى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾: قَطْعًا لأعمالِكم وراحةً لأبدانِكُم[4].

المَعنى الإجماليُّ:

والمعنى: خَلقناكُم - أيُّها النّاسُ - أصنافًا: منكُم الذُّكرانُ ومنكمُ الإناث، وجعَلنا نَومَكُم انقِطاعًا عن النَّشاطِ لتَستريحوا من عناءِ العمَلِ لاتّصافِكم بالتّعَب.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبت).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبت).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبت).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ المَوقِعِ البيانيِّ لـ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ من جُملة: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، والتّقديرُ: (أفلا تُقرّون أنَّنا خلقناكم أزواجًا كما جعلنا الأرضَ مِهادًا؟)، فالأسلوبُ ما زال تقريريًّا، أي إنَّه يُخاطِبُهم بما هو معلومٌ لديهم، ليجعلَ إقرارَهُم حُجّةً عليهم[1].

التّناسبُ الزّمنيُّ عندَ الوَصْل:

من مُحسِّنات الوَصْل، التّناسُبُ في زَمَنِ الفِعل

رغمَ أنَّ الفعلَ الأوَّل جاءَ بصيغةِ المُضارع في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، إلا أنَّ دخولَهُ تحتَ (لم) غيّرَ زمنَهُ إلى الماضي، فصارَ معناهُ: (قد جعلْنا...)، فجازَ أنْ يُعطفَ عليه الفعلُ الماضي الصَّريح: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ لأنَّ الكلَّ في معنى الماضي[2].

سرُّ التّعبيرِ بالمُضارِعِ أوّلًا ثمَّ بالماضي:

الامتدادُ الحُصوليّ يختلفُ عن الوقوعِ اللّحظيّ

لم يقُلِ النّظمُ الكريم: (ونَخلقُكُم أزواجا)، كما قيلَ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾؛ لأنَّ الفعلَ الماضي هنا لا يَقتضي تأمُّلًا حسّيًا كالمُضارِع، بل يشيرُ إلى أُمورٍ مَعروفةٍ لدَيهم في أنفسِهم: (الزّواج، والنّوم، واللّيل، والنَّهار...) فهم يَرَونَ آثارَها بوضوح، ويُقرّون بها دونَ حاجةٍ إلى استحضارِ صورةِ الفِعل كما في (الأرض والجبال). فلمّا كانتِ الأرضُ والجبالُ حاضرةً أمامَ أنظارِهم، لكنّهم كثيرًا ما يَغفلونَ عنِ التّأمُّلِ في تفاصيلها، أتى الفعلُ معها بصيغةِ المُضارع: ﴿نَجۡعَلِ﴾؛ لإثارةِ الذّهن وتنشيطِ التّأمُّل فيما اعتادوهُ. أمّا خلقُ الإنسان وما يتبَعُهُ من نِعَمٍ مُلازِمةٍ له؛ فهي أمورٌ قريبةٌ من الإقرارِ البدَهيّ، فاستُعمِلَ معها الفعلُ الماضي: (خَلَقْناكُمْ)، لأنّه أيسَرُ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

الإلزام وأقربُ إلى التّسليم[1]. ويُمكِنُ أنْ يكونَ التّغايُرُ في التّعبير إشارةً إلى أنَّ جعلَ الأرضِ والجبالِ امتدَّ زمانًا كما يُنبئُ عنهُ المضارعُ التَّجدُّديُّ بخلافِ خَلْقِ الأزواج وما ترتّبَ عليه فإنَّهُ تحصيلٌ لَحْظيٌّ.

علّةُ اختيارِ الفِعل: (خَلَقْنا):

انبثاقُ التّكوين يختلفُ عن الإعدادِ للمُستقرِّ الأمين

في قولِهِ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ عُبِّر بالفعلِ (خَلَقْنا) بدلًا من (جَعَلنا)؛ وذلك لدقّةِ المُناسبةِ بينَ الفعل والمعنى المقصود؛ فالخلقُ يكونُ عندَ الحديثِ عنِ الإيجاد من العدَم، وتكوينِ الذَّوات، وهو أدقُّ وأشمَلُ وأقوى في الدِّلالة على الإبداع، أمّا الجَعلُ: فيُستعمَلُ - غالبًا - لتغييرِ حالِ شيءٍ مَوجود، أوْ لوصفِ هَيئةٍ أوْ وظيفةٍ لشَيءٍ مَخلوقٍ. ولمّا كانَ المقصودُ هنا الحديثَ عن أصلِ إيجادِ البَشَر، والحديثَ عن خَلقِهم على هيئةِ أزواج (ذكورًا وإناثًا)، كان التّعبيرُ بـ (خلقناكم) أنسبَ مِن (جعلناكم)؛ لأنَّ الحديثَ عن تكوينِ الذّواتِ البشريَّة لا مجرّد تحويلِ حالٍ أوْ وظيفة[2].

مَرجِعُ الضَّمير وبلاغةُ الالتفاتِ في ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ﴾:

الانتقالُ مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطاب يتعمّقُ به التّوبيخُ لأهلِ العِناد

في قولِهِ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ جاءَ الضّميرُ على صيغةِ الخِطاب، أي: خلقناكُم أنتُم، بعدَ أنْ كانتِ الآياتُ السّابقةُ تتحدّثُ بأسلوبِ الغَيبةِ عنهُم، كما في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، وهذا الالتفاتُ البلاغيّ من أسلوبِ الغَيبة إلى الخطاب يُضفي على الكلامِ مَزيدًا من التّوبيخ والإلزام، وكأنّ المتكلِّمَ يواجِهُهم الآنَ بما لا يُمكِنُهُم إنكارُهُ تقريبًا للمَعنى إلى الأذهان من خلالِ المواجَهة بعدَ الغَيبة[3].

دِلالةُ المَوقِعِ الإعرابيِّ لـ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ جاءَتْ كلمةُ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جعل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 16.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 16.

تصويرُ الهَيئة توضيحٌ للحاجة

منصوبةً على الحال من الضَّميرِ في (خلقناكم)، وليسَ المرادُ هنا الاستدلالَ على خلقِ الإنسانِ فحسبُ، بل أيضًا على حالٍ مخصوصةٍ لهُ عندَ الخلقِ، وهي كونُه زوجًا (ذكرًا أوْ أُنثى)؛ فالفعلُ (خلقناكم) يتعلّقُ بذواتِهم، والحالُ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ تصفُ تلك الذّواتِ عندَ الخَلْقِ، فجمَعَ بين الذّات والصّفة المُميِّزةِ لها، وبدلًا من التّعبير بـ: (وَخَلقناكُم، وجَعَلْناكم أزواجًا)، بالتّصريح بفعلِ (الجعْل) مع (الخلْق)، كما قال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ نَصبَ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ على الحاليّة الّتي أغنتْ عن ذلك، معَ ما فيهِ مِن إيجاز، فكلمة ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ رَسَمَتْ صورةً أدقّ لهيئةِ الخَلْقِ المقصودةِ، فنابَتْ في المعنى عن التّصريحِ بالجَعْلِ معَ الخَلْق، وأغنتْ عن أنْ يقالَ: (خَلَقناكُم وجَعلْناكُم)[1]. ولا يبعُدُ أنْ يكون في النّظمِ احتباكٌ بحذفِ الخَلْقِ من (الأرض)، والدّلالةِ عليهِ بـ(خلقناكم) وحذفِ (الجَعْلِ) من (الأزواجِ) بقرينةِ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ﴾ بقيَ أنَّ تصويرَ الهَيئة بعنوانِ الزّوجيَّة يُشعِرُ بالحاجة والافتقارِ لكلٍّ من الزَّوجينِ إلى الآخَرِ، وأنَّ اللّه تعالى مُستغنٍ عن ذلك.

بلاغةُ العُدولِ:

الاستدلالُ بنِعمةِ الخَلْقِ على الامتنانِ وقُدرةِ الحَقّ

جاءَ التّعبيرُ في الآية: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، ولم يقُل: (وخلقنا لكم أزواجًا)؛ للدِّلالة على أمرينِ مُجتمعَين، هما: الخلقُ لذاتِ الإنسان، والثّاني: حالتُهُ عندَ الخلق، وهي كونُه مَخلوقًا زَوْجًا.

وبهذا جُمِعَ بين النِّعمة في أصلِ الخَلْق، والنِّعمة في هَيئةِ الخَلْق، ليكونَ ذلك أبلغَ في الامتنانِ والتّذكير. والفرقُ الصَّريحُ بينَ التّركيبين: أنّ تعبير ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ يُبيّن أنَّ الإنسان نفسَهُ مخلوقٌ في أصلِ خلقِهِ على هيئةِ زَوْج، أي إنَّ الزوجيَّة هي جزءٌ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 17.

طبيعةِ الخَلْق لذاتِ الإنسان، وهذا يشيرُ إلى تكوينِ الإنسان في ذاتِه، وفي جوهرِ وجودِه، أمّا لو قيل: (وخلقنا لكم أزواجًا) لكانَ يَعني أنَّ الله خلقَ للنّاس أزواجًا لتأمينِ العيشِ والتّكاثُر، أي إنَّ الزّوجيّة مخلوقةٌ للنّاس كنعمةٍ وتيسيرٍ في الحياة، لكنَّها لا تصفُ طبيعةَ الإنسان بذاتِه، بل تصفُ العلاقةَ الاجتماعيّةَ والعيش. إذن الصّيغةُ الّتي جاءَ بها النّظمُ الكريم: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أعمقَ في إبراز الزّوجيّة كجزءٍ أصيلٍ من تكوينِ الإنسان، لا مجرّدِ علاقةٍ أوْ حاجةٍ تُلَبَّى، فتكون هذه الصّيغةُ أبلغَ في التّذكير بفَضْلِ الخَلْقِ والامتِنان[1].

دلالةُ التّعبير بـ(الزّوجيّة) في ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

الزّوجيّةُ مَظهَرُ القُدرة ويَنبغي التّصديقُ بتلك المِنّة

التّعبيرُ بـ(الزّوجيّة) في قوله: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ يتضمّنُ استدلالًا على عظمةِ قُدرةِ الله تعالى وحكمتِه، حيث خلقَ الإنسانَ بطبيعةٍ زوجيّة، تهيّئَ لكلٍ من الصّنفينِ (الذّكر والأنثى) ما يُناسبُ أنْ يكون زوجًا للآخر، بما يُحقّقُ السّكَن والمودّة والتّعاوُنَ في شؤونِ الحياة. كما أنّ فيه إيماءً إلى استنهاضِهم إلى شُكر المُنعِمِ الَّذي خلقَهُم بهذه الصّورة المُحكَمة؛ لتكونَ دالّةً على الاختيار وكمالِ علْم للخالقِ الجبّار، وتنبيهًا لهم أنَّ الإعراض عن دَعْوةِ الرّسول ﷺ بعدَ هذهِ الآلاء، هو كُفرانٌ بيِّنٌ للنِّعَم، وإنكارٌ للجَميل[2].

بلاغةُ الإيجازِ في التَّعبير بالأزواج:

ثَـراءُ المَعاني معَ إيجازٍ في المَباني

لفظُ (الأزواج) في قولِه تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ فيه إيجازٌ بديع ثريٌّ بمعاني الامتنان المُتلاحمة الّتي عُبِّر عنها بلفظ واحد، فلفظ (الأزواج) هنا يَحتمِلُ معنيين؛ **الأوّلُ**: الذّكَرُ والأُنثى كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النّجم: 45]، **والثّاني**: كلُّ زوجينِ وكلُّ مُتقابلينَ منَ القبيحِ والحَسَن، والطَّويلِ والقَصير وجميعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 17، 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 17، 18.

المُتقابِلات والأضداد، كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذّاريات: 49]؛ وهذا دليلٌ ظاهرٌ على كمال القُدرة ونهايةِ الحِكمة حتَّى يصحَّ الابتلاءُ والامتحان، فيتعبّدُ الفاضِلُ بالشُّكرِ والمفضولُ بالصَّبر، ويَتعرّف حقيقةَ كلِّ شيء بضدِّه، فالإنسانُ إنَّما يعرف قدرَ الشَّبابِ عندَ الشَّيب، ويعرفُ قدرَ الأمْنِ عندَ الخَوف، فيكون ذلك أبلغَ في تعريفِ النِّعَم(1).

نكتةُ ذكرِ (النَّوم) بعدَ (الأرضِ والجِبالِ والنّاسِ):

دلـيـلُ الـنَّـوم يومِئُ عنِ البعثِ بعدَ المَوْت

في الآياتِ السّابقة استُدِلّ بخلقِ الأرضِ والجبالِ والإنسانِ، فانتقلَ النّظمُ هنا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ إلى حالٍ من أحوالِ الإنسانِ نفسِه، وهي النّوم؛ لأنّه أقربُ شيءٍ يذكّرُ بالمَوت الّذي يَعقبُهُ البعث، والنّومُ يتكرّرُ كلَّ يوم، فيراهُ الإنسان ويشعُرُ بعظَته، فهو صورةٌ مصغّرةٌ للموتِ والبعث، دالٌّ على القُدرة الإلهيّة. أي إنّ النّومَ الَّذي يَعقِبُهُ الاستيقاظُ دليلٌ مَحسوس يوميٌّ على حقيقةِ البعثِ بعدَ الموت، كما كانتِ الاستدلالاتُ السّابقةُ كلُّها أدلّةً على البعث؛ فخلقُ الأرضِ والجبالِ والإنسان من عَدَم أعظمُ بُرهانٍ على إمكانِ إحيائِهم بعدَ مَوتِهم؛ لأنَّ مَن قَدَر على الإنشاء الأوَّلِ قدَرَ على الإعادة(2).

نكتةُ التّعبيرِ بـ(الجَعْل) في جانبِ النّوم:

الجعلُ توصيفٌ عـرَضيٌّ والخلقُ تكوينٌ جوهريٌّ

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ جاءَ الفعلُ (جعلنا) دونَ (خَلَقنا)؛ لأنَّ النّومَ ليس ذاتًا مخلوقةً، بل هو كيفيّةٌ وعارضٌ من أحوالِ الإنسان، يناسبُهُ فعلُ (جَعَل) الدّالُّ على التّصيير للهيئات بخلافِ (خَلَقْنا)؛ لأنَّ الأخيرَ يُستعمَلُ - غالبًا - لما كان تَكوينًا للذَّوات، لا للصِّفات والهيئاتِ(3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18.

دلالةُ تخصيصِهم بالإضافةِ في ﴿نَوۡمَكُمۡ﴾:

النِّعم المُتوالية تَقتضي التّيقُّن بالقدرةِ الباهرة

الإضافةُ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ ليستْ لتقييدِ النّوم بالنّاس دونَ سائرِ الكائنات، فجميعُ الحيوان ينامُ نومَ السُّبات، ولكنَّ المرادَ بها: توجيهُ الخِطابِ إليهم؛ تنبيهًا على ما يُباشِرونَه بأنفُسِهم، ليكون ذلك أقوى في الاستدلالِ على قُدرةِ اللّه تعالى، وأظهرَ في الامتنان عليهم بنعمةِ جعلِ النّوم راحةً وانقطاعًا عنِ الكدّ[1]. بقي أنَّ الإضافةِ في ﴿نَوۡمَكُمۡ﴾ من إضافةِ المصدرِ لفاعلِه، لكنّ مَن جعلَ النّومَ مُهيَّئًا للإنسان هو اللّه تعالى.

دلالةُ وصفِ النّومِ بالسُّباتِ:

تفصيلُ النّعمة عندَ البيان يَستدعي التّصديقَ والإيمان

وَصْفُ النّومِ بـ﴿سُبَاتٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ يحمِلُ في طيّاتِه معنى الرّحمة والرّاحة التّامّة، ولذلك جاءَ في موضع امتنانٍ خاصٍّ ببني آدم، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67] فجعلُ النّوم سُباتًا هو مِن النّعَم الّتي ينبغي التّأمُّلُ فيها كآية من آياتِ البَعث، لما فيها من مَشهَدِ الانقطاع ثمَّ العَودة[2]. فالإنسانُ في القبر وعندَ الموت يكونُ في سُباتٍ كالإنسانِ النّائم؛ فلِمَ لا يُستغرَبُ الاستيقاظُ بعدَ السُّبات ويُستغرَبُ بعثُ الإنسان بعدَ سُباتٍ في القَبرِ؟.

دلالةُ اختيارِ كلمةِ (سُبات):

كلُّ سُباتٍ يَعقُبُهُ عملٌ ومُهمّات

اختيرَ لفظُ ﴿سُبَاتٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾؛ لأنّه يتضمَّن معنى الانقطاعِ التّامّ عن العمَلِ والحَركة، وليس مجرَّدَ النّومِ العارِضِ القصير، فهو نومٌ فيه انخلاعٌ من الكدِّ والتّصرّف، وانفصالٌ ظاهرٌ عن جَهد الحياة[3]، وذلك السُّباتُ يعقبُهُ استيقاظٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18، 19.

للعمَلِ وإنجازِ المُهمّات، فالموتُ سباتٌ يعقبُه بعثٌ وجزاءٌ؛ فإمّا نارٌ وإمّا جنّات.

دلالةُ التّقابُلِ البلاغيِّ في السّياق:

التّعبيرُ بالتّضادّ يحقّقُ المُراد

المَعنى في (السّبات) هو الانقطاعُ عن الكدِّ والسَّعْي، المرادُ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾، وقد جاء تمهيدًا بديعًا لتقابلِ ما بعدَه من قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ فاللّيلُ للانقطاعِ والسُّكون لكونِهِ لباسًا يُغطّي السّابتينَ، والنّهارُ للسَّعي والعَمَل، وفي هذا التّقابلِ تنظيمٌ ربّانيٌّ دقيق لنظام الحياة، يُلفِتُ النّظرَ إلى التّدبير الرّبانيِّ المُتكامِل بينَ الرّاحةِ والحَرَكة[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في ﴿نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾:

تذكيرُ الإنسانِ بمَوتِه الأكبر من خلالِ مَوتِهِ الأصغَر

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ تشبيهٌ بليغ، أي: حُذِفَ منه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصارَ كأنَّ النّومَ هو عينُ السُّبات، والسّباتُ هو المَوْتُ. وأصلُ ذلك: أنَّ السُّباتَ في اللُّغة: القطع، ومنه: سَبَتَ الشّعرَ (قطعَهُ)، وسَبَتَ أنفَهُ (قطعَهُ)، فسُمّي الموتُ (سباتًا)؛ لأنّه يقطَعُ الحياةَ والأعمال، والنّومُ شُبِّه بالموتِ؛ لأنّه يقطعُ حركةَ الإنسانِ وأعمالَه، حتّى وصفَه اللّه تعالى بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60]. ووجهُ البلاغة في تشبيهِ النّوم به: أنّ جعلَ النّوم ﴿سُبَاتٗا﴾ يُصوِّر النَّومَ بالموت، فصار النّومُ نفسُه مَوْتًا أصغر. وهذا أبلغُ في التّذكير بالقُدرة الإلهيَّة؛ فكما أنَّ اللّه يُميتُكُم موتةً صُغرى بالنّوم، فهو قادرٌ على إماتتِكُم موتةً كُبرى بمفارقةِ الحياة بالكليَّة. ومن جهةٍ أخرى فيه امتنانٌ؛ لأنَّ اللّه تعالى جعلَ النّومَ راحةً وانقطاعًا من تعبِ العمَل، رَحْمةً بالإنسانِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18، 19.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 206.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾ [النبأ: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في كلِّ آية، تدلُّ على وجوبِ الاعتبار والعِظَة

لمّا ذكرَ النّظمُ الكريم ما يَطَؤُهُ الإنسان من أرضٍ وجبال، وانتقلَ إلى خلقِ الإنسان نفسِهِ بهيئَةِ الأزواج، وأنَّه ينامُ سابِتًا بعدَ التّعَب والعَناء أرادَ النّظمُ الكريم بيانَ خلقِ ما يقَعُ ظرْفًا لهذا الإنسان ممّا يُحيطُهُ ويَعلوه، فذكرَ اللّيلَ والنّهار، والسَّبعَ الشِّدادَ والنّجمَ الوهّاج. أوْ لمّا ذكرَ النّوم وما فيه من راحةٍ، أعقبَهُ بذكرِ أنسَبِ أوقاتِهِ، فذكّرهم بنعمةِ اللَّيل الَّذي جعلَهُ ظرفًا زمنيًّا للسَّكينة بعدَ أنْ ذكر لهم الأرضَ ظرْفًا مكانيًّا للقرار، فأبانَ بعظيمِ أثَرِه عظمةَ خالقِهِ، ولمّا ذكّرَهُم بالأرض وما جعلَ فيها من قرارٍ ومِهاد، أتبعَ ذلك بذكرِ السَّقفِ المَرفوع فوقَها، وهو السّماواتُ السَّبع، الّتي بدورانِها ينتظِمُ اللّيلُ والنَّهار، وفيها المصابيحُ المُضيئة والمنافعُ الجليَّة لإحياءِ الأرض ومَن عَليها، ولمّا ذكرَ السّقفَ المرفوع، أتبعَهُ بذكرِ أعظم ما فيه من المنافع الظّاهرة، وهي الشّمسُ الّتي جعلَها اللّه سراجًا وهّاجًا.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسٗا﴾: أصلُ (لبس) يدلُّ على مُخالَطَةٍ ومُداخَلَة، مِنْ ذَلِكَ: لَبِسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ، وهوَ الأَصْلُ، ومِنْهُ تَتَفَرَّعُ الفُروعُ[1]، واللُّبْسُ بالضَّمِّ: مَصْدَرُ قَوْلِك: لَبِسْتُ الثوبَ أَلْبَس، واللَّبْس، بالفَتْح: مَصْدَرُ قَوْلِك لَبَسْت عَلَيْهِ الأمرَ أَلْبِسُ خَلَطْت، واللِّباسُ: ما يُلْبَس، وكَذلِك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبس).

المَلْبَس واللِّبْسُ، بالكَسْرِ، مثلُه[1]، وجُعِلَ اللّباسُ لكلّ ما يُغطّي الإنسانَ عن قبيح حقيقةً أوْ مجازًا؛ تشبيها باللّباس السّاتر، كما جُعِل الزّوجُ لزوجِهِ لباسًا من حيثُ إنَّه يَمنَعُها ويَصدّها عن تعاطي القَبيح[2]. والمرادُ بقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾: أي: سِترًا يَستُرُكُم عن العُيون إذا أردتُم إخفاءَ ما لا تُحبّونَ الاطِّلاعَ عليهِ[3].

2) ﴿سِرَاجًا﴾: أصلُ (سرج) يدلُّ على الحُسْنِ والزّينَةِ والجَمالِ. مِنْ ذَلِكَ السِّراجُ، سُمّيَ لِضيائِهِ وحُسْنِهِ. ومِنْهُ السَّرْجُ لِلدّابَّةِ. هوَ زينَتُها. ويُقالُ سَرَّجَ وجْهَهُ، أيْ حَسَّنَهُ، كَأنَّهُ جَعَلَهُ لَهُ كالسِّراجِ[4]. والسِّراجُ: الزّاهر بفتيلةٍ ودُهْن، ويعبّر به عن كلّ مضيء، قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾ [نوح: 16]، ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، يعني: الشمسَ. وأسرجْتُ السِّراجَ: أوقَدْتُه. وسرَجْتُ الشّيءَ: جعلتُهُ في الحُسْن كالسِّراج[5]. والمراد بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ أي: مُضيئًا بزهاءٍ واكتمال، والمرادُ هنا: الشّمسُ[6].

3) ﴿وَهَّاجًا﴾: أصلُ (وهج) يدلّ على كَلِمَةٍ واحِدَةٍ، وهي الوَهَجُ: حَرُّ النّارِ وتَوَقُّدُها. ويُسْتَعارُ ذَلِكَ فيُقالُ: تَوَهَّجَ الجَوْهَرُ: تَلألأَ. وتَوَهَّجَتْ رائِحَةُ الطّيبِ، ووَهَجُ الطّيبِ: أرَجُهُ ورائِحَتُهُ. وسِراجٌ وهّاجٌ: وقّادٌ، وكَذَلِكَ نَجْمٌ وهّاجٌ[7]، والنّارُ تَهجُ وهْجًا ووهَجانًا، اتَّقَدَتْ، والاسْمُ: الوَهَجُ، محرَّكةً، وتَوَهَّجَتْ وأوهَجْتُها. ولها وهيجٌ: تَوَقُّدٌ[8]. والوَهَجُ، بالتّحريك: حَرُّ النّار. والوَهْجُ بالتّسكين: مصدرُ وهَجَتِ النّارُ تَهِجُ وهْجًا ووَهَجانًا، إذا اتَّقدَتْ[9]. و﴿وَهَّاجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: مُشتعِلًا، و﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: مُضيئًا وقّادًا، أي جامِعًا للنّور والحَرارة، والمرادُ في الآية أنَّ الشّمسَ مُضيئةٌ ومُتّقِدةٌ[10].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (لبس).
(2) الرّاغب، المفردات: (لبس).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرج).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سرج).
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهج).
(8) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وهج).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (وهج).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وهج)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.

المَعْنى الإجْماليُّ:

والمعنى: وجعَلْنا اللّيل ساتِرًا لكُم بظُلمتِهِ مثلَ اللِّباس الَّذي تَسترونَ به عَوراتِكم. وجعلنا النَّهارَ مَيدانًا للكسبِ والبَحْث عن الرِّزق، وبنَينا فوقَكُم سبعَ سماواتٍ مَتينةِ البِناء مُحكمةِ الصُّنع، وصيَّرنا الشّمسَ مِصباحًا شديدَ الاتِّقاد والإنارةِ والضّياء.

مَن أوجَدَ هذا النِّظامَ قادرٌ على إعادتِهِ بعدَ الانهِدام

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّشبيهِ وغرضُهُ في (اللَّيل لِباسٌ):

في قولِهِ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ تشبيهٌ بليغ؛ فاللَّيل شُبِّهَ باللِّباس، أي: كما أنّ اللِّباسَ يُغطّي جسمَ الإنسان ويَسترُهُ ويُحيطُهُ، كذلك اللَّيلُ يَغشى النّاسَ بظَلامِهِ فيسترهُم ويُظلّهم. ووجهُ الشّبه هنا هو التَّغشيةُ والسِّتر والإحاطةُ، والتَّشبيهُ بليغٌ؛ لأنَّ الكلام جرَى على صورة إثبات اسم المشبَّه بِهِ (اللِّباس) للمشبَّه (اللَّيل) دونَ أداةِ تشبيهٍ أوْ وجهِ شبَهٍ مذكور، ممّا يقوّي المعنى ويجعلُ القارئَ يتصوّرُ اللَّيل وكأنه لباسٌ حقيقيٌّ يَلبَسُه النّاسُ(1).

اللّيلُ غِطاءٌ ساترٌ ليعُمَّ السُّكونُ والهدوءُ في الخاطِر

بلاغةُ إطلاقِ (اللِّباس) على (اللّيل):

أُطلِقَ على اللَّيل أنَّه لِباسٌ، وفي ذلك تشبيهٌ دقيقٌ من عدّةِ وُجوه:

مِن جهةِ السَّتر والتّغشيةِ: فكما يَستُرُ اللِّباسُ الجسدَ، يَستُرُ اللَّيلُ الإنسانَ ويُخفي حركاتِه، فيُتيحُ له خُصوصيَّةً وسُكونًا لا يقدِرُ عليه في النَّهار، وهو تعريضٌ ببُطلانِ عقيدةِ المَجوس الَّذين يجعلونَ الظَّلام إلهًا مُستقِلًّا.

مِن جهةِ الرّاحةِ والمُلاءَمة: فكما يَلبسُ الإنسان لباسًا مُريحًا للنّوم، فاللَّيلُ ذاتُهُ نظامٌ ربانيٌّ مُحاطٌ بالسَّكينة، يهيّئُ الرّاحة لجميعِ الحواسّ والأعصابِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 20.

مِن جهةِ الوِقاية والحِماية: إذ كان العربُ لا يُغير بعضُهم على بعضٍ ليلًا، وجَعلوا النَّهارَ والصباحَ زمنًا للحرب، فجاءَ اللّيلُ وقايةً من الأخطار تمامًا كما يقي اللِّباسُ الإنسانَ من المُؤْذيات[1].

من جهةِ الاستدلال: فكما أنَّ النّومَ سُباتٌ واللّيلَ لباسٌ؛ فإنَّ الموتَ سُباتٌ والقبرَ لباسٌ، ويَعقِبُ النّومَ النّهارُ للمَعاش؛ فكذا يَعقِبُ الموتَ البعثُ والنّشرُ بعدَ طول السُّبات للجَزاء والحِساب.

دلالةُ التَّعريضِ في إطلاقِ اللِّباسِ:

دفعُ أوهامِ العقائدِ المُنحرِفة في وصفِ اللَّيل

في وصفِ اللَّيل بـ(اللِّباس) في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ ردٌّ ضمنيٌّ على معتقداتِ المَجوس والدّهريين الَّذين يزعُمونَ أنَّ اللّيل كيانٌ شرّيرٌ مُستقِلٌّ، فجاءَ الخطابُ القرآنيُّ لبيان أنَّ اللَّيل خَلْقٌ نافع، مُسخَّرٌ للرّاحة والسُّكون، ومن آياتِ الرَّحمة لا من مَظاهِرِ الشّرِّ؛ ففي جعل ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ محلًّا للامتنان والمنفعة تعريضٌ بهم، وتسجيلٌ عليهم[2].

بلاغةُ عطفِ آيةِ النَّهارِ على آيةِ اللَّيل:

عطفُ المُتضادّات لبيان كمالِ النِّعَم والعَطاءات

لمّا ذكر خلقَ نظامِ اللَّيل في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ قوبِلَ بخلقِ نِظامِ النَّهار ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾، فالنّهار: الزّمانُ الَّذي يكون فيه ضوءُ الشّمسِ مُنتشِرًا على جزءٍ كبيرٍ من الكرة الأرضيَّة، وفيه عِبرةٌ بدقّة الصُّنع وإحكامِه؛ إذ جعلَ نظامين مُختلفَين؛ منشؤُهُما سُطوعُ نورِ الشَّمس واحتجابُهُ فوقَ الأرض، وهما نِعمتانِ للبَشر مُختلفتانِ في الأسباب والآثار، فنعمةُ اللَّيل راجعةٌ إلى الرّاحة والهُدوء، ونعمةُ النّهارِ راجعةٌ إلى العمَلِ والسّعي؛ لأنَّ النّهارَ يعقُبُ اللّيل، فيكونُ الإنسانُ قد استجدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه ليتمكَّنَ من مُختلَفِ الأعمال بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرُق[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18، 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 20، 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 21.

بلاغةُ التَّشبيهِ وغرَضُه في (النَّهار معاشٌ):

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ تشبيهٌ على اعتبارِ أنّ المَعاش بمعنى الحَياة، فيكون المعنى: جعلنا النَّهارَ حياةً لكم، فشُبّهتِ اليقظةُ الَّتي تكون في النّهار بالحياةِ نفسِها؛ لأن باليقظةِ يظهَرُ نشاطُ الإنسان وحركتُهُ، وكأنَّ النّهار نفسَه صارَ حياةً متجدّدةً. والتّشبيه بليغٌ، حُذفتْ منه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشَّبه، فأُثبتَ المُشبَّهُ به (الحياة) للمُشبَّه (اليقظة في النّهار)، ووجهُ الشّبه: ظهورُ الحركةِ والنَّشاطِ والقُدرة على العمَلِ، وهذا التّوجيهُ يدلُّ على صبحِ يومِ القيامة بعدَ لباسٍ وسُباتٍ قبل البعثِ والنّشر، أوْ في الآية مجازٌ على اعتبار أنّ المعاشَ بمعنى (المعيشة) (أي ما به يَعيشُ الإنسانُ مِن كَسْبٍ ورِزْق)، فيكون وصفُ النّهار بالمعاشِ مَجازًا عقليًا بعلاقةِ السببيَّة؛ لأنَّ النّهار سببٌ للعمَل، والعملَ سببٌ للرِّزق، فكأنّه نفسُ الرِّزق[1].

النّهارُ مَصدَرُ العَيشِ الحَلال، والسّعيِ في دروبِ الحَياة بلا ضَلال

توجيهُ التَّعبير بـ(المعاش) بين المصدرِ الميميِّ، واسمِ الزَّمان:

في كلمةِ (المَعاش) من قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وجهانِ من حيثُ الدِّلالة الصّرفيَّة:

النّهارُ فرصةُ السَّعي والكَسْب، يسّرَها الله لمَن أرادَ وأحبّ

الوجهُ الأوّلُ: أنَّ (المَعاش) مصدرٌ ميميٌّ من (عاشَ عَيشًا ومَعيشةً)، وعلى هذا فلا بدَّ من تقديرِ مَحذوفٍ، أي: جعلنا النَّهارَ وقتًا للمَعاش، أي: للعَيشِ والكَسْب.

الوجهُ الثّاني: أنَّ (المَعاش) على وزنِ (مَفعَل) (اسمُ زمان)، فيكونُ بمعنى: زمنًا وظرفًا ووقتًا للعيش. وعلى هذا لا حاجةَ إلى تقديرِ مَحذوف، والمعنى: جعلْنا النَّهارَ نفسَهُ مَعاشًا، أي: ظَرْفًا يعيشُ فيه النّاسُ ويتحرَّكونَ لقضاءِ حَوائِجِهم؛ فالوجهُ الأوّلُ يُفسِّرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.

(المَعاش) مصدرًا يحتاجُ إلى تقديرِ (وقتٍ للعيش)، والثّاني يفسِّرُه كظرفِ (زمانٍ للعَيش والعمَل)[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في ذكر آية اللّيل وآيةِ النَّهار:

مِن النِّعَم اللَّطيفة توزيعُ الوَقْتِ بينَ السُّكون والوَظيفة

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ أسلوبُ احتباكٍ، وهو أنْ يُذكَر في كلِّ جملةٍ شيءٌ ويُحذَفَ مُقابلُه اعتمادًا على ذِكره في الجملةِ الأُخرى؛ فذكرَ في الأوْلى: ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ وهذا يدلُّ على حذفِ مُقابلِه في الثّانية، أي: وليس معاشًا. وذكر في الثّانية: ﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾، وهذا يدلُّ على حذفِ مُقابلِه في الأوْلى، أي: وليسَ لِباسًا. فكأنَّ المعنى الكامل: وجعلنا اللّيلَ لباسًا لا مَعاشًا، وجعلنا النّهارَ معاشًا لا لباسًا، وهذا من بلاغةِ القرآن إذ جمعَ المعنيينِ معَ الإيجاز[2].

نكتةُ إيثارِ فعلِ (الجعل) مع اللّيل والنّهار:

فعلُ الجَعل كيفيّ، وفعلُ الخَلْق تكوينيّ

اختيرَ فعلُ (جَعَلنا) بدلًا من (خلقْنا) في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾؛ لأنَّ النّومَ واللِّباسَ والمَعاش صفاتٌ وأحوالٌ وأوصافٌ تَقتضي فعلَ الجَعْلِ الَّذي يُناسِبُ الكيفيّات، لا الخلقَ الَّذي يختصُّ بالذَّوات إيجادًا.

نكتةُ عدمِ إضافةِ (اللّيل والنّهار) كما أُضيفَ (النّومُ):

النّوم نعمة شخصيّة لا تغيب

أُضيفَ (النّوم) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ﴾، لا لتخصيصِ نومِ الإنسانِ دونَ غيره، بل لتقويةِ دلالةِ الامتنانِ والتّذكيرِ بالنِّعمة الخاصَّة بهم، فكلُّ حيوانٍ ينامُ نومَ السُّبات، ولكنْ ذكرَ الإنسانَ تنبيهًا على أثر هذه الحالِ فيه. ومع ذلك لم يُضفْ إليهم اللّيل والنّهار كما أضافَ النّوم، فلم يقل: (وجعَلنا لَيلَكُم.. وجعلنا نهارَكم)، والنُّكتةُ في ذلك: أنّ النّومَ أمرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 10.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 197.

شخصيٌّ يقعُ على كلِّ فردٍ، والإنسانُ يُحسّ بآثارِهِ في بدنِهِ، فهو نعمةٌ ذاتيّة لصيقةٌ به. فجاءتِ الإضافة ﴿نَوۡمَكُمۡ﴾؛ ليَستحضِرَ المُخاطَبُ إحساسَه بنفسِهِ في حالِ السُّبات، فيدركَ النّعمةَ أقوى إدراك، أمّا (اللَّيل والنّهارُ) فهما ظاهرتانِ كَونيّتانِ عامّتان، ليستا مُختصَّتينِ بالإنسان وحدَهُ، ولا يشعُرُ كلُّ فردٍ بمِلكيّتِهما كما يشعُرُ بملكيّته للنّوم، إذ لا يقالُ عادةً: (ليلي ونهاري) إلّا مَجازًا، بل اللّيل والنّهار مِظلّتانِ للجميع؛ إنسًا وجنًّا وحيوانًا، فتركُ الإضافةِ ليبقى المعنى على عمومِهِ ويشملَ كلَّ المخلوقات، وليظلّ السّياق في ذكرِهِما على صفة التّهيئةِ العامَّة لا النِّعمة الخاصَّة. فالمعنى: ﴿نَوۡمَكُمۡ﴾: نعمةٌ شخصيّةٌ - أضيفتْ لزيادةِ الامتنان، ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ﴾: نعمتانِ عامّتانِ كونيّتانِ - لم تُضَفْ لإبقاءِ العُموم.

بلاغةُ (الاكتفاء) بينَ أطرافِ المُقابلة في النّظْم:

التّرتيبُ البيانيّ يكشِفُ وجهَ المُقابلة الدّلاليّ

جاءَ ذكرُ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بعد ذكر كلٍّ من النّوْم واللَّيل، في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾؛ ليُفهم منهُ أنَّ النَّهار هو بدءُ زمنِ اليَقظة الّتي هي ضدُّ النّوم، فكأنَّ التقدير: (وجعلنا النّهار واليقظة فيه معاشًا)، وهذا من بابِ الاكتفاءِ البلاغي[1]؛ حيث يُذكرُ أحدُ الضدَّين ويُراد معه الآخَرُ لدلالةِ السّياق. ومن هذه المقابلةِ الدَّقيقة حصلَ نوعٌ من المطابقةِ البيانيَّة بين الجمل الثلاثِ: (النّومَ سباتًا) و﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾، إذ فيها تقابلٌ لفظيٌّ ومعنويّ، يجمَعُ بينَ تقابُلِ الأحوالِ البشريَّة (نوم، يَقظة)، وتقابلِ الأزمنةِ الّتي تقَعُ فيها (ليلٌ، نهار)، وتقابلِ الغايات (سُكون، سَتر، عمَل)، فكان في ذلك إحكامٌ بديعيٌّ بليغ[2].

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 118، وابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/ 282، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 335.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 21.

دِلالةُ الجَمْعِ بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ مقابلةٌ جامِعةٌ بين سترِ اللَّيلِ وسُكونِه، وسَعْيِ النَّهار وحركتِهِ، وتوُسِّل في ذلك بتعبيرينِ مُتقابلينِ هُما (اللِّباس) و(المَعاش).

أفعالُ المنّان تَشتمِلُ على كلِّ إحسان

دلالةُ مُقابلةِ المَعاش في النَّهار للسُّبات في اللَّيل:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، وقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ ذُكِرَ (المَعاشُ) وجاءَتِ المُقابلةُ مُحكَمةً بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ الدّالّ على: السُّبات، والسُّكون، والسّتر، والرّاحة، وبينَ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ الدّالِّ على: المَعاش، واليقظَة، والكَشف، والحرَكة؛ ليدُلّ ذلك على تقسيم الخلقِ بينَ انطِواءٍ وظُهور، وسُكونٍ وحَرَكةٍ، ومَوْتٍ وحَياةٍ، بما يَجري مُجرى آياتِ البعثِ والنُّشور.

مـن أوجدَ المُتضادّات قدَرَ على هَـدْمِ تلك الكائنات

دلالةُ التّعبير بفعلِ (البِناء) في ﴿وَبَنَيۡنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ جاءَ التّعبيرُ بالفعل الماضي (بنينا)؛ للدِّلالة على خلْقٍ مُحكَمٍ مُرتفِعٍ، يُشبِهُ ما تُشاهِدُهُ الأبصارُ من القِبابِ المُشيّدة فوق الأرض، فجُعلتِ السَّماءُ كأنَّها مَبنيّة عاليةٌ تُشرِفُ على النّاس، وهذا تجسيدٌ تصويريٌّ يقرِّبُ المعنى إلى الأذهان برَبْطِهِ بما يُرى ويُحَسّ.

استدعاء صورة البناء العالي لإثارة النَّظر والاعتبار

نكتةُ التّعبيرِ بفعلِ (البِناء) دونَ (الخلْق):

لم يقُلِ النّظمُ الكريمُ: (خَلقنا سَبْعًا شِدادًا) أوْ (جَعَلنا)، بل قالَ: ﴿وَبَنَيۡنَا﴾؛ لتصويرِ الرِّفعة والإتقان، ولإبرازِ الهيئةِ التّكوينيَّة للسَّماوات فالبناءُ أخصُّ من الجَعْل والجعلُ أخصُّ منَ الخَلق.

دلالةُ القَيد الظرفِيّ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾:

جعلُ هذا البناءِ (السَّماء) فوقَ النّاس بما نطقَ بهِ قولُهُ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾، فيه إيماءٌ دقيقٌ إلى العلاقةِ بين علوّ المكانِ وعلوّ الشّأن[1].

تحديدُ الفوقيّة دعوةٌ للتّأمُّلِ في العَوالِمِ العُلويَّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.

ودعوةٌ صريحةٌ للتّأمُّلِ في العوالِمِ العُلويَّة، كما اشتملَتِ الآياتُ السّابقةُ على دعوةٍ للتّأمُّلِ في العوالِمِ الأرضيَّة والنّفسيَّة.

بلاغةُ التّشبيه المكنيِّ في ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾:

البناءُ المُحكَمُ المتين، يكونُ مُقامًا فوقَ السّاكنين

في قولِه تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ تشبيهٌ مكنيٌّ حيثُ ذُكِرَ في التّركيب المُشبَّهُ وحُذِفَ المُشبَّهُ به، مع إبقاءِ لازمٍ من لوازمِهِ؛ فذُكِرتِ السّبعُ الشِّداد (المُشبَّه)، وحُذف المشبَّهُ به (الأبنيةُ المُشيّدةُ فوقَ الرُّؤوس)، وأُبقي لازمٌ من لوازمِهِ وهو قولُهُ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾، ووجهُ الشّبَه الإحكامُ والمَتانةُ والارتفاعُ فوقَ المُستفيدِ منه. فالاستعارةُ التخييليّة في: (بَنَيۡنا)، إذِ السّماواتُ الشِّداد شُبّهتْ بأبنيةٍ مُحكمةٍ، والبناءُ المُحكَمُ من لوازمِهِ أنْ يكون مُقامًا فوقَ السّاكنين، ولهذا ذكرَ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾، لتنبيهِ السّامع بواحدةٍ من أهمِّ خصائص البناءِ الحقيقيّ، وهو أنَّه يَعلو على مَن يسكُنُ تحتَهُ.

بلاغةُ الإيماءِ إلى وجهِ الشَّبه في ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾:

خلقُ السّماوات دليلٌ على موجِدِ الكائنات

هذه الفوقيَّةُ المُصرّحُ بها في قولِهِ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ هي إيماءٌ ورمزٌ لوجهِ الشّبَه المَحذوف، ولو قيلَ: ﴿وَبَنَيۡنَا﴾ من غيرِ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾، فقد يخطُرُ ببال السّامع أيُّ بناء، سواءٌ فوقَهُ أوْ حولَه. لكنَّ القرآنَ أضافَ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾ ليقرّبَ الصّورةَ الذّهنيَّة من البناءِ الّذي يظلّل ويعلو المستفيدَ منه. وهذا الارتفاعُ جزءٌ من وجهِ الشّبَه الَّذي من أجلِهِ أطلقَ (بَنَيۡنا) على السَّماء. فكلمةُ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾ لا تصرّحُ بوجهِ الشَّبه كاملًا، لكنّها تلمّحُ إليه، فتشيرُ إلى أنَّ المقصودَ بالبناء هنا هو ما يُشيَّد عاليًا على المستفيد - مثلُ القُبَّة أوِ السَّقف - وليس أيَّ نوعٍ من البناء. ولو أرادَ التّصريحَ لقيل مثلًا: (بَنَيۡناها محكمةً عاليةً فوقكم)، فحينئذٍ يصيرُ وجهُ الشّبه مذكورًا لفظًا. لكنَّه لم يقل ذلك، بل اكتفى بـ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾، وهي كلمة موجزةٌ تكفي لأنْ توقِظَ في ذهنِ السّامع صورةَ البناءِ

المُرتفع، وهذا الإيجازُ مع الإشارةِ غيرِ الصَّريحة هو ما يُسمّى بلاغةَ الإيماءِ إلى وجهِ الشَّبه[1].

الغرضُ من اختيارِ لفظِ (البِناء):

إحكامُ بناءِ السَّماء يُشعِرُ ببُعدِها عن الانمِحاء

التّعبيرُ بمادّة (البناء) في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ بدلًا من أنْ يُقالَ مثلًا: (وجعلنا فوقكم سبعًا شدادًا)؛ إشارةٌ إلى نكتةٍ معنويّةٍ بديعة، إذ البناءُ يوحي بالتّماسُك الشَّديد والصَّلابة والدَّيمومة، بخلافِ (الجعل) الّذي قد يوهِمُ بإمكانِ الانهيار والانحلال، فمعَ أنَّ السَّماء سقفٌ للخلق، فإنَّ استعمالَ لفظِ (بنينا) دالٌّ على أنّها لا تُشبِهُ السُّقوفَ المُعتادة، بل هي في إحكامِها وتماسُكِها وامتناعِها من الزَّوال كالبناءِ المُحكَم بل أشدُّ؛ فالغرضُ من اختيار لفظِ (البناء) ليسَ مجرّدَ تشبيهٍ بالقِباب المُشاهدة، بل أيضًا للتّعبيرِ عن الاستقرارِ المُطلَق والبُعدِ عن كلِّ خَلَلٍ[2].

نكتةُ تقديمِ الظَّرف على المفعولِ:

تحقيقُ التّشويق، بترسيخِ التّفصيلِ الدّقيق

في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ قُدِّمَ الظّرفُ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾ على المفعولِ: ﴿سَبۡعٗا﴾، ليسَ لِمُراعاةِ الفواصلِ فحسب، بل تشويقٌ للنّفس وإثارةٌ للتّرقُّب، فحين يسمَعُ السّامعُ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ يتولّدُ في نفسه سُؤالٌ: ما الَّذي بُني فوقَنا؟ فتظلُّ النّفسُ متطلِّعةً إلى الجواب، مُتشوّقةً إلى تمام المعنى، فإذا قيلَ بعدَ ذلك: ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾، وقع الكلامُ في النَّفس مَوقِعًا أبلغَ وأشدَّ تأثيرًا، وتمكّن المعنى رُسوخًا، وهذا التَّشويقُ يُعينُ على إرساءِ المَعنى الإيمانيِّ في القلوب، فإنّ ما يَرِدُ بعدَ التّرقُّب يَثبُتُ أثرُه أكثرَ، ويَعظُم حُضوره في النّفْس[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 10.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87.

إضمارُ المَوصوفِ لِدِلالةِ السّياق في ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾:

إيجازُ العِبارة في الرَّمزِ بالإشارة

في قولِه تعالى: ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ أُريدَ بها السَّموات، وقد حُذِفَ الموصوفُ (السّماوات) واعتُمِدَ على الصِّفة وعددِها للدِّلالة عليه؛ لأنَّ المقام والسّياقَ يُرشّحان ذلك، ونظير ذلك قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: 11] أي: السَّفينة، فذُكرت الصِّفة (الجارية) مع حذفِ المَوصوف (السَّفينة) لعلْمِ السّامع بهِ[1].

مُطابقةُ العدَدِ للمَوصوف المَحذوف في ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾:

إضمارُ المَوصوف، إيجازٌ بلا خَلَلٍ مَعروف

لأجلِ أنَّ الموصوفَ المَحذوفَ هو السّموات، وهو لفظٌ مؤنّثٌ، جاءَ العددُ مُطابِقًا له تأنيثًا، فقيل: ﴿سَبۡعٗا﴾ لا سبعةً، وهذا من دقّة القرآن في مُطابقةِ الحذف لما يدلُّ عليه السّياق من جهة اللَّفظِ والمَعنَى معًا[2].

دلالةُ الاستعارةِ التّصريحيَّة التّبعيَّة في ﴿وَبَنَيۡنَا﴾:

مَن قَدَر على البناء، فهو قادِرٌ على المَحْوِ لَهُ والإفناء

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (بنينا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾؛ للدِّلالة على الإيجادِ والتّكوين؛ إذ شبَّهَ النَّظمُ الإيجادَ والأمرَ التّكوينيّ بالبناءِ ثمَّ حذفَ المشبَّه وأبقَى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ من التَّشبيهِ الدِّلالة على أنَّ ذلك التّكوينَ السّماويّ بناءٌ مُستعلٍ يُخشَى سقوطُهُ على الأرض، وأنَّ الأمرَ التّكوينيَّ كانَ إنشاءً لأمرٍ مُحكَمٍ مَتين، وذلك الصُّنعُ دليلُ الإتقان والإحكام، ومَن قدَرَ على البناءِ بالأمرِ التّكوينيّ فهو قادِرٌ على المَحْو له والإفْناء.

دلالةُ اختيارِ (جعَلْنا) دونَ (خَلَقْنا):

الوَهَجُ الشَّديد حالٌ لذلك الحرِّ المَديد

اختيرَ الفعلُ (جعَلْنا) بدلَ (خَلَقنا) في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾؛ لأنَّ المقصودَ تصويرُ حالِ الشَّمس في كونِها سِراجًا وهّاجًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22، 23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22، 23.

لا ذاتِها المَخلوقةِ، ففعلُ (جعلَ) أنسبُ في التّعبير عن الأوصافِ والأحوال، بخلافِ (خلَق) الّذي يتعلَّقُ بإنشاءِ الذَّوات[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبير عن الشَّمس بوَصفِ ﴿سِرَاجًا﴾:

الشّمسُ مِصباحٌ عظيمٌ دالٌّ على الإنشاءِ القَويم

السرُّ في إيثارِ التّعبير عنِ الشَّمسِ بلَفظ ﴿سِرَاجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ كونُها ليسَتْ مجرَّدَ جسمٍ مُضيءٍ، بل هي بمنزلةِ المِصباح العَظيم الَّذي يَنتشِرُ ضياؤُهُ ويَملأُ الأرجاء، فيَبعثُ الحياةَ والنّورَ والدِّفْء، ذلك أنّ السِّراجَ هو المِصباحُ الزّاهِر ذو الضّياءِ والحُسْن[2]. ثمّ جاء وصفُها بـ ﴿وَهَّاجًا﴾ ليدلَّ على قوّةِ ضيائِها وحرارتِها الدّائمةِ المتدفِّقة، بخلافِ السِّراج العاديّ الَّذي قد يَخبو؛ فالوَصفانِ معًا يُصوِّرانِ الشَّمسَ كأنَّها سِراجٌ هائلٌ لا يَنطفِئُ، فيه نورٌ وحرارةٌ تُقيمانِ الحياةَ.

الدّلالةُ الصَّرفيّة لـ﴿وَهَّاجًا﴾:

شـدّةُ التـوهُّـجِ لعظيمِ التّأجُّجِ

الوصفُ ﴿وَهَّاجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (فعّالٌ) فيه مُبالغةٌ، وهو إمّا من الوَقود والتّلألؤ، أي: كثيرُ الإضاءَةِ والاشتعال، مِن وهَجَتِ النّارُ إذا أضاءَتْ، أوْ من الحرارةِ الشَّديدة، أي: بالغةُ السُّخونةِ؛ مِن الوَهْج وهو الالتهابُ والحَرُّ، والمَقصودُ بِه الشّمسُ[3].

سرُّ إيثارِ الاقتصارِ على ذِكر الشَّمسِ دونَ القَمَر:

الحرارةُ والضّياء أسـاسٌ لبقاءِ الأحياء

السرُّ في الاقتصار على ذكرِ (الشَّمس) دونَ (القمَر) في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أنَّ السّياق هنا في تَعدادِ دلائلِ القُدرة على البَعث بذكرِ أعظَم المخلوقات وأقواها أثرًا في حياةِ النّاس، فالشّمسُ هي المصدرُ الأعظَمُ للنّور والحرارة والطّاقة، ومِنها تنبثق حياةُ الأرضِ كلِّها، فهي أشبَهُ بالقلبِ النّابض إلى الأرض، وأمّا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 24.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرج).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، والجوهريّ، الصّحاح: (وهج).

القمر فنورُهُ مُستفادٌ من الشَّمس، وأثرَهُ أقلُّ، وقد ذُكر في مَوضِع آخرَ مُناسبٍ لهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]. فناسَبَ الاقتصارُ هنا على ذكر الشّمسِ وحدَها تعظيمًا للدِّلالة وإبرازًا للأقوى أثَرًا والأظهَرِ بُرهانًا.

التّشبيهُ البليغُ في ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾:

تشبيهُ الشَّمس بالسِّراج المَحدود، دالٌّ على أنّها لا تستحِقُّ السُّجود

شُبِّهتِ الشّمسُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ بالسِّراج، وهو المِصباح الَّذي يُستضاءُ به، فالتّشبيهُ بليغٌ، حُذِفَ منهُ وجهُ الشَّبه وأداةُ التّشبيه، والغرضُ منه تقريبُ صورةِ الشَّمس إلى الأذهانِ من خلال مثالٍ مَحسوس، ثمَّ زيدَ في ذلك التّقريب بوصفِ السِّراج بـ(الوهّاج)، أي: المُتوقِّدُ المُتلألئُ الشَّديدُ السَّنا؛ ليفيدَ فرْطَ الضّياءِ وشدَّةَ التّأثير[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 24.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ: 14 - 16]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

المطرُ غيثٌ نافع، دالٌّ على الواهِبِ الواسِعِ

لمّا ذكرَ النَّظمُ ما يُحرِقُ بحرارتِهِ ويُجفِّفُ الرّطوبة ويُبخِّرُ الماءَ، وهي الشَّمس، أتبعَ ذلك بما يطفئ الحرَّ ويُبرِدُ الأجواء، وهو المطَرُ الغزير الواقعُ بعدَ التّبخيرِ وتشكُّلِ الغُيوم، والَّذي بِهِ يكونُ المأكَلُ والمشرَب، وتكتملُ به الحياة. وقد صوّر نزولَهُ بما يُشبِهُ التّولّد بينَ الزوجينِ: فالسّماءُ كالأبِ، والأرضُ كالأمِّ، والماءُ كالمنيّ، والنّبات الخارجُ كالأبناء، فقالَ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾. ولمّا ذكرَ ابتداءَ نزولِ الماءِ من السَّماء، أتبعَ ذلك بذكرِ غايتِهِ وثمرتِهِ، وهو إخراجُ الحبِّ والنّبات اللَّذينِ تقومُ بهما الأقواتُ وتستمرُّ بهما الحَياة، فقال: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾، ولمّا كان من المَشاهِدِ الَّتي لا يمكنُ إنكارُها كثرةُ البساتينِ في الأرض على وجهٍ يفوقُ العدَّ والحصر، عبّر عنها بجمعِ القلّة تهوينًا لشأنِها إذا قورنَتْ بعظمةِ قدرةِ اللّه وسُلطانِهِ النّافذِ، فقالَ: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾: المُعصِرات: جمع المُعصِرة مؤنّث المُعصِر، اسمٌ للسّحابةِ الّتي حان وقتُ إمطارِها[2]، وأصلُ (عَصَرَ) هنا: ضَغْطُ شَيْءٍ حَتَّى يَتَحَلَّبَ، ومنه الجاريَةُ المُعْصِرُ: إذا بَلَغَتْ وقَرُبَتْ مِنْ حَيْضِها فهيَ مُعْصِرٌ. والعُصارَةُ والعَصيرُ: ما تَحَلَّبَ مِنْ شَيْءٍ تَعْصِرُهُ. والمَعْصورُ: الشّيءُ العَصيرُ، ومن الباب: المُعْصِراتُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 195 - 199.
(2) صافي، الجدول: 15/ 216.

سَحائِبُ تَعْتَصِرُ بالمطر. أي: تصبّ، وقيل: الّتي تأتي بالإعْصارِ، والإعْصارُ: ريحٌ تثير الغبار، وأُعْصِرَ القَوْمُ، إذا أتاهُمُ المَطَرُ. فأمّا الرّياحُ وتَسْميَتُهُمْ إيّاها المُعْصِراتِ فلَيْسَ يَبْعُدُ أنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذا البابِ مِنْ جِهَةِ المُجاوَرَة؛ لِأنَّها لَمّا أثارَتِ السَّحابَ المُعْصِراتِ سُمّيَتْ مُعْصِراتٍ وإعْصارًا[1].

2) ﴿ثَجَّاجًا﴾: (ثجّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ صَبُّ الشَّيْءِ. يُقالُ ثَجَّ الماءَ إذا صَبَّهُ؛ وماءٌ ثَجّاجٌ أيْ صَبّابٌ[2]. وثَجَجْتُ الماءَ والدَّمَ أَثُجُّهُ ثجًّا، إذا سَيَّلْتَهُ. ومَطَرٌ ثَجّاجٌ، إذا انصَبَّ جدًّا[3]. وقولُهُ تعالى: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: مُنْصَبًّا بكثْرة[4]. و﴿ثَجَّاجًا﴾: مبالغةُ اسم الفاعل من الثُّلاثيّ (ثجّ) المتعدّي أوِ اللّازم، بابُهُ ضربَ[5].

3) ﴿أَلْفَافًا﴾: جمعُ لَفيف، زِنَةُ (فَعيل) كشَريف وأشراف، أوْ بمعنى مُلتفّة لا واحدَ لهُ، أوْ جمعُ لِفٍّ بكسرِ اللّام كـ(سِرّ وأسرار)، ووزنُ (ألفاف): (أفعال)[6]. يقالُ: لَفَفْتُ الشّيءَ لَفًّا، أي: ضمَمْتُ بعضَ جزئِه إلى بعضِ جزئِه الآخَر. ومن ذلك: اللِّفافةُ ولَفُّ العِمامة. واللُّفوفُ: الجَماعات، واللَّفيفُ: الجَمْعُ العظيمُ مِن أخلاطٍ شتَّى في الجنسِ أوِ الصِّفات. كقولِهِ تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104]. والألفافُ: الأشجارُ يَلتفّ بعضُها ببعضٍ كما في الآيةِ هنا: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: جنّات التفّ بعضُها ببعضٍ لكثرةِ الشّجَر[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

والمعنى: أنزَلْنا من السُّحُبِ الَّتي حانَ لها أنْ تُمطِرَ ماءً كثيرَ الانصبابِ؛ لِنُخرِجَ بهِ أصنافَ الحَبِّ، وأصنافَ النَّبات، ونُخرِجَ بِهِ بَساتينَ مُلْتَفَّةً من كَثرة تداخُلِ أغصانِ أشجارِها[8].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الوَصْلِ في ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

وصلَ النّظمُ الكريم بـ(الواو) العاطفةِ قولَه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ الآيات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثجّ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ثجج).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.
(5) صافي، الجدول: 15/ 216.
(6) صافي، الجدول: 15/ 217.
(7) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لفف).
(8) المختصر في التّفسير - مركز تفسير.

على ما قبلَه؛ للدِّلالة على ترتُّبِ تكوُّنِ السُّحُب ونُزولِ المَطَر الكثيف وخروجِ النَّبات على سِراجيَّة الشَّمسِ وحَرارتها؛ إذ لولا تلك الحرارةُ وذلك التّوهُّجُ لما تكوَّنَتِ الغُيوم، ولولا الضّوءُ لما عاش النَّبات، فكانتِ (الواوُ) دالّةً على التّرتُّبِ وإنْ كانتْ موضوعةً لُمطلَقِ الجَمْع.

تكوُّن الغُيوم وخروجُ الحبِّ بعدَ تأجُّجِ الشَّمس باللهب

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي مُسنَدًا لِنونِ العَظَمَة ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

التَّعبيرُ بالماضي مُسندًا لنونِ العظَمَة في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ للدِّلالةِ على عظمةِ الفاعِل، وعَجْزِ غيرِه عَن مِثْلِ فِعلِه؛ كأنَّه قيل: وأنزلنا ممّا يَعجَزُ عنهُ غيرُنا[1].

كمالُ الإنعامِ يستلزِمُ الشّكرَ عندَ ذَوي الأفهام

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالإنزالِ دونَ التَّنزيل:

التّعبيرُ بـ (أنزلنا) دونَ (نزّلنا) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ له نكتةٌ بلاغيّةٌ بَديعة؛ فالإنزالُ يُستعمَل في الإيقاعِ دُفعةً واحدةً أوْ بنزولٍ عظيم، والتّنزيل (بالتّضعيف) يُستعمَلُ في التّفريقِ والتّدرُّجِ شَيئًا فشَيئًا. ولمّا كان المطَرُ يَنزِلُ من السَّماءِ دُفُعاتٍ غَزيرةً صَبًّا مُتتابِعًا، لا شيئًا يَسيرًا مُتدرِّجًا، أوثِرَ هنا التّعبيرُ بـ (الإنزال)؛ للدِّلالة على الكثرةِ والقوَّةِ والسُّرعة في انصبابِ الماء.

انهمارُ الماءِ المِدرارِ يُناسبُهُ فعلُ الإنزال

مِعنى التَّعريف ودلالةُ صيغةِ الجَمْعِ في ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾:

عبّر النّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾ معرّفًا بـ(أل) مَجموعًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ للدِّلالة على الجنسِ الصّادقِ بالاستغراق، أي جميعُ السُّحُب، وصيغةُ الجمعِ تفيدُ التّكثيرَ والتّناغُمَ مع دلالةِ الاستغراق، أي كثرةُ السُّحُب الَّتي تتناوَبُ وتتعاقَبُ لإنزالِ المَطَر على أرجاءِ الأرض، لا سحابةٌ واحدةٌ.

تكاثُرُ السُّحُب يأتي بالمَطَر العُجُب

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾:

عبّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ اسمَ فاعلٍ من الفعلِ (أعصَرتِ السَّحابةُ)

السُّحُب المُعصِرات، جالباتٌ للأمطارِ المُخرِجات

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 198.

أي حانَ لها أنْ تُنزل مطرَها كالعَصْر، وهمزةُ (أعصَرَ) هنا تُسمّى همزةَ الحَينونةِ أوِ التّهيئة، أي تدلُّ على أنَّ الوقتَ قد آنَ وحانَ للفعلِ أنْ يقعَ، مثل: أجَزَّ الزرعُ: حانَ أنْ يُجَزّ. وأحصَدَ: حانَ وقتُ حصادِه، وهذا الاستعمالُ يفيدُ أنَّ السُّحُب بلغَتْ مرحلةَ الاستعدادِ التّامِّ لإنزالِ المطرِ الغَزير؛ فالتَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ يوحي بأنَّ السُّحُب وصلتْ إلى حالٍ من النُّضْجِ والتَّهيُّؤ بحيثُ لا بدَّ من أنْ تُمطِرَ، وهذا أبلغُ في تصويرِ قُدرة اللّه وتنظيمِه للكوْن[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ على المفعولِ:

تحديدُ مكانِ الإنزال، مقدّمٌ على ذكرِ المنزَلِ السَّلسال

تقديمُ الجارِّ والمَجرور ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَآءً﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾؛ لأنَّ السّياقَ يريدُ إبرازَ المَصدرِ الَّذي يَتَنزّل منه هذا الماءُ قبلَ ذكرِ ذاتِه، فالمقامُ مَقامُ بيانٍ لقُدرة اللّه في إخراجِ المَطَر مِن مخازنَ عُلْويّة دقيقةِ التّدبير. فجاءَ التّقديم ليؤكِّدَ أنَّ العبرة ليست بالماء وحدَه، بل بمصدرِه العَجيب، وهو السُّحُب المُحمَّلةُ المُتأهّبة للانفراج، وفيه أيضًا ملاءمةٌ للفاصلة القرآنيَّة في سياقِ السّورة، حيث يرِدُ اللّفظ على نَسَقٍ مُتوازِنٍ مع ما قبلَها وما بعدَها.

بلاغةُ وصفِ الماءِ بـ(الثّجّاج):

الامتنانُ بالغَيث الغَزير، تصويرٌ لقُدرةِ الحَكيمِ الخَبير

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ وُصِفَ الماءُ بـ(الثّجّاج)؛ للدِّلالة على غَزارتِه وانصبابِه بقوَّة، والثجُّ في الأصلِ هو السَّيَلانُ القويُّ المُتدفّق، وهذا الوصفُ لا يُراد به مُجرَّدُ بيانِ حالِ المَطَر، بل هو في مَقام الامتنان على العبادِ بما يَتنزّلُ عليهم من ماءٍ عظيمِ النّفع، قويِّ التّأثير في إخراجِ الحبِّ والنَّباتِ والجِنان[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 25.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 26.

دلالةُ اختيارِ لفظِ (الإخراج) بدلَ (الإنبات):

لـفـظُ الإخـــراجِ للنّبات، يناسِبُ البعثَ للأموات

في قولِه تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ لم يُؤتَ بالفعلِ المُناسِب للمَطَر عادةً وهو (نُنبِت)، بل عُدِلَ عنهُ إلى (نُخرج)؛ تنبيهًا على مَقصَدٍ أعمقَ من مجرّدِ وصفِ أثرِ المَطَر، وهو الإيماءُ إلى مشهَدِ البَعث، إذ الإخراجُ من الأرض يُذكّر بإخراجِ الأموات منها يومَ القيامة. وهذا المعنى ظاهرٌ في مقابلةٍ قرآنيةٍ أُخرى في سورة (ق)، حيث جاءَ فعلُ (أنبتنا) في معرضِ الامتنان بالمَطَر، ثمَّ تلاه تصريحٌ بمقصَدِ البعْث: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ [ق: 9]، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [ق: 11]. فكانَ اختيارُ فعلِ (نُخرج) هنا تنبيهًا على هذا الخروجِ المُنتظَر من الأرضِ، ليجمَعَ بين الامتنان بالنِّعَم والتّذكيرِ بالمَآل[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ:

المــاءُ الـثـجّـاجُ العجب، مُخرِجٌ للنَّبات والحَبّ

تقديمُ شبهِ الجُملة ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ بِه ﴿حَبّٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ معَ أنَّ الأصل: (لنخرج حبًّا ونباتًا به)؛ للتّشويقِ والاهتمام بالواسطة؛ فالمقامُ لبيانِ أثرِ الماءِ المُنزَّل، فجيءَ بالجارِّ والمَجرورِ أوّلاً ﴿بِهِۦ﴾، لتكونَ العنايةُ موجّهةً إلى أنّ هذا الإخراجَ كلَّهُ مُتسبَّب عن المطرِ المذكورِ آنفًا في قولِه: ﴿مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾.

فائدةُ تقديمِ (الحَبِّ) على (النّبات):

بـيـانُ الأصـل دعوةٌ للتّأمُّل

قدّمَ النّظمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ الحبَّ على النّبات، فبدَأ بالحَبّ رغمَ أنَّ النَّباتَ هو الَّذي يظهَرُ أوَّلًا عندَ الإنبات؛ لفائدتين؛ **أوّلهما**: أنَّ الحَبّ هو قوتُ الإنسانِ وغذاؤه الأساسيّ كالحِنطةِ والشَّعير، فهو الأصلُ فيما يُعتبَر نِعمةً وعِمادًا للحياة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 26، 27.

وثانيهما: أنَّ الحَبّ أشرفُ وأعظَمُ نَفْعًا من النَّبات الّذي هو غالبًا غذاءٌ للأنعام، فلِشرفِه وأصالته قُدِّم ذِكرُه في الآيةِ[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾:

نكَّر النّظمُ الكريمُ ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ للدّلالةِ على التّفخيم والتّعظيم؛ أي حَبًّا عَظيمًا ونباتًا كثيرًا، لا يحدّهُ حصرٌ، والتّكثيرُ والتّنويع؛ فالتّنكيرُ يوحي بأنواعِهِ المُختلفة من الحُبوب والثِّمار والنَّباتات.

دلالةُ تأخيرِ ذكرِ (الجنّات):

بعدَ الطّعام وسدِّ الرّمَق تأتي الزّينة والتّرف

تأخيرُ (الجَنّات) بعدَ (الحَبّ والنَّبات) في قولِه تعالى: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾؛ للدّلالة على أنّ الحاجاتِ الضّروريّةَ مقدَّمةٌ على الحاجاتِ التَّحسينيّة؛ فالحَبّ قوّتٌ لا غِنًى عنه، والنّباتُ غالبًا علَفٌ للأنعام، أمّا الجنّاتُ والفواكِهُ فهي من بابِ الزّينة والتّكميلِ لا الضَّروريّات المُهمّات، ولذلك جاءَتْ في الذِّكر مُتأخِّرةً عنهُما[2].

بلاغةُ اختيارِ لفظِ (جنّاتٍ) بدَلًا من (بساتينَ) أوْ (حَدائِق):

مِن مُلائماتِ كثافةِ الأمطار، التِفافُ الأشجار

آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (جَنّاتٍ) في قوله: ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾ دونَ غيرِهِ من الألفاظ؛ للدّلالةِ على كمالِ الامتنان؛ لأنَّ هذا الاسم مَشحونٌ بدلالة النّعيم الكاملِ المَحبوب للنّاس، إذ يرتبطُ في أذهانهم بمَظاهِرِ الرّاحة والتَّرف: الظِّلال الوارفة، والثّمارُ اليانعة، والمياهُ الجارية، والمنظَرُ البَهيّ، ثمّ زيدَ هذا المعنى جَمالًا وتكثيفًا بوَصْفِها بـ﴿أَلْفَافًا﴾، أي: مُلتفّةَ الأشجارِ كثيرةَ الغُصون، فيكتملُ بذلك مَشهَدُ النّعمةِ البصريَّةِ والحسّيَّة، ويظهَرُ وجهُ الامتنان بما يُبهِجُ القلوبَ ويَشرَحُ الصّدورَ[3]. بقي أنَّ المناسِب للماء الثّجّاج خروجُ الجنّات الّتي مِن كثافةِ أشجارِها يكونُ ما وراءها مُستترًا عن العُيون.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 88.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 11.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 27.

بلاغةُ الابتكارِ القرآنيّ في الوَصْفِ بـ﴿أَلْفَافًا﴾:

الابـتـكـارُ في الـتّـوصـيـف، جـمـالٌ للنّظم مـعَ حُـسـنِ التّرصيف

الوصفُ ﴿أَلْفَافًا﴾ في قولِه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ اسمُ جمْعٍ لا مفردَ له من لفظِه، كـ(أوزاع)، و(أخياف)، ويُراد به الجَنّاتُ الّتي التفّتْ أشجارُها بعضُها على بعض. ولمّا كان هذا الالتفافُ لا يتأتّى غالبًا إلّا في جَنّةٍ عظيمةٍ تجمَعُ أنواعَ الأشجارِ الكثيفة، نُسِبَ الوصفُ إلى (جَنّاتٍ) على سبيل البيانِ التّصويريّ، ويُعَدّ هذا التّركيبُ الوصفيُّ مِن مُبتكَرات القُرآن، بمّا يدلُّ على فرادَةِ لُغتِه وقُدرتِه على توليدِ الألفاظ لتصويرِ المَعاني الحسّيَّة تصويرًا بليغًا ومُركّبًا(1).

بلاغةُ (ردِّ العَجُزْ على الصَّدْر) الحُكميَّة:

جـولـةٌ تأمُّـليّة لمَعرفةِ العَجائب التّكوينيَّة

يُتِمّ السّياقُ الاستدلاليُّ من قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ عَرضَ أدلّةِ انفرادِ اللّه تعالى بالإلهيَّة، جامعًا بين الامتنانِ والإقناع؛ إذ تضمّنتِ الآيات استدلالًا على إمكانِ البعث، وإشارةً إلى النِّعَم الجليلةِ الّتي تستوجبُ شُكرَ المُنعِم. فجاءَ العرضُ بأسلوبٍ مُتدرّجٍ يبدأُ من الأرضِ وما فيها من جماداتٍ وأحياء، مُرورًا بأعراضِ اللَّيل والنَّهار، ثمَّ ارتقى بالنّظر إلى خلقِ السَّماوات والشَّمس، ثمَّ عادَ لينزلَ إلى السَّحاب والمطر، وينتهي إلى نباتِ الأرض وجنّاتها؛ فنَزلوا معَهُ إلى ما يخرُجُ من الأرض من بَدائعِ الصَّنائع ومُنتهَى المَنافع، فإذا هُم ينظرونَ من حيثُ صَدَروا، وذلك من ردِّ العَجُزِ على الصَّدر حُكمًا(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الثَّجّاج والمُنْصَبّ:

لازمُ الـثـجّـاج الـكَـثرة، ولازمُ المُنصبّ التَّحدُّرُ مِن عُلوّ

الثّجّاجُ: ما انصَبَّ وسالَ بغَزارةٍ وكَثرة؛ فالثَّجُّ: الصَّبُّ الكثيرُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 27، 28.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 28، والزّركشيّ، البرهان: 3/ 461، والسّيوطيّ، الإتقان: 3/ 354، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 333، والميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/ 514.

وعَينٌ ثَجوجٌ: غزيرةُ الماءِ. ومَطَرٌ ثَجّاجٌ: شَديدُ الاِنْصِبابِ جِدًّا، وثجّ الماءَ ونحوَه: صبّه كثيرًا، وحَلَبَ ثَجًّا: أي لبنًا سائلًا كثيرًا(1).

وأمّا المُنصَبّ: فهو السّائل المُراق المُنسكِبُ إفراغًا وتحدُّرًا من أعلى إلى أسفل؛ فليس فيه قيدُ الكَثرةِ كالثّجّاج، ولكنْ فيهِ قيدُ الإراقةِ مِن أعلى، كإراقةِ المائعاتِ مِن عُلوٍّ. ومنهُ: الماءُ يتَصبَّبُ من الجبَلِ، أي يَتَحَدَّرُ(2).

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثجج).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل المعجم الاشتقاقيّ: (صبب).

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾ [النَّبأ: 17 - 20]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

دلائلُ القدرةِ والإيجاد، تقودُ إلى الاعتقادِ بيومِ المَعاد

لمّا ذكرَ النّظمُ دلائلَ القدرةِ التّامّة على الخَلْق والإيجاد كان التّكذيبُ بيومِ المَعاد من أثرِ الجُحود والعناد، ولذا جاءَ ما يُبيِّنُ أنَّ المقصودَ الأعظمَ من هذا كلِّه هو التّصديقُ بالنَّبأ العظيم وعدمِ الاختلافِ في وقوعِه، ومن ثَمَّ أتبعَ ذلك ببيانِ عظمتِهِ وما يقَعُ فيه، ترغيبًا في الطّاعة وزجرًا عن العِصيان، فذكره بدلًا منه أو بيانًا له فقال: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾. وأتبعَ ذلك بذكرِ بعض آياتِ الآفاق، فبدأ بالعُلويِّ؛ لأنه أشرفُ وخلقٌ عظيمٌ، ومن ثمَّ أتبعَ ذلك بذكرِ أقربِ ما يلي الأرضَ وأشدّ ما فيها ثباتًا وقوّةً وهي الجبال، ليظهرَ أنَّ ما يبدو للخلقِ أصلب الموجوداتِ يَزولُ ويَتلاشى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡوَاجٗا﴾: الفَوْجُ: الجماعةُ المارّةُ المُسرِعة، وهو اسمُ جمعٍ كقَوم ورَهْطٍ، يُجمَع على أفْواج[2]. وجمعُ الجَمْع أفاوِجُ وأفاويج. والإفاجة: الإسراعُ والعدْوُ. وأفاجَ: أسرعَ وعَدا. وبحسب ذلك قالوا: الفَوْج: الجماعةُ يَمُرّونَ مُسرعينَ[3]. وأصلُ الجَذر يدلُّ على تجمُّع[4]. والمرادُ بالأفواج: الجَماعاتُ أو الأُمَمُ المُخْتَلِفَة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 199 - 202.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فوج).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فوج)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وبصائر ذوي التّمييز: (الفوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوج).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 591.

2) ﴿سَرَابًا﴾: أصلُ (سرب) يَدُلُّ عَلَى الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأَرْضِ[1]. ومِن ذلك: السّارِب: الذّاهِبُ على وجهِهِ في الأرض. والسَّرْبُ، بالفتح: الإبلُ وما رَعى مِن المال. والسَّرْبُ أيضاً: الطَّريقُ. وفلانٌ واسِعُ السِّرْبِ، أي رَخيُّ البالِ[2]. والسَّرَبُ: المَكانُ المُنْحَدِرُ. كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ [الكهف: 61]. والسّارِبُ: الذّاهب في سَرَبِهِ أيّ طريقٍ كانَ. والسَّرابُ: اللّامعُ في المَفازةِ كالماء، وذلك لانسرابِهِ في مَرأى العَين، وكانَ السّرابُ فيما لا حقيقةَ له كالشّراب فيما له حَقيقةٌ، قال تعالى: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: 39]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾. وسُمّيَ بذلك لتوهُّم جَرَيانِه على وجهِ الأرضِ في المَفاوزِ يراهُ المُسافِرُ من بعيدٍ كأنَّه الماء[3]. والمراد بـ: ﴿سَرَابًا﴾: هباءً[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجَزاءُ الإلهيُّ العظيم، ينهَضُ بالحقِّ ويَهزِمُ المُكَذِّبين

بدأ النّظمُ بذكرِ الأحداثِ للانقلابِ الكونيِّ الكبير، ثمَّ ذكرَ جزاءَ الطّاغين تفصيلًا؛ فقال ﷻ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي بينَ الخلائق كانَ ميقاتًا لما أعدَّ اللّه للمكذِّبينَ بلقائِه الكافرينَ بتوحيدِهِ المُنكرينَ لرسالةِ نبيِّهِ فيه، ثمَّ ذكرَ تعالى أحداثًا تَسبِقُهُ فقال ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي يومَ ينفُخُ إسرافيلُ نفخةَ البَعْثِ وهي الثّانيةُ، فتأتونَ أيُّها النّاسُ أفواجًا أي جَماعاتٍ. ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انشقَّتْ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾ لنُزولِ المَلائكةِ منها ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ هَباءً مُنبثًّا كالسَّرابِ في نَظَرِ الرّائي[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سرب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرب).
(4) المحلّي، تفسير الجلالين، ص: 787.
(5) أبوبكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جملةِ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

الانتقالُ مِن دلائلِ الخَلْقِ، إلى التّهديدِ بالميعادِ الحَقّ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ استئنافًا بيانيًّا يُعقّب بِهِ على ما مضَى من دلائلِ البَعثِ والامتنان، فيَنعطِفُ السّياق من عَرْضِ النِّعَم إلى التّهديدِ والوَعيد. وقد تضمّن هذا الاستئنافُ ردًّا على سُؤالهم المُتكرّر عن وقتِ البَعث، وغَمْزِهم بأنَّه تأخّر فلم يقَع، فجاءَ الجوابُ بلفظٍ جامعٍ: إنه ميعادٌ مقدّرٌ لا يُخلَف، مَشفوعًا بتهديدٍ يوحي بأنّ تأخّرَهُ لا يمنَعُ قُربَه المُفاجِئ، فيحسُنُ بالسّامع أنْ لا يغترّ بالإمهال[1].

بلاغةُ التّوكيدِ في ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

إبطالُ الإنكارِ بعدَ التّفكُّرِ في دلائلِ الخَلقِ والاعتبار

جاءَت جملةُ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ مُؤكّدةً بـ﴿إِنَّ﴾؛ تقريرًا للبَعْث، ورَدًّا على المكذّبين به، إمعانًا في دَفْعِ توهُّم المشركينَ الَّذين يُنكرونَ مَجيءَ هذا اليوم، فذكرُ التّوكيدِ هنا ليس مجرَّدَ تقويةٍ للمعنى أوَ اهتمامٍ بالمَضمون؛ إذ إنّ الأصلَ في التّوكيد أنْ يُستعمَلَ حيثُ يُتوقّعُ منَ السّامع إنكارٌ أوَ شكٌّ، وهنا قد بلغَ إنكارُ المشركينَ مبلغَ السُّخرية، فجاء الرَّدُّ مُفحِمًا بالتَّوكيد، وكأنّ الكلام يقولُ لهم: إنّ ما تُنكِرونَهُ وتَسخَرونَ منه هو حقٌّ لا ريبَ فيه، ووقوعُهُ لا مَحالةَ فيه[2].

نوعُ الإضافةِ ودِلالتُها في ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

غايةُ القيامةِ الفصلُ بينَ الخلائقِ بكلِّ عَدالة

إضافةُ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ من بابِ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، فـ(اليوم) هو المُضاف، و﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ صفةٌ لهُ أضيفَ إليها، والأصلُ: (اليومُ الفاصِلُ)، كقولِهم: مَسجِدُ الجامعِ، وحقُّ اليقينِ؛ والإضافةُ هنا للتّعظيمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 29.

والتّهويل، لإضافةِ الموصوفِ إلى صفتِهِ العُظمى الّتي تُمَيّزه، وهي ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ أي الفصلُ بينَ الحقِّ والباطل، وبينَ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوة. وفي هذه الإضافةِ مُراعاةُ السّياق؛ فقد جاءَتْ بعد عرضِ دلائلِ القُدرةِ في الكون (الأرض، والجبالُ، والمطرُ، والنّبات...) ليُبيِّن أنَّ هذه القدرةَ لن تَنتهيَ آثارُها عندَ الدُّنيا، بل ستتجلّى بأعظمِ صوَرِها في يومِ الفَصْل.

مَعنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلْفَصْلِ﴾:

الفصلُ الكامِل، بـميـزانِ الـلـه العادِل

(أل) في ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ لتعريفِ حقيقةِ الجَنس، أي: الفصلُ الكاملُ في حقيقتِهِ، فلا يشوبُهُ قُصورٌ ولا فصلٌ بعدَهُ ولا فوقَهُ. ويجوزُ أن تكون للعهد؛ أي: الفصلُ المعهودُ عندَ المُؤمنينَ والمُكذِّبين معًا؛ فصلُ اللّه بينَ عبادِهِ.

دلالةُ تسميةِ اليومِ الآخِرِ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾:

يـومُ القيامة مَـظـهَـرٌ لـلحقّ ومَـفـصَـلٌ للعَدالَة

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ عبّر عن يوم القيامة بـ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ لاشتمالِهِ على مَعنيينِ عَظيمَين؛ **أوّلُهما**: أنَّه يومٌ يفصِلُ اللّه فيه بينَ دَعاوى المُبطلين، وحقائقِ المُرسَلين، وهذا فصلٌ بينَ الصِّدق والكَذِب، **وثانيهما**: أنه يومٌ يَقضي فيه اللّه بينَ العبادِ فيما اختَلَفوا فيه، وظَلَم بعضُهم فيه بعضًا، فيُؤخذ للمظلومِ مِن ظالِمه، ويُردُّ الحقُّ إلى أهلِهِ، فيكونُ يومَ عَدْلٍ وحَسْمٍ لكلِّ نِزاعٍ[1].

دلالةُ الكونِ الماضي في ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾:

إثـبـاتُ توقيتِ يــومِ الـفـصـل بـعـلْـمِ الـلـه لا بعجَلَةِ البَشَر

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ جاءَ التّعبيرُ بـ ﴿كَانَ﴾؛ لإفادةِ ثبوتِ ذلك الميقاتِ منذُ الأزَل، على وجهٍ لا يُغيّره استعجالُ المُستعجِلين، ولا إنكارُ الجاحِدين[2]. كما أفادَ فعلُ الكونِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 29.

ثبوتَ ذلك الحُكم على سبيلِ التّمكُّنِ والاستقرار؛ إذ ارتبطَ الميقاتُ بيومِ الفصل بكلِّ تحقُّقٍ وثباتٍ كما يُنبئُ عنهُ فعلُ الكَوْنِ.

بلاغةُ الكِناية في قولِه: ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾:

التّوقيتُ المَعلوم، إيذانٌ بوقوعِ البَعْثِ المَحتوم

قولُهُ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ دلّ على أنَّ المرادَ بالميقات: ميقاتُ البَعْث والجزاء، أي إنَّ هذا اليومَ مُحدّد له وقتٌ مَعلوم، لا بدَّ من وُقوعِه. وفي إسنادِ التَّوقيت ليوم الفَصْلِ كِنايةٌ تلويحيّة[1] عن تحقّق الوقوعِ حَتْمًا، إذ لا يوقّت شيءٌ في علْم اللّه إلّا وهو واقعٌ لا مَحالة، وإنْ تأخّر في أعيُنِ النّاس[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مِيقَٰتًا﴾، ودلالةُ حذفِ مُتعلَّقِه:

الحذفُ والتّنكير، يُناسِبانِ الوَعيدَ والنَّذير

(الميقات) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ جاء نكرةً تفيدُ التّعظيمَ والتّهويلَ: أي: ميقاتًا عظيمًا جليلًا لا يشبهُهُ ميقاتٌ، ويفيدُ أيضًا: التّكثيرَ والشّمول: كأنَّ الآية تشيرُ إلى أنّه ميقاتٌ لكلِّ مخلوقٍ، ولكلّ حسابٍ وجَزاء، ولكل فريقٍ من البَشَر. ويفيد كذلك الإبهامَ المَهيب، فالتّنكيرُ هنا يثيرُ في النَّفس رهبةً وغُموضًا، وكأنَّ السّامعَ يواجِهُ أمرًا عظيمًا لا يُحَدّ ولا يوصَف، وقد حُذِف المُتعلَّق هنا، فلم يُحدِّدْ كونَهُ ميقاتًا لأيّ شيءٍ، كميقاتِ الحسابِ أوِ الجَزاء، أوْ للأنبياءِ والمُرسَلين[3]. فحذفُ المُتعلّق هنا يفيدُ التّعميم، فيشمَلُ كلَّ ميقات يختصُّ به يومُ القيامة: ميقات الحِساب، وميقات الجَزاء، وميقات الفَصل بين العِباد، وميقات مَجيءِ الأُمَم أفواجًا... إلخ. إذن حذفُ المتعلَّق يوسّع دائرةَ المعنى ويجعَلُ السّامعَ يتأمّل، فيُفاجَأ بأنّه ميقاتٌ لكلِّ شيءٍ، ولا يخفى ما في ذلك من الإيجازِ والإعظام، كما أنَّ في الحذف توجيهَ النّظَر إلى هولِ اليوم نفسِه، فبدلَ أنْ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 402، والطّيبيّ، التّبيان في البيان: 145 - 155، والزّركشيّ، البرهان: 2/ 300، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 286 - 290.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 30.

(3) الواحديّ، البسيط: 23/ 125.

يَنصرِفَ الذّهنُ إلى مُتعلّقٍ واحد كالحِساب مثلًا، يُترك المُتعلَّق مَحذوفًا؛ ليبقَى الذِّهنُ مُعلّقًا باليوم ذاتِه وعِظَمه.

الموَقِعُ الإعرابيّ للظّرف: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ﴾:

تبيين يوم الفَصْل، بإظهارِ صورةٍ للهوْل

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾، والمقصودُ بهذا البدلِ تفصيلُ بعضِ مَشاهِدِ ذلك اليوم المَهول، فذِكرُ النّفخِ في الصّورِ يُمثّل أوّلَ أهوالِه وأشدِّها وأشدَّها وقْعًا على القلوب. ويجوز أيضًا اعتبارُهُ عطفَ بيان، قُصِدَ منه زيادةُ التّهويل والتّفخيم، ليَتجرّدَ الإدراكُ الحسّيُّ والذِّهنيُّ إلى فداحة ما سيكونُ في ذلك الميقاتِ المَحتوم[1].

دلالةُ بناءِ الفِعل ﴿يُنفَخُ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

البناءُ للمَفعول، تفظيعٌ لذلك الحَدَثِ المَهول

بُنيَ الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿يُنفَخُ﴾ للمفعول، أي لم يُذكَرْ فاعلُهُ، وليس ذلك مرتبطًا بكونِ الفاعلِ غيرَ مَعلوم، بل لأنَّ المقام لا يقتضي تعيينَ النّافخ، وإنَّما يقتضي تسليطَ الضّوء على هولِ الحادثة نفسِها: النّفخُ في الصّور، الّذي يهتزّ له كيانُ الخَليقة. فالتّعبيرُ ببناءِ المفعولِ هنا يُفيدُ التّهويل والتّفخيم، ويُلفِتُ النّظرَ إلى صورةِ الحَدَث وعِظَمه دونَ انشغالٍ بإظهارِ مَن قامَ به؛ لأنَّ المُراد تهييجُ النّفوس وشدُّ الأبصار إلى ما يحدُثُ، لا إلى مَن يُباشِر الفعل، كما أنَّ النّافخَ معلومٌ من مَواضِعَ أُخرى كقولِه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: 68]، وقد ثبتَ في الحديثِ الصَّحيح أنَّ النّافخَ هو إسرافيلُ عليه السلام، لكنّ إغفالَ اسمِه هنا إنّما هو إغفالٌ مقصودٌ ليتوجّهَ النَّظرُ إلى صورة النّفخ لا إلى شخصِ النّافخ[2].

بلاغةُ الحَذْفِ في قولِه: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾:

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 31.

تُفصِحُ عن جُملةٍ مُقدّرةٍ مَحذوفة، والتّقدير: فتُبعثونَ منَ القُبور فتأتونَ أفواجًا، وحُذِفت هذه الجملةُ ثِقَةً بدلالةِ السّياقِ عليها، إذ المقامُ مقامُ تصويرٍ لأهوالِ يومِ الفَصْل، والمعنى: أنَّكم تُبعثونَ ثمَّ تأتونَ فوْرًا إلى أرضِ المَحشَر، والفائدةُ من هذا الحذف الإيجازُ والإشارةُ إلى غايةِ السُّرعة في الحُدوث، وأنَّ البعث والإتيانَ لا يَفصِلُ بينهما فاصلٌ يُذكَر[1].

تصويرُ سُرعةِ النَّشر، وتلبيةُ الأفواجِ للحَشْر

بلاغةُ العطفِ بـ(الفاء) في ﴿فَتَأۡتُونَ﴾:

عُطِفُ فعلُ (تَأْتونَ) بالفاءِ على قولِه: ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ للدِّلالة على سُرعةِ التّرتيب والتّعقيبِ الزّمنيِّ؛ أي: إنَّه بمجرّدِ حصولِ النّفخ في الصّور، يُبعَثُ الخلقُ ويَأتونَ إلى الحسابِ دونَ فاصلٍ زمنيٍّ. وهذه (الفاءُ) تفيد تصويرَ تلاحُقِ الحوادثِ وهَوْلِها الشَّديد، وكأنَّ النّفخ لا يتركُ مَجالًا للتّفكير أوِ الهُروب، بل يندفِعُ الخلقُ اندفاعًا اضطراريًّا لا إراديًّا نحوَ أرضِ المَحشَر[2].

تسارُعُ الحوادِثِ دالٌّ على عِظَمِ الشَّدائد

بلاغةُ الحذفِ بينَ (النّفخ والإتيان):

في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ حُذِف ما يحصُلُ بينَ (النّفخ) في الصّور وبينَ (الإتيان) إلى أرضِ المَحشَر؛ كالإحياءِ والخُروج منَ القُبور والسَّير؛ للدّلالة على شدّةِ الإيجاز والسُّرعة، حتّى كأنَّهم يأتونَ مُباشرةً معَ النّفخة دون أنْ تمرَّ مراحلُ البعثِ المُعتادة. وهذا حذفٌ بليغٌ يرسُمُ صورةً مرعِبةً لحال البشر، إذ يُفاجَؤون بتبدُّلِ الأحوالِ وتغيُّرِ الوجودِ من غير تمهيدٍ ولا تَدَرّج، وكأنّ النّفخةَ وحدَها تكفي لانقلابِ نظامِ الكونِ بأسْرِه، ولاندفاعِ النّاس أفواجًا نحوَ يومِ الحِساب، غيرَ قادرينَ على التَّوقّف

الحـــذفُ في الكلامِ، مُناسِبٌ للتّركيزِ على مَوضِعِ الاهتِمام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 31.

أوِ الرّفض أوِ الالتفاتِ[1]. كما أنَّهم كانوا يَختلفونَ ويَتساءَلون عن الوقوعِ فبيّنَ النَّظمُ أنَّه واقعٌ وسوفَ يأتونَ مُلبّينَ للنِّداء؛ فلا داعيَ لِلَغَطِهم واختلافِهم.

لا يَرى النّاظِرُ فردًا بل أُمَمًا وجماعاتٍ مُصطّفّة

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(الحال) بصيغةِ الجَمْعِ ﴿أَفْوَاجًا﴾:

في قولِهِ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وقعتِ (الأفواجُ) حالًا من ضميرِ الفاعِلِ في (تأتونَ)[2]. وهذه الحالُ الَّتي جاءَتْ بصيغةِ الجمعِ دالّةٌ على إظهارِ الاضطرار والخُضوع؛ فصيغةُ الجمع تُؤذِنُ بأنَّ الجميع مَحشورونَ معًا لا يَملِكون اختيارًا، كلُّ طائفةٍ تابعةٌ لأمرِ اللّه لا لقرارِها. كما تدلُّ على التَّفريقِ والتَّمييز؛ فجاءَتْ ﴿أَفْوَاجًا﴾ مجموعةً إشارةً إلى أنَّ النّاس يُساقونَ بحسَبِ أعمالهم: فوجُ المُؤمنين، وفوجُ الكافِرين، وفوجُ العُصاة، وهكذا. وفي صيغةِ الجمع إكثارٌ وتكثير؛ إذِ الموقفُ يشمَلُ الأوّلينَ والآخِرينَ.

مَوقِعُ جُملة: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ في السّياق:

تتابُعُ المَشاهِد، ردٌّ على كلِّ مُعانِد

يجوزُ في قولِه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أنْ يكونَ مَعطوفًا على الجملةِ السّابقة: ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، فيكونُ من جُملةِ مَشاهد يومِ القيامةِ المُتتابِعة: نفخٍ في الصّور، ثمَّ فتحٍ للسَّماء، ثمَّ إتيانِ الناسِ أفواجًا... إلخ[3].

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي: ﴿وَفُتِحَتِ﴾:

قلبُ الزّمان، دالٌّ على تحقُّقِ الأكوان

في قولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، مع أنَّ الحدثَ سيقَعُ مُستقبلًا؛ للدّلالةِ على أنّ الأمرَ واقعٌ لا مَحالة، كأنّه قد حدثَ فِعْلًا وانتهى، لإزالة أيِّ شكٍّ أوْ تردُّدٍ في نفوسِ السّامعين[4]. فهو تنزيلٌ لما سيقعُ منزلةَ الواقِع؛ للدِّلالة على تحقُّقِ الوُقوع.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 31.

(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 30/ 18.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32، ودرويش، إعراب القران: 10/ 355.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 355.

نكتةُ بناءِ الفعل (فُتِحت) للمَفعول:

بُنيَ الفعلُ (فُتِحتْ) للمفعولِ في قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾؛ للدِّلالة على هوانِ ذلك على الفاعلِ الجليلِ ﷻ، ففتحُ السَّماء يومَ القيامة أمرٌ يسيرٌ لا يحتاج إلى تعيينِ فاعِلٍ، فمجرّدُ وقوعِهِ يدلُّ على قدرة اللّه العُظمى، وكأنّ الفعلَ يحصُلُ بأهونِ سببٍ من أمرِهِ سُبحانه. ولإرادةِ الإبهام؛ فإنّه أبلغُ في الإفزاعِ والتَّهويل، وعدمُ ذكرِ الفاعلِ يجعَلُ الذّهنَ يتوجّهُ إلى نفس الحدثِ المُروِّعِ (فتح السماء)، دونَ انشغالٍ بمَن باشَرَهُ، فيَبقى الحدث مَهيبًا غامضًا أشدَّ إثارةً للفزع[1].

أمامَ القدرةِ العَظيمة، تُفتَحُ أبوابُ السَّماءِ الوَسيعة

توجيهُ القراءاتِ في قولِه: ﴿وَفُتِحَتِ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ قراءتانِ مُتواترتانِ؛ قراءةُ ﴿وَفُتِّحَتِ﴾ بتشديدِ (التّاء) للكوفيين، وهي تدلُّ على كثرةِ الفتحِ أوْ شِدّتِهِ، ممّا يُبرِزُ هولَ الحدثِ وعظمَتِه. وقراءةُ ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيفِ (التّاء)[2]، على الأصلِ المجرّدِ للفعل، ومع ذلك فإنَّ اقترانَ الفتح بالسَّماء وحدَهُ كافٍ لإفادة العِظَم والرَّهبة؛ لأنَّ فتح السَّماء أمرٌ لا يتصوّرُهُ العقلُ البشريّ إلا بوصفِهِ حَدَثًا خارقًا عَظيمًا. ورغمَ اختلافِ الصّيغة فالمَعنى التّأثيريُّ المقصودُ من القراءتينِ مُتقارِبٌ، إذ كلتاهما تَشي بـ(تهويلِ) الحدَثِ و(تعظيم) شأنِهِ، في سياقِ تصويرِ مشاهِدِ يومِ الفَصْل الَّذي لا يشبَهُهُ يوم، ولا تقع فيه الأحداثُ إلّا بما يخرقُ المألوف ويُفزِعُ القلوبَ[3].

شدّةُ الفتحِ العَظيمِ تخلَعُ صدورَ الغافِلين

دلالةُ التفريعِ لجملة ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ عمّا قبلَها:

جملةُ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ تفريعٌ على الجملةِ السّابقةِ عليها ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ودلّ على هذا التّفريعِ العطفُ بـ(فاءِ التَّعقيب)؛ للدِّلالة

بالفتحِ الشَّديد، تظهَرُ الأبوابُ مشرَّعةً للعَبيد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 202.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 364.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32.

على توالي الحَدَثين بلا فاصِلٍ؛ أي إنَّه ما إنْ فُتِحَتِ السّماء حتّى غدَتْ أبوابًا مُتقابلةً، فهذه (الفاءُ) تُضفي إيقاعًا سَريعًا في توالي وقائعِ المَشهَدِ تواليًا مُرعِبًا[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ (الكونِ) ماضيًا:

صَيرورةُ السَّماء أبوابا، ردعٌ لكلِّ مَنِ ارتابا

فعلُ الكَينونة بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ يفيدُ التَّحقُّقَ والرُّسوخ، فتحوّلُ السَّماءِ إلى أبوابٍ أمرٌ ثابتٌ راسِخٌ، ليس طارئًا ولا عارِضًا، بل هو صفةٌ أصيلةٌ فيها يومُ القيامة؛ كأنّه جبلّةٌ وجزءٌ من خِلقَتِها. واستعمالُ الماضي يُجسّد الحادثَ المُستقبليَّ في صورةِ أمرٍ متحقّقٍ واقع، فيتَرسَّخُ في النَّفسِ والاعتقاد. وهذا من باب تحويلِ المُستقبل إلى ماضٍ ليُفهَمَ أنَّ وقوعَهُ حتميٌّ، وأنَّه سيكونُ بمنزلةِ الشّيءِ المَوجودِ منذُ الأزلِ عندَ حلولِ وقتِه[2].

توجيهُ المَجازِ في الإخبارِ عن السَّماء بأنّها أبوابٌ:

تحوُّلُ السَّماءِ إلى أبواب، تصويرٌ لمَشهَدِ من يوم الحِساب

الإخبارُ بأنَّ السَّماءَ أبوابٌ في قولِه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ يحتملُ أنْ يكونَ على وجه الحقيقةِ أوْ على وجهِ المَجاز، لكنَّه في كلتا الحالتينِ يُفيد المبالغةَ في كثرة الانفتاحاتِ، حتَّى كأنَّ السّماء نفسَها أبوابٌ محضةٌ لا مجرَّدُ سماءٍ ذاتِ أبواب، وهذا الأسلوبُ يُضخّم صورةَ التّبدّلِ والانكشاف في الكونِ يومَ القيامة[3].

نوعُ المجازِ في قولِه: ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾:

تُقامُ المبالغةُ مقامَ الحَقيقة إذا كان الحدَثُ خارِقًا للعادةِ المَعهودة

التّركيبُ في قولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ جارٍ على حذفِ مُضاف، أي: (فكانتْ ذاتَ أبواب) أوْ (فيها أبوابٌ)، فحُذِفَ المضافُ أوِ الظّرفُ وأُسنِدَ الخبرُ (أبواب) إلى المبتدأ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 33.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 202.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 688، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 279، وأبو حيّان، البحر: 10/ 386، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32.

(ضميرِ السَّماء)، فاجتمعَ في التّركيبِ مَجازُ الحذفِ والإسنادِ إلى غيرِ ما هو لهُ، وهو على هذا التّوجيهِ مَجازٌ عقليٌّ. ويجوزُ أنْ يكون إطلاقُ الأبواب على السَّماء مجازًا مُرسَلًا لعلاقةِ الجزئيَّة، حيث أُطلقَ الجزءُ وهو الأبوابُ، وأُريدَ به الكلُّ مبالغة، ويلزمُ منَ المَجاز دلالةُ الانفتاحِ الكليِّ حتَّى كأنَّ السَّماءَ برُمّتها صارَتْ شُقوقًا ومَنافذَ. ويجوزُ حملُ التّركيبِ على التّشبيهِ البليغِ الَّذي حُذِف منه الأداةُ، أي: (كأنَّها أبوابٌ). وأيًّا مّا كان فالغرضُ من المجازِ التّكثيرُ: أي كأنَّ كلّ موضعٍ فيها قدِ انفتَحَ. والتَّهويلُ بإظهارِها كأنّها هي الأبوابُ.

نكتةُ بناءِ الفعلِ (سُيِّرت) لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

الفعلُ العَظيم، يَسيرٌ على المَوْلى العَليم

صياغةُ الفعلِ للمفعولِ في قولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ تفيدُ أنّ تسييرَ الجبالِ أمرٌ يسيرٌ حتى لا يُحتاجُ إلى ذكرِ فاعلِه[1]، فالفاعلُ معلومٌ بالضَّرورة وهو اللّه ﷻ، لكنَّ الإبهامَ هُنا يركّز على هَوْلِ الحدَثِ نفسِه وسُهولتِه على الفاعلِ، وهو زوالُ الجبالِ الثّابتةِ الرّاسِخة. وفي ذلك أيضًا تهويلٌ للفعل؛ إذ يُترك ذهنُ السّامع يتصوّرُ قوّةً مطلقةً خفيّةً تسخّر هذه الجبالَ الشّامخة، فيزدادُ الفزَعُ من عِظَم الحَدَث.

دلالةُ الفعلِ غيرِ زَمَنِهِ الأصليّ:

الإخبارُ عن الحدثِ المُستقبليّ بالماضي الثُّبوتيّ

في قولِه تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ أُطلِقَ لفظُ (الماضي) على ما سيقَعُ في المُستقبَل مبالغةً في التّحقّقِ، وهو من بابِ المَجازِ المُرسَل تنزيلًا لما سيقَعُ منزلةَ الواقِعِ المُتحقِّق. إلّا أنْ يُقال: إنّ التّسييرَ الماضيَ هو باعتبارِ ثُبوته الكِتابيّ في اللَّوحِ المَحفوظ والأزليّ في علْمِ اللّه، فحيئنذٍ فالماضي على حقيقتِه، ولا مَجازَ[2].

أثرُ (الفاء) في ﴿فَكَانَتۡ﴾ على تسلسُلِ النّظمِ وإيقاعِه:

جاءَ التّركيبُ القرآنيُّ: ﴿وَسُيِّرَتِ﴾...﴿فَكَانَتۡ﴾ مُتسلسِلًا بحَرفِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 202.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 14/ 36، 20/ 19، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32، 33.

سُرعةُ التّلاشي لأوهامِ الثّباتِ الدُّنيويِّ

العَطْفِ (الفاء) الَّذي يُفيدُ التّعقيبَ السَّريعَ؛ ليُصوِّرَ كيفَ أنَّ التّسييرَ يُؤدّي فورًا إلى التّحوُّل إلى السَّراب في إيقاعٍ سريعٍ يوحي بسُرعةِ الأحداثِ وهَوْلِها يومَ القيامة[1].

التّشبيهُ البليغ في ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾:

كلُّ ماتراهُ ثابتا، يَـزولُ مُتزلزِلًا مُتفتِّتا

في قولِهِ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أُخبِرَ عن مَصيرِ الجِبال وهي أعظمُ ما يُرى في الأرضِ ثباتًا بأنَّها تصيرُ كالسَّراب، وفي التّركيبِ تشبيهٌ بليغٌ حُذِفتْ منهُ الأداة ووجهُ الشّبَه، ليُدمَجَ المُشبَّه بالمشبَّه بِهِ مُبالغةً في التّصويرِ الحِسّيِّ للوَصْف الَّذي تصيرُ إليه الجبالُ إذا وقعَتِ الواقعةُ، ووجهُ الشّبَه المُضمَر هُنا: (التّوهّمُ البصريُّ أوِ المَرئيّ خلافُ الواقِع)؛ فما يُرى لا حقيقةَ لهُ في الواقع، فكما أنَّ السَّراب يخدَعُ الناظِرَ فيه فيراهُ ماءً، كذلك الجبالُ حينَ تُسَيَّر وتُفتّت، تُرى من بعيدٍ على هيئةِ الجِبال لكنَّها ليستْ جبالًا حقيقيّةً، بل شذراتٌ مُتطايرةٌ لا تستقِرُّ على حالٍ[2].

المجازُ المركّب في ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾:

تحوُّلُ الجبالِ العَظيمة إلى سرابٍ وأوهامٍ حَقيرة

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ مجازٌ مركّب، حيثُ شبَّهَ الحالةَ النّهائيَّةَ للجبالِ بالسَّراب الزّائِل، ليدلَّ على أنَّ كلَّ ما كان يظنُّهُ النّاسُ ثابتًا راسِخًا يصيرُ وهْمًا زائلًا، وهذا المجازُ مركّبٌ؛ لأنّه يجمَعُ بينَ تسلسُلٍ مُتكامِلٍ من التّشبيه، حيث التّشبيهُ بالسَّرابِ تكميلٌ لتشبيهِها بالعِهنِ المنفوش، فبقوله: ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ اكتمل المجازُ التّمثيليُّ؛ لأنَّ السّراب يُمثّل النّهايةَ لحالِ الجبالِ بعدَ التَّحريكِ والتّفكّك[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 32، 33.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 688، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 279، وأبو حيّان، البحر: 10/ 386، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 33، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 360.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 23.

الدّلالةُ الوجوديّة للتّشبيهِ في ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾:

انفرادُ الحقّ الإلهيّ بالتّجلّي حينَ يزولُ كلُّ عنصرٍ ماديّ

تشبيهُ الجبالِ بالسَّراب بعدَ تَسييرِها في قولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ يحمِلُ دلالةً وجوديّة عميقةً، حيثُ يَنكشِفُ زيْفُ المادّة وعدمُ ثباتِ أيّ شيء في هذا الكَون، حتَّى الجبالِ الرَّواسي. ففيه تذكيرُ المُؤمنِ بحقيقةِ الدُّنيا الفانية، وتستحضِرُ في نفسِه عظمةَ يوم القيامة، حين تتبدّلُ الأرض غيرَ الأرض، وتزولُ كلُّ المظاهرِ الماديّة ليَتجلّى الحقُّ الأزليُّ.

المتُّشابِهُ اللّفظيّ:

حالُ الجبالِ من حيثُ المَظهَرُ، تمهيدٌ لحالِها من حيثُ الحقيقةُ والمَخبَر

في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ تشبيهٌ آخرُ مُستترٌ مُدمَجٌ ضمنَ تشبيهها بالسَّراب، وصريحٌ في موضِعٍ آخرَ؛ حيثُ شُبِّهتِ الجبالُ بالعِهْنِ المَنفوش (الصّوف المُتناثر) كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: 5]. فالجمعُ بينَ التَّشبيهين (السَّراب والعِهْن) يُصوِّرُ حالَ الجِبال مِن وجهين:

الأوّل: مِن حيثُ المَظهَر (كالسَّراب في الخِداعِ البَصَريّ).

الثّاني: من حيثُ الحقيقة (كالعِهْن في التّفتّتِ الماديِّ).

وعليه، فالتّشبيهُ بالعِهْن المنفوشِ تمهيدٌ لتشبيهها بالسَّراب، فهي تصيرُ كالعِهْن المَنفوش في تطايرِه وخِفّته وضَعفِ أجزائه وتناسُلِها وانحلالِها، فإذا كانت كذلك صارتْ سَرابًا، كلا شَيءٍ، ولا جوهرٍ، ولا حَقيقةٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الميقاتُ والمَوْعِد:

الميقات هو ظرفٌ لحُصول المَوعِد

الميقات: هو الوقتُ الّذي قُدِّر فيه عَملٌ من الأعمال؛ فهو الوَقتُ المضروبُ للفِعل، والمَوضِع، يعني هو الوقتُ المَخصوصُ المُحدّدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 90، والقونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 23.

لإنجازِ شَيءٍ ما، ومنهُ التّوقيتُ: تحديدُ زمنٍ مُعيّنٍ لإيقاعِ الفعل[1].
وأمّا المَوعِد فهو موضوعُ الميقاتِ الّذي حُدِّد، يعني المَوعِد هو التّرجية القوليّة الّتي يُرادُ إيقاعُها وإنجازها في الميقات المُحدّد لها[2]. ولذلك حين يقولُ اللّه سبحانه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾، ويقول: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر: 46] معناهُ أنَّ يومَ القيامة هو الوقتُ المُحدّد الَّذي تتحقّقُ فيه مَواعيدُ النّاس الَّتي وعدَهم اللّه إيّاها بالثّوابِ أو بالعِقاب، فالميقات هو ظرفُ حصولِ المَوعِد.

الأفواجُ والجماعاتُ والزُّمَر:

الجماعةُ أعمُّ مُطلقًا من الفَوْجِ والزُّمرة

تشتركُ هذه الألفاظُ الثّلاثة: (الأفواج والجماعات والزُّمَر) في الدّلالةِ على مَعنى التّجمُّع، وتتباينُ كلُّ واحدةٍ منها عن أُختها بقيدٍ ظاهِرٍ فيها. فـ(الأفواج): هي الجَماعةُ المارّةُ المُسرِعة، من أفاجَ الرّجلُ، إذا أسرَعَ[3]، و(الجماعات): هي مُطلَقُ الأفراد المُجتمِعين، فكلّ مَن حقّقَ التّضامَّ والتّقريبَ على أيّ حالٍ وهَيئةٍ، بخلاف حالِ التّفريق؛ فهم جَماعةٌ[4]. وأمّا (الزُّمَر): جمعُ زُمْرَةٍ، فهي الجماعةُ القَليلة، فتتميّزُ بقيدِ القلّةِ[5]. وتشتركُ (الأفواجُ) معَ (الزُّمَر) في أنّ كلًّا منهما جماعةٌ تكونُ على أمرٍ واحدٍ، كما هو ظاهرٌ في دخولِ النّاس الإسلامَ أفواجًا بدخولِهم قبائلَ لا أفرادًا[6] في قولِه تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النّصر: 2] فالدُّخولُ في دين اللّه كان ديدَنُهم جميعًا. وكذا قولُهُ تعالى هنا: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾. أي: جميعُكم آتٍ مَبعوثٌ لا يشذّ أحدٌ عن نظامِ الجَماعةِ حينئذ. وأيضًا قولُهُ تعالى في الزّمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل المعجم الاشتقاقيّ: (وقت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (فوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زمر).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زمر).

ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزّمر: 73] فهؤلاء جماعةُ المتّقينَ أمرُهُم واحدٌ. وقولُهُ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزّمر: 71] فهؤلاءِ جماعةُ الكافرينَ أمرُهُم واحد، فكان لفظُ (الجماعات) هو أعمَّ ما في هؤلاءِ الكلماتِ.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: 21 - 26]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَـأوى الطّاغين جـهـنّـمُ ذاتُ الـغـسّـاقِ والحَميم

لمّا بيَّن النّظمُ أنَّ يومَ الفصلِ هو النّبأُ العظيمُ الّذي تحدُثُ فيه الأهوالُ في العَوالِمِ العُلويَّة والسُّفليَّة، انتقلَ إلى بيانِ المَصيرِ الحقّ في الدّارين، فذكرَ جهنَّمَ وما أُعِدّ فيها من العذابِ المهينِ، ولمّا كانَ دفعُ المفاسد مُقدَّمًا على جلبِ المَصالح، بدأ بذكرِ ما فيه التَّخويفُ والوعيدُ، فقال: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾، أي مَرجِعًا ومصيرًا محتومًا لهم في جهنَّم. ولمّا ذكرَ مصيرَ الطّاغين إلى جهنّم، أتبعَ ذلك ببيانِ مَقامِهِم فيها، فذكر دوامَ مُكثِهم دُهورًا مُتطاولةً لا تَنقطِعُ. ولمّا كان السّكنُ لا يستقيمُ إلا بالاعتدالِ والرّاحة، وبالماءِ الّذي هو قوامُ الحَياة، بيّن حالَ لُبثهم في النّار وما يُقاسونَهُ من الحِرمان، ولمّا قضى عليهم بهذا العذابِ الشَّديد الّذي لا يُطاق، بيّن حكمتَهُ وعدلَهُ فيه، فذكر أنَّه إنَّما جازاهُم بما كَسَبوا جَزاءً مُطابِقًا لأعمالِهم، لا زيادةَ فيه ولا ظُلْمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرْصَادًا﴾: اسمٌ بمعنى الطَّريق، جاء على وزنِ صيغةِ المُبالغة منَ الثّلاثيّ (رَصَدَ) بمعنى رقبَ، أي هي راصِدةٌ الكافرينَ تترقّبهم، أوْ هي مُرصَدة لهم ومُعدَّة لتعذيبِهم[1]. وأصلُ: (رصَدَ) يدلُّ على التَّهَيُّؤِ لِرِقْبَةِ شَيْءٍ عَلَى مَسْلَكِه، ثُمَّ يُحمَلُ عَلَيْهِ ما يُشاكِلُهُ. يُقالُ أَرْصَدْتُ لَهُ كذا، أَيْ هَيَّأْتُهُ لَه، كَأَنَّكَ جَعَلْتَهُ عَلَى مَرْصَدِهِ. ورَصَدْتُهُ

(1) صافي، الجدول: 15/ 220.

أَرْصُدُهُ، أَيْ تَرَقَّبْتُهُ؛ وأَرْصَدْتُ لَهُ، أَيْ أَعْدَدْتُ. والمِرصادُ: الطَّريق. والرَّصْدُ الفِعْلُ. والرّاصِدُ للشّئِ: المُراقِب لهُ. تقولُ: رَصَدَه يَرْصُدُهُ رَصْدًا ورَصَدًا، والتَرَصُّدُ: التَّرَقُّبُ[1]. والمرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: أي: راصِدَة أَوْ مُرْصَدَة، أو طَريقًا عَلَيْهِ مَمَرُّ الخَلْقِ، فالمُؤْمِنُ يَمُرُّ عَلَيْها، والكافِرُ يَدْخُلُها[2].

2) ﴿أَحْقَابًا﴾: جمعُ حُقُب، اسمٌ بمعنى الدَّهر، وزنُهُ (فُعُل) بضمّتين، ووزنُ الجمع (أفعالٌ)، وضُمَّ العينُ هنا للإتباعِ لغةً، ويجوزُ فتحُها[3]. والحِقْبة بالكسر: واحدةُ الحِقَب وهي السِّنون، ومنهُ قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكهف: 60][4]. قيل: والحِقْبَة ثمانونَ عامًا، والصَّحيح أنّ الحِقبةَ مُدّةٌ من الزَّمان مُبهمَةٌ[5]. وأصلُ الجَذرِ (حَقِبَ) يدلُّ على الحَبْسِ. يُقالُ حَقِبَ العامُ، إذا احْتَبَسَ مَطَرُهُ[6]؛ كأنّ الأحقابَ لِطولِ زمنِها تَحبِسُ النّاسَ فيها. والمرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾: دُهورًا لا نِهايَةَ لَها كُلَّما مَضى حُقُبٌ تَبِعَهُ آخَرُ، إلى غَيْرِ نِهايَةٍ، ولا يُسْتَعْمَلُ الحُقُبُ إلّا إذا أُريدَ تَتابُعُ الأَزْمِنَةِ وتَواليها[7].

3) ﴿وَغَسَّاقًا﴾: أصلُ (غسق) يَدُلُّ عَلَى ظُلْمَةٍ؛ فالغَسَقُ: الظُّلْمَةُ. ويُقالُ: غَسَقَتْ عَيْنُهُ: أظْلَمَتْ. وأَغْسَقَ المُؤَذِّنُ، إذا أَخَّرَ صَلاةَ المَغْرِبِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وغَسَقُ اللّيلِ: شدّةُ ظُلمتِه. والغاسِقُ: اللَّيلُ المُظلِمُ. والغَسّاقُ: ما يقطِرُ من جُلودِ أهلِ النّارِ[8]. وهو الَّذي ورَدَ هُنا في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾. وسُمّيَ غسّاقًا لشدّةِ سَوادِهِ ونَتَنِه، فعُصارةُ أهلِ النّارِ من الصَّديد والقَيْح كما الظُّلمةُ السَّوداء، أَوْ لِسَوادِهِ مَعَ بُرودتِهِ فهُم بينَ زَمهريرٍ باردٍ وحَميمٍ حارٍّ. وجاءَ معنى البرودِ من كونِ اللَّيلِ الغاسِقِ أبرَدَ مِنَ النَّهارِ[9].

4) ﴿وِفَاقًا﴾: مصدرٌ سماعيٌّ للرُّباعيّ (وافَقَ)، وزنُهُ (فِعالٌ) بكسرِ الفاءِ، واستُعمِلَ في

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رصد).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 591، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.
(3) الجدول، صافي: 8/ 219.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حقب).
(5) الرّاغب، المفردات: (حقب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقب).
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 591، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غسق).
(9) السّمين، عمدة الحفّاظ: (غسق)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 206.

مَوضِعِ الصِّفة مُبالغةً[1]. وهو مِن الوِفْق: المُطابقةُ بينَ الشّيئين. يقالُ: وافَقْتُ فلانًا، ووافَقْتُ الأمرَ: صادفتُه، كأنَّهُما اجْتَمَعا مُتَوافِقَيْن. واتَّفَقَ الشَّيْئانِ: تَقارَبا وتَلاءَما. والوِفاق: المُطابقةُ وعدَمُ المُنافرة. ومنه: وافقتُ الرَّجلَ: إذا لم تُخالِفْه. والاتّفاقُ افتعالٌ منهُ، والمرادُ بقولِه تعالى: ﴿جَزَآءَ وِفَاقًا﴾: موافِقًا ومُلائمًا ومُطابقًا لِعَمَلِهِمْ، فلا ذَنْب أعْظَم مِن الكُفْر ولا عَذاب أعْظَم مِن النّار[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تحصيلُ الجزاءِ العادلِ للطُّغاة في اليومِ الفاصِل

تبيّنُ هذه الآياتُ عاقبةَ الطّاغين الّذين تجاوَزوا الحدودَ؛ فتقول: إنَّ جهنّم كانتْ يومئذٍ تترصّدُ أهلَ الكُفر الّذين أُعِدَّت لهم، ماكثينَ فيها دُهورًا متعاقبةً لا تَنقطِعُ، ولا يَطْعَمونَ فيها ما يُبَرِّد حرَّ السَّعيرِ عنهُم، ولا شَرابًا يُرويهِم، إلّا ماءً حارًا، وصديدَ أهلِ النّار، يُجازَونَ بذلك جَزاءً عادِلًا؛ موافِقًا لأعمالِهِم الّتي كانوا يَعملونَها في الدُّنيا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقِعُ جملةِ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ في النّظم:

الانتقالُ من أهوالِ القيامة إلى عاقبةِ أهلِ الكُفرِ والظّلامة

قولُه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لوصفِ جهنّم بعدَ الفَراغِ من مشاهدِ القيامة الكونيّة الكُبرى، حيث انتقلَ السّياق من تصويرِ أهوالِ الزّلزلةِ والنَّفخِ والبَعث إلى بيان مآلاتِ النّاسِ ومَواقِفِهم، فبدأ بذكرِ مَصيرِ الطّاغين توطئةً لذكرِ مَصيرِ المُتَّقين بعدَ ذلك، وهو نسَقٌ مُتكرِّرٌ في القرآن لتقريبِ العِبرة وتثبيتِ الموازنةِ في القُلوب[3].

دلالةُ الاستئنافِ البيانيِّ لمَوقِعِ قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾:

تفاعلُ السّامع مع السّياق، دافعٌ للجوابِ عن سؤالٍ في السِّباق

يجوزُ أيضًا أنْ تكونَ جملةُ قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾

(1) صافي، الجدول: 15/ 220.
(2) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 90، ودرويش، إعراب القران: 10/ 356.

مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، كجوابٍ عن سُؤالٍ مُقدّر يَعرِض في ذهنِ السّامع بعد سَماعِ أهوالِ البعثِ والقيامة: (فماذا يكونُ بعد هذه المَشاهدِ العَظيمة؟) فيأتي الجوابُ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، وهذا من دَقائقِ النّظم الّتي تُراعي تفاعُلَ السّامع معَ السّياق[1].

توجيهُ احتمالِ كونِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ خبرًا ثانيًا:

تـنـوّعُ الـرّوابـط البيانيَّة لتعدُّدِ الوجوهِ التّركيبيَّة

من الأوجُهِ البيانيَّة الّتي تُلحَظُ في قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أنْ تكون الجملةُ مُستأنفةً مَضمونيًّا، ولكنَّها في التّركيب واقعةٌ في مَوضِعِ خبرٍ ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه السّابق: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾، والتّقديرُ حينئذٍ: (إنّ يومَ الفصلِ كانَ ميقاتًا، وإنّ جهنمَ كانتْ مرصادًا فيهِ للطّاغين)، فيكون ثَمّ خبرانِ متلازمانِ عن اليوم الموعود: ميقاتيَّتُه، واحتواؤه لجهنّمَ المُترصّدة بالطّغاة، وكأنّ السّياق يُصوّر جهنّم جزءًا من اليومِ نفسِه، ومَشهدًا من مَشاهِدِه[2].

دلالةُ التّأكيدِ على التّأكيدِ:

تهويلُ الوَعيد بمجيءِ التَّوكيدِ بعدَ التَّوكيد

دخولُ حرفِ ﴿إِنَّ﴾ مرّتينِ في هذا البناءِ (في الموضِعِ الأوّل والثّاني) في قولِهِ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وقولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يُفيد تأكيدًا مُتراكبًا، وهو ما يُسمّيه البلاغيّون توكيدًا على التّوكيد، تعظيمًا لشأنِ اليوم ومِرصاديّتِه، وإثباتًا لما قد تُكذّبُهُ النّفوسُ أوْ تُماطِلُهُ[3].

نكتةُ البَدءِ بذكرِ جهنّمَ في السّياق:

مِـن لَـطـائِـفِ الـنَّـظـمِ تقديمُ الوَعيد، تحقيقًا لمقصَدِ الـزَّجْـرِ والتَّهديد

افتُتِحَ الحديثُ عنِ الجَزاءِ بذكرِ جهنَّمَ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قبل أن يُذكَرَ جزاءُ المتّقين، مع أنَّ الأصل في التّرتيبِ البيانيِّ أنْ يُقدّمَ الوعدُ على الوعيد، لما في الوعدِ من التّلاؤمِ معَ الرَّحمة الإلهيّة، إلّا أنَّ مقتضى مقامِ التّهديدِ والتّخويف غيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34، 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34، 35.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34، 35.

مسارَ العَرْض، فجُعل أوّلُ ما يُذكر بعدَ مَشاهدِ البعث هو أنَّ جهنَّم كانت مرصادًا، وكأنّها في انتظار، لا تتخلّف عن مَوعدٍ، ولا ينجو من طَلبها أحدٌ ممَّن استحقَّها؛ لأنّ هذا التّعقيبَ يُضاعِفُ من فزَع البَعث والنّفخ في الصّور، ويُربّي الخوفَ في قلبِ السّامع، فيتحقّقُ مقصودُ الرَّدعِ والإنذار. وممّا يَزيدُ مُناسبةَ هذا التّقديم أنَّ السّياق من أوّله جاء لتقريعِ المُكذّبين، كما في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾، فجاءتْ آياتُ الجَزاءِ مُتَّجِهةً إليهم، فكانَ من تمام الحِكمة أنْ يُفتتَحَ بجَزائهم لا بجَزاءِ غَيرهم، إذ الخطابُ موجّهٌ إليهِم بالدَّرجةِ الأوْلى[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ﴿جَهَنَّمَ﴾ دونَ غيرِه:

اختيارُ التَّجهُّمِ والعُبوس، معَ كلِّ طاغٍ مَهووس

ذُكرَ اسمُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون غيرِه من أسماءِ النّار في قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾؛ لأنّه أشدُّ أسمائِها رَهبةً وإيغالًا في الإيحاءِ بالعَذابِ والهَوْل؛ فكلمةُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ في أصلِ وضعِها تدلّ على البُعد والعُمْق المُظلم مع التَّجهُّم والعُبوس، فهي توحي بمَهواةٍ سَحيقةٍ مُرعِبة، بخلاف ألفاظٍ أخرى قد تفيدُ الإحراقَ أوِ الحرارةَ فقط، فاختيارُ هذا الاسم في مَقام الوَعيد يتناسَبُ مع وظيفةِ كونِها ﴿مِرۡصَادٗا﴾، أي مكانُ ترصُّدٍ للطّاغينَ وانتظارٍ للظّالمين، تستدرِجُهم إليها لتبتلعَهم في قَعْرِها البَعيد[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالكونِ الماضي في ﴿كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾:

الفعلُ الماضي دالٌّ على سبقِ التّقدير، وثَباتِ المَصير

لم يقُلِ السّياق الكريم: (إن جهنَّم مرصادٌ)، بل عبّر بالكونِ الماضي: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾؛ لأنّه لا يُراد مجرّدُ الإخبار عن حالِ النّار، بل المرادُ التّأكيدُ على التّقدير الإلهيِّ القديم بأنَّ جهنّمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34.

(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).

قد أُعِدّت لهذا الغرض، فهي ليستْ مُجرّدَ مكانٍ يَتصادَفُ أنْ يكونَ مِرصادًا، بل قد قُدِّرَ لها هذا الوصفُ منذُ الأزَل، فهي في عِلْم اللّه وخَلْقِه قد أُنشئتْ مِرصادًا، تنتظِرُ أهلَها منَ الطّاغين، لا تتركُهُم يُفلِتون؛ فإقحامُ الكونِ الماضي يُضفي على العُقوبة طابعَ الحتميَّة؛ فكما أنَّ البعث واقعٌ مُقدّرٌ، كذلك النّارُ موضِعٌ مقدّرٌ لجزاءِ الطّاغين؛ فالفعلُ ﴿كَانَتْ﴾ يدفَعُ احتمالَ أنْ يكونَ وصفُ ﴿مِرْصَادًا﴾ حالًا مؤقَّتًا أوْ طارِئًا، فيُرسّخ دوامَ الصِّفة وثباتَ المَآل[1].

نكتةُ عدمِ تأنيث ﴿مِرْصَادًا﴾ معَ نسبتِهِ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

جاءَ اللَّفظ ﴿مِرْصَادًا﴾ بصيغةِ المُذكّر رغمَ أنَّ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مؤنّثةٌ؛ لأنَّ التّشبيهَ هنا ليس بالمرأة، بل بالحارسِ الفَرْد، الَّذي يترصّدُ الطّريق فلا يدَعُهُ يُفلِتُ مَن فيه خطرٌ أوْ خيانة، فشُبِّهت جهنّمُ بذلك الحارسِ الفَرْدِ القاسي الصُّلب، لا بمُجرّدِ مكانٍ يُرصَدُ منه[2].

تشبيهُ جهنّمَ بالرّاصد الأمين، يُغلِقُ أبوابَ الهَرَب على الطّاغين

ترابُطُ معاني (الميقات) و(المِرْصاد):

من قرائنِ اعتبارِ قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بعدَ الخبرِ الأوّلِ: ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ هو أنّه ثمّةَ مُناسبةٌ دقيقةٌ بينَ لفظَي ﴿مِيقَٰتًا﴾ و﴿مِرْصَادًا﴾، فالميقاتُ يدلُّ على التّحديدِ الزَّمنيِّ للجَزاء، والمِرصادُ يدلُّ على التَّربّصِ المَكانيِّ لَمَنْ يقَعُ عليه الجزاء، فكأنَّ الآيتينِ تُكمّلُ إحداهُما الأُخرى؛ الأوْلى تشير إلى تعيينِ الزَّمان، والثّانية إلى تعيينِ المَكان، وفيه استيفاءٌ لَمعنى الوَعيد إحاطةً وزَمانًا ومَكانًا[3].

مِن دَقائقِ النّظمِ الإحكامُ، للرَّبطِ بينَ الأزمنةِ والمَقام

بلاغةُ لفظِ ﴿مِرْصَادًا﴾:

كلمةُ ﴿مِرْصَادًا﴾ تفيدُ المُبالغة على وزنِ (مِفْعال)، أي: مكانٌ

مَن تجاوَزَ حدَّ اللهِ في الدُّنيا وجدَ جهنّمَ مِرصادًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 203، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 35، 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 35.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 200، 203، والقونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34، 35.

ترصُّدٍ دائم مُتربّصٍ بأهل العقوبة، وهو تصويرٌ مَرهوبٌ لحالِ جهنّم، كأنّها مُتأهّبة دائمًا، تترقّبُ قدومَ الطّاغينَ فلا يُفلِتُ منها أحدٌ، وهذا وِفاقُ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ١٢﴾ [الفرقان: 12]، فهي الرّائيةُ والرّاصدةُ لهُم، وعليه فـ﴿مِرۡصَادٗا﴾ مُبالغةٌ من الفاعلِ، ويجوزُ أنْ تكونَ المبالغةَ منَ المَفعول، بمعنى أنّها مَرصودةٌ، يَراها الجميعُ، لكنّها مآبٌ مخصوصٌ للطّاغين منهُم، وهذا وِفاقُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: 71 - 72][1]. وعلى كلٍّ فـ(مِفعالٌ) صيغةُ مُبالغةٍ أوْ صفةٌ مُشبّهةٌ، كـ(مِعطاءٍ، ومِقْدام)، فهي كثيرةُ الرّصد أوْ دائمةُ الرّصَد، ويصحّ أنْ تكونَ (مِفعال) هنا اسمَ مكانٍ، أي: مَوضِعُ رَصدٍ يَرصُدُ فيه خزنةُ النّارِ الكفّارَ[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾:

مآبُ الطّاغين جهنّمُ ذاتُ العذابِ الأليم

قدّمَ النّظمُ الكريمُ الجارَّ والمَجرورَ ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ على ﴿مَـَٔابٗا﴾ في قولِهِ: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ جهنّم ليستْ مَأوى مُطلقًا، بل مأوًى مخصوصٌ للطّاغين، فهم الّذينَ بُني لهُم هذا المَصير، والمآبُ هنا مأوًى لا خروجَ منه، بخلاف ما توهمهُ الكلمةُ أحيانًا من الرّاحة، فالسّياقُ يُفرّغها من ذلك تمامًا. فهي غايةُ إيابِهم ومُنتهَى إقامَتِهم كما يُشعِرُ به بناءُ المَصدرِ الميميّ[3].

تحديدُ مُتعلّق الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾:

تسميةُ الجاني المُبين، ثمَّ يُتلَى عليه حكمُهُ المُهين

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾، وردَتْ عدّةُ احتمالات في تعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾، وهي وجوهٌ تُبرزُ دقّةَ النَّظم وبَراعةَ التّأليف:

---

(1) جلال المحلّي، تفسير الجلالين، ص: 787.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 23، 24، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 203.

(3) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 32.

الأوّل: أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ﴿مِرۡصَادٗا﴾ على أنَّ التَّقدير: كانتْ جهنّمُ مِرصادًا للطّاغين، ويكونُ ﴿مَـَٔابٗا﴾ خبرًا ثانيًا لـ(كانَ) أوْ حالًا من ضميرِ ﴿مِرۡصَادٗا﴾، أي: كانتْ جهنّمُ مِرصادًا للطّاغين، وكانتْ مآبًا، فـ﴿مِرۡصَادٗا﴾ خبرٌ أوّل لـ(كانَ) و﴿مَـَٔابٗا﴾ خبرٌ ثانٍ، وتعدّدُ الأخبار فيه زيادةُ تقرير، فيُعطَى للخبرِ قوّةُ التّأكيدِ والإحاطة، فهي مِرصادٌ، وهي مآبٌ في الوقتِ نفسِه. أوْ أنْ يكونَ حالًا من الضَّمير في ﴿مِرۡصَادٗا﴾، أي إنَّ جهنّم كانتْ مِرصادًا في حالِ كونِها مآبًا للطّاغين، وفائدةُ الحاليَّة: إبرازُ هيئةِ المِرصاد، أي إنَّه ليس مجرّدَ ترصُّدٍ خارجيٍّ، بل هو ترصُّدٌ ينتهي بالمآلِ والمَقام الدّائم فيها.

الثاني: أنْ يكونَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ متعلّقًا بـ﴿مَـَٔابٗا﴾، لكنّهُ قُدّمَ لغرضِ التَّخصيصِ ولفتِ النّظَرِ إليهم قبلَ الحُكْم عليهم، والتَّعلُّقُ بـ﴿مَـَٔابٗا﴾ أقرَبُ؛ مُراعاةً لنسَقِ السّورة في إيجازِ المَقاطِع، وقِصَرِ الفَواصِل، فيكونُ الوقفُ على ﴿مِرۡصَادٗا﴾ أوْلى وأتَمّ[1].

الدّلالةُ البيانيّة لـ(أل) في قولِه: ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾:

كـلُّ الـطُّـغـاة المُـسـتـكـبـريـن، مآبُهُم العذابُ المُهين

التّعريفُ بـ(أل) في قولِه تعالى ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ هو تعريفٌ للجنسِ، المتحقّقُ بالاستغراقِ الكليّ، أي: لا يُقصَدُ به طغاةٌ مخصوصونَ. بل المُراد كلُّ مَن طغى بإطلاقٍ على ربِّ العالَمين، وماصدقُ ذلك العموم هُم المشركونَ الّذين وُجّه إليهم الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾، أي إنّكم أنتُم - يا مَن طَغَيتم وأنكَرتُم البَعث - سَترِدونَ على جهنّم، فهي مِرصادٌ لكم دونَ سِواكم. فكأنّ (ال) الاستغراقيَّة جاءت لتقطَعَ العُذرَ، وتُحدّدَ الفِئةَ المُخاطَبةَ بالتّهديد[2].

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 25، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 35، وصافي، الجدول: 15/ 219.

(2) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787، والقونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 25.

توجيهُ الخِطاب، بما يَكشِفُ علّةَ الوَعيدِ بالعَذاب

دلالةُ التّصريح بوصْفِ (الطُّغيان):

اشتملَ قولُه: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ على علّةِ الحُكم بكونِ جهنّمَ مِرصادًا لهُم، وهو من أساليبِ التّشنيع والتّقريع القائم على البُرهانِ والتّعليل، كأنَّ السّياق يقولُ: لا جَرَمَ أنَّ مآبَ جهنّم إنَّما هو لهؤلاءِ الّذين طَغَوا، لا لغيرهم، إذ توجيهُ الخِطاب بلفظِ (الطُّغيان) يفضَحُ سببَ الاستحقاقِ[1].

مَن تجاوَزَ الحُدود، صُفِّد بالأغلالِ والقُيود

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالطُّغيانِ دونَ غَيرِه:

إيثارُ التَّعبيرِ بـ(الطُّغيان) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ مرتبطٌ بالسّياق الخاصِّ والعامِّ معًا؛ فأمّا الخاصُّ فهو كونُ جهنّمَ مِرصادًا، إذ شأنُ المِرصاد أنْ يَلتقِطَ المُتجاوِزَ الظّاهر، فلا يخفى عليه أثرُهُ ولا يلتبسُ عليهِ حالُهُ، فكذلك جهنّمُ ترصُدُ الطّاغين الَّذين جاوَزوا الحدودَ وأمعَنوا في العُدوان، فتأسِرُهم جَزاءً وِفاقًا. وأمّا العامُّ فهو سياقُ السّورةِ الَّتي عرضَتْ انتظامَ الكونِ في نواميسِهِ وحدودِهِ: (﴿ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، و﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾، و﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، و﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾)؛ كلُّ شيءٍ جارٍ بميزانٍ وضَبْطٍ، إلّا فئةُ الطُّغاة الَّذين لا يَعترفونَ بحَدٍّ ولا يلتزمونَ بنِظام، فناسَبَ أنْ يوصَفوا بالطُّغيان، ليُعلَمَ أنَّهم الأحقُّ بأنْ تكونَ جهنَّمُ مِرصادًا لهُم.

جهنّمُ ترصُدُ الطّاغين، الماكثينَ فيها واللّابِثين

دلالةُ المَوقعِ الإعرابيّ لـ﴿لَّٰبِثِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ حالٌ مقدّرةٌ منَ الضَّميرِ المُستكِنِّ في: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾[2]، وهي مقدّرةٌ؛ لأنّ حصولَ مَضمونِها مُتأخِّرٌ عن حُصولِ مضمونِ عامِلِها[3]؛ لأنَّ لُبثَهُم في النّار لا يتحقَّقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 34، 35.

(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 30/ 21.

(3) جمال الدّين الفكهانيّ، شرح كتاب الحدود في النّحو، ص: 230.

عندَ الإخبار عنهُم بكونِ جهنَّم مِرصادًا لهم، وإنّما يتحقّقُ بعدَ دخولِهم إليها.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿لَّبِثِينَ﴾:

قُرِئَ تواتُرًا ﴿لَّبِثِينَ﴾، بحذفِ (الألفِ) على وزنِ (فَعِل) وهي قراءة حمزة ورَوْح عن يعقوب، كما قُرِئَ على وزنِ (فاعِلٍ) ﴿لَّابِثِينَ﴾[1]، وقراءةُ (فَعِل) أبلغُ في زيادةِ المَعنى على قراءةِ (فاعِل)، وزيادةُ المبنى هنا لا تدلُّ على زيادةِ المَعنى، بل (فَعِل) أزيدُ مَعنًى؛ لأنّها صفةٌ مشبّهةٌ أوْ صيغةُ مبالغةٍ، فتدلُّ على ثبوتِ الصِّفة لهم كما الشّأن والعادةُ المُلازِمة، فهُم في لُبْثٍ طويلٍ أوْ دائم. بخلافِ ﴿لَّابِثِينَ﴾ فهي اسمُ فاعلٍ تدلُّ على مَن وُجِدَ منه الفعلُ، وذلك كـ(حاذِرٍ وحَذِر، وجاهِلٍ وجَهِل)[2].

نكتةُ التَّعبير بالحالِ اسمًا ﴿لَّبِثِينَ﴾:

ثباتُ لُبثِ الطُّغاة، لأنَّهم كانوا مِنَ العُتاة

التَّعبيرُ بالحال (اسمَ فاعلٍ) ﴿لَّبِثِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ دونَ (يَلبثون)؛ لإفادةِ الثُّبوتِ والدَّوام؛ فاسمُ الفاعل يدلُّ على أنَّ لبثَهُم في النّار أمرٌ ثابتٌ ودائمٌ، بخلافِ الفعلِ الَّذي يدلُّ على التّجدُّد الاستمراريّ دونَ الثّبوتِ والدّوام، فجاءَ اسمُ الفاعل ليُعطيَ معنى الاستقرارِ الطَّويل، المُناسِبِ لوصفِ المُكثِ في جهنّمَ[3].

دلالةُ الأسلوبِ الكنائيِّ في ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾:

تقريرُ طولِ العَذاب، لعدمِ تحديدِ تلك الأحقاب

عبّرَ النَّظمُ بـ(الأحقاب) في قولِه تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ وهو جمعُ حُقُب[4]. والحُقُب: مدّةٌ من الزّمن غيرُ مُحدّدة، وقد اختلفوا

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 397، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 214.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 386، والقونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 25، والسّامرائي، معاني الأبنية، ص: 69، 102.

(3) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 44.

(4) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.

في تحديدِ مِقدارها[1]، لكنَّ السّياق هنا لا يُرادُ فيه التَّحديد، بل أتى الجمعُ ﴿أَحۡقَابٗا﴾ ليفيدَ الكثرةَ والطّولَ، فلا يفيدُ عددًا معينًا من الحُقَب، بل لتصويرِ ديمومةِ العذابِ وتوالي الأزمنةِ فيه بلا انقطاع، على طريقةِ الكناية، حيثُ يُكنّى عن الخلود بكثرةِ الأزمنة وتعاقُبها. وهذا التّفسيرُ يتّضحُ جليًّا إذا نُظِرَ إلى مُجمَلِ الآيات الّتي تُثبِتُ خلودَ الكفّار في النّار، بما يدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ هو كنايةٌ عنِ الاستمرار المُتجدّد، لا عن وقتٍ يَنتهي فيه العَذاب[2]. واستفادةُ عدمِ التّناهي من قولِه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ جاءَ بطريق الكِناية، أي بطريقِ المَفهوم والإشارةِ لا بطريقِ النّصّ والعِبارة؛ لأنّ لفظَ ﴿أَحۡقَابٗا﴾ لا يكادُ يُستعمَلُ إلّا حيثُ يُراد تتابُعُ الأزمنةِ وتَواليها، لكنّه لا يَقتضي عدمَ التّناهي، كما لا يَقتضي التّناهي[3]. فكانتْ استفادةُ عدمِ التّناهي هنا، لا مِن مَنطوقِ اللّفظ، بل مِن المفهومِ مِن عُمومِ السّياق القرآنيِّ وقرائنِ الآياتِ.

علّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾:

مَعَ طـولِ اللّبث مَـحـرومـونَ مِنَ البُرودةِ والشُّربِ عندَ المُكث

جملةُ ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ حالًا ثانيةً من (الطّاغين) أوْ حالًا أوْلى من الضَّمير في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، وأنْ تكونَ خبرًا ثالثًا لـ﴿كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾، وضميرُ ﴿فِيهَا﴾ على هذه الوجوهِ عائدٌ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾. ويجوزُ أنْ تكون صفةً لـ﴿أَحۡقَابٗا﴾، أي: لا يذوقونَ في تلك الأحقابِ بَرْدًا ولا شَرابًا إلّا حَميمًا وغسّاقًا؛ فضميرُ ﴿فِيهَا﴾ على هذا الوجهِ عائدٌ إلى الأحقابِ. أوْ تكونُ كلامًا مُستأنَفًا مُبتَدأً أُخبِرَ عنهم بأنَّهم لا يذوقونَ فيها شيئًا ما من بردٍ ورَوْحٍ ينفِّسُ عنهُم حرَّ النّار، ولا

(1) الرّاغب، المفردات: (حقب).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 688، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 251، وأبو حيّان، البحر: 10/ 386، 387، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 37.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 25.

شرابٍ يُسكِّنُ مِن عَطَشِهِم، وليستْ في موضِعِ الحال، والضَّمير في: ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾[1]. وحينئذٍ فُصِلت الجملةُ لكمالِ الانقطاعِ، ويصحُّ أنْ يكون لشِبهِ كمالِ الاتّصال لو اعتبرنا الاستئنافَ بيانيًّا في موقِعِ الجوابِ عن سُؤالٍ مُقدّرٍ عمّا يُلاقونَهُ بعد لُبثِهم فيها واستقرارِهِم في قَعرِها.

بلاغةُ (الاستعارة) في التَّعبيرِ بالذّوْقِ:

لا يُغاثونَ بنَسيمٍ بارِد، ولا شَرابٍ جامِدٍ

الذّوقُ في قولِه: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا﴾ مستعارٌ للإحساسِ[2]؛ لأنّ الذّوقَ في الأصلِ هو إدراكُ طعم الشَّيء بالحاسّةِ الخاصَّة في الفَم[3]، وهنا لم يُرِدْ به حقيقةُ تذوُّقِ طعمٍ، لأنَّ البردَ ليسَ ممّا يُذاق في الفمِ فليسَ من الطُّعوم. إنَّما استُعير الذّوقُ للإحساسِ والشُّعورِ بنَسيمِ البردِ وتلطيفِهِ؛ لأنَّ الذّوقَ من أقربِ الحواسِّ وأشدِّها اتِّصالًا بالنَّفسِ وأبلغِها أثرًا، فصارَ الذّوقُ مَجازًا عن مطلقِ الإدراك أوِ الإحساسِ بالبردِ المنفيِّ والحَميمِ الثّابت. ونوعُ هذه الاستعارةِ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، حيثُ صُرِّح بلفظِ المشبَّه بِهِ (الذّوق) وأُريدَ بِهِ المشبّهُ (الإحساسُ).

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجُملةِ ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ به ﴿بَرۡدٗا﴾:

لا حِرمانَ إلّا في النّار، حيثُ الحَرارةُ المُشتعلةُ الأوار

تقديمُ شبهِ الجُملة ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ بِهِ ﴿بَرۡدٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا﴾ فيه إشارةُ تخصيصٍ؛ أي: إنَّهم في النّار خاصّةً لا يذوقون بردًا ولا شَرابًا، أمّا في دارٍ أُخرى (أي في الجنّة) فإنَّ ثَمَّتَ بردًا (راحةً، وظِلًّا) وشَرابًا (لذّةً ونعيمًا). فالتَّقديمُ هنا يفيدُ القَصر: أي لا حِرمانَ منَ البَردِ والشَّرابِ إلّا في هذه الدّار (النّار). وكأنَّ الآيةَ تُلفِتُ السّامعَ أنَّ الحِرمانَ ليس

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 16، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 387، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 37، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 30/ 22.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 37.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذوق).

صفةً مُطلقةً دائمةً، بل هو خاصٌّ بجهنّمَ، أمّا في الجنّةِ فالأمرُ على الضدِّ(1).

نكتةُ التَّعبير بالمَصدرِ ﴿بَرۡدٗا﴾:

حِرمانُ أهلِ النّار، مِن تذوُّق البرودةِ المُخصَّصة للأبرار

التّعبيرُ بالمَصدرِ ﴿بَرۡدٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ دون (باردًا) فيه نكتةٌ بلاغيّةٌ قويّةٌ: وهي الإحاطةُ بالمعنى: فالمصدر أشملُ من الوَصف؛ لأنّه يدلُّ على حقيقةِ البردِ نفسِه، فيتناولُ كلّ ما يدخُلُ تحت معناه مِن نسيمٍ أوْ هواءٍ لطيفٍ أوْ راحةٍ باردة. والمصدرُ يَعني المبالغةَ في الحِرمان؛ فالمعنى: ليس مجرّدُ أنَّهم لا يذوقونَ شيئًا باردًا، بل هم مَحرومونَ من أصلِ البَرد بأيّةِ صورةٍ من صوَرِه. إذن اختيارُ المصدرِ يرسِّخُ صورةَ الحِرمانِ المُطلق، لا مجرّدَ حِرمانٍ جُزئيٍّ من وصفٍ مُعيَّن.

بلاغةُ المجازِ والاستعارةِ في ﴿بَرۡدٗا﴾:

البردُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ قد يكون اسمًا بمعنى النّوم، وقد سُمّيَ النّومُ بردًا؛ لأنَّه يبرّد صاحبَهُ، وهو لغةُ هُذيل(2). إذن الأصلُ أنّ البردَ هو ضدُّ الحرّ، وهو الإحساسُ بانخفاضِ الحَرارة. والمنقولُ عن (هذيل) إطلاقُ البردِ على النّوم؛ لأنّ النّومَ يُسكّن حرارةَ الأعصاب، ويُحدِثُ في البدنِ راحةً تُشبِهُ التّبريد، فكأنّهم شبّهوا أثرَ النّوم بأثرِ البردِ في الجَسَد، ثمّ نُقِل اللَّفظ. والبرد بهذا الاعتبار إمّا من قبيلِ المَجاز المُرسَل لعلاقةِ السَّببية، فأُطلِقَ المسبَّب: البردُ، وأراد السَّبب: حصولُ النّوم. فكأنّه قيل: لا يذوقونَ في النّار نَوْمًا يبرّدُ حَرارةَ ما يحسّونَهُ وتحدثُ عندَهم الرّاحة. وإمّا ذلك من قبيلِ الاستعارة لعلاقةِ المُشابهة، فشبّهَ النَّومَ بالبردِ باعتبار أثرِ التَّسكينِ والرّاحة في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 205.

(2) صافي، الجدول: 15/ 220.

كلٍّ، وهذه الاستعارة تصريحيّةٌ؛ للتَّصريحِ باللَّفظ المُستعارِ وهو البردُ، وحُذِفَ المُستعار له: النَّوم. وكأنّ المعنى: (لا يذوقونَ في النّار نومًا يَستريحونَ به، كما لا يذوقونَ فيها شَرابًا يرتوونَ به)؛ فالمجازُ المرسَل هنا فيه إشعارٌ بأنّهم حُرِموا حتَّى من أسبابِ النّومِ الطَّبيعيِّ (البرودة)، فكيفَ بالنَّومِ نفسِهِ! والاستعارةُ تجعلُ النَّومَ كأنّه برودةٌ تُطفئُ حرَّ الجَسَدِ[1].

مَعنى التّنكير في ﴿بَرۡدٗا﴾:

التَّـقـلـيـلُ والـوَحـدة، تـصـويـرٌ لأعلى دَرجاتِ الشِّدّة

تنكيرُ (البردِ) في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا﴾ يفيدُ الوحدةَ، أي: لا يذوقون فيها بردًا واحدًا، وهو البردُ الَّذي يَنتفِعونَ به ويَستريحونَ إليهِ[2]. ويحتملُ أنْ يكونَ للتَّقليل، والغرض نفيُ أيِّ بردٍ كانَ يخفِّفُ عنهم من ألَمِ الحرِّ وشدَّته.

سرُّ إيثارِ تقديمِ نفيِ البَرْد على نَفْيِ الشَّراب:

انتفاءُ البُرودةِ الخارجيَّة، يُصاحبُها انتفاءُ ما يُحقِّقُ البُرودةَ الدّاخليَّة

تقديمُ نفيِ البَرد على نَفْيِ الشَّراب في قولِه: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾؛ لأنَّ السّياقَ في ذكرِ النّار، وأوّلُ ما يتبادَرُ عندَ ذكرِها هو شدّةُ الحَرارة؛ فأنسَبُ ما يُنفَى أوّلًا هو البردُ الّذي يُطفِئُها ويُخفِّفُ وطأتَها. كذلك البردُ (بمعنى الرَّوحِ والهواءِ البارد)[3] هو الأشدّ حاجةً إليه، فيُطلَبُ عندَ اشتدادِ العَذابِ قبلَ الشَّراب؛ فالنُّفوسُ تتطلّعُ إلى أيِّ نسمةٍ تُسكّنُ الوَهَج، فلمّا نُفِي أوّلًا كان ذلك أوقعَ في النّفس. وفي البدءِ بالبرْدِ ترتيبٌ تصاعُديٌّ في الإحباط، فيبدأ بنفي الرّاحة الظّاهرة (البرد) ثمَّ يَنتهي بنفيِ ما يُطفِئُ العطَش الباطِن (الشَّراب)، فيجتمِعُ عليهم الحِرمانُ في الظّاهر والباطِنِ.

نكتةُ إعادةِ حرفِ النَّفي في ﴿وَلَا شَرَابًا﴾:

تكرارُ حرفِ النّفي في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 16.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 17.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 205.

تعميقُ التّصويرِ الفظيع، بنَفْيِ كلِّ واحدٍ منهُما بلا تفريع

﴿شَرَابًا﴾؛ لتقويةِ النّفي وتوكيدِهِ، وإزالةِ توهّمِ الفرعيَّة، فلو قيلَ بلا تَكرار: (لا يذوقونَ فيها بَرْدًا وشَرابًا) لاحتمَلَ أنَّ الحِرمانَ مِن الشَّراب مُتفرّعٌ عن الحرمانِ منَ البَرد، لكنْ معَ إعادةِ (لا) صارَ كلٌّ منهما مقصودًا بالحِرمان بذاتِهِ على جهةِ الاستقلال، تنبيهًا على أنَّ كلًّا من البردِ والشَّرابِ حِرمانٌ مُستقِلٌّ قائمٌ بذاتِهِ، وكأنَّ الحِرمانَين عذابانِ مُنفصِلانِ لا يندرجُ أحدُهُما في الآخَر.

سرُّ نفيِ (الشَّراب) دونَ (الشُّرْبِ):

الشُّربُ موجودٌ، والشّرابُ مَفقود

التَّعبير بـ﴿شَرَابًا﴾ دونَ (شُرْبًا) في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾؛ لأنّ المَنفيّ هنا هو ألاّ يكونَ لهم شَرابٌ؛ بمعنى ليسَ لهم في النّار مَشروبٌ يُرويهم فيُخفّف عنهم حرَّ العَذاب. ولكنْ هناك شُرْبٌ حاصِلٌ لما ليسَ شَرابًا في حقيقتِهِ وما لا يُروي، وهو (الغسّاقُ) في قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾؛ فإنّهم يَشربونَه؛ فالشُّرب الَّذي هو الفعلُ نفسُهُ مصدرُ (شرِبَ) ليس مَنفيًّا عنهم؛ لِشُربِهم ما ليسَ شرابًا، بل عذابًا سائِلًا غسّاقًا. فجاءَ التَّعبيرُ القرآنيّ باسمِ الجَنس: ﴿شَرَابًا﴾، أي: لا يذوقونَ شيئًا يصِحّ أنْ يُسمَّى شَرابًا (مُرويًا لذيذًا يُخفِّفُ العَطَش)، أمّا فعلُ الشّربِ نفسِهِ فهو حاصلٌ لهم، لكنَّه لِسَوائِلِ أهلِ النّار[1].

دلالةُ أسلوبِ اللّفِّ والنَّشرِ في قولِهِ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾:

التَّنظيمُ والتّرتيب من خصائصِ النّظْمِ المَجيد

في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ثمَّ استثنى ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، استُعملَ أسلوبُ اللّفِّ والنّشرِ المرتَّب، أي إنَّ (الحميم) بدلٌ من ﴿شَرَابًا﴾، و(الغسّاق) من ﴿بَرْدًا﴾[2]. والغرضُ من الأسلوبِ التّنظيمُ والتّرتيبُ في العرض للمُستثنى؛ ليقومَ الذّهنُ بكلِّ يُسرٍ بإرجاعِ كلِّ مُستثنًى إلى ما يُلائِمُه، حتَّى يُدرِكَ أنَّ المُستثنى محقِّقٌ لأعلى درجاتِ الإحباط.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 17.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 38.

علّةُ انقطاعِ الاستثناءِ في ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾:

الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ مُنقطِعٌ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ الحميمَ والغسّاقَ ليسا منَ البردِ والشَّراب الَّذي يُستلذُّ به، بل هُما من جنسِ العَذاب[1]. وفي ذلك الانقطاعِ مباغتةٌ للقارئِ في نظم التَّركيب؛ إذ يتوقّعُ أنْ يُستثنى شيءٌ من البَردِ والشَّراب، لكنَّه بمجيئِهِ مُنقطِعًا تزدادُ الصّورةُ قَتامةً، والحالُ فظاعةً وشدّةً.

الــحــمــيــمُ والغسّاق، من أفرادِ العَذابِ الَّذي لا يُطاق

بلاغةُ الاستثناءِ المُنقطِعِ في تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضدّهُ:

الاستثناءُ المُنقطِعُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ كأنّه يقولُ: (لا يَجدونَ شيئًا من الرّاحة، لا بردًا يلطّفُ، ولا شرابًا يُروّي، إلّا ما هو على الضدِّ تمامًا: حرٌّ يُحرقُ، وصديدٌ يُقزِّزُ ويُؤلم)؛ ففيهِ تأكيدٌ للنّفي بما يُشبِهُ ضدَّهُ من حيثُ اللَّفظُ لا المعنى[2]. فنُفي عنهُم النَّعيمُ بذكرِ ما يُظَنُّ أنَّه مِن جنسِه، ثمَّ بُيِّن أنَّ المَذوقَ عذابٌ لا رحمةٌ، فكان أبلغَ في التَّقريعِ والتَّهديد، والغرضُ من هذا الأسلوبِ التَّهديدُ الشَّديد بما يتوقّعُ منهُ التَّخفيفُ والتّيسير مع إفادةِ شيءٍ من التَّهكُّم بأولئك المُعذَّبين.

تصويرُ العذابِ بـنـقـائـضِ النَّعيم، لزيادةِ وقْـعِ التّهديدِ بالعَذابِ الأليم

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في ﴿وَغَسَّاقًا﴾:

قُرِئَ ﴿وَغَسَّاقًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ تواتُرًا: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بالتَّشديدِ، وهي قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر، وقُرِئَ بالتَّخفيف: ﴿وَغَسَاقًا﴾[3]. والفرقُ بينَ القراءتينِ أنَّ ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بالتَّشديد على وزنِ (فعّال)، وهو صيغةُ مُبالغةٍ فيتحقّقُ التَّناسُبُ في المبالغة بينَهُ وبينَ ﴿حَمِيمًا﴾ الدّالِّ على المُبالغة أيضًا، و(الغسّاقُ) شرابٌ سيّالٌ ميّالٌ إلى شدّةِ الظُّلمة والسّوادِ أوْ شدّةِ

ملاحظةُ الحدَث أوِ الشّيئيَّة، يُـعـبـر عـنـهـا بصيغةِ المُبالغة أوِ الجنسيَّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 689.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 38.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 361.

البردِ (الزّمهرير) أوْ شدّةِ النَتْنِ، وأنّ ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بالتَّخفيفِ على وزنِ (فَعال) مثلُ (شَراب). فيكونُ اسمًا، ويتحقّقُ التّناسُبُ بينَهُ وبينَ ﴿شَرَابًا﴾ في التَّخفيف، أي عينٌ أوْ نوعٌ من العذابِ كالمشروبِ الخَبيث المُنْتِنِ البارد، فإمّا أن يُلاحَظَ شيئيّتُهُ على أنَّه مشروبٌ شديدُ القذارةِ نتنٌ زَمهريرٌ مستقلٌّ على قراءةِ التّخفيف، أوْ أنْ يُلاحَظَ حدثُهُ المُبالغُ فيهِ على قراءةِ التَّشديد[1].

دلالةُ إعرابِ ﴿جَزَآءَ﴾ ووظيفتِهِ البلاغيّة:

في قولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءَ وِفَاقًا﴾ نُصبَ ﴿جَزَآءَ﴾ على الحاليَّةِ من ضَميرِ ﴿يَذُوقُونَ﴾، أي يذوقونَ ذلك العذابَ في حالِ كونِهِ جَزاءً عادلًا لهم، وليسَ أمرًا عارضًا أوْ بغيرِ سَبَب أو ظُلْمًا.

بلاغةُ الحاليَّةِ المَصدريَّة:

المبالغةُ في الجزاءِ العادل، دليلٌ على عَدالةِ المَوْلى القادِر

لفظُ ﴿جَزَآءَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءَ وِفَاقًا﴾ وقعَ حالًا منَ فاعلِ الذَّوق معَ كونِهِ مَصدرًا مُؤَوّلًا بالوَصفِ (أي: مُجازَينَ به)، وهو أبلغُ من الوَصفِ الصَّريح؛ لأنَّ المصدرَ يُفهَمُ منهُ الحدثُ والتّلبّسُ به، فمجيءُ الحال مصدرًا دلّ على المبالغة بجعلِ العذابِ الَّذي يَذوقونَهُ عينَ الجَزاء وحقيقتَهُ، أي لم يبقَ شيءٌ من الجزاء في ذلك العذابِ إلّا ونالوهُ، وفيهِ إشارة إلى كمالِ العَدلِ الإلهيِّ في جعل العذابِ مُساويًا لما صدرَ منهم من تكذيبٍ وطُغيانٍ[2].

بلاغةُ الوصفِ في قولِهِ ﴿وِفَاقًا﴾:

موافقةُ الجَزاء، لجُرْمِ الأعداء

وُصِفَ الجزاءُ بكونِهِ ﴿وِفَاقًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءَ وِفَاقًا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ العذاب موافِقٌ تمامًا لأعمالهم، لا يزيدُ عنها ولا ينقُصُ، ممّا يُظهرُ كمالَ العدلِ الإلهيِّ في العُقوبة، ويُزيلُ عن الذّهن توهُّمَ الإفراطِ أوِ الغلوِّ في الانتقام، وهذا المَعنى يُفهَمُ سواءٌ جعلْنا ﴿وِفَاقًا﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 38.

مَصدرًا مُؤَوّلًا بالوصف (أي: جزاءً موافقًا)، أوْ على حذفِ مضافٍ (أي: ذا وفاق لأعمالهم)، أوْ على المبالغةِ بأنَّ نفسَ الجزاءِ وِفاقٌ[1]. والغرضُ من النّعت التّوكيدُ؛ إذ يُفهَمُ منَ الجَزاءِ أنَّ العُقوبةَ جزاءٌ للظُّلْم، وأنَّه مُناسِبٌ لَمدى الجُرْم، فيكونُ وصفُهُ بالوِفاق توكيدًا مُحقِّقًا لذلك المَعنى.

بلاغةُ التَّطابق نفيًا وإثباتًا:

التّوزيعُ اللّغويُّ المُنظَّم يُحاكي التَّوزيعَ للعَذاب المُرتَّب

في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ يبيّن السّياقُ وجهَ المُطابقةِ بينَ الذّنبِ والعُقوبة، بأنَّ الكافرين ارتكَبوا جَريمتينِ أساسيّتينِ؛ **الأوْلى**: عدميّةٌ: وهي إنكارُ البعث وعدمُ توقّعِهم للحسابِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، **والثّانيةُ**: وجوديّة: وهي تكذيبُهُم لآياتِ اللّه وللرَّسول: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

فجاءَ العقابُ موزَّعًا على وفْقِ هذينِ الأصلَين، فعوقِبوا على الجريمةِ العَدَميّة بعقابٍ هو حِرمانُهُم من كلِّ بردٍ وشَراب، وعُبِّرَ عنه بالنّفي. وعوقِبوا على الجريمةِ الوُجوديّة بعقابٍ هو ذوقُهم الحميمَ يُراقُ على أجسادِهم، والغَسّاقَ يَسيلُ عن مواضِعِ حُروقِهم وعبِّر عنه بالإثباتِ. ومِن هذا التَّقسيم وهذه المُطابقة يظهَرُ كمالُ العدلِ والميزانِ الإلهيِّ في المُؤاخذة، ويزيدُ ذلك في الإقناعِ والتَّهديد، إذ يتبيّن أنَّ العذابَ لم يكُنْ عَشوائيًّا ولا مُجرَّدَ انتقام، بل هو وفاقٌ تامٌّ ومطابقةٌ دقيقةٌ للذّنب[2].

بلاغةُ الاختيارِ بينَ ﴿جَزَآءً﴾ و﴿عَطَآءً﴾:

عدمُ الزّيادة في جانبِ العَذاب، وكمالُ الفضلِ في جانبِ الثَّواب

في جزاءِ الكافرينَ قالَ تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وفي جزاءِ المُتّقين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 17، والقنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 39، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 216، والقونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 28.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 689، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 388، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 91.

قالَ: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، وهذا التّمييزُ بينَ الجزاءينِ يحمِلُ نكتةً بلاغيّةً بديعةً، حيثُ إنَّ ﴿وِفَاقًا﴾ يفيدُ مُناسبةَ الفعلِ للجَزاء دونَ فضلٍ أوْ نقصٍ، وهو المُناسِبُ معَ الكافرين الَّذين لا يُجزَونَ إلّا بما عَمِلوا. و﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ يفيدُ الوفاءَ والكفايةَ والتّجاوُزَ عن مُجرَّد المقابلةِ بينَ العملِ وجزائِهِ، وهو المُناسِبُ مع المؤمنينَ الَّذين يُعطَون من الفضلِ والرَّحمة ما يَربو على أعمالِهم[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

اللّبْث والمكْث والخلود:

الـلّـبْـثُ أعـمّ، والمكثُ أخصُّ

(اللّبْثُ): الإقامةُ الطَّويلةُ والمُلازَمةُ المُمتدّة للزّمانِ أوِ المَكان[2]. و(المُكْث): ثباتٌ وتوقُّف وانتظارٌ وأناةٌ، ويتعلّق أيضًا بحيّز الزَّمان والمَكان[3]. والفرقُ بينَهُما: أنّ اللَّبْث يَصِفُ نِسبةَ المظروفِ للظّرف ساعةَ تلبُّسِهِ به، أي: يتعلّقُ بوضعيّةِ الفاعِلِ (المَظروف) ونِسبتِه إلى مكانِهِ وزَمانِه (الظّرف). والمُكْث يَصِفُ كيفيّةً مخصوصةً تتعلّقُ بالمظروفِ (الفاعل) وهي حالُ الانتظارِ والأناة والتريُّث، وهو لابثٌ في المكانِ والزّمان، فقد يَلبَثُ الفاعلُ ولا يكون ماكِثًا، لأنّه قد يَعجَلُ أوْ قد يُقْهَرُ على لبْثِه، فالمُكْثُ يدلّ على صفةٍ تتعلّقُ بالماكِث، وهي من ضُروبِ القَصْد والاختيار والإرادة؛ لأنّ الانتظار والأناةَ والثّبات تحتاجُ إلى قصدٍ ونيّة، فإن قُهِر على المُكوث وأُلزِم على المُقام صار لابثًا، وعليه: فاللَّبْثُ أعمّ والمُكثُ أخصُّ.

وأمّا (الخلودُ) فيدلُّ على الثَّبات والمُلازمةِ ودَوام البَقاء[4]. ولكنّهُ

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 1329، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 245، والغرناطيّ، وملاك التّأويل: 2/ 500، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 498، وأبو زكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 596.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لبث).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).

يَتميّز بقيدٍ عن الكلماتِ الأُخرى الَّتي تَبدو كمُرادِفاتٍ له، وهو بقاءُ الشّيءِ المُتّصِفِ بالخُلودِ على الحالةِ الَّتي هو عليها، فكلّ ما يَتباطَأ عنه التّغييرُ والفسادُ تَصِفُهُ العربُ بالخُلود[1]. ومعنى ذلك أنّ أهل العذابِ يَبْقَون على حالِ العذاب وهيئتِه، وأهلُ الجنّة يَبْقَونَ على حالِ النَّعيم وهَيئتِهِ، ولذلك قيلَ لِكلَيهما: (خالدين فيها) إمّا الجنّةُ وإمّا النّارُ.

الحِقبة والدّهر:

الدّهرُ أعمُّ مِنَ الحِقبة عُمومًا مُطلقًا

(الدّهرُ) في الأصل: اسمٌ لمدّةِ العالَم مِن مَبدأِ وُجودِهِ إلى انقضائِهِ، وعلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]. ثمّ يعبّرُ به عن كلِّ مُدّةٍ كثيرةٍ، فهو جملةُ الزّمان، غير أنّ الزّمانَ قد يقالُ للكثيرِ والقَليل، والدّهرُ لا يقالُ إلّا للزَّمان الطَّويل والأمَدِ المَمْدود[2]. وأمّا (الحِقبةُ) فهي أخصُّ من الدّهر؛ لأنها مُدّةٌ من الدَّهر مُبهَمةٌ لا وقتَ لها[3]. كما يُلحَظ في الحِقبة معنى الحَبْس، يُقالُ حَقِبَ العامُ، إذا احْتَبَسَ مَطَرُهُ[4]. فالكلمةُ تُستعمَلُ بما توحي به في سياق العَناء والحِرمان والإبهام المفتوح، كما يُلحَظ فيها معنىً آخَرُ وهو التّتابُعُ والتَّوالي، فلا يُسْتَعْمَلُ الحُقُبُ إلّا إذا أُريدَ تَتابُعُ الأَزْمِنَةِ وتَواليها[5]. فهي وحداتٌ ودوائرُ زَمنيّةٌ مُتعاقِبةٌ بلا فجَوات ولا استراحاتٍ من مُتواليةِ الحَبْس والانحجابِ المُتجدّد. فلهذه الخصوصيّات المَعنويّة في اللَّفظ اختيرَ في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ خلافًا للفظ (الدّهر)؛ فإنّه عامٌّ وله مَبدأٌ ومُنتهًى وإنْ طالَ، فهو أقربُ إلى سياقاتِ إطلاقِ العُموم الزَّمنيّ، دون التّنبيهِ على قيْدٍ خاصٍّ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خلد).

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دهر).

(3) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حقب).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقب).

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 591، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾

[النبأ: 27 - 30]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سببُ ذوقِ العَذاب، التّكذيبُ بالآياتِ والكِتاب

لمّا ذكرَ النَّظمُ أنواعَ العذاب، وما توعّدَ به ربُّ العِباد الطُّغاةَ والمُجرمين علّلَ عذابَهُم بذكرِ سببِ كُفرِهِم، مُؤَكِّدًا أنَّ وضوحَ الحِساب من الجَلاء بحيث يُصدِّقُ به كلُّ أحد، فلا يكادُ يُتصوَّرُ إنكارُهُ، فقالَ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾، أي لم يُؤمِنوا بالجزاءِ ولم يَستعِدّوا لهُ. ولمّا كانَ انتفاءُ رجائِهم للحِساب دالًّا على تكذيبهم، وهو ما يُفسِدُ قوّتَهم العِلْميَّة ويُعمي بصيرتَهم وقواهم العقليَّة، صرّح سبحانه بذكرِ هذا التَّكذيبِ على وجهٍ أعمَّ وأوضَح، ولمّا كانَ الجزاءُ السّابقُ دالًّا على إحاطةِ علمِهِ تعالى بأعمالِهم وعدلِهِ في مُجازاتِهم، عطفَ عليهِ بيانًا لأصلِ ذلك فقالَ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾، أي ضبطْنا كلَّ شيءٍ وأثبتناهُ في كتابٍ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيرةً. ولمّا ذكرَ سُبحانَه عذابَهم وبيّنَ أنَّه جزاءٌ يوافِقُ أعمالَهم، رتّبَ عليه ما يُقال لهم إهانةً وزيادةً في تقريعِهِم، أي لن يَجِدوا في عاقِبتهِم إلّا دوامَ العَذاب وازديادَهُ، فلا راحةَ ولا فُتورَ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

والمَعنى: أنَّ تلك العقوبةَ الغَليظةَ كانتْ لهم؛ لأنَّهم كانوا لا يخافونَ يومَ الحِساب، فلَم يَعملوا له، وكذَّبوا بما جاءَتْهم بِهِ الرُّسُلُ تكذيبًا، وكلَّ شيءٍ عملوهُ عَلِمناهُ وكتبناهُ في اللَّوحِ المَحفوظ، فذوقوا أيُّها الكافرونَ جزاءَ أعمالِكُم، فلنْ نَزيدَكُم إلّا عَذابًا فوقَ عَذابِكُم[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 203 - 208.
(2) مجمع الملك فهد، التفسير الميسّر.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جملةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ﴾:

جـزاءُ الـكُـفْـر، حِرمانُ الرَّحمةِ وشِدّةُ الهَجْر

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لعلّة استحقاقِهم الجزاءَ المَذكورَ في قولِه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، فالجملةُ بيانيّةٌ تعليليّة، كأنّه قيل: هذا الجزاءُ موافِقٌ لأعمالِهم بسبب إنكارِهم للحسابِ وتَكذيبِهم للآيات[1].

بلاغةُ (الفصلِ والاعتراض) في ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ﴾:

عـدالـةُ المَـصير، بـتـأشـيرِ عـلّـةِ العذابِ الخَطير

فُصِلت جملةُ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ عمّا قبلَها؛ لبيانِ استقلالِها من جهة المعنى التَّعليليِّ، فهي تعليلٌ كاشفٌ لأصلِ الجريمة الكُبرى الَّتي استوجبَتْ ما قبلَها من أوصافِ العَذاب. وهي أيضًا جملةٌ مُعترضةٌ بينَ ما قبلَها وبينَ جملةِ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾، فهي مُقْحَمَة بين جُزئين مُتكاملين من وصفِ العذاب والجزاء؛ لتأكيدِ عدالةِ المصيرِ بشهادةِ السَّبب، وإيقافِ القارئ عند أصلِ المُصيبة، فلا يمُرُّ على العذاب دونَ تأمُّلِ أصلِ الجَريمة[2].

الوَظيفةُ المَعنويَّة لحرفِ التوكيدِ (إنّ):

تـقـريـرُ الـكـفـرِ بصيغةِ التَّوكيد، دالٌّ على قُبحِهِ الشَّديد

الحرفُ (إنّ) في قولِه تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ليسَ لإبطالِ دَعوى مُنكَرة، لأنَّ مضمون الجملةِ لا يقَعُ عليه إنكارٌ في السّياق، بل هو معلومٌ ظاهر، وإنَّما جيءَ به للاهتمامِ بالخبر وتنزيلِه منزلةَ ما يُحتاجُ إلى تأكيدِه؛ لما يترتّبُ عليه من عظيمِ الجَزاء والعقابِ. وحين تُستعمل (إنّ) لا لردِّ الإنكار بل لمجرّدِ الاهتمام، يكون لها أثرٌ بلاغيٌّ يشبِهُ أثرَ (فاءِ) التَّفريع في إفادةِ التَّسبيب، فتفيدُ أنَّ ما بعدَها هو تعليلٌ لما قبلَها، ولذا

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 29.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 39، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 357.

جاءَتْ جملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ بيانًا وتَعليلًا لقولِه: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾[1].

دلالةُ فعلِ (الكونِ) في ﴿كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ﴾:

الكُفرُ المُتجذّرُ في القَلبِ هو العلّةُ الكُبرى لهَلاكِ العَبْدِ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ (الكونِ) الماضي في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾؛ لإفادةِ تمكُّنِ الصِّفةِ فيهم، وأنَّ انتفاءَ رَجائِهم للحِساب ليس طارئًا ولا مُؤقّتًا، بل هو مُتأصّلٌ في قلوبِهم، وهذه الصّيغة من التَّعبير أبلغُ في تقريرِ الذّنب وتثبيتِ سَببِهِ واستحقاق عقوبتِه، إذ تدلّ على أنَّ الكفر صار سجيّةً راسِخةً، لا مجرّدَ نَزوةٍ عارضةٍ، فالكينونة هنا تفيدُ الاستمرارَ في الحُدوث، وليس الانقضاءَ المُنقطِع[2].

دلالةُ مَجيءِ الفعلِ المَنفي ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ مُضارِعًا:

عدمُ رجاءِ الحِسابِ أوقعَهُم في عذابِ يومِ التّناد

قولُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ جاءَ بصيغةِ المُضارعة؛ ليدلَّ على الاستمرار، وأفادَ استمرارَهم على إنكارِ البعث والكُفر إلى أنْ قَضَوا، وفيه تنبيهٌ على أنّهم ماتوا وهم كافرون[3]. فالمضارعةُ تصويرٌ بليغٌ لما هم عليه مِن إنكارٍ دائمٍ يتكرّرُ كلَّما واجَهوا البيّنات.

بلاغةُ العُدولِ إلى مادّة الرّجاء في ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾:

عدمُ رَجاءِ الحسابِ، من صِفات المُكذِّبينَ بالكِتاب

الرّجاء في أصلِ الاستعمال يُطلَقُ على انتظارِ المَحبوب، بخلاف التَّوقُّعِ الَّذي يُستعمل في انتظارِ المَكروه، وقد يُتوهّمُ للوهلةِ الأوَلى أنَّ الأنسبَ في قوله ﴿لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ أنْ يُقالَ: (لا يتوقَّعون حسابًا)؛ لأنَّ الحسابَ مكروهٌ لهم لا محبوبٌ، إلا أنَّ السّياق القرآنيَّ عدلَ عن ذلك إلى الرَّجاء لحكمةٍ بيانيَّة، وهي أنّ استعمالَ (الرَّجاء) يحملُ معنىً تعريضيًّا وتلويحيًّا بديعًا، فالتَّعريضُ هو إثباتُ رجاءِ المُؤمنين وانتظارُهم يومَ الحِساب. وبذكرِ نفيِ الرّجاء عن الكفّار تلميحٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 39.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 206.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 29.

بالمقابلةِ والمُقارنةِ معَ المؤمنين، وكأنّه تعريضٌ بهِم يُذكّرهُم بنعمةِ الإيمان الَّتي هُم عليها. وفيه تلويحٌ أيضًا بمدحِ مَن يَرجو الحساب، فيتحقّقُ مدحٌ تلويحيٌّ خفيٌّ للمؤمنين (بصفة الرَّجاء) لم يُذكرْ بأيِّ لفظ، بل أُشيرَ إليه بأخفى الإشاراتِ (نفيُ ضدّه)، وهذا من أبلغ أنواعِ الكِناية. وفي نفيِ رَجاء الحسابِ عنهم في الآية إيماءٌ إلى ذمِّ هذا الفريقِ واستهجانِ مَسلكِه والتّسجيلِ عليهِ[1].

دلالةُ حملِ (الرّجاء) على معنى (التَّوقُّع):

حمـلُ الـرّجـاء عــلى مَـعـنـى التَّوقّع

قيلَ إنَّ الرّجاءَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ يُرادُ بِهِ مجرّدُ التَّوقّع؛ لأنَّ مَن يترقّب شيئًا، سواء أكانَ محبوبًا أم مكروهًا، فهو في لغةِ العربِ راجٍ لهُ بهذا الاعتبار، لكنْ جُعِلَ الرّجاءُ هنا اسمًا لجنسِ التَّوقّع، من بابِ تسميةِ العامِّ باسم أشرَفِ أفرادِه، وهو الرّجاءُ الخاصُّ بالمحبوب؛ فكانَ التَّعبيرُ به أبلغَ في الدِّلالة[2].

دلالةُ حَملِ الرَّجاء على مَعنى الخَوف:

نـفـيُ الـرّجـاء ليومِ الحِساب، مُستلزمٌ لعدَمِ الـخَــوف مِـن العِقاب

وهنالكَ وجهٌ آخرُ في المعنى، وهو أنَّ قولَهُ تعالى ﴿لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ يَحمِلُ معنى: (لا يخافون)[3]، وهو من بابِ استعمالِ الرَّجاء بمعنى الأملِ الَّذي يلازمُهُ الخوفُ عند التَّرقّب، فهم لا يرجونَ الحسابَ بمعنى أنَّهم لا يخافونَهُ ولا يَستعدّونَ له. وهذا من بابِ المجازِ المُرسَل في إطلاق اللَّفظ وإرادةِ لازمِهِ؛ لعلاقةِ اللُّزوم[4].

بلاغةُ نفيِ الرّجاء في التَّعبيرِ عنِ التّكذيب:

إذا انـتـفـى الـرّجـاء، تحقّقَ التَّكذيبُ بالجَزاء

لم يقُل في السّياقِ الكريم: (إنّهم كذّبوا بالحساب) أوْ (إنَّهم اعتقدوا عدمَ الحِساب) أو (إنّهم لا يُحاسبون)، بل عبّر عن تكذيبِهِم بالبعثِ والحِساب بنفيِ الرَّجاء بدلًا من التَّصريحِ بالتَّكذيب، فقالَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 39.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 18.
(3) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 787.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 39.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ لأنَّ نفيَ الرَّجاء أبلغُ في تصويرِ حالِهم؛ إذ إنّ طبيعةَ الإنسان أنَّه يطمَعُ في الخير ولو بأدنى احتمال، فإذا نُفي عنه مجرّدُ الرّجاء، فقد بلغ الغايةَ في الإعراضِ والجُحود، وكأنَّهم لا يخطُرُ ببالهم وقوعُ الحِساب أصلًا، لا طمَعًا فيه ولا خَوْفًا منه، ولا حتَّى احتمالًا له[1].

بلاغةُ التَّرتيبِ في عَرْضِ جرائِمِهم:

مَـن لا يَـرجـو حِـسـابًـا، لا يَستقيمُ سُلوكًا وآدابًا

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ جمعَ السّياقُ بين أصلينِ من أصول الكفر: عدميٌّ تمثّلَ بـ(نفي الآخرة)، ووجوديٌّ تحقَّقَ بـ(تكذيبِ الرُّسُل)، لتقريرِ أنَّ عقوبتَهُم نابعةٌ من فسادِ أصلِ الاعتقاد لا مُجرَّدِ الذَّنب، ومن بلاغة التَّرتيب أنّه بدأ بالنّفي وهو ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ لأنه أصلٌ لكلِّ تمادٍ وتكذيب، إذ مَن لا يرجو حسابًا لا يستقيمُ له سلوكٌ، ثمَّ عطف عليهِ الإثباتَ: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾، وهو تكذيب مضاعَفٌ، أكّدهُ المصدرُ ﴿كِذَّابًا﴾؛ لبيانِ شدّةِ الإصرارِ والجُحود، وهو من المَصادِرِ المَصوغة للمُبالغة.

بلاغةُ التَّبايُن بين صيغةِ الإنكارِ وصيغةِ التّكذيب:

ثـبـاتُ القـلـوب عـلى البـاطـل، يَـحـجُـبُـهـا عن سَـمـاعِ الحـقّ وقـــولِ الـنَّـبـيِّ العادِلِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، فكلاهُما وصفانِ لحالِهم في الدّنيا، يُبيّنان تماديَهم في الإنكار والعِناد، وجيءَ بفعل (كَذَّبوا) ماضيًا بخلافِ ﴿يَرْجُونَ﴾ الّذي جاءَ مضارعًا؛ لأنَّ تكذيبَهُم بالآيات بما تضمّنتْهُ من توحيدِ اللّه ورسالةِ محمَّد ﷺ قد ترسَّخَ واستقرَّ في قلوبِهم، ولم يكُنْ مجرّدَ حالةٍ متجدِّدة أوْ مُتذبذبة، بل موقِفًا عقديًّا قطعيًّا لا رجعةَ فيه؛ فاختيارُ صيغةِ الماضي يُصوّرُ انغلاقَ قلوبِهم واستحكامَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 207.

رفضِهِم، كما نبّه القرآنُ إلى ذلك بقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: 5]، وهو تصويرٌ لحالةِ انسدادٍ نفسيٍّ شاملٍ تجاهَ الحقِّ(1).

نكتةُ التَّعبير بالماضي (كذَّبوا) مضعّفاً:

المُبالغةُ في التَّكذيب سببٌ للعَذابِ الشَّديد

التَّعبيرُ بالماضي في قولِهِ: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بصيغةِ التَّضعيف في اللَّفظ يَحكي المبالغةَ والقوّةَ في إتيانِهِم فعلَ التَّكذيب، ولإفادةِ النِّسبةِ والتّعدية، أي: نَسَبوا آياتِ اللّه إلى الكذِب على سبيلِ المبالغة، ومارَسوا التَّكذيب بشكلٍ مُبالغٍ فيه؛ دلالةً على تماديهِم في الإنكارِ والرَّفض.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في (آياتنا):

نسبةُ الكذبِ للآيات، يستلزمُ إنكارَ أجلى البديهيّات

الإضافةُ في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في سياقِ قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ إضافةُ اختصاصٍ وتَشريف. أي إنَّ الآياتِ مَنسوبةٌ إلى اللّه تعالى، سواءٌ كانت آياتٍ كونيّةً (كالخَلْق والسَّماءِ والأرض)، أَوْ آياتٍ تنزيليّةً (كالوَحي والقُرآن وسائرِ المُعجزات)؛ وإضافتُها إلى ضميرِ الجلالة تفيدُ التَّشريف؛ لكونِها صادرةً من اللّه تعالى لا من غيره، وتفيدُ التَّوكيدَ على أنَّ تكذيبَها تكذيبٌ للّه تعالى نفسِهِ، لا مجرّدُ تكذيبِ كلامٍ أَوْ حُجّةٍ، فالإضافةُ هنا مُعظِّمةٌ للآيات؛ لهَيبتِها وعُلوِّ شَأنِها في مَقامِ الاستدلالِ والاحتِجاج(2).

بلاغةُ جِناسِ الاشتقاق بينَ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ و﴿كِذَّابٗا﴾:

ترسيخُ فظاعةِ التَّكذيب بالمَصدرِ الدالِّ على التأكيد

جناسُ الاشتقاقِ بينَ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾، و﴿كِذَّابٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ يفيدُ توكيدَ المعنى وتثبيتَهُ بتكرارِ الجَذر مع اختلافِ الصّيغة ويفيدُ المبالغةَ في تصويرِ جريمتِهِم، فـ(كذَّبوا) فعلٌ يُفيدُ الحدَث، و﴿كِذَّابٗا﴾ مصدَرٌ على صيغةِ المُبالغةِ (فِعّال)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 40.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 207.

وهو يُضخّمُ من الفعل ويجعَلُ التَّكذيبَ بالِغًا أقصاه[1]؛ فالجمعُ بين الفعلِ والمصدرِ دالٌّ على المبالغة، ويُشعِرُ بأنَّهم لم يكتفوا بتكذيبٍ عارِض، بل لازموا التَّكذيبَ وتمادَوا فيه، حتّى صار وصْفًا راسِخًا لهم. وفي الجناسِ هنا أيضًا إيجازٌ بالغُ التَّأثير، فالتَّعبيرُ بالمصدرِ ﴿كِذَّابٗا﴾ بعدَ الفعلِ أغنى عن تطويلِ الشَّرح، فكأنَّ الآية تقولُ: (كذّبوا تكذيبًا عظيمًا بالغًا في الفُجور)، وفيه مراعاةٌ للتَّناسُبِ الصَّوتيّ؛ لأنَّ الجناسَ يُعطي إيقاعًا قويًّا مُتماسِكًا مع رهبةِ السّياق، فيزدادُ الوقعُ في الأذنِ والوُجدانِ.

دلالاتُ بناءِ: ﴿كِذَّابٗا﴾:

التّعبيرُ بالمصدر (فِعّال)؛ لاتّصافِهم بأسوأِ الأفعال

جيءَ بلفظِ المصدَر ﴿كِذَّابٗا﴾ في قولِه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ بدلًا من المصدرِ (تكذيبًا)؛ لما فيه من المُبالغة الشّديدة في وصفِ فعلِهم، فالصّيغةُ على وزنِ (فِعّال) تدلُّ على تكرارِ وحدّتهم في الاستهزاءِ وشدّتِهم في الإنكارِ؛ فالعدولُ عن المصدرِ الأصليِّ لُملاحظةِ حدثِ الكذِب دونَ الفاعِل الصّادرِ منهُ التّكذيبُ. ومِن المَعاني المُحتمَلة لـ﴿كِذَّابٗا﴾: المُكاذَبةُ، أي إنَّ كلَّ طرفٍ يَرى الآخرَ كاذبًا؛ فالمسلمونَ يرَونَهُم كاذبينَ، وهم يرونَ المُسلمينَ كاذبينَ، فكانَ بينَ الفريقين مُكاذَبةٌ وجدليّةٌ قائمة، وهذا يُظهِرُ المُعاندة الشَّرسةَ الَّتي قابلوا بها دعوةَ الحقّ.

دلالةُ الأوجهِ الإعرابيّة لـ﴿كِذَّابٗا﴾:

المُكابرةُ بالباطِل تولّد التّماديَ عن قبولِ الحقِّ الظّاهِر

يجوزُ في المصدرِ ﴿كِذَّابٗا﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ أنْ يكونَ حالًا بمَعنى كاذبينَ أوْ مُكاذبينَ، وهو حالٌ مؤكّدةٌ للعاملِ؛ لما سبقَ من وصفِهم بالتّكذيب. ويجوزُ أن يكونَ نعتًا للمَصدرِ المَحذوف، أي: كذّبوا تكذيبًا كِذّابًا، أي تكذيبًا مُفرطًا، ولا يخفى ما

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 207، وصافي، الجدول: 15/ 220.

فيهِ من إظهار رُتبَتِهم في الكُفْر، وتمحّضهم في الاتّصافِ به[1]، أَوْ مفعولًا مطلقًا مؤكّدًا يدلُّ على شدّةِ تكذيبِهم وتماديهم فيهِ[2].

مَوقِعُ الاعتراضِ ودلالتُهُ السّياقيَّة:

بلاغةُ الاعتراضِ البَيانيّ لإثباتِ الإحاطةِ والعِلْم الكلّيّ

قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ وقعَ اعتراضًا بيانيًّا بين جُمَلِ التَّعليلِ السّابقة لِما لَقيَه المُكذّبون من عذاب، وبينَ جُملةِ التَّهديد: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾، فهو اعتراضٌ بينَ السَّببِ والمُسبَّب، وأصلُ الكلامِ: (وكذَّبوا بآياتنا كذّابا، فذوقوا فلنْ نزيدَكم إلّا عَذاباً)، وفائدةُ الاعتراض: إظهارُ شُمولِ علْم اللّه لأعمالهم جَميعًا، صَغيرِها وكَبيرِها، مَذكورِها وغيرِ مَذكورٍ منها، فيَردُّ على توهُّمِهم أنَّهم في مَأمَنٍ من المُحاسَبة[3]. وقيلَ أيضًا: إنَّ الغرضَ من هذا الاعتراضِ كشفُ أصلِ ضَلالهم، وهو ظنُّهُم الفاسِدُ أنَّ اللّه ﷻ لا يُدرِكُ الجزئيّاتِ ولا يُحصي الأعمالَ؛ فلا حِسابَ عندَهُ ولا بَعْثَ ولا كِتاب، فجاءتِ الآية لتُبطِلَ هذا الأصلَ المَوهومَ بإثباتِ الإحصاءِ التفصيليِّ الكامِلِ: (كُلَّ شَيۡءٍ) لا يخرُجُ منه فعلٌ ولا قولٌ، وتقييدُهُ بـ﴿كِتَٰبًا﴾ يدلُّ على أنَّه إحصاءٌ مكتوبٌ مَحفوظٌ لا يَنسَى ولا يَغفَلُ[4].

سرُّ النَّصب على الاشتغالِ في ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾:

توكيدُ الإحصاء، تـهـديـدٌ لأهـلِ الشَّقاء

الشّائعُ أنْ يقالَ في غيرِ القُرآن: (وأحصَينا كلَّ شَيۡءٍ)، لكن عُدِلَ هنا عنهُ إلى نصبِ (كلَّ) على الاشتغال، أي بفعلٍ مُقدّرٍ من جنسِ ما بعدَهُ، كأنَّه قيل: (وَأحصَينا كلَّ شيءٍ أحصَيناهُ كِتابًا)[5]. لتقويةِ المَعنى بالتَّوكيد، فتقديمُ (كلَّ شيءٍ) ثمَّ إعادةُ الفعلِ معَهُ في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 689، 690، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، وأبو حيّان، البحر: 10/ 388، 389، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 91، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 41.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، وأبو حيّان، البحر: 10/ 389، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 37، ودرويش، إعراب القران: 10/ 357.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 256.

(5) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 30/ 25.

قولِه ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يجعلُ الكلامَ أرسَخَ في الذِّهن، كأنَّه تكرارٌ وتوكيدٌ للمَعنى معَ إبرازِ العِناية بالمقدَّم، وإثارةِ الانتباه لعِظَم ما سيُقالُ بعدَهُ، فيُظهِرُ الإحاطةَ أوّلًا بتقديم (كلَّ شيء) ثمَّ يَأتي بالفعلِ الَّذي يُؤكّدُ هذه الإحاطةَ: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ فالعِنايةُ مُتّجهةٌ أوّلًا لهذا (الكُلّ) الجامعِ لأعمالِهم الَّتي هي مدارُ انشغالِهم وتخوّفِهم، ومحلُّ حِسابِهم وجَزائِهم، فكانَ حَريًّا بالتَّقديم، ولو قيلَ: (وأحصَينا كلَّ شيءٍ) لكان خبرًا عاديًّا لا يُشعِرُ بالعنايةِ الخاصَّة ولا بالتَّوكيدِ الَّذي يَلحَظُهُ السّامعُ حينَ يُقدَّم المفعولَ ويعادُ ذكرُهُ مَعَ الفِعل.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

إحــاطــةُ الـلـه بكلِّ شيءٍ عِلْمًا بُـرهـانٌ عـلى أنَّ العمَلَ مُسجَّلٌ ومُحصًى

تنكيرُ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ واردٌ في سياقِ الاستغراقِ، ويفيدُ العمومَ، أي لا يُستثنَى من الإحصاءِ شيءٌ كائنًا مّا كان، صغيرًا أوْ كبيرًا، ظاهرًا أوْ خفيًّا. وهذا العمومُ يجوزُ إيقاعُهُ على أحدِ وجهين[1]؛ **الأوّلُ**: إمّا أنَّه منَ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخاصُّ، أي: كلَّ شيءٍ ممّا يقعُ عليهِ الثَّوابُ والعقاب، فالمرادُ كلُّ ما لَهُ تعلّقٌ بأفعالِ المُكلّفينَ، ويَتعَلّقُ بالجَزاءِ والحِساب.

والثّاني: أنْ يرادَ العمومُ حقيقةً، لقصدِ التَّرهيب بالأعلى، أي: إذا كانَ كلُّ شيءٍ من الذّرّة إلى المَجرّة قد أحصيناهُ؛ فكيفَ بأعمالِكم المَحدودة؟ فيكونُ من بابِ (ذِكْر الأعلى لإثباتِ ما دونَهُ)، كأنَّه يقول لهم: إذا كان كلُّ شيءٍ في الكون مضبوطًا في كتاب، فكيفَ تُتصوّرُ نجاةُ أعمالِ البشر وهي مَحدودةٌ صغيرةٌ من هذا الإحصاءِ المُحيط؟! فيزدادُ السّامعُ خَوْفًا ورَهبةً، إذ يَرى أنّ علمَ اللّه وإحصاءَهُ لم يترُكْ شيئًا في الوجود، فكيف يغفُلُ عن عملِه هو؟!.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 207، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 217.

دلالةُ الكنايةِ في ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾:

أصلُ الإحصاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ هو عدُّ الأشياءِ وضبطُها، وقد جاءَ هنا كنايةً عن الضّبط الشّامل والدّقيق، فليس المرادُ مجرّدَ العَدّ، بل ما يتضمّنُهُ منَ الإحاطة والتَّحصيلِ، فاللّه تعالى لم يُحصِ أعمالَهُم عددًا فقط، بل حَفِظها وضَبَطَها[1].

الإحصاءُ والكتابةُ عبارةٌ عن شدّةِ الضَّبطِ والعِناية

دلالةُ التَّوجيهِ الإعرابيِّ لـ﴿كِتَٰبٗا﴾:

انتصَبَ ﴿كِتَٰبٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ على المَفعوليَّة المُطلقةِ لفعلِ ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾، والتّقديرُ: (أحصيناهُ إحصاءَ كتابةٍ)، أي إحصاءً مَكتوبًا مَحفوظًا، فاستُعمِلَ المصدرُ ﴿كِتَٰبٗا﴾ بمعنى الكتابةِ التّامَّة، ليكونَ كِنايةً عن شدّةِ الضَّبطِ والإحكام؛ لأنَّ المكتوبَ لا يُنسَى ولا يَفوتُ[2].

كلُّ عمَلٍ مَكتوب، فلا مَلجأ من عدلِ الله ولا مَهروب

بلاغةُ الاحتباكِ في ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾:

في قولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ احتباكٌ، أي: حذفٌ في مَوضعٍ يُقابلُهُ ذِكرٌ في موضِعٍ آخَرَ، فيُفهَمُ المحذوفُ منَ المذكور؛ فالآيةُ ظاهرُها: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ أي جمعَ بينَ الإحصاءِ والكتابِ، وذكرَ فعلَ (أحصَينا)، ولم يُذكرْ مصدرُهُ (إحصاءً). وذُكِرَ المصدرُ ﴿كِتَٰبٗا﴾، ولم يَذكُرْ فعلَهُ (كَتبناهُ)، فصارَ المَعنى بكاملِهِ: (أحصَيناهُ إحصاءً، وكتبناهُ كتابًا)، وهذا أبلغُ؛ لأنّه جمعَ بينَ ضَبطِ العِلْم (الإحصاء) وضبطِ الكتابةِ (التَّدوين)، ليؤكّدَ أنَّ الأعمالَ مَحفوظةٌ في العِلْم وفي الكتابِ معًا، بحيثُ لا مَجالَ للظُّلم ولا للنِّسيانِ[3].

أعمالُ العبادِ مَحفوظةٌ عِلْمًا وكتابةً؛ فلا يغيبُ شيءٌ ولو كانَ قُلامَة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 41.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 690، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 41.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 208.

موقِعُ جُملةِ: ﴿فَذُوقُوا۟﴾:

الرّبطُ السّببيّ بينَ التّكذيبِ والعِقابِ الأبديِّ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّبًا عن كُفرِهم بالحِساب وتكذيبِهم بالآياتِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾، فالفاءُ لتفريعِ الوَعيدِ على ما مضَى من أعمالِهم السّيِّئة.

بلاغةُ (الالتفاتِ) في ﴿فَذُوقُوا۟﴾:

تصعيدُ التّصوير بالمواجهة بعدَ سردِ أعمالِهم الفاحِشة

التفاتُ النّظمِ منَ الغَيبة إلى المواجَهة المُباشِرة، أي منَ الحَديثِ عنهُم إلى الخطابِ لهم في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ يَشي بأنَّ الغضبَ الإلهيَّ قد بلغَ غايتَهُ، كمَن يُخبِرُ مخاطَبًا عن ظلمِ غيرِه، ثمَّ لا يَملكُ إلّا أنْ يلتفتَ لذلك الظّالمِ ليوبّخَهُ بنفسِه.

توجيهٌ نحويٌّ آخرُ لفاءِ ﴿فَذُوقُوا۟﴾:

لا يكونُ الكافرُ مُستحِقًّا للعذابِ إلّا بمَوتِه، وفَوات تَوبتِه

يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ خاليًا من الالتفات، على اعتبار أنّ (الفاءَ) في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ تفريعيّةٌ تدلُّ على التّسبُّب عمّا قبلها، أي على ما ذُكر من قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ وما بعدَه من الوصفِ بالعذاب والجَزاء. وبما أنَّ السّياق كان جاريًا بطريقِ الغَيبة، ثمَّ انتقلَ إلى الخِطاب فجأة، ولم يكن هذا الانتقالُ من مُقتضَيات التّهديدِ الدّنيويِّ، بل ممّا لا يقالُ إلّا في يوم الجَزاء، دلّ ذلك على حذفِ فعلِ (القَوْل)، وتقديرُ الكلام: (فيقالُ لهُم: ذوقوا...)، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ هذا القولِ المَحذوف، وبناءً على ما سبق لا يكونُ في الآية التفاتٌ كما ظَنّ مَن جعلَ الضَّمير انتقالًا من الغَيبة إلى الخطاب؛ لأنَّ أصلَ الكلام فيه فعلُ قولٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (فيُقالُ لهم)، والضّميرُ فيه مستقرٌّ، لا مَنتقِلٌ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 41، 42.

دلالةُ الأمرِ ﴿فَذُوقُواْ﴾:

خروجُ الأمرِ إلى الإهانة؛ لكونِهم مِن أهلِ التَّفريطِ والنَّدامَة

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ ليسَ حقيقتُهُ الطَّلبَ، بل هو مُستعمَلٌ في غيرِ مَعناهُ الأصليِّ، إذ لا يُتصوّر أنْ يُطلَبَ منهُم الذّوقُ على جهةِ الامتثال، وإنَّما هو للتّوبيخِ والتّقريع والإهانةِ، بإلزامِهم أمرًا لا يُراد به النَّفعُ بل النّدامة(1).

دلالةُ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّهكُّميَّة ﴿فَذُوقُواْ﴾:

التّهكُّم والاحتقار لمُرتكِبي الفَواحش والكُفّار

استعارَ النّظمُ الكريمُ فعلَ (الذَّوق) في قولِهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾؛ للدّلالة على التّهكُّم والاستخفاف؛ إذِ الذّوقُ يكونُ للمَشروباتِ في محَلِّ الإعزازِ والإكرام، وإيرادُهُ في ذَوْقِ العَذاب مع أنّه لا يُذاقُ؛ للدِّلالةِ على التّهكُّم والتَّحقير معَ إفادتِهِ أنَّ هذا العذاب مُجرّدُ ذوقٍ وما بعدَهُ يكونُ أعظمَ وأشدَّ.

بلاغةُ النّفي والاستثناءِ في ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾:

زيادةُ العَذاب وشَقائِهِ مُستلزمةٌ لكثرتِهِ ودَوامِهِ

جاءَ قولُهُ: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ بأسلوبِ النَّفي (لن) والاستثناءِ المُفرّغ من عُموم الأحوالِ والأشياء، وذلك يُفيدُ تأبيدَ الزّيادة في العذاب، ويُفهَمُ منهُ أنَّ منعَها مُحالٌ، فلا وجودَ لاحتمالِ الرّاحة أوِ التّخفيف أصلًا، و(لن) هنا تشي بانسدادِ كلِّ أبوابِ النَّجاة، ويكونُ مضمونُها بمثابةِ حُكمٍ لا يُنقَض، والتّركيبُ ينفي عنهم كلَّ حالٍ سِوى حال العذاب، فحالُ الشَّقاء هم محصورونَ فيها لا يُجاوزونَها لا إلى التَّخفيف ولا إلى الانقضاء، وهذا تمامًا عينُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: 36](2).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 42، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 358.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 280، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 255، 256، وأبو حيّان، البحر: 10/ 389، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 92.

بلاغةُ التّرتيب من الأدنى إلى الأعلى في ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ﴾:

اليأسُ منَ الرَّحمة، يزيدُ عذابَ الكافرينَ فوقَ عِقابِ النِّقمة

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ فرعٌ على قولِهِ: ﴿فَذُوقُواْ﴾، أي بعدَ الأمر بتذوُّقِ العذاب، يُزادونَ عليه فوق ما ذاقوهُ، فلا يقفُ العذابُ عندَ حدٍّ، بل يستمرُّ في تصاعُدٍ لا ينتهي. وهذا الإعلامُ بزيادة العذابِ ليس لُمجرّدِ البيان، بل هو في حدِّ ذاتِهِ عَذابٌ، إذ فيه تنكيدٌ وتحسيرٌ لهم فوقَ ما هُم فيه من عذابٍ مَحسوس؛ لأنَّهم لا يرجونَ معَهُ راحةً، ولا يَتوقّعونَ فيه نهايةً، كما فيه موافقةٌ لأحوالهِم في الدُّنيا، فكما أنّهم كانوا يتوسّعونَ في أبوابِ المَعاصي والكُفر شَيئًا فشَيئًا، وهذا التّوسُّعُ تدرّجٌ من القليل إلى الكثير، فكذلك عذابُهُم يَبدأُ بالأدنى ﴿فَذُوقُواْ﴾ ثمَّ يُتوَسّعُ فيه بالزّيادة والتّضعيف: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ﴾ جزاءً وِفاقًا لأعمالِهم وأحوالِهم[1].

بلاغةُ التّركيب من مجموعِ النّفي والاستثناء:

التّأكيدُ بالتّضادّ تصويرٌ لتزايُدِ العَذاب

جاءَ التّركيبُ: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ على هيئةِ نفيٍ يتلوهُ استثناءٌ، وهو ما يُسمَّى (تأكيدَ الشّيءِ بما يُشبِهُ ضدَّهُ)، إذ ظاهرُهُ نفيٌ للزّيادة، لكنّه في حقيقتِهِ إثباتٌ لزيادتِها، ممّا يُحدِثُ أثرًا نفسيًّا صادمًا، وابتداءُ نفي الزّيادة بحرفِ (لَنْ) المفيدِ لتأبيدِ النَّفي، ثمّ إتباعُهُ باستثناءٍ يفيدُ إثباتَ نقيضِ الحُكم للمُستثنى، فصارَ المَفهوم: (سَنزيدكُم عَذابًا لا انقطاعَ له)، وهذه صيغةٌ دقيقةٌ تؤكّدُ دوامَ العَذاب بغيرِ تَكرارٍ أوْ تطويل، وتُعدُّ من طرائقِ التّأكيدِ الَّتي تكتسبُ قوّتَها من التّضادِّ الظّاهري بين النّفيِ والاستثناء، فيوهِمُ التّركيبُ في أوّلِ وهلةٍ بالانفراج، ثمَّ يَنسِفُهُ الاستثناءُ المؤبَّد. كما أنّ البدءَ بالنّفي يُشعِرُ السّامعَ بأنْ لا مَزيدَ منَ العذاب يَنتظرِهُ، فيقَعُ في قلبِهِ وهمُ الانتهاء، لكنْ سُرعانَ ما تُصدَمُ النّفسُ بالاستثناء المُهلِك: ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ فينكشِفُ أنَّ ذلك النّفيَ ما هو إلا تمهيدٌ لانقطاعِ الرَّجاء،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 42.

وإيغالٌ في التّرويع، وفي هذا نوعٌ من التّدرّج البيانيِّ في تنميةِ الشُّعورِ بالمأساة، إذ التّدرُّجُ من نفي الزّيادة إلى إثباتها يحمِلُ خِداعًا بيانيًا مقصودًا؛ ويشعِرُ السّامعَ في الوهلةِ الأولى بالرّاحةِ أوِ الانفراج، لكنّه يُفجَعُ فورًا بالاستثناءِ الصّادم، وهذا من أبلغِ ما يكون في توليدِ الشُّعور بالفَجيعة. وهذا التّركيبُ المؤكِّد للعذابِ المُؤبَّد، المتدرّج من إيهامِ التّخفيف إلى الجزمِ بالزّيادة يدلّ على غضبٍ بالغٍ، وإصرارٍ على التّنكيل، وليس مجرّدَ توعُّدٍ عابر؛ فهو ليس فقط عذابًا، بل عذابٌ دائمٌ، يزدادُ ولا ينقُصُ، ويتجدّدُ ولا يُمَلّ، وهو بيانٌ بالغُ القَسوة من حيثُ المعنى، بالغُ الرَّوعةِ من حيثُ النّظم[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصاء والعَدُّ:

من لـوازمِ العدِّ الدّقيق الإحصاءُ

(العدُّ) توطِئةُ الإحصاءِ وبدايةُ الشّروع فيه، فلا يتمّ الإحصاءُ إلّا به، والإحصاءُ هو إتمامُ العدّ؛ لأنّه تحصيلٌ لعَددِ الشّيء، والعدُّ هو ضمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعضٍ حتّى بغَرَض توفيةِ عَدَدِها وتحصيلِها، ولذا بدأ بفِعلِ العدّ وانتهى بفعلِ الإحصاءِ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34]؛ ليدلّ بذلك على الوَسيلةِ والغايةِ معًا[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 42، 43.

(2) الرّاغب، المفردات: (حصا - عدّ).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: 31 - 36]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

جـزاءُ المُتّـقين دخـولُ جنّـاتِ النَّعيم

لمّا ذكرَ النّظمُ الكريمُ جزاءَ الكافرين وما فيهِ من الإخزاءِ المُبين، أعقبَ ذلك بذكرِ جَزاء المؤمنينَ المُتّقين، ولمّا فصّلَ جزاءَ الكافرين وعذابَهم المُهين ناسبَ أنْ يفصِّلَ ثوابَ المتّقينَ بذكرِ المَساكنِ البهيجةِ المُزْدانةِ بالحدائقِ والأعنابِ، ليُتبِعَها بذكرِ ما يُتَنَعَّمُ به فيها من اللّذّات الحسيَّة الجامِعة لِمُتَع البَصَر واللَّمْسِ والذَّوْق[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَفَازًا﴾: مصدرٌ ميميٌّ من الثّلاثيِّ (فاز) بمَعنى الفَوْز، وزْنُه (مَفعَل)، ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ مكانٍ أو اسمَ زمانٍ، أي: مكانًا فوْزًا وزَمانًا فوْزًا[2]. واللّفظُ من الفَوْز: وهو الظّفَرُ بالخيرِ معَ حصولِ السّلامة[3]. والفَوْزُ: النَّجاةُ والظّفَرُ بالخير، والفَوْزُ أيضًا: الهلاكُ. تقولُ منهما: فازَ يَفوزُ. وفَوَّزَ: أي ماتَ[4]. فإنْ يكُنْ (فوّز) بمَعنى (هلك) صَحيحًا فذلك راجعٌ إلى الفَوْزِ تصوّرًا لِمَنْ ماتَ بأنَّه نَجا من حَبالةِ الدّنيا، وعلى مِثْل ذلك: (المَفازَة): الفلاةُ الّتي لا ماءَ فيها ولا حياةَ. واحدةُ المفاوِز. فهي مَنجاةٌ أو مَهْلَكَة، ولكنّها نُحِتَتْ من الفوْز تفاؤلًا أنْ يوصَل بعدها إلى الفَوْز. فإنّ الفقر كما يكونُ سببًا للهلاك فقد يكونُ سببًا للفَوْز، فيسمّى بكلّ واحدٍ منهُما حَسبَما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209 - 211.
(2) صافي، الجدول: 15/ 222.
(3) الرّاغب، المفردات: (فوز).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فوز).

يتصوّرُ منه ويَعرِضُ فيه[1]. ومعنى ﴿مَفَازًا﴾ في الآية: أي: فوزًا، وموضعَ فوزٍ، وزمانَ فوزٍ بالرّاحةِ الدّائمةِ من جميعِ ما مضى ذكرُهُ للطّاغينَ الَّذين هم أضدادُهُم[2].

2) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أصلُ (كعب) يدلُّ على نُتوٍّ وارْتِفاعٍ في الشَّيْءِ. من ذلك الكَعابُ بالفَتح، والكاعِبُ: الجاريةُ إذا نَتَأ ثديُها، أي: نَهَدَ وتكعّبَ وأشرَفَ فارتفعَ وصارَ لهُ حجْمٌ[3]. ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: جوارٍ تَكَعَّبَ ثَدْيُهنَّ؛ جَمْعُ: كاعِبٍ[4].

3) ﴿أَتْرَابًا﴾: جمْع (تِرْب) بكَسْرِ التَّاء وسكونِ الرّاء. وأصل (تِرْب) هنا يدلُّ على تَساوي الشَّيئَين[5]. والتِّرْبُ: اللِّدةُ والسِّنُّ، يُقالُ: هَذِهِ تِرْبُ هَذِهِ أي لِدَتُها، كأنما وُلدت معها، ومثيلتُها، وقيلَ: تِرْبُ الرَّجُل الَّذي وُلِدَ معَه، وأكثر ما يَكونُ ذَلِكَ في المُؤَنَّث، يُقالُ: هيَ تِرْبُها وهُما تِرْبان والجَمْعُ أَتْرابٌ. وتارَبَتْها: صارَتْ تِرْبَها[6]. ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾: لِداتٌ كأنّما وُلدت معها، ومُسْتَويَاتٌ في السِّنِّ[7].

4) ﴿دِهَاقًا﴾: أصلُ (دهق) يدلُّ على امْتِلاءٍ في مَجيءٍ وذَهابٍ واضْطِرابٍ. يُقالُ أَدْهَقْتُ الكَأْسَ: مَلَأْتُها[8]. والدَّهْقُ: شِدَّةُ الضَّغْط. والدَّهْق أيْضًا: مُتابعةُ الشَّدِّ. ودَهَق الماءَ وأدهَقَهُ: أفْرَغه إفْراغًا شَديدًا. وكأسٌ دِهاقٌ: مُمْتَلِئَةٌ، أَوْ مُتَتابِعَةٌ، وماءٌ دِهاقٌ: كثيرٌ[9]. ودِهاقًا: صفةٌ مشبّهةٌ مِن دَهَقَ الكأسَ مَلأها أَوْ أفرغَها، منَ الأضداد، وزنُهُ فِعالٌ بكسرِ الفاء[10]. والمرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿دِهَاقًا﴾: أي: مُمتَلِئةً مُترَعةً مُتتابِعةً[11].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بعدَ أنْ ذكرَ تعالى حالَ الطُّغاة الفُجّار وبيّنَ مَصيرَهم غايةَ البَيان ثنّى بذكرِ المُتّقين

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فوز).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كعب).
(4) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 788.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ترب).
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 593.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهق).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (دهق).
(10) صافي، الجدول: 15/ 222.
(11) القنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 42.

عَظَمةُ المولى ترفعُ قدرَ المرسَل إليه، فتتجلّى رفعةُ الرَّسول ﷺ في كمال خالقه

الأبرارِ وبيّنَ مَصيرَهُم، وأنّه جناتٌ تَجري من تحتِها الأنهار، فللمُتّقينَ ربَّهم بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه مكانَ فوزٍ يفوزونَ فيه بمَطلوبِهم وهو الجنَّة، وإنَّ لهم بساتينَ عظيمةً وأعنابًا، وزوجاتٍ ناهداتٍ مُستوياتٍ في السِّنِّ، ولهُم كأسٌ مملوءةٌ خمرًا، لا يَسمعونَ في هذه الجنَّةِ باطِلًا منَ القَول، ولا يَسمعونَ كَذِبًا، ولا يكذِبُ بعضُهُم بَعضًا. لهُم كلّ ذلك جزاءً ومِنَّةً من اللّه وعطاءً كثيرًا كافيًا لهُم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغي:

مَوقِعُ جملةِ ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ في النّظم:

بِــعَــرْضِ المُــتَــضــادّات، يتحقّقُ التّشويقُ في الآيات

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو بليغٌ في إظهارِ المُقابلةِ بين مشاهدِ الطّاغينَ، ومَقاماتِ المتّقين يومَ القيامة، حيثُ التّفاوُتُ العَظيم، والمُفارقةُ البيّنةُ بينَ سوءِ المآل لهؤلاء، وحُسْنِ المآل لهؤلاء[2].

دلالةُ افتتاحِ الجُملةِ بالتّوكيدِ في ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾:

تـحـريـضُ المُخالفين، على لـزومِ طـريـقِ المتّقين

صُدّرتِ الجُملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾ المُؤكّدةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾؛ لتقويةِ الخَبَر وتَثبيتِه في نفوسِ السّامعين، ولتحريضِ المُخالفين المُنكرين على لزومِ طريقِ الصّالحين، كإشارةٍ إلى أنَّ هذا الوعدَ حقٌّ لا ريبَ فيه[3].

دلالة تقديم الخبر في ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شبهُ الجملة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿مَفَازًا﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وتقديم الخبر يفيد الحصر، والمعنى: لا مفازَ إلا للمتَّقين[4].

---

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 505، 506، ونخبة من العلماء، الميسّر في التّفسير - مجمع الملك فهد، ومركز تفسير، المختصر في التّفسير.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 43.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 43.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 44.

معنى (اللّام) في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

تمليكُ الجِنان، للمُصدِّقينَ بالبُرهان

(اللّامُ) في قولِه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ هي لامُ المُلْكِ والاختصاص، ومعناها: أنَّ ذلك المَفاز (مكانَ الفَوز والنَّجاةِ والفَلاح) ثابتٌ ومُختصٌّ بالمتَّقينَ دونَ غيرِهم؛ فهي تدلُّ على أنَّ المَفازَ حقٌّ لهم، قد وُعِدوا به وخُصّوا به جَزاءً على تَقواهُم، كما أنّ جهنَّمَ كانتْ ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

الدّلالة التَّحليليّة لكلمةِ ﴿مَفَازًا﴾:

تكريمُ مؤمِنِ الإنسان، بالتَّنويهِ بشرَفِ الحدثِ والزَّمانِ والمَكان

كلمةُ ﴿مَفَازًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ تصلحُ أنْ تكونَ مصدرًا ميميًّا أوِ اسمَ مكانٍ أوِ اسمَ زَمانٍ[1]. والمعنى على التَّقديرِ الأوّل: أي: فوزٌ بالِغُ المَعنى لأهلِه، فالمصدرُ الميميُّ يدلُّ على مُنتهى الحَدث ويَحملُ معَهُ عُنصُرَ الذّات[2]. وعلى التَّخريجِ الثّاني: أي: موضِعَ فوزٍ. وعلى الثّالث: زمانَ فوزٍ. والتّخريجاتُ الثّلاثةُ تجمَعُ بينَ شرفِ الزّمان وشرَفِ المَكانِ وشرفِ الحقيقةِ والحالِ.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿مَفَازًا﴾:

تعظيمُ الفَوْز والظَّفَر، لِرَدْعِ مَن ظَلَمَ واستكبَر

التّنوينُ في قولِه تعالى ﴿مَفَازًا﴾ للتّعظيم[3] الدّالّ على عِظَم ما أعدَّه اللّه للمتّقينَ مِن فوزٍ ونَجاة، بحيث يتجاوَزُ حدودَ التَّصوُّرِ المُعتاد. وكأنَّ هذا التَّنوين يكفي لإشعارِ السّامع بعظمةِ شأنِ المَفاز وما فيهِ منَ النَّعيم، دونَ حاجةٍ لتفصيلٍ أوْ تعيين، ففي التّنكيرِ اتّساعٌ ورحابةٌ يستغرقُ خيالَ المُستمِع ويَذهَبُ بلُبِّه كلَّ مَذهَب.

نكتةُ إيثارِ ﴿مَفَازًا﴾ على (الجنّة):

العدولُ عن الجنّات، إلى اللّفظِ المُفيدِ للظّفَرِ والنَّجاة

عُدلَ عن التّصريح بـ(الجنَّة) إلى لفظِ ﴿مَفَازًا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾؛ لاشتمالِه على مَعنى (الفوز والنَّجاة)، ممّا يُضفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209.

(2) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 31.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 43.

بُعدًا شُعوريًّا أعمَقَ من مجرَّدِ ذكرِ المَكان. وهذا الاختيارُ فيه إثارةٌ للنَّدامة في نفوسِ الكافرين الَّذين خوطِبوا سابقًا بقولِه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ إلى قولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، إذ يُذكِّرهم بأنّهم حُرِموا من هذا الفوزِ الأبديِّ بسببِ كُفرِهم. ومن النّاحيةِ البيانيَّة، هو إيجازٌ بليغٌ جمَعَ بينَ الإشارةِ إلى النَّعيم، والتَّذكيرِ بالنَّجاة من الهَلاك، وإثارةِ الحَسْرة في آنٍ واحِدٍ[1].

دلالةُ المَوقعِ الإعرابيّ لـ﴿حَدَآئِقَ﴾:

التّوضيحُ والبَيان بعدَ الإجمالِ في الكَلام

قولُهُ: ﴿حَدَآئِقَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بدلًا مِنْ ﴿مَفَازًا﴾ بدلَ اشتمال، أوْ بدلَ كلٍّ مِنْ كلٍّ مُبالغةً في أنْ جُعِلَتْ نفسُ هذه الأشياءِ مَفازًا، ويجوزُ أنْ يكونَ مَنصوبًا بإضمارِ (أعني)، وقيل: ﴿مَفَازًا﴾ بمعنى الفَوْزِ فيُقدَّرُ مُضافٌ، أي: فوزَ حدائقَ[2]، والفرقُ البيانيُّ بينَ هذه الوُجوهِ يُؤثِّرُ في كيفيّةِ العَلاقةِ بينَ الحدائقِ والمَفاز. ففي بدلِ الاشتمالِ الحدائقُ مُحتواةٌ في الفَوْز، بمعنى أنَّ الجنّةَ (المَفاز) تشتملُ على حدائقَ وأعنابٍ. وفي بدلِ كلٍّ من كلّ الحدائقُ مُساويةٌ لـ﴿مَفَازًا﴾ ومُجسِّدةٌ له تمامًا، فالحدائقُ والأعنابُ هي بعينِها الفوزُ والنَّجاة. وهذا أسلوبُ مُبالغة؛ لبيانِ عظم قدْرِ هذه النِّعمةِ وجَلالِها، فلم يَكتفِ بأنَّها جزءٌ من الجنَّة بل جَعَلَها هي نفسَها غايةَ الفوزِ. وفي النّصب بحذفِ الفعلِ (أعني)؛ فالغرضُ البيانيّ هو التّفسيرُ والبيانُ، وتفصيلُ الإجمالِ في: ﴿مَفَازًا﴾، إذ جملةُ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا﴾ توضيحٌ وشَرْحٌ ممّا يتكوّنُ المَفازُ. وفي حذفِ المُضافِ، أي: (فوزَ حدائق) تعريفُ الفوزِ بأخصِّ أفرادِه.

بلاغةُ التّفنُّنِ في عَرضِ النَّعيم:

جاءَ تفصيلُ النَّعيمِ في الآياتِ على نحوٍ يُراعي تنوّعَ اللّذّات،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 44.

(2) السّمين، الدّر المصون: 10/ 661.

الـتّـصـاعُـدُ والانـتـقـال لـلـوُّصـول إلى سُموِّ الحال

فانتقلَ من النَّعيمِ الماديّ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ إلى النَّعيم البشريّ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، ثمَّ النّعيم الشّرابيّ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، وهو ترتيبٌ تصاعديٌّ مُتكاملٌ يستغرقُ الجوانبَ الكليَّة لقولِه ﴿مَفَازًا﴾، فالفوزُ العظيمُ ﴿مَفَازًا﴾ لا يتجزّأ؛ لأنّه حُزمةٌ مُتكاملةٌ من كلِّ هذه الأنواعِ المُتصاعِدة منَ النَّعيم، فلا يُمكِنُ أنْ يكون الفوزُ كاملًا بحدائقَ بلا رفيقةٍ، أوْ برفيقةٍ بلا شَرابٍ طيّبٍ، فجمْعُها بهذا التّرتيبِ يؤكِّدُ أنَّها كلٌّ لا يتجزّأ، وهو نفسُهُ حقيقةُ الفوز، ثمّ ربطَ النّعيمَ الظّاهريَّ بالطُّمأنينةِ الباطِنةِ الَّتي هي جوهرُ النّعيم على الحقيقة، وهي تنزيهُ أحوالِهم عمّا يَسوؤُها من العوارضِ والشَّوائب، فقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ كنايةً عن كمالِ صَفاءِ المَجلِس وسموِّ أهلِه. ثمّ ختمَ النّعيمَ بذكرِ الأصل الجامِعِ له ببيانِ مَصدرِه ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، فجمعَ بينَ مَعنى الجزاءِ المُستحَقِّ والعطاءِ الفَضل، مع بيانِ أنَّه مضبوطٌ بميزانِ الحِكمة الإلهيَّة، وأنّه كافٍ لا ينفَدُ، وطالَما أنّه من ﴿رَّبِّكَ﴾ فالاطمئنانُ حاصلٌ به، من جهة أنّ مصدرَهُ كاملٌ؛ فلا يَخشَون نقصَه فضلًا عن نفادِه، ومن جهة أنّ اللّه كريمُ الإحسان، فلن يوقِفَه عنهُم بعلّة زيادتِه عنِ استحقاقهم؛ لأنَّ إمدادَهُم به جارٍ بحسبِ وسْعِ صفاته، لا بحسبِ حدِّ أعمالِهِم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿حَدَآئِقَ﴾ ودلالةِ مَجيئها جَمْعًا:

التّـعـظـيـمُ والـتّـفـخـيـم، لـشَأنِ النَّعيمِ المُقيم

تنكيرُ ﴿حَدَآئِقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ للتّعظيم، كما هو الشّأن في المُبدلِ منه: ﴿مَفَازًا﴾ فإذا جرى التّعظيمُ في الأصل، فجريانُهُ في الفَرْعِ أقْيَسُ، ومنع ﴿حَدَآئِقَ﴾ منَ التّنوين؛ لأنَّه على صيغةِ مُنتهى الجُموع[1]. وجاء اللّفظُ جمْعًا؛ لقيامِ النَّعيم على التَّنوُّعِ والتَّعدُّد، فلا غرْوَ أنْ جاءَ اللّفظُ مجموعًا، وإذا كانتْ بساتينُ الدُّنيا

(1) صافي، الجدول: 15/ 221.

وحدائِقُها ألوانًا وأنواعًا عددًا، فكيفَ بحدائقِ الآخِرة، واللّه يقولُ: ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ٢١﴾ [الإسراء: 21].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بِ(الحَدائقِ) دونَ (الجنّات):

للجنّةِ حدودٌ مُحترمةٌ ومَواطِنُ مُغلَقَة

التّعبيرُ بـ(الحدائقِ) دونَ (الجنّات) في قولِه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾؛ للدّلالة على مَظهر أصيلٍ في الجنّة، وهي أنَّها مُحاطةٌ بأسوارٍ وحدودٍ تُحدِق بها وتُحيطُ(1)، فبساتينُها وأشجارُها ليستْ إلى مَشاع، والتّعبيرُ بالحدائقِ يتوفّر على معنى الخصوصيَّة والحمايةِ والتّميّز والاستقلاليّةِ والتّكامُل، ويُشعِرُ بأنّ الجنّة عالمٌ مُتكامِلٌ ومُغلَقٌ على نعيمِه، لا يتسرّبُ منه شيءٌ ولا يدخُلُ إليه ما يُفسِدُهُ، وأيضًا التّعبير بـ(الحدائق) أنسبُ معَ سياقِ النَّعيم؛ فدلالتُها (الخصوصيّة والتّميّز) تتكامَلُ تمامًا مع ما يَليها من نَعيم، فالكواعِبُ الأترابُ والكأسُ الدِّهاق هي أيضًا من أرقى وأخصِّ أنواعِ النَّعيم، الّتي لا تكونُ إلّا في مكانٍ مَخصوصٍ ورَفيع، وأمّا (الجنّة) فأصلُها: البُستان الّذي يُجَنّي الثّمر (أي يُخبّئُه ويَستُرُهُ بأشجارِه وكثافتِه)، وتُطلَق على كلِّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ كثيفٍ يستُرُ ما تحتَهُ(2). فهي ترتكزُ على ملاحظةِ الخُضرة والسِّتر والكَثافة. والجنّة تتعلّق بالوصف العامِّ للنَّعيم، ولا تعطي الدِّلالات الخاصّةَ للفظ: ﴿حَدَآئِقَ﴾. فقد تكون الجنّاتُ بساتينَ مفتوحةً غيرَ مخصوصةٍ قابلةً للدُّخول، لكنَّ التّعبيرَ باللَّفظ الأخصِّ ﴿حَدَآئِقَ﴾ يجعَلُ الصّورةَ أكملَ والنّعيمَ أخصَّ والفوزَ أتمَّ.

دلالةُ عطفِ (أعنابٍ) على ﴿حَدَآئِقَ﴾:

كمالُ الإحاطةِ والسّترِ لأهلِ الجنَّة والصّبر

عَطفُ (الأعنابِ) على (الحدائقِ) في قولِه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ من باب عطفِ الخاصّ على العامّ؛ للتّنويه بِه وإعظامِه لأهمّيّته، إذ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209، والرّاغب، المفردات، والسّمين عمدة الحفّاظ: (حدق).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جنن).

الأعنابُ مِن جملةِ أنواعِ الشّجَرِ المُثمِرِ الَّذي يكون في الحدائقِ، لكنْ خصّهُ بالذّكر؛ اعتناءً به لطيبِها وحُسنِها وشَرَفِها وما فيها من لذَّة الذّوق[1]. ولاحتمالِ أنْ تكون هي الأكثرَ في تلك الحدائقِ، فخصَّها لذلك[2]. كما تشيرُ (الحديقةُ) إلى أنَّ لها سورًا من جَوانبِها، والأعنابُ سورٌ من أعلاها، ومِن ثمَّ تكون مغلقةً على سُكّانها؛ فلا يُرَونَ مِن خارجِها ولا مِن فوقِها.

نكتةُ ذكرِ الثّمرة دونَ الشَّجرة (أعنابًا):

تقديمُ المَنفعة واللذَّة على ذكرِ مجرَّدِ الشّجَرة

عبّرَ عن أشجارِ العِنَب بثَمرتِها؛ فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾، ولم يقُل: (وأشجارَ عِنَب)؛ لاعتبارِ المَنفعة العُظمى والغالبة[3]، فالأشجارُ فيها جمالٌ وظِلّ، لكنّ ثمارَها هي جُلّ المَنفعة والقيمة منها، والنّعيمُ الحقيقيُّ يكمُنُ في تناوُلِ ثِمارها، لا في النّظَر إلى جُذوعِها، كما أنّ في الاقتصارِ على ذكرِ الثّمَرة (العِنَب) توفُّرٌ على النَّعيم الَّذي يَتذوّقُهُ المتّقونَ أصالةً، من غير تشتيتٍ ولا إطناب. هناك أيضًا نكتةٌ بديعةٌ من وراءِ ذلك وهي الإشارةُ بذكرِ العِنَب إلى أنّ شجرَهُ مُثمِرٌ دائمًا وغضٌّ طيّب، فقد تكون أشجارُ عنبٍ، لكنّها يابسةٌ عقيمةٌ لا تُنتِجُ ثمرَها، وفي ذكر العِنب اقترابٌ من إدراك حاسّةِ الذّوق، بخلافِ الأشجار، والسّياقُ كلّه جارٍ في هذا النّسَق وهو استشعارُ اللَّذّة ومُلابَسَتُها وتذوّقُها)، والأهمّ بيانيًّا في ذلك كلّه: هو الاقتصادُ البلاغيّ في إيرادِ العبارة، بإيثارِ الأبلغ، فلفظ (أعنابًا) يجمَعُ بينَ ذكرِ الشَّجرة وثَمرتِها؛ لأنّه لا يكون العِنَبُ من غيرِ الشّجَر. لكنْ قد يقالُ: شجَرٌ عِنَبٌ، والعِنَبُ فيه لمّا ينبتْ بعدُ، فاكتفى بكلمةٍ واحدةٍ موجَزة تكون أوسعَ في المعنى وأدقّ في إصابة المقصودِ مِن غير إيهامٍ ولا إلباس.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 218.

(2) السّعديّ، تفسير السّعديّ، ص: 907.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 209.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ ودلالةُ مجيئِها جَمْعًا:

تعظيمُ الأعناب، تشويقٌ لكلِّ راغبٍ في الثّواب

التَّنكيرُ في قولِه: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ يدلُّ على تعظيم حالِ تلك الأعناب[1]. وتعظيمُ العامّ إذا كانَ حاصلًا بتنكيرِه فتعظيمُ فردِه الخاصّ أظهرُ في تنكيرِ لفظِه كذلك، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ هو الأعمّ وقد نُكِّر وجُمِعَ تعظيمًا لها وتنويهًا بأنواعها، والأعنابُ جزءٌ من هذا العامّ ونوعٌ في الحدائقِ خاصّ، فتنكيره كذلك للتّعظيم، وجمْعُهُ كذلك لكثرةِ أنواعِه، وتعدُّدِ طُعومِه.

نكتةُ عطفِ (كواعب) على سابقِهِ:

لا تَروقُ مُلاحظةُ الحور، إلّا في حدائقِ الحُبور

عطفُ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ على قولِه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ ليس عَشوائيًّا، بل هو انتقالٌ بلاغيٌّ محكَم يخلقُ صورةً متكاملةً في التّمتّع والنَّعيم، فالسّياق بدأ أوّلًا بمتاعِ البَصَر والشَّمّ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، ثم انتقلَ إلى (متاع البَصَر واللّمْس): ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، ثمَّ اختتمَ بمتاعِ الذّوق: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾؛ إذن: العطفُ هنا يحقّقُ تتابُعًا في الإذهالِ والتّلذّذ، حيثُ ينتقلُ بالمتّقي من متاعٍ إلى آخرَ أرقى، ومن حاسّةٍ إلى أخرى أعلى، ليُدركَ أنَّ الفوزَ هو وقوعُ هذا النَّعيم الحسّي والرّوحيِّ معًا[2].

بلاغةُ الإيجاز بحذفِ المَوصوفِ:

جميعُ نِساءِ الجنّة أتراب، ذواتُ حُسنٍ وكِعاب

لم يقُل في السّياق الكريم: (ونساءَ كواعِبَ أترابًا)، بل حذفَ الموصوف وأبقى الصِّفة، وذلك لأسباب[3]:

الأوّل: خصوصيّة الدّلالة، فكلمةُ (كواعب) وصفٌ خاصٌّ بالإناث، ولذلك لم تلحقْه تاءُ التّأنيث، فيقالُ: كاعِبٌ وكواعِبُ؛ لأنَّ المعنى المؤنّث مُستفادٌ من خصوصيّةِ اللّفظ. وكذلك ﴿أَتْرَابًا﴾ جمعُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 44.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 44.

(تِرب) وهو المُساوي غيرَهُ في السِّنّ، وهو إطلاقٌ شائعٌ في الإناث كذلك، وأكثَرُ إطلاقِهِ على النِّساء.

الثّاني: الاستغناءُ بالصّفة عن الموصوفِ: وبسببِ هذه الخصوصيَّة أصبحَتِ الصِّفتان (كواعب أترابًا) كافيتينِ للدِّلالة على الموصوفِ المَحذوفِ (النِّساء) دون أيِّ التباس؛ فالعقل العربيُّ يَربطُها تلقائيًّا بجنسِ النِّساء، فلا حاجةَ لذكرِ المَوصوف (نساء) أوْ حتَّى تأنيثِ الصِّفة.

الثّالثُ: تحقيقُ الإيجاز وخفّةِ النّطق، إذ تركيبُ: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ بحذفِ المَوصوف يزيدُ من خِفَّة اللَّفظِ مع باقي الآيةِ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، معَ ثبوتِ المَعنى المؤنَّث بسبب خصوصيَّةِ اللَّفظ.

الرّابع: قصدُ الانصبابِ على الصّفة؛ لعُمومِها في الأفرادِ المَوصوفينَ بها، فحينَ يقول: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ ويحذِفُ المَوصوف، فهو يريدُ منَ السّامعِ أنْ ينصَبَّ ذهنُهُ على الصِّفة؛ لأنّ كلَّ ما يتخيَّلُهُ السّامعُ من (نِساء) أوْ (حور) لا يخرُجُ عن هاتينِ الصِّفتينِ من الجَمال والكَمال، فكأنّه قيلَ: لا يوجَدُ في الجنّة إلّا كواعبُ أتراب، وكلُّ نسائِها على هذه الدَّرجة بلا تفاوت. وكان أحرى أن يقعَ الانشغالُ بالصِّفة عن الموصوف؛ لأنها حاصلةٌ في كلّ موصوف، فلا داعي للانشغالِ بذِكْره والتَّصريحِ به.

نكتةُ تنكيرِ (كواعب) ودلالةِ جمعِها:

تنكيرُ (كواعب) وجمعُها مفيدٌ للتّفخيم والعُموم والكَثرة في ذلك الجمال، فكأنَّه قيل: للمُتّقينَ من الكواعبِ عددٌ لا يُحصى، وهيئاتٌ لا تُعضَد، كلٌّ منها على غايةِ الجمال، ودالٌّ على أنَّ لكلِّ واحدٍ من المتّقين حظًّا وافرًا من الكواعِب، معَ تنوُّعٍ في الجمال.

تفخيمُ الجمال، للتّرغيب بأحسنِ الصِّفات والخِلال

وأيضًا: لمُناسبةِ مَقامِ العُموم والجزاء، فالجنّةُ بها من الكواعِبِ ما يكفي جميعَ أهلِها.

دلالةُ وصفِ الكواعِبِ بـ﴿أَتْرَابًا﴾:

السَّعادةُ الزوجيّة ذاتُ اكتمال، مِن جميع الوُجوهِ والأحوال

وصفُ الكواعِبِ بـ﴿أَتْرَابًا﴾ يحمِلُ مَعنيينِ لَطيفَين[1]:

الأوّل: التّسويةُ بينهُنّ في نفسِ الرّجُل؛ لئلّا تميلَ النّفسُ إلى واحدةٍ دونَ أُخرى، ففطرةُ الإنسان تميلُ إلى الأقلِّ عُمُرًا والأكثرِ نَضارةً؛ إذ لو اختلفَتْ أعمارُهُنّ ودرجاتُ جمالِهنّ لوجدَ الرَّجلُ في نفسِه ولو بغيرِ إرادةٍ مَيلًا خفيًّا نحوَ بعضِهنَّ، وقد يخفُتُ بهاءُ الأُخرياتِ في عَينيه، بخلاف ما إذا كُنَّ أترابًا (مُتساوياتٍ في السنِّ والجَمال)، إذ تستقرُّ المحبّةُ والإيثارُ في القلب بتساوٍ تامٍّ، فلا تشعُرُ النّفسُ بأنَّ واحدة أفضلُ من أخرى، وبذلك تكمُلُ المَسرّة ويذهبُ كلُّ أثرٍ للغِبطة أوِ الحسَدِ بينهُنّ.

الثّاني: التّسويةُ بينهُنّ وبينَ أزواجِهنَّ من المتّقين؛ لأنَّ ذلك أحبُّ إلى الرِّجال، وهذا تفسيرٌ أدقّ من السّابق، وهو أنَّ وصفَ ﴿أَتْرَابًا﴾ ليس مقصورًا على تساويهنّ مع بعضِهِنَّ، بل يمكنُ أنْ يكون وصفًا لعَلاقتهِنَّ بأزواجهِنَّ، أي إنّهنَّ في سنِّ وجمالِ أزواجِهِنَّ كما هو معتادٌ ومحبوبٌ في الدُّنيا، فلا يكونُ بينَهُما فجوةٌ في العُمْر تورِثُ الحياءَ أوِ التّكلُّفَ في المُعاشرة، وتكونُ المعاشرة أحلى وألذَّ، لأنّها خاليةٌ من أيِّ شعورٍ بالفوقيَّة أوِ الدّونيَّة نتيجةَ اختلافِ السّنِّ، وعليهِ فالوصفُ بـ ﴿أَتْرَابًا﴾ يضمَنُ كمالَ السَّعادةِ الزّوجيَّة من جهتين؛ داخليّةٍ بينَ الزّوجات بعضِهِنَّ مع بعض، وخارجيّةٍ بينهُنَّ وبينَ أزواجهِنَّ.

نكتةُ إفرادِ ﴿وَكَأْسًا﴾:

إفرادُ ﴿وَكَأْسًا﴾ دونَ جمعِها في قولِه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾؛ لإرادةِ

(1) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 21/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 44، 45.

كأسٌ دِهاق، رمزٌ للامتلاءِ ودوامِ الدِّفاق

الجنس، فلفظُ (كأسًا) جاءَ بصيغةِ الإفرادِ مُرادًا به الجنسُ، أي جميعُ أنواعِ الأكوابِ مملوءةً، فالعدولُ عن الجمعِ؛ لأنَّ الإفرادَ أخفُّ وقْعًا على السَّمْعِ مِن أنْ يقالَ: (أكؤُس) أوْ (كُؤوس)، وهو أبلغُ في تصويرِ المَشهد؛ وكأنّه وحدةٌ مُتكاملة من النَّعيم المُتكرِّر. كما أنَّ قولَه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ على تلك الصّيغة أشبهُ بالتّركيباتِ الجاريةِ مُجرى المَثل، فتعبيرُ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ صارَ في قوّةِ الأمثال، يُستعمَلُ للتّعبير عن الامتلاءِ والعَطاء الفيّاض، ممّا يَمنَحُهُ وقْعًا مألوفًا في النُّفوسِ وسُهولةً في التّخيّل(1).

دلالةُ وصفِ الكأس بـ﴿دِهَاقًا﴾:

كثرةُ الشَّراب، إكرامٌ للأحباب

وصفُ الكأسِ بـ﴿دِهَاقًا﴾ في قولِه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ لا يدلُّ على مجرّدِ المَلْءِ العاديِّ، بل ملءٌ شديدٌ وفَيضانٌ ناتجٌ عن كثرة ما يُصَبّ فيها باستمرار، بحيثُ تفيضُ ولا تنضُبُ أبدًا؛ فهي تدلُّ على الاستمراريَّة والوفرةِ المُطلقة(2). ومن البلاغةِ النّحويَّة أنَّ الوصفَ جاءَ على وزنِ (فِعال) الَّذي هو مصدرٌ، لكنّه هنا يدل على المفعولِ به، كقولهم: (أَكْل) بمعنى (مأكول)، و(خلْق) بمعنى (مَخلوق)؛ فكلمةُ (دِهاق) هنا لا تعني أنَّها تَملأُ غيرَها، إذ لو كانتْ كذلكَ لقيل: داهِقة، بل تَعني أنَّها مملوءةٌ على آخِرِها وفائضةٌ (مُدهَقَة). هذه الدّقّةُ النّحويَّة تُظهِرُ أنَّ الكأس هي مفعولٌ به دائمًا، أي إنَّها تُملأُ باستمرار من مصدرٍ لا يَنقطِعُ، فالوصفُ بتلك الصّيغة يدلُّ على أنَّ الكأس في حالةِ جَريانٍ وامتلاء دائمَين، لا تفرُغُ أبدًا ولا تحتاجُ إلى انتظار لتُمْلَأ، كما يجوزُ أن تكون الكلمةُ صفةً مُشبّهة؛ للدِّلالة على ثبوتِ واستمرار الصِّفة في مَوصوفِها، أي: دائمُ الامتلاءِ مُرتَعٌ لاستئنافِ تتابُعِه مَلْئًا وشُربًا(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 45.
(3) صافي، الجدول: 15/ 222.

علَّةُ فصلِ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾ عن سابقِهِ:

النّعتُ والحال، كاشِفانِ عَن هَناءِ المآل

جملةُ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ وصفٌ ثانٍ للكأس، وذلك بعَوْدِ ضمير ﴿فِيهَا﴾ على (الكأس) في قوله: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ والصِّفةُ لا تُعطَفُ بـ(الواو)، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ في محلِّ نصبٍ نعتًا لـ(حدائق)، وضميرُ ﴿فِيهَا﴾ يكون عائدًا على الجنّة، المُعبّر عنه بـ﴿مَفَازًا﴾، وهذا هو الأظهَرُ والأحكمُ في النّظم؛ فيقال: الضّميرُ يعودُ على الجنّة أوْ مَجالِسِها، والّتي منها مجالسُ الخَمْرِ وتناوُلِها، ليدخُل في ذلك: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾[1]. ويحتملُ أنْ يكونَ حالًا من ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾؛ لأنَّ النّكرةَ إن تخصّصتْ جازَ مجيءُ الحالِ منها، والغرضُ من النّعت أوِ الحالِ بيانُ هناءِ الحالِ وعدمِ اللّغْوِ داخلَ الحَدائق أوْ عندَ الشُّرب في المجالِسِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ المنفيّ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾:

عدمُ السَّماع، لِما يضرُّ ويخدِشُ الأسماع

التَّعبيرُ بالمضارعِ المَنفيّ في: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾؛ لإفادةِ نفيِ الاستمرار وعدمِ الانقطاع، أي: لا يَطرَأُ عليهم أبدًا مايُؤذي أسماعَهُم أوْ يضرّهُم بأيِّ وجهٍ منَ الوُجوه.

مَرجِعُ الضَّميرِ وأثرُهُ في معنى: ﴿فِيهَا﴾:

غايةُ الإكرامِ، بمَحاسِنِ الكلام

في قولِهِ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ استُعمِلَ حرفُ الجرِّ (في)؛ إمّا على بابِهِ مِن إفادةِ الظَّرفيّة، وذلك على اعتبارِ عَوْدِ الضَّمير إلى (الجنّة)، وإمّا بمعنى (السَّببيّة) على اعتبارِ عَوْدِ الضَّميرِ على (الكأس)، والمعنى: لا يَسمعونَ بسببِ شُربهم كأسَ الخمر لَغْوًا من بعضِهِم بَعْضًا ولا تكذيبَ بعضِهم بعضًا، ولا يقولونَ كَذِبا بسبَبِ الهَذَيان الّذي تُحدِثه الخمرُ، كما تحدثُهُ خمرُ الدُّنيا. ويجوزُ أن يكون الكلامُ على حذفِ مُضاف، و(في) بمعنى العنديَّة أوِ الابتدائيَّة، أي:

---

(1) صافي، الجدول: 15/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 218، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 45.

لا يَسمعونَ عندَ مَجالِسِ شَرابِ الكأسِ لَغْوًا، أوْ لا يسمعونَ مِن تلك المَجالس لغوًا يصدُرُ مِن جِهتِها[1].

بلاغةُ اعتبارِ (في) للظَّرفيَّة على عَوْدِ الضَّمير لـ﴿وَكَأْسًا﴾:

الانغماسُ في لذَّةِ الشَّراب، تَطيبُ عندَ مُنادَمةِ الأحباب

يجوزُ اعتبارُ الضَّمير عائدًا إلى ﴿وَكَأْسًا﴾، وإيقاعُ (في) على معنى الظَّرفيَّة المَجازيَّة، لا على معنى التَّعليل؛ لأنَّ التَّعليلَ فيه تضمينُ حرفِ الوِعاء معنى حرفٍ آخرَ! فإعادةُ الضَّمير إلى ﴿وَكَأْسًا﴾ بـ﴿فِيهَا﴾ مجازٌ، حيثُ يُشبِّهُ القرآنُ حالَ الشّاربين من الكأسِ كأنَّهم يَحلّونَ فيها كما يَحلّونَ في الأماكن، بسببِ انغماسِهم في لذَّةِ الشَّراب وانهماكِهم فيها، فكأنَّ الكأسَ أصبحَتْ مَكانًا لهم أوْ وعاءً لِهُمومهم؛ فالظَّرفيَّة المَجازيَّة هنا تُخيِّل أنَّهم داخلَ الكأس لشدّةِ انشغالِهم بها وتلذُّذهم بها، فهي بمثابةِ عالَمِهم في تلك اللَّحظة.

بلاغةُ جعلِ جملةِ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ وصْفًا لـ﴿وَكَأْسًا﴾:

الكأسُ مصدَرُ لذَّةٍ وشَراب، ومصدرُ هَناءٍ لذَوي الألباب

بِعَودِ الضَّمير ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ على الكأسِ، تكونُ الجملةُ صفةً ثانيةً لـ﴿وَكَأْسًا﴾ بعدَ وصفِها بـ﴿دِهَاقًا﴾، وإيقاعُ جملةِ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ صفةً ثانيةً للكأس يَزيدُها جمالًا وكَمالًا، فهي كأسٌ لا تُعطي شرابًا فقط، بل تُعطي هُدوءًا وسَكينةً بمنعِها أيَّ لغوٍ أوْ كذب، فهي ليستْ مجرَّدَ وعاءِ شِراب، بل هي مصدرُ طهارةٍ سمعيَّةٍ ونفسيَّةٍ أيضًا، ولا يخفى ما في ذلك من المُبالغة في مدحِ الكأس بجعْلِها موضوعًا للضَّمير ﴿فِيهَا﴾ بدلًا من (الجنّة)، بحيث يكونُ القرآن قد بالغَ في مدحِ الكأسِ وجعلَها محورَ النَّعيم بما أوحَتْ به من الانغماسِ الكامل وشدّة التّوفّر عَليها لِعظيمِ لَذاذتِها وحُسْنِها.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

تقديمُ شبهِ الجُملة ﴿فِيهَا﴾ على المَفعول بهِ ﴿لَغْوًا﴾ في قولِه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 218، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 45، 46.

بالتَّقديمِ صارَ المكانُ محلَّ النَّعيم

تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ يفيدُ الحصرَ والاهتمام، فكأنّه قيلَ: في هذا المكانِ بالذّاتِ لن تَجدوا أيَّ لغوٍ أو كَذب. فهو يَحصِرُ عدمَ سماعِ اللَّغو والكذِبِ في هذا الوجودِ النّقيّ. وأيضًا في التَّقديم تهيئةٌ ذهنيّة للسّامع، بوضْعه أوَّلًا داخلَ الجوِّ أوِ المكانِ ﴿فِيهَا﴾، ثمَّ يُخبرُهُ بما لن يَجِدَهُ فيه ﴿لَغۡوٗا﴾، فيُدخِلُهُ في المَكان والمحلّ أوّلًا ثمّ يُخبرُهُ عن مَزاياهُ وانتفائِهِ من العيوبِ والنَّقصِ ثانيًا. وعلى اعتبارِ عودِ الضَّمير في: ﴿فِيهَا﴾ على (الكأس) يكونُ في التَّقديم إشادةٌ وتأكيدٌ على سببِ الانقطاعِ والنَّفي قبلَ تقريرِ الانقطاع والنَّفي، فيتأكّد أوّلًا أنّ الكأسَ نفسَها هي الَّتي تمنع سَماعَ اللّغو بسببِ انشغالِ الشّاربِ بها، فالكأسُ هي العامل الفاعلُ في هذا الصَّفاء. ولا يخفى ما في تقديمِ الجارّ والمجرور من مُجانسةٍ صوتيّةٍ هي أمكنُ في أذن السّامع ممّا لو أخِّر.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لَغۡوٗا﴾ و﴿كِذَّٰبٗا﴾:

اكتمالُ النَّعيم باختفاء اللّغْوِ والكذِبِ المُهين

التّنكيرُ في ﴿لَغۡوٗا﴾ و﴿كِذَّٰبٗا﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ يفيدُ تعميمَ النّفي وإطلاقَهُ، فلا يسمعونَ أيَّ نوعٍ من اللّغْو والكذِب، مهما كان شكلُهُ أوْ مصدرُه. ويفيدُ تحقيرَ المَنْفيّ وتقليلَهُ وتهوينَ شأنِه، فما يُنفى من لَغْوٍ وكذبٍ هو شيءٌ تافِهٌ لا قيمةَ له، فلا وجودَ لأدنى أشكالِهِ في الجنَّة. ويفيدُ التّنويعَ أيضًا في أنواعِ المُنكَرات، فيدلُّ على أنَّ اللّغْوَ والكذبَ يأتيانِ بأنواعٍ وأشكالٍ مُتعدِّدة، ولكنَّها جميعًا منعدمةٌ في ذلك المقام. وفي التّنكير مبالغةٌ في مضمونِ النّفي، فكأنَّه يقول: لا يسمعونَ شيئًا من اللّغْو ولا شيئًا من الكَذِب مَهما كان ضَئيلًا.

بلاغةُ (الكناية) في نفي سَماعِ اللّغْوِ في الجنَّة:

نفيُ السَّماعِ للمَكذوبِ يَستلزمُ عدمَ الوُجود

نفيُ سَماعِ اللّغو والكذِب في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ فيه كنايةٌ عن نفيِ الوجودِ ونفيِ إمكانيَّتِه، بل ونفيِ

الرُّؤية لهُ؛ فالمعنى الصَّريح: لا يسمعونَ فيها لَغْوًا ولا كِذّابًا، والمعنى الكنائيُّ: لا وجودَ لأصلِ اللّغْو والكذِب في الجنّةِ من الأساس؛ لأنَّه لو وُجِدَ لأمكنَ سَماعُه، فنَفْيُ السَّمعِ يُفيدُ انتفاءَ المَنْبَعِ الأصليّ، كما أنّ نفيَ السَّمع يعني أيضًا أنَّهم لا يَرَونَ مَصدرًا للّغْو، ولا يتأثَّرونَ به، ولا يلتفتونَ إليه، فهو مُنعدِمٌ تمامًا في حَوزتِهم وحواسِّهم، والكنايةُ هنا أبلغُ من التّصريح[1].

نكتةُ عطفِ نفْيِ سَماعِ الكذِب على نفيِ سَماعِ اللَّغْو:

الــترقّــي في الانتفاء مُحقِّقٌ لكَمالِ الانتفاع

عَطفَ نفيَ سَماعِ الكذِب على نفْيِ سَماعِ اللَّغْو في قولِه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ فبدأ باللّغْوِ وثنّى بـ﴿كِذَّٰبٗا﴾ تصعيدًا في مراتبِ النّفي من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأهونِ إلى الأخطَر، ومن السَّهو والخطأ إلى العمْد وانعقادِ النّيّة. ومن غير الضّارّ إلى الضّارّ؛ فاللّغو هو الكلامُ التّافهُ عديمُ الفائدة يمثِّلُ أدنى درجات القَباحةِ الكلاميّة الّتي تشتملُ غالبًا على السَّهو والخطأ من غير انعقادٍ ولا قصدٍ ولا ضَرَر، والكِذّاب هو الكلامُ الضّارّ المقصودُ به تغييرُ الحقائق وتحصيلُ الغِشّ والإفسادِ كالتَّزويرِ والافتراء، وهو أعلى درجاتِ القَباحة الكلاميّة، فجمعَ بينَهُما ليقطعَ إمكانيّةَ وجودِ أيّ كلامٍ سَيّء من أيِّ نوع. لا بما يُعكّر نقاءَ الجوّ وهدوءَ البيئةِ والمَجالس كاللّغْو، ولا ما يُعكّرُ نقاءَ القلوبِ وصدقَ العلاقاتِ كالكِذّاب.

نكتةُ تكرارِ النّفي في ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾:

النّفيُ المُستقلّ المُنفرِد دالٌّ على الاهتمامِ بكلّ واحِد

تكرارُ النّفي في قولِه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، ولم يقُل: (لا يسمعون فيها لغوًا وكذّابًا)؛ لتأكيدِ النّفي لكلِّ واحد على انفراد، فتكرارُ (لا) يفيدُ أنَّ نفيَ سَماعِ اللَّغو مستقلٌّ تَمامًا عن نفيِ سَماعِ الكَذب، وكأنَّه قيل: لا يَسمعونَ لَغْوًا ألبتّةَ، ولا يَسمعونَ كِذّابًا ألبتّةَ، وهذا التّكرارُ يدلُّ على المبالغةِ في الاستئصالِ والقَطْع،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 46.

فيُظهرُ أنَّ كلًّا من اللَّغو والكذِب مُنفصلانِ في الانعدام، وكأنَّ كلًّا منهما له سببٌ وجوديٌّ مُستقلّ، وقد استُؤصِلا معًا استئصالًا كاملًا. وفي التّكرارِ إشارةٌ إلى تعدُّدِ مَصادِرِ القُبح، فاللَّغو مصدرٌ للقُبح، والكذبُ مَصدرٌ آخر، فجاءَ النّفيُ لكلِّ مَصدر بـ(لا) الخاصَّةِ به؛ ليبيّنَ أنَّ الجنّة طاهرةٌ من جميع مَنابعِ الشَّرّ مهما اختلفَتْ. كما أنّ تكرارَ النّفي هنا يُؤدّي دَورًا احترازيًّا بالغَ المَعنى، فلو عُطِفَ بـ(الواوِ) دونَ تَكرارِ النَّفي لاحتملَ أنْ يكون النّفيُ عنهما مُجتمعَينِ فقط، لكنَّ تكرار (لا) يقطعُ أيَّ احتمال لوجودِ أيٍّ منهما، لا على سبيل الاجتماع ولا على سبيلِ الانفراد.

توجيهُ القراءات القرآنيّة لـ﴿كِذَّابًا﴾:

الصّغائر في جنْبِ المَقامِ العَظيمِ كَبائِر

صيغةُ ﴿كِذَّابًا﴾ بالتَّشديد من قوله تعالى: ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ تفيدُ المُبالغةَ في الكذِب، لكنَّ الآيةَ هنا تَنفي السَّماع ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾، فإذا نُفيَ سماعُ الكذبِ المُبالغ فيهِ فقط، فقد يُفهَم أنَّهم قد يسمعونَ الكذِبَ القليل، وهذا لا يتناسَبُ مع مقصودِ الآيةِ الَّذي هو نفيُ الكذِب مُطلقًا. ودفعُ هذا الإيهام من وجهين[1]:

الأوّل: إنّ الكسائيَّ قرأ: ﴿كِذَابًا﴾ بالتَّخفيف، وهو مصدرٌ كـ(كِتاب)، يعني: كِذْبًا. فتصبحُ الآية: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ أي: ولا كَذِبًا أصلًا. فتكون القراءةُ هنا في نفي الكذبِ نفسِه.

الثّاني: إنّ قراءةَ التّشديد ﴿كِذَّابًا﴾ في آية الجنّة إشارةٌ إلى المذكور في الآية السّابقة ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾. والمعنى: أنَّ أهل الجنّة لا يسمعونَ ذلك الكذبَ العظيم الَّذي كان يصدرُ من الكفّار في الدُّنيا، فيكونُ النَّفي مُعَيّنًا (لهذا النَّوع من الكذب) وليس مُطلقًا، لكنَّه يحقِّقُ الغرض وهو طهارةُ الجنَّة من أصناف الأذى. وهذا توجيهٌ لقراءة التَّشديدِ بناءً على الرَّبطِ السّياقي.

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 397، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 22.

ويصحّ توجيهُها استقلالًا على اعتبار أنّ نفيَ الأعلى يستلزمُ نفيَ الأدنى، فنفيُ سماعِ (الكِذّاب) يستلزمُ نفيَ سماعِ أيٍّ كذبٍ أقلَّ منه، لأنّ النّفيَ شاملٌ، وعليه فقراءةُ التَّشديد تحمل معنًى خاصًّا بالسّياق السّابق، ومعنًى عامًّا متطابقًا معَ قراءةِ التَّخفيف، لكنْ بطريقِ نفيِ الكَثرة الشّامل الَّذي ينفي ما تحتَهُ، والَّذي يتناسبُ معَ مقامِ الجنّة العظيم، فإنّ المقاماتِ العظيمةَ النَّقصُ اليسيرُ فيها يكون عظيمًا، فجاءتِ المبالغة في قراءةِ التَّشديد على تقريرِ هَذا المَعنى.

علَّة فصلِ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ عن سابِقِه:

المَـفـازُ جـزاءٌ للمتَّقين، ووعدٌ حقٌّ للصّابرين

لفظُ ﴿جَزَآءً﴾ من قولِه: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدّرٍ يُفسرِّهُ مضمونُ ما قبلَهُ، أي: جَزاهُمُ الله ذَلِكَ جَزاء؛ فهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لعاملٍ مُقدّرٍ يُستخلَصُ من سياقِ الجُملة[1]، أوْ هو مصدرٌ في موضعِ الحال أي: مُجازين[2]. ولو عُطفتِ الجملةُ بالواو لصارَ المعنى: (إنّ للمتَّقين مفازًا وجزاءً)، وكأنَّ (المفازَ) شيءٌ و(الجزاءَ) شيءٌ آخر، في حينِ أنَّ المفاز هو عينُ الجزاء؛ فالفصل هنا يمنعُ الالتباسَ، ويؤكّدُ أنَّ النَّعيم هو نفسُ الجزاء، وعلى وجه الحاليّة فإنّ الحالَ توضّحُ هيئةَ المتَّقينَ عندَ تنعُّمِهم، وهي هيئةُ مَن حصلَ على جزاءٍ عَظيم، فحصولُهُم على المفاز جعلَهُم في حالةِ جَزاء، ولذا لم يصلُحِ العطفُ ووجبَ الفصلُ.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ(الجَزاء) دونَ الثَّواب:

العـدلُ الإلـهيُّ الكامل، يجمعُ بـيـنَ الـفَـضْـلِ والاسـتـحـقـاقِ للعامِلِ

إيثارُ لفظِ ﴿جَزَآءً﴾ على (ثواب) في: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ لثلاثِ نكاتٍ ظاهرة:

الأولى: إرادةُ الشُّمول: فـ﴿جَزَآءً﴾ تصلحُ للثّوابِ والعِقاب، لكنَّ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 92.

(2) صافي، الجدول: 15/ 221.

السّياقَ اقتضاها للثّواب، فجمعَتْ بين مَعنى المُكافأة على الحَسَنات والسَّلامةِ من عِقاب السَّيِّئات.

الثّانية: العدلُ والمُقابلة: فكلمةُ ﴿جَزَآءً﴾ تفيدُ المقابلةَ على العمَل ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، في حينِ أنَّ لفظَ (ثواب) يُرجِّحُ معنى الهِبة والفضل؛ فالنَّعيم هنا لا يُرادُ منهُ إفهامُ مَعنى المنّة المُجرّدة، بل هو مقابِلُ عمَلِ المُتّقين[1].

الثّالثةُ: التّناسُبُ معَ السّياق: إذ الآيةُ قرَنَتِ الجَزاءَ بـ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، فـ ﴿عَطَآءً﴾ للفَضْل، و﴿حِسَابًا﴾ للعَدْل، و﴿جَزَآءً﴾ تتناسَبُ معهُما معًا، في حينِ أنَّ لفظَ (ثواب) يتناسَبُ مع ﴿عَطَآءً﴾ فقط. فاللّفظُ هنا يُناسِبُ مقامَ العدلِ الإلهيِّ الكاملِ الَّذي يجمَعُ بينَ الفَضْلِ والاستحقاقِ.

نكتةُ تنكير ﴿جَزَآءً﴾ ودلالةُ وصفِهِ بـ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

جــزاءُ الـلـه لعبادِهِ المؤمنين، يقومُ على كَمالِ ربِّ العالَمين

تنكيرُ ﴿جَزَآءً﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ يفيدُ التَّعظيمَ والتَّفخيم، كأنّه جزاءٌ لا يُحَدّ ولا يوصَف. ويفيدُ العُموم، فيشملُ كلَّ أنواعِ الجزاءِ النّافع، ووصفُهُ بـ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يفيدُ الاختصاصَ والعلاقةَ الرَّبّانيّة النَّبويّة بين اللّه ورسولِه، فهو جزاءٌ من ربِّك الَّذي يَعرِفُك ويُربّيك بالكرَمِ والرَّحمة وسائرِ وجوهِ الرّعايةِ بما اقتضاهُ لفظُ (ربّ) ودلّ عليه؛ فالتّنكيرُ للتّعظيم، والتّوصيفُ بأنَّه منَ الرَّبِّ المضافِ إلى النَّبيِّ ﷺ للتَّأكيدِ على خصوصيّةِ هذا الجزاءِ وصُدورِه من مَصدر الرَّحمة والرِّعايةِ.

مَعنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيّة مجازيّةٌ، أي: جزاءً صادرًا من لدنِ اللّه وفضلِه وبحرِ كَرَمِه الَّذي لا ساحلَ له، وذلك تنويهٌ بكرمِ هذا الجزاءِ وعِظَمِ شأنِه[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 47.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 47.

دلالةُ توجيهِ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ:

نعيمُ المتّقين في الجنَّة، تكريمٌ للنبيِّ وشهادةٌ على صِدقِ الرِّسالة

توجيهُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ في ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ يدلُّ على إكرام النّبيِّ ﷺ، فجزاء المتّقينَ هو في الحقيقة إكرامٌ للنّبيِّ نفسِه؛ لأنَّ هؤلاءِ المتّقين هم أمّتُهُ المُؤمنونَ به، فنجاتُهُم ونعيمُهُم هي شَرفٌ له وفَرحةٌ لقلبِهِ، وفيه تعليمٌ للاعترافِ بالجميل، فهذا الجزاءُ هو من ربِّك الَّذي أحسنَ إليك بإكرامِ أمّتِك، فكأنَّه هديّةٌ مِن اللّه لنبيِّه من خلال إسعادِ أتباعِهِ، ويدلّ على ربطِ السَّبب بالنَّتيجة وعَزْوِ العَواقب إلى أهلِ التَّأثيرِ فيها، فإيمانُ المتّقين وهدايتُهُم كانا بسببِ دعوةِ النّبيّ ﷺ وجهودِهِ، وجزاؤُهم هو جزاء غيرُ مُباشِرٍ له على صَبره وتَضحياته، والآية تظهرُ أنَّ نعيم المتَّقين في الجنَّة ليس فقط لهُم، بل هو أيضًا تكريمٌ لنبيِّهم وشهادةٌ على نجاحِ رسالتِهِ(1).

دلالةُ البدليّةِ في ﴿عَطَآءً﴾:

الجزاءُ الأُخرويُّ للمُؤمنين مَظهَرُ تفضُّلِ الرَّحمنِ الرَّحيم

لفظ ﴿عَطَآءً﴾ من قولِه: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿جَزَآءٗ﴾، وفي البدليّةِ إبرازٌ لحقيقةِ الجَزاء، فيكون الجزاءُ الإلهيُّ في حقيقتِهِ ليس مجرّدَ مقابلةِ عمَلٍ بعمَل، بل هو في أصلِهِ عطاءٌ محضٌ وفضلٌ خالصٌ من اللّه. وفي البدليّةِ أيضًا انتقالٌ من معنى الاستحقاقِ إلى معنى التَّفضُّل والإحسانِ، فكلمةُ ﴿جَزَآءٗ﴾ قد توهِمُ أنَّ الأمرَ كأنَّه استحقاقٌ محضٌ، فجاءَ البدلُ ﴿عَطَآءً﴾ ليقرِّرَ أنَّ الجزاء ليس استحقاقًا للعبدِ بعمَلِه، بل كرمٌ من اللّه ورحمةٌ فوقَ ما يستحِقُّ. وفي البدل زيادةُ التَّقريرِ والتَّوكيد لَمعنى يتعلّقُ بالجَزاء، إذ إبدالُ كلمةٍ من أخرى يفيدُ العِنايةَ بالمَعنى الثّاني، وكأنَّ الخطاب يلفتُ نظرَ السّامع إلى أنَّ ما يُعطى لهم عطيّةٌ إلهيّةٌ عظيمةٌ لا مجرّدُ جزاءٍ عادِلٍ(2).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 47.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 47.

دلالةُ إقامةِ المَصدرِ مُقامَ الوَصْفِ في ﴿حِسَابٗا﴾:

العطاءُ الكافي لكلِّ عبدٍ جاءَ بالاعترافِ

كلمةُ ﴿حِسَابٗا﴾ صفةٌ لـ﴿عَطَآءً﴾ والمعنى: كافيًا، فهو مصدرٌ أقيمَ مُقامَ الوصفِ[1]، وإقامةُ المصدرِ مقامَ الوصفِ يفيدُ المُبالغةَ والتّوكيد، والمصدرُ أقوى من الوَصفِ العاديِّ؛ فحينَ يقولُ اللّه: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا﴾ فقد جعلَ العطاءَ نفسَهُ عينَ الكِفاية، لا مجرّد متّصفٍ بها. وكأنَّ الكفاية صارَتْ ذاتًا ملازمةً للعطاءِ لا تنفكُّ عنه، وأيضاً: فيه إفادةُ الثُّبوتِ والدّوام، لأنّ المصدرَ يدلُّ على المعنى المُجرّد غيرِ المُقيّد بزمنٍ، فإذا أُقيمَ مُقام الصِّفة دلّ على أنَّ ذلك الوصف ثابتٌ مستقرٌّ، لا حالةٌ عارضةٌ.

نكتةُ الجمعِ بينَ الجَزاءِ والعَطاءِ والحِساب:

نعيمُ المُؤمنينَ عَدلٌ، وكمالٌ لا نقصَ فيهِ وفَضْل

اجتماعُ الألفاظِ الثّلاثة: الجَزاء والعَطاءُ والحِساب في قولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا﴾ يصنعُ صورةً بديعةً في تكامُلِ الفوزِ، فالجزاءُ يُثبّتُ العَدلَ، والعَطاءُ يُظهِرُ الفَضْلَ، والحِسابُ يُقرّرُ الكمالَ والضَّبط؛ فالجمعُ بينَ هذهِ الكلمات يُنبّهُ على أنَّ نعيمَ المُؤمنين عدْلٌ وفضلٌ وكمالٌ محكَمٌ؛ فهو عدلٌ لا ظلمَ فيه، وفضلٌ لا نقصَ معَهُ، وتقديرٌ لا خللَ يَشوبُهُ[2].

۞ الفُروقُ المُعجميَّة:

الأترابُ والأقرانُ:

الاقترانُ ارتباطٌ لا يلزَمُ منهُ التَّماثُلُ بخلافِ الأتراب

الأترابُ بخلافِ الأقران، فالأقرانُ لا يلزمُ بينهُما التّساوي والتَّماثُل؛ لأنّ العلاقةَ بين الأقرانِ تقومُ على معنى الاقترانِ والانضمام في وقتٍ من الأوقات أوْ مكانٍ من الأمكنة، أوْ شيءٍ ما؛ إذ الاقترانُ هو الازدواجُ مع شيءٍ أوْ جمعُ شيءٍ إلى شيء، وإنْ وقع

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 663.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 23، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 47، 48.

ذلك على غيرِ التَّماثُلِ والتَّساوي، كما في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزُّخرف: 53] فاقترانُ الملائكةِ معَهُ لا يَجعلُهُم مثلَه ولا يُساويهِ بهم، بخلاف (الأتراب)؛ فالعلاقة بينهم تقومُ على التّساوي والتَّماثل؛ إمّا في الوُلادةِ أوْ في العُمُر أو في النَّشأة تشبيهًا في التَّساوي والتَّماثُل بالتَّرائبِ الَّتي هي ضلوعُ الصَّدر، أوْ لوقوعِهِنّ معًا على الأرض، وقيل: لأنهنّ في حالِ الصِّبا يلعبْنَ بالتُّرابِ معًا[1].

الكأسُ والقَدَح:

الكأسُ أخصُّ مُطلقًا من القَدَحِ

الكأسُ مُؤنَّثة؛ قال اللّه تعالى: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيۡضَآءَ﴾ [الصّافّات: 45 - 46]، والجمعُ كُؤوسٌ، وأَكْؤُسٌ، وكِياس[2]. والكأسُ: الإناءُ الَّذي فيه الخمرُ غالِبًا، ولا يقالُ له (كأسٌ) إلّا وفيه خمرٌ، وإلّا فهو (قدَح)، وقد يطلقُ على كلِّ واحدٍ من الشّراب أوِ الإناء بانفرادِهِ كأسٌ؛ يقال: كأسٌ خالٍ من الشّراب، وشَربتُ كأسًا، قال تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ [الإنسان: 17] وقال تعالى: ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨﴾ [الواقعة: 18][3].

وأمّا القدَحُ فهو من آنيةِ الشّراب، ولا يتقيّدُ في اسمِهِ بالخَمر، فهو قدحٌ وإنْ كان فيه ماءٌ، ولا يتقيّدُ بالامتلاء، فهو قدحٌ وإنْ كان فارغًا، والقدحُ مُذكّرٌ، واحدُ أقداحٍ، بخلافِ الكأسِ فإنَّها مُؤنّثةٌ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل المعجم الاشتقاقيّ: (ترب - قرن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (كأس).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كأس).
(4) الجوهريّ، الصَّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قدح - كأس)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدح).

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النَّبأ: 37 - 39]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سيـادةُ اللـه المُطلَقة لا تحدُّها أيّةُ سُلطةٍ قادِرة

لمّا ذكرَ الجزاءَ والعَطاء في الآيةِ السّابقة بيّنَ هنا أنّ مصدرَهُما ربُّ السَّماوات والأرضِ وما بينهُما، ولمّا كان الجزاء عظيمًا اختارَ اسمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ الدّالَّ على سَعةِ الفضلِ والرّحمة. ولمّا كانَ قد يُتوهَّم إمكانُ المُراجعةِ أو الاعتراض على الجزاء والعطاءِ والحُكم الإلهيِّ المذكور في الآيات قطَعَ ذلك بقولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾. ولمّا قطع سبحانه الشّبهةَ عن إمكانِ الاعتراض على حُكمِهِ وجزائِهِ بيّنَ حالَ مَن يحضُرونَ المشهدَ يومَ القيامة، ولمّا دلّتِ الآياتُ على انحصار الكلامِ في ذلك اليوم في مَن أذِنَ له الرّحمن، وأشار إلى عظمَةِ المشهَد وسُكونِ المخلوقاتِ خشيةً من جبّارِ السَّماوات، بيّن أنَّ هذا اليوم هو الحقُّ المطلقُ، فكلّ أحدٍ له حريّة اختيارِ مآلِه عندَ ربِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَوَابٗا﴾: أصلُ (صوب) يدلُّ على نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْرارِهِ قَرارَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصَّوابُ في القَوْلِ والفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرارَهُ. وهوَ خِلافُ الخَطَأ. ومِنْهُ الصَّوْبُ، وهوَ نُزولُ المَطَرِ. والدَّليلُ عَلَى صِحَّةِ هَذا القِياسِ تَسْمِيَتُهُمْ لِلصَّوابِ صَوْبًا[1]. وصابَ السّهمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صوب).

يَصوبُ صَيْبوبَةً، أي قَصَد ولم يَجُر، وصَوّبه، أي قالَ له: أَصَبتَ[1]. والمرادُ به في قولِهِ: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي سَدادًا منَ القولِ وحَقًّا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعدَ أنْ ذكرَ سُبحانه أنَّ يومَ القيامة موعِدٌ للفصلِ بين الخلائق، وتنتهى به أيّامُ الدُّنيا، وأنَّ دارَ العذاب مُعدّةٌ للكافرين، وأنَّ الفوزَ بالنَّعيم للمتَّقينَ أعقبَ ذلك بأنَّ هذا يومٌ يقومُ فيه جبريلُ والملائكةُ صفّا صفًّا لا يتكلَّمون إلا إذا أذِنَ لهم ربُّهم، وقالوا قولًا حقًّا سَديدًا، ثمَّ أتبعَهُ بأنَّ هذا اليوم حقٌّ لا ريبَ فيه، وأنَّ النّاس فيه فريقان: فريقٌ بعيدٌ من اللّه ومَرجِعُه إلى النّار، وفريقٌ مآبُهُ القربُ من اللّه ومنازلُ الكرامة، فمَن كانت له مشيئةٌ صادقةٌ، فليتّخذ له مَرجعًا ومآبًا إلى ربِّه، وليعمَلْ عملًا صالِحًا يُقرّبه منهُ، ويُحِلُّه محلَّ كرامتِهِ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ القراءاتِ في ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قُرِئَ ﴿رَّبِّ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ من قوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ ثلاثَ قراءاتٍ رئيسةٍ[4]:

الأولى: الرَّفعُ ﴿رَّبُّ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: والتَّقديرُ: (هو ربُّ السَّماوات والأرض... هو الرّحمن)، وهنا ﴿رَّبُّ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ يعودُ على ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، ويُسمّى النّعتَ المَقطوع، وهو صفةٌ في الأصل، لكن جُعِلَ خبرًا لإفادةِ تقويةِ المعنى واستقلالِه، والمعنى: جزاءً من ربِّك.. هو ربُّ السَّماوات والأرضِ.. وهو الرّحمنُ. وهذه القراءةُ تقطَعُ الصِّفاتِ عن التّبعيَّة، وتجعلُها جُمَلًا مُستقلّةً؛ لإبرازِ استقلالِ المَعنى وتوكيدِهِ. وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر.

الثّانيةُ: (الجَرّان) أعني خفضَ: ﴿رَّبِّ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على أنَّ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (صوب).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 593.
(3) المراغيّ، تفسير القرآن: 30/ 18.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 397، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 24، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 48.

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ نعتانِ لـ ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾. والمعنى: (ذلك الجزاءُ من ربِّك، ربِّ السَّماوات والأرض الرّحمنِ)، وهذه القراءةُ تُبْقي النّعوتَ في نسَقٍ واحدٍ مُتتابِعٍ؛ لإبراز الاتِّصال الكامل والمُتكامِلِ بينَ صفاتِ اللّه سُبحانه. وهي قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب.

الثّالثةُ: (الجرّ معَ الرّفع) أعني خفضَ ﴿رَّبِّ﴾ ورفعَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۖ﴾: فـ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة لـ ﴿رَّبِّكَ﴾، أما ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۖ﴾ فجملةٌ جديدةٌ خبرٌ لمبتدأٍ مَحذوف، ويكونُ الوقفُ على ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ تامًّا، والمعنى: (جزاءً من ربِّك، ربِّ السَّماوات والأرض... هو الرّحمنُ)، وهذه القراءة تجمَعُ بين الوصلِ والقَطع، فالوصفُ يستمرُّ في ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثمَّ يُفرَدُ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۖ﴾ بالاستقلالِ، ففيها اهتمامٌ خاصٌّ بالاسم الجليلِ؛ توكيدًا على معناهُ وتمكينًا له في النّفوس.. وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر.

علّةُ فصلِ الآياتِ عن سابقَتِها:

في ضوءِ التّوجيهِ السّابق للقراءاتِ الواردة في قولِه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ تتبيّن علّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلها وخلوّها من العاطِف، فهي إمّا في محلّ الوصفِ على قراءةِ الجرِّ، أوْ في محلّ الابتداءِ على قراءةِ الرّفع، وكلاهما موجِبانِ للفَصل، إذ الاتّحادُ التّامُّ بينَ الصّفة والموصوف لا يَنحجِبان برابطٍ لفظيٍّ بينهما، والابتداءُ يمتنِعُ معهَ العطف؛ لعلاقةِ شبهِ كمالِ الاتّصال؛ لكونها استئنافًا بيانيًّا حينئذٍ.

يـعـظـمُ ثــوابُ الـحَـسَـنـاتِ؛ لصدوره مِن ربِّ السَّماوات

سرُّ إيثارِ التّعبير بعنوانِ الرُّبوبيّة في ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الرّبوبيّةُ في قولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تشملُ الخلقَ والتّدبيرَ والإنعام، وبهذا يتقرَّرُ أنَّ مَن انفرَدَ بالرّبوبيَّة المُطلقةِ فهو

وحدَهُ المُستحِقّ للألوهيَّة، فالانتقالُ من الإقرارِ بالرّبوبيّة إلى وجوبِ توحيدِ الألوهيَّة أمرٌ لازم. وفيه مناسبةُ السّياق، فقد جاء قبلها: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، فناسَبَ أن يتكرّرَ وصفُ الرُّبوبيَّة؛ ليتناسَقَ المعنى في تقرير أنَّ الجزاء والمُلك والتَّصرُّف كلّهُ من الرَّبّ الحقِّ. وعليه فالآيةُ اختارتِ الرُّبوبيَّة؛ لأنّها أعمّ وأثبتُ في مقام الاحتجاج، ولأنَّها تُلزِمُ المُخاطبين بأنَّ الَّذي يرُبُّ العالمين هو وحدَهُ الَّذي يستحِقّ أنْ يُعبد، فجمعَ التَّعبيرُ بينَ الحُجّة والنِّعمة والتَّذكيرِ بالجَزاء[1].

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

المـالـكُ المُـطـلَـق يوجِبُ التَّصرُّفَ المُستحَقّ

الإضافةُ في قولِهِ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من باب إضافةِ المالك إلى المملوك؛ لإفادةِ الاختصاصِ والانفراد بالخلقِ والتَّدبير. وغرضُ الإضافة: الكشفُ عن عظمةِ الرُّبوبيَّة؛ إذ أُضيفَتْ إليه أعظمُ المَخلوقاتِ المرئيَّة بالعَين؛ ليُعلم أنَّ ما دونَهُما أوْلى وأحْرى.

مَعنى التَّعريف ودلالتُهُ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

ربُّ كلِّ الأشياء، مُـسـتـحِـقٌّ للعِبادةِ والثَّناء

التَّعريفُ في قولِه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بـ(أل) هو تعريفُ الجنس، ودلالتُهُ: الاستغراقُ والشُّمول، أي: جميعُ السَّماوات على مَراتبها، وجميعُ الأرضينَ وما فيها. وليس الكلامُ في: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على حذفِ مُضاف، بتقدير: (ربِّ أهلِ السَّماوات والأرض)، بل الأصلُ أنَّ قولَه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هو على الحقيقة، أي: ربّ نفْس السَّماوات والأرض وما بينهُما. إذ لو قيل: ربِّ أهلِ السَّماوات؛ لأوهمَ أنَّ ربوبية اللّه تعالى مقصورةٌ على العُقلاءِ أوِ المُكلَّفين، في حين أنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَشملُ كلَّ ما فيها من ذواتٍ ومَوجوداتٍ وأحوالٍ، فيدلُّ على إحاطةِ الرُّبوبيَّة وشُمولِها للمكانِ والمَخلوقاتِ جميعًا[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 211.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 49.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتقديمِها:

تقريرُ إحاطتِهِ ﷻ، بالكونِ كلّه عُلوًّا وسُفْلًا

في قولِهِ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جُمِعَتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لكثرتِها وتعدُّدِ طبقاتِها وتنوُّعِ عوالِمِها، فهي آفاقٌ عظيمةٌ متّسعةٌ، وأُفرِدَتِ الأرضُ؛ لأنَّها كيانٌ واحدٌ متّصل للنّاسِ على اختلافِ بقاعِها، وتقديمُ السَّماوات؛ لأنها أعلى وأعظَمُ، ولأنَّها مظهَرٌ أسبقُ لهيبةِ الخَلْقِ والقُدرة، ثمَّ تليها الأرضُ تَبَعًا لها.

بلاغةُ (ما) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ ونكتةُ عَطفِها:

الـشُّـمـولُ والعمومُ، دالّانِ على المُلْكِ التّامِّ للحيِّ القيّوم

(ما) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ موصولةٌ وهي مِن صيغِ العُموم، وقد استفيدَ من ذلك تعميمُ ربوبيّتِه على جميع المَصنوعات. والمرادُ بـ(ما بين السَّماوات والأرض): ما على الأرضَ من كائناتٍ وما في السَّماوات وعَلَيها من الملائكةِ وما لا يعلمُهُ بالتَّفصيل إلّا اللّه، وما في الجوِّ مِن المُكوِّنات حيّةً وغيرَها من سُحُب وأمطارٍ ورياحٍ ومَوجودات سابحةٍ في الهواء[1]. ونكتةُ العطف بـ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ دالّةٌ على شمولِ الرُّبوبيَّة لكلِّ ما في الفضاءِ الفَسيح بينَ السَّماواتِ والأرض من مخلوقاتٍ لا تُحصَى؛ ولئلّا يُتوهَّمَ أنَّ الرُّبوبيّةَ مقتصرةٌ على العلوِّ والسُّفل فقط دونَ الوَسَط، فالعطفُ جاءَ لزيادةِ الاستيعابِ وإظهارِ الإحاطة التّامَّةِ بجميع جهاتِ الكَون علوًّا وسُفْلًا ووَسَطًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

عطاءُ المَنّان، دالٌّ على أنّه الرّحيم الرّحمن

أتبعَ وصفَ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بذكرِ اسم من أسمائِهِ الحُسنى وهو اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وخُصَّ بالذِّكر دونَ غيرِهِ من الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يُفيضُهُ من خير على المتّقينَ في الجنّة هو عطاءُ رَحمانٍ بهم. وفي ذكر هذه الصِّفة الجليلةِ تعريضٌ بالمُشركين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 49.

إذ أنكروا اسمَ (الرّحمن) الواردَ في القرآن كما حكى اللّه عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60][1].

علَّة فصل قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ عن سابقه:

الموقفُ المَهيبُ المَقصود مُقتضٍ للخوفِ والصُّموت

يجوزُ أنْ تكونَ جملةُ قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ حالًا من المَوصول ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لأنَّ ما بينَ السَّماوات والأرضِ يشمَلُ ما في ذلك منَ المخلوقاتِ العاقِلة، أو المَزعومِ لها العقلُ مثلُ الأصنام، فيُتوهّمُ أنّ مِن تلك المخلوقات مَن يستطيعُ خطابَ اللّه ومُراجعتَه[2]. ويجوز أنْ تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا لإبطالِ مَزاعم المُشركين، أوْ للاحتراس؛ لدفع توهُّم أنَّ ما تُشعِرُ به صِلةُ ﴿رَّبِّ﴾ في قولِه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الرِّفقِ بالمَربوبينَ في تدبيرِ شُؤونِهم يُسيغ إقدامَهم على خطابِ الرَّبِّ[3]. وكلا الوجهينِ من موجباتِ الفصلِ، فالحاليّة تمنعُ الاتّصال؛ لأنّها خبرٌ في المعنى، والاستئناف الابتدائيُّ لكمالِ الانقطاعِ.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارِعِ المَنفيّ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾:

استحضارُ مَشهَدِ القيامة، تعظيمٌ للمَوقفِ ومَهابَة

المُضارِعُ المنفيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ يفيدُ استحضارَ الصّورةِ واستمرارَ النّفي، ويُفيد أنَّ العجزَ عنِ الخطاب مع اللّه تعالى ليس مقصورًا على زمنٍ، بل هو دائمٌ مستمرٌّ إلّا بإذنه وحَقّه. ومعنى ذلك أنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والتّكرار، فهم لا يملكونَ، ولنْ يَملكوا أبدًا.

توجيهُ عودِ الضَّمير في ﴿يَمۡلِكُونَ﴾:

الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ عائدٌ إلى (ما) الموصولةِ الدّالّةِ على العُموم والشُّمول في قولِه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ فتكونُ (الواو) دالّةً عليه؛ لأنَّها صادقةٌ على جميعِهِم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 49.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 9/ 93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 49.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 49.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بنفيِ المُلك بعدَ الرَّحمة:

رحمةُ اللهِ في عَليائِه مَقرونةٌ بجَلالِه وهَيبتِه

السّرُّ في إيثار نفيِ المُلك بعد ذكرِ الرَّحمة في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ تكميلٌ للمعنى، فإنّه لمّا جاء النّظمُ باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾ الّذي يفيض رحمةً ونِعْمةً، قد يتوهّمُ السّامع أنَّ هذه الرَّحمةَ تُسَوِّغ للخلقِ أنْ يَملِكوا مُخاطبتَهُ أوِ الاعتراضَ بين يدَيه تعالى، فجاءَ النّفيُ: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ لدفعِ هذا الوَهْم[1]. ففي هذا النّسَق إظهارٌ لتمام السُّلطان، والجمعُ بين الرَّحمن وبينَ نفيِ المُلك يُبرز أنَّه رحمنٌ في إنعامِه، عزيزٌ قهّارٌ في سُلطانِه، لا يملكُ أحدٌ أمامَه نُطقًا إلّا بإذنِه[2].

مَعنى (مِن) ودلالتُها في ﴿مِنۡهُ﴾:

الخطابُ للهِ الواحِد، لا يَملِكُهُ أيُّ عابِد

(مِن) في قولِه تعالى ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ تحتملُ معنيين:

الأوَّل: معنى الابتداء، و﴿مِنۡهُ﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿خِطَابٗا﴾. والمعنى: لا يملكونُ خطابًا صادرًا من جهتِه تعالى. أي: ما يقدرونُ أنْ يُخاطبوا اللّه بخطابٍ يبتدئونَهُ من أنفسِهم إلّا بإذن منه. فـ(مِن) هنا تبيّن جهةَ الخطابِ ومصدرَه: أنَّه للّه ومِن عندِه، لا مِن عندِهم.

الثّاني: معنى الابتداء، و﴿مِنۡهُ﴾ متعلّقةٌ بـ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ وهو الأرجحُ، والمعنى: (لا يَملكونَ من عندِ اللّه أيَّ خطاب. أي: اللّه لم يُعطِهم أيَّ قدرة أوْ تمليكٍ لخطابٍ يتصرّفونَ فيه. فالتّوقّفُ هنا على معنى التّمليك والمَنع، أي: لم يحصُل لهُم من عندِ اللّه خطابٌ.

الثّالث: معنى التَّبعيض معَ تقديرِ مُضاف: (مِن خطاب اللّه)، والمعنى: لا يَملكونَ خِطابًا واحدًا من جُملةِ خِطابات اللّه. أي: ما عندَهُم أيّ حصّةٍ أوْ نصيبٍ من الخطاب الّذي يُشرّعه اللّه في أمرِ الثّواب أوِ العِقاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 50.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 212، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 93.

والحاصلُ أنّهم: لا يَبتدئونَ خطابًا من عندِ أنفسِهم، وهو الوجهُ الأوَّل، أو: لا يملكونَ من اللّه أيَّ خطابٍ أصلًا. وهو الوجهُ الثّاني الأظهر. أوْ: لا نَصيبَ لهم من خطاباتِ اللّه. وهو الوجهُ الثّالثُ(1).

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿مِنۡهُ﴾ على المفعولِ به ﴿خِطَابٗا﴾:

انحصارُ الخِطاب، بمَن بيدِهِ الأمرُ والأسباب

تقديمُ ﴿مِنۡهُ﴾ على ﴿خِطَابٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ يُفيدُ الاختصاصَ، أي: لا يَملكونَ خِطابًا كائنًا من جهتِه بالذّات وحدَهُ لا من غيرِه، وفيه زيادةُ عنايةٍ بالمَقام؛ لأنَّ الحديثَ عن الموقف بين يدَي الجَبّار، فالمهمُّ أوّلًا التّنبيهُ على الجهةِ قبلَ بيانِ نوعِ المَملوك وهو الخطاب. كما أنّ تقديمَ شبهِ الجملةِ يُقوّي النّفيَ بإفادةِ الحَصْر، كأنَّه قيل: لا يملكونَ خِطابًا من جهتِه هو، وإنْ مَلَكوا خطابًا فيما بينَهُم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿خِطَابٗا﴾:

النّكرةُ في سياق النّفي للعُموم، حتى يتحقّقَ الأمرُ المعلوم

نكّر النّظمُ الكريمُ ﴿خِطَابٗا﴾ في قولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾؛ للدّلالةِ على استغراقِ النّفي للخطابِ كلّه؛ إذ التّنكيرُ يفيد هنا العمومَ المُفيدَ للاستغراق، أي: لا يملكونَ ولو أدنى الخطابِ وأيسرَهُ أوْ خِطابًا واحدًا، و﴿خِطَابٗا﴾ نكرةٌ في سياقِ النّفي فتعُمُّ، وهي من العامِّ المخصوص بمخصِّص منفصِل؛ وهو قولُه عقبَ هذه الآية: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾(2).

علّةُ الفصلِ في ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ عن سابقِهِ:

تقريرُ عدمِ الكَلام، عندَ الحَشْرِ والقيام

فُصِلت جملةُ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾؛ لأنَّها إمّا ظرفيّةٌ أوْ مُستأنفةٌ لتقريرِ مَضمونِ ما قبلها(3)، وكِلا الوجهينِ من دَواعي الفَصل، والمعنى على وجهِ الظّرفيَّة: لا يَملكونَ منهُ خطابًا في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 220.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 212، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 50.

(3) القنَّوجيّ، فتح البيان: 15/ 44.

وقتٍ مَخصوص، وهو يومَ يقومُ الرّوحُ والملائكةُ مُصطَفّين. فالحاليّةُ تقيّدُ عدمَ ملكيّة الخطابِ بزمانٍ مخصوصٍ وهيئةٍ مَخصوصة.

وأمّا وجه الاستئنافيّةِ التّقريريّة فكأنَّها جملة جديدةٌ لبيان سببِ انتفاءِ الخِطاب ووجهِ شِدّته: لأنَّ ذلك اليوم يومُ هَوْلٍ واصطفاف ملائكيٍّ عظيم، لا يتجرّأ فيه أحدٌ على مخاطبةِ الله، فالقولُ بأنّها مستأنفةٌ تقريريّةٌ يجعلُها بمنزلة التّعليلِ والبَيان لهَيبة اليوم الَّتي تمنَعُ الخِطاب، فالاستئنافُ هنا بقولِه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ يشرحُ ويقرّر سببَ منعِ الخِطاب؛ فالفصلُ لكمالِ الانقطاع.

معنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

المحـــشــوراتُ ساكِتةٌ لعظمةِ يومِ الواقِعة

التّعريفُ في ﴿ٱلرُّوحُ﴾ إمّا للعَهد، أي: مخلوقٌ معروفٌ كجبريل أوِ الملَك الموكّل بالأرواح. وذِكرُهُ قبلَ الملائكة لتشريفِ قدرهِ وتعظيمِ شأنِهِ؛ وإمّا للجنس، إذا أُريدَ أرواحُ بني آدمَ، ومعنى الجنس يَستوي فيه الإفرادُ والجمعُ، أي: يوم تُحضَرُ الأرواحُ لتُردّ إلى أجسادِها[1].

دلالةُ ﴿يَقُومُ﴾ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ:

الاصــطــفــافُ والقيام، خشيةٌ للمَلِك العلّام

القيامُ يرادُ به حقيقةً النّهوضُ منَ القعودِ أوِ التّلبّسُ بفعلِ القيام؛ فإذا كان المرادُ بالرّوح أرواحَ بني آدمَ فحضورُها للبَعْث والرُّجوع إلى الأجسادِ يسمَّى قيامًا على الحَقيقة؛ لأنها نهضَتْ من حال الخفاء والغيبةِ إلى الحضورِ والمواجَهة. كما يُستعمَلُ القيامُ مَجازًا في معنى الاصطفافِ والانضِباط، ومنهُ يقالُ: (قامَ القومُ صَفًّا)، أي اصطَفّوا وانتَظَموا، لا بمعنى نَهَضوا من جلوسٍ؛ فإذا كان المرادُ بـ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أنّه خاصٌّ وعامٌّ (جبريل وسائرُ الملائكة) فقيامُهُم ليس نهضةً بعدَ جلوسٍ، وإنَّما هو اصطفاف وهيئةُ نظامٍ، فهو قيام مجازيّ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 25، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 213، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 51.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 52.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالقيامِ دونَ الوُقوفِ:

التّعبيرُ بـ(القيام) في قولِهِ تعالى ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ أبلغُ من الوُقوف؛ لأنَّ الوقوفَ قد يكونُ سكونًا بلا هَيئة وسَمْت، أمّا القيامُ ففيه معنى الاستعدادِ والتّهيُّؤِ والجِدّ، وهو أدلُّ على الخُضوع والانضباط من مجرَّدِ الوُقوف، ولهذا يُقالُ: (قامَ القومُ صفًّا) إشارةً إلى شدّة الأمرِ الَّذي قاموا له صُفوفًا(1).

الانضباطُ والاستعداد لهَيبةِ الحِساب

دلالةُ إيرادِ الفعلِ المضارع ﴿يَقُومُ﴾:

إيرادُ الفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَقُومُ﴾ أفادَ استحضارَ صورةِ المَشهَد المستقبليّ كأنَّه حاضرٌ يُرى، فيزدادُ تأثيرُهُ وهيبتُه؛ وللإشارة إلى أنَّ القيام يكون مُتجدّدًا مُستمرًّا في طولِهِ؛ لأنَّ الصفوفَ تمتدُّ وتنتظِمُ ولا تَنقضي دفعةً واحدةً.

استحضارُ المشهَد، تخويفٌ للمهدَّد

بلاغةُ الإطناب في ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

لم يقتصِرِ السّياقُ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على ذكرِ الملائكة مع أنَّهم يَشتملون على الرّوحِ كذلك، بل أفرَدَ ﴿ٱلرُّوحُ﴾ قبلَهم، وهذا من الإطنابِ البليغِ لإظهارِ عِظَم شأنِ الرّوح: سواءٌ أُريدَ به جبريلُ أوْ مخلوقٌ عظيمٌ أو جنسُ الأرواح، فذكره مُستقلًّا يُبرزُ مكانتَهُ الخاصَّة. ومن فوائدِ الإطناب في هذا السّياق تأكيدُ شموليَّةِ المَشهد، بذكر الأعلى والأعظَم ﴿ٱلرُّوحُ﴾ ثمَّ الأعمّ (الملائكةُ) جميعًا، فيشمل كلَّ قوّةٍ علويَّة. وفي الإطناب هنا زيادةٌ في المهابةِ من خلال أثَرِ وقعِ الصّورة في النّفس، إذ يشعرُ السّامعُ أنَّ الأمر جلَلٌ حتّى خُصَّ الرّوح بالذِّكر ثمَّ جاءَتِ الملائكةُ بعدَهُ(2).

تعظيمُ المَذكور، تفخيمٌ لشأنِ الحُضور

نكتةُ التَّعبيرِ بالمَصدَر ﴿صَفّٗاۖ﴾:

التّعبيرُ بالمصدرِ ﴿صَفّٗاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ

هيئةُ الاصطفاف سمةٌ ثابتةٌ لا حالٌ طارئة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 213.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 51.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ دونَ (مُصطفّين أوْ صافّين)؛ لكونِهِ أبلغَ في إفادةِ الثّباتِ والدَّوام؛ فالمصدرُ يدلُّ على الهيئةِ نفسِها، وكأنَّهم قد تجسَّدوا صَفًّا مَحْضًا، لا مُجرّدَ فاعلينَ للصَّفِّ؛ ففي المصدريَّة تصويرٌ وتجسيم، كأنك ترى الصّفَّ بأمّ عينِك، لا مجرّدَ فعلِ الاصطفاف. وفيه دلالةٌ صريحةٌ على المبالغةِ في الانضباط، لأنّ استعمالَ المصدرِ بدلَ الوَصْفِ يُصوِّرُهُم في غايةِ الانتظام، حتّى صار الاصطفافُ سِمتَهم الثّابتةَ لا حالًا طارئةً[1].

علّةُ فصلِ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ عن سابِقِهِ:

عـدمُ تـكـلّـمِ القـائـمـين إلّا بإذنِ ربِّ العالَمين

جملةُ قولِهِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ حالٌ من ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أوِ استئنافٌ مقرّرٌ لمضمونِ قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ ومؤكِّد له، على معنى أنَّ أهلَ السَّماوات والأرض إذا لم يَقدروا حينئذٍ أنْ يتكلَّموا بشيءٍ من جنسِ الكلام إلّا مَن أذِنَ اللّه تعالى لهُ منهُم في التَّكلُّم مُطلقًا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ المَنفيّ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾:

الـصَّـمـتُ المُتـواصِل، مِن جَـلالـةِ المَـوقِـفِ الحاصِل

التَّعبيرُ بالمُضارعِ المنفيِّ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ يفيدُ استحضارَ صورةِ الموقِف، إذ صيغةُ المضارع تُصوّرُ المشهد كأنَّه حاضرٌ يُرى، فيتخيّلُهُ السّامعُ واقعًا أمامَهُ، مع إفادةِ الدَّوام والاستمرار كذلك، فالنَّفيُ بالمضارعِ لا يقتصِرُ على لحظةٍ مُعيَّنة، بل يدلُّ على أنَّهم في ذلك الموقفِ العَظيم مُستمِرّونَ في العَجْزِ عن الكلام. كما أنّه في المضارعةِ توكيدٌ للرَّهبة، كأنَّ الصَّمتَ مُطبقٌ لا يُكسَر، فلا مَجالَ لكلمةٍ إلّا بإذنٍ خاصٍّ من اللّه تعالى[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 51.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 220، وصافي، الجدول: 15/ 223.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 213.

بلاغةُ (الاحتراسِ) في ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾:

كلُّ طريقٍ إلى القولِ، مَسدودٌ إلّا بإذنِ المَلِكِ المَعبود

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هو من قبيلِ الاحتراسِ التَّوضيحيِّ، إذ قد يُتوهَّم أن نفيَ المِلكيّةِ للخِطاب لا يمنَعُ أنْ يتكلّموا من تلقاءِ أنفسِهم دونَ إذنٍ، فجاءَ قولُهُ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لرفعِ هذا الاحتمالِ وقطعِ كلِّ توهُّم، فالنّفيُ هنا أشدّ وأحكمُ؛ فالأوّلُ نفى أنْ تكونَ لهم أدنى قُدرةٍ أوْ سُلطانٍ على ابتداءِ الخِطاب، والثّاني: نفى وقوعَ الكلامِ منهم أصلًا إلّا بشَرْطِ الإذنِ والقَوْلِ الصَّواب[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاستثناءِ المُفرَّغ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾:

انحصارُ الكَلامِ بِمَن أذِنَ لهُ الرَّحمن

الاستثناءُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ هو استثناءٌ مفرّغٌ من أعمّ الأحوال، أي: لا يتكلّمون في أيِّ حالٍ من الأحوال إلّا حالَ مَن أذِنَ لهُ الرَّحمن. وهذا الأسلوبُ أبلَغُ في شُمولِ النّفي؛ لأنّه لم يُقيّدِ النَّفيَ بجنسٍ أوْ نوعٍ مُعيّن، بل عمَّ كلَّ الأحوال، فجعلَ الاستثناءَ المنفَذَ الوَحيد.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمَوصولِ وصلتِهِ:

لا يُسمَع في ساحةِ القيامةِ جَواب، إلّا مَن شرّفَهُ الرَّحمنُ بكلامٍ صَواب

التَّعبيرُ بالموصولِ وصلتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إبهامٌ ثمَّ إيضاحٌ! فالتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿مَنْ﴾ فيهِ إبهامٌ؛ مَن ذا الَّذي يتكلّم؟ ثمَّ تأتي الصِّلةُ توضّحُهُ: هو الَّذي أذِنَ له الرَّحمن. وهذا الأسلوبُ يُثيرُ الانتباهَ ويُعظّمُ شأنَ المَوصوف؛ كما أنّ وصلَ الموصولِ بالفعلِ ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيه إبرازٌ للعلَّة، فيبيّنُ أنَّ العلّةَ الوحيدةَ المُبيحة للكلام هي إذنُ الرَّحمن، فلا استقلالَ للعبدِ بقدرةٍ ولا بجُرأة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 51.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ(الإذن) دونَ الأمرِ:

رفعُ منعِ الكلام، دالٌّ على أنَّ الصّمتَ هو الأنسَبُ بالمقَام

إيثارُ التَّعبيرِ بـ(الإذن) دونَ (الأمرِ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ﴾؛ لأنّه أمكنُ في النّظم وأسدُّ في تقرير المقصود، فـ(الأمرُ) يُشعِرُ بالتَّكليفِ والإلزام، أمّا (الإذن) فيُشعِرُ بالمنعِ الأصليِّ مع فتح نافذةٍ ضيّقة للتَّرخُّص، ولمّا كان المقامُ مقامَ هَيبة وصمتٍ شاملٍ، فالأنسبُ أنْ يُقال: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي رُفِعَ عنهُ المنع، لا أنْ يُقال: إلا مَن أمرَهُ الرَّحمنُ بالكلام. بهذا يتقرّر أنَّ الأصل هو الصَّمتُ المُطلَق، وأنَّ الكلام استثناءٌ نادرٌ لا يقَعُ إلّا برُخصةٍ خاصّةٍ منَ الرّحمن[1].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَهُ﴾:

لا يُمنَحُ إذنُ الكَلام، إلّا لِمَن اصطفاهُ المَلِكُ العلّام

(اللّامُ) في قولِهِ: ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ للتَّمليك أوِ الاختصاص: أي إنَّ الإذنَ مُختصٌّ به وحدَهُ، فلا يُشاركُهُ فيه غيرُهُ، فتفيدُ أيضًا التَّشريف، فكأنَّ الإذنَ وُضِعَ في يدِهِ وصارَ لهُ خاصّةً، فهي لامُ الامتيازِ والاختصاصِ. ولذا كان تقديمُ ﴿لَهُ﴾ على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دالًّا على الاهتمام بالمَأذونِ له، فقُدِّم شبهُ الجُملة لإبرازِ أنَّ مناطَ الكلام هو المأذونُ لهُ لا مُجرّدُ صدورِ الإذن، وللاختصاصِ والتّشريف، كأنَّ المعنى: ليسَ كلُّ أحدٍ يُؤذَن له، بل الإذنُ خاصٌّ بمخصوصٍ لهُ وحدَهُ، وفيهِ تقويةُ الحَصْر، إذِ التَّقديمُ يُشعِرُ بأنَّ الإذنَ إنَّما يكونُ لصالحِهِ دونَ غيرِهِ، فيزدادُ المعنى حَصرًا وتَوكيدًا.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق (الإذن):

مُتعلِّقُ الإذنِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ محذوفٌ؛ لدلالةِ النّظمِ عليهِ في قولِهِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: مَن أذنَ لهُ في الكلامِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 52.

سرُّ إيثارِ تكرارِ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

مَشاهِدُ يومِ القيامةِ، مَحكومةٌ بصفةِ الرَّحمةِ المُستدامَة

إظهارُ لفظِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في موقِعِ الإضمارِ من قولِه: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَناط الإذن هو الرَّحمةُ البالغة، لا أنّ أحدًا يَستحِقّهُ عليه ﷻ، كما أنَّ ذكرَهُ في المَوضِعِ الأوّل؛ للإشارة إلى أنَّ الرَّحمةَ مناطُ تَربيتِهِ ﷻ[1]. وتكرارُ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لإفهام أنّ كلَّ ما يجري من منعِ الكلام أوْ إعطائِه، ومن صمتٍ أوْ إذن، إنَّما هو عن رَحمةٍ وعدلٍ، وحِكمةٍ بالغة، لا عن قَهْرٍ مَحْضٍ وعُقوبةٍ مُطلقة، وفيه إظهارُ اللّطف في مَوضِعِ الهَيبة، فذِكرُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يُلطِّفُ من هَوْلِ المَوقفِ، ويُطمئنُ أولياءَ اللّه أنَّ وراء هذه الهيبةِ رحمةً مخصوصةً بهِم.

نكتةُ عطفِ ﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾ على ما قبلَهُ:

لا يُسمَحُ إلّا بالقولِ الصّائب، المَبنيِّ على النَّظَرِ الثاقِب

عطفُ النَّظم قولَه: ﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾ بعدَ الإذنِ في قولِهِ: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دالٌّ على الزّيادةِ في تقييدِ المَأذونِ به، فلم يكتفِ بأنْ يكونَ هناك إذنٌ، بل قُيِّد أيضًا بأنْ يكونَ القولُ صَوابًا، حتَّى لا يَظنّ ظانٌّ أنّ الإذنَ مطلَقٌ في المُحاباةِ والرُّخصة، فحتّى معَ الإذنِ لا مَجالَ للغَلَط أوِ الزَّلل؛ إذ لا يُقالُ إلّا ما هو مطابقٌ للحقِّ والعَدل، ولا يخفَى ما فيهِ من المُبالغة في نفيِ الكلامِ الباطِل، فكأنَّ الآيةَ تقرِّرُ أنَّ ما عدا الصَّوابَ باطلٌ مردودٌ، فلا يُسمَعُ في ساحةِ القيامة إلّا الحقُّ الخالصُ، وفيه تخصيصٌ للعُموم المفهوم منَ الكلام في قولِهِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾؛ فالكلام قد يكون فارغًا أوْ باطلًا، أمّا القول الصّوابُ فهو أخصّ، فجيءَ به ليدلَّ على غاية الانضباطِ والعَدْل.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في ﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾:

القولُ الصَّواب، مِعيارُ الكلامِ والجَواب

الأصل في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾: (قالَ قولًا صَوابًا) أوْ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.

(قالَ كلامًا صَوابًا)، فحُذِفَ المفعولُ أوِ المصدرُ وأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه[1]. ووجهُ البلاغةِ في هذا الحذفِ اختصارُ اللَّفظ لوضوح المَعنى، مع إرادةِ التَّركيزِ على الصِّفة ﴿صَوَابًا﴾، وبحذفِ الموصوف برزَتِ الصّفةُ نفسُها وكأنّها هي المقصودةُ بالذّات، لا القولُ من حيثُ هو؛ كأنَّه يقولُ: ليس المهمُّ مجرّدَ القول، بل إنَّ العبرةَ أنْ يكونَ صوابًا، فهو المحورُ الَّذي يدور عليه المَعنى والقصدُ، فهذا الحذفُ يجعَلُ السّامعَ يلتفتُ إلى معيارِ القَبول، وهو الصَّوابُ دونَ التفاتٍ إلى جنسِ القَول.

نكتةُ تنكيرِ ﴿صَوَابًا﴾:

القولُ الخالِصُ مِـن كـلِّ زلَـلٍ، هو المقبولُ يومَ الفَصْل

التَّنكيرُ في ﴿صَوَابًا﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يفيدُ التّعظيمَ والتّهويلَ والتّفخيم، أي: صوابًا عظيمًا لا يَشوبُهُ خطأٌ، ولا يحتمِلُ باطِلًا، بل هو الصَّوابُ المُطلَقُ الخالِص، وفيه إشعارٌ بأنَّ ما يُؤذَنُ به في ذلك المَوقفِ لا يكونُ إلّا قولًا جامِعًا لكلِّ معنًى صَحيح، خاليًا من كلِّ باطِلٍ وزَيغ، وهذا أبلغُ في بيان عظمةِ المَوقفِ وصرامةِ المِعيار، إذ لا يُقبلُ إلّا القولُ الصّائبُ المَحضُ.

علَّةُ فصلِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ عن سابقِهِ:

يقينُ الحقائقِ الإلهيَّة لا يحتاجُ إلى وصْـلٍ، بل يـفـرِضُ نفسَه بـالـتَّـوكـيـدِ المُستقِلّ

جملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ مؤكّدةٌ لما سبقَ ذكرُهُ من أهوالِ يوم القيامة وهيبتِه، فالمقامُ مقامُ تقريرٍ وتثبيتٍ، ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ، إذ التَّوكيدُ مِن موجباتِ الفَصل. ووجهُ التّوكيد: أنّ ما سلفَ في السّياق كان وصفًا لأحوالِ القيامة: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾، فجاءتْ جملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾؛ لتقرّرَ وتؤكِّدَ أنَّ ذلك اليومَ الموصوفَ ليسَ وهْمًا ولا مَجازًا، بل هو اليومُ الحقُّ الثّابتُ الَّذي لا مِريةَ فيه، وكأنَّ الآيةَ دفعتْ ما قد يختلِجُ في النّفوس من شكٍّ أوْ

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 30/ 32.

إنكارٍ لِعِظَم ما سُرِدَ من الأهوال، فأكَّدتْ استقلالًا: هو اليومُ الحقُّ حقيقةً لا ريبَ فيها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تعدُّدُ الأوصافِ المَذكورة الفَخمَة، سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدالِّ على العَظمَة

الإشارةُ للبعيد في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ مع قربِ ذكرِهِ في السّياق؛ للإيذانِ بعلوّ درجتِهِ وبُعْدِ منزلتِهِ في الهَوْلِ والفَخامة[2]. وللتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بما سيوصفُ به بسببِ ما سبقَ من حكايةِ شُؤونِه، ونظيرُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة: 5] بعدَ قولِه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 2 - 3] إلى قولِه: ﴿وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: 4] فلأجل جميع ما وُصِفَ به يوم الفصل كانَ حقيقًا بأنْ يُشارَ إليهِ لشدّةِ حُضورِهِ باسمِ الإشارة[3].

مَعنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلْيَوْمُ﴾:

اليومُ الجديرُ بالاهتمام، هو يومُ الفصْلِ بينَ الأنام

تعريفُ ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ للعَهْدِ الذِّكريِّ، فقد سبقَ ذكرُهُ في السّياقِ القريبِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾، ويحتملُ أنَّ (أل) للجنسِ الدّالِّ على الكَمال، وكأنَّه هو اليومُ الحقيقيُّ دون سائرِ الأيّام[4].

دلالةُ وصفِ ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

الوصفُ بالمصدَر، لعَظمةِ يومِ المَحشَر

وصفُ اليوم بالحقِّ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ يجوزُ أنْ يرادَ به الثّابتُ الواقعُ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذّاريات: 6] وقولِهِ آنفًا: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾، فيكونُ الحقُّ بمعنى: الثّابِت، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: 97]. ويجوزُ أنْ يرادَ بالحقِّ: ما قابَلَ الباطلَ، أي: العدلُ وفصلُ القَضاء، فيكون

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 214، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 54.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 54.

وصفُ اليوم به على وجهِ المَجازِ العقليِّ؛ إذ الحقُّ يقَعُ فيهِ، و(اليوم) ظرفٌ لهُ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 3]. ويجوزُ أنْ يكونَ الحقُّ بمعنى: الحقيق بمُسمَّى اليوم؛ لأنَّه شاع إطلاقُ اسم (اليوم) على اليوم الَّذي يكون فيه نصرُ قبيلةٍ على أُخرى، مثلُ: (يوم حليمةَ، ويوم بُعاث)، والمعنى: ذلك اليومُ الَّذي يستحِقُّ أنْ يقال له: يومٌ؛ لأنَّ فيه تُبلى السَّرائر، وتنكشفُ الضَّمائر، وأمّا أيّامُ الدّنيا فأحوالُ الخلق فيها مكتومةٌ، والأحوال فيها غيرُ مَعلومةٍ[1].

توجيهُ المجازِ العقليِّ في وصفِ اليومِ بـ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾:

من كمالِ العدلِ المُحقَّق، اتّصفَ اليومُ نفسُهُ بالحقّ

وصفُ ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ بالحقِّ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ على معنى أنّ الحقَّ ما قابلَ الباطِلَ، فالباطلُ في بابِ القَضاء هو الحكمُ الجائِر، والحقُّ في مُقابِلِهِ هو العدلُ التّامّ والفصلُ بين الخصوم بإنصافٍ وحكمةٍ، ووصفُ اليوم بالحقّ على هذا المَعنى من بابِ (المجازِ العقليّ)[2]؛ لأنّ ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ بمعنى العدْلِ وفصلِ القضاءِ هو صفةٌ للأفعالِ والأحكامِ الَّتي تقَعُ في ذلك اليوم، لا لليوم بوصفِهِ زَمنًا؛ فلمّا أُسنِدَ وصفُ ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ إلى ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ كان هذا من المجازِ العقليّ، أي إسنادُ الوصفِ إلى غيرِ ما هو له حَقيقةً، لأنَّ الحقَّ ثابتٌ للأحكام والقضاء الَّذي يَجري في اليوم، لا لليوم نفسِهِ، لكنْ لمّا كان اليومُ ظرفًا لوقوعِ ذلك الحقِّ، جُعِلَ كأنَّه هو الموصوفُ به. ونظيرُ ذلك قولُهُم: (يومٌ صائم) أوْ (ليلٌ نائم)، فالصّفةُ في الحقيقةِ لصاحبِ اليوم أوِ اللَّيل، لكن أُضيفَتْ إلى الظّرفِ نفسِهِ على سبيلِ المَجاز.

بلاغةُ القصرِ بتعريفِ الطَّرفين:

انحصارُ اليوم بالمُشارِ إليه، دالٌّ على جلالةٍ عليه

اشتملَ قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ على قصرٍ إضافيٍّ بطريق تعريفِ الطَّرفين: المبتدأُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ معرفةٌ باسم الإشارةِ واليومُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 54.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 53.

بدلٌ منه، والخبرُ: ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ معرفةٌ بـ(أل). فإذا اجتمعَ تعريفُ الطّرفينِ كانتْ فيه دلالةٌ على حصرِ الخبرِ في المبتدأ، أي: لا يومَ هو الحقُّ على الحقيقة إلّا ذلك اليوم، وإنْ كانَ في الدُّنيا أيّامٌ يُقضَى فيها بالعدلِ أوْ يظهَرُ فيها بعضُ الحقِّ، لكنْ لا يبلُغُ شيءٌ منها أنْ يوصَفَ بأنَّه ﴿ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ على وجهِ الانفرادِ والكَمال. فالقصرُ هنا يفيدُ أوّلًا التَّوكيدَ على أنَّ يومَ القيامة وحدَهُ هو يومُ الحقِّ التّامّ، وثانيًا نفيَ المُشاركةِ عن غيرِهِ من سائرِ الأيّام[1].

معنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَمَن شَآءَ﴾:

جملةُ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ تفريعيّةٌ لَمدخولها على ما سبقَها، وهي الفصيحةُ؛ لإفصاحِها عن شرطٍ مقدّرٍ ناشئٍ عن الكلام السّابق، والتَّقدير: فإذا علمتُم ذلك كلّهُ فمَن شاءَ اتخاذَ مآبٍ عندَ ربِّه فليتّخِذْهُ، أي: فقد بانَ لكم ما في ذلك اليوم مِن خيرٍ وشرٍّ فليَختَرْ صاحبُ المشيئةِ ما يَليق بهِ للمصيرِ في ذلك اليوم، والتّقديرُ: مآبًا فيه، أي: في اليوم، وهذا التَّفريعُ من أبدعِ الموعظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ عندَما تسنَحُ الفرصةُ للواعِظِ مِن تهيّؤِ النّفوس لقَبولِ المَوعِظة[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

التَّعبيرُ بالشَّرط في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فيه إظهارُ حريّةِ الاختيارِ معَ التّنبيهِ إلى المَسؤوليَّةِ الفرديَّة؛ فمن جهةِ حريّةِ الاختيار وضْعُ الشّرط بـ(من شاء) يصرّحُ بأنَّ الفعل راجعٌ إلى مَشيئةِ العَبد، لا إلى قهرٍ أوْ إجبار، والمشيئةُ هنا شرطٌ سابقٌ، فلا يتحقّقُ الجزاءُ إلا بتحقُّقِها. ومن جهة المسؤوليّةِ الفرديَّة فالشّرطُ يُفهَم منه أنّ كلّ إنسانٍ مُعلّقٌ عملُه وسعيُه بمشيئتِه، فلا

طريقُ النّجاة مُيسّرٌ لأهلِ الثّبات

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 26.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 54.

ينوبُ عنهُ غيرُهُ، ولا يسقطُ عنهُ هذا الاختيار، والصّياغةُ الشَّرطيَّةُ تقطَعُ الأعذار؛ إنْ شئتَ اتَّخذتَ المآبَ، وإنْ لم تشأ فأنتَ الَّذي أعرضتَ، كما أنّ في أسلوبِ الشَّرط هنا تشويقٌ وتحفيزٌ للمتلقّي، باعتبار أنّ الشَّرطيّة دائمًا تجعلُ الجواب مُتوقِّفًا على تحقُّقِ الشَّرط، فكأنَّ القرآن يقولُ للسّامع: الطّريقُ مُهيَّأ، فما عليكَ إلّا أنْ تشاءَ، فتَتّخِذَ السَّبيل، وهذا الأسلوبُ يثيرُ في السّامع شُعورَ المُبادرة.

نكتةُ حذفِ مفعولِ المَشيئةِ:

الحذفُ يوسّعُ الدّلالة، ويجعلُ الخِطاب أوقعَ في النَّفسِ الطَّمّاحة

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ في قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾؛ للتَّعميمِ والإطلاق، فلم يُذكرْ مُتعلّقَ المَشيئة، ولم يقل: (مَن شاء الإيمانَ أوْ من شاءَ النَّجّاة)، ليُفهِمَ أنَّ الباب مفتوحٌ لكلّ ما يقتضيهِ اتِّخاذُ المآب: إيمانًا، وعمَلًا صالحًا، ورجوعًا إلى الله، وفي الحذفِ إيجازٌ بليغ؛ لأنَّ الغرض ليس تعيينَ المشيئةِ في شيءٍ مَخصوص، بل بيانُ أنَّ كلَّ ما يريدُهُ العبد من الخيرِ لَن ينفعَهُ إلّا إذا اتَّخذَ إلى ربِّه مآبًا، وتركُ المفعول بلا ذكرٍ يدعو السّامعَ ليَملأهُ بنفسه: مَنْ شاء ماذا؟ فيقودهُ ذهنُهُ إلى الجوابِ الحقّ: (مَن شاءَ اتِّخاذَ المآب). وعلّةُ الحذفِ الأصيلة الإشعارُ بالاستغناءِ عن البيان، كأنَّ المقامَ من الوضوح بحيثُ لا يحتاجُ إلى تقييدٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ في ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

الرّجوعُ إلى الله محمودٌ وعمَلٌ مَقصود

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ عبّر بفعلِ (الاتّخاذ) ماضيًا دونَ فعلِ (الأخذِ)؛ لأنَّ الأصلَ في (الأخذ): تحصيلُ الشّيءِ وحيازتُهُ بالتَّناوُلِ أوْ بالقَهر[2]. لكنَّ (الاتّخاذَ) أبلغُ من مجرَّدِ الأخذ، لأنَّه: أخذٌ عن قصدٍ وتمكّن، وجعلُ الشّيءِ مِلكًا لك أوْ مَوضِعًا لك، و(التّاءُ) في﴿ٱتَّخَذَ﴾ استُعيرتْ من (تاء المُطاوعة)

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 94.

(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

لتدُلَّ على معنى المُبالغةِ والتَّمكّن في الأخذ، ثمَّ استقرّتِ الكلمة بهذا المعنى وصارَتْ كأنَّها أصليَّة. فهي ليستْ للمُطاوعةِ حقيقةً كما هي في (جمعتُه فاجتَمَعَ)، بل هي لإفادة التَّمكّنِ والاكتساب مَعَ قصدٍ وإرادة، فأشبهَتِ المطاوعةَ من حيثُ التَّمكُّنُ والثُّبوت، لا من حيثُ وجودُ فعلٍ قبلَه. إذن الاتّخاذُ يُشبِهُ المطاوعةَ في كونه يدلُّ على ثبوتِ الشّيءِ وتمكُّنِه. فمعنى الاتّخاذ ليس مجرّدَ أنْ يرجع أوْ يسلِكَ سَبيلًا، بل أنْ يختار هذا الطَّريق عن وعي وإرادةٍ، وأنْ يجعلَهُ له مَقامًا مُدَّخَرًا له عندَ اللّه تعالى بالعمَلِ الصّالح والإيمان. وكأنَّ هذا المآب ليس مجرّدَ طريقٍ سالك، بل مقامٌ ينالُهُ العبد بجَهدِه[1].

مَعنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

أساسُ العمَل النّيَّة، وعُنوان القَبولِ صَفاء الطَّويَّة

في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، جاءتْ ﴿إِلَىٰ﴾ الجارّة؛ للدّلالةِ على انتهاءِ الغاية؛ أي إنّ المآبَ والرّجوعَ لا ينتهي إلّا عندَ اللّه، فـ﴿إِلَىٰ﴾ تُصوِّر أنّ الطّريقَ المُستقيم كلّه تنصَبّ غايتُهُ على اللّه، لا على غيرِه، وفي حرف الانتهاءِ هنا إشعارٌ بالقُربِ والوِصال، فـ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ ليس بمَعنى الوصول فحسب، بل فيه استشعارُ العودةِ إلى المالكِ الحقِّ، وكأنَّ العبدَ مُسافِرٌ عائدٌ إلى أصلِه ومالكِه، وفي التَّعديةِ بحرفِ الانتهاءِ تخصيصٌ للجِهة، فلم يقُل: (اتَّخذ مآبًا) مُطلقًا، بل قيّدَهُ بـ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ ليقطَعَ أيَّ توهُّم بأنَّ المآبَ يكونُ إلى أحدٍ سِواهُ سُبحانه، فهو حصرٌ للهداية والرُّجوعِ في ربِّ العالَمين.

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوانِ الرُّبوبيَّة:

كلُّ عبدٍ مأواهُ إلى ربِّه، الّذي ربّاهُ وأنعَمَ علَيه

في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ لم يقُل: (إلى إلهه) أوْ (إلى اللّه)، بل قالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، وهذا الاختيارُ له سرٌّ بليغٌ، وهو الإشعارُ بالمُلك والتّربية، فالرّبُّ هو المالكُ المُدبِّرُ المُربّي، وهذا أنسبُ بمقامِ الرُّجوع والمآب؛ لأنَّ مَن يَرجِعُ إنَّما يرجِعُ إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

مالكِهِ الَّذي تولَّى شأنَهُ منذُ البداية، فالعودةُ هنا ليستْ إلى سُلطةٍ قاهرةٍ فحسبُ، بل إلى حُضن المالكِ المربّي الَّذي لا ملجأ منهُ إلّا إليه. وفيه بالنِّسبة إلى العبد (المَربوب) إبرازُ اللُّطف والرِّعاية له، فالألوهيّةُ تُذكّر بمقام العِبادة والتَّعبُّد، في حينِ أنّ الرّبوبيَّةَ تذكّرُ بالرَّحمة والتّدبيرِ والإنعام. والآيةُ تُخاطِبُ النّفسَ لترغيبها في العَودة، لا لترهيبِها بالعبادةِ وحدَها، ومن جهةٍ أخرى فيه إلزامُ العبدِ بالحقيقة؛ إذ إيثارُ ﴿رَبِّهِۦ﴾ يقطَعُ الحُجّة، لأنّه يذكّرُ الإنسانَ بأنّ الله هو ربُّهُ الَّذي لا ربَّ له غيرُهُ، وإذا كان ذلك كذلك فهو مُلزَمٌ بالعودةِ إليه شاءَ أم أبى[1].

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في ﴿رَبِّهِۦ﴾:

رجوعُ العبدِ إلى ربِّه رجوعٌ إلى مالِكِه

الإضافةُ في ﴿رَبِّهِۦ﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ إضافةُ تشريفٍ وتلطُّفٍ وتحنّنٍ وتخصيصٍ؛ لأنَّها إضافةُ خالقٍ ومالكٍ إلى مَخلوقٍ ومَملوكٍ، فتدلُّ على الاختصاصِ المُطلق لله تعالى بخلقِ العبدِ وتربيتِهِ وتدبيرِهِ. وفائدتُها تقريبُ المعنى للنّفس، فحينَ يسمَعُ العبدُ ﴿رَبِّهِۦ﴾ يشعُرُ بالقُربِ والاختصاص بخلافِ (ربّ النّاس) الدّالّ على العُموم فقط، بل ربُّهُ هو شخصيًّا، ويستشعِرُ حينئذٍ بإلزام توبتِهِ وأَوْبَتِهِ، فيَتذكّر أنّه مَربوبٌ مُربًّى لا يملِكُ لنفسِهِ خَلاصًا إلّا بالرُّجوعِ إلى مالكِهِ الحقِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

صلاحُ المَآب لا يكونُ إلّا بالرُّجوعِ والإياب

أصلُ التّرتيبِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أنْ يقال: (اتّخذَ مآبًا إلى ربّهِ)، لكنْ قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على المفعولِ به ﴿مَـَٔابًا﴾؛ اهتمامًا بالمقصودِ الأعظم، وتقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ يلفتُ النَّظر إلى الغاية أوَّلًا قبلَ ذكرِ (المآب)، فكأنَّه قيل: المهمُّ أنْ يكون المآبُ موجّهًا إلى الله وحدَه، وفيه دلالةٌ على الحصرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 214.

الضّمنيّ، والتَّقديمُ هنا يُشعِرُ بأنَّ المآب لا ينفَعُ إلّا إذا كان إلى اللّه، وغيرُهُ لا يُعدُّ مآبًا حقيقيًا[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَـَٔابًا﴾:

أعظمُ مآب عندَ المَلِك الوهّاب

في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ جاءَ التّعبيرُ بـ﴿مَـَٔابًا﴾ نكرةً للتّفخيم والتّهويلِ، ويُفيد عِظمَ هذا المَرجِعِ ورفعة قدرِه، كأنَّه يقولُ: مآبًا عظيمًا لا يَشبَهُهُ مآبٌ. ويفيدُ التّنويعَ والشُّمولَ أيضًا على اعتبارِ أنّ كلَّ إنسانٍ بحسَبِ عمَلِه يتّخذُ مآبًا خاصًّا بهِ عندَ ربِّه، فالتّنكيرُ يفتَحُ بابَ التّعدُّدِ بحسبِ حالِ العَبد، وكأنَّ الخطابَ بالنّكرة هاهنا يحفّزُ المخاطَب على الاختيارِ والمُسارعة حين يتصوّرُ عظمةَ هذا المآب وما يتضمّنُهُ مِن ثوابٍ وجَزاء؛ فإذا استفيدَتْ من التّنكير هذهِ المعاني، فهو يفيدُ حينئذٍ الإيجازَ.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ(المآب) دونَ غيرِه:

الـرُّجـوعُ المَحمود، بطاعةِ المَلِك المَعبود

(المآبُ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ يكونُ اسمَ مكانٍ من (آبَ) إذا (رجَعَ)، ويُطلَقُ على المَسكَن؛ لأنَّ المرءَ يؤوبُ إلى مَسكنِه، ويكونُ مصدرًا ميميًّا وهو (الأوْب)، أي: الرُّجوع، كقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36]، أي: رَجوعي، أي: فليجَعَلْه أوْبًا مناسبًا للقاءِ ربِّه، أي: أوبًا حسَنا[2]. وعلى اعتبار أنَّه اسمُ مكان: يكون المآبُ بمعنى المَنزِلِ أوِ المقرّ الّذي يُرجَعُ إليه، ويكون المعنى: فمَن شاء اتَّخذ إلى ربِّه مَقرًّا يأوي إليه ويَستقِرُّ فيه. وهذا يشيرُ إلى أنَّ الجنَّة مأوى العبدِ الصّالح، وهو المسكنُ الأبديّ عندَ اللّه تعالى، وكأنّ العبد في الدّنيا غريبٌ مُسافرٌ، فإذا عَمِل صالحًا صار له مأوىً دائمٌ عندَ ربِّه. وعلى اعتبار أنّه مصدرٌ ميميٌّ فيدلُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

على مُنتهى الحدثِ وغايتِه ويَحمل معَه عنصُرَ الذّات[1]، والمآبُ هو النّهاية الّتي يَنتهي إليها الرُّجوع، فهو رجوع مُتَصَوَّر بتمامِه وانتهائِه لا بمجرَّدِ ابتدائِه، ويحمِلُ معَه عنصر الذَّات، ويُستحضَر في الذِّهن الرّاجِعُ نفسُهُ وهو يَؤوبُ، أي الذّاتُ في حالِ عَودتِها. ولهذا جاء التَّعبير بـ ﴿مَـَٔابًا﴾ لا بـ(أوبًا)، ليُشعِرَ أنّ هذا الرّجوعَ ليس شيئًا ذهنيًّا مجرَّدًا، بل هو رجوعُ كلِّ عبدٍ بنفسِهِ وكيانِهِ إلى ربِّه. والفرقُ بين اسمِ المكانِ والمصدر الميميِّ هنا: أنَّ المصدر الميميَّ ليس التّركيزُ فيه على المكانِ الَّذي ينتهي إليه، بل على كيفيّة العَودة، أي: أن يجعلَ رجعتَهُ إلى اللّه رجوعًا محمودًا، لا رَجوعًا مذمومًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكلامُ والحَديثُ:

الكلامُ أخصُّ مُطلقًا منَ الحَديث

إيثارُ (الكلام) بالنّفي دونَ (الحديث) في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ له بَلاغةٌ وجيهةٌ في هذا السّياق، وهو أنّ الكلامَ أخصُّ من الحديث، إذ لا يُسمّى كلامًا إلّا ما كان مَنظومًا مُفهِمًا ذا دلالة، بخلافِ (الحديث) الَّذي قد يُطلَقُ على أيِّ قولٍ مُطلقًا، سواءٌ أفادَ أم لم يُفِد، وإذا كان المقامُ هنا مقامَ عَظمةٍ وهَيبة، فلا مجالَ إذنْ إلّا لكلامٍ مُنضبِطٍ موزون، لا لهوَ فيه ولا فُضول؛ والمرادُ هنا كلامٌ مخصوص مقصودٌ مَضبوط. وهو أنسبُ لإذنِ الرَّحمن وقولِ الصَّواب في قولِهِ بعدَه: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. ويؤيّدُ هذا التّفريقَ في كونِ الكلامِ أضبطَ من الحديث وأفيَد وأقومَ وأخصّ قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 6]، فجعلَ الحديثَ في جانب ما لا ينبغي في غيرِ المُهِمّ، كما جعلَهُ في جانب المُهِمّ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النّساء: 42]. وقولِه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾

(1) السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 31.

[النّساء: 87]. فسمّاه حديثًا في المَوضعينِ باعتبار ما أحدَثوه من أوزار، وما حدثَ لهم بيانُه بالنِّسبةِ إليهم مِن وحْيِ اللّه وكلامِه[1].

المخاطَبَة والمحاوَرَة:

المخاطبةُ كلامٌ خالٍ من المُناقشة بخلافِ المُحاوَرة

الخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَةُ الكَلام، وقَدْ خاطَبَه بالكَلام مُخاطَبَةً وخِطابًا، وهُما يَتخاطَبانِ، والخطْب: الشّأن والحالُ الَّذي يقعُ فيه التّخاطُبُ[2]، وقيّده الرّاغبُ بالأمرِ العَظيم[3]. وأمّا الحِوار والمُحاوَرة فالمرادّةُ في الكلام، ومنهُ التَّحاوُر، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: 1][4]. فالحوارُ فيه ردٌّ ومُجاوَبة في الكلام[5]، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: 37]. فكلٌّ مِنَ الطَّرفينِ يردُّ على الآخَرِ. وعليه: يظهرُ الفرقُ بينهما أنّ (المحاورةَ) في استعمال القرآنِ جاءَتْ في سياقِ النِّدّيّة أوْ بينَ مَن يَتوهّم بينهما كذلك كالصّاحبِ وصاحبِه، والمرأةِ والرّسول ﷺ، أمّا المخاطبة فجاءتْ بين الأعلى والأدنى، وفي مقام يُتصوّر فيه عدمُ المُماثلة، كما في قولِه هنا: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [المؤمنون: 27]. ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]. حتّى قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، ففي هذهِ السّياقاتِ جميعًا ليس هناك مُرادّة ولا مُجاذَبة ولا تداولٌ للكلام، كأنّ الكلامَ يصعَدُ من جهةٍ واحدة، فلا تُحاكيها الجهةُ الأخرى في ردّ الكلام ومُداوَلَته. وعليه: فمقامُ الخطاب أعزّ وأضيقُ من مقامِ الحِوار في المُجاراةِ والمُداوَلة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 284.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خطب).
(3) الرّاغب، المفردات: (خطب).
(4) الرّاغب، المفردات: (حور).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حور).

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النَّبأ: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تأكيدُ حتميَّة الجزاء، بإظهارِ ندامةِ أهلِ الشَّقاء

لمّا عرضَتِ السّورةُ أحكامَ النَّبأ العظيم من الجزاءِ والوعيدِ والآياتِ الّتي تُظهِرُ عظمةَ قدرةِ اللّه تعالى ومظاهرَ عدلِهِ وحكمتِهِ وسَعةِ فضلِهِ، خُتمت بالتَّصريحِ بأنَّ يومَ الحسابِ واقعٌ لا مَحالة، وسيطّلعُ فيه كلُّ إنسان على أعمالِه، ويشعرُ الكافرُ بالنّدمِ العميقِ على ما قدّمَتْ يداهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾: المَرءُ: الرّجلُ، والأُنثى: المرأةُ، والمُروءةُ: كمالُ الرّجوليَّة، وقيل: هي مُشتقّةٌ من لفظ المَرْء، كالرُّجولة مشتقّةٌ من لفظِ الرّجُل؛ فهذانِ مصدرانِ لا فعلَ لهما[2]. والمُروءَةُ: الإنسانيَّة، ومَرُؤَ الرَّجلُ: صار ذا مُروءةٍ فهو مَريءٌ[3]. والمَرءُ بالفتح: الإنسانُ؛ إذ هو نسْلٌ له تصرّفٌ ونفْعٌ وتعاون، وأُنثاه: مَرأةٌ، وهو أيضًا امْرُؤ وهي امْرَأة[4]، وكأنَّ المَرءَ تُقالُ للإنسانِ في حالِ يَقظتِه وإدراكِه، وهي أنفَعُ أحوالِه، مأخوذٌ ذلك منَ الطَّعام المَريءِ النّافعِ السّائغِ الَّذي لا يتعسّرُ بعدَ أكلِه، ولذلك جاء ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ أي الإنسانُ في أجْلَى نَظَرٍ له، إذ هو في مقامِ الانكشاف التّامّ الَّذي لا يَنحجبُ فيه نظَرٌ، ولا يَتيهُ عنهُ إدراكٌ، ومعنى ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ في الآية: أي: كلُّ امرىءٍ مُسلمًا كانَ أوْ كافِرًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (مرأ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (مرأ).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرأ).
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 46.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

والمعنى: تهديدُ الكفّار وتحذيرُهم وتخويفُهم من ذلك اليومِ، فكأنّه قيلَ لهم: إنّنا يا أهل مكّةَ وأمثالَكم من الكفّار حذّرناكم وخوّفناكم عذابًا قريبَ الوقوع وهو يومُ القيامةِ؛ فإنّه لتأكُّد وقوعِه صارَ قَريبًا، ولأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، كما قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النّازعات: 46]، وفي هذا اليوم القريبِ ينظُرُ كلُّ امرئٍ ما قدّمَ مِن خيرٍ أوْ شرّ في حياتِه الأولى في الدُّنيا، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: 30]. ويتمنّى الكافر من شدّةِ ما يعانيهِ من أنواعِ الأهوالِ والعَذابِ أنْ لم يكُنْ إنسانًا يُبعَثُ، وإنّما كان ترابًا كالحيواناتِ بعدَ الاقتصاص مِن بعضِها لبَعضٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عَن سابقَتِها:

التَّحذيرُ الصَّريح، من العذابِ القريبِ الفَسيح

جملةُ ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ استئنافيّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، فهي افتتاحُ كلامٍ مستقلٍّ فيه تحذيرٌ صريحٌ. أوْ معترضةٌ بينَ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ وقولِه: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ للتّنبيهِ والتّشديدِ بين الجملةِ السّابقةِ واللّاحقة، فهي تنبِّهُ السّامعَ أنَّ هذا المآبَ الَّذي أُمِرَ باتِّخاذِه إنّما جاء التّحذيرُ من تركِه بما ينتظِرُ من عذابٍ قَريب، وكلا الجُملتينِ المُعترضةِ أوِ الاستئنافيّة تردانِ على جهةِ الاستقلالِ والفَصل[2].

نكتةُ التَّوكيد بـ(إنَّ) في ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

تنزيلُ غيرِ المُنكِر، ليُبادرَ إلى العملِ المُثمِر

افتُتِحَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ بحرفِ التّأكيد

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

للمبالغةِ في الإعذارِ بتنزيلِهِم منزلةَ مَن يتردّدُ في ذلك، إذِ جملةُ ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ مسوقةٌ لقطعِ العُذْر وليس لإفادة الحُكمِ وتأسيسِهِ؛ لأنّ كونَ ما سبق في الآياتِ إنذارًا أمرٌ معلومٌ للمُخاطَبين أنَّه كذلك لا يَخفَى على أحد[1].

دلالةُ التَّعبير بالماضي مُسندًا لنونِ العَظَمَة ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

التّحذيرُ الإلهيُّ القاطِعُ، لكلِّ مُنكِرٍ طامِع

وقعَ الفعلُ الماضي في قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ مسندًا إلى ضَميرِ العَظَمة؛ لتقويةِ الحُكم وتأكيدِ صِدقِ الإنذار كحالِ النّذيرِ الَّذي يَتبرّأُ مِن مَسؤوليَّةِ ما قد يصيبُ النّاسَ إنْ لم يَحذروا، فيقولُ: (أنا النّذيرُ العُريان). والإنذار هنا: إعلامٌ بوقوعِ شرٍّ في المستقبل القريب، وعُبِّر عنه بالفعلِ الماضي ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ أعظمَ موجبات الإنذار قد حصلَ وانتهى ذكرُه قبلُ، حينَ بُيّن حالُ الطّاغينَ في جهنّمَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾[2].

بلاغةُ تقديمِ المُسندِ إليهِ في ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

توكيدُ الإنذار، يقطَعُ طريقَ الغفلةِ والإنكار

قدّمَ النَّظمُ الكريمُ المُسندَ إليهِ (نا) من ﴿إِنَّآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ على المُسنَد وهو جملةُ الفعلِ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾؛ لأنّها هي الّتي أُسنِدت إلى الضَّميرِ السّابق، والجملةُ افتُتِحتْ بالضَّميرِ المُنفصِلِ مع (إنَّ) لإفادةِ توكيدِ الحُكم وتقويتِهِ مَعَ الحصْرِ، أي: ليس غيرُنا أنذركم، فنحنُ بعظمةِ سُلطاننا وجلالِ قُدرتنا تولّينا إنذارَكم بأنفسِنا لا واسطةَ فيه، وهذا التَّقديمُ يُشعِرُ المُخاطَبَ أنَّ الإنذارَ ليس كلامًا عابرًا، بل هو إنذارٌ صادِرٌ عن اللهِ تعالى بذاتِه، فلا مجالَ للاستهانةِ بهِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

نكتةُ التَّعبير بالمُسندِ الفعليّ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

الإنذارُ الإلهيُّ واقعٌ، بالدّالِّ اللّفظيّ القاطِع

جاءَ المُسنَدُ هنا جملةً فعليَّة ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ لا اسميّة، لِما في الجملة الفعليّة من دلالةٍ على الحدوثِ والتّجدّد والإنشاءِ، بخلاف الجملةِ الاسميَّة الّتي تفيدُ الثّبوتَ والدّوام. فالمقامُ هنا مقامُ إنشاءِ التّهديد والإنذار، وهو عملٌ يحدثُ ويتحقّقُ في لحظةِ المُخاطبة، وجاءَ بالفعل: ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ ماضيًا؛ ليُشعِرَ السّامعَ بأنّ هذا الإنذارَ واقعٌ عليهم ومُتحقِّقٌ حدوثَه، لا مُجرّد وصفٍ ثابت، ولو قيلَ: (إنّا مُنذروكُم) بالجُملة الاسميَّة، لكانَ المعنى أقربَ إلى الإخبار عن صفةٍ ثابتةٍ، لا إلى فعلٍ مُنجَزٍ وقعَ بالفعل[1].

بلاغةُ (الاكتفاء) بذكرِ النّذارة عن البِشارة:

الاعتناءُ بالتّهديد مُقدّمٌ على الوَعدِ والتّرغيب

الاكتفاءُ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ بذكرِ النّذارةِ دونَ (البشارة)؛ لمُراعاة مُقتضى المَقام، إذ السّورةُ كلّها في مقامِ التّخويفِ والتّهويلِ والتّهديد، فجاءَ ذكرُ الإنذار مناسبًا لجوِّ السّورة خاصّةً في افتتاحِها، إذ الكلامُ موجّهٌ للمكذّبين المُستهزئين[2]، كما أنَّ الاقتصارَ على ذكر العذابِ القريبِ أشدُّ وقْعًا على النَّفس، فإنَّ إغفال الطّرفِ الآخرِ (البشارة) يُركّز الذّهن على الخطَرِ الدّاهم دون أن يُلهيَ عن ذلك بذكرِ النَّجاة. وذُكِرتِ النّذارةُ وأُريد معَها التّبشيرُ أيضًا، لأنَّهما مُتلازمان؛ فمَن نجا منَ العذاب فلهُ الفوزُ بالنَّعيم، وكانَ الاقتصار على جانبِ الإنذار أوقعَ في التّهديد، والبشارةُ لازمةٌ عنهُ[3].

توجيهُ عودِ ضميرِ الخِطاب في ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾:

الاهتمامُ بالمُخاطَبين لأنَّهم من جُملةِ المُكذِّبين

ضميرُ الخطابِ في: ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ لمُشركي العرب، فإنّهم أنكَروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 55.

البعثَ واختَلفوا فيه. أي: أنذرناكُم بما ذكر في هذه السّورة من الآياتِ النّاطقةِ بالبَعث المثبتة لوقوعه؛ إذ مَن قدَرَ على خلقِ العالَم فهو قادِرٌ على إفنائِهِ وإيجادِهِ مُجدَّدًا[1].

دلالةُ المَجازين في ﴿قَرِيبًا﴾:

توصيفُ العذابِ بالقَريب وعيدٌ لكلِّ مُستبعِدٍ لهُ وتهديد

وصفُ العذابِ بـ﴿قَرِيبًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ فيه مَجازٌ في الإسناد، أي إسنادُ ما ليسَ لهُ، إذ أُسنِد (القرب) إلى العَذاب، مع أنّ القربَ في الحقيقة وصفٌ للوقوعِ أوْ للزَّمان، لا للعذابِ ذاتِهِ؛ فهو مجازٌ عقليٌّ، وفيه كذلك مجازٌ في اللَّفظ نفسِهِ، حيثُ أُطلِقَ (قريبٌ) وأُريدَ بِهِ (مُتحقِّقُ الوُقوع)، والعلاقةُ: اعتبارُ ما سيقَعُ مُستقبلًا كأنّه واقعٌ حاضِرٌ، أوْ العلاقةُ المُجاورةُ أوِ المُلابسة بين المستقبَلِ المُتيقَّنِ الوقوع والحاضِرِ المحقَّق الحُصول، فهو مجازٌ مرسَلٌ، فالمجازُ العقليُّ في الإسناد، والمجازُ المرسَل في اللَّفظ[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالنَّظَر دونَ (الإبصار والرُّؤية):

مــواجَــهــةُ الأعمال، تَقتضي الاستعدادَ قبلَ وُقوعِ الآجال

لفظُ ﴿يَنظُرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ مِن (نَظَر العَين)، أي البَصَر، فيُفهمُ أنّ الإنسانَ يومَ القيامة يَرى عيانًا ما قدّمَتْ يداهُ من أعمال، ويَرى جزاءَهُ ماثلًا أمامَه رأيَ العَين[3]، ويمكنُ أنْ يكون النَّظرُ مُستعمَلًا مَجازًا، بمعنى الوجدانِ والعِلم بالجزاء، لأنَّ الجزاءَ نفسَهُ يُرى ويُعايَن؛ إنْ كان خيرًا يفرَحُ به، وإن كانَ شرًّا يراهُ ويَذوقُهُ، فيجدُهُ في قلبِهِ ويتيقّنُ منه تيقّنَهُ من الأمورِ المَحسوسةِ المُشاهَدة. ومبنى ذلك على أنَّ الوُجدان منقولٌ من: وجَدَ الشّيءَ ولَقيَه، وأصلُهُ في الأمور الحسيَّة، ثمَّ نُقل معناه إلى الأمورِ القلبيَّة؛ ولمّا كان وجدانُ الشّيءِ ولُقيَه أمرًا يقينيًّا،

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 43.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 56.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 57.

كانَ الأمر العقليُّ بمنزلته، وإنما ساغَ مجيءُ (وجدَ) للعِلْمِ؛ لأنّ مَن وجدَ الشّيءَ على حقيقتِه فقد علِمَه[1]. وهذا الاستعمالُ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ الإطلاق، أي إطلاقُ النّظَر وإرادةُ وجدانِ الشّيء، ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦﴾ [الزّلزلة: 6] أي ليَجِدوا جزاءَها يَقينًا لا يتفاوَتُ بينَ مَواجيدِهم الباطنة وحواسِّهم الظّاهرة. فجيءَ بـ(النّظر) لما فيه من تجسيدِ المواجهة بين العبد وأعمالِه، وكأنّه يرى أعمالَهُ مجسّمةً أمامه، وكانَ لفظُ ﴿يَنظُرُ﴾ جامعًا بين معنى الرُّؤية الحسيَّة والمَجازيَّة، وهو الوجدانُ النَّفسيُّ اليقينيُّ والمطابقةُ بالجَزاءِ العَلَنيّ المُشاهَد[2].

معنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾:

كـلُّ امـرِئٍ مُـنـذَر، فعليهِ الاستعدادُ قبلَ الرَّحيلِ المُقرَّر

(ألْ) في لفظِ ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ من قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ لتعريفِ الجِنس؛ فيكون المرادُ (جنسَ الإنسان)، أي كلُّ إنسانٍ بلا استثناءٍ فيشمَلُ المؤمنَ والكافِر، والبرَّ والفاجِر، فاللّفظ عامٌّ[3]. فالتَّعريفُ هنا أفادَ الشُّمولَ والعُمومَ معَ استحضار صورةِ الإنسانِ في مَقامِ المواجهةِ لأعمالِه، ليَشعُرَ السّامعُ أنَّ الآية تتحدّثُ عنه هو بالذّات.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾:

مواجهةُ جميعِ الأعمال، دليلٌ على عـدلِ ذي الجَلال

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ فيها وجهان:

الأوّل: موصولةٌ بمعنى (الّذي)، وهي مفعولٌ به لـ ﴿يَنظُرُ﴾، والمعنى: يومَ يشاهِدُ المكلّفُ (مؤمنًا كان أو كافرًا) جميعَ الَّذي قدّمَه من أعمال خيرًا أوْ شرًّا. والتَّقديرُ: (ما قدّمَتْهُ يداه)، والعائدُ (الهاء) محذوفٌ.

الثّاني: (استفهاميّةٌ)، بمعنى (أيَّ شيءٍ؟) وهي منصوبةٌ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 12.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 44.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 44.

بـ﴿قَدَّمَتۡ﴾ على المفعوليّة، والمعنى: يومَ ينظرُ المرءُ أيَّ شيءٍ قدّمَتْ يداه؟ والفعلُ ﴿يَنظُرُ﴾ حينئذٍ مُعلّقٌ عن العمَلِ في معمولِه لفظًا لا معنىً بسببِ الفصلِ بما لهُ حقُّ الصَّدارة وهو الاستفهامُ؛ لأنّ النظَرَ طريقُ العِلْم أوِ المرادُ به هنا العلمُ[1].

فعلى الوجهِ الأوّل إفادةُ المُعاينةِ للأعمال، وعلى الوجهِ الثّاني: إفادةُ التأمّلِ والسُّؤال عمّا قدّم، فيكونُ أبلغَ في كشفِ حالِ الإنسان أمامَ عمَلِه.

تقديمُ العملِ والإيمانِ، قبلَ فواتِ الأوان

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

عبّر بالماضي في قولِه: ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾؛ لأنّه أُريد به ما كسَبَه في الدُّنيا مِن خيرٍ وشرٍّ وصارَ مُستقِرًّا وثابتًا في صحائفِ الأعمال، فدلّ المُضيُّ على التَّحقُّق والانقضاء، وفيه إشارةٌ إلى فواتِ الأوان بامتناعِ العملِ والاكتساب، فلم يعُدْ في إمكانهم شيءٌ تقدّمُه أيديهم أوْ تستدركُه[2].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في ﴿يَدَاهُ﴾:

دلّ ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ على الأعمالِ الَّتي قدّمَتْها اليدان، لكنَّ الحقيقة أنَّ العملَ لا يقتصِرُ على اليدين، بل يشمَلُ اللِّسان والرّجلين، والجوارحَ كلّها، بل حتّى ما في القلب مِن نيّات؛ إذن التّعبيرُ بـ ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ هو مجازٌ مرسَلٌ من باب إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلّ والعلاقةُ جزئيّة، فاليدُ جُعِلتْ مُمثّلة لكلِّ الجوارح والطّاقات التي يعمَلُ بها الإنسانُ، أوْ يكونُ ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ من بابِ الاستعارةِ التمثيليّة، فيكون قد شُبِّه الإنسانُ في مباشرتِه لأعمالِه المتنوِّعة بصورةِ الصّانعِ الَّذي يصنعُ بيدَيه أشياءَ مُختلفة، وكأنّ الأعمالَ مصنوعاتٌ، والإنسانَ صانعٌ لها يُباشِرُها

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 20/ 45، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 37.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.

بيديه. وهذا أوضحُ في تصوير العملِ على أنّه شيء محسوسٌ مصنوعٌ على إرادةٍ واختيار. فذكرُ اليدين هنا تمثيلٌ بالمسؤوليّة عن العمل. وهذا أحسنُ من اعتبار ذكر (اليدينِ) هنا من بابِ التّغليب؛ لأن البلاغةَ ليستْ في مجرد تغليبِ (اليدين) على بقيَّة الأعضاء، وإنما في تشبيهِ حالة العمل بحالةِ الصّانعِ المُباشِر بيديه. فهنا خصوصيّةُ التّمثيل أبلغُ من خصوصيّةِ التغليب[1]. كما أنّ في الاقتصارِ على ذكرِ (اليدين) فقط إيجازًا بليغًا؛ فقد أغنى ذِكرُهما عن تعديدِ سائرِ الأعضاء، وفيه إيماءٌ خفيّ إلى أنَّ أكثر الأعمال تصدُرُ عنِ اليدَين، فهي أخصَرُ طريقٍ للتّعبير عن حَصيلةِ العمل، كما أن فيهِ إشارةَ تهويل؛ لأنَّ اليدين هما أداتانِ رئيستانِ للكَسْب، وكأنَّ العبدَ يُحاسَب على كلِّ ما امتدّتْ إليه يداهُ من خيرٍ أوْ شرٍّ[2].

نكتةُ تخصيصِ ذِكر ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

بدلالةِ الاكتفاء، يُعرَفُ قولُ أهل الإيمانِ والوَفاء

في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ خُصَّ الكافرُ بالذّكرِ مع أنّ الموقفَ عامٌّ يشهدُهُ جميعُ الخلق، إظهارًا لشدّةِ النّدامة عندَهُ، فالكافرُ هو أكثرُ النّاس ندامةً في ذلك الموقف، إذ يرى الخَسارةَ الكاملة، بخلافِ المؤمن الّذي يَرجو الثّوابَ. وللتَّشهيرِ بهِ وتخصيصِهِ؛ لأنَّ مقام الحديث هنا مقامُ وعيدٍ وتهديد، فجيءَ بلفظِ الكافر للتّشهيرِ بهِ وتثبيتِ أنَّ هذه الحسرةَ خاصّةٌ بمَن كفَرَ، لا بمَنْ آمنَ[3].

مَعنى التَّعريفِ ودلالتُهُ في ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

كـلُّ الكافرين يَندَمونَ على التّفريط بإيمانِ المُؤمنين

كلمةُ ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ عُرِّفتْ بـ (أل)، وهي إمّا للجِنس، والمرادُ جنسُ الكافر، فيشمَلُ كلَّ كافرٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 57، 58.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 58.

فهو تصويرٌ لمآلهم جميعًا، وأوّلهم إبليسُ أبو الكافِرين، وإمّا للعهدِ العلْميّ: أي الكافر المعلومِ في ذلك الموقف، وهو مَن قامَ في مقام النّدامة الكُبرى، حينَ رأى أهوالَ القيامة، إذن فالتّعريفُ هنا أُريدَ به الاستغراقُ والتّمثيلُ، أي إنَّ كلَّ كافرٍ مهما كانَ حالُه يومَ القيامةِ مصيرُهُ الحَسرةُ والنّدمُّ حتَّى يَتمنّى الفَناء[1].

الغرضُ منَ النِّداء والتَّمنّي في ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

تمَنّي الكافرين للفناء، تعبيرٌ عن شدّةِ الشَّقاء

الغرضُ من النِّداء في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ التّنبيهُ والتّفجّع؛ إذ يُنادي نفسَه أوْ حالَه ليُظهر شدّةَ حسرتِه، والغرض من التّمنّي التّعبيرُ عن العَجْز واليأس؛ لأنَّه يتمنَّى أمرًا محالًا، وهذا أبلغُ في تصوير انقطاعِ رجائِه وبلوغ ندامتِه الغايةَ؛ فالنّداء والتّمنّي اجتمعا هنا لإبرازِ شدّةِ النّدم المَمزوجِ باليأس، حتَّى لم يجدِ الكافرُ ما يَطلبُهُ إلّا الفناءَ المَحض، وتركيب ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ إمّا أن يكونَ حرفُ النّداء فيهِ لمجرَّدِ التّنبيه، فلا يقدّرُ منادى محذوف، ولذلك باشرتِ الحرفَ (ليت)، وإمّا أنْ يكون للنِّداء حقيقةً والمُنادى محذوفٌ تقديرُهُ: (يا هؤلاءِ أوْ يا هذا لَيتني كنتُ تُرابًا)[2]. وليس هناك ما يمنَعُ كونَ المنادَى المحذوفِ يَقصِدُ به نفسَه زيادةً في الحَسرة، كمن يُكلّم نفسَهُ عند شدّةٍ ألَمّتْ به، ويقولُ قاصدًا نفسَه: (يا هذا ليس لها حلٌّ، ليتَكَ ما كنتَ!) من هولِ الكربِ الَّذي ألمّ به ولشدّةِ يأسِهِ من مُناداةِ غيره، إذ لا ينفَعُ نداءُ أحد، فيكون بذلك قد جرّدَ من نفسِهِ شَخْصًا آخر يُخاطِبُهُ ويُناديه ويَبثُّ إليه ما يعجَزُ عنِ البَوْحِ به لغَيره، وهذا من بديعِ أسلوبِ التّجريد في مقامِ النِّداء.

نكتةُ التَّعبير بفعلِ (الكونِ) ماضيًا:

تَمَنّي العدَم على هذا المَصيرِ المُؤْلِم

التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ ماضيًا في: ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ يفيدُ توكيدَ الرّسوخ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.

(2) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/ 34.

في تمكّن حالةِ اليأس منه، وعمقِها في داخِله، وكأنَّ الكافر يريد لو كانَ حقيقةً ماضية واقعةً، لا مجرّد حالةٍ مُتوقَّعة[1].

نُكتةُ تنكير ﴿تُرَٰبَۢا﴾:

ندمُ الكافر ورغبتُهُ في الفَناء، على هذا الّذي يَنتظِرُهُ بلا انتهاء

في قولِه تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ تنكير ﴿تُرَٰبَۢا﴾ أفادَ التّحقيرَ والتّهوين: أي يتمنَّى الكافرُ أنْ يكون شيئًا حقيرًا لا يُلتفَتُ إليه، كأيّ ذرّةِ ترابٍ منثورة، ويفيدُ العُموم والشُّمول: أي أيّ ترابٍ كان، لا يهمُّ نوعُهُ ولا مكانُهُ، فالمقصودُ مطلقُ التّراب؛ لأنّه رمزٌ للفَناء، كما يصحّ أنْ يفيدَ التّكثير والتّفجّع، كأنّه يتمنَّى أن يذوبَ في جنس التّرابِ كلّه، فلا يُرى له أثرٌ ولا يُعرفُ له وجودٌ.

نكتةُ تخصيصِ هذه المقالةِ بالذِّكر:

أقصى ما يبلُغه ندمُ الكافر، أنْ يتمنَّى حالَ الحيوانِ القاصِر

تخصيصُ هذه المقالةِ بالذِّكر في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾؛ لإظهارِ الغايةِ في الحَسْرة[2]، إذ لم تُنقَل عنِ الكافر يومَ القيامة إلّا هذه الكلمةُ، للدِّلالة على أنّ أقصى ما يبلغُهُ ندَمُهُ أنْ يتمنَّى العدمَ المَحْض، وفي هذه المَقالة مُقابلةُ حالِه بحالِ البَهائم؛ لأنَّ البهائمَ تصيرُ ترابًا يومَ القيامة، فلا حسابَ عليها ولا عِقاب، والكافرُ يتمنَّى أنْ يكونَ مثلَها، وهي مقالةٌ تشيرُ إلى سقوطِ كلِّ أملّ، فلو كانَ يتمنَّى النَّجاةَ أو التّخفيفَ لكان فيه بقيّةُ رَجاء، لكنَّ قوله ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ يدلّ على انقطاعِ رَجائِه بالكليَّة، وفي تخصيصِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ بالذّكر إنطاقُه حَسْرةً وألمًا بجنسِ ما كان يقولُهُ كُفرًا وعِنادًا، فقد كانوا يقولونَ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82] فجعلَ اللّه عِقابَهُم بالتّحسُّرِ وتمنّي أنْ يكونوا من جنسِ التُّراب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 215.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 58.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ وعدُّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة إجماعَ المفسّرين على مكّيّتها[1]، وبذلك قال القرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3].

وأمّا عدد آياتها؛ فهي أَرْبَعونَ وستُّ آيات في الكوفيّ، وخمْسٌ في عدد الباقينَ، والاختلاف في آيتين[4].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

ترتيب نزول السورة متّفقٌ مع ترتيبها المصحفيّ بعد النبأ

هذه السّورة هي التّاسعة والسّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي (النّبأ) و(عبس)، وأمّا ترتيبها النّزوليّ؛ فعُدّت السّورة الواحدة والثّمانون في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة (النّبأ) وقبل سورة (الانفطار)[5].

فضائل السّورة:

سور المفصّل لها فضيلة نافلة على سائر السور

هذه السّورة الكريمة من أواسط المفصّل الذي قال فيه النَّبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 430.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 190.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 263.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 410، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 59.
(6) ابن حنبل، المسند، حديث رقم: (16982)، والطبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: (2415)352.

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

النّازعات مسمّى السورة الأشهر

وردت تسمية السورة بسورة ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ في صحيح البخاري[1]، بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها، وتسمّى في المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي جميع التفاسير: سورة (النازعات)، وذكر لها ابن عاشور أسماء أخرى فضلًا عن ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، فذكر أنّها سُمّيتْ في المصاحف وأكثر التفاسير بـ(سورة النّازعات) بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، وجُعِل لفظ (النازعات) علمًا عليها؛ لأنّه لم يُذكر في غيرها، وقال بعضهم تسمّى بـ(سورة السّاهرة) لوقوع لفظ (السّاهرة) في أثنائها، ولم يقع في غيرها من السّور، وقيل: تسمّى بـ(سورة الطّامّة)؛ لوقوع لفظ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ فيها، ولم يقع في غيرها، وجاء في مصحف مكتوب بخط تونسيّ عُنونَ اسمها بـ (سورة ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾)؛ لوقوع لفظ المدبّرات فيها، ولم يقع في غيرها[2].

والحقّ أنّ أسماءها هذه سواء أكانت جميعها ثابتة أم لا قد ارتبطت بمحورها ارتباطًا مباشرًا، وقد ربط البقاعيّ بين أسمائها ومقصودها خير ربطٍ، فقال: "ومقصودها: الإقسام على بعث الأنام ووقوع القيام، يوم الزّحام، وزلل الأقدام بعد البيان التّامّ، فيما مضى من هذه السّور العظام؛ تنبيهًا على أنّه وصل الأمر في الظّهور إلى مقام، ليس بعده مقام، وصوّر ذلك بنزع الأرواح بيدي الملائكة الكرام، ثمّ أمر فرعون اللّعين، وموسى عليه السلام، واسمها (النازعات) واضح في ذلك المرام"[3].

المحور العامّ للسورة:

ترتبط السّورة بمحور السور المثبتة لوقوع القيامة وبيان أحوال النّاس فيها

هذه السّورة متّفقة مع سلسلة السّور التي سبقتها: القيامة

(1) البخاري، صحيح البخاري: باب تفسير سورة (والنازعات): 4/ 1881.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 59.
(3) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 154.

والإنسان والمرسلات والنّبأ، ومتمّمةٌ لها، ومقرِّرةٌ إثباتَ وقوع يوم القيامة، على اختلاف تسميته في هذه السّور، وفي بيان بعض أحداثه وما يجري فيه، وكذلك في بيان جزاء المكذّبين والمؤمنين به، وتناولت السورة ذلك من خلال ما يأتي:

أوّلاً: اقتضاها هذا المحور بعد أن ابتدأت بالقسم على إثبات وقوعه، أنْ تتحدّث عن بعض أحداثه وأهواله.

ثانيًا: واقتضاها هذا المحور أن تعرض لهم جانبًا من قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، الذي رفض الاستجابة لدعوة موسى، وادّعى أنّه ربّهم الأعلى، ثمّ أن تعرض نهاية أمره وعاقبة كفره.

ثالثًا: واقتضاها هذا المحور أن تُبيِّن كما بيّنت أخواتها من قبلها جانبًا من مظاهر قدرة اللّه تعالى في الآفاق.

رابعًا: ثمّ اقتضاها هذا المحور أن تبيّن لهم بعد ذلك أحوالهم عند مجيء الطّامّة؛ إذ لا ينفعهم ندمُهم، وأن تبيّن لهم جزاء كلّ فريقٍ من الفريقين: الطّاغين والخائفين.

خامسًا: ثمّ اقتضاها هذا المحور أخيرًا أن تُختتم بما استهلّتْ به من حديثٍ عن إثبات وقوع السّاعة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾

[النازعات: 42 - 46].

موضوعات السّورة وخصائصها:

إثبات البعث والجزاء في يوم الفصل مَدارُ مضامين السّورة

قامت سورة النازعات على إقامة الأدلة على وحدانية اللّه تعالى، واشتملتِ السورة على إثبات البعث والجزاء، ويتبين ذلك من خلال الآتي:

أوّلاً: إبطال ادعاء المشركين استحالة وقوع يوم البعث، وتهويله،

من خلال بيان ما يعتري النّاس حينئذٍ من الوهل، وإبطال قول المشركين بتعذُّر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

ثانيًا: عرّضت السورة بأنّ نكرانهم يوم البعث منبعث عن طغيانهم، فكان الطغيان صادًّا لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء، فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقّبين حياة بعد هذه الحياة الدّنيا، بأن جعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى ﷺ، وإنّ لهم في ذلك عبرة.

ثالثًا: تسلية رسول الله ﷺ، والاستدلال على إمكان البعث بأنّ خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.

رابعًا: كشف شبهات من قال باستحالة البعث باستبطائهم إيّاه، وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه، فلذلك يسألون الرّسول ﷺ عن تعيين وقت السّاعة سؤال تعنّت، وأنّ شأن الرّسول أن يذكّرهم بها، وليس شأنه تعيين إبانها، وأنّها يوشك أن تحلّ، فيعلمونها عيانًا، وكأنّهم مع طول الزّمن لم يلبثوا إلّا جزءًا من النّهار[1].

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت السّورة ببديعٍ أسلوبي أفردها من غيرها من السّور

أوّلًا: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال؛ إذ استهلّت بأسلوب القسم الطّويل، المتبوع بأحوالٍ مختلفة، مع حذف جواب القسم المقدّر بأنّ السّاعة آتية لا محالة.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَشدَت - بآيات متتابعة وقصيرة - أحوالَ النّاس في يوم القيامة، ومظاهر قدرة الله تعالى وإنعامه على عباده في الأرض والجبال والسّماوات وما بينهما من آلائه وعظيم خلقه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 59 - 60، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 261.

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها كرّرت بعض الكلمات مثل لفظة الطغيان؛ إذ وردت مرّتيْن[1]، وكلمة الخشية ثلاث مرّات[2]، فضلًا عن ذكرها للخوف وللوجف، ووردت فيها كلمة الكبرى مرّتيْن[3]، وكذلك وردت لفظة الضّحى مرّتيْن[4]، ولفظة السّعي مرّتيْن[5]، ولفظة الجحيم مرّتين[6]، والمأوى مرّتين[7].

ثانيًا: برز في السّورة قاموسٌ لألفاظِ اليوم الآخر مثل: الآخرة، الطّامّة، السّاعة، الراجفة، الرّادفة، السّاهرة.

ثالثًا: برز في السّورة الكريمة مركّبات وصفيّة كثيرة منها: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾، ﴿عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾، ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾، ﴿زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ﴿ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، ﴿رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

رابعًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة تكرار اسم الفاعل في حالتي الإفراد والجمع، مثل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾، ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾، ﴿وَاجِفَةٌ﴾، ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾، ﴿خَاسِرَةٞ﴾، ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿مُنذِرُ﴾، وغيرها.

خامسًا: برز في السّورة الكريمة أسلوب الجناس الاشتقاقيّ، مثل: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، ﴿تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، وكذلك جاء فيها أسلوب الطّباق بين ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾، وبين (اللّيل والضّحى)، في قوله: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، وبين (السّماء والأرض)، في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، وبين (الجحيم والجنّة) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

(1) الآيتان: 11، 37.
(2) الآيات: 19، 26، 45.
(3) الآيتان: 20، 34.
(4) الآيتان: 29، 46.
(5) الآيتان: 22، 35.
(6) الآيتان: 36، 39.
(7) الآيتان: 39، 41.

سادسًا: برز في السّورة أسلوب الاستفهام بأغراضه المختلفة أكثر من مرّة: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها من السّور بصيغها الصرفيّة هذه، مثل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾، ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾، ﴿وَاجِفَةٌ﴾، ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾، ﴿خَاسِرَةٌ﴾، وغيرها.

ثامنًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ، وهي: ﴿نَّخِرَةً﴾، ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، ﴿سَمْكَهَا﴾، ﴿وَأَغْطَشَ﴾، ﴿دَحَىٰهَآ﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾.

تاسعًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها، حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نذكر بعضها على سبيل التّمثيل، ومنه مطلعها كاملًا: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

بعد تفصيل أحوال القيامة وأهوالها وبيان حال الكافر فيها بيّن حاله في دنياه

لمّا أوضحت سورة النّبأ حال الكافر في قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾ [النبأ: 40]، عند نظره ما قدّمت يداه، ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه، وبعد ذكر تفصيل أحوالٍ وأهوالٍ؛ ناسب أن يُتبع ذلك ببيان ما كان عليه حاله في دنياه من استبعاد عودته في أخراه، وذكر

قرب ذلك عليه سبحانه[1]، فوجه اتصالها بما قبلها أنّه تعالى أنذر في السّورة السّابقة بالعذاب يوم القيامة، وفي هذه السّورة أقسم على أنّ البعث حقٌّ لا ريب فيه؛ ليؤكّد تحقيق العذاب[2]، ومن وجوه المناسبة أنّه تعالى لمّا ذكر "يوم يقوم الروح، ويتمنى الكافر العدم، أقسم أول هذه بنزع الأرواح على الوجه الذي ذكره بأيدي الملائكة عليهم السلام على ما يتأثر عنه من البعث"[3].

وعليه تتعلّق السّورة بسورة النبأ السابقة لها من وجهين:

أوّلاً: تشابه الموضوع: فكلتا السّورتين تتحدّثان عن القيامة وأحوالها، وعن مآل المتّقين، ومرجع المجرمين.

ثانيًا: تشابه المطلع والخاتمة: فإنّ مطلع السّورتين في الحديث عن البعث والقيامة، الأولى تؤكّد وجود البعث وما فيه من أهوال وحساب وجزاء، والثّانية افتتحت بالقسم على وقوع القيامة لتحقيق ما في آخر عمّ. والأولى اختتمت بالإنذار بالعذاب القريب يوم القيامة، والثّانية ختمت بالكلام عمّا في أولها من إثبات الحشر والبعث، وتأكّد حدوث القيامة، فكان ذلك كالدّليل والبرهان على مجيء القيامة وأهوالها[4].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 355 - 356.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 394، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 21.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 217 - 218.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 30.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا
٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات: 1 - 5]

❁ مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

ختام النبأ غاية الحساب ومطلع النازعات أوّل منازل القيامة

بعد أن ذكر النّظم الجليل أنّ الروح والملائكة يقومون صفًّا يوم القيامة، وأنّ الكافر يتمنّى العدم في ختام سورة النبأ؛ ناسب أن يُتبع ذلك في مفتتح هذه السّورة القسم بنزع الأرواح بأيدي الملائكة عليهم السلام، وما يتبعه من شأن البعث والنّشور[1]، فختام النبأ في ذكر الحساب والجزاء، ومطلع النازعات في نزع الأرواح المسوقة إلى ذلك الحساب، فهو تذكيرٌ بالبدايات بعد ذكر المآلات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: (نزع) أصلٌ يدلّ على قلع شيء[2]، ونَزَعْت الشيء: قَلَعْتُه، أَنْزِعُه نَزْعًا[3]، ونَزَع في القوس يَنْزِع نَزْعًا؛ إذا مَدّ، وتَرها، وقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، أي: تَنْزِع الأنفسَ من صدور الكفّار، كما يُغْرِق النازع في القوس؛ إذا جَذَب الوَتر[4]، وقولهم: فلانٌ في النَّزْعِ، أي: في قَلْعِ الحياةِ[5]، ونَزَعَ الشّيء: جَذَبَهُ من مقرِّه كنَزْعِ القَوْس عن كبده، والمراد به في الآية: هي الملائكة التي تَنْزِعُ الأرواح عن الأشْباح[6].

2) ﴿غَرۡقٗا﴾: (غرق) أصلٌ يدلُّ على انتهاء في شيء يبلغ أقصاه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 217 - 218.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).
(3) الخليل، العين: (نزع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (نزع).
(5) الجوهري، الصحاح: (نزع).
(6) الراغب، المفردات: (نزع)، والسمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 145.

وأغرقت في القوس: مددتها غاية المدّ[1]، وأغْرَقْتُ النبل، وغرَّقْتُه: بَلَغْتُ به غايَةَ المد في القوس[2]، أي: استوفى مدَّها، والاستِغراقُ: الاسْتيعابُ، واغتِراقُ النفَس: استيعابه في الزفير[3]، وأغرق في الشيء: جاوز الحد، وأصله من نزع السهم، وهو أن يباعد السهم من شدّة النزع[4]، والمراد به في الآية الكريمة: النّزع الشّديد بأبلغ ما يكون[5].

3) ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾: (نشط) أصلٌ يدلّ على اهتزاز وحركة[6]، وانتشط المالُ المَرْعَى، أي: انتَزَعْتُه بالأسنان كالاختلاس، يقال: نشطَتُ، وانتَشَطْتُ، أي: انتَزَعتُ، وبِئرٌ إنشاطٌ، وهي التي يَخرُج منها الدلو بجَذبَةٍ واحِدَة، والناشطات الملائكة، وتنشُط الأرواح نشطًا، أي: تَنْزِعُها نزعًا كما ينزع الدَّلو من البئر[7]، والمراد به في الآية الكريمة: الملائكة التي تجذب الأرواح بسُرْعَة[8].

4) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: (سبح) أصلٌ يدلُّ على جنس من السّعي، السبح والسباحة: العوم في الماء[9]، والسابح من الخَيْل: الحَسَنُ مَدِّ اليَدَيْن في الجَرْي، والنُّجوم تَسْبَح في الفَلَك: تجري في دَوَرانه[10]، والسَّبْحُ: المرّ السّريع في الماء، وفي الهواء، يقال: سَبَحَ سَبْحًا وسِباحَةً[11]، والمراد به في الآية الكريمة: الملائكة الذين يقبضون روح المؤمن برفق سابحات بها[12]، أو الملائكة التي تسير بين السَّماء والأرض[13].

5) ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: (سبق) أصلٌ يدلّ على التّقديم[14]، وهو التَّقدُّم في السَّير، نحو قوله

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(2) الخليل، العين: (غرق).
(3) الجوهري، الصحاح: (غرق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غرق).
(5) الواحدي، البسيط: 23/ 157.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشط).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نشط).
(8) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 145.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(10) الخليل، العين: (سبح).
(11) الراغب، المفردات: (سبح).
(12) الواحدي، البسيط: 23/ 163.
(13) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 146.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).

تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾[1]، والسَّبق: القدمة، وتقول: له في الجري وفي الأمر سَبقٌ وسُبْقة وسابقة، أي: سَبَقَ النّاس إليه[2]، والجَمْعُ الأَسْباق والسَّوابِقُ[3]، والمراد به في الآية الكريمة: الملائكة تسبق الشّياطين بالوحي إلى الأنبياء قبل استراقهم السّمع[4].

6) ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾: (دبر) أصلٌ يدلّ على آخر الشيء، وخِلاف قُبُله[5]، والتدبير: نَظَرٌ في عَواقِبِ الأمور، وفلانٌ يَتَدَبَّرُ أعجازَ أمورٍ قد ولَّتْ صدورُها[6]، وهو التفكّر في دبر الأمور، قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، يعني: ملائكة موكّلة بتدبير أمور[7]، والمراد به في الآية الكريمة: الملائكة التي تدبّر ما أُمرتْ به، وأُرسلتْ فيه، وما وكّلتْ فيه من الرّياح والأمطار[8].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

القسم بالملائكة وما يقومون به من عظائم الأمور

ابتدأتِ الآيات الكريمة في مطلع السورة بالقسم بالملائكة الذين ينزعون أرواح الكافرين من أجسادهم، نزعًا شديدًا، بالغ القسوة والغلظة إشارة إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال: 50]، ويقسم بالملائكة الذين ينشطون، ويسرعون إسراعًا في قبض أرواح المؤمنين بخفّة وسهولة، ويقولون لهم مبشّرين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: 27 - 28]، وبالملائكة الذين يسبحون في الكون منطلقين بسرعة؛ لتنفيذ أمر

(1) الراغب، المفردات: (سبق).
(2) الخليل، العين: (سبق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 193.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(6) الخليل، العين: (دبر).
(7) الراغب، المفردات: (دبر).
(8) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 194.

اللّه تعالى وتسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتقديسه، وبالملائكة الذين يسبقون غيرهم في تنفيذ أمر اللّه، ثمّ بالملائكة الذين ينفّذون أمر اللّه تعالى فيما أوكل إليهم تدبيره من شؤون الكون[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض تصدير السّورة بالقسَم وفائدته:

الطُّغيان، ونكران الألوهيّة والربوبيّة العقبة الكبرى في طريق الإيمان

افتُتِحتِ السّورة بالقسم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، فأقسم تعالى بمخلوقات عظيمة الشّأن، واللّه تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وذلك لغرض تحقيق ما بعده من الأخبار وتهويل المقسم به[2]، وفائدة القسم التّنبيه على العبرة بمضمون الخطاب؛ إذ القسم يدل على عظم شأن المقسم به، وللرّد على تكذيب المخاطَبين بالبعث[3]، وفي تصدير السّورة بالقسم تنويهٌ بموضوع السّورةِ وتنبيه المخاطَبين لما ستدور عليه السّورة من ذكر البعث وأهوال القيامة ووجوب الإيمان بها، والعقبة الكبرى في طريق النّاس في منعهم من الإيمان، وجود الطُّغيان، والاعتداء على الألوهيّة والربوبيّة في ادِّعائها لغير اللّه تعالى.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل مجموعًا مؤنثًا:

صفات الملائكة راسخة للقيام بوظائف معهودة

آثر النّظم الكريم التعبير باسم الفاعل مجموعًا مؤنثًا في المذكورات في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، فأمّا اسم الفاعل؛ فللدّلالة على ثبوت الوصف وقوّته، وغرض الجمع الدّلالة على كونها جماعات تتحقّق فيها تلك الأوصاف الثّابتة، وأنَّها

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 263، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 583.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 60، والسمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 147.
(3) الواحدي، البسيط: 23/ 170، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 218.

جماعات خُلِقت لأجلِ وظائف بأعيانها تُنفِّذها، وتعمل على تحقيقها، ونكتة التّأنيث التنبيه على أنها طوائف وجماعاتٌ من الملائكة[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بـ(النّازِعاتِ):

تخرج الأرواح من الأجساد جذبًا كجذب الدّلو من البئر

آثر النّظم الكريم التّعبير بالنّازعات في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا﴾ دون غيره من الألفاظ؛ لدلالة النّزع على الإخراج والجذب، فدلّ على أنّ عمل الملائكة بقبض الأرواح وإخراجها من الجسد يشبه نزع الدلو من البئر وجذبه منها[2]، ففيها إيماءٌ إلى قوّة النّزع للروح المستقرة في باطن الأبدان، ولا تخرج إلا بقوّةٍ ومكنة النّازع لها.

نكتة حذف جواب القسَم:

حذفُ جوابِ القسم قوّةٌ في إثبات مقصوده وجزالةٌ في تحقيق مضمونه

حُذِف جوابُ القسم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا ١ وَٱلنَّـٰشِطَٰتِ نَشۡطًا ٢ وَٱلسَّـٰبِحَٰتِ سَبۡحًا ٣ فَٱلسَّـٰبِقَٰتِ سَبۡقًا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾، والتّقدير: لتبعثنّ لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، أي: أنبعث إذا صرنا عظامًا، فاكتفى بدلالة مضمون الخطاب، وفهم السّامع عن ذكره[3]، ونكتة حذف الجواب توجيه الأذهان إلى ضرورة التَّفكُّر فيما هو واضحٌ للعيان، ومتحقّق في قابل الزّمان، وأنَّه لشدّة وضوحه حذف لفظه، وثبت معناه، وهذا من المحذوف الذي حذفه أبلغ من ذكره.

غرضُ تنكير المفاعيل:

أعمال الملائكة في غاية السّمو والعظمة

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة التّنكير في المفاعيل المطلقة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا ١ وَٱلنَّـٰشِطَٰتِ نَشۡطًا ٢ وَٱلسَّـٰبِحَٰتِ سَبۡحًا ٣ فَٱلسَّـٰبِقَٰتِ سَبۡقًا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾؛ وذلك لتعظيم شأن المذكورات وتأكيد المعنى[4]، المدلول عليه بالقسم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 61.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 61.
(3) الواحدي، البسيط: 23/ 170، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 396.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 64.

بلاغة استعمال مفردة ﴿غَرۡقٗا﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الغرق دون النّزع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، فلم يقل: (والنّازعات نزعًا)، كما هو في باقي المفاعيل المطلقة؛ وذلك لأنّ الإغراق يدلّ على كمال المبالغة في الفعل، ولو عبَّر بالمصدر (نزعًا)؛ لدلّ على التّأكيد حسبُ، أمّا الإغراق؛ فقد دلّ على شدّة النّزع بحيث إنّه يقع على أبلغ ما يكون[1]، أي: إنّها تفعل ذلك بقوّة شديدة، فتتغلغل إلى أقصى المراد من كلّ شيء من البدن؛ حتى الشّعر والظّفر والعظم، كما أنّ رامي النّبل يغرق في مدّ القوس؛ حتّى يبلغ أقصى المدّ[2]، وفيه إيماءٌ إلى شدّة تعلق الروح بالبدنِ.

الإغراق أدلُّ على كمال النّزع وبلوغه أقصى حدّ

نوع عطف (النّاشطات) على (النّازعات) ودلالته:

عطف النّظم الجليل ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ بالواو؛ لأنّ الصّفات متغايرة[3]، فالمعطوف بالواو مغاير لما قبله من حيث تغاير صفته لا جنسه[4]، والنّاشطات هي الملائكة التي تسرع بتنفيذ أوامر اللّه تعالى، وعطفها على النّازعات هو عطف نوع على نوع، أو عطف صنف على صنف[5] من أصناف الملائكة، فهي وإن كانت تشترك في الجنس، إلا أنها تختلف في النوع، فعطف الناشطات على النازعات من باب تغاير الأنواع لا الأجناس.

عطف (الناشطات) على (النازعات) من تغاير الأنواع لا الأجناس

دلالة المفعول المطلق ﴿نَشۡطٗا﴾:

التعبير بالمفعول المطلق ﴿نَشۡطٗا﴾؛ لتأكيد تحقيق الوصف، وأنّه

---
(1) الواحدي، البسيط: 23/ 157، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 394.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 218.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 311.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 396.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 63.

واقع على وجه الحقيقة، فهو مصدر مؤكّد يفضي لإرادة النّشاط على وجه الحقيقة والتّأكيد[1].

دلالة عطف ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾:

للملائكة صفات عديدة، وأعمال عديدة

عطف النّظم الجليل ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾؛ للدّلالة على المغايرة بين المذكورات في الوصف، فهو من عطف الصّفات بعضها على بعض[2]، فعطف نوعًا من الملائكة على نوع آخر قبله، والملائكة جنس واحد يغاير بينها صفاتها وأعمالها.

دلالة المفعول المطلق ﴿سَبۡحٗا﴾:

الملائكة سريعة السّبح، مقتدرة على النّفاذ

عبّر النّظم الجليل بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾؛ لتأكيد السّبح، وبيان أنّه في غاية السّرعة؛ وذلك لأنّه لا عائق يحول دون إنفاذ عملها، فقد أقدرها اللّه على النفوذ في كلّ شيء، كما أقدر السابح في الماء والهواء[3].

بلاغة العطف بالفاء دون الواو:

السّابقات مترتّبةٌ على السّابحات لا منفصلة عنها

عطف النظم الجليل ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ و﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾ على ما قبلها بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾؛ لأنّهما صفتان متفرّعتان عن صفة السّابحات؛ وذلك أنّ العطف بالواو في الآيات يدلّ على المغايرة لما قبله، فكلُّ صنفٍ مذكورٍ هو صنفٌ مستقلٌّ، أمّا العطف بالفاء؛ فيُشير إلى ترتيب وتسلسل بين الصّفات مع وجود ترابط سببي، ففي قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، الفاء تدلُّ على أنَّ الصِّفات المتعاقبة متفرعةٌ على ما قبلها ومترتبةٌ عليها، فالسّابقات سبقت بسبب السّابحات،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 63.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 396.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 219.

والمدبّرات تدبّر الأمور بعد ذلك، كما تقول: قام فذهب، فإنّ الفاء أوجبت أنَّ القيام كان سببًا للذّهاب، ولو قلت: قام، وذهب؛ لم يكن القيام سببًا للذهاب[1]؛ فآذنت الفاء بأنّ هاتين الصّفتين متفرّعتان عمّا قبلهما، وأنّ ما بعد الفاء هو من وصف المقسم به قبلها[2].

بلاغة استعمال مفردة ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾:

إنجاز العمل على أتمّ حال من صفات الملائكة

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة المدبّرات في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾؛ لدلالة لفظ التّدبير على إجراء الأعمال على أتمّ حال، وأدقِّ التفاصيل؛ لأنَّ التّدبيرَ هو فعِلُ المدبّر المتثبّت، وتدبير الملائكة يدلُّ على أنّها تنفّذ ما نيط بعهدتها على أكمل صورة كمن يتثبّت في الأمر[3].

غرضُ تنكير لفظ ﴿أَمۡرٗا﴾ وإفراده:

آثر النّظم الكريم تنكير لفظ ﴿أَمۡرٗا﴾ لتعظيم الأمر، أي: أمرًا عظيمًا[4]، والتّعبير بالمفرد يراد منه الدّلالة على الجنس، أي: كلّ الأمور[5].

بلاغة جناس الاشتقاق:

الأفعال الملائكيّة ذات سرعةٍ حسيّة وملاءمةٍ غيبيّة

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أسلوب جناس الاشتقاق، وهو ما يُضفي على النّص جماليَّةً لفظيّة ومعنويّة قويَّةً، فالتّعبير بألفاظ من جذر واحد يؤدّي إلى تكرار اللّفظ والمعنى، فيؤكّد على حركة الملائكة وسرعتها في التّنفيذ والأعمال، وشدّتها في ذلك، ويبرز مكانة الملائكة في طاعتها بلا توانٍ عن إجراء أوامر اللّه تعالى.

---

(1) الواحدي، البسيط: 23/ 167، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 32 - 33.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 396، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 264.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 65.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 220.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 65.

بلاغة ترتيب الصِّفات:

مراحلُ تنفيذ أمر الله تعالى قوّةٌ فنشاطٌ فانسياب فسبق فتدبير الحكيم

رتّب النّظم الجليل المذكورات في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ على هذا التّرتيب تبعًا للتّصعيد في المشهد، فابتدأ بشدّة النّزع، ثمّ ذكر النّشاط المستمرّ، فالسّير والانسياب، ثمّ السّبق والتّعجيل، وأخيرًا التّدبير والحكمة في إنفاذ الأمور وتحقيقها، فهذا التّرتيب يُبرز مراحلَ تنفيذ أمر الله تعالى من القوّة إلى الفعل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّدبير والتَّقدير:

التّدبير إيقاع الأمر على صلاح عواقبه، والتّقدير بيان مقاديره

التّدبير هو "تَقْويم الأمر على ما يكون فيهِ صَلاح عاقبته، وأصله من الدبر وأدبار الأُمور عواقبها وآخر كل شَيْء دبره، وفُلان يتدبر أمره، أي: ينظر في أعقابه؛ ليصلحه على ما يصلحها تَقْويم الأمر على مِقْدارٍ يَقع مَعَه الصّلاح، ولا يتَضَمَّن معنى العاقِبَة"[1]. أمّا التّقدير؛ فهو تبيين كمّيّة الشيء، وجعل الشّيء على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة[2]، وقد عبّر في الآية بلفظ التّدبير؛ للدّلالة على الملائكة الموكّلة بتدبير ما أمرت به، وما وكّلت فيه من الرّياح والأمطار[3]، فهي تصلح ذلك، وتقوّمه، وليس المراد بيان مقاديره.

(1) العسكري، الفروق، ص: 191.
(2) الراغب، المفردات: (قدر).
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 194.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ
٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ
زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ [النازعات: 6 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تعظيم الملائكة وأعمالها توطئةٌ لتهويل يوم البعث

لمّا بيّنتِ الآيات السّابقة ما أقسم الله به من الملائكة وأفعالها العظيمة، التي تدل على كمال قدرته في إنفاذ حكمه وقضائه في الحياة الدُّنيا؛ ناسب الانتقال إلى ذكر يوم القيامة وأهواله؛ ليُبيّن أن هذه الأقسام ما هي إلا تمهيد لهذا اليوم العظيم، فالله سبحانه أقسم بقدرته على نزع الأرواح والتصرف في شؤون الكون؛ ليؤكد أن قدرته على البعث والنشور أعظم وأجل، وأن هذا اليوم واقعٌ لا محالة؛ لأنّ النّفوس المحسوسات نزاعة، فالغائبات عندها منسيّة مُضاعة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: رَجَفَ الشيءُ يَرْجُفُ رَجْفًا ورَجَفانًا، كما ترجُفُ الشَّجرة؛ إذا رَجَّفَتْها الريح، ورَجَفَت الأرْضُ؛ إذا تَزَلْزَلَت، وقال الله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾: الأرْض تَرْجُفُ، تَتَحَرك حركةً شديدة، وهي الزَّلْزَلة[2]، والمراد به في الآية الكريمة: الاضطراب والزّلزال الشّديد، وهي الصّيحة الأولى التي يميت بها الخلائق[3]، فهي صيحة عظيمة فيها تردّد، واضطراب كالرّعد[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 222.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (رجف).
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 147.
(4) الواحدي، البسيط: 23/ 172.

2) ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: (ردف) أصلٌ يدلّ على اتّباع الشّيء، فالتّرادف: التّتابع، والرّديف: الذي يرادفك[1]، وما تَبِعَ شيئًا فهو رَدِفُه، وإذا تتابع شيءٌ خَلْفَ شيءٍ؛ فهو التّرادُف، والجميعُ: الرُّدافَى[2]، ويُقالُ: جاءَ القَومُ رُدافَى، أي: بَعْضُهُم يَتْبَعُ بَعْضًا[3]، والمراد به في الآية الكريمة: النّفخة الثّانية التي فيها البعث، ردفت النّفخة الأولى[4].

3) ﴿وَاجِفَةٌ﴾: أصل (وجف) يدلّ على خِفّة حركة الشّيء ومباعدته مقرّه، ومن خفّة الحركة: وجَفَ القلبُ: خفق من الخوف[5]، ووجف الشّيء، أي: اضطرب، وقلبٌ واجِفٌ[6]، قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي: مضطربة[7]، والمراد به في الآية الكريمة: خائفة، شديدة الاضطراب[8].

4) ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: (حفر) أصلٌ يدلّ على أوّل الأمر[9]، يقال: رجع فلان في حافرته، وإلى حافرته، أي: في الطريق التي جاء فيها، ثم عبر به عن الرجوع إلى الحالة الأولى[10]، والحافِرة: العَوْدة في الشيء حتى يُرَدَّ آخره على أوّله، وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾، أي: في الخَلْق الأول بعد ما نموتُ كما كُنّا[11]، والمراد به في الآية الكريمة: أوّل أمرنا، أي: إلى الحياة[12].

5) ﴿نَّخِرَةً﴾: (نخر) أصلٌ يدلُّ على صوت من الأصوات، والنّخير: صوت يخرج من المنخرين، ومنه يُقال لهبوب الرّيح: نخرة، وكذلك الشّجرة النّخرة والعظم النّخر؛ لأنّ ذلك يتجوّف، فتدخله الرّيح، ويكون لها عند ذلك نخرة، أي: صوت، والنّخر: البالي[13]،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردف).
(2) الخليل، العين: (ردف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ردف).
(4) الواحدي، البسيط: 23/ 173.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجف).
(6) الجوهري، الصحاح: (وجف).
(7) الراغب، المفردات: (وجف).
(8) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 195، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 449.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفر).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (حفر).
(11) الخليل، العين: (حفر).
(12) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 148.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نخر).

ونَخِرَتِ الخَشَبةُ، أي: بَلِيَتْ، فاستَرْخَت حتى تَفَتَّتَ؛ إذا مُسَّتْ، وكذلك العظم الناخر[1]، وقوله تعالى: ﴿كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾، أي: بالية، من قولهم: نخرت الشّجرة، أي: بليت، ورُمّت حتّى سمع فيها نخير الرّيح، أي: صوتها[2]، والمراد به في الآية الكريمة: أنّها بالية فانية[3].

6) ﴿كَرَّةٌ﴾: (كرر) أصلٌ يدلّ على جمع وترديد، من ذلك الكَرُّ، والتَّكرار: وذلك رجوعك إلى الشيء والعود إليه والعطف عليه بعد المرة الأولى، ومنه كرَّ في الحرب، أي: رجع إليها[4]، ويقال: كررت عليه الحديث إذا رددته عليه[5]، والمراد به في الآية الكريمة: الرّجعة[6].

7) ﴿زَجْرَةٌ﴾: أصل (زجر) يدلُّ على انفصال أو ابتعاد بعنف وقوة[7]، يقال: زَجَرْتُ البعيرَ؛ حتى ثارَ، ومضى أزجُرُهُ زَجْرًا، وزَجَرْتُ فلانًا عن السّوء، فانزَجَرَ، وهو كالرَّدع للإنسان[8]، والزَّجْرُ: طرد بصوت، وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾ [الصافات: 2]، أي: الملائكة التي تَزْجُرُ السّحاب[9]، وقوله تعالى في بعثه الموتى من قبورهم: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، فهي صيحة أو نفخة يقومون بها من القبور[10]، والصيحة هي معنى اللفظة في الآية الكريمة[11].

8) ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: (سهر) أصلٌ يدلّ على الأرق، وهو ذهاب النّوم، يُقال: سهر يسهر سهرًا[12]، والسّاهرةُ: وجهُ الأرضِ العريضةِ البسيطة، وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وجه الأرض[13]، يعني: أنهم يخرجون من بطنها إلى ظهرها، وسُمّيت الأرض ساهرة؛ لأنّ نوم النّاس وسهرهم عليها[14]، وهي أرض القيامة[15].

(1) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نخر).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (نخر).
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 148.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كرّ)، والسّمين، عمدة الحفاظ: (كرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كرر).
(6) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 449.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زجر).
(8) الخليل، العين: (زجر).
(9) الراغب، المفردات: (زجر).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زجر).
(11) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 148.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهر).
(13) الخليل، العين: (سهر).
(14) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 148.
(15) الراغب، المفردات: (سهر).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكـرُ أهـوالِ القيامةِ برهانٌ قـاطـعٌ على وقوعها

تُبيِّن الآيات الكريمة أنَّ البعث حقٌّ من خلال سرد أهوال القيامة، أي: لتُبعثنَّ يا كفّار مكّة يوم تتحرّك الأرض وتضطرب بالنّفخة الأولى لإماتة الأحياء حركة شديدة، وتتزلزل زلزلة عظيمة من هول ذلك اليوم، ويموت كلُّ شيءٍ عليها بأمر الله ﷻ، ثمّ تتبعُ نفخةَ الإماتة نفخةُ الإحياء للبعث والحساب، في ذلك اليوم تكون قلوب الكفار مضطربة من شدّة الخوف، وأبصار أصحابها ذليلة من هول ما ترى، ثمّ ذكرتِ الآيات ما يقوله هؤلاء المكذبون بالبعث: أنُرَدُّ بعد موتنا إلى ما كنا عليه أحياء في الأرض؟ ويقولون: أنردُّ وقد صرنا عظامًا بالية؟ وقد كانوا قالوا: إنّ رجعتنا تلك ستكون خائبة كاذبة، فإنّما هي نفخة واحدة، فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة البدءِ بالظّرف:

يـوم البـعث أهـوالٌ وخسفٌ راجفٌ

بعد ذكر القسم وجوابه المقدّر؛ أتبعه ببيان زمانه في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ فـ (يوم) هو ظرفٌ لجوابِ القَسَم المقدَّر، أي: لتُبعثَنَّ يوم ترجفُ الأرض، والمعنى: أقسمت لكم بالأمور السّابقة، لتُبعثَنّ يومَ ترجف الرّاجفة[2]، فدلَّ الظّرفُ على جواب القَسَم المحذوف، وفي ذكر الظّرف بعد القسم إثارةٌ للذّهنِ لمعرفةِ ما تعلّق به الظّرف، وفي البدءِ به تهويلٌ لشأنِ الزّمن الذي ستكون فيه تلك الأهوال.

بلاغة استعمال مفردة ﴿تَرۡجُفُ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ في قوله جلّ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 71 - 72، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 583.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 71.

زلزلة السّاعة مصحوبة بصيحة عظيمة بتردّد ينزع الأرواح

شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾؛ لدلالة الرّجفة على الحركة الشّديدة والزّلزلة العظيمة التي تقع في النّفخة الأولى[1]، والرّجفة لا تدلّ على الحركة حسب، بل تدلّ على تردّد واضطراب، كما في قولهم: رجف الرّعد، بمعنى تردّد هدهدته في السّحاب، فالرّاجفة تعني: صيحة عظيمة فيها تردد، واضطراب كالرّعد[2]، فالتّعبير بها أدلّ على شدّة الاضطراب وقوّته، أي: "تضطرب اضطرابًا كبيرًا مزعجًا"[3].

نكتة التّعبير بصيغة اسم الفاعل:

الرّاجفة راسخةُ الثُّبوتِ لأحداث القيامة في الأرض

آثر النّظم الكريم التّعبير بالرّاجفة على صيغة اسم الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾؛ للدّلالة على قوّة الاتّصاف بالرّجف، فهي ترجف القلوبَ وجميعَ الأشياء في الأرض والجبال، وتنزع النفوس من جميع أهل الأرض بحيث إنّها جديرة بأن توصف بالعراقة في الرّجف[4]، ولتجمع بين قوّةِ الحدثِ ورسوخه واتّصافه بما يُشبه العَلَم.

بلاغة جناس الاشتقاق بين ﴿تَرۡجُفُ﴾، و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾:

جناس الرجفة إيقاع يهزّ السامع بهول المشهد

جمع النّظم الجليل على طريقة الجناس الاشتقاقي بين الفعل ﴿تَرۡجُفُ﴾ واسم الفاعل ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، فكلا اللّفظين من أصل واحد، وهو الجذر (رجف)، ويُبرز الجناس الاشتقاقي هنا جمالًا بلاغيًّا عميقًا؛ إذ يؤكد الفعل ﴿تَرۡجُفُ﴾ مع اسم الفاعل ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ على هول الحدث وقوته، ويرسّخ في الذّهن صورة الرّجفة الشّديدة، والمراد من ذلك إيقاع الوعظ بحيث يثير الانتباه إلى مضمون الخطاب.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 96.

(2) الواحدي، البسيط: 23/ 171 - 172.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 222.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 222.

بلاغة المجاز العقلي:

شـدّة النّـفخة وقـوّتـها تسبّب زلزلة الأجرام

أُسنِد فعل ﴿تَرۡجُفُ﴾ إلى الصّيحة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ على طريقة المجاز العقليّ، أي: إنّها ترجف عندها الأجرام الساكنة، فتتحرك حركة شديدة وتزلزل زلزلة عظيمة، فأسند الحركة والاضطراب إلى الصّيحة والنّفخة؛ لأنّها سببه[1].

دلالة جملة الحال:

تصوير تعاقب الـرّجـفـتـين وتـحـقّـق وقوعهما

جاءت جملة الحال: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ مسوقة لبيان حال الرّجفة، فلمّا ذكر الصيحة الأولى؛ أتبعها الثانية الدّالّة على حالها، والمراد بيان قربها قربًا معنويًّا، وللدّلالة على تحقّق الوقوع، فكلتا الصّيحتين في حكم يوم واحد، فصحّ مجيء الحال وإن بعد زمن النّفخة الثّانية من صاحب الحال، وهو النّفخة الأولى[2].

دلالة استعمال مفردة المتابعة:

لا أحـداث بين النّفختين تفصل بـعـضـهـا عـن بعض

آثر النّظم الكريم استعمال فعل ﴿تَتۡبَعُهَا﴾؛ لدلالته على التلوّ والقَفْو[3]؛ وذلك للدّلالة على أنّ النّفخة الأولى تتبعها ثانية، فالمراد أنّهما نفختان تأتي الثّانية عقب الأولى كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: 68][4]، فدلَّ فعل تتبعها على الاتزان في المتابعة المقصود منه إنفاذ أمر الله تعالى كما أمر، وأنّها تأتي ضمن نظام كونيٍّ استثنائيٍّ لا يحيد عن الأمر الإلهيّ، فاتباع الثانية للأولى قد يطول في ميزان المخلوق، لكنه في ميزان الله تعالى اتباعٌ وقفوٌ، أي: لا يوجد بينهما فاصل من الأحداث المتعلقة بالقيامة، بل هما حدثان متتابعان.

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 396.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 222 - 223.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 67.

بيان اتّصاف الثّانية بالراجفة، وأنّها على إثر الأولى

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الرّادفة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، وهو لفظ يعبّر عن الشيء المتأخر، أو الذي يأتي بعد شيء آخر[1]، فالرّجفة الثّانية تتبع الرّجفة الأولى، وتأتي بعدها[2]، وجاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل؛ للدّلالة على قوّة الوصف وثبوته، وليؤكِّد أنّ هذه الصّفة ثابتة في ذلك الحدث العظيم، فالرّادفة صفةٌ مستقلّةٌ وقائمةٌ بذاتها، موصوفةٌ بثبات التبعية للرّاجفة، وذلك ليترسّخ في ذهن السامع حتميَّة وقوع الحدث الثاني بعد الأوّل، وأنَّه من جنس الأول، فوصف الأول بالراجفة لأثره، ووصف الحدث الثاني بالرادفة؛ لبيان أمرين: الاتّصاف بالراجفة، وبيان أنّها تأتي على إثرها.

غرض تنكير لفظ القلوب:

نُكِّر لفظ القلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ للتّكثير، وهو نكرةٌ لإرادة النّوعية[3]، أي: إنَّ القلوب الواجفة الخائفة هي أكثر قلوب ذلك الموقف.

الخوف من أهوال يوم القيامة يغطّي على كل خوف قبله

نكتة التَّعبير بالظرفيَّة:

عبّر النّظم الجليل بالظّرف في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ خوف تلك القلوب في ذلك اليوم لا يخلو منه أحد[4]، فهو لبيان وقت وجل القلوب، فالمشركون في الدّنيا غافلون، ولا يخافون ما يوعدون به من سوء المصير، فالخوف يدبّ إلى تلك القلوب يوم القيامة، فيرون الحياة الآخرة بعد الأولى عيانًا، أي: قلوبُ النّاس يوم إذ ترجف الراجفة التي تتبعها الرادفة ستكون خائفة.

(1) الراغب، المفردات: (ردف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 67.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 67، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 265.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 68.

نكتة تقديم الظّرف على ﴿وَاجِفَةٌ﴾:

القلوب الساهية اللاهية ستخاف يقينًا يوم الحساب

قُدِّم ذكرُ الظّرف في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ دون أن يقول: (قلوبٌ واجفة يومَئذٍ)؛ لتأكيد أنَّ وقوعَ الوجيف مقيّدٌ بذلك اليوم العظيم، ولبيان أهميّته وشدّة سيطرته على تلك القلوب، فقلوب الكافرين في الدّنيا آمنة مستقرة، لا تخاف، ولا تضطرب، فأكّد النّظم الكريم أنّ هذا الوجيف هو صفة ستلحقهم في ذلك اليوم لحوقًا أكيدًا.

بلاغة استعمال مفردة ﴿وَاجِفَةٌ﴾:

الوجيف يجمع بين الاضطراب الخارجي والخوف الباطني

آثر النّظم الكريم التّعبير بصفة الوجيف في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾؛ للجمع بين معنيي الخوف والاضطراب، فالواجفة: هي المضطربة من الخوف[1]، أي: مضطربة قلقة عن مقارّها لما تشاهد من عظيم الأهوال[2]، وفائدة هذه المفردة تصوير مظاهر الخوف، وبيان عمقه النّفسي.

بلاغة الخبر بعد الخبر:

برهان ذلّ البصر على وجيف القلب

على القول: إنَّ قوله تعالى: ﴿أَبۡصَٰرُهَا﴾ خبرٌ ثانٍ، لقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، فيكون الخبر قد زاد المبتدأ بيانًا بعد الخبر الأول، وذلك بتصوير حال أبصارها بالخشوع، فهو يزيد بيان حال أصحاب تلك القلوب والمراد من الوجيف[3].

سرّ تخصيص الأبصار بالذكر:

الاحتراس عن توجيه المعاني لغير المراد

خصَّ النظم الكريم الأبصار بالذّكر في قوله جلّ شأنه: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾؛ لأنّها أوضح ما في الوجه في بيان شديد الخوف والاضطراب، فلمّا وصف النّظم الجليل القلوب بالاضطراب، ولم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 68.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (وجف).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 68.

يبيّن سببه؛ فقد يكون ذلك عند السرور العظيم، وقد يكون عند الوجل الشّديد، فأخبر عنه بما يحقّق أنّه بسبب الذّلّ والهوان(1)، فهو بيانٌ شبيه بالاحتراس، كي لا يقع في مناكفة باطلة أهل الجحود والباطل.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الذلّ البادي في العيون ذاته المستقرّ في القلوب

حذف النّظم الجليل المضاف إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾، والتّقدير: أبصار أصحابها خاشعة؛ وذلك للدّلالة على أنّ الذّلّ والخوف يظهران في الأبصار(2)، وهذا الحذف البليغ يربط خشوع الأبصار بالقلوب الواجفة ربطًا مباشرًا؛ ليصوّر أنّ الهول المستقر في الباطن هو ذاته الذي أذلّ الظاهر وأخضعه.

بلاغة استعمال مفردة الخشوع:

تجسيدُ الذُّلّ والانكسار في خشوع الأبصار

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الخشوع في قوله جلّ شأنه: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾؛ وذلك لأنّ حقيقة الخشوع: الخضوعُ والتّذلّل، وإسناد هذا الوصف، الذي هو هيئة للإنسان إلى الأبصار هو من باب المجاز الذي يرسم صورة حسية تظهر هيئة الانكسار بانخفاض النّظرات، وهيئة الهلع بالنّظر خفية من شدّة الخوف والفزع مما يشاهدونه من سوء المعاملة، فجاء هذا اللفظ أبلغ ما يكون في تجسيد الذلّ الكامل والانكسار التام الذي يستحوذ عليهم في ذلك الموقف(3).

نكتة تقديم القلوب على الأبصار:

تقديم العلل على نتائجها والأصول على فروعها

قدّم النّظم الجليل ذكرَ القلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ على ذكر الأبصار في قوله: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأنّ الخوف في القلب، وأثره يظهر في الذّلّ البادي في العين، فقدّم الأصل على الفرع، والعلّة على النتيجة، فلولا خوف القلوب؛ ما خشعت أبصار أصحابها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 224.

(2) تفسير المراغي: 30/ 25.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 68.

خوفُ المشركين في الآخرةِ نتيجةُ اعتقادِهم في الدُّنيا

علَّة فصل جملة القول:

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا؛ سيقت بعد جملة القسم وجوابه؛ لإفادة أن هؤلاء هم الذين سيكونون أصحاب القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة يوم ترجف الراجفة. وهي صالحة أن تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فهي جواب عن سؤال يثيره القسم وما بعده من الوعيد، كأنّه قيل: لماذا وقع لهم ذلك؟ فأجيب بأنّهم يقولون ما يظهر تكذيب الوعيد والبعث[1].

خوف القلوب نتيجة استمرار قول الباطلِ في الدنيا

دلالة التَّعبير بفعل القول مضارعًا:

جاء التّعبير بفعل القول مضارعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾؛ لحكاية ما يقوله الكافرون الذين يُنكرون البعث[2] في الدنيا، ويدلّ على أنّهم مستمرون على مقالتهم تلك، وأنّ قولهم متجدد فيهم لا يرعوون عنه، ويستجلب المضارع كذلك صورتهم وحالتهم، وهم يقولون ذلك للتّعجيب من سوء قولهم[3]، ويُبيِّن أنّهم لم يقولوا قولتهم تلك مرّةً أو مرّتين، بل هي ديدنهم الذي استمرّوا عليه، وبناءً عليه وجفت قلوبُهم، وخشعت أبصارهم.

تسجيل مواقف المستهزئين في الدُّنيا تعليل خوفهم في الآخرة

غرضُ الاستفهام ودلالتُه:

الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ للإنكار[4]، وذلك لحكاية تعجّبهم وتهكّمهم من الرسول الذي يحدّثهم عن البعث، فالاستفهام يُؤذِن بأنّهم كانوا يقولون ذلك في شأن البعث على سبيل التّهكّم والتّعجّب[5]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 68 - 69.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 97.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 69.

(4) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 449.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 266.

ودلَّ الاستفهام على قبحِ قيلهم، فهم لم يُنكروا حسب، بل تهكّموا، وتعجّبوا بقصد الاستهزاء والسُّخرية، وهو ما سجّله القرآن عليهم؛ لبيان انقلاب مشهد السُّرور المقترن بالاستهزاء، إلى مشهد الخوف المقترن بالإبلاس.

نكتة توالي المؤكِّدات:

تعجّب المنكرين إيماءٌ إلى مدحِ المؤمنين

دخل الاستفهام التعجيبيّ: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ على جملة اسميّة مؤكَّدة بـ (إنَّ) وبلام الابتداء؛ وذلك لتقوية الخبر لإفادة أنَّهم أتَوا بما يفيد التعجب من الخبر ومن شدّة يقين المسلمين به، فهم يتعجبون من تصديق هذا الخبر فضلًا عن تحقيقه والإيقان به[1].

بلاغة اجتباء مفردة الردِّ:

مناسبة المفردة لأسلوب الاستفهام

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة مردود في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾؛ للدّلالة على إعادة إحيائهم بعد الموت، فهم أنكروا ذلك، وتعجّبوا منه متهكّمين بقائله، فالرَّدُّ يكون للأحياءِ، فكيف لميّت أن يُردَّ بعد أن يموت؟ وهذا وجه الإنكار التّعجبيّ، فكان اختيار مفردة (لَمَرْدودونَ) لزيادة غرض الاستفهام، فيتلاءم أسلوبُ الاستفهام مع دلالة المفردة، وجاء التّعبير بصيغة اسم المفعول المشتقّة من الفعل المبني للمفعول؛ للدّلالة على أنّ التّعجّبَ واقعٌ من الرّدِّ لذاته، أي: إنّنا نتعجّب بردّنا بعد الموت من أيّ كائنٍ كان[2].

بلاغة التعبير بحرف الظّرفية:

فهمُ المنكرون لواقع البعثِ قادهم إلى التّكذيب لا الإقرار

آثر النّظم الكريم استعمال حرف الظّرفيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ دون (إلى)، وذلك لبيان وجه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 224.

إنكارهم، وهو أن يكون الرَّدُّ في ذات الحافرةِ، فالدّفن في الأرض، والردُّ فيها لا إليها؛ لأنّهم لن يخرجوا منها، ثم يعودوا إليها، فاستعمال حرف الظرفية لوصف الواقع الذي فهمه المنكرون للبعث.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾:

الحافرة لفظ دالٌّ على معاني الحياة والحركة والموت

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾؛ لما في هذا اللفظ من ثراء دلالي، فهو يدلّ على معانٍ متعدِّدة، فيُشير إلى الحالة الأولى (الحياة)، كما تُلمِّح إلى القبر المحفور، وتستدعي صورة الطريق الموطوءة بالأقدام[1]، يُقال: رجع فلان إلى حافرته، أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي: أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفرًا، أي: لأنَّ قدميه جعلتا فيها أثرًا مثل الحفر، وأشار إلى أنَّ وصفَ الطريق بأنَّها حافرة على معنى ذات حفر، وجوز أن يكون على المجاز العقلي كقولهم: عيشة راضية، أي: راضٍ عائشها، ويقولون: رجع إلى الحافرة؛ تمثيلًا لمن كان في حالة، ففارقها، ثم رجع إليها، فصار: رجع في الحافرة، ورد إلى الحافرة، جاريًا مجرى المثل[2]، وهو مناسبٌ جدًّا لمفردة الردّ، فإنَّ الرّدَّ يدلُّ على الرَّدِّ في طريقٍ حفرتْهُ الأقدام، فرُدَّ فيها.

كما أنَّ الحفر صفةٌ لأرض الدّنيا، فطريق الحياة والبقاء في حفر الأرض بعمقٍ لاستخراج مائها من آبارها، وحفر سطحها لحرثه وبذره، فصار اللفظُ صورةً مركَّبة توحي بالرُّجوع إلى ما كان، وتجمع مشهدَ الحياة والموت معًا، وجاءت صيغة اللفظ منسجمةً مع الألفاظ الواردة في السّورة كالرّاجفة، والرّادفة، "والحافرة، قيل: فاعلة بمعنى مفعولة، وقيل: على النسب، أي: ذات حفر، والمراد الأرض"[3].

(1) الواحدي، البسيط: 23/ 178.

(2) الراغب، المفردات: (حفر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 70.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 364.

علّة فصل جملة الاستفهام:

فصل النظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ لإبراز الإنكار وتأكيد الاستبعاد، فالاستفهام توكيدٌ للسّابق؛ إذ صوّرَ الردُّ والبعث مقرونًا بأقصى أحوال البِلى والفناء، فجاء الفصل لتقوية معنى الاستبعاد والتعجّب، وليجعل السياق أوضح في إظهار بعد الحياة عن العظام النّخرة[1].

توكيد الإنكار التّعجبي بمثله تصعيدٌ في الخطاب

غرض الاستفهام ودلالته:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ لتأكيد الإنكار الأول في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾.

نكتة التّعبير بالظرفيّة:

استعمل النّظم الجليل الظّرف الزّمانيّ (إذا) في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ لإبراز موضع الإنكار والتعجّب، فجعل الزمن (إذا صرنا عظامًا بالية) هو مدار الاستحالة عند الكافرين، أي: إنَّهم ربطوا استبعادَ البعث بلحظة البِلى والفناء، فكان الظرفُ أوقعَ في تصوير التّعجّب والإنكار من مجرد ذكر الحال دون ظرف[2].

الظرف يصوّر مناط الاستحالة الموهومة

نكتة التّعبير بفعل الكون دون الصّيرورة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل ﴿كُنَّا﴾ دون الفعل (صرنا)، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ للدلالة على أن البِلى والتحول إلى عظام نخرة قد صار حالًا ثابتًا وجِبلةً لهم[3]، لا مجرد انتقال عابر، فـ"الكون" يصوّر الحالة على أنها تحقق قائم وواقع لا رجعة فيه في نظر المنكرين، مما يزيد الإنكار شدّةً ويجعل دعوى البعث في تلك الحال أبعَد عن التصديق.

فعل الكون يرسّخ الحال، فيُؤكّد الرجوع

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 98.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 70.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 225.

فائدة تنكير ﴿عِظَٰمٗا﴾ وجمعها:

توسيع مشهد البعثِ لإظهار الاستحالة

آثر النّظم الكريم تنكير لفظ العظام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾؛ ليجعل المعنى عامًّا وشاملًا لكل العظام، وليشمل الخلقَ كلَّهم، فالصورة تتسع لجميع البقايا البشرية بعد البلى، فهو يظهر شدّة إنكار المنكرين، ويُبرز ظنّهم باستحالة العودة للحياة.

بلاغة استعمال مفردة ﴿نَّخِرَةٗ﴾:

شـدّة البلى والتّفتّت تُحيل البعثَ في ظنِّ المنكرين

آثر النظم الكريم استعمال مفردة ﴿نَّخِرَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾؛ لما فيه من تصوير دقيقٍ للبلى والهلاك، فالنّاخر هو البالي الأجوف الذي يسمع له نخير؛ إذا مرّت خلاله الرّيح[1]، والنّخرة صفة مشتقة من "نخر العظم"، أي: فرغ الوسط وأصبح أجوفَ، وجاء التأنيث مراعاةً لموصوفه جمع التكسير؛ لتصبح الصورة حيّة وملموسة، وبهذا يُصوِّر اللفظ أن العظام صارت في غاية الانتهاك، حتى أن الأجوف منها يسمع له صرير الريح، مما يزيد من بيان شدّة إنكار المنكرين للبعث، فهو حالة أقرب إلى الاستحالة في تصوّرهم[2]، وجاء التّعبير بصيغة (فَعِلَة)؛ لبيان شدّة البلى، فهي في غاية الانتخار والتّفتّت[3].

بلاغة الإيجاز بحذف جواب الشَّرط:

الإيجاز بحذف الجواب ظاهرةُ ترابطٍ بين الجمل

جاء التعبير بأسلوب الشّرط في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ محذوفَ الجواب، وجاء ذلك طلبًا للإيجاز وتقوية الصورة، أي: نرد إذ ذاك إلى حالتنا الأولى ونقوم كما كنا؟ والعامل فيه يدل عليه ﴿لَمَرۡدُودُونَ﴾، أي: أئذا كنّا عظامًا بالية نُردّ، ونبعث مع كوننا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 98.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 70.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 225.

أبعد شيء عن الحياة[1]، فصار الحذف وسيلة بلاغية لتأكيد المعنى بادّعاء أنّ استحالته ظاهرة، فهو تعبير أوجز.

علّة فصل جملة القول:

سردُ أقوال الكافرين احتجاجٌ عليهم

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ إمّا لأنّها بدل اشتمال من جملة: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾[2]؛ لزيادة توكيد قولهم، وإمّا أن تكون استئنافًا مسوقًا لحكاية كفرٍ آخرَ متفرّعٍ على كفرهم السّابق[3]، وأيًّا ما يكن سبب الفصلِ؛ فهو داخلٌ في تعداد كفرهم وجرمهم، وأنَّه جرمٌ عظيمٌ، وهذا الفصل البلاغي يوضح أن القول الثّاني هو قولٌ للكافرين، وأنّه مستقلّ عن الأوّل، ويمنع التباس كونه استئنافًا من جانب اللّه تعالى[4].

نكتة تكرار فعل القول:

إظهار تنوُّع مقاصد الكافرين في أقوالهم

آثر النّظم الكريم تكرار فعل القول: ﴿قَالُواْ﴾؛ ليُظهر تعدّد المقاصد في أقوال الكافرين، فالقول الأول كان غرضه الإنكار والإبطال، أمّا القول الثاني؛ فغرضه الاستهزاء والسخرية؛ إذ وصفوا الكرّة بالخسران من باب الافتراض والتّقدير.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

الإصرار على الكفر، ومفاصلة الحقّ

جاء التّعبير بصيغة الماضي: ﴿قَالُواْ﴾ دون المضارع: (يَقولونَ)؛ وذلك للإيذان بأنّ قولهم هذا لم يصدر عنهم بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم[5].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

الإشارة إلى بُعْد البعث تأكيد للإنكار

آثر النّظم الجليل استعمال اسم الإشارة الدّالّ على البُعد في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 364.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 70.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 364.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 71.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 98.

قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ للتّعبير عن الردّة إلى الحياة بعد الموت؛ إيذانًا بما في زعمهم من غرابة وبُعدٍ عن المعقول[1]، فالبُعد هنا بُعد معنوي لا مكاني، يراد به استبعادهم للبعث واستعظامهم له، وجاءت الإشارة مؤنثةً لمطابقة خبرها ﴿كَرَّةٌ﴾، وأيضًا قُدّمت على حرف الجواب ﴿إِذٗا﴾؛ للعناية بموضع الإشارة، وكشف عمق استهزائهم[2].

دلالة التّعبير بـ﴿إِذٗا﴾:

المنكر يُحاول إيهام الآخرين بقدرته على استنباط المعاني

عبّر النّظم الجليل بحرف الجواب ﴿إِذٗا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ جوابًا لكلامهم السابق، ليجعل من دعواهم نتيجةً حتمية لخيبتهم[3]، فهم قدّموا بكلام ثم استنبطوا في ختامه نتيجةً عجيبةً وهي خسران الكرّة، وذلك إيهامٌ لعقولِهم الباردة بأنّهم يُفكّرون، ويتأمّلون، فأنتج فكرهم تلك الخيبة العقليّة.

دلالة التّعبير بمفردة الكرّة:

رجوع إلى الحياة يسفر عن خسران المنكرين

عبّر النّظم الجليل بلفظ الكَرَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ لتصوير الرجوع بعد الذهاب، الواحدة من الكرّ، وهو الرجوع بعد الذهاب، أي: رجعة[4]، فالكرّة أن ترجع مرّة تلو الأخرى، ففيها تكرار الرجوع، فدلَّ كلامهم على تهكُّمهم بالرجوع، لافتراض تكراره.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿خَاسِرَةٞ﴾:

الخسارة خسارة العقل الدّال على الحقِّ

آثرَ النّظم الكريم استعمالَ مفردةِ الخسران، وأصله نقص مال التجارة التي هي لطلب الربح، أي: زيادة المال، فاستعير في قوله تعالى: ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾؛ لمصادفة المكروه غير المتوقع[5]، أي: إنَّهم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 225.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 71.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72.

حال تحقّق ذلك فما سيجدونه مكروه غير متوقع؛ لما سينشأ عنه من نقصانِ الخير.

غرض تقديم اسم الإشارة على حرف الجواب:

قُدِّم اسمُ الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ على حرف الجواب ﴿إِذًا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾؛ للعناية والاهتمام بالمشار إليه، والتّقدير: إذًا تلك كرّة خاسرة[1].

بلاغة المجاز العقليّ في وصف الكرّة بالخسران:

ثقةُ المنكِر بقيله أوردته المهالك

وصف النّظم الجليل الكرّة بالخسران في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، فالكرّة لا تخسر؛ لأنَّ الخاسرَ أصحابها، والمعنى: إنّا إذًا خاسرون لتكذيبنا وتبين صدق الذي أنذرنا بتلك الرجعة[2]، ووصفها بالخسران؛ ليبرز استحالة النفع، والمراد أنّ أهلها خاسرون، كما يُقال: تجارة رابحة، أي: يربح أصحابها، فمعنى ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: يخسر فيها صاحبها[3].

نوع الفاء ودلالتها:

إنــهــاء قـيـل المنكرين بزجرٍ يُـلائـم سياق الآية

افتتح النّظم الجليل الجملة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، وهي الفاء الفصيحة للتفريع على إنكارهم البعث، كما عبّر عنه قولهم السّابق في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، وتقدير الكلام: لا عجب في ذلك، فإنّما هي زجرة واحدة، فإذا أنتم حاضرون في الحشر[4]، وقد اختصرت الفاء الألفاظ، وأوجزت في التعبير، ليتلاءم ذلك مع سرعة الزّجر وفجاءته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 267.
(3) الواحدي، البسيط: 23/ 181.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72.

بلاغة القصر بـ(إنّما):

زجرةٌ واحدة كفيلةٌ بالرِدَّةِ القاضية

جاء استعمال أسلوب القصر بأداة (إنّما)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، وهو قصر حقيقي، يُراد منه تأكيد الخبر، وذلك بتنزيل السامع منزلة من يعتقد أنَّ زجرةً واحدة غير كافية في إحيائهم، وتقدير الكلام: فما هي إلّا زجرة واحدة؛ فإذا أنتم حاضرون في الحشر[1]، فأفاد القصر الحقيقي تأكيد كفاية الزّجرة الواحدة في تحقيق الإحياء على خلاف ما يتوهّمه المنكرون، بأنَّ الأمر أصعب من ذلك وأعسر، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

بلاغة التّعبير بالضمير:

البعثُ يُعرف حتمًا لا احتمالًا

جاء المسندُ إليه ضميرَ غيبة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ ليُقدّمَ الإجمالَ، ثمّ يُتبعه بالبيان، وجاء مؤنثًا؛ ليحسن عوده إلى كلمة زجرة، وهذا الأسلوب من أبلغ وجوه ضمير الشّأن[2]، ولذلك ترك التصريح بالبعث والقيامة، ولتنزيل القيامة منزلة ما يُذكر إجمالًا، فيُعرف حتمًا لا احتمالًا.

بلاغة استعمال مفردة ﴿زَجْرَةٌ﴾:

صوتُ الزّجرِ مشوبٌ بالغضبِ والشدّة

عبّر النّظم الجليل بلفظ الزّجرة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ للدّلالة على الصّيحة التي تنهضهم من قبورهم، والزجر هو الكلام الذي فيه أمرٌ أو نهيٌ في حالة غضب، يُقال: زجر البعير؛ إذا صاح له لينهض، أو يسير، وعبر بها هنا عن أمر اللّه بتكوين أجساد الناس الأموات؛ تصويرًا لما فيه من معنى التسخير لتعجيل التكوّن، وفيه مناسبةٌ لإحياء ما كان هامدًا كما يُبعث البعير البارك بزجرة ينهض بها سريعًا؛ خوفًا من زاجره، وقد عبر عن

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72.

ذلك بالصيحة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: 42]، وهو الذي عبَّر عنه بالنفخ في الصور[1]، والزّجر صوتٌ، كما أنَّ الصيحة صوتٌ، لكنَّ صوت الزّجرِ مشوبٌ بالغضبِ والشدّة.

نكتة تنكير لفظ ﴿زَجۡرَةٞ﴾ ووصفها بواحدة:

صيحة زاجرةٌ عن البقاء في القبور تُحيل الموتى أحياءً

جاء التّعبير بصيغة مصدر المرّة ﴿زَجۡرَةٞ﴾؛ للدّلالة على أنّ زجرة واحدة كافية في إعادتهم للحساب، ووصفت الزّجرة بأنّها واحدة؛ لتأكيد ما في صيغة المرّة من معنى الوحدة، فالأمر لا يقتضي سوى صيحة واحدة لا أكثر، ينهضون بعدها من قبورهم للحساب والجزاء، ولا يسعهم التّردّد أو التّأخّر[2]، وفي التّنكير تفخيمٌ لشأنها وتعظيم لأهوالها، فهي زجرةٌ واحدةٌ لا يعلم الخلق لها مثيلًا من قبل أو بعد.

دلالة الفاء الدّاخلة على (إذا):

الزّجرة تُحرّك الخلائق حركةً كونيّة فريدة

افتتح النّظم الجليل الجملة بالفاء الدّاخلة على (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ للدّلالة على أنّ النّفخة ستُسبّب مفاجأتهم بغاية السّرعة بإحيائهم وبعثهم من القبور، فالفاء دلّت على السّببيّة، وإذا دلّت على المفاجأة[3]، وفي ذلك بيانٌ لسرعةِ وقوعِ الزجرة وأثرها الكوني في الخلائق، فلا فاصل بين الزَّجرة وبين خروج الخلائق من القبور، وانسيابهم نحو السّاهرة.

بلاغة استعمال الضَّمير المنفصل:

إبراز مفاجأة الإحياء وتصوير الحاضرين

جاء المسند إليه ضميرَ غيبة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ ليدلَّ على المفاجأة والاهتمام بحال المنكرين للبعث، فهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 72.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 268.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 227.

يذكرهم على أنَّهم سيحضرون حضورًا مفاجئًا على وجه الأرض، وقد أُبرِز إبرازًا مستقلًّا يُشدّ الانتباه إليه، فيقوّي مشهدَ البعثِ حتّى كأنّ السّامع يراهم رأيَ العين.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ للإلصاق، فهم ملتصقون بالأرض، وقيل: ظرفية، أي: إذا نفخ حصلوا بالأرض أسرع شيء[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾:

من عبث في إنكار البعث وسهر طربًا؛ سيأتي مزجورًا مقهورًا

آثر النّظم الكريم التّعبير بالسّاهرة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، والمراد بها وجه الأرض وسطحها، والعرب تسمّي وجه الأرض من الفلاة ساهرة، أي: ذات سهر؛ لأنّ النّاس يسهرون فيها خوفًا منها لوحشتها[2]، وهي الأرض المستوية التي لا نبت فيها جعلها اللّه تعالى يوم القيامة لجمع النّاس وحشرهم للحساب[3]، وفيه تهكمٌ بالمنكرين للبعث؛ لأنّهم كانوا يستمتعون في الأرض، ويلهون سهرًا وطربًا، فذكر الوصف المذكِّر لعبثهم في إنكار البعث، أو لبيان أنَّ السّهر شديد وطويل.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرّجفة والزّلزلة:

الرّجفة أخصّ من الزلزلة، فهي زلزلة شديدة

الرّجفة هي الزّلزلة العظيمة، فيُقال: زلزلت الأَرْض زَلزَلَة خَفيفَة، ولا يُقال: رجفت الأرض إلّا إذا كانت قد زلزلت زَلْزَلَة شديدة[4]، وعبّر في الآية الكريمة بلفظ الرّجفة دون الزّلزلة؛ لبيان شدّة الزلزلة على ما يقتضيه السّياق في الرّدّ على إنكار المنكرين ببيان شدّة الهول وقوّة الزّلزلة.

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 449.
(2) الواحدي، البسيط: 23/ 184.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 73.
(4) العسكري، الفروق، ص: 301.

الوجيف والاضطراب:

الوجيف الاضطراب الشّديد والاضطراب أعمّ منه

الاضطراب: الحركة، واضطرب أمرُه: اختلَّ، والموج يضطرب، أي: يضرب بعضُه بعضًا[1]، واضْطَرَبَ: تَحَرَّكَ وماجَ، واضطَرَبَ البرقُ في السَّحابِ: تَحَرَّكَ[2]، أمّا الوجيف؛ فأصله يدلّ على خِفّة حركة الشّيء ومباعدته مقرّه[3]، ووجف الشّيء، أي: اضطرب[4]، والوَجْفُ: سُرْعَةُ السَّيْرِ[5]، فأخذ من السّرعة شدّة الاضطراب، قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، أي: مضطربة[6]، والمراد به في الآية الكريمة: خائفة، شديدة الاضطراب[7]، فعبّر في الآية بالوجيف؛ للدّلالة على شدّة الاضطراب.

نخرة وبالية:

النّخرة أخصّ من البلى، فهي ما بلي حتّى تجوّف

النّخير: صوت يخرج من المنخرين، والنّاخر: الذي تدخل فيه الرّيح، وتخرج منه، ولها نخير، والعظم النّخِر بليَ حتّى تجوّف، فتدخله الرّيح، ويكون لها عند ذلك نخرة، أي: صوت[8]، وقوله تعالى: ﴿كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾، أي: بالية، من قولهم: نخرت الشّجرة، أي: بليت حتّى سمع فيها نخير الرّيح، أي: صوتها[9]، فالنّخرة هي العظام البالية حتّى تجوّفت، وأصدرت الرّيح بمرّها خلالها صوت النّخير، وعبّر في الآية بلفظ النّخرة؛ لاستدلالهم بشدّة البلى على استحالة الإحياء على ما اعتقدوه من الباطل.

(1) الجوهري، الصحاح: (ضرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجف).
(4) الجوهري، الصحاح: (وجف).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (وجف).
(6) الراغب، المفردات: (وجف).
(7) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 195، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 449.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نخر).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (نخر).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ
طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن
تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠
فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ
أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات: 15 - 26]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذكر المكذبين المعاصرين إلى بيان مآل السّابقين

لمّا بيّنت الآيات السّابقة إنكار المكذبين بالبعث وتماديهم في الطّغيان والإنكار، وذكرت أهوال البعث والقيامة، وما يكون من خروج النّاس من قبورهم وحشرهم في الأرض؛ ناسب الانتقال إلى ذكر مثالٍ من أمثلة الكفر والتّكذيب والطُّغيان المعلوم لدى العرب، وما وقع له من العقاب الشديد؛ لتسلية النّبيّ ﷺ وتثبيته، فإنَّ شأنَ المكذّبين إلى اضمحلال، وحال الكافرين إلى بوار، فهو انتقالٌ من ذكر شأن المكذبين المعاصرين، إلى ذكر ما آل إليه حال المكذبين السّابقين، بغرضِ تثبيت المؤمنين وتبشيرهم بهلاك المكذِّبين وذهاب شوكتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾: (قدس) أصلٌ يدلُّ على الطُّهْرِ(1)، والقُدُس والقُدْس اسْمٌ ومَصْدَرٌ، ومِنْهُ قيلَ للجنَّة: حَضيرة القُدُس، والتَّقْديس: التَّطْهير والتَّبْريك(2)، والتَّقْديسُ: التّطهير الإلهيّ المذكور في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]، دون التّطهير الذي هو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قدس).

إزالة النّجاسة المحسوسة، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]، أي: نطهّر الأشياء ارتسامًا لك، ونَصِفُكَ بالتّقديس، والبيتُ المُقَدَّسُ هو المطهّر من الشّرك[1]، والمراد به في الآية الكريمة: المطهّر[2].

2) ﴿طُوًى﴾: (طوي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِدْراجِ شَيْءٍ حَتَّى يُدْرَجَ بَعْضُهُ في بَعْضٍ[3]، طَوَيْتُ الصَّحيفةَ أطويها طيًّا، فالطّيّ: المصدر، وطَوَيْتها طَيَّةً واحدة، أي: مرةً واحدة، ويُقال: طوى الله لك البُعدَ، أي: قرّبه[4]، وقوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٢﴾ [طه: 12] اسمُ الوادي، وهو مذكَّر[5]، وهو موضع بالشام، يصرف، ولا يصرف، فمن صرفه؛ جعله اسم وادٍ، وجعله نكرة، ومَن لم يصرفه؛ جعله اسم بلدة وبقعة وجعله معرفة، وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ طوى مرّتين، أي: قدس، أي: ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين[6]، فجعل ذلك إشارة إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء، فكأنّه طَوَى عليه مسافةً لو احتاج أن ينالها في الاجتهاد؛ لبعُد عليه[7]، والمراد به في الآية الكريمة: طوى بالبركة والتّقديس مرّتين، أو هو اسم الوادي، أو الأرض التي بين المدينة ومصر[8].

3) ﴿نَكَالَ﴾: (نكل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْعٍ وامتِناع، وأصل ذلك النِّكل: القيد، وجمعه أنكال؛ لأنّه ينكل، أي: يمنع[9]، والنِّكلُ: ضرب من اللُّجم والقيود، ونَكَلَ عن اليمين: حاد عنه، والنُّكول عن اليمين: الامتناع منها، والنَّكالُ: اسمٌ لما جعلته نَكالًا لغيره؛ إذا بلغه، أو رآه خاف أن يعمل عمله[10]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ [المزمل: 12]، أي: قيودًا؛ لأنّ القيد يمنع من المشي، ومنه: نكَّلت به، أي: فعلت به فعلًا يمنع غيره من الوقوع في فعله، والنِّكل: اللّجام الثقيل؛ لأنّه يمنع الدّابّة من الجماح[11].

---

(1) الراغب، المفردات: (قدس).
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوى).
(4) الخليل، العين: (طوى).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (طوى).
(6) الجوهري، الصحاح: (طوى).
(7) الراغب، المفردات: (طوى).
(8) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 149.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكل).
(10) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (نكل).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (نكل).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

خلاصة قصّة موسى مع فرعون بغرض الاعتبار والخشية

تُبيِّن الآيات الكريمة ما يقوله الله تعالى لنبيِّه ﷺ: هل أتاك أيّها الرّسول خبر موسى مع فرعون؟ وقت ناداه ربّه بالوادي المطهَّر المبارك الذي اسمه طوى، فكلّفه بالذّهاب إلى فرعون؛ لأنّه قد أفرط في العصيان، فقل له: أتودُّ أن تطهِّر نفسك، وتتزّكى من النّقائص والمعاصي، وأُرشدك إلى طاعة ربّك، فتخشاه، وتتقيه؟ فأظهر موسى ما معه من براهين لصدقه وآيات لنبوّته، حتّى أراه العلامة العظمى: العصا واليد، فكذّب فرعون كلَّ ذلك، وعصى ربّه ﷻ، ثم ولَّى عن الإيمان مجتهدًا في معارضة موسى، فجمع أهل مملكته، وناداهم، فقال: أنا ربّكم الذي لا ربَّ فوقه، فانتقم الله منه بالعذاب في الدّنيا والآخرة، وجعله عبرة لأمثاله من المتمرّدين؛ إنّ في قصّة موسى وفرعون وما نزل به من العذاب لموعظةً لِمَنْ شأنُه أن يخشى الله سبحانه فيتّعظَ، وينزجرَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآيات:

كما الانقطاع لا ينفي الارتباط والتناسب

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف ابتدائيّ، سيق تسليةً للنّبيّ ﷺ على تكذيب قومه، بأن يُصيبَهم مثلُ ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم[2]، والاستئناف كمال انقطاع عن السّابق، وهو ما لا يمنع من وجود ترابطٍ وتناسبٍ بين الآيات، كما سبق بيانه في المناسبات.

غرض الاستفهام ودلالته:

الاستفهام يُنادي على المعاني بتشويق سامع المباني

آثر النّظم الكريم التعبير بأسلوب الاستفهام دون الخبر المباشر في قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لتقرير وقوعه وتأكيد

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 85، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 583 - 584.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 78.

إتيانه، فهو استفهام عن أمر عظيم محقّق الوقوع[1]، وفيه حثّ على التّدبّر والتّأمّل والاعتبار، وأفاد تقرير التّسلية للنّبي ﷺ[2]، وأفاد أيضًا تشويق السّامع إلى الخبر، وليس القصد منه استعلام المخاطب عن سابق علمه بذلك الخبر، ولا يُنتظَر منه جواب، فالمراد بيان أهمّيّة الخبر بحيث إنّه ممّا يتساءل النّاس عن علمه[3].

بلاغة الاستعارة في لفظي الإتيان، والحديث:

الاستعارة تقريبٌ للمعاني بتشخيصها وبيان ألفاظها

استعمل النّظم الكريم لفظ الإتيان في قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على حصول العلم وتحقيقه، بتشبيه حصول العلم لدى المخاطَب، بإتيان أمرٍ له على طريقة الاستعارة التّصريحية التبعية، فشبّه المعقول بالمحسوس؛ لتثبيت دلالة اللفظ.

وفي لفظ ﴿حَدِيثُ﴾ أيضًا استعارة مكنية أصلية؛ إذ شبّه الحديث بأنَّه إنسان أثبت له الإتيان، فذكر المشبّه، وحذف المشبه به، وهو الإنسان، وأبقى لازمة من لوازمه، وهو الإتيان[4].

بلاغة التَّعبير بمفردة الحديث دون الخبر:

قصّة موسى حديث الثبات للأثبات، والاعتبار عند أهل الأبصار

آثر النّظم الكريم التّعبير بالحديث في قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ دون لفظ الخبر؛ للدّلالة على أنّه خبر يتجدّد، وأنّ قصّة موسى تتكرّر؛ لتسلية النّبيّ ﷺ، وتجديد حثّ قومه على التّصديق[5]، وللإيماءِ إلى أنّه حديثٌ يجب أن يكون حديثَ الثبات للأثبات، والاعتبار عند أهل الأبصار.

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

يوم التّجلّي وزمانه مقدّس عظيم

عبّر النّظم الجليل بظرف الزّمان ﴿إِذۡ﴾، في قوله جلّ شأنه:

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 228 - 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 73 - 74.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 74.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 229.

﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾؛ للدّلالة على الزّمان الماضي، والمراد التّنبيه على زمان مناداة الله تعالى لموسى عليه السلام، أي: هل أتاك خبر زمان نادى فيه موسى ربُّه[1].

دلالة التَّعبير بالنِّداء مادّة وصيغة:

عبّر النّظم الجليل بلفظ النّداء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾؛ للدّلالة على وقوع الصّوت الذي سمعه موسى، فالنّداء هو الصّوت ورفعه[2]، فهو صوتٌ عالٍ يوقظ الغافل، ويُنبه السّاهي، وهو نداءٌ من ورائه دعوةٌ لتُجاب، وأمرٌ ليُجيب، وجاء التّعبير بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقّق وقوعه وتأكيد حصوله.

الـنّـداء صـوتٌ عـالٍ مـن ورائـه دعوةٌ لتُجاب

غرض التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾؛ للدّلالة على أنّه قد أتمّ عليه الإحسان قبل النّداء، فهو المحسن إليه بإيجاده وتقريبه وتدبيره أمر إرساله[3]، وللدلالة على حلول مقتضيات الربوبية من العناية والرعاية في شأنِ موسى عليه السلام تصريحًا، وشأنِ النبي صلى الله عليه وسلم تلميحًا، فهو من كمال التّسلية للنّبيّ صلى الله عليه وسلم.

لطائف الإحسان سابقة، ونعم الرحمن لاحقة

نكتة إضافة لفظ الربوبية إلى الضمير:

أُضيف لفظ الربوبية إلى الضمير ﴿رَبُّهُۥ﴾؛ لتشريف موسى عليه السلام، وتفخيم شأنه، وبيان أنَّه ربُّ كلِّ الرسل والأنبياء.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ للإلصاق، فدلّ على تمكُّن النّداء والوحي من الوادي الذي وقع فيه

حلّت بركة النّداء في الوادي حتّى صار وعاء لها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 74 - 75.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 79.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 229.

وحلول البركة فيه، وفيه معنى الظّرفية؛ إذ الالتصاق بالوادي إنّما يكون فيه، فلا يتحقَّق الأمر، ولا يثبت لأهله إلّا في الوادي.

نكتة استعمال لفظ الوادي:

القرب من الله يكون في وادٍ سحيق وفي جبلٍ شاهق

عبّر النّظم الجليل بلفظ الوادي في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فضلًا عن أنّه وصفٌ للواقع الذي كان، فللدّلالة على الموضع المنخفض بين جبلين الذي يسيل فيه الماء لانخفاضه[1]، فكما أنّ الوادي يسير فيه الماء حال نزوله؛ ليروي الكلأ والنّاس فكذلك الوحي الذي نزل على موسى يأتي بالحياة والخير للنّاس، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ صعود الجبال ليس هو الذي يُقرِّب العبد من ربِّه، بقدر ما أنّها الخلوات، سواءٌ أكان في جوف جبل أم في جبِّ وادٍ سحيق.

نكتة وصف الوادي بالمقدّس:

اجتماع النداء العظيم والوحي الكريم في وادٍ يُكسبه القداسة والكرامة

وصف النّظم الجليل الوادي بأنّه مقدّس في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾؛ للدّلالة على أنّه مطهّر مبارك مشرّف، وجاء التّعبير بصيغة المفعول على وزن (المفعَّل)؛ للدّلالة على غاية التّطهير والمبالغة فيه؛ لتشرّفه بإنزال النّبوّة فيه[2]، ووقوع النّداء فيه، وتكليم اللّه لموسى ، فاجتمع لهذه الوادي النداء العظيم، والوحي الكريم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿طُوًى﴾:

مكان الوحي ينطوي على خير وبركة عظام

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿طُوًى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وهو اسم الوادي الذي وقع فيه الوحي لموسى على الأصحّ[3]، فهو اسم مكان، ولعلّه سمّي بذلك؛ لأنّه

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 229.
(3) الإيجي، جامع البيان: 4/ 439.

يشبه البئر المطوية، وهو وادٍ في جانب جبل الطور في برية سيناء في جانبه الغربي[1]، أو فيه إشارة إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء، فكأنّه طَوَى عليه مسافةً لو احتاج أن ينالها في الاجتهاد؛ لبعُد عليه[2] بحسب ما مرّ في شرح المفردات.

علّة فصل الجملة:

جملة: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ لبيان النّداء السابق ذكره وتفسيره، وبيان مضمونه، أي: ناداه نداءً، هو قوله: اذهب[3].

غرض الأمر:

الأمر ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ للدّلالة على التّكليف ووجوب الذّهاب إلى فرعون وتبليغه الدّعوة.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها:

أين المبدأ من المنتهى وما ألطف النداء وأعظم التّكليف

جاء استعمال حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّالّ على انتهاء الغاية في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ الدّعوة مقصود بها أن تبلغ إلى فرعون أصالة ولقومه تبعًا، ولبيان أنّ مبدأ الذّهاب هو الوادي المقدس، الذي نودي فيه موسى عليه السلام، ونهايته فرعون، وما أعظم البداية وأشد النهاية! لكنّ التكليف إن نزل؛ فلا اعتراض، بل هو الامتثال.

علّة فصل الجملة:

عند اشتداد المحن تقترب المنح

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا تعليليًّا، سيقت لتعليل الأمر بالذّهاب إلى فرعون[4]، فدعوة الطّاغية تقيم الحجّة عليه، وهو الذي يُفسِّر سببَ الأمر بالذّهاب، وهو طغيان فرعون وتجاوزه حدَّه، وافتراؤه على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 75.
(2) الراغب، المفردات: (طوى).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 230، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 80.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 99.

قومِه، فشدّة الطغيان سبب الخلاص، وما اشتدَّ أمر الظالمين، إلّا قربت نهايتهم.

نكتة توكيد الجملة بإنّ:

تأكيد الطّغيان ملزم بامتثال التّكليف

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ للدّلالة على الاهتمام بمضمون الخبر الذي سيق للتّعليل[1]، ولتأكيد أنّ طغيانه واقع على وجه اليقين فيكون الامتثال للأمر بالذّهاب إليه ألزم.

بلاغة التَّعبير بالطّغيان مادّة وصيغة:

ادّعاء الألوهيّة مجاوزة لحدّ العبوديّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالطّغيان في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه قد أسرف، وتجاوز ما تقتضيه العبودية، فادّعى لنفسه الألوهيّة[2]، وجاء التّعبير بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقّق طغيانه ورسوخه، ولبيانِ أنّه طغيان اتّصف به فرعون باعتبار ما تقلّده من الحكم، واستطاع أن يُجريه على قومه، وأن يُرغمهم عليه.

نوع الفاء ودلالتها:

بعد تحقُّق الذّهاب يقع التّبليغ

عطف النّظم الجليل الأمر بالقول على الأمر بالذّهاب بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ تبليغ القول يأتي بعد الذّهاب، ويتسبّب عنه[3]، فهو أمرٌ جاء في عقب آخر.

سرُّ إيثار التَّعبير بالقول:

حسن القول أدعى لحسن الاستجابة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالقول في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ المراد تبليغ الدّعوة والجهر بها قولًا ولفظًا مع لين في الخطاب ولطف في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 75.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 482.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 230.

الدّعوة[1]، ولم يُراعِ النّظم الكريم ذكر فعل القول قبل قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ وذلك لأنَّه سردٌ للحديث، وهو معلومٌ بالبديهة، ولا نكتة من وراء ذكره.

غرض الاستفهام ودلالته:

الاستفهام من أقوى أساليب استثارة المدعو

عبّر النّظم الجليل بالاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، وهو هنا مستعمل مجازًا؛ للدّلالة على العرض والتّرغيب[2]، والقائل هنا لا ينتظر جوابًا، بل يطرح الأمر بين يدي مخاطَبه؛ ليُحركه في الحوار، وليقع الاتصال بين الدّاعي والمدعو، والاستفهام من أقوى أساليب تحريك المخالف الذي تحسن معه المبادرة.

معنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ ودلالتها:

العرض والتّلطّفُ والترغيب من لوازم الدعوة والتحبيب

دلَّ استعمال حرف ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ على أنّ مقصود الدّعوة هو التّزكية والتّحلّي بالفضائل[3]، فمعنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ الدعوة إلى الشيء، أو العرض، يقال: هل لك إلى كذا؟ وهل لك في كذا؟ وهو كلام يقصد منه العرض بقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل؟ وقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ﴾ تركيبٌ جرى مجرى المثل، فلا يُغيّر عن هذا التركيب؛ لأنه قُصد به الإيجاز والتقدير: هل لك مَيْلٌ؟ فحذف (مَيْل)؛ لدلالة (إلى) عليه[4]، وفي هذا تلطّفٌ في الدعوة؛ إذ لم يقل له: زكِّ نفسك - بصيغة الأمر - وإنما تلطف في الأسلوب، فقال له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ﴾ يعني: أدعوك، وأعرض عليك ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾.

نكتة التَّعبير بالمصدر المؤوّل دون الصّريح:

دعوة إلى الشّروع بمدارج التَّزكيَة

عبّر النّظم الجليل بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾، في قوله جلّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 76.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 230.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 76.

شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ لأنّ التّحلّي بالفضائل والتّطهّر من الرّذائل يحوج إلى زمان، ويدلُّ كذلك على أنّ المقصود تحقّق التّزكية، ولو بأدنى رتبة[1]، فجمع المصدر المؤول بين الحدث وزمانه، مع الإيماء إلى تحقّقه في المستقبل، أي: هل ترغب في أن تُزكّي نفسَك في الزمن القابل؟.

بلاغة استعمال مفردة التّزكية:

الدّعـوة إلى الإطار العام حكمة يتدرّج فيها الدّاعي قبل النّهي الخاص

عبّر النّظم الجليل بفعل التّزكية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، وأصله: تتزكى بتاءين، وهو مضارع مطاوع للفعل (زكّاه)، وهو دالّ على الزّيادة والنّماء، فحثّه على تخليص نفسه من العقيدة الضّالّة، والإقبال على ما به زيادة الخير[2]، فدلّ على أنّ قبول الدّعوة يدلّ على الدّخول في طهارة الإيمان[3]، وأتى بلفظ التزكية لما فيها من قبولٍ فطري، قبل أن يعرض له التّوحيد ونبذ الكفر والطغيان، ونكتة ذلك تحقيق الحكمة في الدّعوة، في استدراج الخصم الألدّ إلى ما فيه خير عام، ثم إلى ما فيه ترك للشرِّ العام.

نكتة التعبير بفعل التزكية مضارعًا:

التّعبير بصيغة الفعل المضارع ﴿تَزَكَّىٰ﴾ على وزن (تتفعّل) دالّ على تدرّج وقوع التّزكية حالًا بعد حال على وجه الدّوام والاستمرار.

نوع الواو ودلالتها:

التّزكية أول طريق القبول ومبدأ مدارج المريدين

عطف النّظم الجليل الهداية على التّزكية، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ إعداد النّفس للتّزكية يتبعه الإرشاد لكمال الهداية، فكان ترتيب الجمل في الذكر مراعًى فيه ترتّبها في الحصول، فلذلك لم يعطف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 77.
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 149.

بالفاء[1]، فالتّزكية من الأدران هو الخطوة الأولى في طريق القبول، فإن حصلت تُؤمِّل فيما بعدها.

بلاغة التَّعبير بمفردة الهداية مادّة وصيغة:

جمع لفظ الهداية معنى الإرشاد والإيماء إلى الميل عن الباطل

عبّر النّظم الجليل بلفظ الهداية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على الإرشاد، أي: أدلّك، وأرشدك إلى معرفة ربّك ﷻ، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه[2]، فطريق الإيمان يتضمّن القدوة والدّليل والمعلّم والمربّي الذي يرشد السّالك لما فيه الهدى، وجاء التّعبير بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ الهداية إلى الخير فعل يتجدّد، فجمع لفظ الهداية الإرشاد، مع الميل عن طريق الباطل الذي عليه فرعون، والميل أصل لغوي في مفردة الهداية، وهذا من حكمة الدّعوة، الإيماء إلى الباطل الذي عليه المدعوّ، دون التصريح به، أو المواجهة بحقيقته.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها:

نهاية الأماني نيل رضا المولى تعالى

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ غاية الهداية ومنتهاها الوصول إلى حضرة المولى تعالى ونيل رضاه، أي: أهديك إلى كيفيّة المسير إلى موجدك والمحسن إليك[3].

فائدة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيّة:

تذكير الجاحد بنعم المحسن سبيل المجاهدين

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ إشارة إلى إحسانه تعالى على العباد، وتذكيرًا لفرعون بكونه إنّما يتنعّم بنعم اللّه تعالى التي أحسن بها إليه، أي: وأدلّك على المحسن إليك[4]، ولما في هذا اللفظ من

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 77.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 99، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 231.

(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 479.

الإشعار بأنَّ فرعون مربوبٌ لربٍّ عظيم، عليه أن يبحث عنه؛ ليشكره ويعبده دون سواه، مع التّعريض بما اعتقده لنفسه، وأقرَّ النّاس عليه ظلمًا وطغيانًا.

نوع الفاء ودلالتها:

الهداية أصل الخشية وشرطها الأصيل

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، وهي هنا للتّفريع؛ وذلك إشارة إلى أنّ الخشية لا تكون إلّا بالمعرفة[1]، وهي دالّة على التّرتيب والسّببيّة، فالخشية مترتّبة على الهداية مسبّبة عنها[2]، فلن تحصل الخشية، ويتحقق المراد منها ما لم تتحقّق الهداية في قلب المخاطَب، "وجعل الخشية غاية للهداية؛ لأنّها ملاك الأمر، مَن خشي اللّه تعالى أتى منه كل خير، ومَن أمن؛ اجترأ على كل شر"[3].

فائدة التّعبير بمفردة ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾:

الإغراء بتحصيل خشية العلماء لا خوف العباد

عبّر النّظم الجليل بلفظ الخشية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ مَن يعرف اللّه تعالى؛ فإنّه يخشاه ويتّقيه، فالخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه[4]، وآثر النّظم التعبير بالخشية دون الخوف؛ للإشارة إلى أنَّ أصل المعرفة موجود عند فرعون، لكنّها معرفة مشوّهة بالجحود والطغيان والتّكذيب، فإذا ما حصلت الهداية عنده كانت الخشية بعد ذلك، أو للإغراء بتحصيل خشية العلماء دون خوف العباد، وهذا من حكمة الخطاب.

نكتة التعبير بالمضارع:

جاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 77.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 454.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 230.
(4) الراغب، المفردات: (خشى).

مَن عرف اللّه؛ فقد دامت خشيته له، وأنَّ المطلوب خشيةٌ دائمة لا خوفٌ عابر.

معرفة الله تعالى من أبلغ أسباب خشيته

نكتة حذف مفعول الفعل:

حذف النّظم الجليل المفعول به للفعل (خشي)، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، فلم يقل: فتخشاه؛ لأنّ المخشيَّ معلوم، كما يُقال: آمن فلان، أي: آمن باللّه ووحدانيته(1)، فخذفه تعويلًا للعلم به وطلبًا للإيجاز.

طيُّ الحدثِ كنشره لبيان سرعة الامتثال في تنفيذ أمر الديّان

معنى (الفاء) ودلالتها:

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي هنا فصيحة تنبئ عن محذوف، فهي تعطف على جمل قد طوي ذكرُها، وذلك تعويلًا على ذكرها في سور أخرى، فإنَّه جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون ما جرى من المحاورات إلى أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ [الأعراف: 106]، والتقدير: فذهب موسى إلى فرعون بأمره تعالى، فدعاه إلى التوحيد والطاعة، وطلب فرعون منه المعجزة الدالة على صدقه في دعوته، فأراه موسى المعجزة العظمى(2)، وهو انتقالٌ من بديع، من الإرشاد الإلهي، إلى الفعل الموسوي؛ لبيان أنّه بمجرّد ما أن أمره، امتثل لأمر ربّه، فكان طيُّ الحدثِ كنشره، فأوامر اللّه تعالى مع موسى عليه السلام، امتثال لا يتردّد فيه، وإنفاذ لا يضطرب فيه.

إذا ظهر البرهان؛ فإنكاره كفران

دلالة التَّعبير بلفظ الإراءة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل الرؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه قد أبصرها وعلمها، فلمّا أبصرها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 78.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 99، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 81.

وعرفها؛ ادّعى أنّها سحر كفرًا وكبرًا، وإظهارًا للتّجلّد[1]، فدلّ على أنّ الآية قد ظهرت حتّى رآها بعينه، فقامت عليه الحجّة أمام النّاس.

سرُّ إيثار التَّعبير بالآية:

إثبات صدق الرّسل حقيقٌ بالعلامة العظمى والحجّة البينة والمعجزة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالآية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي تدلّ على العلامة والأمارة، وتطلق أيضًا على الحجّة المثْبِتة، فهي علامة تدلّ على ثبوت الحقّ، وتطلق كذلك على معجزة الرّسل؛ لأنّها دليل على صدقهم، وهو المراد هنا[2]، فهي أشمل في الدّلالة على تنوّع الأدلّة والبراهين على صدق الرّسل، والآية هي العلامة الكبرى، والبرهان الأعظم، فكيف إذا وصفت بما يدلُّ على ذلك.

نكتة إفراد الآية ووصفها بالكبرى:

الآية علامة فخمة عظيمٌ شأنها

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الإفراد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ دون التّثنية؛ إذ المراد بالآية الكبرى اليد وقلب العصا[3]، ولم يثنّها؛ لأنّهما في حكم آية واحدة، وذلك لاتّحادهما في المعنى[4]، ووصفها بالكبرى؛ للدّلالة على أنّها علامة عظمى، وهي المعجزة[5]، أو من باب التّوكيد؛ إذ الآية علامة كبرى، فوصفها بالكبرى توكيد لذلك، وإثبات لفخامتها وعظيم شأنها.

معنى (الفاء) في ﴿فَكَذَّبَ﴾:

المبادرة إلى التّكذيب دليل عمى البصيرة وقسوة القلب

عطف النّظم الجليل التّكذيب على الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ بالفاء[6]؛ لبيان مبادرته بالتّكذيب بعد رؤية الآيات، وللدّلالة على شدّة عناده، فهو لمّا رأى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 99، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 78.
(3) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 436.
(4) القنوجي، فتح البيان: 15/ 62، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 429.
(5) الخطيب، السراج المنير: 4/ 479.
(6) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 430.

الآية؛ لم يتردّد، ولم يتمهّل، بل بادر إلى إعلان التّكذيب والعصيان[1]، وهذا من شديد كفره وعظيم عناده وكيده، فهو لا يقبل أيَّ تهديدٍ لوجودِه، ويبادر بالتّكذيب لإثبات حضوره.

نكتة عطف العصيان على التَّكذيب:

تكذيب الرّسالة يُفضي إلى معصية الله تعالى

عطف النّظم الجليل العصيان على التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه لمّا كذّب بأنّ الآية من الله تعالى؛ فإنّه قد عصى الله ونبيَّه، فلم يطعهما[2]، فتمرّد، وعصى الله ﷻ، بعد ما علم صحّة الأمر ووجوب الطّاعة[3].

نكتة حذف المفعول:

ذكر الأفعال دون مفاعيلها تنبيه على مقصود النّظم من إظهار معانيها

حذف النظم الكريم مفعولي ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؛ وذلك لوضوح المحذوف، وطلبًا للإيجاز، فالتّكذيب لموسى ﵇، والعصيان لربِّ العالمين، ونكتة ذلك توجيه الأنظار إلى الفعل لا إلى من وقع عليه، فالتّكذيب والعصيان سلوكان قبيحان، فإذا اتّصف بهما شخص؛ قبُح أمره، وشنع حاله.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها:

رتبة الإيغال في السّعي لصدّ النّاس عن دعوة ربّهم بعد رتبة التكذيب

عطف النّظم الجليل الإدبار على المعصية والتّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ للدّلالة على التّراخي الرّتبي، فأفادت أنّ الإدبار للسّعي لجمع النّاس أعلى رتبة من التّكذيب والمعصية، فقد ارتقى من التّكذيب والعصيان إلى ما هو أشدّ، وهو الإدبار والسّعي وادّعاء الإلهية لنفسه، والمعنى أنّه فكّر مليًّا، فلم يقتنع بالتّكذيب والعصيان، بل إنّه خشي أنّ سكوته على دعوة موسى ربّما يجعلها تنتشر بين النّاس، فسعى لصدّهم وتحذيرهم منها[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 78.
(2) الواحدي، البسيط: 23/ 188.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 100.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 79.

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ الإدبار:

الإعراض عن الإقبال على الدّعوة مذمّة قبيحة

عبّر النّظم الجليل بالإدبار في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدّلالة على ذمّه بأنّه كان حريًّا به أن يقبل على الإيمان بعدما أقبل عليه موسى عليه السلام للإرشاد، ولكنّه استدبر عن الإقبال، وأقبل على البغي والضّلال[1]، ففيه إشارة إلى الذّمّ وتقبيح الفعل، فهو يفعل شنائع الأمور، ويسلك فظائع السبل، ويقلب ما يجب فعله إلى ضده، ويعكس في المقاصد، فاجتمع له في هذا اللفظ من الذّمِّ الشيء العجيب.

دلالة التَّعبير بالسّعي مادّة وصيغة:

الاجتهاد الدّائم في إبطال الحق مهلكة لصاحبها

عبّر النّظم الجليل بالسّعي في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدّلالة على اجتهاده في مبارزة الحقّ[2]، فالسّعي يدلّ على الجدّ والاجتهاد في نشر الفساد ومعارضة الآيات[3]، وجاء التّعبير بالمضارع؛ للدّلالة على دوام سعيه واجتهاده، لإصراره على الكفر والعصيان.

فائدة (الفاء) ودلالتها:

الإيماء إلى اضطراب فرعون في فعله وخوف من الآية الكبرى

افتتح النّظم الجليل الجملة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، وهي هنا للعطف، فعطف الحشر على السّعي[4]، وهي دالّة على السّببيّة، أي: فتسبّب عن سعيه أنّه جمع السّحرة وجنوده[5]، ودلّت الفاء كذلك على أنّه كان سريعًا في سعيه، فلم يتأخر في الحشر والجمع، وهو ما يدلُّ على اضطرابه وخوفه ممّا أراه الكليم عليه السلام.

دلالة التَّعبير بمفردة الحشر مادّة وصيغة:

سَوق النّاس وجمعهم لإعلان الكفر على الجمع

عبّر النّظم الجليل بلفظ الحشر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾؛ لدلالته على الجمعِ مع السَّوق[6]، فدلّ على أنّه جمع النّاس

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 482.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909.

(3) الإيجي، جامع البيان: 4/ 440.

(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 430.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 232.

(6) الفيومي، المصباح المنير: (حشر).

من كلّ جهة[1]، وهو ما يومئ إلى القهر والجبر، والظلم والبغي، وجاء التّعبير بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقّقه وإنفاذ أمره.

معنى (الفاء) ودلالتها:

المبادرة بإعلان الكفر كناية عن شديد الفزع

عطف النّظم الجليل النّداء على الحشر بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه أعلن هذا القول فورَ حضورهم، وذلك لعظم حرصه على إبلاغ ذلك إليهم[2]، فالتّأخير ليس في صالحه، والحوار بين أفراد الرعيّة مجلبة لغضب الراعي؛ خوفًا من أن يقود إلى معرفة الحقّ، والاصطفاف وراءه، كما كان من السحرة.

فائدة التّعبير بلفظ النداء مادّة وصيغة:

رفع الصّوت ليقع الكلام في المسامع دون تضارب أو غموض

آثر النّظم الكريم التّعبير بالنّداء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه أعلن ذلك مع رفع صوته تعبيرًا عن شدّة حرصه[3]، وجاء التّعبير بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقّق وقوعه، فهو يُنادي بأعلى صوته؛ ليقع الكلام في المسامع دون اختلاط المعاني أو تداخل الألفاظ.

بلاغة المجاز العقلي:

إلى الآمر تنسب الأفعال

أسند النّظم الجليل الحشر والنّداء إلى فرعون في قوله جلّ شأنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ على طريقة المجاز العقلي؛ وذلك لأنّه لا يباشر بنفسه حشرهم ولا نداءهم، بل يأمر أتباعه وجنده، وإنّما أسند إليه؛ لأنّه هو الذي يأمر بذلك[4]، فهو مجاز عقلي علاقته السببية.

معنى (الفاء) في فعل القول:

عطف النّظم الكريم القول على النّداء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 150.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 80.
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 480.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 80.

﴿رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ بالفاء[1]؛ لبيان مضمون النّداء، أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ هذا القول[2].

فائدة الحصر ودلالته:

كاد المريب أن يقول خذوني

عبّر النّظم الجليل بأسلوب الحصر في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ بتعريف الطّرفين، وذلك لردّه على دعوة موسى[3]، أي: أنا ربّكم لا ربّ لكم سواي، وهذا من بديع نظم الكريم في بيان مقصود المتكلم بغير العربية، فهو يُترجم المعنى بأدقِّ الألفاظ الموصلة معنى القائل دون تغييرٍ لما قال، ودلَّ الحصر على أنَّه ينفي كلَّ دعوةٍ من شأنها هدم ما رفعه من أوهامٍ وأغاليط.

نكتة التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة:

رأس الطغيان ادّعاء القدرة على رزق النّاس ورعايتهم من دون الله

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ لأنّ ديانة المصريين في ذلك الزمن تعتقد بأن (آمون رع) هو الرّب الأعلى، وفرعون ابنه ادّعى لنفسه الرّبوبيّة كذلك[4]، فضلًا عن أنّ ذلك يتضمّن إشارة إلى أنّه المتحكّم بأمور معيشة قومه، كما قال: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف: 51]، فذِكر الربوبية وصفٌ للواقع وللقول الذي نطق به فرعون، ولبيان أنّه أقنع قومَه بذلك بما يُعطيهم من أسباب المعيشة، وأشكال الرزق.

نكتة وصفه بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

طغيان الباطل لا حدّ له وغباء الكاذب لا ثبات له

وصف النّظم الجليل الرّبّ بأنّه ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدَّلالة على نفي وجود ربّ سواه[5]، أي:

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 430.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 455.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 80.
(5) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 150.

لا ربّ فوقي ولا إله، وأنا وليّكم وقائدكم الأعلى[1]، كما حكى عنه قوله في القصص: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، والوصف للتخصيص، ونفي ما سواه، أي: على فرض وجود ربٍّ سواه فهو دون، فلا يُساويه، ولا يكون أعلى منه، وهذا يُبيِّن اضطرابه وانتكاسته.

نوع الفاء ودلالتها في فعل الأخذ:

عاقبة الطّغيان والجبروت عقاب ذي الجبروت

عطف النّظم الجليل فعل الأخذ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ على قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ بالفاء[2]، أو أنَّها مفرعة عن الجمل التي قبلها، أي: كان ما ذكر من تكذيبه وعصيانه وكيده سببًا لأن أخذه الله، وهذا هو المقصود من سوق القصة، وهو مناط موعظة المشركين وإنذارهم، مع تسلية النبي ﷺ وتثبيته، وهي دالّة على السّببيّة، فبيّنت أنّ العقوبة التي نزلت بفرعون كانت نتيجة لطغيانه واستعلائه وتكذيبه، فهي تربط بين الجريمة وعقابها ربطًا سببيًّا حتميًّا، فتُظهر أنّ الهلاك جاء على مقتضى سنّة ربانية ثابتة، وهي أنّ الطّغيان يعقبه الأخذ، وأيضًا فإنها تسوق العبرة للمشركين بأنّ عاقبة المكذّبين واحدة في كلّ زمان، وفي الوقت نفسه تسلية للرّسول ﷺ بأنّ نهايتهم آتية، كما كانت نهاية فرعون[3].

بلاغة استعمال مفردة الأخذ:

عقاب الله غالب متمكّن من المجرمين

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الأخذ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ دون (عاقبه)، وذلك لدلالته على التّناول الشديد المفاجئ، وحقيقة الأخذ التناول باليد ويُستعار

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 83.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 430.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 81.

للمقدرة والغلبة، أي: لم يُفلت من عقاب اللّه[1]، واختيار هذه المفردة دون مرادفاتها؛ لبيان شدّة الغضب الإلهيّ، وقوّة العقاب الرباني، فهو أخذ مفاجئ لا تهيئةَ قبله، ولا مفلت منه، ولا مهرب؛ إن وقع.

دلالة التعبير بصيغة الماضي:

الإيماء إلى بداية ذوق عذاب الآخرة

جاء التّعبير بصيغة الماضي (أخذه) مع أنَّ عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء، مراعى فيه أنه لمّا مات؛ ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته، التي سيؤول إليها يوم الجزاء، كما ورد في الحديث[2].

دلالة التّعبير بعنوان الألوهيّة:

أشدّ الأخذ وأبلغه ما كان من الجليل تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على قوّة الأخذ وشدّته، فهو اللّه تعالى الملك القدير القهّار[3]، فإنَّ الاسم الجليل يورِّث المهابة والقوّة، ويوحي بشدّة الغضب والقهر، فهو دالّ على المبالغة والعظم في شدة الأخذ.

بلاغة استعمال مفردة النّكال:

العذاب المُهين ما جُعل عبرةً للاحقين

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ النّكال في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على شدّة الأخذ، بحيث إنّه صار مثلًا يتقيّد به، ويتّعظُ به كلُّ من سمعه[4]، فأوقع فيه عذابًا يكون رادًّا لمن يراه، ويسمعه من أن يأتي مثلَ فعلِه[5]، والنكال: اسم مصدر نكّل به تنكيلًا، وهو مثل: السلام، بمعنى التسليم، وهو مشتق من النكول، وهو النكوص والهروب، وانتصب نكال على المفعولية المطلقة لفعل (أخذه) مبين لنوع الأخذ بنوعين منه؛ لأن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 82.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 482.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 235.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 100 - 101.

الأخذ يقع بأحوال كثيرة، وقد استعمل النكال في حقيقته ومجازه؛ لأنَّ ما حصل لفرعون في الدنيا هو نكال حقيقي، وما يصيبه في الآخرة أطلق عليه النكال؛ لأنَّه يشبه النكال في شدّة التعذيب، ولا يحصل به نكال يوم القيامة[1]، فأتى بمفردة النكال؛ لبيان أنَّ شدَّة العذاب جعلته عبرةً لمن بعده من النّاس، وهذا سرُّ إيراد قصّته؛ لتكون عبرةً للمشركين.

نوع إضافة النّكال للآخرة والأولى ودلالتها:

لكلّ دار ما يسوء من العذاب

إضافة النّكال للآخرة والأولى في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ بمعنى (في)، أي: عذابٌ في الأولى وآخر في الآخرة، فدلَّ على عذاب الآخرة بالنّار وعذاب الدّنيا بالغرق[2]، فإضافته إلى الدّارين باعتبار وقوعِ نفسِ الأخذِ فيهما، لا باعتبارِ أنَّ ما فيه من معنى منعِ الناس؛ بسبب الاعتبار حين السماع بالتنكيل يكونُ فيهما، فإن ذلكَ لا يتصورُ في الآخرةِ بل في الدُّنيا، فإن العقوبةَ الأخرويةَ تنكلُ من سمعَها، وتمنعُه من تعاطي ما يُؤدي إليها لا محالةَ[3].

نكتة تقديم الآخرة على الأولى:

التَّقديم باعتبار عِظَم الأمر لا أسبقيّته

قدّم النّظم الجليل لفظ الآخرة على الأولى في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾؛ للاهتمام بشأنها، وإشارة إلى أنّ عذابها أعظم[4]، وهي دار الخلود، فالتقديم ليس باعتبار الزمن، بل باعتبار عظم الأمر وشدّته، وأثره المستمر الدّائم، مع ما في ذلك من مراعاةٍ للاتساق الصوتي.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 81.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 84.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 101.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 235.

علّة فصل الجملة:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ لأنّها مستأنفة سيقت لبيان مضمون قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وما بعدها، فالآية فذلكة وبيان ما حصل في القصّة[1].

نكتة توالي المؤكّدات:

تنبيه أولي الألباب إلى بليغ الأنباء

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ وذلك لتنزيل السامعين منزلة من يُنكر ما فيها من المواعظ[2]، وللتّنبيه على كون الخبر جديرًا بأن يسمَع، فيتّعظ به، فإنّ تأكيد الأخبار والمعاني، من شأنه لفت الانتباه إلى ما في المعاني من بليغ الأنباء.

بلاغة استعمال حرف الظرفيّة:

قصص القرآن أوعيةُ الحكمة والعبرة

دلَّ حرف الظرفيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ على تضمّن القصّة العبرة والعظة، فشُبِّه اسم الإشارة العائد على مجمل القصة بظرفٍ فيه من العبر والمعاني والعظات ما يشفي غليل النّاظر المعتبر، وأنَّ النّاظر في الظرف سيستخرج منه العبرة ليزداد خشيةً من الله تعالى، ففي الحرف استعارة تبعية.

نكتة التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

علوُّ المكانةِ ووضوح المعنى وصدق الخبر ترسمان طريقَ العبرة

آثر النّظم الكريم استعمال اسم الإشارة الدّالّ على البعد في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ ليرجع إلى مجمل القصّة، والقصّة وإن كانت قريبةً؛ فحقّها الإشارة بالقرب، إلّا أنَّ المقصود جعلها في مكانةٍ عالية، وركن سامق، فهي لا تخفى على ناظر، ولا تغيب عن باصر، فضلًا عن أنَّ القصة جاءت في مواضع كثيرة في القرآن، وهي معهودة في تاريخ البشر عمومًا، وتاريخ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 83.

العرب خصوصًا؛ لقربهم من الحدث مكانيًّا وزمانيًّا، فالإشارة تتعدّى القصّة المذكورة في السورة، إلى القصة عمومًا، وهي كذلك تُشير إلى ضرورة الاعتبار بمثيلاتها من القصص.

نكتة تقديم شبه الجملة:

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ﴾؛ للاهتمام بموقع العبرة، وأنّه كامنٌ في المذكور لأصحاب العقول.

بلاغة استعمال مفردة العبرة:

العبرة هي التي تعبر بصاحبها من جانب الغفلة إلى جانب اليقظة

عبّر النّظم الجليل بلفظ العبرة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها، والمراد بها الموعظة التي توصل إلى كثير من المعارف[1]، ويُلحظ في العبرة أنّها تعبر بصاحبها من شقِّ الغفلةِ إلى شقِّ اليقظة، ومن جانب الجهل إلى جانب العلم، ومن طريق الضلال إلى طريق الهدى، فكل اعتبارٍ يقود بصاحبه إلى العبور.

غرض تنكير لفظ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾:

نُكِّر لفظ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ لتعظيمها، أي: فيها عبرة عظيمة[2]، وإنّما تظهر عظمة العبرة في آثارها ومآلاتها.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

في القصّة عبرةٌ لكلّ ذي خشية

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول (مَن) في قوله جلّ شأنه: ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ دون الاسم الظّاهر (الخاشي)، أو الاسم الموصول الأشهر (الذي)؛ وذلك للدّلالة على العموم، أي: كلّ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 82.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 101.

خشي اللّه تعالى؛ فهو يتّعظ بهذه القصّة، فكلّ مَن كان شأنه أن يخشى اللّه سبحانه ومعرفته، فإنّ العارف باللّه وشؤونه يخشى، فلا يتمرّد على اللّه، ولا على أنبيائه؛ خوفًا من نزول العذاب، والعاقل من وعظ بغيره[1].

بلاغة استعمال مفردة الخشية:

التّعريض بتارك الخشية أن تكون عاقبته كعاقبة فرعون

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الخشية في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾، وهي الخوف الذي يشوبه تعظيم[2]؛ للدّلالة على أنّ من يخشى اللّه تعالى هو الذي ينتفع بهذه الآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أنّ كل من تكبّر، وعصى، فقد استحقّ عقاب الدّنيا والآخرة[3]، ففي التعبير بالخشية بيانٌ للمقصودِ، وهي تحصيل الخوف الناشئ عن علم ومعرفة واعتبار، لا مطلق الخوف، ولمناسبة الخشية المذكورة سابقًا في قوله تعالى: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾، ففيها تعريض بمن لا يخشى أن تكون عاقبته كعاقبة فرعون الذي كفر دون أن يخشى، وفيها كذلك "تعريضٌ بالمشركين بأنهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا، كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه"[4].

نكتة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَخۡشَىٰٓ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على أنّ الخشية المعنيّة هي تلك التي تكون حاضرة على الدّوام، لا خشية عابرة.

نكتة حذف متعلّق فعل الخشية:

إطلاق الخشية لا ينصرف إلّا على الخشية من الجليل

حُذف متعلّق فعل ﴿يَخۡشَىٰٓ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 85.
(2) الراغب، المفردات: (خشى).
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 82.

﴿لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ وذلك للعلم بالمخشي منه، وهو اللّه تعالى، ولتنزيل فعل الخشية المتعدي منزلة اللازم بحيث لا تُطلق الخشية إلّا على الخشية من اللّه، فإذا وصف الإنسان بالخشية انصرف إلى أنّها الخشية من الجليل، لا من عموم الخلق.

بلاغة التَّذييل ودلالته:

التّعريض بالكفّار وأتباعهم بمصائر أكابر المجرمين

ذيّل النّظم الجليل القصّة بقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ للتّعريض بالكفرة من سادة قريش، فمثّلهم بفرعون، ومثّل الدّهماء من أتباعهم بالقوم الذين حشرهم فرعون، ونادى فيهم بالكفر[1]، وعزل من خشي الرحمن عن المشركين وأتباعهم، وهم المؤمنون باللّه تعالى، وبيانًا بأنّ من ترك الخشية من اللّه تعالى؛ فقد ركب متنَ الفجور، وآثر العقاب على نيل الخير وتحصيل الأجور.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّكال والعقاب:

النّكال أخصّ من العقاب، فهو عقاب يمنع النّاس عن الإتيان بمثله

النّكال أَصْله يَدُلُّ عَلَى مَنْعٍ[2]، والنّكالُ: اسم لما جعلته نَكالًا لغيره؛ إذا بلغه، أو رآه خاف أن يعمل عمله[3]، فالنّكال هو عذاب وعقاب يصير مثلًا يتقيّد به، ويتّعظُ كلُّ من سمعه[4]، أمّا العقاب؛ فأصله يدلّ على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره، وإنّما سمّيت العقوبة كذلك؛ لأنّها تكون آخرًا وثاني الذّنب[5]، يقال: عاقبتُ الرّجل: جزيته بما فعل سُوءًا، وأصل ذلك أنك جعلت ثمرة عمله تَعَقُّبَه، أي:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكل).
(3) الخليل، العين: (نكل).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 235.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

تلحقه لا يفوتها[1]، وعبّر في الآية بالنّكال؛ للدّلالة على أنّه عقابٌ بخصوصيّة أنّه يمنع غيره من إتيانه، فهو عقاب شديد، فأوقع فيه عذابًا يكون رادًّا لمن يراه، ويسمعه من أن يأتي مثلَ فعلِه[2].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 100 - 101.

المحتويات